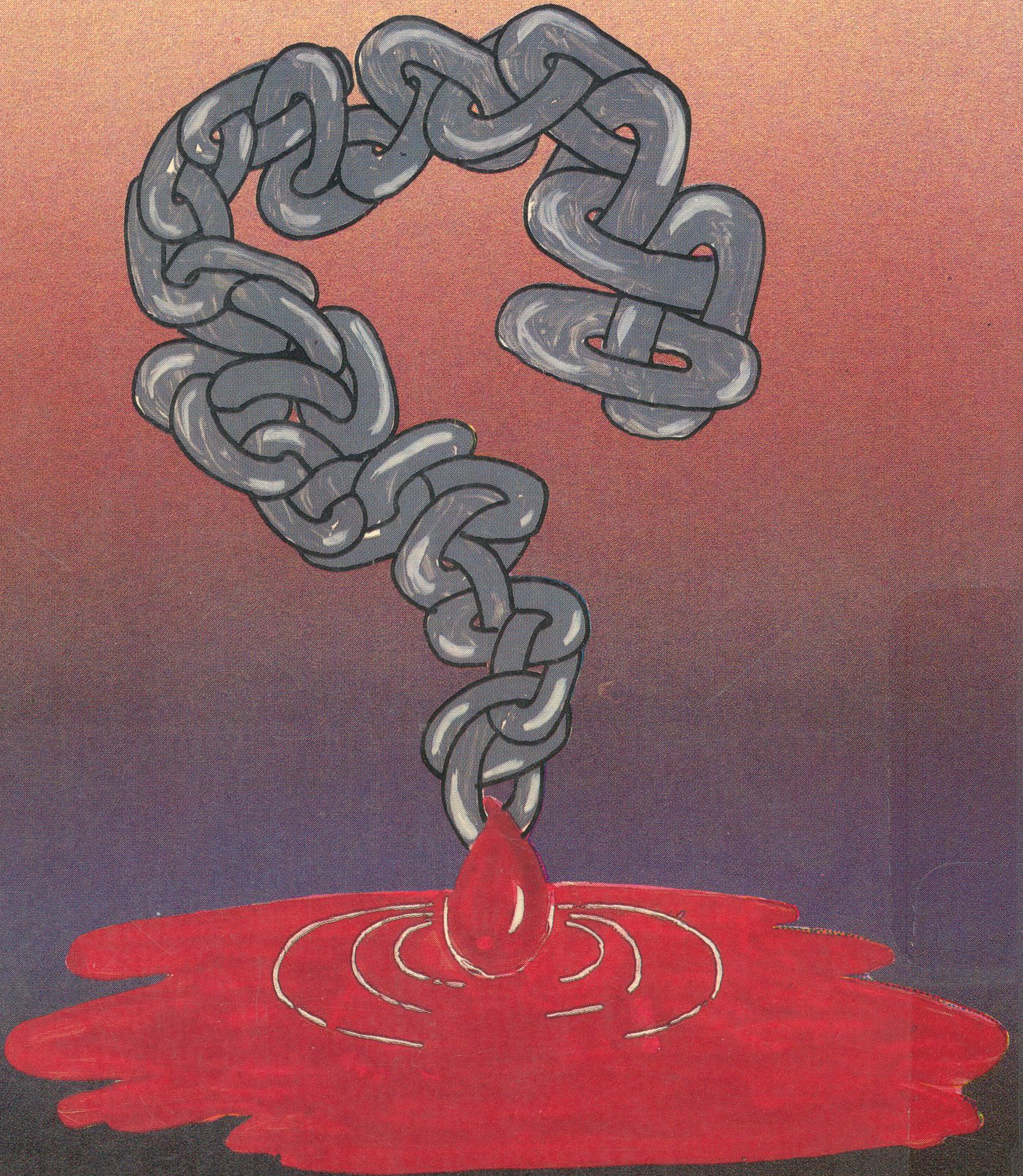
ناصر الدين النشاشيبي

لماذا وصلنا الى هنا ؟



بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا وصلنا إلى هنا؟

ناصر الدين النشاشيبي

الإهداء

".. إلى الطفل العربي الذي لم تلده أمه بعد،
فلم يرَ النور، ولم يشترك في الجريمة،
ولم يحمل وِزر العار الذي أصاب أهله
وأمته، وأوصلها الى هوان الحاضر الأليم.."

مقدمة

لم اقصد بهذه الفصول ان أجعل من نفسي حكماً وأجعل من غيري متهماً في عملية البحث عن اسباب ما أصاب العرب طيلة الاربعين سنة الماضية من هزائم ونكبات.

أسباب ضياع فلسطين. . ؟

وأسباب تفتت العرب. . ؟

وأسباب خراب لبنان. . ؟

وأسباب «ضياع» مصر. . ؟

وأسباب إهتراء السودان. . ؟

وأسباب الحروب التي لا معنى لها والمعارك التي لا مبرر لقيامها والمواقف التي لم تعد على الامة العربية الا بالويل والخسران، والأحاديث والشعارات التي لم تخدم أحداً الا اسرائيل وشعبها وحكامها، والجهل الذي استغله اعدأؤنا فاشعلوا ضدنا خمسة حروب وانتصروا فيها كلها! وكذلك: لم أقصد بهذه الفصول ان أجلس في كرسي المؤرخ الذي يفتش عن الوقائع والأحداث لكي يفسر بها الهزائم والنكبات، او يبحث عن الاسرار لكي يجعلها او يجعل منها النور الذي يكشف غموض المواقف، والسياسات.

وكذلك، ليس ماورد في فصول هذا الكتاب هو«كل» مايجب ان يقال او ينشر عن

جوهر المعنى الذي يتعلق باسم هذا الكتاب وعنوانه.

ان غيري أجدر مني في ان يصبح قاضياً يحاكم الذين اجرموا في حق تاريخ هذه الامة.

وغيري احق مني في ان يؤرخ اسباب الضربات التي اصابت الوطن العربي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى يومنا هذا..

وغيري أقدر مني على سد الفراغ والتفرغ الى تجنيد الكفاءات وتخصيص الأمكانيات ورصد الاموال وامتلاك الوقت المطلوب من أجل التصدي لكل الاسباب السياسية والمالية والتربوية والاقتصادية والحزبية والاقليمية والدينية التي ادت الى إفساد الثورات، وتشويه الشعارات، وضياع الارض، وتدمير الوطن، وتخريب الوحدة، والوصول بالأمة العربية كلها الى ما هو اسوأ من عصر الانحطاط الذي وصل اليه اجدادنا في دنيا الاندلس.

كل همي من وراء وضع هذه الفصول المتفرقة، المتباعدة، المستقلة، هو مجرد المحاولة للاجابة الجريئة المتواضعة على السؤال الصغير المتواضع:

ـ لماذا وصلنا ـ نحن العرب ـ الى هذا الزمن الرديء؟؟

تعالوا نقرأ الجواب..

اكتوبر
١٩٨٥

ناصر الدين النشاشيبي

الفصل الاول
من فرش السجّاد الاحمر لاسرائيل؟

● الملك حسين عاد من واشنطن يحمل صورة قاتمة وفي قلبه احزان الدنيا.

● «ان الثورة الفلسطينية هي اشرف ظاهرة في تاريخ العرب المعاصر...»

جمال عبد الناصر

● مناحيم بيغن شرح لريغان مفهومه لمعنى «الاعتدال السعودي».

● «صاحب اللقب الرفيع» قال بعد فشل قمة فاس:
ويل للمقاومة من أصدقائها!

الفصل الاول
من فرش السجّاد الاحمر لاسرائيل؟

عندما بدأت دبابات اسرائيل تزحف لاجتياز الخط الأخضر الذي يفصل بين بيروت الغربية وبيروت الشرقية تمهيدا للوصول الى معاقل الفدائيين المحاصرين داخل احيائهم ومعسكراتهم وخيامهم ليلة الجمعة في الخامس والعشرين من شهر حزيران (يونيو) عام ١٩٨٢ ، كان الملك فهد بن عبد العزيز يطلب البيت الابيض الاميركي ويقول للرئيس رونالد ريغان بالتلفون عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل وبالحرف الواحد:

هل هو مطلوب مني ان أذهب الى «مكة» وأخطب في المسجد الحرام وأقول للناس ان الطائرات الاميركية والصواريخ الاميركية والقنابل الاميركية هي السلاح الاسرائيلي الذي تغزو به اسرائيل لبنان وتقتل به الاف النساء والأطفال ؟ ان بلدي وشعبي لا يرضيان بما تفعله اسرائيل حاليا في بيروت. ان هذه المذابح يجب ان تقف فوراً ولايمكننا ان نسكت عنها بعد الآن. الناس تقول ان اسرائيل مستمرة في عدوانها لأن اميركا شريكة معها في هذا العدوان. انني يا سيادة الرئيس احملكم مسؤولية كل ما سيترتب على هذا الحال من نتائج. . . »

وبالطبع، اجاب رونالد ريغان بأنه سيجري اتصالاته مع مناحيم بيغن على الفور وانه يعد بوقف الهجمات والغارات على الفور. . ايضاً!

وبالفعل، ساد الهدوء عالم بيروت الغربية لمدة ساعات قليلة لم يلبث بعدها

اليهود ان عادوا الى محاولات زحفهم بالدبابات والمصفحات عبر الخط الاخضر، كما عادت طائراتهم تغير بالصواريخ والقنابل الفوسفورية والعنقودية على جميع دور الشاطىء الملتهب والأرض المتفجرة والناس الأبرياء!

ومرة أخرى تدخل الملك فهد..

وعندما قيل للملك ان الرئيس ريغان في تلك الساعة المتأخرة من الليل قد أوى الى فراشه ـ وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحا بتوقيت جرينتش، طلب الملك ان يتحدث مع جورج شولتز وزير الخارجية، الذي نهض من سريره مسرعاً لكي يستمع الى الملك السعودي يخبره بنبأ تفجر الموقف وعودة القتال والقصف، ويطلب منه ان ينقل الخبر الى الرئيس ريغان، ويطلب منه اعادة التدخل..

وقام الوزير الاميركي بأجراء اللازم، ووعدت اسرائيل بأن تلتزم بوقف اطلاق النار!

وبعد ساعات قليلة عاد القصف البحري والجوي والبري واشتعلت بيروت من جديد.

وصرخ المسؤولون السعوديون بصوت واحد: «ما هذا؟».

واستمرت اللعبة ـ لعبة الموت ـ وكأن العالم في سيرك مجنون اشتهر أصحابه بركوب الخطر بين أنياب الأسود، أو ألسنة الأفاعي، أو قفزات الموت في الهواء الخالي!

فقد استهترت اسرائيل بكل الضغوط وكل القرارات وكل الوعود! لقد كذبت وأفترت على كل الحلفاء وكل الأصدقاء! لقد مدت لسانها طويلا.. طويلا لكل اميركي مسؤول سواء كان رئيسا في البيت الأبيض أم وزيرا في الخارجية أم نائبا في الكونغرس! لقد استهانت بكل قوة عربية مهما كان شأنها، وتحدت كل مجتمع دولي وداست على كل القوانين وكل التقاليد، واستحلت دم الاطفال والشيوخ والنساء، واستعملت كل الاسلحة المحرمة من حارق وقاتل وناسف، وتمردت على الله، والانسانية والاخلاق وصاحت بكل الصلف والغرور في الدنيا: «انا هنا!».

فما هو سر ذلك؟

ما سر هذا المسلك الاسرائيلي العجيب الشاذ؟!

ما هو تفسير هذا الطوفان الهادر من الحقد الأعمى والكراهية المطلقة والاستخفاف المؤلم بنا، وبوجودنا وبالمعنى الانساني، البشري، البسيط، فينا؟

ولماذا استحال العرب ـ كلهم ـ في نظر اسرائيل الى مجموعة ذباب قد يسمع الواحد صوت طنينها ولكنه لا يخشى لها اثراً ولا يحسب لها بأسا؟

وبكلام موجز بسيط:

- ☐ لماذا وصلنا الى هنا؟
- ☐ ولماذا انحدرنا - في هذه المرحلة الصغيرة من عمر الزمن - الى هذه الهاوية المظلمة ودخلنا هذا النفق الطويل. . . الطويل ؟
- ☐ وما سر هذه المظاهر السلبية العاجزة المهينة التي بدت منا ، وعنا وفينا ، طيلة السنوات الماضية .

أليس من حقنا ـ كصحفيين ـ ان نردد مثل هذه الاسئلة الحائرة التي تفجرت كالنار والبارود على ألسنة الملايين من العرب والمسلمين، من ضحايا المأساة، ومن مشاهديها، ومن أصحابها، ومن تجارها. . ايضا؟

هذه الحلقات مخصصة كلها للجواب عن هذه الاسئلة المجنونة بكل صراحة وكل صدق.

وهدفها فقط، ارضاء الحقيقة، . . وارضاء التاريخ!

قابلت الملك حسين قبل ان يسافر الى واشنطن لكي يقابل رونالد ريغان في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩٨١ فطلب مني جلالته ان نؤجل الحديث في «أسرار السياسة» الى ما بعد عودته الى لندن بعد « . . ان أقابل ريغان وتصبح عندي فكرة واضحة عن حقيقة النوايا والقرارات الاميركية الرسمية تجاه قضايانا. . .» .

وذهب الملك الأردني الى اميركا وعاد الى لندن في طريقه الى بلاده. وحسب اتفاقي معه ذهبت لمقابلته في منزله الخاص بشارع السفارات في حي «كينزنجتون بلاس جاردن» في منتصف يوم الثامن عشر من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩٨١! وكان هذا ـ للتذكير ـ قبل ان ينعقد مؤتمر قمة «فاس» بأيام قليلة وبعد تاريخ المقابلة التي تمت بين الملك حسين والملك ـ الأمير يومذاك ـ فهد بن عبد

العزيز بأيام قليلة.

وقد رأيت الملك ـ يومذاك ـ شاحب اللون متعبا وكأنه خارج لتوه من مرض طويل الزمه الفراش لشهور طويلة. وكانت عضلات وجهه مشدودة ونظراته زائغة كما كان الكلام يخرج من فمه بصعوبة، وكان ـ وهذا هو المهم ـ يحس وكأنه يريد ان لا يتكلم مطلقا! ومن عادة الملك حسين انه اذا اراد ان يتجنب الكلام في مواضيع الساعة عمد الى الحديث عن اخبار الامس وقصص التاريخ المعاصر! وهكذا سمعته يعود بي للحديث عن «تجربته» الماضية مع اميركا ورئيسها الاسبق ليندون جونسون عقب نكسة العرب في حرب ١٩٦٧. وراح يحكي وكأنه يريد ان يبدأ القصة من اولها. فتركته يتكلم، لم اسأله. ولم اقاطعه. ولم استفزه. ولم احاوره. لقد بدأ الحديث كعادته. بعبارة «يا سيدي» واستمر يقول لي:

ـ لقد سمعت بنبأ مقتل انور السادات وانا في القصر بعمان. كان الخبر في بادىء الامر مشوشاً ثم عاد واتضحت تفاصيله من اذاعة القاهرة نفسها. واؤكد لك بأنني ـ رغم خلافاتي مع مصر ـ لم افرح ولم اغتبط، كما اشاع بعضهم ـ بل اني تكدرت وحزنت وقلت لمن حولي ان: «هذا ضحية اخرى من ضحايا فلسطين»، فانا رجل مسلم وعربي وهاشمي، ولي اخلاقي وشمائلي وتقاليدي والموت عبرة وعظة، ولكنه لم يكن يوما مصدر شماتة منا في احد. وعلى الفور بدأت افكر في المستقبل. وبدأت اسأل نفسي ماذا علي ان افعل؟ هل اقعد مكتوف اليدين وتستمر هذه القطيعة بيننا وبين مصر الى ما شاء الله ورغم وفاة السادات؟ اليس علينا ان نرتفع فوق جراحاتنا ونفتح صفحة جديدة نحاول من خلالها ان نفعل شيئا من اجل مواجهة اسرائيل واخطارها ومخططاتها؟ وعلى الفور امسكت ورقة وقلما وكتبت برقية الى «الاخ» حسني مبارك قلت له فيها انه بالرغم من زيارة السادات للقدس وخطابه في الكنيست ومهاونته للعدو في اتفاقية كامب دايفيد وما سبب لنا ذلك من آلام وما نتج عنه من فرقة بين العرب، الا اننا لا نملك في هذا الوقت العصيب سوى ان نؤيد مصر ـ الشقيقة ـ في مسعاها لاستعادة بقية ارضها بشرط ان لا تقيم مصر من نفسها مظلة فوق الحقوق الفلسطينية او ان تصبح جسراً تعبر منه اسرائيل الى البقاء الابدي في الضفة والقدس والقطاع! وقد اجاب السيد حسني مبارك على برقيتي برد

ديبلوماسي مؤدب اكد لي فيه «ان مصر قد وقعت اتفاقية كامب دايفيد انطلاقا من قناعتها الذاتية بأنها تقوم بخدمة لمصر وللعرب. . وان مصر سترسل لنا نسخاً من جميع التقارير ومحاضر الجلسات التي عقدتها مع الجانب الاسرائيلي والتي تؤكد التزام مصر بالحق الفلسطيني ودفاعها عن وجهة نظر الفلسطينيين. . كما تؤكد وجود الخلاف الواضح بين مصر واسرائيل حول مفهوم الحق الفلسطيني ومعنى الحكم الذاتي والحل العادل للقضية. .

وقال لي الملك حسين ايضاً:

ـ وقد اطلعت اخواني في السعودية وفي المنظمة وفي العراق وبعض دول الخليج على هذه الخطوة فباركوها. .

ثم قال:

ـ ولعلك تسألني عن سر اقدامي على مثل هذه الخطوة المفاجئة مع مصر بعد مقتل السادات. السر هو قلقي. والسر ايضا انني خائف ومتشائم وحزين. وقد سمعت ورأيت في زيارتي الاخيرة منذ يومين الى اميركا ما ضاعف من قلقي وحزني وتشاؤمي. لقد شاهدت بعيني وسمعت بأذني واحسست بكل اعصابي ان هناك فصولا دامية جديدة تنتظر العرب من فصول المأساة التي بدأت معنا في يونيو (حزيران) من عام ١٩٦٧. هل احدثك بسرعة ـ عن بعض معالم تلك الفصول كي اصل بك الى الحديث عن زيارتي الاخيرة هذا الاسبوع؟ . . »

وقال لي الملك حسين عن زيارته للقاهرة ومقابلته لجمال عبد الناصر قبل حرب يونيو بأيام معدودة:

ـ ذهبت الى مصر لكي اقف بجانبها. وليس معقولا ان اطالب العرب بمساعدتي في المحن وانا امتنع ان اساعدهم في ازماتهم. كانت مصر في «ورطة» ولم يكن معقولا ان اترك مصر في ورطتها حتى ولو كنت اعرف ان نتيجة تحالفي معها ستكون في ضياع الضفة واحتلال القدس! لقد كنت اعرف عن يقين ان اسرائيل تخطط لاحتلال الضفة الغربية سواء اشترك جيش الاردن في حرب ١٩٦٧ ام لم يشترك! كانت اسرائيل تنوي ان تفجر الموقف في داخل الضفة الغربية تمهيدا لاحتلالها. كانت المسألة مسألة وقت، ودخولي الحرب لم يكن اكثر من ذريعة سهلة تسلحت بها

اسرائيل كي تدخل . . وتضرب . . وتحتل! وقد قلت هذا الكلام لجمال عبد الناصر قبل وبعد ضياع الضفة. ولكننا ـ كذلك ـ كنا نعرف ان قوتنا العسكرية لم تكن في مستوى قوة اسرائيل. وعندما اجتمعنا في القاهرة لكي نبحث في موضوع تحويل مجاري نهر الاردن قال لنا خبراؤنا العسكريون ان قوة العرب العسكرية لاتسمح بدخول معركة ضد اسرائيل، وان علينا الانتظار لمدة ثلاث سنوات اخرى كاملة من التدريب والتسلح. وقد ادركت اسرائيل حقيقة اوضاعنا العسكرية فبادرت الى توجيه ضربتها الحاسمة الينا قبل عشرين شهرا من وصولنا الى الحالة التي قد نكون معها قد اكملنا تعبئة مواردنا واستعدادنا لمواجهتها. . . »

ثم قال لي الملك:

ـ وهكذا حلت الكارثة. وضاعت القدس والضفة وسيناء والجولان. وركبت الطائرة وسافرت الى واشنطن واجتمعت مطولا مع الرئيس ليندون جونسون ومستشاريه ووزرائه واتفقنا وبالتحديد على «. . ان يحل السلام بين الاردن واسرائيل مقابل ان تنسحب اسرائيل من كافة الارض الاردنية بما فيها القدس. وكان هذا بحضور وموافقة «غولدبرغ» مندوب اميركا في الامم المتحدة. كما ان كلامنا، وكلام الجانب الاميركي كان مسجلا بالحرف الواحد وموقعا عليه منا ومن جونسون. وبعد شهور خرج غولدبرغ من وظيفته، وخرج جونسون من البيت الابيض. وذهبنا الى واشنطن نطالب بتنفيذ ما اتفقنا معهم عليه فأنكروا كل شيء، وتجاهل البيت الابيض وجودنا وزعم «غولدبرغ» انه لايتذكر شيئا مما نطالب به ثم قيل لنا «بكل ادب» ان علينا ان ننتظر مجيء الادارة الاميركية الجديدة لكي تعمل على حل القضية بأسلوب جديد. !».

وقال لي الملك حسين:

ـ وهكذا دخلنا ـ او ادخلتنا اميركا ـ في دوامة البحث عن حل. وجاء «يارينغ» ثم اختفى. وبدأت سلسلة المفاجآت من «الاخ» انور السادات تنهمر فوق رؤوسنا كالمطر. دخل حرب ١٩٧٣ في مفاجأة. وفك الاشتباك مع اسرائيل في مفاجأة، وذهب الى القدس في مفاجأة. وسافر الى واشنطن ودخل في مفاوضات السلام في مفاجأة. وكان قبل ان يوقع على اتفاقية كامب دايفيد قد طلبني بالتلفون على منزلي

هذا بلندن، وقال لي من مكان اقامته في كامب دايفيد ان مسودة الاتفاقية لاترضي ضميره ولا تلبي الحق العربي وانه، لذلك، سيرفض التوقيع وسيضع مسؤولية فشل المفاوضات على اسرائيل. واجبته بأني سأسافر الى الرباط، واني اقترح عليه ان يمر على المغرب في طريق عودته الى مصر لكي نبحث معا في الخطوة المترتبة على فشل المفاوضات. واقترح السادات اسم الدكتور اشرف مروان ان يتصل بي ويعلمني تفاصيل اللقاء المقترح في الرباط. ولكن، لم تمض سوى ٤٨ ساعة حتى اعلن رسميا في كامب دايفيد ان الرئيس المصري قد وافق على مقترحات السلام مع اسرائيل وانه قد وضع امضاءه واسمه عليها! . . »

وسكت الملك قليلا قبل ان يقول لي:

ـ سأصل بك في الحديث الى اخبار رحلتي الاخيرة. لقد سافرت الى واشنطن بعد جولة قمت بها في دول الخليج ثم اقمت في لندن مدة يومين قبل سفري بقصد الالتقاء مع «الامير» فهد والتباحث معه حول المبادرة المنوي طرحها امام مؤتمر القمة بعد ايام. وعندما وصلت الى واشنطن احسست بأشباح كامب دايفيد تطاردني. لقد اصبحت هذه الاتفاقية الملعونة بمثابة كتاب مقدس عند الاميركيين! السلام يعني كامب دايفيد. والحرب تعني خرق كامب دايفيد! الآبار ياسيدي وجدتها مسممة، والاجواء ملوثة والعقول فارغة الا من اسطوانة كامب دايفيد! كيف استطيع ان اعمل في مثل هذا الجو الملعون؟ ريغان رجل صلب.. وعنيد.. ونزيه.. ولكنه اجهل الناس بابجديات قضية الشرق الاوسط! لقد قدمت له مذكرة تفصيلية عن القضية منذ اول مراحلها، وقمت بشرح المآسي والضربات التي عاناها العرب على يد اسرائيل منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم. وقد اجابني رونالد ريغان بمايلي: «ان اميركا لن ترسم سياستها تجاه الشرق الاوسط قبل ٢٦ نيسان من عام ١٩٨٢، اي بعد ان تكمل اسرائيل انسحابها من سيناء.» فأنتهزت الفرصة وقلت للرئيس ريغان ما اراه شخصيا في مناحيم بيغن وفي تفكيره السياسي. قلت لريغان ان اميركا كانت دائما تؤكد لنا بالرسائل السرية والاتصالات الخاصة ان اسرائيل «القوية» هي اسرائيل «المطمئنة» وبالتالي، فهي اسرائيل المسالمة الوديعة! ثم، كشفت لنا الايام ان اسرائيل القوية ليست سوى اسرائيل المعتدية. وان

اسرائيل بعد ان حصلت على السلاح الاميركي المطلوب عمدت الى ضرب بغداد وقصف بيروت، وتهديد السعودية ودول الخليج، والتلويح بعدم الانسحاب من بقية سيناء! قلت لرونالد ريغان انكم تقولون لنا ان مجيء مناحيم بيغن الى الحكم انما يعود الى اسباب محلية اسرائيلية لا علاقة لها بالصراع مع العرب. وان من بين هذه الاسباب تردي الوضع الاقتصادي في اسرائيل. فاذا بمجيء بيغن يرفع لواء التطرف الصهيوني ويمثل الاتجاه السياسي الحقيقي لاغلبية الشعب اليهودي ويؤكد لون الغطرسة والتعصب في السياسة الاسرائيلية الرسمية وينادي بالتوسع والاستيطان ومصادرة املاك العرب ومعاملتهم بالقهر والضغط من اجل ارغامهم على الرحيل، وان الظروف الداخلية في اسرائيل لاعلاقة لها بمجيء بيغن او ببقائه في الحكم، اذ انه يستمد قوته وشعبيته من شعب اصبح كله متطرفا، ومن احزاب يمينية صارت كلها تنادي بالتوسع والتحدي، ومن جيش تحول كله الى ضباط مغامرين يعبدون القوة ويتشوقون الى سفك الدماء. . . »

قال لي الملك حسين:

ـ وكان ريغان يستمع الى حديثي ويتبادل النظرات مع «الكسندر هيغ» وبعض مستشاريه! كان يبدو وكأنه يسمع مثل هذا الكلام لأول مرة! كان يردد كلمة «لماذا» وكلمة «هذا خطأ» ويكتب بعض الكلمات ويهز رأسه بأستمرار. لم استطع ان أسبر غوره. لم استطع ان أفهمه. لقد امتلأ قلبي بالقلق. . . »

واستطرد يقول لي:

ـ ويزيد الطين بلة ان نبقى كما نحن على خلافاتنا وصراعاتنا الداخلية وننسى العدو المتربص بنا. انا على خلاف مع سوريا لأسباب ثلاثة. اولها موقف سوريا من لبنان. نحن في الأردن مع استقلال لبنان ووحدة اراضيه وجلاء القوات «الأجنبية» عنه. نحن نقول الآن كما كنا نقول قبل ان يدخل الجيش السوري الى لبنان بأن مهمة سوريا في لبنان مقتصرة على وقف المذابح بين اللبنانيين واعادة السلام الى الأرض اللبنانية، ولكن سوريا تستغل وجودها في لبنان لكي تتحكم في الفلسطينيين وتتلاعب بمقدراتهم وتنفذ مشاريعها الخاصة. ثم هناك الموقف المطلوب مع مصر. نحن نعتقد ان مصر اخطأت بتوقيع اتفاقية كامب دايفيد،

ولكن مصر دولة عربية كبرى يجب ان نعود ونتعاون معها على المدى البعيد. وسوريا ترفض عودة مصر الى الصف العربي وتصر على ان نعامل مصر كما نعامل اسرائيل. ثم هناك الحرب العراقية الايرانية. نحن مع العراق وسوريا تصر - رغم كل الظروف - ان نقف مع ايران. نحن مع القومية العربية ومع خط الدفاع العربي الأول في وجه التوسع الفارسي بينما لا ترى سوريا في هذه الحرب سوى عداءها البعثي الحزبي الضيق للعراق. ان هذه الحرب محنة للعرب. انني أشعر بالحزن عندما أرى دولا عربية تؤيد ايران وتمدها بالسلاح كي تنتصر على دولة عربية شقيقة. كان الجيش المصري مشغولا في حرب اليمن عندما وقعت نكبة حرب ١٩٦٧. من يدري ماذا يخبىء لنا القدر والجيش العراقي مضطر لأن ينصرف الى مواجهة الجيش الفارسي واسرائيل تخطط لعدوان جديد..».

وعاد الملك حسين يقول لي:

- الموقف حالك السواد! وانا جد متشائم! وقد نجحت اسرائيل في ان تجعل من صراعها معنا صراعا اميركيا سوفياتيا بمعناه الدولي الشامل، وان تقيم من نفسها - على المستوى الاستراتيجي - وصياً وراعياً للمصالح الاميركية، فضمنت لجيشها أحدث السلاح الاميركي المطلوب، وضمنت لسياستها ومغامراتها تأييد الخارجية الاميركية ورجال الكونغرس.. ورغم أني لست شيوعيا - والكلام لا يحتاج الى برهان - وكذلك السعودية وكذلك معظم دول المنطقة، ورغم أننا لسنا ضد اميركا واننا مسلمون نعتز بقوميتنا وديننا الا ان الصوت الاسرائيلي في الولايات المتحدة قد طغى على اصواتنا، والوزن اليهودي قد غلب الوزن العربي، فلم يعد يكترث بنا أحد، ولم يعد يسمع صوتنا المهتز والمتعدد اللهجات والمواقف أحد، وبقيت اسرائيل وحدها في الساحة تضربنا - وستضربنا أكثر وأكثر - بأسم الدفاع عن اميركا، وتقهرنا بآلة الموت - وستقهرنا أكثر وأكثر - بحجة مقاومة الأرهاب الدولي ومصارعة الخطر الشيوعي. والمؤسف ان هذه الحيل قد انطلت على الرئيس ريغان، فأصبح الموقف الاسرائيلي جزءا من الموقف الاميركي، وأصبح الموقف الاميركي يبني خططه في مصر وسوريا ولبنان والخليج على أساس ما يخدم المصالح الاسرائيلية، واذا لم يتحرك العرب بما يشبه المعجزة فاننا سنشهد في لبنان المتفجر

وفي سوريا وفي الأردن أشياء وحوادث يشيب لها الولدان. . . »

ولأول مرة قاطعت الملك حسين لكي أسأله:

ـ هل ستنقل هذه الصورة المظلمة الى اخوانك الرؤساء والملوك في مؤتمر فاس بعد أيام؟

أجابني وهو يهز رأسه أسفاً ويشعل سيجارته العاشرة:

ـ انا رايح فاس لكي أشوف كيف سيتقبل الاخوان هناك مبادرة «الأمير» فهد. ومعلوماتي ان المزايدات قد بدأت لرفض هذه المبادرة. انا لست مستعدا أن أدخل المؤتمر لكي اشتبك في شتائم وخناقات مع سوريا التي ستنبري لرفض المبادرة السعودية بحجة الحرص على المصالح الفلسطينية. انا ـ كما قلت لك ـ لا أقبل ان يهددني أو يأمرني أحد. كذلك فأني لا أقبل ان يتعرض الاخوان في قيادة «المنظمة» الى التهديدات بقتلهم اذا لم يرفضوا مبادرة «الأمير» فهد! هذا شيء مخيف ومرفوض. ان استقلالية العمل الفلسطيني شرط أساسي من شروط بقاء القضية الفلسطينية على قيد الحياة. . . »

وقال الملك أخيرا:

ـ سمعت خلال رحلتي الأخيرة ان واشنطن تشعر بالقلق من جراء الأصرار الاسرائيلي على القيام بضرب لبنان وفرض حالة جديدة من الأمر الواقع على شعبه وارضه. وسمعت أيضا من خبراء اميركيين محترمين ان اسرائيل تملك من الأسلحة الاميركية الحديثة ما يكفيها لشن حرب تدوم ستة شهور كاملة دون ان تحتاج الى قطعة غيار واحدة من الخارج. وسمعت كذلك ان اللوبي اليهودي في اميركا قد اختار السعودية لكي تكون خلال الأيام القادمة الهدف المختار للتهجم والطعن والتشهير على سائر وسائل الاعلام العالمية تمهيدا «لقتل» مبادرة «الأمير» فهد في حالة اقرارها من مؤتمر القمة! أليس في هذا كله ما يدعو الى اليأس؟ قال لي «الأمير» فهد ان مبادرته ليست كتابا مقدسا وانه سيطرحها للبحث والمناقشة بحيث تقبل أي تعديل أو حذف او زيادة ترضي الجميع. وقد اعترضت على وجهة نظره، وقلت له ان المبادرة يجب طرحها كما هي، ويجب التمسك بها كما هي، فأما ان تقبل كلها أو ترفض كلها. قلت «للأمير» ان أي تعديل يقصد به ارضاء المتطرفين العرب سيجعل

من المبادرة موضع استخفاف وهزء من اميركا والعالم. ولكن «الأمير»- يهمه وحدة الصف العربي قبل ان يهمه نجاح المبادرة واقرارها. انا أقول لك بالحرف الواحد انه اذا رفض العرب مبادرة فهد اثلجوا قلب اميركا وطمأنوا اسرائيل. واذا - لا قدر الله - وفشل مؤتمر القمة بعد أيام فان احتمالات الغزو الاسرائيلي للبنان ستتحول الى قرارات تنتظر التنفيذ، انا أسأل نفسي واسألك يا سيدي، الى أين يمشي عرب هذه الأيام!؟ . . »

. . . وبعد أسبوعين عقد مؤتمر قمة فاس!

وبعد أسبوعين ويوم واحد، فشل مؤتمر قمة فاس.

واتصل بي مسؤول سعودي كبير من «الرياض» عشية فشل المؤتمر وقال لي بصوت يكاد يختنق من الألم:

- لو كنت رجلا اقليميا متعصبا لبلدي على حساب الاخرين، لكنت أول المصفقين لفشل مؤتمر فاس! ولو كنت رجلا بخيلا لا أريد لأموال بلدي ان تذهب للثورات والمجاعات والانقلابات في خارج حدود بلدي لكنت اليوم أسعد الناس! ولو كنت مسؤولا جبانا يهرب من معارك الرأي ويتجنب الاصطدامات مع الآخرين ولا يدافع عن وجهة نظره التي يؤمن بصحتها وسموها لكنت اليوم في قمة الفرح. ولو كنت حاكما مسالما لا أريد أن أغضب اميركا واتحاشى التحديات ومصارعة الثيران لكنت اليوم في غاية النشوة. ولكني العربي المسلم الذي يؤمن بأن أموال بلدي هي أموال كل عربي، وان سياسة بلدي هي الصدى لآمال كل مسلم، وان الحياة بلا معارك رأي هـي حياة كالموت، وان القدس هي توأم مكة والمدينة. لذا أكاد اليوم يا أخي احترق ألماً وحسرة. . . »

واستطرد المسؤول السعودي الكبير الذي يتمتع باللقب الرفيع والذكاء المتوقد وقال لي:

- هناك من وجد في فشل مؤتمر فاس مخرجا للسعودية يحللها من كافة التزاماتها تجاه القضية الفلسطينية! وقد بلغت فرحة هؤلاء الناس بفشل المؤتمر حداً لا يوصف! ولكني لست منهم! وانا حزين ان الذين يحبون وطنهم ويريدون خلاصه هم الذين لا يعرفون ان في الأصرار الدائم على كلمة «لا» - أحيانا - يكمن الأضرار

بكل القضية ويدفع انصارها وحماتها الى الزهد بها والتخلي عنها! . . »

وقد ذكرني كلام هذا الرائد المسؤول السعودي بما كنت قد سمعته في عام ١٩٨٠ خلال زيارتي للكويت من الشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية الكويتي بعد عودته من أحد جلسات «لجنة المتابعة» بقصر بعبدا بلبنان حيث دارت مناقشات حامية بين الرئيس اللبناني يومذاك الياس سركيس واحد أقطاب الثورة الفلسطينية، مما دفع سركيس الى ان يهمس بأذن صباح الجابر كلاما عنيفا ضد الفلسطينيين. قال لي الشيخ صباح على مسمع من بعض الاخوان الصحفيين الكويتيين في مكتبه بوزارة الخارجية:

ـ أخشى ان يصبح لبنان ـ قريبا جدا ـ ساحة حرب يقف فيها رئيس لبنان نفسه ضدكم يا فلسطينيين.. وينتهي الحال بأن ينضم لبنان نهائيا الى قافلة كامب ديفيد!.. »

ثم أضاف الشيخ صباح:

ـ لمصلحة من هذه الشتائم والغمزات المتبادلة داخل الجلسات المقفلة بين اللبنانيين الرسميين والفلسطينيين؟ نحن نفهم شدة الحساسية الفلسطينية في هذه الظروف الحرجة. نحن ندرك الثورة المتأججة في النفوس وفي القلوب قبل ان تتأجج في ساحة القتال. ولكن التحدي الصارخ للجالس في قصر بعبدا ـ مهما كان رأينا في هذا الرئيس ـ لا يشجع السلطة ان تفرش السجاد الأحمر للفلسطينيين وتحارب اسرائيل الى جانبهم!.. »

وصرخ الشيخ صباح على طريقته:

ـ يا ناس. يا عالم. كونوا معقولين. اهدوا. هدانا الله جميعا.. واياكم!.. »

وكانت اسرائيل ترصد كل هذه المواقف وتضعها لحسابها في خانة الايجابيات وتبني عليها الخطوط للمستقبل وتنتظر الفرصة المؤاتية لكي تكسب الجولة على ضوء الأخطاء العربية.

□ ان اسرائيل لا يهمها ان تعرف من هو المخطىء ومن هو المصيب في المعارك والخلافات العربية الداخلية. هموم اسرائيل هي الحرص على ان تبقى هذه الخلافات وان تستمر! اسرائيل تعلم ان الفلسطيني يرفض ان يستوطن في لبنان.

ويرفض ان يصبح جزءا من اللعبة اللبنانية. ويرفض ان يتحول لبنان الى دويلات وولايات. ولكن اسرائيل تقلب هذه الحقائق وتصر على ان تقول للبنانيين عكس الواقع بحيث يصبح الفلسطيني ويبقى في عيون اللبناني شبحا غريبا غير مألوف وغير مقبول. .

□ وبقدر ما تحرص اسرائيل على محاربة أي تضامن عربي، فهي تحرص كذلك على تشجيع أي انقسام بين العرب، هذه بديهيات معروفة. فاذا قررت اسرائيل الانسحاب الكامل من سيناء فهي انما تفعل ذلك كي لا تعطي انور السادات ذريعة يعود بسببها ويعيد مصر الى احضان الصف العربي! كان يهم اسرائيل ان تبقى مصر مجمدة ومعزولة وخارج نطاق الصف العربي لكي تنفرد هي ـ اسرائيل ـ بالدول العربية واحدة بعد واحدة، ويصبح لبنان اللقمة الأولى في فم الغول الجائع وسط غابة الشرق الأوسط! كانت كل خطط اسرائيل وكل همومها مبنية على أساس ان لايفاجأها أحد بأي عمل عسكري قد يجعلها تحارب على جبهتين بدلا من جبهة واحدة، وان تواجه العرب فرادى بدلا من ان تواجه العرب مجتمعين. كانت اسرائيل تكره ان يفاجأها السادات ـ مثلا ـ بجبهة عسكرية في الجنوب، بينما هي مشغولة داخل أرض سوريا أو داخل أرض. . لبنان! فقد كانت اسرائيل تدرك بالضبط ان عدم أكمالها الانسحاب من سيناء سيدفع انور السادات الى العودة للصف العربي وتحطيم هيكل كامب دايفيد على رؤوس أصحابه. وكان أنور السادات ـ رحمه الله ـ يجهر بمثل هذا الرأي ويعلنه على مسامع الناس من أجانب ومصريين. وقد سمعته منقولا على لسان السادات بالذات من السيدة « منى عبد الناصر»، كريمة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ونحن نتحدث معا عن هذا الموضوع في بدء خريف عام ١٩٨١.

قالت لي السيدة منى عبد الناصر:

ـ ذهبت في شهر اغسطس (آب) الماضي أي في اغسطس ١٩٨١ لزيارة الرئيس السادات في منزله بالمعمورة بالاسكندرية. وقابلته مع زوجي الدكتور أشرف. وجلس الرئيس يحدثنا عن مشاريعه واحلامه بعد ان يتم انسحاب اسرائيل من بقية سيناء في ابريل القادم. وسألته يومذاك:

ـ وماذا ستفعل يا «اونكل» انور اذا لم ينسحب اليهود من بقية سيناء؟

وكان من عادة ابناء الزعيم الراحل عبد الناصر مناداة الرئيس السادات باللقب الشائع ـ اونكل ـ اي «عمنا»، كما كان ابناء السادات ينادون عبد الناصر بنفس اللقب.

□ واجابها السادات وهو ينظر في وجه «منى» ويشعل غليونه التقليدي الشهير:

ـ خلاص! يبقى ساعتها «يا دار ما دخلك شر!».

ثم أكمل:

ـ سأركب الطائرة ـ عندئذ ـ واهبط في مطار الرياض وأعلن أمام خالد وفهد وعبدالله سقوط اتفاقية كامب دايفيد وادعوهم لعقد مؤتمر قمة عربي تحضره مصر، وتعلن فيه نهاية اتفاقية كامب دايفيد! . . »

وأكمل السادات بعد لحظة قائلا لكريمة زعيمه السابق:

ـ ولكني متأكد ان اسرائيل ستكمل انسحابها من مصر، لا حبا بي ولا تمسكا منها بالشرف والمعاهدات، وانما لأن اسرائيل بعد ان نفذت الشطر الأول من الاتفاقية تنوي ان «تقضي» على الشطر الثاني منها! ان اسرائيل ـ يا ابنتي ـ ستغزو لبنان وستصل الى بيروت وتذبح جيش المقاومة الفلسطينية، ويهمها ـ خلال كل ذلك ـ ان تبقى مصر واقفة على الحياد! . »

وسألته منى عبد الناصر:

ـ هل يعرف الفلسطينيون هذه الأمور؟.

اجابها السادات وكأنه يصرخ:

ـ أشوف الفلسطينيين فين؟ اقابلهم ازاي؟ اقول لهم أيه؟ هم نازلين شتايم في انور السادات وانا احرق نفسي كل يوم ألف مرة علشانهم! . . »

واحترق انور السادات نهائيا . .

وأكملت اسرائيل انسحابها من سيناء في نهاية «ابريل» حسب الاتفاق.

□ وبعد شهرين وعشرة أيام فقط من انسحابها من سيناء كانت جحافلها تغزو لبنان بكل وحشية الغزاة وقسوة الحاقدين.

وكانت عملية محسوبة تماما. لم تكن سراً على أحد! ولم تكن مفاجأة لأحد! ولم

تكن غريبة أمام أحد! لقد عرفت سفيراً صديقاً لدولة عربية شمالي افريقية في لندن كان طيلة ليالي شهر مايو الأخير يسهر حتى الفجر بانتظار مخابرة تلفونية من «مليكه» في القصر الملكي يسأله فيها عن آخر اخبار الموقف العسكري على الجبهة اللبنانية ـ الفلسطينية، وهل خرق الفلسطينيون الهدنة، وهل دخلت الدبابات الاسرائيلية الى لبنان؟ فقد كان القصر الملكي «الشمالي افريقي» يتوقع اشتعال الجبهة في أية لحظة ويرفض ان ينام قبل ان يعرف من سفيره عن الجهة التي اشعلت عود الكبريت!

□ وبعد ان وقع الغزو المتوقع بكل اهواله وثقله وجنونه وسلاحه الاميركي المتطور الفتاك، قال فيليب حبيب في احدى مقابلاته الخاصة مع مناحيم بيغن ووزيره السفاح ارييل شارون:

ـ ان «بعض» اصدقاء اميركا في المنطقة قد فقدوا «اعتدالهم» التقليدي المعروف بعد هذه المعارك الدامية في لبنان، وبعد استعمالكم كل هذه القنابل وكل هذه الصواريخ الاميركية ضد نساء لبنان واطفاله وشيوخه. . . »

واجاب بيغن في غضب:

ـ اذا كنت تعني السعودية فاني اجيبك بأن السعودية التي تصفها انت «بالاعتدال» هي أخطر الاعداء علينا وألعنهم شراً. . . »

ثم مد مناحيم بيغن أصابع يده في وجه فيليب حبيب وقال له وما زال يصرخ:

ـ ان معظم كميات السلاح الاميركي الذي ضبطناه في يد الفلسطينيين وفي مخازنهم السرية في صور، وصيدا، كله يحمل الارقام الاميركية المخصصة للقوات السعودية والذي سبق وشحنته اميركا للسعوديين لاستعماله في الحرس الوطني، والجيش الرسمي، هذه حقائق نقلناها لاميركا. . . »

واستطرد بيغن قائلا:

ـ ودفاتر الحسابات، والرسائل، والاوراق المصرفية السرية واعترافات بعض القادة الذين سلموا انفسهم للقوات الاسرائيلية، كلها تؤكد قصص ملايين الدولارات التي دفعتها السعودية للفلسطينيين كرواتب وتبرعات وقروض وهبات لكي يبقى للفلسطينيين جيشا يهدد اسرائيل بالصواريخ، والارهاب!. . . »

□ ثم انهى كلامه قائلا:

- ومع كل غارة جوية تقوم بها فوق بيروت، يرفع «فهد» السماعة ويطلب رونالد ريغان ويشكو ويهدد ويستنجد ويتوسل! قل لي يا مستر حبيب، هل هذه هي الدولة المعتدلة الصديقة التي جئت لكي تحدثني عنها؟. يقولون هنا ان الحرب ستستمر ما دامت اسرائيل تؤثر على اميركا وما دامت اميركا تؤثر على السعودية وما دامت السعودية تؤثر على سائر بلدان الشرق الاوسط. وانا اقول ان الشطر الاول من هذا الرأي قد يكون صحيحا من حيث قوة اسرائيل المعروفة في الاوساط الاميركية الحاكمة. اما ان يقال بان اميركا تؤثر على السعودية وان السعودية تؤثر على «سائر» بلدان الشرق الاوسط فان ذلك خرافة. ان السعودية هي التي قادت العرب لمعارضة مصر في مؤتمر بغداد. والسعودية هي التي ترعى اعمال «الارهاب» بالمال والسلاح والنفوذ الدولي. اخشى لو قلت لك يا مستر حبيب ان الفلسطينيين المتطرفين - وحدهم - هم الذين يحكمون دول الشرق الاوسط.. باستثناء اسرائيل!.. »

ودق جرس التلفون في مكتب مناحيم بيغن وقالت له السكرتيرة ان جورج شولتز يتكلم من واشنطن.

□ وقال بيغن وهو يلعب «بالدمامل» الحمراء التي ملأت وجهه بسبب مرض السكر في دمه:

- كان جيمي كارتر يطلبني مرة في كل شهرين لكي ينقل لي شكوى انور السادات من جمود مفاوضات الحكم الذاتي. اما اليوم فأني استلم خمس مكالمات تلفونية في اليوم الواحد لكي تقول لي واشنطن ان اسم اميركا ومصالحها قد اصبحت مهددة اذا لم يتوقف الضرب على بيروت!...

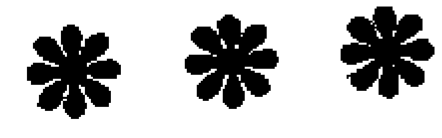
ثم يلتفت بيغن صوب فيليب حبيب ويقول له في سخرية:

- قل لي يا مستر حبيب. ماهي بالضبط مصالح اميركا في الشرق الاوسط.؟.»

ويقهقه المبعوث الاميركي الذي يشبه الممثل المصري المعروف «شرفنطح» ويقول لمناحيم بيغن:

- سأجيبك على سؤالك بعد ان تنهي حديثك مع المستر شولتز.. »

ورفع مناحيم بيغن صوته وقال في السماعة التلفونية :
ـ هالو مستر شولتز! .



الفصل الثاني
«رونالد ريغان رجل عبيط والخطر يأتي من امثاله»

● في «سرسنك» شاهدت مأساة التضامن العربي. . .

● ماذا طلب حسني مبارك من رجل الاعمال العربي المشهور؟

● علبة الكبريت كانت في يد الرئيس المصري عندما نادى على سكرتيره طالبا عودا لاشعال غليونه. . .

● السادات اطلق بالونات الاختبار في الرياض ووعد بنشر اوراقه السرية بعد ٢٦ نيسان !

الفصل الثاني

«رونالد ريغان رجل عبيط والخطر يأتي من امثاله»

كان مناحيم بيغن يكره ان يتحدث بالتلفون. ان حديث التلفون يفقده الكثير من مزايا المواجهة الشخصية مع الذين يتحدث اليهم او يتحدثون اليه! انه ممثل محترف يحب ان يلعب بالاشارات والنظرات كما يحب التلاعب بنبرات الكلام والضغط على الحروف والكلمات، ويحب ايضاً ان يتراقص ويميل برأسه مع كل عبارة يريد ابرازها امام الذين يستمعون اليه والحديث بالتلفون يحرمه من كل هذه المزايا. وعندما يقال له بأن هناك مكالمة تلفونية تنتظره على الخط ومصدرها واشنطن، يخلع «بيغن» نظارته ويتمتم ببعض الشتائم باللغة العبرية، ثم يأمر السكرتيرة بان توصله بالمكالمة بلهجة القرف الشديد!

وفي تلك الساعة من ذلك اليوم، كان «جورج شولتز» وزير خارجية اميركا هو الذي طلب ان يتحدث مع مناحيم بيغن بالتلفون! وبعد ان انتهت المحادثة قال فيليب حبيب لبعض اصدقائه في منزل الرئيس اللبناني «صائب سلام» ان مناحيم بيغن يذكره دائما بشخصية الولد الشقي الذي يقول لوالده عندما يقابله، «نعم ... حاضر ... نعم» فاذا خرج الولد الى المدينة للسهر مع رفقائه بادر الى تحطيم فوانيس الشارع ومعاكسة البنات ومخالفة القوانين العامة وخلق اسباب المعارك مع رجال البوليس...!

وقد سمع فيليب حبيب صوت مناحيم بيغن يقول بجانبه لجورج شولتز عبر

التلفون: «حاضر... موافق... كويس!» فاذا ما انتهت المكالمة التفت بيغن الى «حبيب» وقال له:

ان كلمة «نعم» لاتكلف كثيرا ما دام صاحبها يملك القوة على ان يقول «لا». اما الذين يقولون «لا» بدون الاعتماد على قوة عسكرية تسندهم وتحفظ لهم مظاهر الرفض، فانهم «بسطاء» لان هذه «اللأ» لاتلبث ان تتحول تحت وقع القنابل وضرب الصواريخ الى.. «نعم»!

وتظاهر فيليب حبيب بانه لم يفهم مغزى كلام مناحيم بيغن عندما امسك بيده جريدة «الجيروزالم بوست» الصادرة في ذلك اليوم - ١٥ يونيو - وفيها تصريح للجنرال الاسرائيلي «ميتاهو بيليد» يقول فيه ان هدف اسرائيل من غزو لبنان هو ذبح القادة الفلسطينيين او اسرهم احياء وجرهم الى اسرائيل لمحاكمتهم».

وابتسم فيليب حبيب لانه لم يجد بين كلام الجنرال المذكور الهدف الاساسي وراء الغزو الاسرائيلي للبنان، وهو الوصول الى عقد اتفاقية بين اسرائيل ولبنان لاتختلف مطلقا عن اتفاقية كامب دايفيد بين اسرائيل ومصر!.

ترى لماذا تشجعت اسرائيل على ان ترغم لبنان - مع اطراف عربية اخرى على الطريق - للدخول في دوامة الصلح المفروض بقوة الحديد والنار؟.

لماذا عاشت «روح كامب دايفيد» بينما ماتت روح المعارضة لها؟ لماذا؟

كان الجواب العربي على مولد اتفاقية كامب دايفيد هزيلا ومهزوزا! وكان انصار الاتفاقية المذكورة يأخذون على معارضيها بأن ليس لديهم اي بديل لها او اي بديل عنها! وحاولت بغداد ودمشق ان تخلق في عملية التقارب بينهما ما قد يحمل مثل هذا البديل. وصفق اعداء كامب دايفيد للتقارب السوري العراقي وقالوا لانور السادات وبالفم المليان: «قريباً ستعرف مصر البديل العملي والوطني عن اتفاقية الاستسلام لاسرائيل!» ولكن ما لبث هذا الامل ان تبدد تماماً عندما قامت القطيعة بين سوريا والعراق ثم تحولت الى عداء مكشوف وحرب بالاذاعات والمناورات والاتهامات، ثم اصبحت حرباً واضحة بعد نشوب الصراع المسلح بين القوات العراقية والايرانية ووقوف سوريا الى جانب ايران ضد... بغداد!

وعندما قابلت الرئيس العراقي في فبراير (شباط) من عام ١٩٨١ سمعته وهو

يحاول ان يطمئنني بان حرب العراق ضد ايران لن تشغل العراق عن التزاماته القومية في التصدي للعدو الاسرائيلي قائلا:

ـ سنحارب العدو الفارسي وكأنه ليس هناك اسرائيل. وسنحارب العدو الصهيوني وكأنه ليس هناك ايران. . ! »

ثم استطرد:

ـ ان الذين يقولون بان حرب «الوجود» اخطر من حرب «الحدود» لايعرفون ماذا يقولون. ان الخطر الفارسي يهدد «الوجود» العربي بقدر ماتهدد اسرائيل. . . واكثر. ان احلام الامبراطورية الفارسية ليست اقل خطراً من احلام الامبراطورية. . . الاسرائيلية!»

وهكذا استمر الصراع بين بغداد ودمشق على اشده. وقد شجع هذا الخلاف، الرئيس الراحل انور السادات على ان يستأسد في هجومه الاعلامي والسياسي على العرب، وان يضاعف من شدة شتائمه ضد الرؤساء والملوك والقادة العرب. . . «الذين اصبحوا كالاقزام جهلة. . لايعرفون الا جمع المال. . . والكذب. . . واللعب على الحبال. . . والنفاق امام شعوبهم. . . » على حد تعبير الرئيس الراحل! كما كان هذا الخلاف وما نتج عنه من تفتت الصف العربي، سببا في دفع السادات للاستسلام المطلق امام اميركا واسرائيل وفي قبول التسويف المعيب لموضوع الحكم الذاتي مع تشويه معنى هذا «الحكم» واخضاعه للارادة الاسرائيلية ثم المضي في تنفيذ ما يحلو لاسرائيل ان تقوم به من مغامرات عسكرية وسياسية ضد المفاعل الذري بجوار بغداد، فتحطمه، وضد مدينة القدس العربية، فتقرر ضمها، وضد الجولان فتعلن تطبيق القانون الاسرائيلي عليها، وضد الضفة الغربية فتزرعها بالعشرات من المستوطنات الاسرائيلية العسكرية، وضد رؤساء البلديات العرب في الارض المحتلة فتطردهم من مناصبهم، وضد التلاميذ والفتيات والشيوخ في رام الله ونابلس فتعتقلهم وتطاردهم بالحديد والنار وسط الشوارع والميادين، وضد لبنان فتجعل منه لقمة سائغة تلتهمه بالغارات والضرب والتمزيق، وضد العرب ـ كل العرب ـ فتدوسهم بالتهديد والوعيد.

في الاربعينات وفي الخمسينات كان الخلاف بين بغداد والقاهرة، او بين النيل

والفرات، او بين العرشين الهاشمي والمصري، من اقوى الاسباب التي ادت الى وقوع كارثة فلسطين واندحار العرب في حرب عام ١٩٤٨ ونجاح اليهود في احتلال النقب والجليل الغربي، ثم في ضياع معنى التضامن العربي وفي شلل كل التحالفات العسكرية العربية المبرمة في اطار الجامعة العربية! وعندما ارادت الثورة المصرية ـ بعد سقوط النظام الملكي المصري ـ ان تكسب العراق الى الصف العربي بقصد مواجهة اسرائيل ردت اميركا بانشاء حلف «بغداد» وسلخ العراق عن مواجهة الخطر الاسرائيلي بحجة التفرغ لمواجهة الخطر... السوفياتي! وقد رأيت بنفسي وسمعت بأذني تفاصيل الرسالة الصعبة التي قام بها «صلاح سالم» ـ عضو مجلس قيادة الثورة المصري واذكى رجال الثورة على الاطلاق ـ الى بغداد «وسرسنك» بقصد اقناع «الوصي» عبد الآله، والسيد «نوري السعيد» بان في احياء معاهدة «التضامن العربي» وانضمام العراق اليها بصدق وامانة ما من شأنه ان يحمي العراق وغير العراق من الاخطار الخارجية. ولكن العراق يومذاك رفض الاقتناع بمنطق مصر. كان صلاح سالم يقول لنوري السعيد ان «اسرائيل تقف على حدود مصر عند قطاع غزة» فيرد عليه نوري السعيد «ان حدود العراق لاتبعد اكثر من مائتي ميل عن الحدود السوفياتية»! كان صلاح سالم يهدد نوري السعيد بان اسرائيل ستضرب مصر، فيرد نوري السعيد ان الاتحاد السوفياتي يمهد لانقلاب شيوعي في العراق. كان الحوار بينهما كحوار الطرشان! وقد سمعت هذا الحوار لمدة اسبوع كامل كما كان يسمعه من بين زعماء العرب السيد صائب سلام وفاضل الجمالي وكثيرون. وعندما اوشك «صلاح سالم» ان يعلن فشل مهمته ويعود الى القاهرة، طلب منه نوري السعيد ان ينقل الى جمال عبد الناصر الرسالة السرية التالية: «ان العراق على استعداد لان يعلن تجميد عضويته في حلف بغداد بشرط ان تتقدم القاهرة بمشروع معاهدة عسكرية جديدة قادرة على ان تضمن للعرب من القوة والاسلحة والجنود مايمكنهم من التصدي لسائر الاخطار الخارجية سواء كانت صهيونية ام شيوعية... وان تكون هذه المعاهدة جادة في ان يحمل العرب مسؤولياتهم على الصعيد العسكري بحيث تتوحد القيادات كما يتوحد السلاح والنظم والتدريب على كافة المستويات» وقد تلقى صلاح سالم هذه الرسالة بقلب يرقص فرحاً وطار

بها الى جمال عبد الناصر بالقاهرة. وتلقاها «جمال» بحذر وصمت. وعندما سألته عنها في منزل الزميل محمد حسنين هيكل وبحضور المشير عبد الحكيم عامر بالقاهرة اجاب عبد الناصر ضاحكاً: «هل انت تثق بكلام نوري السعيد؟» ولم ينتظر جوابي حيث اكمل قائلا: «الرجل ده كداب. وانا لااثق بأي حلف عسكري يكون نوري السعيد طرفاً فيه. . . !»

وهكذا «توفي» الضمان الجماعي او التضامن العسكري المنشود قبل ان يولد! واتسع الخلاف بين بغداد والقاهرة الى ان سقط نوري السعيد قتيلا في شوارع بغداد. وجاء عبد الكريم قاسم فخاطبه جمال عبد الناصر من شرفة قصر الضيافة بدمشق بعبارة: «يا قاسم العراق. . . يا قاسم العراق!» ورد عبد الكريم قاسم التحية لعبد الناصر فاضطهد القوميين العراقيين، ودعا مصطفى البرزاني للعودة من منفاه الى العراق وشجع الاكراد على التدخل في شؤون الدولة لكي يضرب بهم القوميين العرب ويفسد عليهم صيحاتهم الداعية الى اي تقارب مع مصر، وحث ايران ان لاتعترف باستقلال الكويت بحجة ان «الكويت قاعدة للاستعمار» وانه في حالة اي اعتداء غربي على ايران ستكون الكويت قاعدة هذا العدوان!!!» ثم راح يتاجر بالاسلام ويدعو لعقد المؤتمرات الاسلامية ويتآمر على كل من يدعو للوحدة او الاتحاد او التضامن او التعاون بين العراق والعرب! وكما إختلف العراق ومصر على الصعيد «الملكي» استمر الخلاف بين هذين القطرين «العملاقين» في الاسرة العربية على الصعيد الثوري! وكما فقد العرب ـ والقضية الفلسطينية ـ العون المرجو من مصر والعراق على عهد «فاروق» وعبد الآله، كذلك فقد العرب العون المرجو من وراء اي تعاون محتمل بين مصر والعراق على عهد عبد الناصر وعبد الكريم قاسم! وبقيت اسرائيل وحدها هي المنتفعة وهي المنتصرة من وراء كل هذه الخلافات!

وسيقول التاريخ ان الولايات المتحدة الاميركية التي طردها جمال عبد الناصر من مصر في الخمسينات والستينات قد اعادها خليفته انور السادات الى مصر، والى معظم اقطار الشرق الاوسط في السبعينات!! وكان طبيعيا ومنتظراً ان تعود اميركا وفي ركابها اسرائيل! وكان طبيعيا ـ ايضا ـ ان تحشد اميركا كل طاقاتها الاعلامية في

مختلف انحاء العالم وتتعاون مع الطاقة الاعلامية اليهودية الجبارة في اوروبا الغربية واميركا من اجل «تكبير» صورة انور السادات «وتلميعها» واضافة الالوان الزاهية عليها بحيث يبدو السلام مع اسرائيل وكأنه الدخول الى الجنة ويبدو انور السادات وكأنه «رضوان» الجالس على بابها!

ووقف العرب يتفرجون على هذه التمثيلية الجبارة، ولايبدون حراكاً وكأنهم قد فقدوا ابسط مظاهر الحياة! وكذلك، لم يستطع الموقف الثوري الفلسطيني ان يحطم هذه الاسطورة او ان يعيد مصر الى العرب او ان يرغم العرب على اتخاذ موقف اشد حزما وأصدق عداء «تجاه أنور السادات»! وكان جيمي كارتر يحرص على الدوام ان يتحدى العرب الرافضين للاتفاقية التي صنعها بيديه وبنى عليها قاعدة نجاحه واساس سياسته، فيقول بانه «لم يسمع من دولة عربية واحدة تأييدا مطلقاً لفكرة انشاء دولة للفلسطينيين تكون بديلا عن فكرة الحكم الذاتي التي وردت في اتفاقية كامب دايفيد»!

ثم اوعز السادات لصهره ومستشاره «سيد مرعي» فوقف في مجلس الشعب المصري واتهم حكام العرب بانهم يتحدثون بلغتين وينطقون بلسانين، احدهما يمدح مصر بالسر ويشيد بسياستها السلمية ويهاجم الفلسطينيين، والثاني يهاجم مصر بالعلن ويمدح الفلسطينيين بالرسائل والبلاغات الرسمية. وكما ان زعيما عربيا واحداً لم ينبر لتكذيب اقوال «سيد مرعي» فان الثورة الفلسطينية لم تحرص ان تطالب زعماء العرب بالكشف عن اوراقهم الحقيقية والتصدي لاتهامات صهر السادات! لقد اكتفى الجميع باعلان الحرب الاعلامية الساذجة على كامب دايفيد. وتطوع الاخرون بمهاجمة السادات دون التعرض للولايات المتحدة الاميركية التي هي مصدر العلة واساس الداء! وبقي وسطاء جيمي كارتر ورسله يجوبون العواصم العربية بكل حرية وسعادة فتفتح لهم صالونات الشرف في المطارات وتلتقط لهم الصور الفوتوغرافية وتنشر تصريحاتهم في صدر صحف الدول المضيفة التي هي - كما هو المفروض - اشد الدول «عداء» لكامب دايفيد ولسياسة اميركا في الشرق الاوسط..!

وكان انور السادات في سريرته يعتقد بان معظم المسؤولين في معظم الدول

العربية ليسوا ضده ولاضد «كامب دايفيد». هكذا اقنعه جيمي كارتر، هكذا اكد له سفراء اميركا في مصر والسودان واسرائيل! وفي يوم التوقيع على اتفاقية كامب ديفيد قال كارتر «لصديقه» انور السادات انه لن يمضي اكثر من ٧٢ ساعة حتى يعلن الاردن وتعلن السعودية تأييدهما العلني الرسمي للاتفاقية! وصدق السادات كلام «صديقه» جيمي كارتر. وعندما رجع الى مصر وجاء مناحيم بيغن لزيارته في الاسماعيلية قال له السادات انه متفائل ومطمئن الى مساندة كبار المسؤولين العرب لسياسته في القريب العاجل! وروى السادات لضيفه مناحيم بيغن عن السر الذي جعله يخفي على السعودية عزمه على زيارة القدس. قال السادات انه ذهب «للرياض» قبل رحلته الى القدس بايام قليلة وفي نيته ان يجس النبض حول نقطة واحدة هي: «كيف سيرد السعوديون على فكرة زيارة القدس»؟ وقال السادات لمناحيم بيغن انه اجتمع في الرياض ببعض الامراء ودار الحديث عن اسرائيل واحتمالات الحرب والسلام فاطلق السادات «بالون اختبار» على مسمع من الحاضرين قال فيه ان حالة مصر السياسية والاقتصادية تفرض عليه البحث عن مخرج للسلام مع اسرائيل «حتى ولو استوجب الامر ان يذهب الى. . . اسرائيل نفسها»! واذ بالحاضرين يصيحون وبصوت واحد وكأنهم يرددون درساً واحداً: لا سمح الله يا سيادة الرئيس! استغفر الله يا اخ انور.!» فعاد السادات واطلق «بالونا» ثانيا وقال للمرة الثانية انه يحتاج الى السلام «حتى ولو كلفه ذلك ان يلتقي شخصياً مع اي مسؤول اسرائيلي.» وعاد الحاضرون. . . وبينهم بعض الامراء ـ وصاحوا في وجه الرئيس المصري: لاقدر الله ياسيادة الرئيس! ان الله كبير يا اخ انور! لن يحوجك الله الى ذلك ياريس!»

عند ذلك، والكلام مازال لانور السادات، شعرت بان الموقف لايسمح بالدخول في التفاصيل فقررت ان اركب الطائرة واعود الى مصر. .

ومع الايام بدأ السادات يحس بان معارضة العرب لسياسته لاتنبع كلها من حقيقة الموقف العربي تجاه هذه السياسة. قال لي المليونير السوري الذي لازال يقيم في مصر ـ وكان يقطن في القاهرة ـ ان السادات قد استدعاه ذات مرة عند منتصف الليل لكي يقول له بان قرار زيارته للقدس لم يكن سراً على دمشق ولذا ـ والكلام

للسادات ـ فهو يدهش لماذا تعارض سوريا السياسة التي ترتبت على تلك الزيارة؟»

ولاشك ان السادات لم يخف الحقيقة على نفسه في مثل هذا الكلام . تماماً كما كان يسرح في قمة الخيال عندما طلب من رجل اعمال عربي معروف ان ينقل للرياض «تقدير» السادات للسياسة الهادئة التي تسير عليها الرياض، وانه ـ اي السادات ـ على ثقة من ان الايام ستعيد مصر الى العرب وتعيد العرب الى مصر «عندما يعرف بقية العرب حقائق السياسة المصرية التي تفهمها السعودية وتدرك ابعادها!» كان الرجل يضحك على نفسه، كان يؤمن بوقوع المعجزة التي ستعيده الى العرب ويتوقعها في كل لحظة . كان يفلسف الاخطاء ويصور المآتم بالزينات والانوار الخاطفة! كان لايرى امامه الا البساتين الخضراء والمناظر الجميلة لان القادرين على تفجير البراكين قد تركوا السادات على راحته يرتع في احضان امبركا ويرقص في قارب اسرائيل وينتقل من القدس. . . الى حيفا. . . بالبر والبحر والجو!

لا ادري ايهما اساء لحقائق التاريخ ولجوهر العمل السياسي اكثر من سواه: مرحلة «عبد الناصر» الذي قرر ان فلسطين لن تعود الا بقوة السلاح وبالحرب فصنع «الصاروخ» الشهير بعيد المدى واطلقه من الصحراء الغربية في الساعة العاشرة من يوم السبت الواقع في «٢١» يوليو من عام ١٩٦٢ تمهيداً ليوم المعركة فاذ بالصاروخ يقع «سليما» في يد الاعداء في حرب الايام الستة، واذ بالخبراء الالمان الذين اشتركوا في صنعه يشهدون بانهم صنعوا لمصر صاروخاً «مزيفاً». . ام مرحلة السادات الذي قرر ان فلسطين لن تعود الا «بالسلام» فذهب الى القدس وعقد اتفاقية كامب دايفيد واذ بالسلام يتحول الى «صلح منفرد» واذ ببقية ارض فلسطين تضيع ثمناً لهذا السلام الدنس؟

كلاهما اخطأ. . . ثم تركا فلسطين تدفع ثمن هذا الخطأ! وكلاهما اساء تقدير الجماهير لسياسته، وظن ان زعامة مصر للعرب تعني بالتالي «تبعية» العرب لاية سياسة يرسمها الرئيس المصري لبلده وللعرب معاً دون اي حساب او نقاش! كان عبد الناصر يعتقد ان اول ساعة يدخل معها في حرب ضد اسرائيل كفيلة بان تشعل الشارع العربي من الخليج الى المحيط! وكان انور السادات يعتقد ان كل العواصم العربية تؤيده سراً، في سياسته «السلمية» مع اسرائيل، وان هذا التأييد لايلزمه ان

يقوم باي جهد من اجل كسب هذه العواصم عن طريق انتزاع المزيد من المكاسب الوطنية للعرب وللفلسطينيين! حدثني رجل اعمال عربي كبير ومعروف بنشاطاته في العالم، عن تجاربه مع السادات فقال:

ـ دخلت يوما على السيد حسني مبارك في مكتبه وجلست معه بضع دقائق بانتظار موعدي للدخول على السيد انور السادات. وكان هذا في الصيف الماضي. وقال لي حسني مبارك بصوت خافت انه يريد مني ان اقنع الرئيس السادات بان يخفف من هجومه على العرب، وان يحاول اتخاذ موقف سياسي قومي تجاه حقوق الفلسطينيين يمكنه من العودة الى الصف العربي ويفتح له قلوب اخوانه العرب. قال حسني مبارك لرجل الاعمال العربي:

ـ اسمح يا «اخ»... مصر لاتقدر ان تعيش وحدها. ونحن بحاجة للعون العربي والمساندة العربية. اذا حصلنا على تأييد العرب استطعنا ان نصمد في وجه الخطوة الاولى. وانت ـ يا اخي ـ خير من يصارح الرئيس السادات بهذه الحقيقة وتقول له ان يبدأ في الخطوة الاولى ويجس النبض ويمد يده للعرب بعد ان يتوقف تماماً عن الهجمات الاذاعية والتلفزيونية ضدهم..»

وقال رجل الاعمال لحسني مبارك ضاحكا: ـ ومن يدريك يا سيادة «النائب» ان الرئيس السادات يجري حالياً اتصالات سرية مع العرب دون ان يخبرك عنها... اليس هذا الاحتمال وارداً؟»

وقاطعه حسني مبارك وقال:

اذا كان هو ـ اي انور السادات ـ اخبرك بانه يقوم باتصالات سرية مع العرب دون ان يطلعني عليها فانه في هذه الحالة يضحك عليك! انا اعلم ان الرئيس يشعر بحاجته الى تأييد العرب العلني له ولكنه ـ عن خطأ او عن حسن نية ـ يعتقد بالتأييد السري لسياسته وان الذين يؤيدونه «يخافون» اعلان تأييدهم بسبب النفوذ الفلسطيني المنتشر في بلادهم!»

وفجأة فتح الباب ودخل انور السادات. وسأل انور السادات نائبه حسني مبارك عن اي موضوع يجري الحديث؟ واجاب رجل الاعمال بأن روى تفاصيل ما دار بينه وبين حسني مبارك. وعلى الفور قهقه السادات وقال:

ـ ان ما قاله حسني مبارك هو الحقيقة! وليس بيني وبين القادة العرب اية اتصالات في الوقت الحاضر! ولكني على يقين ان هؤلاء القادة سيأتون هم بأنفسهم الى مصر في الوقت المناسب ويعلنون تأييدهم لي! انهم يحتاجون لمصر بقدر حاجة مصر الى. . . «فلوسهم»! وانا الذي «احميهم» وكلمتي عند اميركا هي وحدها المسموعة، قل لي يا «اخ» هل عداء سوريا لي اقوى من عداء سوريا للعراق؟ وهل معارضة الجزائر لسياستي اشد من معارضة الجزائر للملك الحسن؟ قل لي يا صديقي هل انا الذي اشكل تهديدا على السعودية ام اليمن الجنوبي؟ هل انا الذي اطمع بزعامة دول الخليج ام هو حزب البعث؟ سيأتي اليوم الذي يجيء العرب «لعندي» لكي اصلح فيما بينهم قبل ان اذهب انا اليهم لكي اصالحهم. !»

وقهقه السادات على عادته وقال لحسني مبارك ولرجل الاعمال:

ـ بعد ٢٦ ابريل (نيسان) القادم سأنشر للعالم «كل اوراقي». وعندئذ سيعرف الفلسطينيون الذين يصرون على اني عدوهم الاول، انني ـ مع التسليم لهم بحقهم في معاداتي ـ لست عدوهم. . الوحيد!»

ترى هل كان انور السادات في تلك الساعة يقرأ صفحات الغيب ويرى فيها ملامح كل ما جرى ويجري وسيجري بين السادس من يونيو ـ حزيران لعام ١٩٨٢ وبين رحيل الثورة الفلسطينية من بيروت وموقف العرب من المذابح التي تعرض لها اخوانهم الفلسطينيون في صور. . . وصيدا. . . والدامور. . . والنبطية. . . وغربي بيروت؟!

ووضع انور السادات غليونه في فمه وبدأ يبحث عن عود كبريت يشعله به. وصاح السادات ينادي سكرتيره عبد الحافظ:

ـ كبريت يا «حافظ». . . كبريت!

واسرع عبد الحافظ لكي يشعل غليون السادات فرأى علبة الكبريت مدفونة في يد الرئيس دون ان يدري بوجودها. فقال على شيء من التردد:

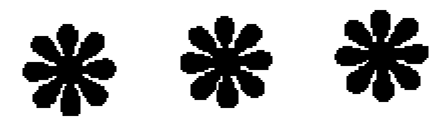
ـ علبة الكبريت في يدك يا ريس!

ونظر الرئيس الى العلبة وقهقه مجددا وقال لمن حوله:

ـ ليس الكبريت وحده في يدي. اسرائيل ايضاً في يدي. وفلسطين ايضاً في

يدي . . . والعرب كلهم في يدي . ومصر ـ بالطبع ـ في يدي . انما «اللي شاغل بالي» حقيقة هو رونالد ريغان! الرجل ده عبيط . والخطر دائما يأتي على يد امثاله . !»

وامتقع وجه السادات وهرول الى داخل مكتبه ووراءه نائبه وضيوفه . . . ودخان الغليون!



الفصل الثالث

شولتز نصح العرب بتأييد ريغان فأيدوا... كارتر !

- في جلسة المصالحة بعزبة سيد مرعي طلب هيكل من السادات المشاركة في الحكم. . . !
- دين براون زار عمان ليشكر الملك حسين على رفضه استقبال كيسنجر!
- قال الملك خالد لكارتر: «شكراً. . » فرقص فرحا واعلن ان السعودية تؤيد «كامب دايفيد» !
- الاميركيون يمارسون السياسة بعقلية التجار ويمارسون التجارة بعقلية اليهود!

الفصل الثالث
شولتز نصح العرب بتأييد ريغان فأيدوا.. كارتر !

ليس اللوم على «رونالد ريغان» اذا لم يعجب السادات ولم يعجبه السادات! فقد راهن انور السادات على «صديقه» ريتشارد نيكسون وحشد ثلاثة ملايين مصري لاستقباله في شوارع القاهرة والتصفيق له على جانبي خط السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية، وبعد شهور سقط ريتشارد نيكسون في بئر عميق، سحيق اسمه: ووترغيت!

وراهن أنور السادات على «جيرالد فورد» فسقط فورد وفاز بالرئاسة جيمي كارتر. . !

وتعلق أنور السادات بأوهام جيمي كارتر وأقام معه علاقات «عائلية» وشخصية وذهنية لم يقمها اي رئيس مصري مع اي رئيس اميركي! وجعل من نفسه مطيعا للرئيس الاميركي لا يخالف له امرا ولا يعصى له طلبا. وتحولت العلاقة بين الرجلين الى ما يشبه الحب أو الوله أو العشق بحيث اصبحت مصلحة جيمي كارتر عند السادات تسبق اية مصلحة، واصبح التفكير بان يفوز كارتر في مرحلة الانتخابات الثانية يسبق التفكير بما يجوز وما لا يجوز لرئيس مصر ان يفعله ويضحي به تجاه اميركا أو تجاه اسرائيل! واذا قيل للسادات ـ مثلا ـ انه لايجوز له السفر الى «حيفا» ضيفا على مناحيم بيغن، اجاب: ان السفر يرضي اسرائيل، واذا رضيت اسرائيل رضي يهود اميركا. . وبفضل رضى يهود اميركا يضمن «صديقي» جيمي كارتر فوزه

في معركة الانتخابات القادمة. ! ومن اجل رضى جيمي كارتر، تعددت لقاءات السادات مع شخصيات اسرائيل في القاهرة، والاسماعيلية والاسكندرية واستخدمت اسرائيل تلك اللقاءات لمصلحتها واستغلت الصورة الفوتوغرافية لكي تثبت حسن نواياها تجاه العرب والفلسطينيين، وفي وسط معركة الانتخابات البرلمانية في اسرائيل رضي السادات ان يذهب الى «شرم الشيخ» ويقابل بيغن في ظل العلم الاسرائيلي وفوق ارض مصرية ما زالت محتلة وان يترك بيغن يستغل تلك الزيارة لمصلحته ويوظفها ضد حزب «العمل» الاسرائيلي الذي كان يوهم الشعب الاسرائيلي ان السادات لم يعد يطيق سياسة بيغن وان بقاء السلام مع مصر يتوقف على ذهاب بيغن ومجيء حزب رجال العمل. . ! وعندما عوتب السادات بسبب لقائه المذكور مع بيغن أجاب: «لقد طلب مني «صديقي» كارتر ان اقابل بيغن، فقابلته!»

وهكذا أصبح جيمي كارتر في معركة الرئاسة الثانية ليس مرشحا للحزب الديمقراطي فحسب، أو مرشح الشعب الاميركي وحده، وانما أصبح جيمي كارتر المرشح الاول والوحيد للرئيس المصري. . انور السادات!

وكانت هذه الأخبار، كلها، تصل الى منافسي كارتر على كرسي الرئاسة، وعلى رأسهم: رونالد ريغان!

وكان كارتر يفخر امام الناخبين بانه رجل السلام. وكانت ورقة كامب دايفيد هي اقوى أوراقه السياسية - بل لعلها الورقة الرابحة الوحيدة - في معركته ضد الحزب الجمهوري وضد منافسه رونالد ريغان. وكان ريغان من جهته يكره اسم كامب دايفيد وفي ذهنه القضاء على اي فضل يتغنى به كارتر حول هذا الاسم. كما كان لا يحمل كثيرا من الاحترام أو التقدير لأنور السادات الذي لم ير فيه حليفا، ولا صديقا! كما كان يقول عن السادات انه عاجز عن ربط افكاره في عبارات منسقة دون اللجوء الى التكرار والتأتأة والتحدث بالانكليزية بأسلوب. . عربي أو مصري!

وهكذا لم يكن للعرب لدى رونالد ريغان اي صديق أو شبه صديق.

وادرك اصدقاء العرب في اوروبا - وبعضهم من كبار الوزراء السابقين ورجال

الاعمال المشهورين ـ خطورة الموقف. فجاء جورج شولتز ـ وزير الخارجية الحالي ورئيس الشركات المعمارية العالمية المشهورة ـ الى شخصية عربية معروفة تعمل في حقل المال، والسياسة والهندسة المعمارية وقال لها، للشخصية أبان معركة انتخابات الرئاسة الاميركية: «ان رونالد ريغان وليس جيمي كارتر هو الذي سيفوز بالانتخابات القادمة. وهذا كلام لا يطيق انور السادات ان يسمعه ولكن العرب ليسوا كلهم انور السادات. فلماذا لا تحاولون التقرب من ريغان ومحاولة كسبه الى صفوفكم او انقاذه من سيطرة اصدقائه اليهود عليه والتفاهم معه وسط هذا الجو المحموم الذي يحتاج فيه ـ هو ـ الى كل نصير وكل مساعدة»؟

واستطرد جورج شولتز قائلا للشخصية التي تتمتع كثيرا بثقة النخبة الحاكمة:

ـ «لماذا لا تحاولون الأتصال به.. أو الكتابة اليه.. أو دعوته لحفلة عشاء أو غداء.. أو اشعاره بانكم تتمنون له الفوز في هذه المعركة وتبنون عليه آمالكم من اجل حل قضاياكم؟. قد يكون السادات صديقا مخلصا لاميركا ولكن المطلوب الان ـ فقط ـ هو الصديق الصدوق لرونالد ريغان! ان الرجل ـ اي ريغان ـ عاطفي، ومشهود له بالوفاء وحفظ الجميل. وله صداقات قديمة مع كثيرين من المواطنين اليهود ورجال الفن والتمثيل أيام اقامته في هوليود ما زال حتى هذا اليوم يعتز بها ويرعاها، كما ان تفكيره السياسي حول الكثير من قضايا العالم ما زال متأثرا بما كان يسمعه من هؤلاء الاصدقاء ـ اليهود ـ وخاصة فيما يتعلق بقضايا الشرق الأوسط والصراع العربي الاسرائيلي.!»

وانهى المستر جورج شولتز كلامه للشخصية العربية قائلا:

ـ «لقد مررت في العام الماضي بالسعودية ومصر، ولم استطع ان التقي مع المسؤولين هناك بسبب ضيق الوقت. كان يزور «المملكة» اثناء مروري بها وفد رسمي من وزارة التجارة والمال الاميركية. وعند وصولي الى القاهرة قيل لي ان شخصية عربية سعودية رفيعة تطلب مجيئي للرياض لمقابلتها. فعدت الى «الرياض» وقابلت الشخصية المذكورة ولكني لم أكن املك الوقت الكافي لكي ادخل معها ـ مع الشخصية المذكورة ـ في التفاصيل. هيا يا صديقي وانقل كلامي لاصدقائك في الشرق الاوسط. قل لهم ان صداقة انور السادات لجيمي كارتر في

هذه المعركة تحسب ضدكم ولا تحسب لكم فيها لو فاز ـ وسيفوز حتما ـ رونالد ريغان بالرئاسة! . »

ونقل كلام جورج شولتز ـ وكانْ معروفا بقربه وصداقته مع رونالد ريغان ـ الى اكثر من مسؤول عربي، فكان الرد «ان العرب يقفون مع كارتر، وان كارتر قد اعطى وعداً سرياً لأنور السادات بأنه سيكمل مشوار كامب ديفيد ويرغم اسرائيل على الانسحاب ويعطي للفلسطينيين حق تقرير المصير في حالة عودته الى الرئاسة بعد الانتخابات القريبة القادمة. . وانه من الصعب على الفارس ـ الاصيل ـ ان يغير او يبدل فرسه وهو في وسط المعركة. !»

وهكذا كان. .

وسقط جيمي كارتر مشيعا بسخرية اميركا والعالم وشماتة اليهود ولعنات كل من عارض اتفاقية كامب دايفيد من العرب والعالم الثالث والدول الاشتراكية!

وفقد العرب فرصتهم الذهبية في محاولة كسب رونالد ريغان وقبول نصيحة اقرب مستشاريه ابان معركة الرئاسة. .

وبقي أنور السادات يملأ غليونه ويبحث عن عود الكبريت ويقول لصديقه رجل الأعمال العربي ان رونالد ريغان لا يعجبه ولا يقدر ان يفهمه لأنه «راجل عبيط. . . والخطر يأتي من أمثاله!»

ولعل اكبر اخطاء الرئيس الراحل انه رجل مزاجي، متقلب يبني رأيه الاخير حسب نوعية آخر زائر يقابله. فاذا كان الزائر من النوع المتفائل، انقلب السادات الى متفائل ممتلىء الوجه بشرة وسرورا. واذا كان الزائر من النوع الذي يصبغ العالم باللون الاسود راح السادات يسحب انفاس الغليون بلا انقطاع ويسعل. . ويلعن سنسفيل العرب والمسلمين والمصريين والاميركان واسرائيل. !

وكانت اميركا تعرف عن «صديقها» السادات كراهيته لأي شخص يمكن ان يصبح منافسا له! وعندما ذهب اللواء عبد الغني الجمصي الى الولايات المتحدة وفاز باعجاب المسؤولين الاميركان، وجاء من يقول للسادات ان الرئيس كارتر ووزراءه اعجبوا بشخصية «الجمصي»، قرر السادات ان يتخلص من الجمصي في أول فرصة. ! قال السادات عندما اختار عبد الغني الجمصي وزيرا للدفاع، قال له على

مسمع من الحاضرين وكان بينهم كبار مستشاريه، وأشرف مروان، ومحمد علي فهمي رئيس الأركان: «انت أحسن وزير دفاع عندي. وستبقى وزيرا للدفاع مدى الحياة». ولكن الجمصي اختلف مع بعض كبار المسؤولين، وفاز بأعجاب امريكا، فاستحق غضب السادات بتهمة انه - أي الجمصي - كان يحاول السيطرة على الجيش! مسكين عبد الغني الجمصي! ذهب لاميركا في شهر يونيو عام ١٩٧٨ فمدحه الاميركان فخرج من الجيش في ٤ اكتوبر عام ١٩٧٨! مسكين هذا الرجل الذي خطط لحرب ١٩٧٣ ونال احترام الاعداء قبل الاصدقاء! ان ذنبه الأكبر انه كفؤ.

وراحت واشنطن تضحك على هذه المأساة من اعماق قلبها!

ومن خلال المأساة، ادركت واشنطن سرا جديدا عن شخصية انور السادات. كانت تعرف عنه قلقه، وتقلباته، وحبه للأنوار، وعشقه للراحة والأناقة والترف، فأصبحت تعرف عنه - بالاضافة الى كل ذلك - تمسكه بالمنصب وولعه بالنفوذ. . ! وعلى ضوء هذا الاكتشاف الجديد امعنت واشنطن في استغلال الرئيس المصري، فطلبت منه مزيدا من «العطاء»! كان الموقف بمثابة عملية حسابية بسيطة تدور كما يلي: اكتشاف كل مواطن الضعف في شخصية - اكبر زعيم عربي لاكبر دولة عربية - واستغلال هذه المواطن وتوظيفها لحساب اكبر اعداء العرب واخلص حلفاء اميركا واسمها: اسرائيل!

ويروي سيد مرعي - صهر السادات - بعض تفاصيل ما دار في جلسة خاصة رتبها الراوي ودعا اليها انور السادات للالتقاء مع «صديقه» الصحفي محمد حسنين هيكل، في «عزبة» سيد مرعي بجوار الهرم من أجل تصفية الجو بينهما! ويقول سيد مرعي انه ترك السادات وهيكل لوحدهما وعاد الى منزله بالقاهرة. وبعد ساعتين دق جرس التلفون وكان المتحدث انور السادات بعد أن ترك هيكل وعاد الى قصر الرئاسة. وسمع سيد مرعي الرئيس السادات يقول له:

- «هيكل راجل مجنون! عايز يشاركني في الحكم! سألته لماذا يرفض ان يتعاون معي في «الخدمة» بينما كان سعيدا بالتعاون مع جمال عبد الناصر فأجابني بانه مستعد لكي يشاركني في الحكم تماما كما كان يشارك جمال! إيه ده!؟ الراجل فاكر نفسه

ايه؟! انا لا أرضى انْ يشاركني احد. . لا هيكل ولا غير هيكل! تصور ياسيد يا مرعي قضينا ساعتين وانا احاوره حوار الطرشان. اقول له تعال نتعاون يا هيكل فيرد انا مستعد. اقول له! اعمل وزير يقول لي لا . . انا وزير مش عايز. . انا شريك! لا حول ولا قوة الا بالله!»

ويضيف سيد مرعي: «ان من يعرف حقيقة انور السادات يعرف كراهيته لمبدأ المشاركة مع احد. . مهما كان!»

ثم يضيف السياسي الارستقراطي قائلا مع الضحك:

ـ كله الا ده!

وعلى ضوء هذا الـ «ده». . بنت اميركا ـ ومعها اسرائيل ـ المزيد من سياستها تجاه مصر، وتجاه المستقبل العربي! يبقى السادات رئيسا أوحدا ما دام انه قادر على تنفيذ المخطط الاميركي الاسرائيلي، لا في مصر وحدها، بل في سائر انحاء المشرق العربي بلا نقاش ولا اعتراض. يبقى السادات رئيسا ما دامت شواطىء مصر مرشحة لان تصبح قواعد حربية للأسطول الاميركي في جولاته ودورياته على دول منطقة الشرق الأوسط وما دامت اميركا هي المظلة الواقية للخليج وغير الخليج ضد أي عدوان خارجي وما دامت مفاوضات الحكم الذاتي «تصطاف» على شواطىء «هرتسليا». . و«ناتانيا». . والمعمورة. . دون الوصول الى أية نتيجة. . وما دام السادات مولعا بالخطابة وما دامت خطاباته كلها شتائم للعرب. . وما دامت أسواق مصر مرشحة للغزو الاقتصادي الاسرائيلي، وما دامت اقلام مصر تشتم جمال عبد الناصر. . وما دامت فنادق القاهرة مملوءة بكبار الزوار اليهود. . وما دام «أبا ايبان» ينوي الكتابة في «الاهرام». . .

لقد تركت اميركا، مهمة «معالجة» العرب، و«تأديب» الفلسطينيين لشخص واحد فقط اسمه: انور السادات! واذ به يقوم بمهمته بكل تفوق! واذ به ـ وهذا هو الأهم ـ يثبت مجددا امام اميركا، والعالم، بعض النظريات الحديثة التي استخرجتها اميركا عن العرب وسياستهم ومواقفهم وشخصياتهم والتي تختلف كثيراً جدا عن النظريات القديمة التي كانت تتبناها اميركا عن عرب الثلاثينات والاربعينات والخمسينات!

وفي مساء يوم بارد من أيام شهر فبراير من عام ١٩٨١، كنت جالسا في غرفة الزوار بالقصر الملكي بعمان، انتظر موعدي مع جلالة ملك الاردن عندما فتح الباب ودخل المستر «دين براون» سفير امیرکا عام ١٩٧٠ في الاردن، ورجل الديبلوماسية الاميركية المشهور..

وكان برفقته القائم بأعمال اميركا في العاصمة الاردنية..

وبعد التحيات، دار الحديث بيننا عن هنري كيسنجر..

وكان هنري كيسنجر، فور فوز رونالد ريغان بالرئاسة وتسلمه مهام منصبه قد اراد ان يزور بعض العواصم العربية ـ ومنها عمان ـ لكي يستعيد فيها امجاده المعروفة ويثبت للعرب من جهة، وللأدارة الاميركية الجديدة من جهة اخرى، عن «ازليته» الدائمة في ميادين السياسة وعن مقدرته في اثبات الوجود على مختلف العهود، وعن احتياج العالم لكفاءته سواء كان هذا العالم برئاسة نيكسون، ام بزعامة رونالد ريغان.

وكانت الاردن يومها قد تبلغت رغبة كيسنجر بزيارتها. وعلى الفور أمر الملك حسين ان يكون الرد واضحا وصريحا: «ان الاردن ومليكه وحكومته لا يرحب بزيارة هنري كيسنجر في الوقت الحاضر!»

وقال لي «دين براون» وهو يعلق على الخبر:

ـ لقد جئت الى هنا لمقابلة الملك حسين ولكي اشكره وأهنئه على رفضه استقبال هنري كيسنجر. «ان وزارة الخارجية في واشنطن تكاد لا تقدر ان تخفي سعادتها من هذا الموقف الجريء. ان اميركا ترحب بمثل هذا الموقف «الرجولي» من العرب وتوظفه لحساب السياسة العربية في معالجتها لاسرائيل. نحن لا نقدر ان نقول للعرب ماذا عليهم ان يفعلوا معنا او مع اسرائيل، ولكننا لا نملك الا ان نحترم كل افعالهم التي تنبع من ارادتهم المستقلة حتى ولو كانت هذه الافعال تخالف سياستنا، تماما، بقدر ما نمسك احترامنا عن أية سياسة عربية لا تنبع من العرب أنفسهم وإنما تنبع من لندن... أو واشنطن!..»

واستمر دين براون ـ وهو معروف بوفرة استهلاكه للكحول وبلسانه الصريح وكلامه الكثير:

- «انني اعجب اليوم من الدهشة العربية بسبب ما يقال عن «التلاحم الاستراتيجي» بين اميركا واسرائيل! هذا ليس بالشيء الجديد! لقد ولدت فكرة هذا التلاحم في شهر سبتمبر من عام ١٩٧٠ عندما كنت انا هنا سفيرا لبلادي، وكانت غولدا مائير - رئيسة وزراء اسرائيل - تزور واشنطن، وكان رابين سفيرا لاسرائيل في اميركا! في شهر سبتمبر من ذلك العام، وعندما دخلت الدبابات السورية الى «اربد» شمر الرئيس نيكسون عن ساعديه واستنفر القوات الاميركية في المانيا الغربية لكي تستعد للسفر الى الشرق الاوسط، وامر بعض وحدات الاسطول الاميركي بالتوجه الى شواطىء سوريا ولبنان، وانذر السوفيات بعدم التدخل في شؤون الاردن وكرر اجتماعاته مع «غولدا مائير» في الصباح وفي المساء. وعندما انسحبت القوات السورية من الاردن اعلن نيكسون لخاصته وهو يلعب الغولف مع روجرز، وميتشال، في «بيرننج تري كلوب» ان انتصاره اليوم يشبه انتصار كنيدي في ازمة الصواريخ الكوبية خلال اكتوبر عام ١٩٦٢! كلاهما انتصر! وبقدر عظمة الانتصار الاميركي على السوفيات في اكتوبر ١٩٦٢ جاءت عظمة الانتصار الاميركي الجديد على سوريا - ومن كان يقف وراءها - في ٢٠ سبتمبر من عام ١٩٧٠.»!..

واستمر «دين براون» يقول وما زلنا - على انفراد - ننتظر موعد كل منا مع الملك حسين:

- في ذلك الشهر، وفي واشنطن، وبحضور غولدا، ورابين، وروجرز، وكيسنجر، ولدت فكرة التعاون الاستراتيجي بين اميركا واسرائيل. واحداث ذلك الشهر - كما هو معروف - فتحت ابواب الشهرة امام هنري كيسنجر الذي اصبح بعدها اقرب المستشارين الى قلب نيكسون. ومن أزمة «سبتمبر» في الاردن، انطلق كيسنجر الى الصين لكي يحقق «خبطته» الكبرى، ثم راح يعد مسودة اتفاقية «سالت» مع السوفيات وبعدها الى.. فيتنام! وكما قطف «هنري» ثمار النصر في الاردن كذلك قطف نيكسون ثمار انتصاراته في السياسة الخارجية، والتي بدأها بأحداث الاردن في ذلك العام، ووظفها لحسابه في معركة الرئاسة نوفمبر ١٩٧٢ فاكتسحها! ان الصراعات العربية هي الحطب الذي اشعلت به اسرائيل نار

الدفء واقنعت اميركا ببدء التعاون الاستراتيجي معها . !

وفتح الباب، وذهب «دين براون» مع زميله لمقابلة الملك حسين. . . »

ولكن كلام هذا الرجل بقي معي . . طويلا!

وحاولت ان اقنع نفسي بان هذه «الخلافات» العربية ليست وحدها المسؤولة عن تلاحم هذا «الزواج» الاستراتيجي بين اميركا . . واسرائيل!

فقد رأيت امامي الف صورة وصورة وكلها تروي قصة العلاقة بين اميركا والعرب وكيف تبدلت هذه العلاقة منذ مجيء «ليندون جونسون» الى الحكم وهزيمة جمال عبد الناصر في حرب يونيو من عام ١٩٦٧ حيث اصبحت مثالا للتندر والاستخفاف والاستهانة من الجانب الاميركي تجاه الجانب العربي . . . وعلى يد كل رئيس آخر جاء فيما بعد!

وتبدد الاحترام القوي الذي كان يظهره رئيس مثل «ولسون» للمشاعر العربية . .

وانتهى التقدير الصحيح الذي كان يحمله رئيس مثل فرانكلين روزفلت للعرب ولقضاياهم . .

وسقط الايمان الواضح الذي غمر ذات يوم قلب رئيس عسكري نبيل مثل ايزنهاور تجاه العرب والمسلمين . . !

كان ربع القرن الاخير من عمر هذا الزمن مليئا بالجرائم والاخطاء الاميركية ضد الشعوب العربية نتيجة «الصورة» الجديدة التي ولدت في رأس الولايات المتحدة وايدتها هزيمة ١٩٦٧ ، وصراعات ١٩٧٠ ، ومغالطات ١٩٧٣ ، وبدء مرحلة الاستسلام منذ ذلك العام حتى مصرع السادات في العام ١٩٨١ مع كل ما رافق ذلك من مشاحنات عربية، وحروب اذاعية، ومقاطعة لمؤتمرات القمة، والحرب الاهلية في لبنان، وحرب الخليج ، واختلاف على أبسط معاني التضامن العربي!

ولم يعد سلاح البترول العربي، شيئا يقلق بال اميركا، اذ انها اصبحت تعتقد تماما بان احدا لن يستعمل هذا السلاح ولن يشهره في وجهها مهما تعاظمت جرائمها ضد العرب . !

ألم يحاول المرحوم الملك فيصل ان يهدد اميركا بسلاح البترول عام ١٩٧٣ فأجابت اميركا بان الملك يلعب باعصاب اميركا ولكنه لن يحطمها، وان السعودية لن تلجأ الى قطع البترول مهما كانت الظروف؟!

واترك هنا الكلام للوزير السعودي احمد زكي اليماني يروي بقية القصة فيقول لي ضمن حديث طويل معه في الرياض عام ١٩٧٦.

«. . في ابريل عام ١٩٧٣ ارسلني المرحوم الملك فيصل الى اميركا بقصد اشعار الحكومة الاميركية بأن السعودية سوف تستخدم سلاح بترولها اذا لم تقم اميركا بتغيير سياستها في الشرق الاوسط تجاه العرب! وبالفعل سافرت الى اميركا وقابلت روجرز، وكيسنجر. . وشولتز وغيرهم. وقلت لهم بتفاصيل ما امرني به الملك. . وابلغتهم تحذيراته بالتفصيل. . فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة ان الاميركان اعلنوا ان هذا الرأي التحذيري القادم من الملك فيصل لا يمثل سياسة المملكة العربية السعودية وانما هو رأي. . «شخصي». . واحد. . منفرد هو زكي اليماني!. ثم مضت اسابيع. . وفي يونيو عام ١٩٧٣ امر الملك فيصل رسولا من عنده ان يبلغ رؤساء شركات البترول عزمه على استخدام سلاح البترول في معركة العرب ضد اعدائهم. ومرة اخرى اعلنت وزارة الخارجية الاميركية ان هذا القول «مجرد تهويش» تقوم به شركات البترول حرصا على منافعها المالية! ومرت اسابيع اخرى. وفي شهر يوليو اعطى الملك فيصل تصريحا صحفيا لجريدتي «الكريستيان ساينس مونيتور» وجريدة «الواشنطن بوست» بانه سيستخدم سلاح البترول في المعركة الحالية. وفي نفس اليوم جاء مندوبا الجريدتين المذكورتين لتناول طعام الغداء بدعوة مني في منزلي. وعلمت السفارة الاميركية في «جدة» بخبر تصريح الملك وزيارة الصحفيين لي. ونشر تصريح الملك بحذافيره. وتوّجه المستر كيسي وكيل الخارجية الاميركية الى شبكات التلفزيون واعلن ان تصريحات الملك فيصل لا تمثل سياسة المملكة العربية السعودية!! موقف عجيب! موقف شاذ! موقف عدائي لا يقبله منطق ولا عقل! صاحب الحديث هو ملك المملكة العربية السعودية. . وهو الذي امر بنشره. . ومع ذلك يزعم وكيل الخارجية الاميركية ان هذا الحديث شيء وسياسة المملكة شيء آخر! وقرأ الملك «فيصل» تصريحات المستر «كيسي» في نفس

الليلة فاستدعاني الى مكتبه وسألني وهو يبتسم في مرارة:

ـ «اجل !؟ من هو الذي يمثل سياسة المملكة العربية السعودية؟!» وبقيت جميع اجهزة اميركا وصحفها ورجالاتها تناور وتشكك في حديث الملك الى ان اضطر الملك نفسه ان يقف ـ رحمه الله ـ على شاشة التلفزيون الاميركي مع شبكة الـ «ان. بي. سي» ويقول بالحرف الواحد انه سيضطر الى استخدام سلاح البترول واتخاذ بقية الاجراءات التي يراها ضرورية للدفاع عن الحق العربي. ! عندئذ فقط، قامت قيامة اميركا ولم تقعد حتى بعد نشوب حرب اكتوبر، واستمرار حظر البترول العربي عليها!»

ويستطرد احمد زكي اليماني ويقول لي في مكتبه بالرياض:

ـ «المهم ان اميركا لم تشأ ان تصدق بان السعودية قادرة على ان تفرض حظر البترول ضدها! كانت اميركا تكذب على نفسها. كانت تحب ان تهزأ بالصلابة العربية التي كان يمثلها المرحوم فيصل بن عبد العزيز!»

هذه واحدة من «جليطات» السياسة الاميركية ضد العرب. .

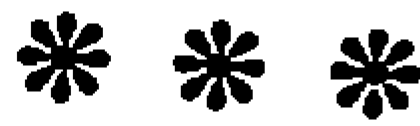
وكما كانت الاولى ضد ملك سعودي راحل، فقد كانت الثانية ضد شقيقه الملك الطيب الراحل خالد بن عبد العزيز. !

وحدثني احد المقربين من جلالة الملك الراحل خالد بن عبد العزيز، وكان يداوم على حضور جلساته المسائية في قصره بمدينة «جنيف» بسويسرا، في معرض حديثي معه عن السياسة الاميركية وغبائها وكيف اني سمعت من الصديق الراحل «احمد الشقيري» قوله لي ذات يوم ان الفرق بين السياسة الاميركية والسياسة البريطانية ان الانكليز في غاية الخبث والدهاء بينما الاميركان في غاية السخف والغباء، قال لي ذلك المقرب من الملك الراحل:

«ان سر واشنطن انها تمارس السياسة بعقلية التجار وتمارس التجارة بفن اليهود! ولا تؤمن واشنطن بوجود شيء اسمه عاطفة، أو شيء اسمه «مجاملة»، أو شيء اسمه «صداقة»، أو شيء اسمه «مجانا». . أو شيء اسمه بلا مقابل! ولذا فان واشنطن لا تدري كيف تفسر الخدمات الكثيرة التي يقدمها لها العرب ولا يطالبونها بالثمن! وهي لا تفرق بين العلاقة الشخصية والعلاقة الرسمية. وهي تفسر كلام

المجاملات عند العرب وكأنه «مواقف» رسمية! فقد حدث ان اتصل الرئيس جيمي كارتر من مكتبه بواشنطن ايام عهد الرئاسة بالمستشفى الذي كان يعالج فيه الملك الراحل خالد بن عبد العزيز في ولاية «كليفلاند» بأميركا! وكان الملك الراحل قد اجرى عملية «فتح قلب» وخرج منها سليما معافى. واعرب جيمي كارتر للملك عن تمنياته له بالشفاء العاجل، وعن سعادته بنجاح العملية! فأجاب الملك خالد شاكرا متمنيا له السعادة «ولاميركا وللعالم على يديه وبسياسته الحكيمة الخير والسلام والتوفيق!». واقفل جيمي كارتر سماعة التلفون وهو يرقص طربا، وطلب وزير خارجيته على الفور وقال له ان الملك خالد قال لي «انه يؤيد اتفاقية كامب دايفيد كما يؤيد سياسة السلام بين مصر واسرائيل!»

كان الملك خالد رحمه الله نقي السريرة، مجاملا، طيبا، يرد التحية بأحسن منها، ولكن غباء جيمي كارتر جعله يعتقد بان في رد التحية ما يؤكد بان السعودية قد ايدت اتفاقية.. كامب دايفيد!



الفصل الرابع
بن غوريون سأل الزعيم الفلسطيني الكبير إذا كان يعرف سرّ قوة اسرائيل

● عبد الحميد شرف: «الديمقراطية تعلم الناس الحرية والحرية تعلم الناس الشعور بالأمن . . »

● محمد حسن الهضيبي: نحن لا نخشى اليهود وانما نخشى الاحكام العسكرية في. . . بلادنا!» !

● قضية فلسطين كانت «الشماعة» التي يعلق عليها الديكتاتور العربي اخطاءه

الفصل الرابع
بن غوريون سأل الزعيم الفلسطيني الكبير إذا كان يعرف سرّ قوة اسرائيل

رأيت حسني الزعيم ـ ولقبه «باجي سقا» دمشق ـ يركب دبابة فرنسية ويخرج بها من رئاسة الأركان السورية ويتجول في شوارع دمشق ثم يعود الى القصر الجمهوري محفوفا بالاجلال والاكرام! كان يحمل عصا المارشالية في يده، وينفخ صدره مثل نابليون ويضع التكشيرة على وجهه الضخم ويشتم رجال حاشيته بأقذر الألفاظ لكي يقول الناس أنه عصبي المزاج، تائه الفكر، يخطط لأنقاذ . . فلسطين!

ورأيت «خريطة» فلسطين، و«عملة» فلسطين التي طبعها ووزعها عبد الكريم قاسم في العراق! وعرفت وزير الدفاع «العربي جدا» الذي كان يدعو الله في صيف عام ١٩٤٨ ان تطول الحرب مع اسرائيل لكي تتضاعف عمولاته من صفقات السلاح بين بلده والمصانع الايطالية! وسهرت مع عبد الحكيم عامر والرئيس الأندونيسي سوكارنو في منزل الممثل المصري «سميرذو الفقار» بشارع الهرم بالقاهرة واستمعت بعد منتصف الليل الى خطة «المشير» السرية لأنقاذ القدس على دقات فرقة الرقص البلدي وانغام هز البطن من نجوى فؤاد ومجموعة فتيات معهد الفن الشعبي بالقاهرة! وكان المرحوم خالد العظم رئيس وزراء سوريا الراحل، يقضي فصول الصيف في فندق «صوفر» الكبير بلبنان وهو نائم على الشرفة وقد وضع جهاز الراديو الصغير على الوسادة واغمض عينيه واستسلم لأحلام السعادة في أستعادة فلسطين! وسمعت الأمام «البدر» يقول لجمال عبد الناصر في قصر الضيافة

بدمشق انه «يؤيد الاتحاد الثلاثي مع مصر من اجل بناء الجيش «اليمني» القادر ان ينتصر على اليهود»!

كانت فلسطين ملعب اللقاء العربي، وكانت ايضا سبب فرقة العرب! من أجلها اتحدوا وبسببها تفرقوا! كانت هي النور في طريق احلامهم وكانت هي النار التي حرقتهم ! من أبوابها تسلل الحكام الى مقاعد السلطة ومن ابوابها ـ ايضا ـ سقط الحكام في القبور بلا جنازات! كان حب العرب لفلسطين متساويا مع القدرة على استغلالهم لأسمها ومأساتها! وكانت هي ـ فلسطين ـ طيبة القلب ساذجة العقل تهتف احيانا بحياة جلاديها وتدعو لقتلتها بالتوفيق والسعادة والعمر الطويل. !

وفي عام ١٩٤٨ انتصر اليهود، وقال العرب ان «فاروق» هو المسؤول وأن السبب هي الاسلحة الفاسدة! وقرر الملك عبدالله ضم الضفة الغربية وقال عبد الرحمن عزام «لو لم يضم الملك عبد الله الضفة والقدس لاستعاد العرب يافا وحيفا!» وبينما كانت اسرائيل مشغولة ببناء مفاعلها الذري وقنابلها وجيشها، كان العرب مشغولين بمهاجمة «حلف بغداد» وتدبير الأنقلابات في دمشق وبغداد وعمان والخرطوم! وسرقت اسرائيل مياه الاردن وقال «رئيس دولة عربي» انه قادر ان يهزم اسرائيل في ثلاثة ايام! وقامت حرب ١٩٦٧ وانتصرت اسرائيل، وقيل ان السبب خلاف بسيط في علم الجغرافيا، اذ اننا انتظرناهم من الشرق فجاءوا الينا من الغرب! وعشنا نهتف لثورة ٢٣ يوليو التي قيل انها ما ولدت الا من أجل تحرير فلسطين، فاذ بخليفة عبد الناصر بالذات يعلن بعد عشرين سنة على قيام الثورة ان «مراكز القوى» قد أفسدت المبادىء الثورية وان قطار تحرير فلسطين قد خرج عن الخط فتحطم القطار ولم تتحرر فلسطين. . !

وسألت يوما صديقي العالم الأستاذ «البرت حوراني» المحاضر في جامعة «اكسفورد» وأقدر من دافع عن قضية فلسطين في تاريخها الطويل، سألته عن سر تقاعس العرب في انقاذ فلسطين مما ادى الى ضياعها فأجابني بكلمات الأستاذ المعلم: «ان «مصلحة» الدولة هي اهم العناصر التي تبني عليها الحكومات العربية سياستها، وهذه المصلحة ترتكز على عنصرين اثنين: ما يخدم مصلحة الدولة ككل، وما يخدم مصلحة الحكام والفئات التي يمثلونها!»

وتركني أحاول ان افهم من كلامه ما أشاء. ! وجعلني اسأل نفسي - على ضوء ما كنت أسمع وأقرأ وارى - هل كانت مصلحة «بعض» الدول العربية خلال السنوات الطويلة الماضية تسمح لبعض الحكام العرب بالسعي لانقاذ فلسطين وحل قضيتها، أم كانت المصلحة تقضي ببقاء القضية الفلسطينية بدون حل لكي تستمر «المنافع» المترتبة على عدم حلها. ؟

ورحت استعرض امامي الف أسم والف موقف في ألف مناسبة وألف حفل:

ماذا يتبقى للجامعة العربية، ولأمينها العام ونوابه الكرام ورؤساء الدوائر ومديري المكاتب وضباط المقاطعة اذا لم يكن هناك شيء اسمه: قضية فلسطين؟!

كان عبد الخالق حسونة «باشا» يعيش كالملوك ويمارس عمله كالأباطرة. لقد خصص لنفسه دورا كاملا في مبنى الجامعة العربية الرئيسي بالقاهرة! كان محاطا بالمساعدين والحراس ويضع على سيارته علم «الجامعة» الخاص ومعفى من الضرائب والرسوم، ويتمتع بالحصانة الديبلوماسية في سائر انحاء العالم العربي، ويتقاضى راتبا خياليا يزيد عن راتب رئيس جمهورية مصر، وينفق بلا حساب، وعنده المخصصات الكافية للحفلات والأفراح والليالي الملاح، واذا سافر الى اوروبا - لخدمة قضية فلسطين - أصبح جميع مديري مكاتب الجامعة العربية في جميع عواصم اوروبا تحت امرته وفي خدمته! هذا المدير يرتب «للباشا» مواعيده مع الاطباء. وهذا يحجز للباشا جناحه المفضل في فندق جورج الخامس بباريس! وذلك يستقبل الباشا أمام مبنى قاعة كبار الزوار في مطار نيويورك. والباشا نفسه يرتع في هذا العز السماوي! وعندما قيل لي أن «الشاذلي القليبي» يخشى عودة مصر الى العرب، وبالتالي عودة الجامعة العربية الى مقرها القديم على شاطىء النيل، قلت لهم ان الشاذلي معذور فقد يفلت منه اكبر منصب سياسي عند العرب وتضيع منه الوجاهة.. والتصريحات.. والرحلات.. والزعامة التي لا تتطلب جهدا ولا عملا! كان عبد الناصر نفسه يقول لمحمد هيكل - والرواية من هيكل لي - «الوظيفة الوحيدة التي اتمناها بعد ان ابلغ الستين هي محل.. عبد الخالق حسونة!»

ماذا يبقى من الجامعة وعنها ولها اذا انتهت قضية فلسطين!؟ كانت «الجامعة» في مصر دولة داخل دولة! وكان الشقيري يكيد لعزام، وكان السيد «نوفل» يتآمر على

«حسونة» ثم على محمود رياض، وكانت أعمار المستشارين للأمين العام تزيد عن الخامسة والسبعين! كان بين المستشارين عوني عبد الهادي من فلسطين وطه حسنين من مصر وعندما بلغ المرحوم «احسان الجابري» عامه التسعين طلب من حسونة تعيينه في الجامعة مستشارا قانونيا! كان الباشاوات من امثال «التهازي باشا» الذي جاوز الثمانين يحيطون بالأمين العام إحاطة السوار بالمعصم، وكانت الآمال العربية معقودة عليهم من أجل توحيد العرب، وانقاذ فلسطين والعمل لبناء «المستقبل» العربي!

ومثل الجامعة . . امثال.

كنت اسأل رجال المعارضة في العراق على ايام العهد الملكي من امثال الجادرجي، وفائق السامرائي، وصديق شنشل، «لماذا لاتنزلون الى الشارع وتقودون شعب بغداد في المظاهرات ضد الحكم اذا كنتم غير موافقين على سياسة «حلف بغداد» وعلى قيادة نوري السعيد؟» فاسمعهم يجيبونني قائلين: «ان القوانين الأستثنائية العسكرية المفروضة علينا بأسم الدفاع عن فلسطين لا تسمح بحرية العمل السياسي ولا بالتظاهر! إن القصر والحكومة قد جعلوا من قضية «فلسطين» ستارا يختبئون وراءه من أجل تبرير البطش ومصادرة الحريات وفرض الحكم الحديدي! وكلما طالبنا بعودة الحياة السياسية الى سابق عهدها كما كانت قبل عام ١٩٤٨، أجاب «البلاط» وردت الحكومة ان معركة العراق من أجل تحرير فلسطين ما زالت مستمرة وان «ترف» الحكم الديمقراطي وما فيه من حريات قد يعطي «اليهود» فرصة للتحرك ضد المصلحة العربية العليا. !»

وكنت أزور المرشد العام السيد محمد حسن الهضيبي، الزعيم الراحل لجماعة الاخوان المسلمين في مصر في مكتبه بالقاهرة في شتاء عام ١٩٥٣. وسألته بعد حديث طويل عن «جهاد» الأخوان في حرب عام ١٩٤٨ ضد اليهود وقلت له:

ـ لماذا لا يحاول «رهبان الليل وفرسان النهار»، وهم شباب الاخوان المسلمين التسلل من غزة الى الأرض المحتلة والقيام بأعمال عسكرية ضد اسرائيل تجدد كرامات هؤلاء الشباب وجهادهم المعروف في حرب فلسطين فأجابني حسن الهضيبي: «نحن لا نخشى اليهود وانما نخشى حرس الحدود المصري في صحراء

سيناء! ان البلاد تحت الأحكام العرفية، وحالة طوارىء، وسيناء خاضعة للقانون العسكري، والجيش هو الذي يدير الأعمال من الجهة المصرية.. والذي «يمنع الاخوان» من التحرك في داخل مصر هو الذي يمنع الاخوان من التحرك على حدود مصر! نحن هنا - يا سيدي - محكومون بالحديد والنار! فسألته ولماذا لا تطالبون بالغاء الأحكام العرفية، فأجاب: «الوزارة تقول ان القوانين العرفية، وقوانين الطوارىء لايمكن الغاؤها قبل تحرير فلسطين.. وان تحرير فلسطين يستوجب حشد الامكانيات والابقاء على الجيش في حالة تأهب وفرض القوانين العسكرية لحماية البلاد من الجواسيس والأجانب وأعمال التخريب..!»

فلسطين! فلسطين!

وما يقال عن العراق ومصر، يقال مثله عن سوريا والأردن و دول الخليج وجميع دول شمال افريقيا! كانت فلسطين هي الخشبة التي يعلق عليها الحكام العرب اخطاءهم ويبررون بها جرائمهم ويكتمون باسمها نسمات الحرية والكرامة والاستقلال الشخصي عن شعوبهم! باسم فلسطين قامت الانقلابات وصدرت البلاغات وفرضت الاحكام العرفية وسيق المئات الى المحاكم ونصبت اعواد المشانق وتخلص الطغاة من معارضتهم فهانت الكرامات وجرحت الضمائر وديست الحقائق وزور التاريخ واعتدي على الأعراض واستحلت البيوتات وأممت الصحف وخنقت الأقلام! وكانت اسرائيل تعلم كل ذلك وترصده وتستغله لحسابها! وكانت النتائج دائما لمصلحة اسرائيل! فالشعب المقهور في بلده خارج فلسطين سيبقى عاجزا عن ان يتحسس فداحة الظلم الذي وقع على فلسطين نفسها، وبالتالي سيبقى عاجزا عن ان ينقذها، أو يحررها!. العبد لا يقدر ان يحرر عبدا مثله! الأحرار وحدهم يحررون العبيد! كان «الاسكندر الاكبر» يقول: «لقد استعبدت شعوب آسيا لانها لم تعرف كيف تقول لا!» وكان دايفيد بن غوريون يرد على المواطنين العرب في داخل اسرائيل الذين يطالبونه بالغاء الحكم العسكري الاسرائيلي عن عكا، والجليل، والناصرة، كان يقول لهم: «عندما تلغي الدول العربية قوانين الطوارىء عندها، وتجمد الأحكام العسكرية المفروضة على شعوبها، سألغي انا القوانين «الخاصة» المفروضة على عرب اسرائيل! انني - أي بن غوريون -

لن اكون اكثر رحمة على العرب، من العرب انفسهم، على شعوبهم، وعلى انفسهم!»

وكانت الاحكام العرفية ـ أو قوانين الطوارىء ـ في البلاد العربية بمثابة البرهان القاطع الذي تضعه الحكومات العربية امام اسرائيل للتدليل على. . ضعفها! ان الحاكم القوي لايخشى المعارضة! والحكومات التي تستند الى قوة الشعب لا تحتاج الى قوانين عسكرية لحمايتها! ورغم حكم البطش، والعنف، والأحكام العسكرية في مصر خلال عام ١٩٥٠، وفي شهر نوفمبر بالذات، كان جيفرسون كافري سفير اميركا بمصر يقول لاصدقائه: «انني اشم رائحة الانقلاب العسكري قادما في. . الافق»! ورغم الاحكام العرفية واليد الحديدية في العراق، فان الجيش العراقي نفسه هو الذي زحف الى قصر «الرحاب» وقضى على الاسرة الحاكمة هناك! كان الجنرال موشي دايان يتناول طعام الغداء مع زوجته في مطعم احد الفنادق الكبرى في نيويورك في اكتوبر عام ١٩٧٧ عندما دعاني السيد عبدالله صلاح سفير الاردن في واشنطن لكي انضم اليه والى السيد «عبد الحميد شرف» مندوب الاردن في الامم المتحدة يومذاك لتناول الغداء. وعندما قادنا موظف المطعم الى المائدة المحجوزة باسم السفير الاردني، وجدنا انفسنا بجوار مائدة موشي دايان! واصفر وجه عبد الحميد شرف وقال للسفير «صلاح» ان الأفضل لنا ان ننسحب! وسألني عبدالله صلاح «ماذا ترى»؟ قلت: «بل نبقى حيث جلسنا وعلى الجنرال دايان ان ينسحب اذا اراد!» وبقينا جالسين وعلى رؤوسنا الطير. وقلت ضاحكا وكأني اعيد لعبد الحميد شرف بعض الشعور بالراحة: «نحن على استعداد لان ننسحب ونترك المكان للجنرال دايان اذا كان الجنرال دايان يعدنا بالانسحاب من الضفة الغربية ويترك مكانه في القدس لاصحابها الشرعيين»! وسمع الجنرال كلامي وتظاهر بالابتسام! وبقي كل منا في مكانه الى ان انتهينا من تناول الطعام وخرج «دايان» ومعه زوجته لوحدهما! هكذا بلا حرس ولا ضجة ولا صفارات الانذار! لقد دفع فاتورة الحساب وصافح الجرسون ووضع يده في يد زوجته الشقراء واتجه نحو الباب الخارجي ومشى على الرصيف دون ان ينتظره احد أو يحرسه احد. واعجب السيد «عبد الحميد شرف» بالمنظر، وكان بطبعه اديبا ومحللا سياسيا ومعلقا صحفيا بارزا

وقال وكأنه يوجه السهام الى الحكام العرب في بلادنا: «ان الحكم الديمقراطي يعلم الناس الحرية، والحرية تعلم الناس الشعور بالأطمئنان!»

ولم يزد على ذلك بكلمة واحدة. .

قلت له وانا احاول تفسير كلامه، له: في أول ايام الاحتلال الاسرائيلي للجزء العربي من القدس، ذهب دايفيد بن غوريون لزيارة الزعيم الفلسطيني السيد موسى العلمي في منزله «بالمشروع الأنشائي» بمدينة اريحا. ودار الحديث ـ بالطبع ـ عن الجيش. . والقوة. . واستطاعة اسرائيل ان تصل الى السويس. . والجولان. . ونهر الاردن في خلال ستة ايام فقط! وقال بن غوريون لموسى العلمي، كما روى لي العلمي بنفسه فيما بعد: «يا مستر علمي. . هل تعرف سر قوة اسرائيل. انها ليست القنبلة الذرية. ولا الاسلحة الاميركية. ولا التدريب المتواصل. ان سر قوة اسرائيل محصورة في ديمقراطية اسرائيل! ان ديمقراطيتنا هي وحدها «العملة النادرة» في اسواق الشرق الاوسط!. ان ديمقراطيتنا هي وحدها التي تفتح قلوب العالم الاوروبي والاميركي لنا وتغلقها في وجه العرب. . !! هذه الديمقراطية تميزنا عنكم وتعطينا القوة وتمنع عنا الانقلابات وتحرسنا من الاخطار!»

قال لي موسى العلمي: ولم استطع الا ان اوافق بن غورين على كلامه!.»

وقلت للسيد عبد الحميد شرف وزميله السفير الاردني في واشنطن ـ عبدالله صلاح، «لعل أعظم ما كتبه الصحفي الزميل محمد حسنين هيكل في حياته الصحفية كلها، ليس في رثاء عبد الناصر، ولا في مهاجمة خصومه، ولا في الكشف عن اسرار حرب رمضان. ان اعظم ما كتبه هيكل في نظري هو المقال الذي قارن فيه بين اسلوب التفاوض بين مصر وهنري كيسنجر من جهة، واسلوب التفاوض بين اسرائيل وهنري كيسنجر من جهة اخرى في اوائل السبعينات. قال هيكل في المقال المذكور ان كيسنجر في عملية تفاوضه مع اسرائيل يجد امامه «صفا» من رئيس الوزراء، ووزير الخارجية ووزير الداخلية، ووزير الدفاع. ولكنه عندما يأتي الى دولة عربية لكي يفاوضها، لايجد امامه سوى شخص واحد. .

وبالطبع فقد فازت اسرائيل بحصة الاسد، بينما وقع بعض العرب في مصيدة المصائب. نتيجة حكم الفرد وتسلط الرأي الواحد.. !

ما علينا . .

لقد اختلفت نظرة الدولة الى مفهوم جيشها بين العرب وبين اليهود! كان الجيش عند اسرائيل ـ وما زال ـ بمثابة القوة العسكرية القادرة على ان تحمي الحدود وتصون سلامة الدولة واستقلالها وبقي «الجيش» عند الحكام العرب من اجل اسباب اخرى لا علاقة لها بالحدود ولا بسلامة الدولة ولا باستقلالها! . كان الجيش عند اسرائيل اشبه بالسر او اللغز أو الاسطورة التي لايراها العالم الا في الحروب؟ وبقيت بعض جيوش بعض العرب، كالأسطورة ـ ايضا ـ لا نراها حتى في الحروب!

واعود قليلا الى دفتر مذكراتي واقرأ فيه هذه السطور: ٢٨ يونيو ١٩٥٦ قابلت اليوم في فندن «سان جورج» ببيروت السيد «مصطفى بن حليم» رئيس وزراء ليبيا! . قال لي هذا الديبلوماسي الليبي المسؤول انه التقى في لندن منذ ايام بالسيد نوري السعيد رئيس وزراء العراق في دار السفارة العراقية بلندن، وحضر اجتماعهما السيد «طارق العسكري» الوزير المفوض وقال «بن حليم» لنوري السعيد ان ليبيا بحكم جوارها لمصر تدعو الله ان يزول العداء بين بغداد والقاهرة لكي تقدر ليبيا ان تقف في وجه الضغط البريطاني وتنجح في تعديل معاهدتها مع الانكليز! واجابه نوري السعيد بانه يفعل اقصى ما يمكنه القيام به من اجل تحقيق التفاهم مع جمال عبد الناصر وانه ـ اي نوري ـ قد أرسل الى جمال عبد الناصر رسالة سرية قال له فيها ان كل عربي يشعر بالسعادة بعد نجاح مصر في الحصول على الاسلحة من تشيكوسلوفاكيا، وان العراق يبارك لمصر في هذه الصفقة وان الحكومة العراقية تمد يدها لمصر وتعلن استعدادها للتفاهم والتشاور معها حول جميع الامور المتعلقة شريطة ان «يكتفي العرب حاليا بحصر جهودهم في مواجهة اسرائيل وعدم السماح للسوفيات بالتسلل الى الوطن العربي نتيجة الحصول على الاسلحة الروسية . .»

ثم قال نوري السعيد لمصطفى بن حليم:

- وقد عرضت على جمال عبد الناصر بنفسي، وتحت توقيعي منصب قيادة الجيش العراقي بعد توحيد الجيش العراقي والمصري، وطلبت منه أن نلتقي لكي نبحث نوعية السلاح السوفياتي الجديد ومدى قدرتنا على استيعابه لئلا «تتخذ اسرائيل من صفقة الأسلحة التشيكوسلوفاكية لمصر عذرا تسعى من ورائه للحصول

على أحدث الأسلحة الفرنسية والبريطانية لكي تقاوم بها الجيش المصري. . »
ثم قلت له:

«. . انني يا سيادة الاخ جمال، جندي قديم، وما زلت أعتز بكل جرح اصابني في ارض الشام أو في غيرها دفاعا عن استقلال العرب، واعترف ان واجب الجندي هو الصمود على حدود بلاده وليس في استعراضات المناسبات بين تصفيق الناس وزغاريد النساء. ان اسرائيل على وشك ان تملك السلاح النووي من فرنسا، وان علينا ان نستعد لمواجهة هذا الخطر القريب. .

قال لي مصطفى بن حليم مستطرداً:

ـ وبعد يومين، ذهبت الى مصر وقابلت جمال عبد الناصر وسألته عن حقيقة الرسالة السرية التي ارسلها اليه نوري السعيد. فأجابني بانها صحيحة ولكن «عروض نوري السعيد كلها كذب لان صاحبها استعماري قذر. !»

وبعد شهرين اثنين وقع العدوان الثلاثي على مصر!

مرة اخرى. . ما علينا!

ان المجتمع المتفتح وحده هو المناخ الصحي المطلوب لمعرفة الاخطاء والعمل على تجنبها سواء في الميدان السياسي ام في الميدان العسكري. !

وعندما اغلقت مصر مضايق تيران عام ١٩٦٧، وزحف شبح الحرب على المنطقة، لم يبق زعيم أو مسؤول من اصدقاء مصر الا وارسل الى جمال عبد الناصر تحذيرا سريا يضمنه ـ وبالتفصيل ـ قوة اسرائيل وطاقاتها العسكرية. .

فعل ذلك، رئيس باكستان «أيوب خان»! وحدثني بنفسه عن ذلك في مكتبه بعاصمة بلاده. .

وفعل ذلك «هنري سباك»، رجل بلجيكا الكبير، وارسل سفير مصر في بروكسل، الديبلوماسي العسكري الثوري المصري الشاب يحمل شخصيا كل النصائح وكل الاسرار الى رئيس مطر.

وفعل ذلك اقطاب السياسة والمسؤولية في باريس، والهند، واليونان والأمم المتحدة. ولكن كل ذلك ضاع في قاع «نهر النيل» بسبب نوعية الحكم الذي لايسمع بالصوت المعارض حتى ولو كان ذلك الصوت لمصلحة الوطن او حماية له

من العدو الخارجي . !

وسيمضي وقت طويل، طويل، قبل ان نعرف «كل» الحقائق عن عدوان ١٩٥٦ وعن حرب ١٩٦٧ !

وستمضي سنوات وسنوات قبل ان نعرف الحقيقة: لماذا حارب انور السادات في ١٩٧٣ ولماذا توقف، ولماذا رضي بوقف اطلاق النار وما هي الحقيقة الضائعة بين ما يقوله هو، وما تقوله سوريا حول هذا الموضوع . . الخطير!

كذلك: ستمضي سنوات وسنوات قبل ان نعرف الحقيقة عن «كل» ما جرى في لبنان من امجاد يعتز بها العرب، ومن مخازي وفضائح يندي لها جبين كل عربي!

ذلك ان الاسوار العالية قد ارتفعت عمدا لكي تغطي الانوار وتحجب الحقائق وتزور التاريخ !

سألني ذات يوم السفير الديبلوماسي البريطاني «تشابمان اندروز» وكان سفيرا ناجحا لبريطانيا في مصر، وفي لبنان في الخمسينات .

ـ لماذا يشعر بعض العرب بالكراهية لبعض الفلسطينيين؟ !

ولم أجبه . .

فعاد يسألني :

ـ لماذا يقلق بعض حكام العرب من بعض المسؤولين في القيادة الفلسطينية؟

واجبته على الفور:

ـ لأن القيادة الفلسطينية ـ رغم جراحها وظروفها ـ قيادة ديمقراطية، يستمع فيها الكبير للصغير، ويتناقش فيها الرفقاء بكل صراحة وصدق وبدون خوف، ولا عقد ولا تزوير ولا ارهاب . !

ثم اضفت:

ـ منذ عامين كنت ارقب من بعيد تفاصيل ما كان يدور يومذاك من مناقشات داخل المجلس الوطني الفلسطيني حول التناقضات التي ظهرت بين بعض اعضاء اللجنة المركزية. وقمت على التلفون واتصلت باحد القياديين الفلسطينيين في بيروت وسمعته يقول لي عبر التلفون بين بيروت وجنيف:

ـ كانت المناقشات حامية الوطيس وكان هناك العشرات من اعضاء المجلس

يطالبون اعضاء اللجنة المركزية بتحديد «الرؤية» السياسية كي تنتهي البلبلة التي اصابت بعض رجال القاعدة. كما كان هناك نقاشا حاميا بين المتشددين والمعتدلين في «فتح» وانتصرت وجهة نظر المتشددين الذين قرروا - في النهاية - ان نتيجة الاعتدال والمساومة تزيد اسرائيل تصلبا وقوة! كما كانت هناك مناقشات بين العسكريين والمدنيين داخل المجلس اتسمت كلها بأوضح مظاهر الديمقراطية واثبتت تساوي الاصوات بين الكبير والصغير واكدت للجميع ان «الفلسطيني» يبقى اكثر الناس تفهما للروح الديمقراطية واخلص الناس لها بالقول والعمل. !

وانتهى الكلام..

واجابني السفير البريطاني ضاحكا:

- من يدري ماذا سيكون الحال اذا تحولت الثورة الى دولة.. هل ستكون «الديمقراطية» هي الضحية الجديدة عند الفلسطينيين كما كانت وما زالت هي الضحية عند الدول العربية بعد ان نالت استقلالها التام واحتلت مكانها بين الأسرة الدولية؟..»

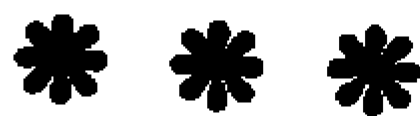
أجبته وانا اصافحه مودعا:

- عندما تقوم الدولة الفلسطينية على ارض فلسطين لن يبقى امام الحكام العرب «شماعة ثياب» يعلقون عليها اخطاءهم ويبررون بها الاحكام العسكرية وممارسة سلطة الفرد الواحد. وبالتالي، ستصبح الدولة الفلسطينية هي «المعلم» الذي ينشر من حوله معالم الحكم الديمقراطي ومفاهيم الحرية الكاملة.. تماما كما سبق للفلسطيني «الضائع» ان نشر في كل عاصمة عربية معاني العمران ومظاهر البناء واسس العلم..

ثم قلت:

- ما زلت اذكر عبارة سمعتها في شتاء ١٩٥٥ من الرئيس السوري الشيخ الجليل «هاشم الاتاسي» على مسمع من ميخائيل ليان، والزميل الراحل «كامل مروة». قال لي هاشم الاتاسي:

- سأودع الحياة يا ولدي وقلبي يقطر دما على الحرية السياسية في هذا البلد. !



الفصل الخامس
بيغن مجرم وسفاح ولا يحفظ من
من الوصايا العشر سوى: لا تسرق!

● للعجز السياسي علاقة مباشرة بالعجز الآخر. . .

● عشرون ضابطا حققوا الوحدة وعشرة ضباط صنعوا الانفصال. . .

● احسان الجابري ترك السياسة وتفرغ لمعارضة قصيدة «أيظن» !

● «سبيرو اغنيو» شبه اسرائيل «بسمكة القرش» وحذر العرب من انيابها.

الفصل الخامس
بيغن مجرم وسفاح ولا يحفظ من
من الوصايا العشر سوى: لا تسرق

من القصص التي سمعناها من الدكتور شارل مالك في محاضرات الفلسفة بجامعة بيروت الاميركية، قصة ذلك البائس الذي رمى بنفسه الى النهر بقصد الانتحار. . . فابصره رجل بوليس كان بالصدفة يمر بذلك المكان، فرمى بنفسه وراءه وجره الى الشاطىء رغم ارادته وسأله عن سبب محاولته الانتحار؟

وراح البائس يبكي ويلوم رجل البوليس لأنه لم يتركه ينتحر تخلصا من الآلام والنكبات. ثم راح يسرد على مسامع رجل البوليس بعضا من مآسي حياته. وبعد لحظات كان رجل البوليس نفسه يرمي بنفسه الى اعماق النهر، وينتحر!

تلك قصة عمرها اكثر من اربعين سنة وقد تذكرتها اليوم وأنا احاول ان استعيد في ذاكرتي صور النكبات والأخطاء والهزائم التي «وصلت بالعرب الى هنا» فأذ بي لوفرة ما جمعت وما تذكرت وما استعدت اكاد ادهش لماذا لم يصل العرب الى «ما هو أسوأ من هنا»، بل كدت اسأل نفسي بكل خوف وقلق: وكيف يمكن للعرب ان يصلوا الى «غير هنا» بعد كل هذا الذي نعرفه ونقدر ان نكتبه وان ننشره، والذي نعرفه ولكن لا نقدر ان نكتبه ولا نقدر ان ننشره. . ؟!

ففي الثلاثينات كنا نقرأ مجلة اميركية اسمها: «قصة حقيقية» وكان شعارها المنشور على الغلاف «الحقيقة أغرب من الخيال»! وكنا ندهش لكثرة ما كانت تحتويه تلك المجلة من قصص حقيقية يكاد لا يصدقها عقل ولا يقبلها منطق. !

لو ان تلك المجلة المذكورة ما زالت على قيد الحياة ـ ولا أدري ان توقفت عن الصدور ام لا ـ لما ترددت في ان تفسح صدر صفحاتها الاولى لكي تنشر القصة السياسية التالية عنا. . . نحن العرب:

بعد فشل مؤتمر فاس «الاول» في تشرين الثاني «نوفمبر» من عام ١٩٨١ خيم على العالم العربي شعور بالمرارة والضيق! فقد اثبت فشل المؤتمر حقيقة مؤلمة كان الشارع العربي يشعر بها ولكنه يرفض ان يقبلها او يعلنها او يعترف بها! وهذه الحقيقة ترمز الى «عجز» العرب عن الاتفاق فيما بينهم من أجل السلام او من اجل الحرب! وكان هذا «العجز» يحز في قلب كل عربي، كالسكين! ان الكرامة تأبى العجز! والرجولة تأبى العجز! والشباب يأبى العجز! وبينما كان العرب يرقبون بحذر شديد الخطوات المباشرة التي سيقوم بها كل رئيس أو ملك او زعيم بعد اعلان فشل المؤتمر في مدينة فاس، ويبنون عليها مدى جدية ذلك المسؤول العربي، ومدى شعوره بالأزمة، ومدى احساسه بالمسؤولية، كتب سفير دولة اوروبية محترمة في احدى المدن الاوروبية الدولية الى حكومته تقريرا مستعجلا، وسريا، قال فيه:

«. . . يوم أمس وصلت الى هنا شخصية عربية مسؤولة واقامت في فندق «. . .» وكان وصول الشخصية المذكورة على متن طائرة خاصة قادمة من «المغرب» بعد انتهاء ـ فشل ـ مؤتمر فاس. وقيل ان الشخصية المذكورة قد جاءت بقصد الراحة والعلاج. ولكني علمت ان موعدا سريا قد رتب بصورة مستعجلة تحضر فيه الشخصية المذكورة الى العاصمة «. . .» وتنزل في المستشفى «. . . .» حيث يشرف عليها الاستاذ الدكتور «. . . .» الأخصائي في تحضير حقن «اعادة الشباب» ومقاومة «العجز» عند الرجال. !»

وبعد اسبوع عاد السفير الاوروبي المذكور وأرسل الى حكومته تقريرا من سطر واحد:

«ـ . . اشير الى رسالتي منذ اسبوع وافيدكم ان كل ما اخبرتكم عنه في حينه قد نفذ بحذافيره. !»

ترى هل ارادت تلك الشخصية العربية المسؤولة بعد فشل مؤتمر فاس ان تعالج عجز العرب السياسي، والعسكري، عن طريق معالجة «العجز» الجنسي الذي

تشكو منه؟

مساكين القادة العرب! لقد عاد كل منهم يومذاك الى بلده، مكسور الخاطر، ذليل القلب، الا واحد. لم يعد الى بلده. . ولم يعد الى الشرق الاوسط. . وتجاهل الاعاصير والاخبار والدماء والانفجارات، وهرع الى سويسرا يبحث عن «الشباب» الضائع عند الاطباء وترك العالم يبحث لقضايا بلده وشعبه عن حل سريع. . !!

هذا هو مفهوم فلسطين، واسرائيل، والحرب، والدم والثورة، عند بعض الحكام العرب: مجرد تمثيل وادعاء وجسر للعبور الى الحكم والمال والشهرة والنفوذ. .

بل ان الاهداف السامية التي عاش العرب يهتفون باسمها ويموتون من اجلها قد اصبحت عند بعض الحكام العرب ارخص من الفجل والبصل. . ! الوحدة العربية. . التضامن العربي. . السوق العربية المشتركة. . كلها تحولت الى مجرد اوراق سياسية يلعب بها الحاكم العربي من اجل ضمان بقائه في الحكم عن طريق خداع الشعوب!

بعد هزيمة ١٩٦٧ اتصل بي سفير مصر في «جنيف» ودعاني لزيارته في مكتبه بشارع. . روتشيلد! وذهبت الى السفير «عبد الفتاح حسن» فاذ به ينفرد بي في جانب من مكتبه ويقرأ لي نسخة من برقية سرية وردت من مقر الامم المتحدة في نيويورك الى السفراء العرب في جنيف تطالبهم بلسان السيد «باخوس» وزير خارجية سوريا ـ يومذاك ـ بضرورة التواجد في مطار «جنيف» لاستقبال الوزير العائد من نيويورك في طريق عودته الى دمشق «واحاطته بمظاهر التكريم والاجلال الذي يليق به، وبمنصبه الخطير في وسط الظروف الخاصة التي نجمت ـ يومذاك ـ عن هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧!»

وسألني السفير «عبد الفتاح حسن» في تهكم:

ـ من الذي انتصر في هذه الحرب العرب أم اليهود؟!

وهززت رأسي ولم أجب، فسمعته يقول لي:

ـ «الوزير «باخوس» يطالب باستقبال رسمي يليق به في مطار جنيف، ولو كنت مكانه، لدخلت جنيف سرا، وغادرتها سرا كي «لا» اواجه نظرات الشماتة

والازدراء بعد الهزيمة الاخيرة. !»

وكان يسمع الحديث ويجلس في زاوية من زوايا المكتب الرجل الديبلوماسي المغربي الكبير السيد «عبد الخالق الطريسي» من اقطاب حزب «الاستقلال» المغربي وسفير «المغرب» لدى القاهرة لعدة سنوات بدأت مع اول ايام الثورة واستمرت عشر سنوات كاملة. . فاذ به يدخل معنا في الحديث قائلا بلهجته المغربية المحببة وأسلوبه العصبي المزاج:

- «نحن في المغرب «نحسد» اخواننا اهل المشرق على تميزهم بروح الدعابة والسخرية ومعالجتهم لأهم القضايا السياسية المصرية بأعصاب مرتاحة لا تخلو احيانا من اللجوء إلى أعمال التمثيل والتظاهر بالجد حيث يكون الهزء، أو التنكيت حيث يجب. الجد!. . . » . . !»

وضحك «عبد الخالق الطريسي» قبل ان يكمل حديثه وكأنه يضحك للنكتة قبل ان يرويها وقال:

- كان المعروف في اوساط مصر قربي من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر. كان يقدرني وكنت ارى فيه زعيما لي اكثر من كونه رئيس دولة عربية شقيقة. وكان يحدثني عن الكثير من القصص والأسرار التي لم يكن يأتمن عليها احدا سواي من بين سائر السفراء العرب الاخرين. اذكر مثلا انه وافق على تناول العشاء بدار السفارة اللبنانية خلال وجود فرقة «الانوار» للفنون الشعبية بمصر تكريما وتقديرا للرئيس فؤاد شهاب الذي وقف موقفا مشرفا من مصر ومن الرعايا المصريين الذين طردتهم السلطات السورية بعد الانفصال! كان مجيء الرئيس عبد الناصر الى دار سفارة لبنان بمثابة تكريم للرئيس اللبناني وليس للسفير اللبناني في مصر. ولكني بالنسبة اليه كنت بمثابة الاخ لا بمثابة السفير. وعندما احتفلت بعقد قرآن كريمتي في القاهرة، كان الرئيس جمال شاهد عقد القرآن وجاء بنفسه وحضر الحفل وقدم للعروس هدية ثمينة! وذات يوم سمعته يروي لي قصة الاسابيع القليلة التي سبقت التوقيع على قيام الوحدة بين مصر وسوريا في شباط (فبراير) ١٩٥٨. قال لي ان صلاح البيطار جاء الى القاهرة في طريق عودته لدمشق من جلسات الامم المتحدة في نيويورك وطلب مقابلته. وقال صلاح البيطار لعبد الناصر انه سمع من المسؤولين الاميركيين

في واشنطن ونيويورك ما يؤكد معرفة الولايات المتحدة بكل ما كان يدور حول احتمال قيام الوحدة بين دمشق والقاهرة. وان واشنطن لا تعترض على تحقيق مثل هذه «الوحدة» وانها قد أعطت «الضوء الاخضر» في الموضوع لكل من يهمه الامر.!»

وقال عبد الناصر لصلاح البيطار: «كلام عظيم ولكن موافقة اميركا وعدمها لا تهمني! ان ما يهمني قبل قيام هذه الوحدة ان توافق سوريا على ثلاثة امور:

اولا: ان يوافق الجيش السوري على مبدأ الوحدة.

ثانيا: ان يعلن حزب «البعث» حل جميع تشكيلاته في سوريا!

ثالثا: اجراء استفتاء شعبي عام في سوريا يقول فيه الشعب «رأيه» في هذه الوحدة. !»

وعاد صلاح البيطار الى دمشق يحمل شروط جمال عبد الناصر.

وأعلنت دمشق ان وفدا عسكريا سوريا سيزور القاهرة خلال ايام! وسيكون عدد افراد الوفد ثمانية عشر ضابطا سوريا يتقدمهم الفريق «عفيف البرزي». . !

وقال عبد الناصر للسفير المغربي عبد الخالق الطريسي:

«وعندما أعلنت أسماء أعضاء الوفد السوري لم أكن أعرف بينهم ضابطا واحدا . وانا من عادتي أكره ان «احكي» مع ناس لااعرفهم . واكره كذلك ان اتكلم مع احد ولا أناديه بأسمه الأول لكي اشعر بالمودة والصداقة . وعلى الفور طلبت من «المخابرات الحربية» ان تزودني بمجموعة صور مختلفة لجميع أعضاء الوفد مع رتبة كل ضابط واسمه بالكامل وميوله الحزبية ونبذة عن تاريخه العسكري . ونشرت هذه الصور أمامي ورحت أدرسها واحفظ اسماء أصحابها! الضابط فلان. . بشارب أسود. . وشعر كثيف. . وأنف طويل أسمه فلان. . وتاريخه كذا. . وميوله كذا ، وعمره كذا ! والضابط علان لونه أشقر لعله شركسي أو من أصل تركي. . اسمه كذا. . وعمره كذا. . وميوله الحزبية كذا. . وكذا ، وهكذا قضيت مع هذه الصور والأسماء المرفقة بها ساعات طوال استطعت بعدها ان احفظ «الدرس» جيدا. !»

وفي اليوم التالي حضر الضباط من الوفد العسكري السوري المذكور الى القاهرة. . .

واستقبلهم عبد الناصر على الباب الخارجي لمنزله «بمنشية البكري» ونادى على

كل واحد منهم بأسمه ، ولقبه ! وفتح الضباط عيونهم من الدهشة! ثم راح يحدثهم عن مفهومه «للوحدة» التي تترفع عن الحزبية والأقليمية وقال لأحدهم :«أنت مثلا يا فلان من حلب . ولك في دمشق عشر سنوات. . وعمرك في الجيش اكثر من عشرين سنة، فهل تبقى متعصبا لمدينة «حلب» أم تشعر ان سوريا كلها بلدك»؟ هكذا هي اسرار الوحدة! وانت يا فلان حاربت في عام ١٩٤٨ عند مدينة «سمخ» فهل يمكن ان يكون حبك لسوريا اكثر من حبك لفلسطين؟

ومر بكلامه على كل واحد منهم بمفرده . .

واعاد على مسامعهم كل ما سبق له و«درسه» في التقارير السرية التي جاءته من المخابرات العسكرية . .

وخرج الضباط من حضرته وعلى رؤوسهم الطير! لقد دغدغهم وداعب غرورهم! لقد أشعرهم بأنه قريب منهم وأنهم قريبين منه! وقال الضباط لبعضهم : «هذا هو الرئيس المطلوب ان يحكم سوريا! انه يعرفنا باسمائنا وتفاصيل حياتنا! ان «شكري القوتلي» لم يصافح في حياته ضابطا ولم يزر ثكنة ولم يعرف الفرق بين الجنرال والشاويش!

وعاد الضباط السوريين الى دمشق وعلى السنتهم عبارة واحدة: «لا رئيس الا «جمال». ولا مستقبل الا بالوحدة»!

وضحك جمال عبد الناصر وهو يقول للسفير «الطريسي» :

ـ العرب ناس قلبهم طيب! وخصوصا شعب سوريا! لقد وافقوا على جميع طلباتي! وأعلن حزب «البعث» حل نفسه رغم انه كان الى امس القريب يتهمني بالعداء للحرية وان الحرية هي احدى شعارات البعثيين التي يرفعونها مع الوحدة. . والاشتراكية!

ثم انهى كلامه قائلا :

ـ انا كسبت سوريا في خلال ساعة ونصف قضيتها مع ١٨ ضابطا سوريا فخرجوا من عندي وتركوا لي مصير سوريا امانة في يدي . !

وعندما انتهى عبد الخالق الطريسي من سرد ما سمعه من صديقه الرئيس عبد الناصر، سأله «عبد الفتاح حسن» في سخرية :

ـ تفتكر سعادتك لو ان عبد الناصر لم يحفظ اسماء هؤلاء الضباط السوريين ولم تنطلي اللعبة عليهم، كانت سوريا رفضت الانضمام الى الوحدة مع مصر؟

ولم يجب الطريسي! فقد احس وكأن السفير عبد الفتاح حسن يشكك في صحة كلامه او يهزأ منه! ولعل هذا ما شجعني ان اقول في هدوء:

لقد تسنى لي ان اشهد مولد «الوحدة» في القاهرة، ثم احتفالاتها في دمشق. وكنت مع عبد الناصر في كل مدينة سورية زارها طيلة شهر شباط (فبراير) من عام ١٩٥٨! وسافرت معه الى حلب، والقامشلي، والجولان وحمص وحماه واللاذقية، ورأيت الشعب السوري يرفع سيارة عبد الناصر ويحملها مع من بداخلها على يديه! ولم أصدق ان هذا الشعب الذي اعطى عبد الناصر كل هذا الحب هو نفس هذا الشعب الذي لم يطق البقاء في «سجن الوحدة» ـ كما كانوا يسمونها ـ اكثر من مدة ثلاثة اعوام! والسبب بسيط. ذلك ان بعض قطاعات شعب مصر لم تفهم من معنى الوحدة مع سوريا سوى انها «الأمتداد» للنفوذ المصري.. الثوري.. الناصري الى داخل الوطن العربي.. وبالتالي، فقد يحقق مثل هذا «الامتداد» بعض المنافع الاقتصادية والمالية لمصر التي كانت يومذاك تشكو من الحصار الاقتصادي والأزمات المالية! وظنت اوساط التجار في دمشق ان معنى الوحدة هو اغراق اسواق القاهرة بالقماش المطرز المعروف بأسم «الاغاباني». مع انشاء عدة شركات ومخازن ومطاعم في ميدان ابراهيم باشا لبيع الكنافة و«القطايف» السورية! ولم يفكر احد بالخطر الاسرائيلي الرابض على الحدود. ولم يقرأ احد ما كانت تكتبه صحف اسرائيل عن اخطار وحدة مصر مع سوريا؟ ولم ينتبه احد الى مخاوف تركيا ودسائسها ضد هذه الوحدة لئلا تقوى وتشتد ويقف جمال عبد الناصر ذات يوم لكي يطالب الاتراك بأعادة لواء «الاسكندرون» الى سوريا او الى العرب! كانت الوحدة بين البلدين أشبه بجائزة المليون دولار التي يتنافس عليها الملايين ويحلم بها الملايين وعندما تظهر نتيجة السحب يتبين ان الفائز بالجائزة هو «صبي صغير» لا يعرف قيمة المال ولا يدرك عظمة الجائزة التي هبطت عليه من السماء! لقد تحققت عملية مولد الجمهورية العربية المتحدة، بسهولة غير طبيعية فكان من الطبيعي ان تنتهي ايضا بسهولة غير طبيعية! وقد قامت نتيجة كفر السوريين بحكامهم وانقلاباتهم اكثر منها ايمانا من

السوريين بحكام مصر ، وثورة مصر ! وعندما تقابلت مع المليونير والسياسي اللبناني اميل البستاني في فندق «بلازا اتينة» بباريس ، وكان معه الصحفي «سمير سوقي» في صيف عام ١٩٦٠ قال لي «أميل» بصوت حزين :

ـ «اذا عدت الى القاهرة ورأيت الرئيس عبد الناصر قل له على لساني ان عمر الوحدة القائمة بين مصر وسوريا لن يطول اكثر من شهور قليلة ! ان الشعب السوري لم يعد يريد هذه الوحدة. لقد كثر اعداؤها وقل اصدقاؤها. لقد تحولت هذه «الجمهورية العربية المتحدة» عند معظم السوريين ـ وخاصة في اوساط الجيش ـ الى مجرد حالة انقلابية عادية في سلسلة الانقلابات السورية المعروفة، يمكن ـ بل يجب ـ ازالتها بانقلاب جديد. !»

وسألت أميل البستاني: «وهل ستأتي الضربة التي ستقتلها ـ تقتل الوحدة ـ من عند اسرائيل»؟ أجابني: «لا! لأن اسرائيل تعلم ان الشعب المعادي للوحدة في سوريا سيوفر عليها مشقة التدخل بقصد القضاء على هذه الوحدة. لقد تركت اسرائيل «العملية» لمجموعة من الضباط السوريين الذين سيتحركون في الوقت المناسب ويعلنون البلاغ رقم واحد! ذلك ان مثل هذه الوحدة التي قامت على اكتاف عشرين ضابطا سوريا، ستنتهي حتما بسواعد عشرة ضباط فقط»!

وعندما عدت الى القاهرة، نقلت كلام صديقي «البستاني» الى سامي شرف، وهيكل، وحسن صبري الخولي، وعبد القادر حاتم، وصلاح سالم، فلم يشعرني واحد منهم بخطورة مثل هذا الكلام ولم يحاول واحد منهم تفنيده او دحضه. .

وبعد شهور قليلة تحرك الضباط العشرة! وانفصلت سوريا عن مصر. وبعد ست سنوات فقط قامت اسرائيل باحتلال هضبة الجولان في حرب عام ١٩٦٧ . .

. . وما زالت تحتلها حتى كتابة هذه السطور.

وقد قيل ان قيام الجمهورية المتحدة قد خدم فكرة «الوحدة العربية» عندما جعل من هذه الوحدة واقعا محسوسا وملموسا امام الملايين. وقلت للزعيم السوري المعروف احسان الجابري في منزله بالقاهرة: ان انفصال عرى الوحدة بعد هذا العمر القصير قد اساء الى سمو الفكرة السامية النبيلة التي عاشت معنا وعشنا معها ولها طيلة هذه السنوات الطويلة، كما ان الانفصال جعل الناس يكفرون بمبدأ

الوحدة، وجعل غيرهم يتردد كثيرا قبل ان يتحدث عنها أو يسعى لها أو يجاهد من اجل تحقيقها. . »

ولكن زعيما مثل احسان الجابري، وبعد ذلك العمر الطويل، لم يعد يهمه من امر الجمهورية العربية المتحدة أو من عضوية مجلس «الوحدة الثلاثي»: مصر، سوريا، واليمن، سوى ان يضمن الاقامة في شقة مريحة على النيل، ويتمتع بسيارة حكومية مجانية، وحارس خاص، وان يستقبل اصدقاءه من الوزراء والعظماء المصريين والسوريين من أمثال محمود رياض، ورياض الميداني، وأنور حاتم، والشوربجي، ويقرأ عليهم «معارضته» الشعرية لقصيدة نزار قباني التي تغنيها نجاة والتي مطلعها: « ايظن اني لعبة بيديه »؟!

المسألة كلها هواية، لا احتراف فيها ولا جدية! والمسألة كلها ارتزاق وتمثيل ومرور زمن، لا دراسة فيها ولا فهم ولا ادراك للخطر المتربص على الأبواب. لا نفهم قيمة العمل الايجابي ـ كالوحدة مثلا ـ اذا حققناه. ولا ندرك قيمته الا اذا أضعناه. ثم اننا نحاول ان ننسى حقيقة بسيطة قائمة من حولنا اسمها: اسرائيل! وان هذه الحقيقة تقلب كل حقائقنا الى اضدادها وتفسر كل اعمالنا على عكسها. فالمعروف مثلا، ان قيام الجمهورية العربية المتحدة قد أفسد كثيرا من المؤامرات «الحمراء» المتطرفة التي كانت تهدد سوريا بالاجتياح. انا مثلا، بأذني سمعت «خالد بكداش» يقول لي قبيل قيام الوحدة مع مصر، «. . سأغرق شوارع دمشق بالدم وسأحولها الى جمهورية حمراء وسأقضي على كل رجال المعارضة بالسيف!» ثم جاءت «الجمهورية العربية المتحدة» وقضت على احلام خالد بكداش وعلى امثاله! وبلغ الضيق بالرفيق «خروتشوف» نتيجة ذلك انه هاجم عبد الناصر ووصفه بالشاب «الذي لم يبلغ رشده السياسي بعد»! ورغم كل ذلك فقد نسينا ان نفسر هذه الحقيقة الساطعة الى دول كبرى كالولايات المتحدة وبريطانيا وان نشعرها بعظمة العمل الذي حققناه من وراء قيام هذه «الوحدة» عندما حفظنا لها مصالحها الاقتصادية مما يجعلها مدينة لنا! لا! تركنا اسرائيل تفسر للعالم معنى قيام هذه «الجمهورية العربية المتحدة» على هداها! وحسب مزاجها! «وان عبد الناصر يفرض سيطرته التدريجية على العالم العربي! وان قيام الجمهورية العربية المتحدة يهدد سلامة الاردن ولبنان

والعراق . . واسرائيل . وان السوفيات وحدهم هم الحليف الصديق لمثل هذه الجمهورية سعيا وراء الوصول الى منابع البترول على شواطىء الخليج!» وعندما قابلت المستر «اسبيرو اغنيو» نائب الرئيس الاميركي نيكسون قال لي بكل صراحة:

- «الى متى يبقى العرب بلا «لوبي» عربي داخل الولايات المتحدة الاميركية؟ والى متى تبقى سياستكم ومواقفكم رهن الاحكام الصهيونية في انحاء اميركا؟ الى متى تسمحون للصوت اليهودي الاميركي ان يتحكم بالادارة الاميركية ويفرض عليكم السياسة التي يختارها بسبب انعدام وجودكم داخل اميركا. انكم لا تقدرون فهم مدى تقصيركم في هذا الموضوع الا عندما تقعون في أزمة او تواجهكم مشكلة دولية كاعلان حرب، او غزو عسكري تشنه عليكم اسرائيل. عندئذ تشعرون بمدى تعاطف العالم مع اعدائكم ونفوره منكم. وكل حسناتكم تتحول الى سيئات. وكل ايجابياتكم تصبح ديكتاتورية في المفهوم الاسرائيلي! والحكم الديمقراطي - كلبنان مثلا - هو حكم ضعيف غير مستقر ولا يعتمد عليه! السعودية عند اليهود متأخرة! والاردن فقير! والعراق منقسم على نفسه دينيا وسياسيا وعنصريا! وسوريا شيوعية ولبنان «فتح لاند». . من بقي؟ الاتحاد عندكم وبينكم غير مقبول لانه يهدد سلامة اسرائيل، والانقسامات بينكم غير مسموح بها لانها تقلق حدود اسرائيل. . »

وضحك «اسبيرو اغنيو» وقال لي:

- «هذا السمك «القرش» المسمى اسرائيل قادر ان يفتك بكل اعدائه اذا لم تصح الفريسة امام خطر الموت. !»

واشار الى نفسه وقال:

- «اسألني انا! انا مررت بالتجربة! بل لعلي كنت احدى ضحاياها!»

ومضت سنوات ولا من يسمع، ولا من يرد، ولا من يعمل!

ولولا الخطيئة الاسرائيلية الكبرى في غزو لبنان لبقي الفدائي الفلسطيني وحده هو ألارهابي، ولبقي الدم العربي لا يزيد قدرا عن دم الهنود الحمر. !

لماذا؟

لاننا تركنا عدونا الحقيقي يسرح ويمرح ويقوى ويشتد ويزحف ويحتل، وشغلنا انفسنا - فقط - بخلافاتنا الداخلية وصراعاتنا العربية!

قال لي «زيد الرفاعي» ابن صديقي الراحل «سمير باشا الرفاعي» ، والاثنان من رؤساء ، وزراء الاردن البارزين المعروفين :

ـ عندما اردت ان اتبنى سياسة ايجابية وتعاونية ووحدوية مع سوريا، قال لي مسؤول عربي شقيق كبير وصاحب لقب، وعلى مسمع من الملك حسين:

ـ لماذا ترمي نفسك في «حضن» البعث السوري؟ وماذا يفيدك الارتماء في حضن «الاسد»؟

وقال لي سفير مصر في اليونان عام ١٩٦٩ :

ـ انا طلبت من رئيس دولة عربي ان لا يعود لبلده ويحاول مقاومة الانقلاب الذي وقع فيه. واذا اصر على العودة، فانه انما يعرض حياته للخطر. ! »

قال لي السفير المصري : وعندما سألني رئيس الدولة المذكور عن الجهة التي ستعرض حياته للخطر، اجبته: ما عليك ! اننا نريد ان نحميك! »

وعندما اجتمع الرئيس نيكسون، مع رجل الاعمال العربي المشهور في مطعم «راسبوتين» بباريس، قال له ريتشارد نيكسون :

ـ انتم لا تدركون خطورة المخالفات المالية واعمال «القومسيون» والعمولة التي تنشرها عنكم الصحافة في اميركا! هذه الاخبار لا تشوه سمعتكم فحسب، بل تكاد تقضي عليكم وتكسبكم عداء وكراهية كل فرد في اميركا. انها تؤثر على كل قضاياكم السياسية ضد اسرائيل. . »

واستطرد ريتشارد نيكسون يهمس في اذن رجل الاعمال المشهور قائلا :

ـ عندما يروي التاريخ السياسي الحديث قصة «شرمان ادامز» مساعد الرئيس ايزنهاور «على ايامي»، والمستشار الاول في البيت الابيض سيعرف الناس كيف عجز الرجل الاول في اميركا ان يحمي موظفا واحدا يعمل في خدمته! فقد اتهموه بالرشوة لأنه استلم هدية هي قطعة «سجاد» من شاه ايران. وقامت فوق رأسه القيامة، واضطر الرئيس ايزنهاور ان يعقد مؤتمرا صحفيا خاصا لكي يدافع عن مستشاره البريء. قال ايزنهاور للصحفيين: ان مستشاري بريء لا تنطبق عليه تهمة الرشوة وانما تصح فيه تهمة الاهمال. . او التسرع او اللامبالاة. !

واجاب الصحفيون: «لا! بل ان مستشارك رجل مرتش. »

ورد ايزنهاور: «ارجوكم انني بحاجة اليه!»
وصرخ الصحفيون: «بل يجب على «شرمان ادامز» ان يخرج!»
قال لهم ايزنهاور: «اني احبه، واثق به، ارجوكم!»
فأجاب الصحفيون: «اطرده والا سحبنا ثقتنا منك!»

واشتدت المعركة! وبينما كنتم انتم في الشرق الاوسط ـ والكلام ما زال لريتشارد نيكسون ـ لا تفكرون يومذاك الا في قضية الشرق الاوسط واسرائيل، كان الرأي العام الاميركي، بأسره، لا يفكر الا في «شرمان ادامز» مستشار الرئيس ايزنهاور! وبينما كانت عناوين صحف العالم محصورة في الحديث عن احداث العراق والاردن ولبنان، كانت عناوين صحافة نيويورك، كلها، عن قصة شيرمان ادامز! الى ان نزل الستار وانسحب «ادامز» من المسرح. وخرج من وظيفته مثخنا بالجراح. وسجلت صحافة اميركا اعظم انتصاراتها على الرشوة والفساد. !

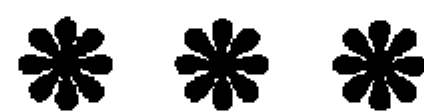
قال ريتشارد نيكسون لصديقه رجل الاعمال العربي المذكور:

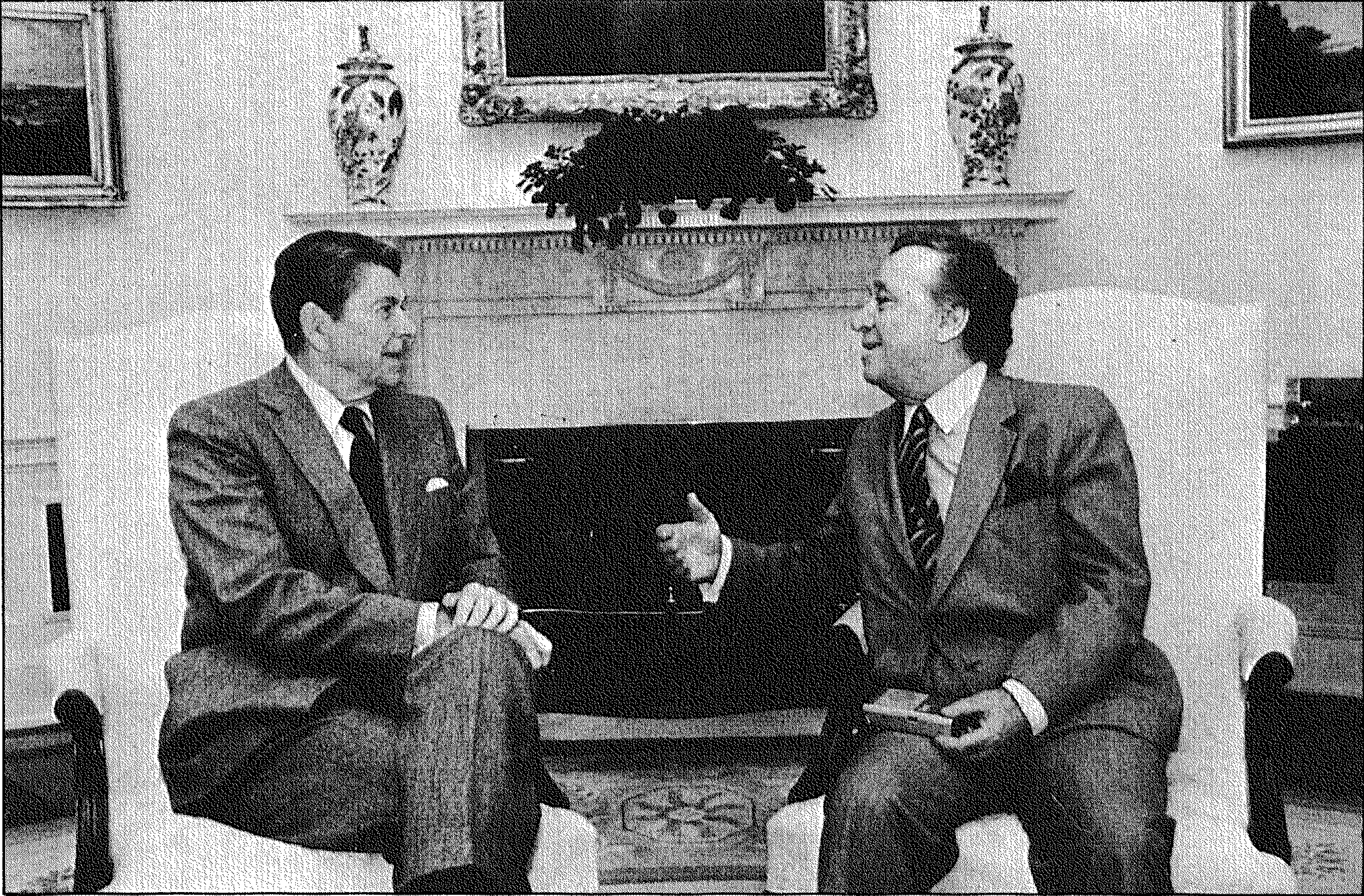
ـ ان السياسة لا تنفصل عن النزاهة. والعمل السياسي، «اخلاق»! وقد كنت انا ـ احد الذين اخطأوا في فهم مقاييس الاخلاق الكاملة، فدفعت الثمن. ! »

وبعد. .

في اليوم الثالث من تولي الارهابي الاشهر، مناحيم بيغن منصب رئاسة الحكومة، احتفل بزواج كريمته. وذهبت زوجته الى السوق واشترت هدية لكريمتها بمائة ليرة اسرائيلية، اي ما يوازي «٥» دولارات! وقرر بيغن ان ثمن الهدية باهظ لا تتحمله ميزانيته، فأمر زوجته باعادة الهدية واختيار هدية اخرى لا يزيد ثمنها عن دولارين أثنين!!

مجرم، وقاتل، وسفاح، و«ابن. . .»! هذا كله صحيح!
ولكنه، ليس مرتش، ولا نصاب . . . ولا يسرق اموال الدولة!





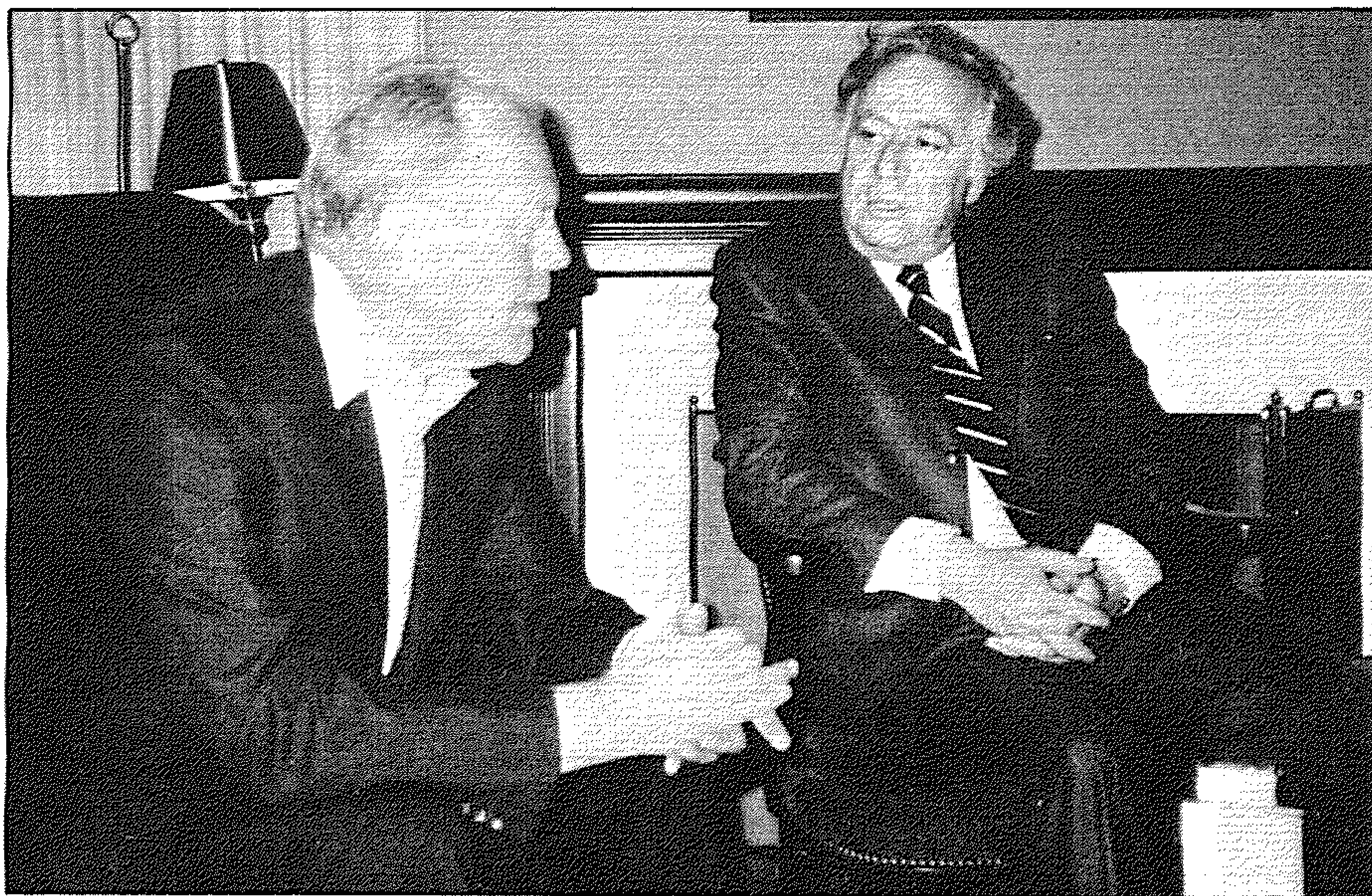
المؤلف يتحدث مع الرئيس رونالد ريغان في البيت الابيض في مطلع صيف ١٩٨٥ . . .



. . . ومع الرئيس جيمي كارتر. . .



النشاشيبي . . مع الرئيس نيكسون عام ١٩٨٣



ومع الرئيس جيرالد فورد



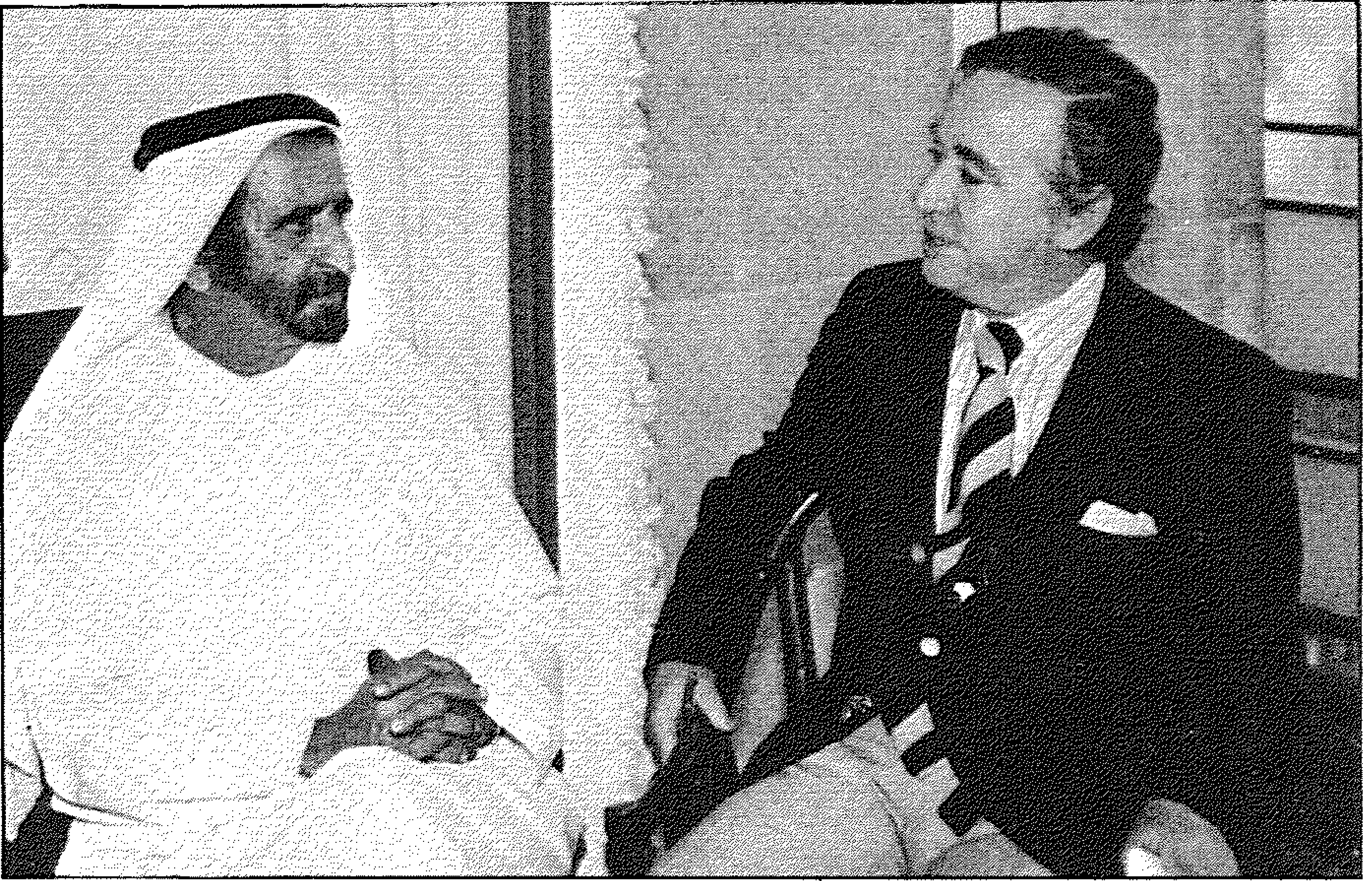
قال لي الشيخ زايد: لم اصلح بين مصر وليبيا لاني لم استطع ان اعرف اسباب الخلاف بين رئيس مصر ورئيس ليبيا . . .



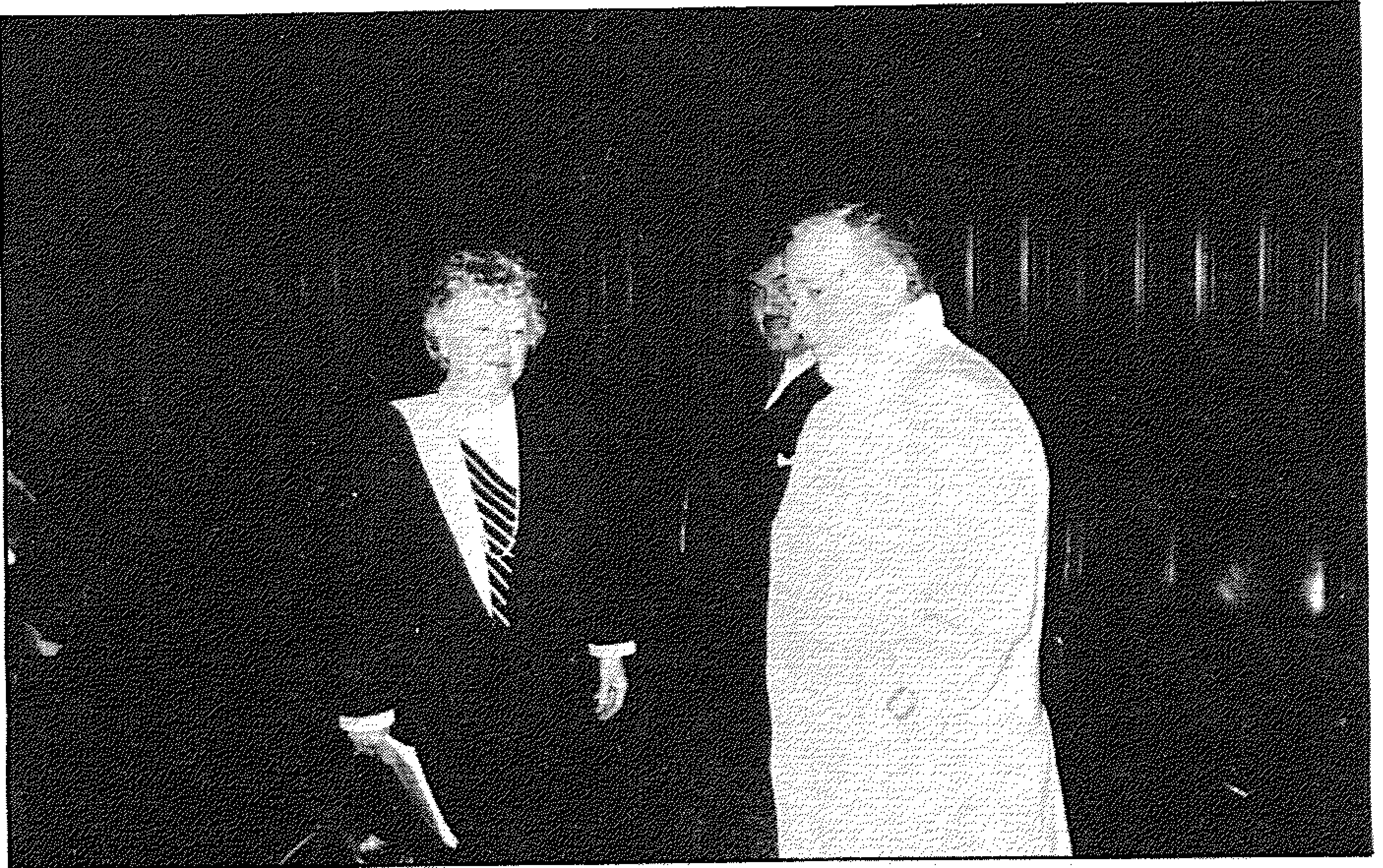
مع الرئيس العراقي صدام حسين ووزير خارجيته طارق عزيز



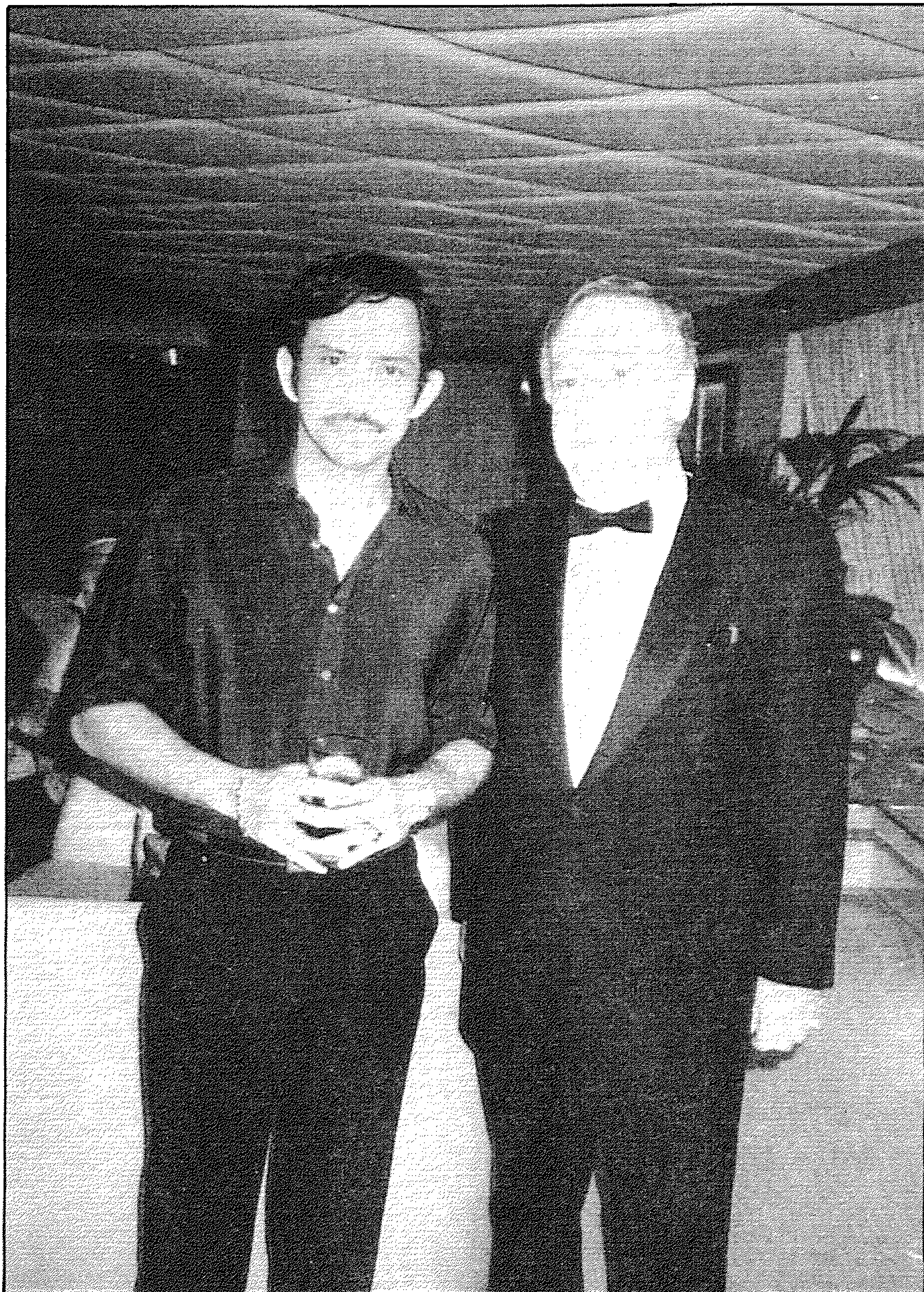
المؤلف يتحدث الى ملكة اسبانيا



قال لي الشيخ راشد بن مكتوم : « هات ماعندك فأنا لا أختشى احداً الا . . . الله» !



المؤلف في كندا ـ داخل مجلس العموم الكندي وامامه السيدة رئيسة البرلمان والى يمينه الشيخ « ناصر الاحمد » وزير الاعلام الكويتي .



ناصر النشاشيبي . . مع سلطان «بروناي»

الفصل السادس
الملك فهد اكتشف في المانيا
سرّ الصراع بين العرب واسرائيل

● عبد الناصر رفض «شكر» الصحافة المصرية على شكرها ايزنهاور عام ١٩٥٦. . . . !

● اولبريخت للعرب: اتحدوا ولو ضدنا ولا تختلفوا حتى من. . أجلنا»!

● اليهود في العراق حطموا صالح جبر واسقطوا معاهدة «بورتسموث»!

الفصل السادس
الملك فهد اكتشف في المانيا سرّ الصراع بين العرب واسرائيل

في شهريوليو(تموز) عام ١٩٥٦ أعلن جمال عبد الناصر قرار تأميم قناة السويس. فقامت قيامة العالم ووقع العدوان الثلاثي على مصر وهبت رياح الحرب والعداء على ارجاء الوطن العربي بأسره!..

وفي يوم الأحد ٢٩ ابريل (نيسان) ١٩٧٩ مرت وللمرة الاولى في تاريخ قناة السويس، اول سفينة اسرائيلية عبر القناة، فلم يتحرك أحد، لا في مصر، ولا في الوطن العربي، ولا في سائر انحاء العالم!

في عملية التأميم، حاولت مصر ان تسترد سيادتها على القناة، فقرر العالم تأديب مصر، وتركيعها! وفي عملية «المرور» بالقناة ارادت اسرائيل ان تتحدى مصر، والعرب، والعالم، وان تدفن كرامة «الناصرية» في التراب، وان تنهش عرض صفحات الكرامة السياسية في تاريخ مصر الحديث، فوقف العالم يتفرج عليها وصفق لها السادات وأعلن مسؤول مصري في القناة - مع كل السعادة والفرح - ان مصر قد استوفت رسماً قيمته «عشرة آلاف دولار» مقابل مرور السفينة الاسرائيلية، والتزم العرب السكوت بحجة عدم التدخل في شؤون مصر الداخلية!

ترى، هل كان مرور تلك السفينة الاسرائيلية أمرا ضروريا في ذلك اليوم بالذات بالنسبة للاقتصاد الاسرائيلي بحيث صدر القرار ان تخرج السفينة المذكورة من ميناء «ايلات» الاسرائيلي على البحر الاحمر وتبحر شمالا عبر الممر المائي الى

بورسعيد. . . ثم حيفا؟

لا!

وانما كان المقصود من وراء العملية كلها مجرد امتحان عملي من اسرائيل الى السلطات المصرية حول مدى صحة ما يسمى بتطبيع العلاقات بين اسرائيل ومصر، يمكن لاسرائيل بعدها ان تبني ما يهمها من سياسة، وان تنفذ ما يحلو لها من خطوات. !

يعني، وبالتحديد: سياسة اطلاق «البالونات» الأختبارية ودراسة الاثار التي تترتب عليها في كافة الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية.

تماما، كما بادرت الزوارق العسكرية الاسرائيلية الى قصف مخيمات اللاجئين الفلسطينيين بجوار «طرابلس» بلبنان في اواخر شهر ابريل (نيسان) عام ١٩٧٩ بحجة الرد على عملية الفدائيين الفلسطينيين بجوار «نهاريا» باسرائيل لكي تعرف مدى قوة الاستعداد العسكري الفلسطيني في القطاع «الشمالي» من لبنان!

تماما، كما امرت قوات سعد حداد بان تحاصر مقر القيادة العامة لقوات الطوارىء الدولية وتمنع عن الجنود والضباط الماء والطعام لكي تعرف مدى قوة رد الفعل الدولي في حالة انتهاكها للحدود وزحفها على لبنان!.

تماما كما استحلت الأجواء اللبنانية بطائرات الاستكشاف وخرقت حاجز الصوت فوق بيروت بحجة رصد اماكن القوات الفلسطينية. !

تماما، كما ضربت ـ لاول مرة ـ مقر منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت وقتلت خمسمائة مواطن مدني بحجة الانتقام لأحدى عمليات الفدائيين في داخل اسرائيل بقصد اختبار نوعية رد الفعل اللبناني العربي على مثل هذه الغارات في المستقبل!

تماما، كما وقف الحاخامات اليهود عند بوابات ساحة الحرم الشريف بالقدس مهددين باحتلاله، وكما اقدم أحد الاسرائيليين على ذبح بعض المصلين المسلمين في المسجد الاقصى، وكل ذلك لاختبار مدى صلابة رد الفعل العربي والأسلامي على مثل هذه الاعمال، وبالتالي مدى «قدرة» اسرائيل على تنفيذ مخططاتها التاريخية المعروفة في اعادة مبنى «الهيكل» فوق قلب ساحة الحرم المقدسي الشريف في السنوات القادمة دون مقاومة عربية او اسلامية!

كلها كانت مجرد «بالونات» اختبار وكانت مجرد «وسيلة» من اجل غاية وكانت «دراسة» لحساب قرار! ولم تكن في حد ذاتها هي الغاية، أو القرار، أو الهدف!

ومع الأسف والحزن الشديدين، كانت هذه «بالونات» كلها تعود على اسرائيل بالنتائج التي تنتظرها، وكانت هذه النتائج كلها خالية من معاني الحزم، او الردع، او القوة المنتظرة من أمة العرب، الامر الذي شجع اسرائيل على ان تمضي قدما في خطواتها وتنفذ بلا عناء بنود سياستها وفقرات مخططها التوسعي الصهيوني الارهابي. . . المعروف!

وبقي العرب لا يعرفون شيئاً في السياسة اسمه: «بالون اختبار»؟ وكان جهلهم او موقفهم هذا، اكبر مشجع لاسرائيل كي تمضي في اللعبة الى الحد الذي وصلنا اليه في هذه الايام السود. . ؟

لماذا؟

لماذا بقي رد العرب على «بالونات» اسرائيل المتكررة، والمتنوعة، هزيلا بما يشبه العدم؟

لماذا هذا العجز العربي الفاضح في التصدي لخطوات اسرائيل «التجريبية» ضدهم مما فتح الباب امام المزيد من الأعمال الاسرائيلية وشجعها على القتل والاحتلال والتحدي؟!

والجواب بكلمات ثلاث:

انعدام التضامن العربي.

او بكلمتين اثنتين فقط:

ـ الانقسامات العربية!

ويا ويلنا من حكم اجيال المستقبل علينا بسبب هذا الضياع العربي المخيف. !

ويا ويلنا من حساب ابنائنا واحفادنا لنا عن هذه السنوات العجاف من التطاحن والصراع والردح والتشليق بين العرب انفسهم!

هذه الانقسامات العربية لم تفد اسرائيل فحسب، ولم تضر العرب فحسب، وانما زورت التاريخ العربي المعاصر، وعطلت الارادة العربية، وشوهت الوجه العربي الصحيح، وقلبت الاوضاع، واخفت الايجابيات، واظهرت السلبيات،

واحالت العدو الحقيقي الى صديق مزيف، وجعلت من الصديق الحليف يبدو وكأنه العدو الحقيقي . !

انا لن ادافع ـ مثلا ـ عن السياسة الاميركية في المنطقة، ولكن ذلك لايعني ان اساوي بين سياسة «هاري ترومان» وسياسة «دوايت ايزنهاور» بحجة ان كلاهما اميركي! ولا يعني بالتالي، ان أعادي ذكرى الجنرال «ايزنهاور» واستمطر عليه اللعنات لا لشيء سوى كونه ـ مثل ترومان ـ يحمل الجنسية الاميركية! في عام ١٩٥٧ قال ايزنهاور للملك سعود ـ وشاهدي على القصة رجال أحياء لا املك الا الثقة بصدق قولهم وامانة حديثهم وقد اكشف عن اسمائهم ذات يوم قريب ـ قال ايزنهاور للملك سعود بن عبد العزيز: «لو كنت اعرف ان يدي هي التي وقعت قرار اعتراف اميركا بقيام دولة اسرائيل. . لقطعتها!» وقد سمعنا هذه القصة في حينها ونحن نعمل في الصحافة المصرية! ولكن عداء الثورة المصرية «لجون فوستر دالاس»، حال بيننا وبين امكانية نشرها. وعندما اردت ان اعبر عن شكر العرب لايزنهاور بعد موقفه الودي معنا وارغامه اسرائيل على الجلاء عن سيناء والقطاع، كتبت مقالات في «اخبار اليوم» بعنوان: «شكرا ايزنهاور!» فاغتاظت الرئاسة المصرية من المقال، وقال لي «جمال عبد الناصر» على مسمع من الزميل محمد حسنين هيكل: «انا يا «ناصر» لا اشكرك على: شكراً ايزنهاور!»!

ومثل هذه القصة، آلاف القصص! هناك قصتي مع الوزير سعيد القزاز آخر وزير لداخلية العراق بل لعله الاول قبل الاخير ـ في العهد الملكي العراقي والذي كان بمثابة العدو الاول للشيوعيين العراقيين. فقد قابلته في مكتبه بالوزارة ببغداد قبيل قيام ثورة ١٤ يوليو (تموز) باسابيع قليلة فقال لي وكأنه يعدد اخطاء الماضي ويتنبأ بأخطاء المستقبل ويقرأ في كتاب مفتوح: «في شتاء عام ١٩٤٨، وبينما كانت قضية فلسطين تمر بأخطر ساعات عمرها، سافر وفد العراق برئاسة «صالح جبر» الى بريطانيا وعقدنا معاهدة «بورتسموث» التي كانت بمثابة التعديل الجذري لمعاهدة عام ١٩٣٠، حيث الغيت «ترتيبات الدفاع» المنصوص عليها في المعاهدة المذكورة، كما الغيت فقرات «المقدمة» التي تضمنتها معاهدة ١٩٣٠ بكل ما فيها من امتيازات للانكليز في العراق وخاصة حول «تأمين الخط الجوي للقوات البريطانية» في

العراق، كما ان المعاهدة الجديدة ـ في نظري ـ تخدم المصلحة العراقية العليا وتساعدنا على استكمال وسائل دفاعنا والحصول على الاسلحة الحديثة لجيشنا. . . »

واستمر «سعيد القزاز» يقول لي:

ـ وكنت شخصيا اؤيد معاهدة بورتسموث بكل قوتي! ولكن اعداء العرب وحلفاء اليهود ـ واعني الشيوعيين العراقيين ـ استغلوا فرصة كراهيتهم لصالح جبر ـ وكان معروفا بعدائه للشيوعية ـ ومشوا في شوارع بغداد يهتفون بسقوط الوزارة وسقوط اتفاقية «بورتسموث» مستغلين كل نفوذهم مع كل الأوساط المتعاطفة معهم لاسقاط الاتفاقية الجديدة! وقد القي القبض على عدد من اليهود العراقيين الذين مشوا في تلك المظاهرات واعترفوا في التحقيق أنهم ضد المعاهدة لأنها تحمل امضاء «ارنست بيفان» وزير خارجية بريطانيا الذي كان معروفا بعدائه الشديد لليهود وبمشاريعه السياسية ضد انشاء دولة اسرائيل، كما انهم رفضوا المعاهدة لأن تقوية العلاقات السياسية والعسكرية بين العراق وبريطانيا قد تكون في نتيجتها على حساب الاماني القومية. . . اليهودية! . . »

واستطرد «سعيد القزاز» يقول لي:

ـ ونجح اليهود مع الشيوعيين واسقطوا وزارة صالح جبر! وارتفعت الشعارات في المظاهرات المتجددة بأن «اليهود هم أخوة العرب»! ونريد «الجند والتمر»! وجاء «الصدر» رئيساً للوزارة الجديدة! والغيت اتفاقية بورتسموث! وتأزمت العلاقات مع الانكليز، وغضب «ارنست بيفان»، وانشغل العراق بوزارة «الصدر»، ثم بوزارة «الباججي»، بدلا من ان يصرف همه وامكانياته ووقته في متابعة ما كان يجري على الساحة الفلسطينية من أمور جسام سبقت قيام دولة اسرائيل بأسابيع معدودة! »

وقلت للسيد عبد الرحمن البزاز، سفير العراق في لندن في الستينات، وكأني اكمل له قصتي مع السيد سعيد القزاز:

ـ هل تريد ان تسمع مني بقية القصة؟

اجابني: تفضل!

قلت: وقامت اسرائيل! ورحل اليها كل يهود العراق؛ وتسلموا ـ لانهم يعرفون

اللغة العربية ـ معظم مناصب الأذاعة والصحافة والاعلام الموجه للعرب في اسرائيل! وجاءت حرب ١٩٦٧ وانشأ اليهود في مدينة «القدس» صحيفة يومية تصدر بحروف «عربية» وفتحوا صفحاتها امام اليهود الوافدين من العراق لكتابة مذكراتهم ونشر انتاجهم! وبين الذين كتبوا في الصحيفة المذكورة صحفي عراقي يهودي روى مذكراته عن موقف يهود العراق من اتفاقية «بورتسموث» فقال: « . . . وقد وصلتنا تعليمات صريحة من الوكالة اليهودية «بالقدس» في يناير (كانون الثاني) ١٩٤٨ بضرورة التظاهر ضد معاهدة بورتسموث والتعاون مع الشيوعيين العراقيين بهدف اسقاطها!»

قال لي عبد الرحمن البزاز وقد تقطب وجهه واكفهرت اساريره:

ـ الله يحفظنا مما هو أعظم، وما اشعر بأنه قريب. !

وقامت ثورة العراق والقي القبض على سعيد القزاز واودع السجن!

وذهبت زوجته الى السجن لزيارته فلم تستطع ان تتعرف عليه من شدة التشويه الذي اصابه على يد عبد الكريم قاسم. . . والمهداوي . . . وشلة الشيوعيين الحاكمين يومذاك! .

لقد فقأوا عينيه! وحرقوا وجهه! وصاح فيهم وهو ملقى وراء القضبان: «عندما تعلقوني على الحبل سأرتفع . . . وسيصبح قدمي في مستوى . . . رؤوسكم!»

ولكنهم لم يعلقوه!

فقد مات متأثرا بجراحه من شدة التعذيب! وحملوه الى المشنقة وعلقوه ميتا؟

وهتفت مظاهرات بغداد بسقوط أعوان الاستعمار، ورجال «بورتسموث»! كما هتفت بعض الدول العربية ـ ومعها الشيوعيين ـ بحياة ثوار بغداد نكاية بحكام بغداد!

. . . وولدت دولة اسرائيل!

قصص مؤلمة، ولكنها حقيقية، ومع الاسف الشديد! فقد تعاونت الازمات السياسية «داخل» الدول العربية، مع الصراعات السياسية بين الدول العربية نفسها والتي زادت وتضاعفت مع قيام اسرائيل وحصول بقية الدول العربية على استقلالها، لكي تعطي العدو الاسرائيلي، وحلفاءه، كل الانتصارات التي كانوا

يتمنونها . .

في شهر مايو (ايار) عام ١٩٧٩ ، رافق سمو الامير سلمان بن عبد العزيز امير الرياض -سمو شقيقه «الأمير»- جلالة الملك فهد بن عبد العزيز في رحلته الرسمية الى عدد من العواصم الاوروبية ومن بينها بون وباريس وروما ولندن . . .

ويومذاك، سمعت من الامير «سلمان» كلاما مؤثرا عن نتائج هذه الرحلة لم استطع يومها ان انشره حرصا على رغبة الامير! والآن وقد جرى - كما يقولون - «مرور الزمن» فأني اسمح لنفسي ان اعود الى دفتر مذكراتي وانقل منه «بعض» ما تسمح الظروف بنشره من هذا الحديث:

لندن الاثنين ٢٨ مايو - ايار ١٩٧٩ :

كان الأمير سلمان اول مسؤول عربي يقابل «المسز تاتشر» رئيسة وزراء بريطانيا بعد فوزها بالانتخابات ومجيء المحافظين الى الحكم! وبعد مقابلته لها يوم امس الاول قال المستر دوغلاس هيرد وزير الدولة للشؤون الخارجية لبعض الرسميين السعوديين ان رئيسة الوزراء قد استمعت خلال الخمسين دقيقة مع الامير الى حديث منطقي وصريح وهادىء عن القضية الفلسطينية . .

سألت الامير سلمان، اليوم، عن تفاصيل مقابلته مع المسز تاتشر فاجابني بشكل عام: لا شكوى للمسؤولين هنا من العرب الا من شيء واحد هو «انقسام الصوت العربي».

وعندما سألت الامير سلمان عن تفاصيل زيارته لالمانيا الاتحادية برفقة سمو الأمير - الملك - فهد بن عبد العزيز قال لي:

- بعد حديث مطول بين «الامير» فهد والمستشار شميت قال الأخير لنا: «انا ممتن وشاكر لهذا الكلام الصريح الذي سمعته منكم حول قضية فلسطين. وقد كان حديثنا وحديثكم كله محصورا داخل هذا الموضوع المهم، ولكني ارجوكم عند مقابلتكم هذا المساء للهر «شتراوس» زعيم الحزب الذي قد يخلفني في الحكم ويأخذ مكاني في المسؤولية على ضوء نتائج الانتخابات القريبة القادمة، ان تشرحوا له «الصورة» العربية بكل التفاصيل التي سمعتها منكم! ان الهر «شتراوس» - والكلام ما زال للهر شميت - لاينكر اعجابه باسرائيل ولا ينكر تأييده لاتفاقية «كامب

دايفيد» فعليكم يا سمو «الامير» فهد بذل الجهد الذي بدا منكم في هذه الجلسة، مع الهر شتراوس بغية اقناعه بوجهة نظركم العادلة . . . »

قال لي الأمير سلمان متابعا حديثه!

ـ وفي مساء ذلك اليوم، ذهبت برفقة سمو «الامير» فهد لمقابلة شتراوس. وحادثه «الامير» فهد مطولا وبكل صراحة وعندما انتهى «الامير» فهد من كلامه، قال له الهر شتراوس: «لقد كان معي هنا منذ ثلاثة ايام الجنرال موشي دايان! وكان يحدثني عن سياسة اسرائيل تجاه العرب وتجاه العالم! وقال لي موشي دايان ان اسرائيل تعرف تماما كيف تدبر امورها مع اميركا، ومع اوروبا، ومع افريقيا . . . ولكن الشيء الوحيد الذي يهدد حياة اسرائيل وقد يقضي عليها هو ان يحقق العرب تضامنهم ويوحدوا كلمتهم، وهذا ما لا تسمح به اسرائيل مطلقا . . . !»

وابتسم الهر شتراوس وقال لضيوفه السعوديين الكبار مودعا:

«لقد كشفت لكم عن السر في قضيتكم واعطيتكم . . المفتاح!»

وانتهى كلام الامير سلمان . . .

ثم عدت الى دفتر مذكراتي وسرقت منه السطور التالية:

جنيف ـ ٢٦ يوليو (حزيران) ١٩٨٠:

قرأت حديثا في مجلة «در شبيغل» الالمانية للجنرال موشي دايان سأله فيه مراسل المجلة «. . . لماذا تعارض اسرائيل ان تبيع اميركا السلاح المتطور للسعودية؟ ان السعودية قادرة ان تشتري السلاح من دول اخرى، ومعنى ذلك ان تفقد اميركا سوقا هائلة كالسوق السعودي ويكون البديل هو الاتحاد السوفياتي!» فاجابه دايان: «هذا بالضبط ما اريده وما اتمناه شخصيا! انا لا اريد ان يكون هناك صلات قوية بين العرب واميركا، او بين العرب واوروبا. ان هذا الشيء يجب ان يبقى لاسرائيل وحدها. ان السوق الوحيدة للسلاح الاميركي هي السوق . . . الاسرائيلية!»

وانتهى كلام الجنرال موشي دايان . .

ومضت ايام كثيرة. وفي شهر مارس (آذار) من عام ١٩٨٢ جاء الامير سلمان بن عبد العزيز الى جنيف في زيارة قصيرة.

واعود الى دفتر مذكراتي واقرأ ما يلي:

جنيف ٥ مارس (آذار) ١٩٨٢ :

سمعت من الامير سلمان بن عبد العزيز كلاما مؤثرا عما لمسه في رحلته الاخيرة بأوروبا حول ضياع الصوت العربي بسبب الخلافات والانقسامات العربية. حدثني الأمير سلمان عما سمعه من رؤساء جمعيات الصداقة العربية الالمانية، والعربية السويسرية، والعربية الفرنسية حول هذا الموضوع! قال لي الامير سلمان بصراحة واصرار:

ـ نحن في السعودية نتعاون مع «جميع» الدول العربية ـ لا كوننا نتفق مع «جميع» هذه الدول في سياستها او اتجاهاتها، بل لان الوضع العربي يفرض علينا ذلك، ولان المصلحة القومية تطلب ذلك، ولاننا نحب ان نبقى في موضع نقدر به ان نجمع كل الحلقات في حلقة واحدة. ان موقفنا من الاربعينات الى اليوم حول قضية فلسطين لم يتغير! ومنذ نشأة «منظمة التحرير» لم نحاول ان نقلد غيرنا او نبني لنا «منظمة» خاصة بنا نوكلها بتنفيذ سياستنا! نحن ـ وبالفم المليان ـ ضد الانقسامات وضد التفرقة! نحن نؤمن ان «المثابرة والمتابعة واستغلال اخطاء العدو قادرة ان توصلنا الى النصر على اعدائنا... ان كلامنا في صدقنا. وان سياستنا هي حقيقتنا.! لسنا طوارىء على السلطة. فوراءنا تاريخنا الطويل... وامامنا مستقبلنا المرجو. ولذا تأتي سياستنا عميقة الجذور تستمد من الماضي استمراريته وتمنح المستقبل قوته! من منا له علاقة بروسيا او بامريكا، فليعمق ـ بتشديد اللام ـ علاقته بها بشرط ان لايكون ذلك على حساب الاتهام او العداء لمن لايشاركه الرأي!»

وانتهى كلام الامير سلمان..

ومضت شهور... اخرى.

وسافرت من جنيف الى باريس. وكانت باريس تحتفل باعياد الفصح. وكان الموقف في جنوب لبنان ينذر بالانفجار. وسمعت الدنيا كلها تتحدث عن قرب الغزو الاسرائيلي للبنان. وكان العرب ايضا يتحدثون عن هذا «الغزو» ولكن بمفاهيم مختلفة ومشاعر مختلفة ونوايا مختلفة!

بعض العرب كان يتوقع الغزو ويتمناه لكي ينضم لبنان الى اتفاقية «كامب دايفيد» او كي تولد «كامب دايفيد»... لبنانية!

وبعض العرب كان يتوقع الغزو ولا يرفضه لكي يتخلص اللبناني من «مصائب» الوجود الاجنبي في بلده! اي ان يتخلص اللبناني من الفلسطيني ومن السوري معا!

وبعض العرب كان يتوقع الغزو ولا يبالي به فقد تجمدت العواطف و. . . «تكسرت النصال على النصال».

وبعض العرب كان يتوقع الغزو وينتهز الفرصة لكي يكيل الشتائم للعرب . . . كلهم.

وبعض العرب كان يتوقع الغزو ويعرب عن فزعه وقلقه وتخوفه من النتائج التي لا يعلم مداها الا الله. !

وبعض العرب كان يتوقع الغزو ويحسن الظن بالعرب ويؤكد ان ساعة اسرائيل قد دقت!

وهكذا، حتى في ساعة المحن والاخطار. . . و«الغزو الخارجي» يرفض العرب الاتفاق على شيء واحد!!.

وتذكرت كلاما كنت قد سمعته من الزعيم الالماني الشرقي الهر «اولبريخت» رئيس المانيا الشرقية عندما قابلته في صيف ١٩٦٦ وسمعته يحدثني عن «مضار» الانقسامات العربية، حول موضوع قطع العلاقات بين العرب والمانيا الاتحادية. قال لي اولبريخت وانا اتجول برفقته في معرض «لايبزيغ»:

- نحن افضل لنا ان يتوحد العرب حتى ولو كانوا ضدنا، من ان يبقى العرب منقسمين، ويبقى بعضهم معنا وبعضهم ضدنا»

وقد ترجمت هذه العبارة الى الالمانية ونشرتها صحف برلين الشرقية في حينه. .

وقد ضمنت هذه العبارة أحدى مقالاتي التي كنت انشرها في ايام «السبت» بـ«الاهرام» القاهرية، ونقلتها عنها بعض الصحف الاوروبية التي انتقلت الى صحف اسرائيل فقالت تعلق على اقوال اولبريخت:

- ان الالمان المتهمين بقتل خمسة ملايين يهودي يحاولون اليوم تكملة «معروفهم» واشهار سيف «التضامن» العربي في وجه اسرائيل للقضاء عليها! »

وهكذا اتفق اليهود مع الهر اولبريخت على ان «التضامن» العربي، شيء خطر. ورفض العرب ان يصدقوا مثل هذا الكلام. . . الفارغ!

وقال التاريخ :

دخل العرب حرب ١٩٤٨ وهم مختلفون! بعضهم «بغدادي»، وبعضهم «قاهري» وبعضهم «هاشمي» وبعضهم مع طه الهاشمي، وبعضهم مع القاوقجي وبعضهم مع «الاخوان». فانهزموا.

ودخل العرب حرب ١٩٦٧ ونصف الجيش المصري موجود في جبال اليمن يحاول ان يكرس الجمهورية ويقضي على «البدر» ويضمن «للسلال» عهدا سعيدا! فانهزموا.

ودخلت اسرائيل لبنان، والعرب في عام ١٩٨٢ ليسوا احسن حالا منهم في عام ١٩٤٨!

وبعد هذا: هل نعجب لماذا وصلنا الى هنا؟

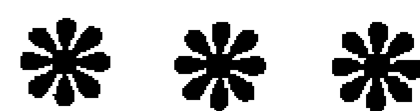
تسألين عن سقمي

صحتي هي العجب!

في العاشر من اكتوبر (تشرين اول) عام ١٩٤٩ كتب السفير البريطاني في «عمان» السير «اليك كركبرايد» رسالة سرية الى وزير خارجية بريطانيا ضمنها صورة فريدة للموقف العربي المتنافر، والمتضارب حول المصير المطلوب، لمدينة القدس وللضفة الغربية. وصورة هذه... الصورة منشورة في هذا الكتاب..!

وبعد ٣٥ سنة، ما زالت ملامح هذه الصورة التعيسة بين الدول العربية على حالها، لم تتغير، ولم تتحسن.

ورقم هذه «الوثيقة» السرية في دار المحفوظات البريطانية، بلندن هو ٥١٠ لعام ١٩٤٩، فليتفضل بمراجعتها والاطلاع عليها من يهمه مستقبل هذه الامة، او مستقبل مقدساتها.



الفصل السابع

فيلبي الاب: "ويل للعرب إذا أيقظوا الوحش.. وعجزوا عن ترويضه"

- كارتر حاول الاعتراف بالمنظمة على يد شخصية عربية كبيرة عام ١٩٧٧. . . !
- رئيس مجلس الشعب الصيني كشف السوفيات وحذر من الاتكال عليهم!
- كمال ناصر قبل عملية فردان عام ١٩٧٣ : «كل شيء سقط غير انا فقط»!
- عبد الرحمن البزاز: تحالفنا مع الجميع ونسينا «فقط» ان نتحالف مع . . . انفسنا!»

الفصل السابع
فيلبي الاب : ويل للعرب إذا أيقظوا الوحش.. وعجزوا عن ترويضه !

في طليعة الرجال الاكفاء، والاذكياء، من عائلة «شهاب» اللبنانية المارونية، يأتي اسم الامير عبد العزيز شهاب.

«والمير» عبد العزيز كما يسمونه، كان ذات يوم مديرا عاماً للداخلية في لبنان، كما كان مرشحا لرئاسة الجمهورية وكاد ان يفوز بها لولا اعتبارات عائلية لا مجال لذكرها في هذه الصفحات. ولكن اهم صفاته ـ بالاضافة الى ذكائه ـ قدرته الفذة على التنظيم، وجرأته، وصراحته ومجموعة اتصالاته الاجتماعية التي اكسبته الالاف من الاصدقاء، كما اكسبته الالاف من الحساد والخصوم. . . والاعداء!

وكان «المير عبد العزيز»، صديقا لي. واتصل بي في مساء ذات يوم كعادته في معظم ايام الاسبوع، ونقل لي ان المستشرق البريطاني الشهير سان جون فيلبي ـ او عبدالله فيلبي ـ كما يسمونه، قد وصل منذ ساعات قليلة الى بلدة «عجلتون» بلبنان، وانه يقطن بمفرده في بيت متواضع ومعه ولده الصغير الذي «تبناه» «وان في جعبته الكثير من الاخبار، والاسرار»!

وضحك الامير عبد العزيز في نهاية كلامه قائلا لي:

ـ المذكور ليس جاسوسا عالميا فحسب، بل هو ايضا اشهر والد لاشهر جاسوس! الم تسمع ان ابنه «كيم» قد اختفى من بيروت ويقال انه سافر خلسة الى الاتحاد السوفياتي. ؟!

وتركني الامير عبد العزيز افكر في كلامه لي، وابحث عن وسيلة اصل بها الى مقابلة عبدالله فيلبي . . .

فقد كنت اعرف شابا بريطانيا يأتي عند ظهر كل يوم الى فندق «نورماندي» ببيروت، ويقضي في بار الفندق مدة ساعتين ثم يركب سيارة تاكسي ويذهب الى جهة مجهولة! وكان هذا الشاب انيق المظهر، رشيق الخطوات، طويل القامة، ينفق بسخاء ويعامل الخدم والناس وكأنهم اهله. وكان اسمه «كيم فيلبي»! وقيل انه يعمل صحفيا لجريدة «الغارديان» البريطانية! ثم قيل انه ديبلوماسي سري في هيئة صحفي؟ المهم ان وجوده بيننا لم يثر انتباه احد. ولكن اختفاءه الفجائي جعله موضع حديث الناس كلهم في لبنان، وفي العالم!

وها هو والده المستشرق يأتي الى لبنان ولم يمر على اختفاء الابن سوى بضعة شهور. هذا هو لبنان يأبى الا ان يبقى مسرحا عالميا للاحداث الخطيرة، وملعبا دوليا لاشهر شخصيات العالم الغامضة!

وركبت سيارتي وصعدت بها الى بلدة «عجلتون». .

وسألت عن منزل عبدالله فيلبي، حتى اهتديت اليه.

وكنت طيلة المشوار بين بيروت وعجلتون، احاول ان استعيد في ذاكرتي كل ما كنت اعرفه عن هذا المستشرق، العلامة، المكتشف، الرحالة. . . والجاسوس! كانت اسماء مؤلفاته عن «الربع الخالي» والجزيرة والعراق والعرب تتراقص امام زجاج سيارتي وانا اصعد بها في طرق الجبل الملتوية الخطرة. كانت اراءه واسراره وذكرياته ترتسم في صورة شريط طويل يكاد من كثرة اهواله، ووفرة اخطاره ومفاجآته يغمرني بالخوف ويأمرني بأن اقطع الرحلة واعود من حيث اتيت! وكانت الشمس قد غربت وراء البحر وتركت في الافق موجات داكنة تثير الرهبة في النفس وتدعو الى الشعور بالوحشة والقلق. . . والتفكير!

وبعد نصف ساعة، كنت اجلس امام هذه الاسطورة التاريخية المسماة: «سان جون فيلبي!»

وتعارفنا. وادرك حاجتي الى حديثه. وكان قد قرر ان يعتزل العمل «العام» وينصرف الى التأليف بعيدا عن «الجزيرة» وعن الاصحاب والناس الذين عرفهم.

واحبهم وكتب عنهم.

ووضع امامه الغليون، وقدح الشاي، وراح يتكلم . .

وسمعته، دون ان اسأله، يحدثني عن «بلادي» فيقول:

«هناك قطعة جغرافية من الارض، «فسيفسائية» التركيب، اسمها: الوطن العربي!

« . . . اهلها تأثروا بالغرب على الصعيد القومي، ولكن قوميتهم العربية ظهرت في عالم، مسلم. وسقطت الخلافة في «الباب العالي» ولكن اثارها ما زالت قائمة! واعتقد الناس ان «المسألة الشرقية» قد انتهت بمولد اتفاقية «سايكس بيكو». ثم اتضح خطأ اعتقادهم حيث بقي المسلم السني الذي كان يمثل القدس او بيروت، او دمشق في مجلس «المبعوثان» التركي ـ البرلمان ـ هو الذي يمثل الزعامة العربية بعد زوال العهد التركي ومولد الدول العربية المستقلة. ! وهكذا لم تسقط المؤسسة التي كانت امتدادا للامبراطورية العثمانية فبقيت بعد سقوطها ـ سقوط العثمانيين ـ تتصدر القيادات العربية في كل عاصمة عربية، وبقيت «العائلات» العربية السنية المسلمة التي كانت تمثل بلادها لدى «الباب العالي» هي التي تتزعم وتقود بلادها بعد زوال الاتراك. ومضى نصف قرن بالكامل قبل ان تبدأ المؤسسة السنية الاسلامية في الانهيار امام ضغوط الفرق، والملل، والطوائف، والمذاهب فيصبح وداعها، وداعاً «للمسألة الشرقية» نفسها. !

« . . كان الشارع السياسي السني ـ عبر نصف قرن كامل ـ هو الشارع الوطني. هو الشهداء الذين علقهم جمال باشا على اعواد المشانق، وهم «الكتلة الوطنية» في دمشق، وهم حزب «الشعب» في حلب، وهم «السعدون» في بغداد، وهم زعماء القدس وسادتها، وهم الناصرية وهم «البعث» وهم القوة التي تجاهد وتناضل وتطالب بالاستقلال . . »

« . . ولم تغب هذه الحقيقة عن اذهان العالم الخارجي. فقد ادركتها اسرائيل في عام ١٩٤٨ وادركتها اميركا. وايران. كما ادركتها فرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفياتي. واتفق الجميع على ضرورة سحق هذا الشارع «السني» او تقليم اظافره او خلق زعامات «غير سنية» قادرة على ان تتحداه وتنتصر عليه . . . »

«. . . وجاءت هزيمة عام ١٩٤٨ وحققت المطلوب! فقد كانت بمثابة هزيمة للنظم العربية القائمة ـ على مختلف انواعها ـ اكثر منها هزيمة للجيوش. لقد سقطت الديمقراطية العربية. كما سقطت الديكتاتورية العربية. كما سقطت الاستقلالات العربية. كما سقطت افكار سائر فلاسفة السياسة العرب من اشتراكيين ووحدويين وبعثيين ومحافظين وثوريين وملكيين! ومنذ عام ١٩٤٨ ونحن نشاهد تغييرا سياسيا شاملا في مختلف جوانب حياتنا السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية. لقد استطاعت اسرائيل ان تنسف الاوضاع التي خلفتها اتفاقية «سايكس بيكو»، ولم تعد دمشق اقرب الى حلب من «الموصل» ـ مثلا ـ بعد انطلاق الخطر الاسرائيلي بمثل هذه الصورة المذهلة، واستطاعت اسرائيل ـ العسكرية ـ ان تشكل تهديدا صارخا، وملموسا، على كل الكيانات العربية الهزيلة التي خلقتها «سايكس بيكو»!»

واستطرد عبد الله فيلبي يقول لي:

ـ ولكن الضحية الكبرى عند العرب بعد قيام اسرائيل، هم زعماء «السُنّة» من المسلمين في مختلف العواصم العربية! وهذا بالضبط ما تريده اسرائيل، وتريده اميركا، وتريده لندن وباريس! وقد ادرك الغرب خطورة «الغزو» الثوري المصري للشارع العربي «السني» في بيروت ودمشق وبغداد، وتأييد هذا الشارع لثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ ولزعيمها جمال عبد الناصر، فقرر «تفتيت» هذا الشارع والخلاص منه وخلق زعامات جديدة من اقليات دينية معروفة قد تتطور مع الزمن وتؤدي الى قيام دويلات دينية سياسية متعددة وقادرة ان تضمن مصالح الغرب من جهة، وتبرر قيام دولة اسرائيل على الاسس الدينية العنصرية المعروفة من جهة اخرى.!»

ودام حديثي يومذاك ـ وعمره ربع قرن ـ مع عبدالله فيلبي زهاء ثلاث ساعات كاملة، كان اهم ماقاله لي:

ـ اذا قيست عظمة الرجل بمقياس الاعمال التي قام بها فلا شك ان جمال عبد الناصر هو اعظم مصري منذ «محمد علي» حتى اليوم. انه خقق لبلاده ما عجز عنه كل من سبقه من الملوك والحاكمين. ولكن هذه العظمة بالذات قد ايقظت

اسرائيل، وحشدت يهود اميركا وجندت صفوف الصهيونية العالمية واطلقت النفير في عواصم اوروبا وبدأ التخطيط السري لمواجهة «المد العربي» وقهره! واذا لم يتنبه العرب الى هذه الحقيقة ستكون النتيجة وبالا عليهم لانهم سيصبحون كمن ايقظ «الوحش» النائم ثم عجز عن ترويضه، او كمن اعلن الحرب ثم فشل في ان يخوضها او يكسبها، او كمن قرر ان يستعيد فلسطين من اليهود ولكنه نسي ان يستعد للمعركة فاذ باليهود يستعدون وينتظرون الفرصة المناسبة لاحتلال بلاد عربية اخرى غير فلسطين!»

ترى ـ وقد مر على هذا الحديث اكثر من ربع قرن، هل كان هذا الرجل «الاسطورة» ـ عبد الله سان جون فيلبي ـ يقرأ في صفحات الغيب، ويتنبأ بأحداث المستقبل فاذ بالتنبؤات تتحقق، واذ بصفحات الغيب، تصبح وقائع هذه الايام السوداء؟

لا ادري . .

ولكني دعيت في شتاء ١٩٨١ لزيارة مقر مؤسسة «هريتاج» HERITAGE الفكرية السياسية في مدينة واشنطن، بقصد عقد لقاء فكري مع مجموعة من اعضاء المؤسسة والتحدث اليهم. ووجدت نفسي يومذاك وسط شخصيات اميركية متباينة الميول ومختلفة الاراء، بعضها يشغل مناصب رفيعة في وزارة الدفاع ووزارة الخارجية والبيت الابيض، وقد جاء للنقاش بروح علمية واضحة، والبعض الاخر من كبار المؤلفين والصحفيين المشهورين بميولهم الصهيونية وعدائهم للعرب من امثال الكاتب المشهور، النيوزلندي الاصل، البريطاني النشأة، الاميركي الجنسية، «العربي» التخصص، واسمه الدكتور ج. ب. كيللي! وعندما فرغت من القاء كلمتي ـ التي اغضبت الدكتور «كيللي» ودفعته للانسحاب من الجلسة ثم اتهامي باللاسامية ـ انفرد بي مسؤول كبير في الحكومة الاميركية ودعاني للاجتماع به في مساء ذلك اليوم في المكان الذي اختاره. واتفقنا على اللقاء في فندق «ماديسون». وكانت الساعة تقارب الثامنة عندما كان المسؤول الاميركي يدخل باب الفندق. . .

ودخلنا مباشرة في صلب الحديث. وكان جوهر كلامه يدور حول عدم جدية العرب في ممارسة العمل السياسي. قال لي ان في جعبته الف شاهد يؤكد صحة عدم

جدية الديبلوماسية العربية في كل ماتحاول ان تقوم به من اعمال! هل تريد امثلة؟ عندما قرر جيمي كارتر ان يخطب في الامم المتحدة عام ١٩٧٧، ووصل الى المنبر، واغلقت ابواب القاعة، وساد الصمت، وبدأ الرئيس يلقي خطابه، سمع الحراس طرقا على احد الابواب، وفتحوا، واذ بهم امام رجل شرقي يريد الدخول! وابرز لهم بطاقته فسمحوا له! ودخل الرجل يتمايل في خطواته وكأنه في حفل ساهر بينما العيون كلها تتجه اليه! وقطع الرئيس كارتر كلامه ونظر صوب الرجل، وابتسم! هل تعرف من كان هذا الرجل؟ انه - فلان - وزير الخارجية في ذلك البلد العربي. الكبير الذي عقد العزم على عقد السلام مع اسرائيل!

ثم قال لي:

- وفي اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٧ صدر عن حكومة الولايات المتحدة وحكومة الاتحاد السوفياتي اخطر بيان مشترك عن القضية الفلسطينية. وكان معظم وزراء خارجية الدول العربية - يومذاك - قد جاءوا الى نيويورك لحضور الدورة الجديدة للامم المتحدة. كما جاء اليها موشي دايان وزير خارجية اسرائيل. وقامت الدوائر المختصة في واشنطن وفي نيويورك بتوزيع نص البيان المشترك المذكور على جميع سفارات الدول العربية وبعثاتها في واشنطن وفي نيويورك وطلبت الرد عليه. وقامت قيامة اسرائيل. وسافر موشي دايان فورا الى تل ابيب، ثم عاد بعد يومين. وبدأ الضغط الصهيوني يتبلور ويظهر من اجل نسف مضمون هذا البلاغ. وانتظرنا شيئا عن رد الفعل العربي! وسألنا ان كانت اية عاصمة عربية واحدة قد استدعت وزير خارجيتها من نيويورك للتشاور معه في مضمون البيان المشترك؟ ثم سألنا ان كان هناك اي وزير خارجية عربي، او اي سفير عربي في واشنطن قد سافر الى بلده حاملا معه البيان المشترك للبحث والدراسة؟ ومضى اسبوع، ثم اسبوع، ثم اسبوع، وتراجعت واشنطن عن البيان، ونجح موشي دايان في نسف كل سطر من سطوره. وكل هذا، ولا كلمة ولا تعليق ولا رأي ولا جواب من اية دولة عربية حول خطر بيان اميركي - سوفياتي عن اخطر قضية تهم العرب.!»

وسألني: ماذا تسمي هذا المسلك؟!

وقبل ان يسمع جوابي، مضى يسألني:

ـ هل تعرف لماذا استهان بكم انور السادات؟
سألته: لماذا؟!
قال: لانه كان يعرف جيدا عن مدى انقطاع «الخطوط» بين الفلسطينيين من جهة، ومعظم العواصم العربية من جهة اخرى: فقد عرف بالطبع من الرئيس كارتر عن تفاصيل ما جرى عندما حاولت «شخصية عربية سامية ومعروفة» ان تقنع جيمي كارتر لكي يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية مقابل ان تعترف المنظمة بالقرار الدولي رقم ٢٤٢ مع «بعض التعديلات»، وبعد ان بذلت هذه «الشخصية» اقصى الجهد واتفقت مع الرئيس كارتر على جميع الخطوات المطلوب تنفيذها من الجانب الفلسطيني مقابل اعتراف اميركا الرسمي «بالمنظمة»، وعادت «الشخصية» الى بلادها، واجرت اتصالاتها المطلوبة، وانتظرت القرار الفلسطيني لكي تنقله الى واشنطن، اذ بالايام تمر، واذ بالرئيس كارتر يسأل، واذ بالشخصية المذكورة تنتظر، واذ بالامور كلها تنتهي الى «لاشيء!»
سألني هذا المسؤول الاميركي الكبير قائلا:
ـ هل سمعت عن هذه التفاصيل قبل الان؟
اجبته: لا...!
قال: ولكن السادات كان يعرفها كلها ويبني عليها تقديره الشخصي للمشاعر والالام التي اصابت «الشخصية العربية المعروفة» من جراء الرد السلبي الذي جاءها وادى الى فشل جهودها الجبارة مع الرئيس «كارتر» حول الاعتراف المتبادل بين اميركا ومنظمة التحرير!...
ترى هل حقا كان انور السادات يعرف هذه التفاصيل ويبني عليها سياسته العدائية ضد الفلسطينيين؟؟
سألت صديقي «رجل الاعمال العربي المشهور» ـ وهو ايضا من اقرب الاصدقاء الى قلب الزعيم المصري الراحل انور السادات ـ ان يسأل صديقه الرئيس عن صحة هذه الرواية، وعندما سأله، اجابه السادات بانها صحيحة مائة في المائة ثم اضاف قائلا له:
ـ الجماعة ـ اي الفلسطينيين ـ مش عايزين يقتنعوا ان جميع اوراق اللعبة موجودة

في يد اميركا!»

ثم قال له:

- قل لهم ان روسيا لن تفيدهم بشيء! هناك شيء اسمه «اللعبة الدولية» تجري بين روسيا واميركا، وباتفاق الدولتين، ورضى الدولتين، وتفاهم الدولتين تنازلت روسيا لاميركا عن الشرق الاوسط وتنازلت اميركا لروسيا عن الحبشة... وافغانستان!»

ثم قال له:

- اذا تعرضت اسرائيل لخطر خارجي فان اميركا ستقوم بكل مايلزم! وهنا يأتي السؤال: اذا تعرض الفلسطينيون الى خطر خارجي هل ستقوم روسيا «ببعض» ما يلزم؟؟ انا اقول لا! وستضغط روسيا على كل اصدقائها في المنطقة بغية التزام الحياد او المساعدة في اضيق حدودها! هل تعرف لماذا؟ لان هناك «لعبة» دولية اسمها الوفاق الدولي او «اقتسام مناطق النفوذ» او عبارة: هذه حصتك... وهذه حصتي!
« هذه هي الحقائق التي غابت عن تفكير اصحاب القضية»!

قال رجل «الاعمال العربي» للسادات يسأله:

- هل معنى هذا ان روسيا قد غسلت يديها نهائيا من قضايا الشرق الاوسط؟

ولم يجب انور السادات...

ولكن سؤالا مماثلا قد سمعت نفسي اطرحه في عام ١٩٦٦ على الزعيم الصيني «كو مو جو» رئيس اللجنة الدائمة للمجلس الوطني - البرلمان - في الصين فأجابني على آلة التسجيل:

- خلال شهر واحد. سحبت روسيا جميع خبرائها من الصين، وتركتنا مع جميع مصانعنا وقواتنا المسلحة، «على الارض»! وحتى عام ١٩٢٠ كانت اميركا تعادي الصين ارضاء للمصالح البريطانية، وفي عام ١٩٦٥ اعلن «خروتشوف» علينا العداء ارضاء ... لاميركا! لقد سمعنا زعماء السوفيات يبشرون فجأة «بالاعتدال» «والواقعية» وهو مجرد نفاق وخيانة للمذهب الشيوعي الصحيح! لقد حاولت اسرائيل الاتصال بنا بواسطة سفيرها في وارسو - كان هذا قبل قطع العلاقات عام ١٩٦٧ - واعلنت انها مستعدة ان تعترف بنا وتسحب اعترافها

بحكومة تشانغ كاي شك . ولكننا رفضنا. . . ! كما رفضنا مجرد الرد عليها ! لقد ارسلنا من مكتب الرئيس «ماو» الى جميع دول العالم رسائل بعد تفجير قنبلتنا الذرية الأولى ، باستثناء اسرائيل . ان موقفنا صريح لا نسأل فيه عما اذا كنا سنعترف ام لانعترف باسرائيل ، بل السؤال هو اذا كانت اسرائيل ستبقى ام تزول ، لأننا -«على عكس السوفيات» ومخططاتهم وسياستهم- لانريد لاسرائيل البقاء ولن ندخر وسعا في سبيل القضاء عليها!»

ثم قال لي :

ـ لقد تعرضنا في العام الماضي الى «خديعة» من موسكو! وقاومنا الخديعة ووقفنا على اقدامنا! احذروا ان تخدعكم موسكو كما خدعتنا»!

سألته :

ـ لماذا لاتطبقون مع موسكو المثل الصيني القديم «لايحارب البرابرة الا البرابرة» وتحاولون استقطاب الدول الشيوعية في آسيا والعالم لمحاربة موسكو؟»

سألني : ماذا تعني؟

قلت: كانت اسرة «هان» من حكامكم الاقدمين تستعين بشعب «نيوهه» لمحاربة «سيونغ»! وبعدها لجأ حكام «المينغ» منكم الى المنغوليين الغربيين لمحاربة المنغوليين الشرقيين، ثم استعملوا الشرقيين لمحاربة الغربيين! وفي الحرب العالمية الثانية كان الصيني الشيوعي يعتمد على السوفيات، بينما كان غير الشيوعي من الصينيين يعتمد على اميركا! اليست هذه مهارة؟ لماذا لاتحاربون الشيوعية السوفياتية بالتحالف مع «الشيوعيات» الدولية في العالم وتأليبها على موسكو؟

اجاب :

ـ ليست موسكو هي الخصم الوحيد لنا. هناك اميركا! وهناك الهند! وما دمنا نرفض الدخول في «اللعبة الدولية» فان «صديقنا» سيبقى صديقنا، وعدونا سيبقى عدوا لنا! لا نضحي باحد لحساب احد، ولانحالف احدا ضد مبادئنا وخطنا السياسي . اننا ـ رغم اعدائنا ـ دولة كبرى! ولكن اذا كان النفاق والتقلب والاخلال بالعهود والخداع المؤدب هي صفات الدول الكبرى، عندئذ اقول لك ان الصين الشعبية هي «اصغر» دولة في العالم!»

وتمضي الايام . . .

ويقال على صفحات الجرائد وفي الاذاعات ان اصدقاء السوفيات من العرب في المنطقة هم الذين ضغطوا على موسكو ومنعوها من مساعدة الفلسطينيين في محنة لبنان. ولعل العكس هو الصحيح . ان موسكو هي التي ضغطت على اصدقائها من «دول العرب» في المنطقة ومنعتهم من مساعدة الفلسطينيين خلال غزو لبنان وخلال حصار بيروت! ان الايام القادمة ستكشف عن كل الحقائق وقد نجد عندها وبينها ما يؤيد مثل هذا القول. !

وبعد. . .

هل يعني مثل هذا الكلام ان نعود ونرمي بأنفسنا في احضان اميركا ونستجدي منها الحل المطلوب لقضايانا ومشاكلنا؟

انا لا املك الرد على هذا السؤال قبل ان أشير الى ظهور كتاب سياسي اسمه: «الصورة المتغيرة» وبالانكليزية «Changing Image» .

ومؤلفه المستر «ريتشارد كيرتس» من خريجي جامعة «كاليفورنيا» ومن كبار موظفي الخارجية الاميركية حيث عمل في تركيا، والعراق، وسوريا، ولبنان واصبح مفتشا مسؤولا لجميع مكاتب الاستعلامات الاميركية في العالم. والكتاب سجل مفتوح ـ ومفضوح ـ للسياسة العدائية التي سار عليها جميع رؤساء الولايات المتحدة منذ الرئيس ولسون الى الرئيس رونالد ريغان تجاه العرب وقضاياهم. . . وكيف استغل روزفلت قصة «الهولوكوست» لكي يخدم اليهود. . . وكيف اعترف «ترومان» باسرائيل. . . ونوايا كينيدي «الطيبة» تجاه اليهود. . . ودور «جيرالد فورد» في ابرام اتفاقية سيناء. . . ودور كارتر في ابرام اتفاقية «كامب دايفيد» الى آخره. . . !

وسألت الملك حسين عن رأيه في الجنرال «هيغ» فأجاب:

ـ كانت بدايته طيبة، ولكنه عندما بدأ يطمع في «الرئاسة»، رمى بنفسه في احضان اليهود، فضاع»!

هل نترك اميركا، ونترك السوفيات، ونتطلع الى العالم الثالث؟

وهل نسينا دور دول «العالم الثالث» في عملية التصويت على قرار التقسيم ليلة

٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٤٧ وما رافق تلك العملية من رشوات... وفضائح... حتى ان صديقي الراحل احمد الشقيري اهدى لي صورة مندوب «نيجيريا» في الامم المتحدة وقد غلبه النعاس واستسلم للنوم الهادىء السعيد بينما عملية التصويت على مستقبل فلسطين تجري على قدم وساق بعد احدى المناقشات الهامة!

هل نسينا ظروف هذه الدول وفقرها والتيارات المحيطة بها؟

ماذا نفعل؟

وهل صحيح ان «كل شيء سقط» كما كان يغني صديقي الشهيد الثائر «كمال ناصر» في آخر ايام حياته؟

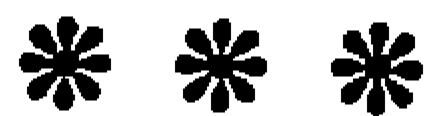
في عام ١٩٦٣، وفي ندوة جامعية بقاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، اشتركت مع السياسي العراقي «عبد الرحمن البزاز»، والوزير «عبد العزيز حجازي» - اصبح فيما بعد رئيس الوزراء المصري، حول موضوع «العرب والعالم»! وسمعت عبد الرحمن البزاز يقول للالاف من الطلبة والاساتذة:

- لقد تحالفنا مع الشرق ضد الغرب، فأخطأنا! ثم تحالفنا مع الغرب ضد الشرق، فأجرمنا! ونسينا - فقط - ان نتحالف مع... «انفسنا»! وعندما نتحالف مع ذاتنا، ونتفق مع انفسنا، ونترك الغرب لاهله والشرق لاصحابه، عندئذ يسعى الغرب والشرق معا الينا للتحالف معنا! ان فلسطين لاتعود في موسكو، ولاتعود في واشنطن، ولاتعود في العالم الثالث. ان فلسطين لاتعود الا في فلسطين وحدها.»

وصاح البزاز في التلاميذ، في ذلك اليوم:

- اياكم والفجر الكاذب... الذي يظهر فجأة ويختفي فجأة! بعض الشعارات، كبعض المظاهر، كبعض المشاريع، كبعض المواقف، كلها فجر كاذب! ان العلم قادر ان يدلكم على الفرق بين الفجر الكاذب والفجر الصحيح! وعندما تتبينون هذا الفرق، لن يكون صعبا عليكم انقاذ فلسطين!»

وتطلعت صوب الوزيرة المصرية العاملة والمثقفة، السيدة «حكمت ابو زيد» وزيرة الشؤون الاجتماعية فوجدتها تمسح عبرات الدمع من عينيها..!





● جمال عبد الناصر يصافح ناصر الدين النشاشيبي في لقائه مع وفد الصحافيين بعد تأميم الصحف في ٢٨ مايو عام



الملك فهد بن عبد العزيز يستقبل ناصر الدين النشاشيبي في . . . جنيف

الفصل الثامن

كيسنجر طلب من يارنغ التخلي عن دور الوسيط الدولي

● ايوب خان :«نحن مع العرب ضد اسرائيل فهل هم معنا ضد اعداء الاسلام. . ؟ »

● قصة السفير المصري في لندن كمال رفعت الذي استقال من منصبه ليرد على هيكل. .

● اننا ننسى بسرعة ونتعب بسرعة ونضجر بسرعة. . . !!

الفصل الثامن
كيسنجر طلب من يارنغ التخلّي عن دور الوسيط الدولي

كان «محمد أيوب خان» من أعظم رؤساء باكستان ومن اقدرهم في الأمور السياسية. . والعسكرية! كان عملاقا في طول قامته وجريئا في كلامه وأنيقا في مظهره ومسلما تقيا في إيمانه. . . وكان الى جانب كل ذلك يحب الحياة والسفر والجمال ويحب باكستان!

وعندما قابلته في منزله بمدينة كراتشي في عام ١٩٦٦ دعاني لكي أسافر معه الى باكستان الشرقية التي لم تكن قد انفصلت بعد عن باكستان «الأم» ولم يصبح أسمها بنغلاديش. ! وفي طائرة البوينغ الخاصة جلست الى جانب الرئيس العملاق وبدأت أسأله عن. . فلسطين! وتركني أسأل كما أشاء وأقول ما أشاء وأعتب على «التقصير» الباكستاني تجاه «القدس» كما أشاء، وأغمز من هنا وألمز من هناك كما أشاء، وعندما انتهيت من كلامي سمعته يسألني بهدوء:

- عندما نصل الى «ديكا» سأعطيك طائرتي الصغيرة الخاصة لكي تطير بها فوق الحدود مع الهند وتشاهد بنفسك حالة المسلمين الهنود الذين هربوا من الأضطهاد الهندي ونجوا من المذابح على يد المتعصبين في الهند، الا تريد ان تطمئن على أحوال المسلمين في شبه القارة الهندية؟

ونظر أيوب خان عبر النافذة الزجاجية وأشار صوب جبال «الهملايا» التي كانت الى يسار الطائرة وقال:

ـ نحن جزيرة اسلامية وسط بحر كبير من الأعداء! ورغم ذلك فان قلوبنا مع أشقائنا العرب وتفكيرنا مشدود صوبهم! ان اعتزازنا الاسلامي يفرض علينا الولاء التام لكل القضايا العربية وعلى رأسها قضية فلسطين. نحن لم نعترف باسرائيل ولن نعترف بها. ان داخل كل جواز سفر باكستاني عبارة تقول: «غير صالح للدخول الى اسرائيل وغير مسموح لصاحب الجواز بان يسافر الى اسرائيل»...

ثم نظر أيوب خان في وجهي وسألني:

ـ قل لي ـ لأجل السماء ـ هل العرب مثلنا بالنسبة لشعورهم بقضايا اخوانهم المسلمين؟ هل ارتفع صوت عربي واحد يستنكر مذابح المسلمين في «كلكتا» و«دلهي» بايدي عصابات حزب المؤتمر الهندي؟! اني أسألك لماذا نجد ثلاثة أرباع أعضاء جامعة الدول العربية لا تحمل للباكستان الا العداء؟ يقولون عنا اننا مع الأحلاف العسكرية. ترى هل نترك الأحلاف ونصبح لقمة سائغة أمام الهند تقدر ان «تبلعنا» في أية لحظة؟ وما علاقتكم يا عرب بأمورنا الخارجية؟ هل منعتنا الأحلاف من ان نقف معكم ونساعدكم ونؤيد حقوقكم ونلعن أعداءكم؟ ولكني اسألك: هل من الاسلام في شيء ان نراكم تؤيدون «الاسقف مكاريوس» في قبرص ضد نائبه المسلم «كوجوك» وتؤيدون اليونان ضد الدولة المسلمة، تركيا؟ أنا أشعر بالخجل من هذا الغرام العجيب الذي يجعل مصر تؤيد الهند البوذية في قضية «كشمير» ضد الباكستان... المسلمة.. الشقيقة! هل بعد هذا تسألني عن موقف باكستان من قضية فلسطين وتعجب لاننا لم نقدم لكم ما يكفي لانقاذ القدس.»؟

وشعرت ان أيوب خان قد بدأ يفقد هدوءه...

ترى، هل كانت قبرص، أو اليونان، أو «كشمير»، هي القضايا الوحيدة التي تناسى فيها «الزعماء» المسلمون إسلامهم وأخذوا جانب «الغريب» نكاية بالأخ، القريب؟

هل نسرد قصة الرئيس الأندونيسي السابق «سوكارنو» ومدى تأييد العرب له، وتسابقهم على صداقته، رغم كل ما اشتهر به هذا الرئيس الاندونيسي المسلم من فحش وخلاعة وتهتك وخروج على الاخلاق والتقاليد، ثم عداء العرب لخليفته «سوهارتو» رغم كل ما اشتهر به هذا الاخير من حرص على الاخلاق ورعاية لتقاليد

الاسلام وسمو تعاليمه . .

انا رأيت «سوكارنو» في القاهرة بالذات وهو يملأ الدنيا لهوا وصخبا وسهرا وفحشا! انا رأيته في حفلات قصر «عابدين» وهو يمد يده أمام الناس الى بعض تماثيل النساء العارية من «البرونز» ويخاطبها بالغزل والفحشاء ويهتز أمامها بالرقص والغناء! انا سمعت عن قصصه في زياراته الرسمية «للمغرب» وللعراق ولدول شمالي افريقيا وسمعت كيف يتحول الرئيس «المسلم» لمائة مليون مسلم الى مجرد مراهق فاسق لايتشرف به الدين ولا يفخر به المسلمون! ورغم ذلك كان «سوكارنو» عند معظم زعماء العرب موئل الرجاء ومحط الأمل من أجل انقاذ فلسطين واسترجاع الفردوس المفقود ومنع «الكفار» من تدنيس أرض الحرم والمسجد الأقصى! ورغم ذلك بقي سوكارنو زعيما كبيرا من زعماء دول الحياد الايجابي، والعالم الثالث، ومؤتمر «باندونغ»، يوحي بأسطورة كاذبة مزورة عن عظمة المسلمين ونفوذهم وقوتهم . . !

ترى، هل عرف زعماء العرب كيف يتسلحون بالاسلام لكي يحاربوا به المد الصهيوني المخيف الذي هددهم وغزاهم في عقر دارهم واستحل مقدساتهم؟

لا أظن . !

ولم يعرف المسلمون ـ وأعني الزعماء والقادة ـ كيف يعبرون عن اسلامهم أو يثبتون حبهم لمدينة «كالقدس» تضم أولي القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وتجمع في تاريخها، تاريخ الأمة العربية بأسرها، منذ عهد عمر بن الخطاب الى عهد الحسين بن طلال!

وطيلة سنوات الحكم التركي، والانتداب البريطاني، والعهد الأردني ،لم تحظ القدس بجامعة اسلامية أو عربية واحدة، ولم تشهد مولد مؤسسة دينية اسلامية عالمية، ولم تضم مستشفى أو مكتبة أو متحفا أو ناديا يحمل الطابع الاسلامي الشامل القادر ان يحكي مدى تعلق المسلمين بمدينتهم المقدسة ويحذر أعداءها من مغبة الاعتداء عليها أو الحاق الاذى بها! وبعد عام ١٩٦٧ أي بعد هزيمة حرب الأيام الستة واحتلال القدس والضفة والقطاع، بعد هذه النكبة فقط، بدأ عرب الضفة بالتحرك، وتنادوا الى انشاء الجامعات في نابلس والخليل والقدس، وتباكى العرب والمسلمون على ضياع «ام الانبياء» وعقدوا العزم على انقاذها عن طريق

اموال «الصمود» وهبات البترول، ولكن، بعد فوات الاوان وبعد ان حوصرت القدس من جميع جهاتها بالقلاع المحصنة وشوهت معالم تاريخها وهدمت اثارها وتبدلت حقيقتها واستحلت حرمتها. ! كانت عائلة «روكفلر» الاميركية المسيحية أحرص على قيمة «القدس» من الالف مليون مسلم حيث بنت هذه العائلة، ومنذ خمسين سنة، وباموالها الخاصة اكبر متحف اثري في القدس ما زال يحمل حتى اليوم أسم «روكفلر» وما زال شامخا في قلب المدينة بالحجر الابيض والهندسة الرائعة والاثار القيمة! وكانت عائلة «روتشيلد» اليهودية أكثر تقديرا لقيمة القدس من جميع العائلات الاسلامية في العالم حيث أنفقت هذه العائلة ملايين الدولارات على شق الطرق، وبناء المراكز، وأقامة المستشفيات التي ما زالت تحمل اسمها على أرض القدس! ويقول المسلمون انهم يحبون القدس ويفدونها بالأرواح؟ ويرفض العالم ان يصدق كلام المسلمين الذين اشتروا نصف لندن، ونصف روما، ونصف باريس، وامتلكوا ناطحات السحاب في قلب نيويورك وشيكاغو، لكنهم عجزوا ـ او رفضوا ـ امتلاك قاعة محاضرات، أو ميتم، أو ملجأ اسلامي واحد في البلد الذي يضم ثالث الحرمين وتراث الاسلام وتاريخ العرب. . . ! قال لي سماحة الشيخ «سعد الدين العلمي»، مفتي القدس، في معرض حديثنا عن مصير القدس: «أية حكومة اسرائيلية توافق على اعادة تقسيم القدس لن تستطيع البقاء في السلطة ٢٤ ساعة. !»

وحدق الشيخ الوقور في وجهي عابسا، متألما، قلقا، وسألني في غضب:

ـ اليس هذا هو الواقع. . ؟

وعندما أجبته بالايجاب، هز رأسه علامة الحيرة القاتلة وأطلق تنهيدة طويلة، ولم يقل شيئاً!

ذلك ان «مفتي القدس» لا يعرف حقيقة ما تضمه القدس من أمجاد فحسب، ولكنه يعرف أيضا مدى تقاعس المسلمين وأهمالهم لها وجهلهم لقوتها وسحرها، وانصرافهم عن الاهتمام اللائق بها، وعزوفهم عن الاصرار المتواصل بان تبقى هذه «القدس» مصدر الوحي والاعتزاز والشموخ الاسلامي!

وما قاله لي مفتي القدس، قاله كل من زار القدس من رجالات العرب

والمسلمين من كافة أنحاء الارض، ومن أرض مصر المسلمة العربية، بوجه خاص! وسر ذلك واضح معروف. وما على المسلم سوى ان يعود ويقرأ كيف دخل «سلطاننا» في يوم الفتح الاكبر الى ساحة الحرم بجند مصر فأقام في الاقصى يوم ٤ شعبان من عام ٥٨٣ هجرية، أول صلاة «للجمعة» وكيف تبارى علماء مصر وفضلاؤها في الترحيب به، والأشادة بجهده في انقاذ بيت المقدس وما تبع ذلك من مواقف خالدة عندما أذن المؤذنون على منابر «المسجد» وأسواره، فارتجت المدينة القدسية بأصوات التكبير والتهليل وتقدم «صلاح الدين» الى القاضي «محي الدين القرشي» وألبسه جبة سوداء من تشاريف الخلافة العباسية فلبسها وصعد المنبر واستفتح بسورة «الفاتحة» وقرأ أول سورة «الانعام»، ثم قرأ من سورة «الاسراء» ثم قرأ من سورة «الكهف»، ثم من سورة «النمل»، ثم شرع في الخطبة فبدأها «الحمد لله معز الاسلام بنصره» وصلى على نبيه الذي اسرى به ليلا من المسجد الحرام الى هذا المسجد الأقصى وعرج به الى السموات العلا الى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى... وذكر ابا بكر وعمر وعثمان وعليا وصلى على آله وصحبه والتابعين وقال «ايها الناس ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى لما يسره الله على ايديكم من استرداد هذه الضالة وردها الى مقرها من الاسلام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله ان يرفع ويذكر فيه اسمه.. لقد جددتم للاسلام ايام القادسية والملاحم اليرموكية والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية...!

وتمضي الايام، ويأتي الى بيت المقدس، منذ خمسين سنة، أول قنصل لمصر في فلسطين، هو الاديب المؤرخ المصري النابغة الاستاذ «احمد رمزي» فيذهب بعد وصوله مباشرة للصلاة في المسجد الاقصى، ويلقي بعد الصلاة خطبة قصيرة خاطب فيها سماحة الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الاكبر، والذي كان موجودا في المسجد، قائلا:

«.. يا صاحب السماحة! ان دروس الماضي باقية في نفوسنا لن تبيد ابدا. واننا نستمد منها قوة اذا ضعفت قوتنا، ونستلهم منها امالا اذا ضعفت امالنا في المستقبل! واننا لنأتي الى هذه البقعة الطاهرة وننظر الى هذا الجامع والى صحنه ورحباته وصخرته فنجدد عهدنا لكم وتغمرنا روح الايمان والثقة والتمسك في الامانة التي في

اعناقنا نحن اخوانكم الذين اشتركنا معكم طول القرون الماضية لنؤكد لكم مرة اخرى ان مصيرنا مرتبط بمصيركم وان حياتنا لا قيمة لها بدونكم. اننا في فلسطين ومصر أمة واحدة، اشترك الآباء والأجداد في هذا التراث الاسلامي العربي كما اشتركنا في السراء والضراء والقوا علينا دروس يقظة وصبر وأناة وعناد وتمسك بالعروة الوثقى وتعاليم الاسلام الخالدة. . !»

ثم قال احمد رمزي لأهل القدس، وللحاج أمين الحسيني:

«. . منذ سبعمائة وسبع سنوات التقى جيش مصر بقيادة سلطانها الملك المظفر «قطز»، مع جيوش المغول ودارت بينهما معركة هائلة فاصلة في «وادي جالوت»، وكان مجيء جيش مصر من القاهرة، الى «الصالحية»، الى غزة، الى «الرملة»، ثم عكا، ثم الى ارض معركة عين جالوت! ولما التقى الجمعان كتب الله النصر للمسلمين فسجد ملك مصر المظفر «قطز» ومرغ وجهه في تراب أرضكم. . الغالية!»

ما أبعد الفرق بين هذا الموقف من قنصل مصر في القدس عام ١٩٣٥ وبين زيارة رئيس مصر، للقدس في شهر نوفمبر عام ١٩٧٧!

كلاهما في المسجد الأقصى: واحد له. . وواحد عليه!

وكلاهما من مصر: احدهما يخطب عن التحرير، والحرب، ومعارك الاسلام الفاصلة، والثاني خطب عن السلام!

لم يعد مهما ان نعرف لماذا أقدم ذلك اليهودي الاسترالي المجرم على حرق منبر الأقصى وسقفه في عام ١٩٦٩. .

ولم يعد مهما ان نسأل لماذا أقدم يهودي اخر أكثر اجراما على ذبح المصلين المسلمين في صحن الحرم الشريف في عام ١٩٨١.؟

المقدمات تؤدي ـ منطقيا ـ الى النتائج! الفعل يؤدي الى رد فعل مشابه. وكان الديبلوماسي المصري العلامة الدكتور «محمود فوزي» ـ وقد بدأ حياته الديبلوماسية في منصب قنصل مصر في القدس في أوائل الاربعينات ـ يحدثني دائما عن نظرية العالم الروسي الشهير السيد ايفان بافلوف «Pavlov» والتي تفسر علميا مراحل السلوك الانساني حيث استطاع هذا العالم الذي حارب ستالين، واستقال من

اكاديمية العلوم، وتبرأ من الشيوعية، ان يضع قوانين علمية لردود الفعل المنتظرة أو المسيطر عليها من صاحبها بحيث يستطيع الشخص ان يتنبأ بنوعية رد الفعل المنتظر على العمل المعين اذا عرف نوعية العمل نفسه. وبالرغم من ان الدكتور «محمود فوزي» كان مغرما بان يتحدث بلغة الالغاز ويقول الكثير الذي لا يعني شيئا ويدور ويحاور ويلف وينتهي بالسامع الى «لا شيء» ويحلل فلسفة «نيتشه» بحركات المصارعة اليابانية، أقول، رغم غرام وزير خارجية مصر السابق ورئيس وزرائها ومبعوثها الدولي بالاحاجي والفوازير الا انه كان يكره التضليل في استعمال الكلمات ولا يسمح ـ مثلا ـ ان نكتب عبارة «قضية الشرق الاوسط» ونحن نعني فقط «قضية فلسطين»، ولا يسمح باستعمال «قضية الفلسطينيين» والمقصود بالضبط هي قضية «الوطن» الفلسطيني «والشعب» الفلسطيني معا، ولا يرضى باستعمال كلمة «نكسة» بينما الواقع انها «هزيمة»، ولا يتسامح مع من يقول له ان التفاوض مع اسرائيل لا يعني مبدأ الاعتراف بها «اذ يصعب على المرء ان يتفاوض مع شيء غير موجود أو مع لاشيء. . .»، ثم يتساءل في منطق الديبلوماسي الفيلسوف: «لماذا نسمي الضفة الغربية من الاردن «بالضفة الغربية» ولا نسميها «بالجزء الشرقي» من فلسطين؟»

وتغرق نظرات محمود فوزي في ضحكته الموزونة القصيرة وهو يردد:

ـ صحيح لماذا؟

ثم يحاول ان يجيب فيقول:

ـ لأننا قوم من الببغاوات نقلد ما نسمعه وما يقال لنا من غيرنا فاذا استعملت اسرائيل كلمة خبيثة مثل «يهودا. . . أو السامرة» لكي تدلل بها على «الضفة الغربية»، هرعنا فورا الى ترديد هذه الكلمات دون ان ندري اللؤم السياسي الخبيث المختبيء وراءها! اننا نعرف مثلا ان اسرائيل قد «سرقت» مياه نهر الاردن في عام ١٩٦٤ وحولتها الى صحراء النقب. عملية سرقة مائة في المائة. ولكن اسرائيل لاتسميها سرقة وانما تسميها مجرد «تحويل»! وهكذا مضت جميع وسائل الاعلام العربية تتهم اسرائيل «بتحويل» مياه نهر الاردن دون استعمال كلمة «سرقة». والفرق كبير بين التحويل وبين السرقة. والعالم الاوروبي او الاميركي يتساهل مع التحويل ولكنه قد لا يتساهل مع السرقة! وهكذا انطلت علينا اللعبة وقمنا ـ فعلا ـ

بدور الببغاوات المرسوم لنا! . .

قلت للدكتور فوزي :

ـ وكذلك فان اسرائيل تصر على ان تطلق على ساحة «الحرم المقدسي الشريف» اسم «ساحة الهيكل» وتقصد بذلك ان تظهر العرب وكأنهم هم الذين اعتدوا على «الهيكل» وبنوا مسجدهم فوق بقاياه . !»

اجابني مقاطعا :

ـ بل ان قصد اسرائيل ان تمهد نفسية العالم لكي تقوم فيما بعد بهدم كل ما يحلو لها هدمه من مقدسات اسلامية موجودة في «ساحة الحرم الشريف» واعادة «بناء هيكل سليمان مكانها ، فتبدو العملية وكأنها مجرد «تصحيح» للامور وليست اعتداء سافرا على المسلمين . . !»

ثم سألني :

ـ انا ـ كما تعلم ـ عملت قنصلا لمصر في القدس لمدة ست سنوات ، واعرف مدن فلسطين معرفتي بالقاهرة ، واعرف كذلك مساجد المدن الفلسطينية في عكا . . . وحيفا . . . والمجدل . . . ويافا . . . والرملة ، كلها! هذه المساجد ماذا جرى لها؟ وكيف حالها الان؟ معلوماتي ان مسجد «الجزار» في عكا قد تحول الى «متحف» يدخله كل من يدفع دولارا . . . ومسجد «حسن بيك» بيافا قد تهدم نصفه وتنوي اسرائيل تحويله الى كباريه . . . ومسجد «الاستقلال» في حيفا يعيش في الاسر بلا كهرباء ولا ماء ولا صيانة ولا نظافة ولا يتذكره احد الا في الجنازات! وقد هدمت اسرائيل جميع المساجد في «المجدل» و«النبي روبين» ومدن : بيسان . . . وعين كارم . . . والرملة . . . واللد . . . والنعاني . . . وقطره . . . وشلتا! ومع ذلك لم يرتفع صوت عربي واحد بالاحتجاج! وبينما نرى اسرائيل تبحث عن الاقلية اليهودية في وادي «ابو جميل» بمدينة بيروت ، لا نكاد نسمع صوتا اسلاميا واحدا يتهم اسرائيل لدى الامم المتحدة ، أو امام الرأي العام العالمي بجريمة هدم الجوامع الاسلامية في الارض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ! لعل السبب كوننا نرفض الاعتراف باسرائيل . . . وبالتالي نرفض الاحتجاج عليها . . . لانك لا تستطيع ان تحتج على شيء ، لا تعترف به!»

ويضحك محمود فوزي ويسأل من جديد:

ـ اليس كذلك؟!

ثم عبس وقال:

ـ مررت بمدينة باريس في يوليو ١٩٦١ وكان «بن غوريون» يزورها بحجة جمع الاموال لتنفيذ عملية «تحويل» مياه نهر الاردن. في ذلك اليوم سمعت صوت جون فينزجيرالد كيندي ـ رئيس اميركا ـ يعلن انه ينوي ايجاد الحل المطلوب لقضية فلسطين «اما بالسلم او بالقوة»! في ذلك اليوم بالذات، قرأت في الصحف ان العراق بدأت تحشد قواتها على حدود الكويت بقصد احتلالها! وفي ذلك اليوم بالذات، وفي نفس الجريدة، قرأت عن دولة عربية «شقيقة» امرت ممثلها في الامم المتحدة لكي يعتلي المنبر ويشكو للدول الاعضاء دولة عربية «شقيقة» اخرى! وفي ذلك اليوم بالذات، وفي نفس الجريدة المذكورة خبر عن فشل «لجنة الخبراء» التابعة للجامعة العربية في جهدها لابراز ما يسمى «بالكيان الفلسطيني» لكي يتمكن الفلسطينيون من تحرير «وطنهم!» والى جانب ذلك كله، خبر صادر عن اسرائيل يقول «ان السلطات الاسرائيلية تنوي ان تكرر اجراء العرض العسكري الذي اجرته منذ شهرين ـ ابريل ١٩٦١ ـ في مدينة القدس. . . رغم النصيحة التي ابدتها لها، حكومة الولايات المتحدة الاميركية».

وانهى محمود فوزي كلامه معي بأن ردد حكمة «مونتسكيو» التي يحلو له ترديدها باستمرار والتي تقول:

«لعله من متطلبات النجاح ان تبدو بليدا في ثياب حكيم!»

لا. !

لم يكن الحاكم العربي المسؤول «بليدا» في ثياب «الحكماء»، وانما كان «بليدا في ثياب «البلداء»!

فقد جهل هذا الحاكم العربي المسؤول، او لعله تجاهل، كل «المنعطفات» السياسية الرئيسية التي بلورت سياسة اسرائيل تجاه العرب طيلة الثلاثين سنة الماضية! لم يدرك لماذا ذهب العمال ولماذا جاء مناحيم بيغن! بل لعل بعض حكام العرب صفقوا لسقوط «حزب العمل الاسرائيلي» في انتخابات ١٩٧٧ وظنوا ان

العناية الالهية قد انتقمت للعرب من هزيمة ١٩٦٧! لم يقرأ العرب ان مناحيم بيغن هو «اخر» تلامذة «جابوتنسكي» في بولونيا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية! لم يطلعوا على صور اتباع «بيغن» في فلسطين بثيابهم الرمادية التي تشبه ثياب العسكر النازي، ولم يقرأوا منشوراتهم الثورية «الفاشية» ضد «العمال» وضد العرب على السواء! لم يترجم احد للعرب عبارة «راك كاش» «Rak Kach» ومعناها: «هكذا فقط» والتي كانت تصور الهدف النهائي لجماعة «بيغن» وتصورهم وقد حملوا البندقية وصوبوا فوهتها على خريطة فلسطين... وشرق الاردن ايضا! لم يسمع عربي واحد عن مدينة «برسك» البولونية حيث كان مولد «مناحيم بيغن»... والتي شهدت مفاوضات الهدنة بين الشيوعيين وقوات القيصر، كما شهدت عملية تسليم العسكر الشيوعيين الالمان الى قوات «الغستابو» في عام ١٩٣٩ بيد الشيوعيين الروس في اكبر عملية خيانة خلال هذا القرن! مدينة «برسك»، هي مدينة الفتن والانقلابات، والصفقات المشبوهة، وهي ايضا المدينة التي ولد فيها مناحيم بيغن عام ١٩١٣!

ورغم ذلك، ظن العرب ان مناحيم بيغن سينتقم لهم من غولدا مائير وشمعون بيريز وموشي دايان واسحق رابين.. فاذ بمناحيم بيغن يخلق لشعبه ودولته خريطة «اسرائيل الكبرى»!

وبنفس الغباء، لم نفهم شخصية عزرا وايزمن ولم نستغله لحسابنا سواء قبل مجيئه الى الحكم ام بعد استقالته من الوزارة.

وتركنا اسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ في دوامة سياسية دامية لمدة نصف عام كامل، ولم نحاول ان نفعل شيئا نستغل من خلاله هذه الدوامة العنيفة لمصلحتنا..

ذلك ان العرب يتميزون بطابع «النفس القصير» في ممارسة العمل السياسي الذي يحتاج دائما الى الأستمرارية والملاحقة..

انهم ينسون بسرعة! ويتعبون بسرعة. ويضجرون بسرعة. وكأنهم مولانا «محمد علي» ـ الزعيم الهندي الراحل عندما زاره وفد فلسطيني للمرة الثانية في الهند عام ١٩٣٤ طالبا المعونة والتأييد، فاذا بمولانا «محمد علي» يمد رجله ويبسط ذراعه ويقول للوفد وهو يتمطى ويتثاءب:

ـ قضيتكم اتعبتني..!

ثم تركهم، وخرج. . .

وكان صديقي الثائر المصري المعروف «كمال رفعت» مسؤولا في اوائل الستينات عن اسرار المخابرات العربية في رئاسة الجمهورية بمصر، قبل ان يصبح سفيرا لمصر في لندن! وكنت ازوره في مكتبه بالقاهرة واطلع على ما كان يسمح لي بقراءته من تقارير سرية بعث بها الى الرئاسة سفراء مصر «وعيونها» في العواصم العربية. . . وما اكثرهم!

واستطيع وباختصار شديد ـ ان ازعم وبكل ضمير مرتاح ـ بان ما سبق لي وقرأته في تقارير مكتب «كمال رفعت» في الستينات، هو المقدمة المنطقية التي تنبأت وادت الى كل ما جاء بعد هزيمة ١٩٦٧ من نكبات، لا في مصر وحدها، ولا في سوريا وحدها، بل في لبنان «وبين بعض المسؤولين اللبنانيين واسرائيل» ايضا!

لماذا لم تكشف ثورة مصر عن هذه الاوراق في حينها!

لماذا سكت صديقي الراحل «كمال رفعت» عما يجري في كواليس لبنان ـ سرا ـ بين «بعض» الناس، وبعض الاعداء؟!

والجواب في كلمة واحدة: الضجر! او: «الزهق» او: الملل!

وهذا الضجر نفسه هو الذي لاحق هذا الثائر المصري الاصيل وجعله بعد ان اصبح سفيرا لبلده في لندن، ان «يقرف» ويضجر بسبب مقال واحد نشره ضده «محمد حسنين هيكل» في الاهرام القاهرية وقال في مقدمته «ان سفير لبنان في لندن هو «أكبر» سفير لأصغر دولة عربية، وان سفير مصر هو «أصغر» سفير لاكبر دولة عربية!»

وكان بين الاثنين اكثر مما صنع الحداد! فقرر «كمال» ان يعتزل، وكتب الى مصر يتساءل عما اذا كانت هجمة «هيكل» بمثابة الانذار المبكر له بالاستقالة، ولم ينتظر الجواب، فبقي في حالة قرف شديد حتى اعتزل المنصب وعاد الى مصر! المهم ان العمل الديبلوماسي العربي المصري قد اصيب بالشلل التام في العامين الاخيرين من وجود اكبر سفير لاكبر دولة عربية في بلاط سان جيمس وخلال حرب ١٩٧٣ الاخيرة بالذات! والسبب: القرف والضجر وقصر النفس والحساسيات الشخصية الصغيرة. !

بينما العدو لا يضجر. . . . ولا يمل!

لقد حدثني «يارينغ» المبعوث الدولي، وسفير «السويد» السابق في موسكو، ان «هنري كيسنجر» قد تعمد زيارته في مقر سفارة السويد بموسكو وطلب منه ان يستقيل من تكليفه «كوسيط دولي للامم المتحدة في قضية الشرق الاوسط. .»

وعندما اجابه «يارينغ» بان مهمته في الوساطة لم تنته بعد قال له كيسنجر:

ـ وساطتك انتهت عندما بدأت. . . وساطتي انا!

قال له يارينغ: ولكن السكرتير العام للامم المتحدة لم يبلغني شيئا!

اجابه كيسنجر ضاحكا:

ـ انا. . . الامم المتحدة!!

وكان هذا بعد مضي اكثر من ست سنوات على فشل مهمة «يارينغ» وعودته الى مقر عمله كسفير للسويد في موسكو!

نحن ننسى. ولكن العدو لاينسى!

نحن نمل! نتعب! نسافر الى اوروبا لقضاء اجازة «العيد» والتمتع بفرصة الصيف على شواطىء بحيرة «جنيف» والريفيرا بينما الغزو الاسرائيلي للبنان على اشده، وبينما القنابل تتساقط فوق بيروت وصيدا والدامور بالاطنان!

نحن نغفر ونتسامح ونشتري البضائع الجاهزة من محلات «مارك اند سبنسر» ونحجز الطوابق بكاملها في فندق «هيلتون» بجنيف، ونوظف اموالنا في اعرق البنوك اليهودية، ونختار خبراءنا الماليين من صفوف اليهود الاميركان، ونعشق الجمال اليهودي لكي نؤكد تسامحنا وعدم تعصبنا، ونسمح لانفسنا بأن نشتم العرب ـ نشتم انفسنا ـ لكي نثبت اننا لسنا جاهلين، ولا متأخرين، ولا اميين، ولا. . . «ارهابيين»!

ولكن عندما يصبح الامر متعلقا باشقائنا او بجيراننا او باخواننا العرب الاخرين. . . عند ذلك يمنحنا الله قوة خارقة في القدرة على الصراحة والمقدرة على تسمية الاشياء باسمائها ثم كيل التهم بالقناطير وفتح الحسابات القديمة والردح الشعبي على اوسع مراتبه. .

وانتقلت العدوى الى الخليج العربي. . .

وقال لي «الشيخ راشد بن مكتوم» خلال لقائنا في لندن منذ اعوام :

ـ هات ما عندك من اسئلة! انني قادر ان اتحدث اليك بصراحة تامة وان اقول امامك للاعمى ، انه اعمى ، وان اكشف لك كل الاسرار وكل الاخبار، واجعلك ترى الامور وكأنك في «دبي» او ابو ظبي فأنا لا اخشى الا الله، وخصومي لا قيمة لهم . . . »

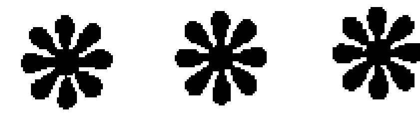
وعلى الفور قفزت أمامي شخصية صديقه وزميله المسئول العربي ، كان يتغنى بالصراحة والجرأة ، ولما التقينا ، ووضعت امامه آلة التسجيل وسألته :

ـ ما رأيك في سفيرك «فلان»؟ سفيرك الملياردير ؟

وضع يده على آلة التسجيل . . . وضغط على الزر . . . وأقفل الآلة!

ثم قال في جرأة يحسد عليها :

ـ سفيرنا فلان . . . لا احبه! سفيرنا فلان يثري بالحرام. سفيرنا فلان ملعون كبير!»



الفصل التاسع
كارلوس أحد ملوك القدس
يعترف بعجزه عن القيام.. بواجباته!

● الشيخ زايد: لم انجح في زراعة الحب بين مصر وليبيا. . . !
● محمد احمد محجوب: من لا يقدر على خدمة بلده لا يقدر على خدمة فلسطين !
● محمد عبد الوهاب: المصري يعالج احاسيسه بالنكتة والعربي يعالج مشاكله بالمسدس.»
● نحن نتبنى شعارات اكبر منا وندعي حقوقا لا نقوى على الحفاظ عليها» !
● هتفوا بسقوط الوحدة لأن عبد الناصر لم يضرب الوزير السوري الذي ضرب مواطناً سورياً !

الفصل التاسع
كارلوس أحد ملوك القدس
يعترف بعجزه عن القيام.. بواجباته!

في مأساتها وفي نارها ولهيبها، وفي ضحاياها ومذابحها واهوالها، كانت قضية فلسطين، وما زالت، أكبر قضايا العصر واخلد مآسيه واكثر النكبات عطاء واوفر المصائب جوداً وكرماً في بذل الشهداء وتقديم الضحايا والقرابين!

ولذا، قد يتصدى الكثيرون لها، ولكن المنتصر فيها قليل!

وقد يحترق الكثيرون بنارها، ولكن الذين ينشرون نورها على العالم هم القلة!.

وقد ينتسب اليها ويقرن اسمه بأسمها، الاف والاف، ولكن الذي يستحقها ويستحق شرف الاقتران بها، لايزيد عددهم عن اصابع اليد الواحدة!

ولانها كبيرة، لايقدر عليها الا الكبراء! كبراء النفوس، كبراء العلم، كبراء الحب، كبراء الصبر، كبراء التسامح، كبراء الجود والبذل!

هل تعرفهم؟ نعم اعرفهم! وهذه بعض قصصهم:

كان صديقي السياسي السوداني المعروف «محمد احمد محجوب»، رئيس وزراء السودان الراحل، يمارس السياسة بروح العاشق، ويعشق الناس بعقل السياسي! وبين فترات السياسة وساعات العشق، كان «محمد احمد محجوب» ينصرف الى نظم الشعر والتغني بالديموقراطية. وكان اصيلا في عروبته كما كان الاصيل في حسبه ونسبه، كما كان الاصيل في انتسابه الى زعيم الاصالة السودانية السيد عبد الرحمن المهدي!

وفي آخر لقاء لي معه، وكان ذلك في شتاء عام ١٩٧٥ ، جلسنا، وهو وانا، وحدنا في شقته «بلندن»، نستعيد ذكرياتنا المشتركة طيلة سنوات ربع القرن الاخير ونتحدث عن السلبيات والايجابيات في السياسة العربية المعاصرة ونتساءل عما سيكون عليه الغد المجبول بالاخطار، والدماء والمفاجآت... «والنكسات» الجديدة!

وقال لي «محمد احمد محجوب» انه يأسف على السنوات التي ابتعد فيها عن الادب وانصرف فيها الى السياسة، ثم قال لي انه بكى صديقنا المشترك الشاعر الثائر «كمال ناصر» بأبيات لم يسمعها منه احد قال له فيها:

اقتلت تمسك بالقلم
ماذا تسطر من الم ؟
حمل السلاح مجاهدا
يغشى بحاراً من صمم !
عاشت كتائب فتحنا
بنضالها ترعى الذمم
انت الفداء لامة
علمتها درب الشمم!

قلت له وكأني اشده الى حديث السياسة:

ـ اكاد اشعر بأثقال الحزن ينوء بحملها ظهرك!

قال ورأسه مطرقة:

ـ انا فعلا حزين! انا حزين على نفسي. وحزين على العرب. ان فترات الفرح في حياة العرب، قصيرة لانها هي فترة الديموقراطية، والبرلمانات، والحرية! لقد بدأت الانقلابات العسكرية تتكرر، وما زالت الحريات والديموقراطية، في اجازة!

سألته بعد تردد:

ـ وما هو الخطأ في الانقلابات العسكرية؟

اجاب بعنف:

ـ خطأوها انها تأتي الى الحكم بشباب «صغار» لاعهد لهم بالحكم، ولا معرفة لهم بالشعب، ولا خبرة لهم بالمسؤوليات! ان استمرار الانقلاب العسكري في الحكم لايعني قوته، وانما يعني ارهابه! انا لاانكر ان جمال عبد الناصر كان زعيماً «مقداماً» و «جريئاً» ونزيها، ولكنه كان ـ كذلك ـ زعيماً مستبداً! والذين قلدوا عبد الناصر من بعده قد اساءوا الى انفسهم، والى بلادهم، واساءوا الى عبد الناصر نفسه! ان الرخاء لا يعيش مع الاستبداد. والقوة لاتتحقق بدون رخاء. وعندما يصبح المواطن عاجزاً عن ان يخدم بلده، فهو بالتالي سيكون عاجزاً عن ان يحمي... فلسطين!»

واستطرد محمد احمد محجوب، يقول لي:

ـ وهذا الكلام لايعني التقليل من عظمة جمال عبد الناصر!. انا ضد الانقلابات لاني لا «اضمن» ان زعيم الانقلاب الجديد سيكون في نزاهة عبد الناصر، او في جرأته او اقدامه او وطنيته! ان اكبر عيوبي هي صراحتي. وكنت دوماً اقول ان ميثاق الجامعة العربية سيبقى كسيحاً مادامت اصوات الاغلبية لاتعني «الالزام» وكنت اطالب بانشاء «مجلس امن» عربي يشبه «مجلس الامن» الدولي في اختصاصاته وقراراته. وكنت كافراً بالجامعة العربية لانها كانت سبباً في اختلاف العرب لافي توحيدهم! ورغم ذلك كنت اؤمل الخير الكثير على يد عبد الناصر رغم اختلافي معه في الاسلوب والسياسة! هل تدري لماذا كنت اؤمل بالخير على يديه؟ لانه كان «كبيراً»! كان كبيراً في عداوته وفي صداقته! وقد عرفت ذلك بنفسي، وفي منزلي، بالخرطوم، عندما كان صالون بيتي في السودان ملتقى الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز وجمال عبد الناصر قبيل مؤتمر الخرطوم!. كان فيصل من انبل رجالات العرب. كانت مصر تشتمه وكان يساعدها بالقروض وبالعمل السياسي الصامت. وقد دعوتهما ـ فيصل وعبد الناصر ـ للالتقاء في منزلي والوصول الى حل بشأن قضية اليمن. وخلال خمسة عشر دقيقة فقط، انتهى النقاش وانتهى الخلاف! لقد رأيتهما يتناقشان كأخوين ويتفقان كأخوين! لم تأخذهما الحساسيات الصغيرة ولم تتفجر عند احدهما رواسب الحقد او العداء او الكراهية او الحسد او الشك! كان كل منهما

«اكبر» من الحقد واكبر من الشك! وعندما خرجا من منزلي ـ وخرجت معهما ـ الى قاعة المؤتمر، وقال عبد الناصر ان مصر تحتاج الى «١١٠» مليون جنيه بسبب خسائرها في عائدات القنال، وقال «الملك حسين» ان الاردن يحتاج الى «اربعين» مليون جنيه للانفاق على الجيش وعلى اهل الضفة والمرتبات، ساد صمت كصمت القبور، وكان الملك فيصل يجلس الى يساري فقلت له على مسمع من الجميع: «الكلام لك يا ابو عبدالله!» فسألني رحمه الله: «لي انا؟» قلت: نعم. . «الكلمة لك ياطويل العمر!» قال على الفور: «السعودية تدفع ١٥٠ مليون جنيه سنوياً»!

وانتهى المؤتمر بالنجاح الكبير الذي عرفه العالم! لماذا؟ لان اقطابه الرجال الذين حضروه، كانوا «كباراً» بكل ما في الكلمة من معنى! وكما اختلفوا «في كبر»، عادوا وتصالحوا واتفقوا في «كبر». وبعض الكبار يزيد حجمهم عن حجم بلادهم، فينقلون كبرهم الى بلاد اخرى واوطان اخرى وقضايا اخرى ويسهمون في خدمة تلك البلاد وخدمة قضاياها. لهذا السبب انتشر عبد الناصر في الوطن العربي وخرج من حدود مصر. ولهذا السبب انتشر فيصل بن عبد العزيز في عواصم العالم واصبح مثلا للتمرد والدهاء والذكاء والعمل الدبلوماسي الصامت الناجح»!. .

واكمل محمد احمد محجوب قائلا لي:

ـ ان ماتحتاج اليه فلسطين ياصديقي هو المزيد من الرجال «الكبار»! والكبير هو من يضع سلامة المجموع فوق سلامته، ومصلحة الامة فوق مصلحته، وخير الوطن فوق خير «الحزب»، وخلاص القضية قبل خلاص الانصار!»

ثم همس في قلق:

ـ القضية، قضيتكم اصبحت سلعة للوسطاء! اميركا تتوسط، اوروبا تتوسط! العرب يتوسطون! انا لست ضد مبدأ الوساطة ولكني ضد الوساطة التي تكون على حساب القضية نفسها! وكذلك، انا لست مطمئناً تماما الى نوايا معظم الوسطاء. وبالتالي، لست واثقاً من نوايا معظم الذيم قبلوا تلك الوساطة. هل تعرف سر شكوكي؟ سرها ان هؤلاء جميعاً هم من «الصغار». وانا اقول ان اشد اعداء هذه الامة. . هم صغارها!»

ثم راح محمد احمد محجوب يردد بيتاً من الشعر الجاهلي -للأصبع العدواني-

كان بمثابة شعاره في حياته :

لايخرج القسر مني غير مأبية
ولا ألين لمن لا يبتغي ليني!

وعندما مات «محمد احمد محجوب» شعر جميع اصدقائه والذين عرفوه والذين ايدوه او عارضوه ان سياسياً عربياً كبيراً قد غادر هذه الدنيا والتحق بقافلة «الكبراء» الذين سقطوا قبله فأصبح حال العرب من بعدهم ضياعاً وتشرداً وانقساماً ونكبات! لقد عاش «محجوب» للعرب كلهم اكثر مما عاش لوطنه السودان وما اكثر عدد رجال السياسة العرب الذين عاشوا لانفسهم فقط، او لاوطانهم الخاصة فقط، وما اقل عدد الذين عاشوا للعرب كلهم، وعملوا لفلسطين او للجزائر او للتضامن العربي اكثر مما عملوا لخدمة احزابهم، او عبادة انفسهم او تحطيم معارضيهم او تبرير بقائهم في المناصب التي يحتلونها رغم ارادة شعوبهم. !

لقد نقلني الحديث مع «محمد احمد محجوب»، وعنه، الى حديث آخر ليس ببعيد، كنت قد سمعته وحدي في السابع من شهر اغسطس من عام ١٩٧٥ من الشيخ «زايد» رئيس دولة الامارات العربية. وكان سفير الامارات قد سمع بعض هذه الحديث، كما سمع بعضه الشيخ «راشد» نائب رئيس الامارات. في ذلك اليوم كان الشيخ «زايد» يحدثني عن هذا «المولود» الجديد الذي اسمه «اتحاد الامارات العربية» بلهجة ودية ومتفائلة بل ومرحة! كان يقول لي، مثلاً:

ـ هذا «الاتحاد» اذا حقق النجاح المطلوب واثبت وجوده على الصعيد الدولي، سيصبح عندئذ موضع الاعجاب والتأييد من جانب اصحابه، كما سيصبح موضع حسد الاخرين والقدرة على اغرائهم للانضمام اليه. ولكنه ـ لو فشل ـ لاسمح الله، فان كل المهام التي يقوم بها وكل المسؤوليات الملقاة عل عاتقه ستصاب ايضا بالفشل! لذا، ليتوجب على جميع العرب الحرص على هذا «الاتحاد» لان الحرص عليه يعني الحرص على استمرار الدعم العربي الذي نقدمه، وعلى الجهد العربي الذي نبذله، وعلى المساعدة العربية التي نمنحها لاخواننا من العرب! لقد وجدنا الحلول لكل قضايانا المعلقة مع مسقط وعمان، كما توصلنا الى حل مشكلة «الحدود»

مع دولة «قطر» وتنازلنا لها عن كل ما طلبته، وكذلك اعطينا «دبي» مساحة «١٢» كيلو متر مربع من اراضي «الحدود» التي طلبتها منا. وهذا اكبر دليل على حسن نوايانا تجاه الجميع، والحمد لله ان «الاتحاد» قد اصبح الان دولة بكل معنى الكلمة!»

وقاطعت الشيخ «زايد» قائلا له:

ـ وهل رسالة الدولة ـ اية دولة ـ تبقى محصورة في قدرة هذه «الدولة» على ان تحل مشاكل «حدودها» مع جيرانها فتتحقق المعجزة وكفى الله المؤمنين القتال؟»

سألني الشيخ زايد:

ـ ماذا اذن؟

اجبته:

ـ اليس «للاتحاد» رسالة عربية قومية شاملة وواسعة تتعدى حدوده الجغرافية وتمشي باطمئنان الى قلب الوطن العربي وتعيش قضايا العرب وتتجاوب مع آمالهم؟!»

سألني: مثلا؟

قلت: اليس من واجب رئيس اتحاد الامارات ـ مثلا ـ ان يحقق عملية المصالحة بين مصر وليبيا وينصح «القذافي» و «السادات» بالانصراف الى مواجهة المؤامرات الدولية التي تحاك ضد العرب بدلا من استنفاذ الجهود في تبادل الاتهامات وتدبير المؤامرات ونشر الغسيل الوسخ على حبال الغسيل العالمية؟»

اجابني الشيخ «زايد» وكأنه يبدأ القصة من اولها:

ـ لقد شغلنا انفسنا في محاولات تحقيق انواع من «الوحدة» لايمكن تحقيقها. العرب غير مستعدين للقبول برئيس واحد او ملك واحد او زعيم واحد. هكذا كان تاريخهم وهكذا سيبقون. ولا يمكن التصادم مع الطبيعة. والف مرة، افضل للعرب التظاهر بموقف موحد ـ كما جرى خلال حرب ١٩٧٣ ـ من التمسك بشعارات الوحدة الكاذبة او تدبير الخطط لتحقيق وحدة اصطناعية!»

سألته مقاطعاً:

ـ كان سؤالي عن الخلاف بين القذافي والسادات. . . ؟

اجابني :

ـ لقد قمت بواجبي من اجل تحقيق المصالحة بينهما وفشلت! الحمل كبير! اكبر مني! والذي يعرف تفاصيل هذا الخلاف، يدرك ان اجله ـ اجل الخلاف ـ لن يكون طويلا! والذين يجهلون الاسباب يعتقدون بانه خلاف طويل وسيبقى طويلا، ولن يزول! انا لاعيش في مصر! ولا اعيش في ليبيا! ولا استطيع ان احكم في الموضوع وألوم جانبا ضد جانب! الرئيس السادات عنيد ويكره القذافي. وانا لا اقدر ان ارغم احدا على ان يحب شخصا يكرهه! اترك هذا الموضوع للزمن! . »

هل يحتاج هذا الكلام الى تفسير؟

هل نطالب بظهور نسخة جديدة منقحة ومطولة من كتاب قديم وضعه الامير شكيب ارسلان في اواخر العشرينات واوائل الثلاثينات وكان عنوانه: «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟»

أجل! ولألف سبب وسبب ! وأخطر هذه الأسباب حب السلطة ، وحب الظهور ، وحب المال ، وحب الذات ، وحب الألقاب ، وحب الجهل . وحب النوم!

ورغم تتابع الهزائم والنكسات، لم نستطع ان نرى من عدونا الا «قوته»، ولم نعرف الا بطشه، ولم نختبر الا قسوته وجبروته. ! ولم نحاول ان نرفع الستار لكي نكشف عن الاسرار التي تقف وراء نجاح «التجربة» الاسرائيلية طيلة الاربعين سنة الماضية! لماذا انتصروا، وخسرنا. لماذا توسعوا وانكمشنا؟ لماذا كبروا وصغرنا؟ والجواب واضح ويدعو الى الالم: «لان اليهودي» هو «تلميذ الحياة منذ ولادته الى وفاته!» يتعلم بأستمرار. ويحاول باستمرار. وقد يخطيء باستمرار ولكنه يوظف الخطأ لحساب عدم تكراره ويجعل من التجربة جسرا للنجاح! كان «شمعون بيرس» من بين الشبان الذين التقى بهم دافيد بن غوريون في «كيبوتس» ـ مستوطنة ـ «عين جيب» بجوار بحيرة طبريا فاختاره للعمل معه، وضمه الى حزب «الماباي» وقلده ارفع مناصب وزارة الدفاع واشركه مع «تيدي كوليك» ـ رئيس بلدية القدس الحالي ـ وموشي دايان في بناء الجيش الاسرائيلي وتسليحه، كما اشركه في مسؤولية حل قوات «البالماخ» ـ المغاوير او: «سرايا الانقضاض» ـ التي كان يرأسها المستر «آلون» في عام ١٩٤٨! وعندما غضب «آلون» على قرار بن غوريون في حل قوات

«البالماخ»، قرر الاستقالة من الجيش وعاد الى مستعمرة «غينوسار» في عام ١٩٤٩ رغم تاريخه العسكري الباهر في خدمة الجيش، ورغم انه القائد الاسرائيلي الذي حاصر «الفالوجة» مع رئيس اركانه «يروحام كوهين» وارغم «الضبع الاسود» ـ القائد المصري ـ على مفاوضته بالانسحاب! لم يحاول «آلون» ان يدبر انقلابا عسكريا ضد بن غوريون! لم يتهم مساعدي بن غوريون ـ مثل بيرس وكوليك ودايان ـ بالخيانة! لا! عاد «آلون» الى قريته واسس حزبا سياسيا اطلق عليه اسم «احدوت هاعفودا» وطلب من صديقه في الجيش، «رابين» ان يستقيل وينضم الى حزبه. ورغم ان «رابين» كان من اقطاب «البالماخ» وقاد عمليات لواء «هرئيل» الذي حارب في مضايق القدس «وباب الواد» وفك الحصار العربي عن القدس، الا انه رضي بان يترك الجيش في هدوء وينضم الى العمل السياسي تحت قيادة: آلون! هكذا بلا حساسية ولا نقمة ولا حقد ولا كراهية ولا قرار بالتآمر او اعداد الانقلاب للخلاص من الخصوم! لم يحاول «آلون» ان يؤلب الجيش ضد بن غوريون! ولم يحاول «رابين» ان يشتم دايان، وبيرس، بسبب تعاونهما مع بن غوريون ضد «البالماخ»! لقد نسي الجميع اشخاصهم من اجل اسرائيل! خلعوا الثوب الكاكي ونزلوا الى الشارع السياسي، وعندما استقرت الامور تبوأ «آلون» مركزه الديبلوماسي في الخارجية الاسرائيلية في حكومة «العمل» وعاد «رابين» الى الجيش في المكان القائد، واصبح «بيرس» وكيلا لوزير الدفاع، ومضى الجميع يعملون يدا واحدة لمواجهة العرب والانتصار عليهم. . .

الالقاب عند اعدائنا لاتهم! والعمل تشريف لاتكليف! والانضباط الحزبي كالولاء للوطن، كالوفاء للقائد، كالايمان بالدين، امور بديهية لاتقبل النقاش ولا التعديل ولا التبديل! اذا استقال «دايان» من الوزارة، سافر الى اميركا كي يبيع «الاسهم» والسندات للصندوق القومي الاسرائيلي، ويعطي التبرعات للخزينة الاسرائيلية الحكومية التي يرأسها خصمه السياسي! وكذلك فعل رابين!. وكذلك فعل بيرس. وكذلك فعلت غولدا مائير، واشكول، وشرتوك! الخدمة العامة هدفها الوطن لا الاشخاص. والاختلاف بين المواطنين حق كبير ككل مواطن بشرط ان لايمس هذا الخلاف مصلحة الوطن العليا!

سألت ذات يوم صديقي الموسيقار العربي الكبير الاستاذ محمد عبد الوهاب عن الكيفية التي يعالج بها المواطن المصري العادي احاسيسه ومشاكله، فأجابني على الفور:

ـ بالنكته . . . !

سألته :

ـ وكيف يعالج العربي احاسيسه ومشاكله؟!

أجابني عبد الوهاب :

ـ بالمسدس! .

سألته :

ـ وكيف يعالج الانسان الفنان احاسيسه ومشاكله؟

أجابني :

ـ الفنان انواع : الكاتب يعالجها بالكلمة . والموسيقار يعالجها باللحن . والشاعر يعالجها بالقصيدة . والرسام يعالجها باللوحة . وجميعهم يخلقون . وجميعهم يتسامون ويطيرون في اجواء ربانية راقية رقيقة حلوة. هذا يا صديقي هو السمو بكل حقائقه . واذا رضي الله عن شعب جعله فنانا، واذا غضب الله على شعب جعل كل همومه محصورة في البحث عن لقمة العيش! . »

انتهى كلام عبد الوهاب . . .

ترى، هل كان صراعنا في البحث عن لقمة العيش هو سر ما وصلنا اليه؟ هل السر هو في سوء التوزيع وسوء المشاركة وسوء الاقتسام بين الذين يملكون، والذين لايملكون؟! هل السر اننا فقراء ونتظاهر بالغنى، ام السر اننا اغنياء ونعيش «كالفقراء»؟ هل السر ان «القدس» اكبر منا وان «المسجد الاقصى» اعظم من حاضرنا الضعيف الكئيب . . . الملحد؟!

قال لي الملك «خوان كارلوس»، ملك اسبانيا عند مقابلتي له في قصره الملكي بجوار مدريد في عام ١٩٨١ :

ـ هل تعرف ان من بين الالقاب التي يحملها ملوك اسبانيا، يوجد لقب: ملك القدس . ؟

ثم قال لي:

ـ وبالطبع فأني كملك اسبانيا احمل ايضا لقب «ملك القدس» ولكني لا استعمله هل تدري لماذا؟

سألته لماذا يا ملك القدس؟

اجابني الملك كارلوس:

ـ ان «ملك القدس» هو اعظم لقب في الوجود! والملك الذي يريد ان يتمتع بهذا اللقب عليه ان يملك القوة والنفوذ والقدرة على ان يفرض سيادته على «القدس» وان يحفظ لنفسه عرشا فوق ارضها... والا... فلا ضرورة للادعاء والتظاهر وحمل الالقاب الفارغة من مضمونها!»

وسكت ملك اسبانيا..

ـ لم اقل له ان مطربتنا «فيروز» تغني لنا دائما «القدس لنا...» وان صديقي الشاعر كمال ناصر كان يردد على مسمعي دائما كلمات عن «الغضب الصاعد»... «واليك يا مدينة السلام... اصلي»!

بس.!

ـ لاننا نفهم الامور كما نتمناها، لا كما هي في الحقيقة... ولاننا نحب بلا سبب ونكره بلا سبب، واذا تبرع احدهم وكشف عن السبب، تبين ان السبب المذكور لاعلاقة له بمن نحب، ولا بمن نكره.!؟

قال الراوي:

ـ في اول ايام الوحدة بين مصر وسوريا، قام وزير البلديات السيد «احمد عبد الكريم» بضرب احد المواطنين السوريين في دمشق داخل مكتبه! وقامت قيامة اهل دمشق! وقالوا ان جمال عبد الناصر سينتقم للمواطن من الوزير السوري ويطرده من الوزارة! ولما لم يقبل عبد الناصر ان يعاقب الوزير السوري، تساءل اهل دمشق عن قيمة الوحدة مع مصر واعلنوا الكفر بعبد الناصر!.

ذلك ان المهم هو معاقبة الوزير وليس بقاء الوحدة، والاكثر اهمية ان يرضى المواطن المضروب حتى ولو اقيل الوزير من منصبه وقامت ازمة وزارية في «الاقليم» الشمالي.!

قال لهم عبد الناصر عندما بلغته الحكاية :

ـ شكري القوتلي كان على حق عندما قال لي ليلة الوحدة: كان الله في عونك «عليهم» يا سيادة الرئيس!

على من . ؟!

من كان يقصد شكري القوتلي؟!

* * *

الفصل العاشر

الملك عبد الله اصابه الملل من الرد على المندوب السامي الفلسطيني!

● الحبيب بورقيبه نصح التونسيين بالتروي على تصرفات الثوار الجزائريين في تونس . .

● وزير «كل المانيا» يكشف للعرب سر اعادة توحيد بلاده. . .

● لقاء مثير ومفاجيء مع مسؤول ثوري داخل مبنى الامم المتحدة في جنيف !

● قال انور السادات «لأبو اياد» :

- عرب مين يا حضره ؟. فين العرب دول ؟ »

الفصل العاشر

الملك عبد الله اصابه الملل من الرد على المندوب السامي الفلسطيني!

عندما ولدت منظمة التحرير الفلسطينية وجدت نفسها في حرب ضد «الفساد» العربي اكثر هولا من حربها ضد اسرائيل! كان مفهوم الثورة والوحدة والعمل الفدائي في قاموس المنظمات الثورية الفلسطينية يختلف تماماً عن مفهوم هذه المبادىء في قاموس معظم الدول العربية! ومن سوء حظ الثورة الفلسطينية انها لم تتعرف الى الزعيم الوحيد في قدرته على التجاوب معها وشد ازرها وتمكينها من النصر الا في السنوات القليلة الاخيرة من عمر هذا «الزعيم» ومن عمر ثورته ايضا! ولم يصب اركان الثورة الفلسطينية بأي ذهول عندما سمعوا انور السادات يقول لهم في لقائهم الاول معه بعد ان اصبح رئيساً بعد عبد الناصر:

ـ انا لست مسؤولا عن الهزيمة! انا لست مسؤولا عن هذه الحالة الرديئة التي وصلنا اليها! انا ورثت كل هذا عن «جمال» والتركة مثقلة بالهموم والديون والاحتلال الاجنبي! لا تطلبوا مني معجزات فأنا لست نبياً ولست الاسكندر ولا نابليون. انا اعترف لكم اننا نمر في أسوأ الظروف ولا اعرف ماهو الحل. . !»

وعندما حاول احد اعضاء الوفد ان يقول له:

ـ المسؤولية على العرب كلهم!

قاطعه انور السادات بحدة:

ـ عرب مين يا حضرة؟ فين هم العرب دول؟.

وهكذا اقتربت قضية فلسطين بعد موت عبد الناصر من الموقع الذي كانت فيه قبل عام ١٩٤٨، وقبل دخول العرب الى فلسطين، وقبل ان تتحول القضية الفلسطينية الى قضية . . . عربية! عادت قضية فلسطين الى العقلية التي تحرص على منصبها ومصلحة بلدها وامنها واستقرارها اكثر من حرصها على انقاذ فلسطين او الانتصار على اسرائيل! عادت قضية فلسطين بحاجة الى من يقنع الحاكم المصري بعد رحيل عبد الناصر، بمزايا التضامن العربي، ومعاني الوحدة العربية، واخطار الصهيونية، وان يفسر له ابجديات العمل العربي المشترك، تماماً كما كان يفعل «رياض الصلح» ورفيقه «جميل مردم» في زياراتهما المتكررة الى مصر والاجتماع بفاروق والنقراشي والنحاس وانطون الجميل وعبد الرحمن عزام وطلعت حرب وحسن البنا والحديث معهم عن مشاكل هذا الشرق العربي وتفسير الام الاشقاء وامال الاحباء والتأكيد لهم بان ما يسمونها في مصر بـ «البلاد الشرقية» هي في الواقع بلاد عربية «شقيقة» قريبة ومجاورة، وان المصير المصري هو جزء من المصير العربي! فقد كنت ازور خالي اديب العربية «اسعاف النشاشيبي» في صالونه بفندق الكونتيننتال بمصر، عندما جاء لزيارته كل من «رياض الصلح» و «جميل مردم» ! لقد جاءا معاً في وقت واحد، وقال «جميل مردم» للاستاذ اسعاف: «لقد جئنا الى مصر على هدي كلامك وقولك المأثور عن مصر بأنها مصدر العلم والمدنية وموئل العرب والعربية».

فهز الاستاذ الكبير رأسه مؤيدا الكلام وقال:

ـ وهي ـ والله ـ كذلك! .

ثم اردف قائلا:

فالقرابات بيننا واشجات محكمات القوى بحبل شديد!

فقال رياض الصلح، معلقاً ومداعبا صديقه الاستاذ:

ـ ولكنهم يا مولانا يرفضون قبولنا انصارا لهم ونمشي وراءهم! . كنت امس عند الملك فاروق وبعد ان حدثته لمدة ساعة عن قضايا لبنان وفلسطين سألني ان كان سعد زغلول على حق في قوله عن البلاد العربية واحتمال وحدتها: صفر زائد صفر يساوي صفر».

فأحتد الاستاذ «اسعاف» واجاب:.

- انا تشرفت بلقاء «سعد» عام ١٣٤٣ هجرية، وفي بيت الامة، وطلع علينا سعد ومشى الينا فسارعنا اليه وتحدثنا عن «جمال الدين الافغاني» وقلت له يا مولاي ان جمال الدين «امة» في رجل، فابتهج البطل وقال لي حقاً يا استاذنا ان جمال «امة وحده»، فأجبته: . . ومصر لم تبرح تتقدم وتعلو منذ حين طويل وقد خلقها الله ولخصها في سعد!» ثم اضاف: «ان سعد لاينبث بمثل تلك العبارة التي ذكرها الملك فاروق. ان سعد لايعرف لغة. . «الاصفار» لانه عملاق وجبار!».

وكنت منذ ست سنوات او يزيد، وفي منزل المرحوم سليم اللوزي وبحضوره، اتبادل جانبا من هذه الذكريات مع صديقنا السياسي اللبناني الكبير الرئيس تقي الدين الصلح ونستعرض صوراً من الجهود التي كانت وفود لبنان الرسمية والصحفية والشعبية تبذلها في مصر من اجل تعريف الاوساط المصرية الرسمية والاعلامية بحقائق ماكان يجري يومذاك من احداث خطيرة تتعلق باستقلال لبنان واضطرابات فلسطين ومشاكل سوريا - وكانت الحرب العالمية الثانية على وشك ان تنتهي - فكان لبنان هو السباق - بتشديد الباء - الى نشر فكرة العروبة العاقلة والصادقة الى ارض الكنانة بزعامة شخصيات مسيحية من امثال حميد فرنجية، وسليم تقلا، واسعد داغر، وحبيب جاماتي، او شخصيات لبنانية متمصرة كرئيس تحرير «الاهرام»، وكريم ثابت، وخليل ثابت، وفارس نمر، واولاد زيدان وفؤاد صروف وادجار جلاد، وغيرهم. كان هؤلاء الناس هم الاقلام التي كتبت والالسنة التي نطقت والقلوب التي خفقت باسم العرب عامة، وباسم فلسطين وقضيتها وشعبها وثوراتها خاصة! وقلت للاستاذ تقي الدين الصلح في نهاية الحديث:

- والان - وبعد مرور اربعين سنة على هذه المرحلة، الاترى اننا قد عدنا الى دائرة البداية واصبح علينا ان نبحث عن وفود عربية نبعث بها الى لبنان - بالذات - لكي نعيد للثورة الفلسطينية في لبنان وهجتها ونعيد للبناني تجاه الفلسطيني ثقته وطمأنته؟

وكان حديث طويل ليس هنا مكان سرده او التعقيب عليه. يكفي ان اقول ان الحجج التي تذرع بها الصديق الكبير في «تنقية» الموقف اللبناني تجاه الفلسطينيين وثورتهم، هي نفس الحجج التي سبق وسمعتها من الزعيم اللبناني صائب سلام في

دفاعه عن الموقف اللبناني، وهي نفس الحجج التي سمعتها من الصديق السياسي الدكتور «امين الحافظ» رئيس الوزراء» السابق. بل هي نفسها التي كان يقولها المسلم اللبناني والمسيحي اللبناني على حد سواء!.

ما هي تلك الحجج؟.

انا لاأشك ان الثورة الفلسطينية تعرفها بالتفصيل، وان المسؤولين في المنظمة قد حفظوها عن ظهر قلب. لايعني هذا انهم وافقوا عليها، او اقتنعوا بها، كما لايعني ان هذه الحجج تمتلك «كل» مقومات الحق والمنطق! ولكنها - على اية حال - موجودة. واصحابها هم سواد لبنان المسلم والمسيحي. وهم حكمه. وهم نوابه. وهم اصحابه ايضا..!

في عام ١٩٧١ دق جرس التلفون في منزلي بجنيف وجاء صوت رجل يقول بالانكليزية انه المستر «سميث» ويريد ان يتحدث مع الاستاذ «فلان»... الذي هو انا! وقيل للمستر «سميث» ان الاستاذ «فلان» سيكون موجوداً في تمام الساعة الواحدة ظهراً في مقهى الصحافة بمبنى الامم المتحدة..

وفي تمام الساعة الواحدة، كان «احدهم» يقف ورائي في المقهى المذكور ويدق على كتفي ويقول لي باللغة العربية، الفلسطينية:

- مرحباً!

وتطلعت الى وجه الرجل فاذا به «فلان»... القطب الثوري الفلسطيني «ابو فلان»!.

وكانت مفاجأة مثيرة لي بلا حدود! فقد كانت المرة الاولى التي التقي فيها بالرجل. كما شعرت بالكثير من الخوف عليه والقلق على سلامته. ولكنه بدا هادئاً كالجبل، رقيقاً كالحلم، هامساً كالنسيم! وقال لي ونحن نخرج من المبنى ونمشي في الحدائق المجاورة بعيداً عن عيون الناس:

- لقد تعمدت المرور بجنيف لكي اراك. واحببت ان اراك كي انقل لك سلامات اخيك «كمال ناصر» واحدثك عن احوال الثورة بعد المأساة التي مررنا بها في الاردن! ان لك عندي سؤالا واحداً هو: كيف ترى ضمان قوة الثورة بعد انتقالها الى لبنان؟» واجبته على الفور - اذ لم يكن في الوقت متسع للتطويل - ان على الثورة

النزول الى المجهول. . الى تحت الارض. . . حيث لا مكاتب ولا سيارات ولا بنايات. . ولا اسماء ولا عناوين. . ولا مسؤوليات!».

ثم اضفت:

ـ ان الثورة ـ ثورتنا ـ في لبنان قد فرضت نفسها على الشعب اللبناني بنفوذ جمال عبد الناصر، بأسمه، وبوساطته ومن اجله. ان اتفاقية الثورة في نوفمبر عام ١٩٦٩ مع العماد «البستاني» في القاهرة قد تمت ـ وما كانت لتتم ـ لولا تدخل جمال عبد الناصر لدى شارل حلو. ويجب ان لاننسى ان لبنانيين كثيرين قد حقدوا على رئيس جيشهم واتهموه بالتواطؤ معكم بسبب هذه الاتفاقية. كما لاننسى ان بعض الاقطاب اللبنانيين قد هاجموا الاتفاقية وهاجموا شارل حلو بسببها. واليوم، وقد رحل عبد الناصر، فان القوة التي كانت تحمي تلك الاتفاقية بنفوذها ووزنها قد انتهت واصبحت الاتفاقية مفروضة دون وجود زعيم في وزن جمال عبد الناصر لحمايتها!. وكل هذا سيشجع اعداءكم على محاربتكم ويشجع اسرائيل على التسلل ضدكم، ويشجع خصومكم على التحالف السري مع اسرائيل في وجهكم. ان ظهور الثورة للعيان سيجعلها هدفاً للسهام وملعباً للانتقام وموعداً مناسباً لتسديد «الحسابات»!

واستمع ابو «فلان» الى كلامي وقال وهو يودعني على عجل:

ـ هذا بالضبط هو الرأي الذي اعتقده واحاول ان اقنع الرفاق به. لعلنا نعود ونلتقي في بيروت ونكمل هذا الحديث هناك!»

واشهد صادقاً ان «ابو. . . فلان» هو من احب الناس الى قلب الثورة والى قلوب اصدقائها، وانه بضميره النقي وطبيعته الصريحة وشجاعته ورباطة جأشه وبساطته، من اخلص الثوار الحقيقيين في العالم، وكان دوماً يحرص على السرية دون الدعاية في عمله ويتمسك بالصمت دون الضجيج في تصرفاته. ولكنه ـ ليس وحده في ميدان العمل الثوري وليس وحده الذي يخطط ويرسم وينفذ ويأمر! كان «ابو. . .» هو القائد الذي يؤمن ان سلامة الثورة تكمن في «مجهولها» وان امن الثورة موجود في عدم قدرة خصومها على تتبع «تواجدها»، وان الثورة التي لاتحشر نفسها في القضايا الداخلية للغير ولاتلتهي بملاحقة «المعايشات» اليومية هي الثورة

التي تضمن تأييد الغير لها وتقدر ان تواجه المهام الكبرى وتنتصر عليها! . ولكن «ابو . . » لم يكن وحده في موقع المسؤولية . كان هناك من يرى غير رأيه او يختلف معه في المفهوم والمضمون والممارسة . وهذا ماشجع بعض العناصر الخارجة عن نطاق العمل الثوري الى ان تدخل الى «حرم» الثورة وتزايد عليها . بل هذا ماشجع بعض الانظمة العربية على محاولة استغلال هذه الثورة البريئة الطاهرة لمصلحتها وخلق تنظيمات ثورية فلسطينية داخلية متعددة بقصد التظاهر بالوجه الثوري واحتضان هذه التنظيمات لحساب تلك الدول ولحساب سياستها لكي تبدو امام شعوبها وكأنها الحريصة ـ وحدها ـ عل القضية الفلسطينية . !

كنت ذات يوم اتحدث الى الديبلوماسي الجزائري السيد «الاخضر الابراهيمي» المستشار السابق اللاحق لرؤساء الجزائر، والسفير السابق للجزائر في لندن عن موقف الرئيس الراحل «هواري بومدين» من القضية الفلسطينية . فقال لي «الابراهيمي» ان موقف الجزائر من القضية هو نفس موقف الفلسطينيين وان اي حل يراه الفلسطينيون لقضيتهم توافق عليه الجزائر . . » قلت للسيد «الابراهيمي» ضاحكاً : «هكذا كان يعرب لنا عن تأييده لقضيتنا الزعيم الهندي الكبير المرحوم مولانا محمد علي» واخوه «شوكت علي» عندما كانوا يبرقون الى «الحاج امين الحسيني» ـ رحمه الله . في ذكرى وعد بلفور قائلين له من الهند، تلك العبارة المشهورة : «قضيتكم قضيتنا!» . وكنا نقرأ هذه العبارة ونبتسم! فهي المثل الواضح عن العجز التام وعدم القدرة على شيء! ان مثل هذا التأييد لايكفي لان مثل هذا التأييد، لاينفع! نحن نفضل ان لاتكون قضيتنا هي «قضية الجزائر» وان نسمع صوت السلاح الجزائري والجندي الجزائري والمال الجزائري في مأساة الفلسطينيين بلبنان، كما سبق وسمعت الجزائر وثورتها صوت السلاح العربي والمال العربي ابان اشتعال الثورة الجزائرية! لقد تعاونت فرنسا مع اسرائيل في العدوان الثلاثي ضد مصر بسبب قضية الجزائر! لقد حاربت فرنسا العرب وايدت اليهود في فلسطين بسبب التأييد العربي للجزائر! لقد حصل «شمعون بيريس» ـ وكان يومذاك نائباً لوزير الدفاع الاسرائيلي ـ على اكبر صفقة للطائرات الفرنسية ولاسرار الطاقة الذرية من فرنسا بسبب ثورة الجزائر وتأييد العرب لهذه الثورة ضد فرنسا . وكان الزعيم

الجزائري الكبير «احمد بن بيلا» يقول لعبد الناصر الذي ذهب الى الجزائر في عيد استقلالها الاول، وعلى مسمع منا جميعاً، وفي قصر «الشعب» بالعاصمة الجزائرية: «. . . سيمر وقت طويل. . وستمر اجيال كثيرة قبل ان نقدر على تسديد جميلكم ودفع «دينكم» في اعناقنا!» وليس بالسر ان الحماس العربي المتطرف في سياسة بن بيلا، وصدق عروبته واندفاعه المتدفق نحو «الشرق» كانوا اكبر الاسباب في انقلاب «هواري بومدين» ضده وعزله عن السلطة ووضعه في السجن سنوات طويلة. . ! وما يقال عن بعض الانظمة العربية الثورية، يقال مثله عن بعض الانظمة العربية المحافظة، والمجاورة للجزائر! لقد سمعت من الزعيم الجزائري الثائر الصديق «محمد لوبجاوي» ونحن نتحدث معا في مدينة «جنيف» ـ حيث كان يقيم «لوبجاوي» كلاجىء سياسي ـ عن مؤتمر الرباط لعام ١٩٧٤، قوله: «. . . كان المفروض ـ كما يبدو لي ـ ان يكون مؤتمر الرباط صورة طبق الاصل من مؤتمر «فيينا» الذي ترأسه المستر «ميترنيخ» والذي سيطر بموجبه على العلاقات بين دول اوروبا لمدة ثلاثين سنة! كان «ميترنيخ» وزيرا لخارجية النمسا عام ١٨٠٩ ثم اصبح مستشاراً عام ١٨٢١ واحتفظ بسلطاته الى ان طردوه الى المنفى عام ١٨٤٨. وكان هدف هذا السياسي الداهية هو الحفاظ على العهود الارستقراطية في اوروبا والحيلولة دون وصول الراديكاليين من الطبقة الوسطى الى مقاعد الحكم والحفاظ على السلام من خلال عقد مؤتمرات مثالية للدول الاوروبية!». . .

ورفض هذا الصديق الثائر ان يستطرد او يفسر!. هل كان هذا المؤتمر شيء، وهدفه الحقيقي شيء اخر!. تماماً، كما كان اول مؤتمر قمة عربي في عام ١٩٦٤ باسم فلسطين، ولاجلها، ولانقاذها، بينما حقيقة الامر ان هدف الرئيس عبد الناصر من الدعوة الى هذا المؤتمر كان في الدرجة الاولى السعي لانهاء حرب اليمن!!

فلسطين، ام اليمن؟

وقبل ذلك، فلسطين، ام محاربة حلف بغداد والحلف الاسلامي وميثاق ايزنهاور. . ؟

وبعد ذلك فلسطين ام البوليساريو؟ وفلسطين ام حرب العراق وايران؟ وفلسطين ام تشاد؟ وفلسطين ام الحفاظ على «السيادة» عند بعض الدول وبعض

الحكام؟ وفلسطين ام جنوب لبنان؟ وفلسطين ام حرب الحدود بين مسقط وعمان من جهة وجيرانها من جهة اخرى؟ وفلسطين ام النعرات السياسية والطائفية والدينية في الشرق العربي كله! عندما بدأت الحرب في لبنان، اذكر اني كتبت لصديقي الراحل سليم اللوزي الرسالة التالية التي ضمنتها بعد ذلك في كتابي «الحبر اسود. . . اسود» وقلت له فيها: «. . . كم تمنيت ـ يا صديقي ـ ان اكتب قصة الثورة الجزائرية. . . قصتها من الداخل. تنظيماتها السرية في مختلف انحاء اوروبا. . . الملايين من الفرنكات التي جمعها الثوار بالفلس والفرنك واشتروا بها المسدس والرصاصة والمدفع. . قصة الخمسة وعشرين الف مقاتل جزائري على ارض تونس طيلة سنوات الثورة وتونس لم يكن عندها يومذاك سوى خمسة الاف جندي! وكان بعض هؤلاء الثوار، على ارض تونس، يقتلون «بعض» المواطنين التونسيين، وينهبون «بعض» المنازل التونسية، ويعتدون على «بعض» الفتيات التونسيات، فلا يشتكي اهل تونس، واذا اشتكى احدهم، اجابه «الحبيب بورقيبة»: «هذه قضايا فردية صادرة عن جنود افراد. . ونحن في تونس نؤيد ثورة الشعب الجزائري بأسره. . . فلا يجوز ان تصرفنا مثل هذه الحوادث الفردية عن مناصرة شعب شقيق وتأييد ثورة عادلة غالية. . »

ولكن «الحبيب بورقيبة» هو رئيس تونس وليس رئيس لبنان! ولبنان ليس تونس! وفلسطين ليست الجزائر! واسرائيل ليست فرنسا. . . «والشرق شرق. . . والغرب غرب. . . ولن يلتقيان!».

وهكذا فرض على الثورة الفلسطينية ان تدفع الثمن، وبدلا من ان تمضي القضية في تحولها التدريجي والطبيعي من مجرد ثورة فلسطينية محلية الى ثورة عربية شاملة واسعة وقادرة عل ان تتصدى للصهيونية العالمية التي تساند اسرائيل وتقف وراءها، اذ ببعض الاصوات «النشاز» تخرج من هنا، ومن هناك تنادي ـ مثلا ـ «بأمن المنطقة». . وتنادي مثلا بالمطامع الخارجية في ثروات الخليج». . وتحذر ـ مثلا ـ من استغلال السوفيات للاوضاع المتفجرة في الشرق الاوسط». . . وتتحدث مثلا عن «افغانستان» بنفس الحماس الذي تتحدث فيه عن «فلسطين»، وتساوي بين اسرائيل والسوفيات. . . ثم، اذ باصوات اخرى مختلفة ولكنها ايضا «نشاز»

تشغل العرب بقضايا افريقية محلية قادرة ان تلهي العرب عن فلسطين، او تجعل من تأييد ايران ضد العراق شرطاً لصحة «الثورية» واساساً للصدق في تأييد فلسطين او تفرض وتفترض ان الهجوم على اميركا ومغازلة السوفيات هو اساس الوطنية وعلم القومية وطريق تحرير فلسطين. . . الوحيد!

وكل ذلك، والثورة الفلسطينية كانت تقف بمفردها على طول الجبهة في جنوب لبنان لكي تقاوم اميركا زائد اسرائيل زائد المؤامرات الداخلية زائد الخلافات العربية زائد اتفاقية كامب دايفيد زائد/الانقسامات اللبنانية الداخلية زائد «الاجتهادات» الفلسطينية المتعددة والمتباينة. . . !

وكل ذلك، ومليون عربي في الضفة وقطاع غزة يعيشون تحت الاحتلال الرهيب ويتعرضون لكل ماسبق وعرفه اليهود ابان الحرب العالمية الماضية من قهر وظلم وعذاب على يد النازيين، فتصادر اراضيهم وتنسف منازلهم ويشرد شبابهم وتفرض عليهم الضرائب بلا حساب ويتعرضون في حياتهم اليومية وعند «الحدود» لاسوأ ما عرفته البشرية من تفتيش وضغط وتمييز وضرب واجراءات ما «انزل الله بها من سلطان»، وعندما يتطلعون الى الافق باحثين عن خيط من نور او بشير بالخلاص او يد بالمساعدة او معرفة عربية «حقيقية» دقيقة بتفاصيل مايدور وما يجري معهم، وحولهم، وعنهم من اجراءات ومؤامرات وتخطيط، يكاد نفسهم يضيق الماً ويكاد صدرهم ينفجر غيظاً! ذلك ان «العرب» الذين يعتقدون «بعروبة» القضية الفلسطينية لايعرفون عن اسرار واحوال اخوانهم «الاسرى» العرب داخل الارض المحتلة الا مايقرأونه في الصحف! لماذا؟ لان ليس في اية حكومة عربية - باستثناء الاردن - وزير واحد مختص بقضية فلسطين وقضايا الارض المحتلة!. ان وزير الخارجية العربي الموكول بمعالجة قضايا بولونيا والسلفادور هو نفسه وزير الخارجية العربي الموكول بمعالجة مصير القدس! وما يقال عن الخارجية العربية، يقال مثله عن المخابرات العربية. ويقال مثله عن الاعلام العربي. . ويقال مثله عن الاقتصاد العربي. ويقال مثله عن الدفاع العربي!

ان المانيا «الاتحادية» تشكو انها فقدت المانيا «الشرقية» للنفوذ السوفياتي الشرقي! يعني ان الالمان فقدوا - مثلنا - نصف وطنهم للاجنبي! وعندما زرت المانيا الاتحادية

في اواخر الستينات بدعوة رسمية، اعدت البرنامج المفصل فيها وزارة الاعلام الالماني، كان لقائي مع وزير «شؤون كل المانيا» ـ هكذا يسمونه ـ على رأس جدول المقابلات مع المسؤولين الالمان! وقيل لي وانا ذاهب لمقابلة هذا الوزير ـ واسمه «هنريش بارزل» ـ انه اكفأ وزير في الحكومة الالمانية، وانه مرشح لكي يصبح المستشار الالماني القادم اذا نجح الحزب المسيحي الديموقراطي! وعندما اجتمعت اليه وسألته عن معنى وجود وزارة في الحكومة «تسمى «وزارة شؤون كل المانيا» اجابني الهر «بارزل» على الفور:

ـ ان حرصنا على ان نعرف «كل» ما يدور في المانيا الشرقية من امور واسرار تتعلق بأهلنا هناك هو «اساس» عملنا المتواصل من اجل اعادة توحيد المانيا!»!

تعالوا نترجم هذا الكلام الى اللغة العربية، الفلسطينية ونقول:

ـ ان حرص العرب على معرفة «كل» ما يدور في الضفة الغربية وفي قطاع غزة من امور واسرار تتعلق بأهلنا هناك هو اساس العمل العربي المتواصل من اجل اعادة تحرير الضفة واهلها من الاحتلال الصهيوني!

ولكننا ـ كما يبدو ـ نكره عملية الترجمة كما نكره عملية «المعرفة» من اساسها!

ولذا! بقيت سائر مبادراتنا وخطواتنا السياسية اشبه «برد الفعل» على مايفعله غيرنا معنا، وليست بداية في حد ذاتها!

اصبحنا رجع الصدى، وليس الصوت ذاته . . .

وعلى ضوء مثل هذا التخبط، اضحت قضيتنا تنتظر رحمة اميركا وتنفيذ مبادرة «ريغان»، وهي ـ اي القضية ـ لم تتحول الى نكبة الا بفضل اميركا! اميركا كانت البداية! واميركا اصبحت النهاية! اميركا هي الداء. واميركا اليوم هي . . الدواء!

ومنذ ٣٧ سنة، وبالتحديد، في يوم ١٠ مارس ١٩٤٨ ـ الموافق ١ جمادي الاخرة ١٣٦٧ ـ وقبل قيام اسرائيل بشهرين وخمسة ايام ـ طلب المندوب السامي البريطاني في فلسطين من «الملك عبدالله» التدخل لوقف اطلاق النار بين العرب واليهود، فأجابه الملك الاردني بالحرف الواحد: . . . «اما قضية وقف اطلاق النار في فلسطين واملكم ان اساعدكم فبودي ان اقوم بما يجب علي نحوكم لولا ان ماسمعت اليوم في اذاعة لندن ان الامل قد قطع تقريباً «في اميركا» لنجاح هذه التجربة !

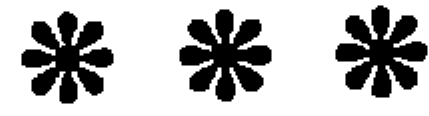
ومع ذلك فليس في مصلحة العرب اليوم الا الاستمرار فيما هم فيه - اي الحرب - . . » ثم ينهي الرسالة بقوله: لقد مللت يا صديقي العزيز!!».

واذا كان الملك عبدالله قد نفض اليد من اميركا واصابه الملل - كما تقول الرسالة - في عام ١٩٤٨ . ترى ماذا نقول نحن، وماذا تقول الثورات، وماذا يقول العرب، وماذا يقول اهلنا الاسرى في الضفة والقطاع، وفي عام ١٩٨٥ ؟

انا شخصياً لقد مللت. . !

لولا الالف سبب وسبب وعلى رأسها الملل من الملل !

أليس الملل من علامات الحياة؟



الفصل الحادي عشر
الغزو له مقدمات .. واسباب !

● قال لي تقي الدين الصلح : «جميع الاطراف باتت محاصرة ومرتبكة» .

● هل كانت المقاومة الفلسطينية تقبل بالمفهوم اللبناني الرسمي لأتفاقية القاهرة؟

● الخيط الرفيع بين ماجرى على حدود سوريا والأردن عام ١٩٧٠ وما جرى على حدود لبنان واسرائيل عام ١٩٨٠ .

● اميركا أوصلت المنطقة الى حافة اليأس القاتل!

● لماذا لم يطلع العرب على «كل» مادار في مؤتمر تونس عام ١٩٨٠ بين الرئيس اللبناني وياسر عرفات؟

الفصل الحادي عشر
الغزو له مقدمات.. واسباب!

أن علاقة اميركا بلبنان، ونظرتها له، وتقييمها لوجوده، وارتباطها به، تختلف كثيرا عن نظرة العرب وتقييمهم وارتباطهم بهذا الجزء الغالي من الوطن العربي، وقد اثبتت حرب لبنان ـ ولعلها الفائدة الوحيدة لهذه الحرب ـ ان صداقة فرنسا او أميركا أو دنيا الغرب بوجه عام للوطن اللبناني وللشعب اللبناني عامة ولخير لبنان تقل كثيرا عن صداقة هذه الاطراف لاسرائيل مثلا، وأن اعتماد لبنان على «الام الرؤوم» او قلعة الديمقراطيات الاميركية او الكرسي البابوي لم ينقذ لبنان من الاحتلال الاسرائيلي ومن القنابل العنقودية ومن التدمير والمؤامرات والضرب والاهمال.

● ولعل حرب لبنان قد أفهمت اللبنانيين ان الدعوة الافلاطونية على أحسن الافتراضات او الماكيافالية على اسوئها، من أجل تدويل القضية اللبنانية او تأمركها او نقلها الى اطراف العالم ووضعها على جدول اعمال وزراء خارجية دول الارض... كل هذا عاجز عن ان يعجل بالحل المطلوب يوما واحدا، وأعجز من أن ينقذ لبنان من ويلاته الحاضرة بمقدار ذرة رمل!

لقد قيل للبنان بلسان التجربة المرة التي يحياها اولا، ثم بلسان أشقائه واخوانه العرب ثانيا، ان مفتاح حل المأساة موجود في يد اللبنانيين وحدهم، ثم في يد اخوانهم العرب من بعدهم. وغير ذلك لا أحد لا باريس ولا واشنطن ولا الفاتيكان ولا اسرائيل ولا أوروبا الغربية.

وقد تسنى لي في نوفمبر من عام ١٩٧٩ ان استمع الى اثنين، بل الى قطبين من رجال السياسة المسلمين في لبنان وهما يشرحان لي تصوراتهما للوضع اللبناني وللحل المطلوب . . .

● قال لي السيد صائب سلام رئيس وزراء لبنان الاسبق في حديث لي معه بجوار منزله في مدينة جنيف بسويسرا «لقد ساهم لبنان كثيرا في تقديم خدماته للفلسطينيين ولقضيتهم، وقد حان الوقت لكي يعترف الفلسطينيون ـ ويعني منظمة التحرير ـ بهذه الخدمات عن طريق المبادرة الفورية السريعة الى تقديم خدماتهم للبنانيين ولقضيتهم».

واستطرد الصديق صائب سلام حديثه قائلا: «وأول بل اعظم هذه الخدمات تقدير ظروف لبنان وتفهم اوضاعه ومركزه وميزانه ثم مساعدته في الحفاظ على أراضيه ودفع الاذى والمؤامرات عنه مع عدم اعطاء اسرائيل او احد غيرها الذريعة للمضي في التدخل والتآمر والاحتلال!».

انتهى كلام صائب سلام.

وهو كلام لا يحتاج الى شرح ولا تفسير.

أما صديقه وزميله السيد تقي الدين اصلح، رئيس وزراء لبنان السابق فقد استمعت معه اليه في لندن واثناء العشاء الهادىء الخاضع لتعليمات «الريجيم» قال لي الصديق تقي الدين والحديث عن لبنان أيضا: «يجب على جميع الاطراف المتواجدة على الساحة اللبنانية الالمام بجميع حقائق الموقف اللبناني. ثم الاعتراف بهذه الحقائق في عملية البحث عن حل. الحقائق تقول بوجود عدة أطراف لا يمكن لاحد تجاهلها، الكل يعرف هذه الاطراف . والكل يعرف تلك الحقائق. وعندما يتم الاعتراف الصريح الامين بكل الاطراف وكل الحقائق في لبنان، لا تبقى الحقيقة المطلوبة والمشتملة على الحل المطلوب بعيدة المنال».

وقلت للسيد الصلح:

ـ ولكن هناك من يقول ويؤكد بأن لا أحد في لبنان يريد مخلصا الوصول الى حل سريع وعملي للازمة. حتى المنظمة ـ أعني منظمة التحرير ـ هناك من يتهمها بأنها غير جادة وغير مكترثة للعثور على حل لمأساة الجنوب. كما أن هناك من يقول بأن بقية

أطراف المأساة من اللبنانيين ليسوا منزعجين كثيرا من استمرار الاوضاع على ما هي عليه. بل ان هناك من يتجاوز في خطورة كلامه كل هذا الكلام ويزعم ان «الاكثرية الصامتة» في لبنان هي وحدها التي تطالب باحترام الشرعية وتقوية الجيش وبحصر اعمال الفلسطينيين وبفرض السيادة اللبنانية على كل الجبهات. ولكن هذه «الاكثرية الصامتة» لا قيمة لها، ولا لكلامها، لسبب بسيط هو انها غير موجودة او لانها مهاجرة او مهجرة خارج لبنان رغم أنفها، أو لانها ليست كغيرها من الاطراف تشكل دائرة انتخابية ذات وجود وقيمة ووزن وضغوط، فهل هذا صحيح؟

اجابني السيد الصلح متفائلا: «معلوماتي ان جميع الاطراف قد باتت مرتبكة ومحاصرة تحت ضغوط الاحداث المتشابكة الخطيرة القائمة. فسوريا تبحث عن مخرج لانها ليست مرتاحة لما يجري، وكذلك المسلمون بكل فئاتهم، وكذلك المسيحيون باختلاف احزابهم، وكذلك الفلسطينيون! وقد استمعت الى الرئيس سركيس فوجدته سعيدا للنتائج التي اسفر عنها ذلك الاستفتاء الجزئي الذي اجرته الدولة حول مستقبل الجيش والكيان اللبناني اذ ان تسعين في المائة من الناس ـ كما تقول نتيجة الاستفتاء ـ أجابوا بضرورة توسيع السيطرة الشرعية وتقوية الجيش وبقاء وحدة لبنان واحترام الشرعية اللبنانية ومساندتها... ولم يصوت الى جانب الاقتراحات والافتراضات الاخرى سوى أقلية ضئيلة لا أهمية لها...»!

انتهى كلام السيد الصلح.

وبقي السؤال الذي يطرح نفسه:

ـ ما هي كمية الصحة في هذا الكلام؟

كلام الرئيس سلام ثم كلام الرئيس الصلح. وهل هو مجرد كلام سياسي من مسؤولين مبني على معلومات وحقائق، ام انه مجرد تمنيات حلوة؟!

إن تاريخ هذا الكلام ـ كما قلت ـ هو شهر نوفمبر من عام ١٩٧٩.

ثم أعود وأكرر السؤال: ما هي كمية الحقيقة وما هي كمية التمنيات في أحاديث رجال السياسة في لبنان حول البحث عن الحل المطلوب والمقبول ايضا ـ للمشكلة ـ اللبنانية؟!

مثلا: ماذا كان مدى استعداد المقاومة الفلسطينية لان تنسى تمسكها الشديد

باتفاقيات القاهرة والرياض والرباط والتي تحدد علاقتها بالدولة اللبنانية مع حق وجودها في لبنان لكي تقبل بما تتمناه لها اميركا وما تحلم به اسرائيل فتحصر نفسها في مغارة او ضاحية او معسكر ما أو رقعة من الارض بعيدا عن الحدود الملتهبة في الوطن السليب وان تجنب ثورتها كما يشتهي أنور السادات أو توقف هجماتها كما ينصح عبقري زمانه السيد بطرس بطرس غالي أو رئيسه مصطفى خليل وتسلم سلاحها كما يدعوها الى ذلك فلاسفة الاعلام المصري بانتظار ان تتفضل عليها اميركا بالحل المطلوب او بانتظار ان تنجح مصر في اقناع يوسف بورغ الاسرائيلي المتعصب بفوائد الحكم الذاتي الحقيقي للفلسطينيين؟

مجرد سؤال. . .

● ومثال آخر: ماذا كان مدى استعداد الاطراف المسيحية المتطرفة في لبنان الى تقبل أو تفهم وجهة النظر الفلسطينية حول وجود الفلسطيني في لبنان بعيدا عن الشتائم والاهانات والاتهامات والتشنج ثم التشهير بأسطورة الوطن البديل أو التوطين المزعوم ؟

● ومثال ثالث: ما هو مدى اقتراب اصحاب المليشيات المسلحة الى حل ميليشياتهم والتنازل عن واقع عجيب يدر عليهم النفوذ والمال والسيطرة والدعاية والاستمرارية المطلوبة؟

● ومثال رابع: ما هو مدى اخلاص بعض الاطراف الى ادراك حقيقة الوجود الفلسطيني السلمي في لبنان على أنه شيئا مؤقتا عابرا مرحليا. . . وليس احتلال اسلامي ـ أجنبي دائم كما يزعمون؟

● ومثال سادس: ما هي مدى ثقة اهل لبنان ومحبتهم وولائهم للسلطة اللبنانية الحاكمة وما هو مدى احترام هؤلاء الاهل لهذه السلطة؟

● ومثال سابع: ما هي قدرة السلطة الشرعية اللبنانية على قبول تطبيق مقررات بيت الدين وغيرها حول الجنوب اللبناني والوجود اللبناني عامة؟

● ومثال ثامن: الى أي مدى يطمع اطراف النزاع في الوصول الى حل صحيح وعادل وعاجل للازمة والى أي مدى يتمنى الاخرون بقاء الامور على ما هي عليه؟

وقبل ان اصل الى المثال «التاسع» أقف قليلا لكي أقول ما يلي:

● كنتُ أتمنى على الملك حسين بن طلال ملك الاردن أن يقرأ كتاب مذكرات الجنرال رابين - رئيس وزراء اسرائيل السابق - وان يرد عليها. فقد زعم رابين في كتاب مذكراته الذي صدر في لندن بأن الملك حسين قد اتصل في شهر ايلول سبتمبر من عام ١٩٧٠ بأميركا وطلب من كيسنجر ان تطلب اميركا بدورها من اسرائيل ان يتدخل سلاح الجو الاسرائيلي في المعركة الدائرة يومذاك بين الاردن وسوريا فيضرب الدبابات والتجمعات العسكرية السورية في شمال الاردن، وان اميركا قد نقلت طلب الملك حسين الى اسرائيل، وان جيش الدفاع الاسرائيلي بالتعاون مع جيش الاردن استطاع تدمير الثلاثمائة دبابة سورية، وان هذا التعاون الاميركي الاسرائيلي قد اقنع السوفيات والسوريين بضرورة انسحابهم من الاردن. . . !».

ثم يمضي الجنرال رابين يقول بالحرف الواحد:

● وفي ٢٥ سبتمبر اتصل بي هنري كيسنجر لكي ينقل لي باسم الرئيس نيكسون رسالة موجهة الى غولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل تقول: أن الرئيس الاميركي لم ينس دور اسرائيل العظيم في منع تدهور الاوضاع في الاردن، أو انقاذ الوضع الاردني من السقوط، وان اميركا سعيدة ان يكون لها في المنطقة حليفا مثل اسرائيل. . وانها - أي أميركا - لن تنسى هذا الحديث مطلقا في أية تطورات سياسية قادمة في مستقبل الشرق الاوسط!».

● والمطلوب مرة أخرى ان يردّ الملك حسين على هذه الأقوال لئلا يصبح من حق القائد البناني المنشق، ويسمونه في السعودية والخليج «بالمارق» ان يبرر عملية تحالفه مع اسرائيل، أو ان يصبح من حق حزب الكتائب اللبنانية مثلا او حزب الاحرار الشمعوني القول بأن من حق اي عربي ان يتحالف مع الشيطان الصهيوني، لمعركته ضد أخيه العربي. وأن يستشهد اي منهم بأقوال الجنرال اسحق رابين بالنسبة لموقف الاردن عام ١٩٧٠!

أقول هذا لاني اريد ان أضيف، بأن العرب لم يقبلوا بأي دور للمنشق في اية مفاوضات قادمة حول جنوب لبنان. فلا سعد حداد ولا خليفته بعد موته يملك احدهما الحق في التحدث باسم احد، ولا اسرائيل تملك الحق في ان يكون لها اي

صوت أو اي دور في محادثات قادمة حول مشكلة الجنوب اللبناني . كان يجب ان يكون معروفا ان ثمن تحالف العربي مع العدو ضد اخيه العربي لن يكون الاعتراف به أو تقديره او الاستسلام لمطالبه ، وان جزاء محالفة اسرائيل لن تحمل صاحبها الى مقاعد المفاوضات وقصور الحكم ومقاعد السلطة ! الواقعية شيء ، والانحراف شيء اخر. واذا لم يكن من حق سعد حداد أو غيره ان يزعم قائلا : « كلنا الملك حسين » على ضوء مذكرات رابين المفترية في ظني الكاذبة في رأي التاريخ -فليس من حق رابين بمغالطاته وأكاذيبه ان يزعم ايضا بأن العرب كلهم : سعد حداد أو خليفة سعد حداد. . !!

باختصار: كلمة حق يجب ان تقال لكي تدفع باطلا كبيرا. . . !

هنالك حقائق بسيطة أكررها من قبيل التذكير فقط :

● ليست قضية لبنان أكثر من مجرد نتيجة واحدة من نتائج استفحال السياسة الصهيونية في بلاد الشرق الاوسط بعد ان تولى حزب حيروت مسؤولية الحكم في اسرائيل ! اكرر ان مأساة لبنان انما هي مجرد عارض واحد من مجموعة عوارض الداء الاسرائيلي المتفشي بالمنطقة. وبدلا من ان نشغل انفسنا بمعالجة العارض وحده، علينا ان نعالج المرض، وبدلا من ان نبحث عن علاج للحمى علينا ان نفتش عن اسبابها. ان الطاعون لا يعالج بحبات الاسبرين. والكوليرا لاينفع فيها مكمدات الماء البارد . وكان على مؤتمر القمة العربي المخصص لبحث مشكلة لبنان ان يجعل اسلوب معالجته لهذه المشكلة على أساس كونها مجرد طوبة صغيرة في مبنى مأساة الشرق الاوسط بأسرها، بما فيها مأساة الفلسطينيين، ومأساة كامب ديفيد، ومأساة الخلافات العربية، ومأساة الموقف الاميركي من العرب، ومأساة النفاق الاوروبي، ومأساة الغزو الصهيوني المالي المخيف لحياة مصر الاقتصادية والتجارية والصناعية والمالية. ومأساة هذه الهجمة المصرية الاعلامية والسياسية المسعورة والخطيرة في التصدي للقيم العربية الاخلاقية والسخرية من الصلابة العربية والقضايا العربية ثم شتم القضية الفلسطينية واصحابها وتبرير الخيانة وتقديس الانحراف وتزوير الاحداث وتشويه التاريخ لحساب اميركا واسرائيل تحت ستار خدمة السلام الدنس. يحدد الداء ويوضع الدواء ويتفق حول

كل بديل او الحل المطلوب بالنسبة لهذه المآسي جميعها سواء في الشرق أم في الغرب، وسواء بالنسبة للصراع العربي ضد العدو الاسرائيلي ام بالنسبة للصراعات العربية ضد بعضها البعض، كما يحدث بين اليمن وعمان، وبين دمشق وبغداد، وبين لبنان والمقاومة، وبين المغرب والجزائر، وبين العرب كلهم من جهة، ومصر من جهة اخرى لكي نثبت جميعا بأننا نقف في مستوى قضايانا واننا ايضا على مقدرة من التصدي لها والتغلب على مشاكلها بل والانتصار بها على اعدائنا. . !

● كان عدونا يقيم الدنيا ويقعدها فوق رأس الاتحاد السوفياتي مثلا عندما تبادر موسكو الى اعتقال يهودي سوفياتي واحد او محاكمة هارب يهودي فرد، بينما نحن نتفرج على عدونا يضرب اخواننا في لبنان بالسلاح الاميركي، ويحطم فوق رأسه السور والخيام، ويحرق الارض والزرع ولا يسمع منا سوى عبارة: «يا ويلهم من الله!». أترى اذا كانت عملية التوسط بين اللبنانيين من أجل منع الحرب الاهلية في لبنان هي مسؤولية عربية كما أثبتنا، فهل يصبح منع العدو من حرب لبنان أو احتلال أجزاء منه مسؤولية لبنانية فقط؟

أجل. . ! كان المطلوب من مؤتمر قمة تونس انتهاز فرصة كل ما يدور حولنا من أحداث رهيبة، ابتداء من ايران وافغانستان، وانتهاء بالمغرب وصحرائها، ووضع استراتيجية مشتركة قادرة على ان تنقذ العمل العربي الواسع من طابعه السلبي الخجول المتردد الحائر، اثر عزل السادات ومحاربة كامب ديفيد الى طابع عملي ايجابي جديد قادر على ان يقرر اما رفض كل وجود اسرائيلي في المنطقة او القبول باسرائيل ولكن بشروط عربية وفلسطينية واضحة صريحة ومعلنة ايضا!

وبعد هذا فليس بين ملوك العرب ورؤسائهم من هو بحاجة الى من يدله على معالم الحرب النفسية التي يتعرض لها العرب تمهيدا لافتراسهم لمصلحة السلام الذليل مع العدو، تماما كما جرى مع مصر. ! اميركا ماضية في ايصال المنطقة بأسرها الى اليأس القاتل لكي تقدر فيها بعد ان تفرض سياستها وتضمن مصالحها وتحمي اسرائيل. هكذا اعترف بريجينسكي. هكذا كتب مساعده السابق «بل كونت» هكذا اعلن وما زال يعلن هنري كيسنجر. هكذا يكتب معظم المعلقين والخبراء الاميركان. لقد وضعوا خططهم بغرور شديد، جعلهم ينسون وجود حتى أية قوة

منافسة اخرى قادرة على افساد خططهم في هذا الجزء من العالم. تجاهلوا وجود السوفيات مثلا ونسوا ان غمر الشرق الاوسط باليأس القاتل لمصلحتهم او لمصلحة سياستهم قد يصبح دون وعي منهم او رغم ارادتهم لمصلحة اعدائهم . . . تماما كما يحاول الطبيب مثلا ان يوظف قوة المريض البشرية لمحاربة مرض معين فاذا بالمريض - ودون ارادة الطبيب - يقع فريسة مرض عضال اخر ما كان ليظهر لولا جهل الطبيب!

● كان أنـور السادات يهزأ من العرب ومن الجامعة العربيـة ومن مؤتمر تونس ، مؤكدا لحلفائه الاميركان واليهود، ان السادات حتى بدون العرب هو كل شيء، ولكن العرب بلا سادات ليسوا شيئا!

وقد كان المطلوب من قمة تونس ان تثبت للتاريخ ، ان خروج السادات من الحظيرة العربية قد أعطى العرب ومؤتمرات القمة العربية والجامعة كلها شحنة من معاني الجد والتضامن والوطنية والتصميم !. . . وليس العكس !

وحقائق اخرى اسردها للعلم فقط.

● هاجر الفلسطيني من وطنه عام ١٩٤٨ الى التشرد والضياع! والى عام ١٩٧٠ كانت الاردن هي «المدينة المنورة» التي هاجر اليها المسلم هربا من ظلم الكفار! وبعدها انتقلت مدينة الفلسطيني «المنورة» الى لبنان! ثم انتقلت الى جنوبي لبنان وحده! ثم تضاعف ضغط الظالمين والاعداء وراحت الاشاعات تؤكد ان لبنان الرسمي - ولا نقول رؤساءه فقط - قد اصبح يردد بأن ضيافة الفلسطيني للبنان قد طالت وان المطلوب منه ان يحمل خيمته ويرحل!

وهذا بالضبط ماأرادته اسرائيل ، وهذا بالضبط ماتتمناه اميركا . وقد يكون هذا ما تتوخاه بعض الجهات الرسمية في لبنان، ولكن، الى أين المطلوب من هذا الفلسطيني ان يرحل؟ وما هي معاني رحيله بالنسبة لثورته؟ ثم ماذا بعد هذا الرحيل! اذا كان القصد من مثل هذا الضغط هو تهيئة الفلسطيني نفسيا لكي يرضى غدا بما كان يرفضه بالامس، فالحساب خطأ! فقد - فقد - واكرر - قد يساعد خلق الجو السعيد المريح المطمئن والمفعم بالامل الباسم على اقناع الفلسطيني بالواقعية المطلوبة مثلا، اما جو اليأس اللبناني المشحون بالتحدي والبغضاء والاكراه، فانه

لن يزيد الفلسطيني الا تطرفا وعنـاد ! بودي ل اختلس الرئيس اللبناني من وقت اقامته في ربوع تونس ساعة واحدة يزور خلالها الرئيس التونسي المجاهد الحبيب بورقيبة لكي يسمع منه عن علاقة أهل تونس بثوار الجزائر طيلة أيام الحرب الجزائرية! كيف كان الثوار يتصرفون، وكيف كان حكام تونس يأمرون شعب تونس بالمساعدة والصبر والتعامل والتعاون وتضميد الجراح وانتظار ساعة النصر لاخوانهم واشقائهم في الدين والجهاد ثوار الجزائر. لقد تسنى لي ان اسمع تفاصيل مثل هذه القصص من كبار مجاهدي الجزائر وعلى رأسهم أحمد بن بيلا في عام ١٩٦٣ وفي حضرة جمال عبد الناصر بالذات وفوق ارض الجزائر المستقلة! سمعتها بكثير من التقدير والامتنان والاعجاب لتونس شعبا وحكومة وزعيما.

● وهذا هو اقتناع كل فلسطيني مواطن. ان مدة وجود الفلسطيني في لبنان وفي غير لبنان مرهونة بموعد عودته الى بلده. ساعدوه على العودة يساعدكم هو على التخلص من وجوده معكم. سواء داخل لبنان ام خارج لبنان!

● ثم، وهذا هو اقتناع الفلسطيني المقاتل ان العرب رغم اختلافهم ورغم انقساماتهم ليسوا عاجزين عن الاتفاق على الحد الادنى للعمل العربي المشترك المطلوب لمواجهة اسرائيل ماليا وعسكريا. ان التذرع بالخلافات العربية للاعتذار عن مواجهة العدو هو هوان، تماما كالخيانة والانحرف.

● القول «الساداتي» بأن لا قوة عسكرية بلا مصر، ولا جيش عربي قادر على الحرب بدون جيش مصر، هو امتهان لكل جيش عربي بما فيه جيش مصر بالذات. واهانة حتى لجيوش البربر المغربية. حتى لجيش مسقط وعمان واليمن السعيد ايضا!

● وكما ان القضية ربانية في مآسيها ودموعها وظلمها وسوادها، فيجب ان تكون القضية ربانية ايضا في ابحاثها ومقرراتها. مثل تلك المقررات الربانية في الحاضر وفي الماضي كانت دائما الطريق الى المجد والانتصار. . !

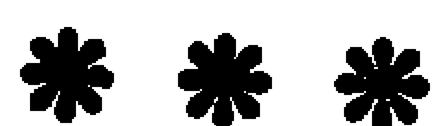
ولكن. .

لم يصل الترياق من العراق! فلا رئيس لبنان يومذاك سوى اموره مع الفلسطينيين، ولا العرب اثبتوا لانور السادات خطأ مسيرته، ولم تصل لاميركا

اشارة واحدة تجعلها تمتنع عن تشجيع اسرائيل على ان تغامر وتدخل وتضرب وتحتل . وبقي الموقف مائعاً قذراً مهلهلاً اشبه بذلك المريض الذي سألوا عنه ابنته فأجابت :

- لا هو حي فيرجى ولا هو ميت فيرثى !

وعندما حانت ساعة «الغزو» ، كان الطريق ممهداً ، ولا أقول معبّداً بالرياحين !



الفصل الثاني عشر
ومـــــن الـجـهـــل مــا قـتـــــل !

● حقيقة «الابطال» الذين انتصروا على العرب!

● من هو موشيه دايان . . ومن هو عزرا وايزمن؟

● لم نحاول مرة واحدة أن نسأل انفسنا: ماهي اسرائيل؟ وماهي حقيقتها؟

● متى يتحرر العرب من عقدة النقص أمام أعدائهم ؟

الفصل الثاني عشر
ومن الجهل ما قتل!

منذ ٣٧ سنة بالتمام والكمال اصدرت الامم المتحدة في ليلة سوداء مجللة بالعار والخزي، قرار تقسيم فلسطين..

في تلك الليلة ـ وجيل بلدي الجديد لا يعرف شيئا عن مشاهدها ـ خرجت جموع اليهود الى ساحات القدس وتل ابيب وحيفا ترقص وتغني وتهتف للدولة اليهودية الجديدة وكأنها على موعد مع النصر والازدهار والاستقرار والسلام!.

ومضت الشهور والاعوام.. ولم يصل النصر ولا تحقق الاستقرار! وشنت اسرائيل ثلاثة حروب يائسة مفاجئة ولم يصل السلام ولم يتحقق الازدهار! وتحالفت اسرائيل مع بريطانيا وفرنسا، ثم مع معظم دول افريقيا ثم مع اميركا، ثم معظم دول آسيا واميركا اللاتينية بقصد فك الحصار العربي، والاستعانة بأسواق تلك الدول عن اسواق العرب، واستجداء التأييد البعيد كتعويض عن العداء المتربص القريب، واشترت السلاح الاحدث، واقتنت القنبلة الذرية، ولكن.. لم يصل السلام ولم يتحقق الحلم في الامن والاستقرار..!.

● ثم جاءت اتفاقية كامب ديفيد المشؤومة! وظنت اسرائيل ان اتفاقها مع «نصف العرب»- كما كان يحلو لمناحيم بيغن ان ينادي- كفيل بأن يمنحها ما افتقدته من شعور بالسلامة والامن! تماما، كما ظن اليهود في انحاء العالم ان مجيء رجل كمناحيم بيغن الى الحكم كفيل بأن يفرض السلام المنشود، ويحقق الرخاء المرجو، ويأتي «بالمعجزة»

التي طال غيابها. ! وتمضي الايام، وتصحو اسرائيل على الحقيقة المرة بأن اتفاقها مع السادات قد تسبب في قتل السلام بدلا من ان يحققه، وان اتفاقية كامب ديفيد قد احالت المعتدل العربي الى ثائر، والمتفائل الى متشائم، وصديق اميركا الى عدوها، وصاحب القلم والفكر الى حامل بندقية وقنبلة! ادركت اسرائيل ان اعتداءاتها على لبنان لم تستطع ان تحمي مستوطناتها في الشمال من غارات الفدائيين، وان تهديداتها ضد عرب الضفة والقطاع لم تقدر ان تقنع عربيا فلسطينيا واحدا بالمشاركة في مباحثات «الحكم الذاتي»، وان اميركا بقدرها وأموالها وجبروتها لم تقدر ان تقنع الملك حسين بالانضمام الى موكب الخيانة والانحراف. وبقيت اسرائيل كما ولدت تعاني دوامة الضياع وتفترسها الازمات، وتحطمها الاضرابات والانقسامات، وخزينتها مفلسة، ومصارفها معطلة واسطورتها المسماة «موشي دايان» قابع في عزلة المرض والحقد والبطالة داخل منزله، والتضخم عندها في أزدياد، والشلل الحكومي في اطراد، و«مناحيم» على عتبة القبر، ومصير الوزارة كلها معلق بموضوع. حق المرأة في الاجهاض او تطرح جنينها قبل ان يولد!

وكنت اقرأ شعراً لاحد كبار ادباء اسرائيل نشره في مجلة بالانكليزية تصدر في نيويورك وتحرر في اسرائيل، قال فيه بمناسبة ذكرى ٢٩ نوفمبر... ذكرى تقسيم فلسطين:

● «في ذات يوم قادم.. سيقف الاستاذ امام تلامذته في الفصل ليقول لهم: لقد استمرت حروب اسرائيل من مطلع القرن العشرين حتى هذا اليوم الذي ترون تاريخه امامكم! لقد كانت حروبا مرة اليمة بهزائم وانتصارات تتخللها فترات قصيرة من ايام الهدنة، ولم تصل الى نهايتها ـ تلك الحروب ـ الا عندما اختفت علامة الاستفهام المعلقة فوق رأس اسرائيل تشكك في قدرتها على البقاء او حقها في الوجود! متى يأتي مثل هذا اليوم، لا ادري!»

ثم يقول هذا الشاعر السياسي الاسرائيلي:

● لاول مرة في التاريخ اصبحنا مع مصر في مركب واحد! ومن الان فصاعدا اصبح اصدقاؤنا هم اصدقاء مصر، واعداؤنا هم اعداؤها! والذين يخططون لسقوط من يحكم مصر هم الذين يخططون ايضا لاسقاطنا نحن! ترى، هل هنالك من يقدر ان

يتنبأ بماذا يخبىء لنا، ولمصر، عالم الغد.؟»!.

هذا الشعر القلق الخائف ليهودي سياسي اديب اسمه: «أموس اوز» وقد نشره في مجلة «جيروزاليم كورتارلي» التي تصدر في اميركا.

هذا «الشعر» بالذات هو لسان حال كل مواطن اسرائيلي يعيش داخل الدولة الحائرة القلقة المفلسة التي اسمها: اسرائيل!.

● فلا الحرب، وقد خاضت اسرائيل اربعة او خمسة حروب ضد العرب، ولا السلم وقد عقدت اسرائيل سلما مزيفا مع مصر، قد مكنت اسرائيل من العيش بأمن واستقرار منذ ولادتها قبل ٣٧ سنة، حتى اليوم..

كأنها ذلك البدوي التائه في شعره القائل:

طلبت المستقر بكل ارض
فلم أر لي بأرض مستقرا
اطعت مطامعي فاستعبدتني
ولو اني قنعت لكنت حرا!

● دولة تحولت مع ايام عمرها الى عصابة، وحكام استبد بهم الهوس الديني والسياسي فأصبحوا اسرى شعاراتهم المتطرفة، وامة تستعبدها جماعة «غوش امونيم»، وشعب لم يعد يرى امامه سوى التوسع وزرع المستوطنات على حساب الغير، مع سباق الى التطرف، وتمسك بأوامر محرفة مزعومة منسوبة الى التوراة، واحكام تعسفية، وتخبط مفضوح، وتهافت على السلاح، وصحف طافحة بالتجريح والاتهام والشك، ووزراء يعيشون في ظل التهديد بالاستقالة ورئيس يعيش في ظل التحدي والعناد وسمعة تفوح منها رائحة الفضائح والاخطاء...

هذا هو حصاد ال ٣٧ سنة من عمر دولة اسرائيل!

وهذه هي الصورة الحقيقية التي كان يجب علينا ان نضعها نصب اعيننا قبل ان يجرفنا تيار اليأس أو يغمرنا طوفان القرف ونحن نحاول ان ندرس أوضاعنا او نحلل قضايانا او نحكم على مايواجهنا من مشاكل وأزمات...

انني اقاوم القلق لان هذا القلق ـ بالذات ـ هو الذي يتمناه لنا ولحاضرنا ومستقبلنا التحالف الاسرائيلي الاميركي«الساداتي»، القائم على قواعد اتفاقيات

كامب ديفيد، السرية منها، والعلنية والذي لايستهدف «العلاج» للصراع العربي الاسرائيلي فحسب بقدر ما يستهدف «علاج» اوضاع منطقة الشرق الاوسط، او الشرق الادنى، او الوطن العربي، بأسره. .

هل نصمد؟ نعم! هل نصبر؟ اجل! هل نقاوم؟ بلى! هل نيأس ونقلق ونستسلم؟ لا. . لا. . لا! نحن اهل الشاعر «ابو المظفر الاموي» الذي قال:

تنكر لي دهري ولم يدر انني
اعز واحداث الزمان تهون
فبات يريني الخطب كيف اعتداؤه
وبت اريه الصبر كيف يكون. !

في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ قرر العالم بأصوات ممثليه في الامم المتحدة، تقسيم فلسطين وانشاء الدولة اليهودية. .

ورغم كل الملايين، وكل التحديات، وكل الحروب، فقد بقيت دولة اسرائيل منذ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ حتى اليوم، مجرد قرار دولي، يفتقر الى مقومات الدولة، يفتقر الى الاستقرار والحدود المعترف بها، والامن الداخلي، والتعاون مع جيرانها، والسمعة الطيبة، والمسلك المطلوب في العالم. ! ذلك ان قرار ٢٩ نوفمبر كان قائما على باطل كبير. . وما زال هذا الباطل. . باطلا!

حتى الدول التي اعطت صوتها لقرار التقسيم عام ١٩٤٧، قد عادت اليوم واعلنت ندمها. .

حتى دول غربي اوروبا، قد تحولت من موقف التأييد الاعمى الى موقف التأييد المشروط. .

حتى اميركا، قد اعلنت الملل والضجر والقرف لكثرة ما اعطت وما دفعت وما ايدت، دون جدوى. .

وفي كل هذا، ما يدعو الى الامل، والى التمسك بسياسة «طول النفس» او سياسة الملاحقة والمتابعة والاستمرار حتى يعود الحق الى اصحابه. .

فقد علمتنا تجارب غيرنا من الامم ان سواد الايام عندها لم يدفعها مطلقا الى الشعور بالقلق. الم نسمع ونقرأ بيانات الجيش البريطاني ابان بدء الحرب العالمية

الاخيرة، عندما كانت الهزائم المتتالية تنصب على رأس جيش الانكليز في سهول فرنسا، او شواطىء «دانكرك» او شمالي افريقيا على يد «رومل»، فيأتي البلاغ الرسمي لكي يسرد الخبر بايجاز، ثم ينتهي دائما بالعبارة التقليدية: «.. ولكن الموقف لا يدعو للقلق!».

فلماذا نقلق..

لماذا لم نتسلح بالصبر، والعلم، وقوة الاعصاب، ونحاول ان نتسلل الى اعماق عدونا لكي نتعرف على مراكز الضعف عنده ونشعر بعدها اننا اقوى منه مالاً، واعز صفاً، واكثر عدداً، واصلب عوداً، واخلص للمقدسات والارض وللتاريخ..؟!

لماذا..؟

لقد انتظر عدونا ثلاثة الاف سنة حتى تمكن من «العودة» الى فلسطين. ترى هل عجزنا عن الانتظار خمسين سنة.. فقط!

ان عدونا يعرف عنا كل شيء. ولكننا نحن لم نعرف عن عدونا الا ما اراد لنا هذا العدو ان نعرفه عنه. لقد بدا امامنا شعباً موحداً، وجيشاً لا يهزم، ودولة عصرية، وعلماء يتحكمون بالدنيا واطباء يضعون المعجزات ولكننا عجزنا عن ان نرى اكوام الزبالة وعصابات المافيا وفضائح اللصوص وقصص السفالة والتناحر والاقتتال في ميادين حيفا وتل ابيب! لقد خدعنا عدونا بسبب جهلنا، وعدم المبالاة في تفكيرنا وظننا ان «الباشا - كما يقول المصريون - باشا، فاذ بالباشا مجرد زلمة!»

ومن الجهل ماقتل!

ترى.. من هم هؤلاء «الابطال» الذين «انتصروا» على العرب في حرب ١٩٦٧ ثم ملأوا الدنيا تحدياً واستهتاراً وتعصباً وغروراً؟ هل تقولون «موشي ديان»؟؟؟

من الصعب ان تقال الحقيقة عن رجل عدو! لا لان الحقيقة تمدحه، بل لانها تجرده من ثيابه عاريا ويبدو كما هو بالفعل محبا الا لغيره، وفيا الا للناس، المبدأ عنده وسيلة، والصداقة عنده نزوة، يستجدي الشهرة بالكذب، ويسعى للنفوذ بالعمالة، سيطرة العقد في نفسه هي قوة العقل، وسيطرة العقل عنده هي قوة المرأة! احب اسرائيل في نفسه، واحب اميركا في اسرائيل، في غروره صورة النقمة على ضآلة جسده وعلى بشاعة وجهه، وفي صلفه مرآة الجائع للبطش والدم.. يتحدث

عن السلام ويفكر في الحرب، ويتغنى بالفلسطينيين ويتآمر عليهم. ! وعوده اكاذيب، ومحالفاته غدر، وحياته الشخصية فضائح، وفضائحه الجنسية اساطير! يغير حزبه كما يغير ربطة عنقه، ويبدل مواقفه كما يبدل خليلاته، يحب الاضواء كالفراش الاعمى، ويتمسح بالدين على خطوات راسبوتين، ويمارس السياسة بأخلاق التجار، ويقتني قطع الاثار بجشع «شيلوخ» في رواية شكسبير!

وكالمريض الذي مات فجأة جرت العادة ان يعود الاطباء الى السجل المحفوظ للاطلاع على آخر اخبار تطور حالته الصحية قبل ان يلفظ انفاسه الاخيرة. .

● وكما اعتاد الاطباء على مراجعة التقرير المحفوظ عن آخر الساعات عن حياة المريض قبل موته او قبل انتحاره، كذلك اعتاد الورثة على البحث عن وصية المريض بعد وفاته مما قد يفسر لهم اسرار نظرته اليهم، او موقفه منهم او حكمه على كل فرد بينهم. .

وكانت وصية موشي دايان ممثلة بمؤتمره الصحفي الذي عقده بعد مضي ٤٨ ساعة من استقالته من الوزارة الأسرائيلية .

● وقد كان هناك شبه اجماع دولي عند المراقبين والمعلقين في داخل اسرائيل وفي خارجها على ان دايان قد تعمد في مؤتمره المذكور ان يبدو غامضا وغير مقنع في سائر اجاباته على الصحفيين. . لماذا؟ لكي يقول الناس ـ وهذا بالضبط مايريده دايان ـ ان دايان لم يعلن حقيقة اسباب استقالته. وان الاسباب الحقيقية للاستقالة هي ـ مطلقا ـ غير الاسباب التي اعلنها في المؤتمر. ! لو قال الناس مثل هذا الكلام لضحك دايان في قلبه لايام طويلة قادمة ! فهو حريص على ان يبدو كاللغز ! وهو حريص على ان ينزع عن نفسه الطابع المحلي لكي يبدو ملفوفا كالطاووس بالطابع الدولي ! واذا كانت اسرائيل ولاية اميركية -كما يقال- فقد كان دايان هو المعتمد الاميركي او المندوب السامي الاميركي في اسرائيل! اليس هو رجل اميركا في فيتنام ـ اقرأوا مذكرات مكنمارا وزير الدفاع الاميركي السابق. .؟ اليس هو اقرب الاسرائيليين ـ طبعا بعد رابين ـ الى قلب المؤسسات الاميركية الرسمية الحاكمة من سرية وعلنية ؟ اذن ، وهذا هو المهم ،كان يجب ان تبدو استقالته وكأنها تمهيد لحدث اميركي خطير متفق عليه قادم في الطريق !. . أو وكأنها نتيجة وحي اميركي بقصد

احراج حكومة بيغن ونسفها من الداخل ! وكانها مقدمة لاتفاق اميركي - سوفياتي حول الحل المنتظر لقضية الشرق الأوسط ! أو كأنها ضربة شخصية امر بها جيمي كارتر قبل الدخول في عام الانتخابات الاميركية لكي يمهد بها الى ولوج باب الحل الحاسم للقضية الخطيرة ! كل هذا يجوز ! ولكن دايان لم يرد ان يصرخ بذلك علنا لان الغموض المقصود في اقواله من خلال مؤتمره الصحفي قادر على ان يوحي بأكثر مما هو مطلوب منه من معان وتفسيرات ! لاشك انه تمنى ان تكون استقالته تلك الشعرة التي يقصم بها ظفر البعير «بيغن» ويرغمه اما على اجراء تبديل جذري في مناصب الوزراء من شأنه ان يفسد التوازن الوزاري الحالي بين الأحزاب الاسرائيلية وبالتالي يجلب النقمة على رأس بيغن ، واما ان يدفع بيغن الى الاستقالة واجراء انتخابات جديدة ! بل لعل موشي ديان لم يكن ليقرر استقالته لولا تأكده من ضعف الحكومة وعجزها عن النهوض بمسؤولياتها امام جبال هائلة من الازمات اللاقتصادية والسياسية مع كل من يرافق ذلك من تفسخ حاد في المجتمع السياسي الاسرائيلي وانقسامات عنيفة بين شعب اسرائيل في الداخل وفي الخارج على السواء .

● لماذا استقال موشي دايان؟ ولماذا لم يفهم العرب سرّ استقالته ؟

في شهر اكتوبر من عام ١٩٧٧ كنت في قاعات الامم المتحدة بنيويورك ارافق واراقب الجلسات والمناقشات الدائرة هناك . .

وكان موشي دايان امامي في مقعده المخصص يرأس وفد حكومته الى الامم المتحدة . .

وفي الاسبوع الاخير من شهر اكتوبر المذكور ظهر كل من اسماعيل فهمي وزير خارجية مصر السابق وموشي دايان على شاشة التلفزيون الاميركي في لقاء بدأ يومها وكأنه مناقشة مفتوحة بين الوزيرين رغم ان كلا منهما قد ظهر بمفرده وتكلم مع مذيعة التلفزيون الاميركية الشهيرة «بربارا وولترز» لوحده . .

● وسألت المذيعة بربارا وولترز وزير خارجية اسرائيل عن رأيه في اقامة دولة مستقلة في الضفة الغربية فأجابها بقوله ، وكنت استمع الى ذلك الحديث في غرفتي بفندق «وولدرف استوريا» بنيويورك برفقة عدد من اخواننا الفلسطينيين ، فأجابها دايان :

ـ ولماذا لايعيش العرب واليهود في سلام وصفاء؟ لماذا الاصرار على التفريق بين هذين الشعبين؟ ها هم يعيشون بكل محبة وتعاون في منطقة الخليل وفي مستوطنة «كريات أربع» . هناك عرب ويهود والجميع بخير وهناء وعمل وهدوء وأرباح تجارية ومكاسب عال. . . !»

ورن اسم «كريات اربع» في مسمعي كالرصاصة . .

فقد تذكرت ان مهندس فكرة كريات اربع ومنفذها وخالقها وراعيها قد جاء الى نيويورك لكي يفخر بالحديث عنها ويتخذ منها مثالا حيا للتعايش السلمي الموفق بين العرب واليهود في الاراضي العربية المحتلة وبالتالي مثالا للحل المنتظر . !

مستوطنة كريات اربع هي اكبر امجاد موشي دايان في الضفة الغربية المحتلة . والتمثال الذي يفخر هو باقامته طيلة ايام حكمه كوزير في حكومة العمل . ! كريات اربع هي اخطر خازوق دقه اليهود بجانب مدينة الخليل فأصبحوا يتحكمون بالمدينة ويشاركون في مقدساتها ويتحكمون في امنها وسلامتها .

ثم انشأ بعدها وبالقرب منها مستوطنة كفار عصيون . واصبحت المنطقة كلها مهددة بالتهويد .

ترى، اليس من حق موشي دايان ان يفخر بأن سياسته التي قادها ونفذها في الضفة والقطاع منذ حرب الايام الستة حتى اواسط السبعينات قد جعلت منه «لورنس» العرب الجديد في نظر بعض رؤساء بلديات الضفة السابقين ـ ودعونا من ذكر الاسماء ـ كما جعلت منه موضع حسد زملائه واعجاب كل صحفي اميركي او بريطاني وكل شخصية اجنبية زارت اسرائيل وتفقدت احوال الضفة الغربية؟ . .

اليست صداقاته وحفلاته واجتماعاته مع معظم شخصيات الضفة من العرب والتكريم الذي كان يحظى به وصوره في الصحف والتلفزيون واخباره في الاذاعة والحفلات المقامة على شرفه وخطبه وكلماته ونصائحه . . كل ذلك قد جعل من موشي دايان اشبه بالاسطورة المحلية والعالمية؟ . .

ثم اليس من حقه في هذه الاسطورة ان تحن الى تلك الايام المجيدة السعيدة وتتحسر عليها وتتمنى عودتها؟ . .

وهكذا كان . .

باختصار: كان موشي دايان غريبا على حزب حيروت.. وكان عـزرا وايزمان قطب الحزب المذكور يكرهه شخصيا ويشمئز من اخلاقه وتصرفاته.! لقد سبق وكان وايزمن عديل موشي دايان.. كلاهما متزوج من شقيقتين من عائلة «بدارو» اليهودية المعروفة من سكان محلة الطالبية في القدس.. ولكن دايان المعروف بمغامراته النسائية التي لا تنتهي قد وقع في حب زوجة صديقـه النائـب العام الاسرائيلي عندما التقى بها في رحلة بالطائرة الى اوروبا.. وعند عودتها الى البلاد راح موشي دايان يطاردها الى ان ضبطه زوجها معها في فراش واحد فأحس دايان بالخطر وقذف بنفسه من البلكون الى الارض بعد ان ترك وراءه جاكيت الجنرال المرصع بالنجوم والسيوف فاحتفظ به الزوج المطعون بشرفه كتذكار يسلي به اصدقاءه وقرر ان يطلق الزوجة التي اصبحت فيها بعد زوجة دايان الحالية..

● اما زوجته السابقة فقد طلقها..

وانتشرت النكتة في اسرائيل تقول بأنهم قد سألوا دايان لماذا اعدت زوجتك الى بيت اهلها؟ فأجابهم: الم يصدر في اسرائيل قانون رسمي يقول بأن على كل من يحتفظ في منزله بأية آثار قديمة ان يعيدها اما الى الدولة او الى اهلها..؟

انتهت النكتة..

وكما ان هذا الطلاق قد سبب خلافا ابديا بين الصهرين العزيزين القديمين وايزمان ودايان، فانه قد فتح ايضا امام الاسرائيليين شهية فضح اسرار موشي دايان وسرد قصصه ومغامراته الخاصة المسلية..

● مثلا قصة او مأساة ذلك الصبي اليهودي الصغير الذي كان دايان على علاقة محرمة بوالدته ووصلت اخبار هذه العلاقة الى مدرسة الولد فاصبح موضع سخرية رفقائه حتى وجدوه ذات يوم مقتولا في فراشه وتبين من التحقيق ان الولد قد ترك رسالة لوالدته يشرح فيها اسباب انتحاره ويلقي السبب على رفقائه الذين كانوا يهزأون منه بسبب علاقة موشي دايان بوالدته..

● مثلا: عندما قرر موشي دايان ان يقضي سحابة عطلة احد ايام السبت في الصيد.. وعندما افتقد بندقية الصيد تذكر انه قد نساها في مكتبه.. فتوجه الى وزارة الدفاع وفتح الباب الرئيسي وصعد الى الدور الثالث واتجه الى مكتبه الخاص

وفتح الباب فوجد حارس الوزارة امامه يتعاطى الحب مع احدى المجندات الاسرائيليات . .

تقول بقية القصة : وبكل هدوء قال موشي دايان للحارس الاسرائيلي : في المرة القادمة اذا اردت ان تتعاطى الحب في مكتبي فلا تنس ان تقفل الباب وراءك بالمفتاح . . !»

ثم تناول دايان بندقيته وخرج في هدوء تاركا العاشقين يمارسان اللذة المحرمة في مكتبه . .

● المهم ان موشي دايان قد قال في ختام اعلان وصيته ، اعني مؤتمره الصحفي ، ان تلك الأيام هي نهاية حياته السياسية . . . » .

ويا لها من نهاية . . بلا اصدقاء ، بلا رفقاء ، بلا حزب ، بلا كلمة وداع او كلمة شكر ، وفوق ذلك كله : سرطان يسري في الامعاء قد يشفي وقد يميت . .

قيل ان لصا قد توفي فجاء ولده الى الكاهن وطلب منه ان يقيم قداسا مختصرا على روح ابيه يطلب فيه من الرب الرحمة . .

وابتسم الكاهن قائلا لابن اللص :

ـ قداس واحد يا ولدي لايكفي لكي يغفر الرب ذنوب والدك . . المطلوب يوم قيامة كامل يتولاه في الرب بالمحاكمة ثم يقرر الحل بنفسه . . !

وهكذا كانت نقطة ضعف موشي دايان . .

اليس هو بالذات الذي قال فيه الصديق الراحل المرحوم الشاعر كمال ناصر عام ١٩٤٩ في رثاء مصطفى وهبي التل في عمان :

كفى العروبة ذلا ان يروضها

من بعد احمدها موشي بن دايان؟

ومن غير موشي دايان ؟

● لقد احال المرض مناحيم بيغن الى حاكم ضعيف . وقد تسبب هذا الضعف في ازدياد حدة الصراع بين اجنحة الحكومة وبين مختلف وزرائها . كما ادى هذا الضعف الى تخلي الكثيرين من نواب حزبه من امثال «جولا كوهن» والمستر

«شامير» عنه، والاستقالة من الحزب. وكذلك تسبب ضعف مناحيم بيغن في تمرد بعض الاحزاب الاقلية ضده وفي مقدمتهم حزب المتدينين المعروف «باجودات اسرائيل» وزميله حزب «عمال اجودات اسرائيل». فاذا عرفنا ان هيبة الحكم في اسرائيل وفرض السلطة واستقرار الوضع الاقتصادي وتأمين التعاون المطلوب بين مختلف الكتل المؤيدة للحكومة يعتمد على شخص رئيس الوزراء بالذات، ادركنا كم هي الاضرار التي لحقت بحزب مناحيم بيغن من جراء استمرار الأوضاع المتردية وتدهورها المستمر من سيء الى أسوأ !..

ولاشك ان عزرا وايزمن كان يعلم تفاصيل هذه الحالة السيئة ومدى اثارها العكسية على الحزب الحاكم. اذ انهم سألوه عن رأيه في تدهور احوال الحكومة فأجابهم بلغة عالم الطيران الذي كان هو احد رجالاته: «الطيار القدير مهما واجه من عواصف ورياح ومطبات الا انه قادر في النهاية على ان يهبط بطائرته بسلام على ارض المطار..!»

قيل لوايزمن: هل تعني ان قائد الطائرة - والمقصود بذلك هو رئيس الوزراء ـ قادر على ان يهبط بطائرته على ارض المطار بسلام؟.

فأجابهم: انا اتحدث هنا عن كل طاقم الطائرة وليس عن قائد الطائرة وحده!.

عادوا وسألوه: نحن نسألك عن كابتن الطائرة بالذات؟.

اجابهم مقهقها: وانا احدثكم عن مجموع طاقم الطائرة كلها!.

والحقيقة تقول ان نائب مناحيم بيغن بالذات كان لايعير رئيسه اي تقدير او اهتمام وانه كان في مقدمة الذين يصلون من أجل موت رئيسة أو تقاعده ان لم يكن في ذلك خدمة له لكي يصبح رئيسا للوزراء، فعلى الاقل خدمة للحزب الحاكم او نكاية بحزب العمل المعارض الذي اصبح يجني المكاسب على حساب هزائم الحكومة..

ويطل السؤال الذي يترتب مجيئه بعد مجيء السؤال السابق:

- هل كان في إحتمال مجيء رجل كعزرا وايزمن الى منصب رئاسة الحكومة اية خدمة لحزب حيروت الحاكم او لائتلاف ليكودا او لاسرائيل عامة ؟.

والجواب باختصار شديد لاتشوبه العاطفة ولا المشاعر الخاصة:

كان في إحتمال مجيء عزرا وايزمن للحكم كارثة اخلاقية وسياسية وانسانية على الدولة الاسرائيلية بأسرها بالنسبة للمزايا السلبية التي يتصف بها وزير دفاع اسرائيل ! فهو - بشهادة جميع معارفه - محدود الذكاء ، محدود الثقافة ، لا يقرأ الا القليل ولا يطلع الا على القليل - وهو بذلك يتفق تماما مع صديقه انور السادات - ثم انه انسان عاطفي بلا عقل ، اومتهور بلا حسابات ، متقلب جدا ، يحمل جسم العملاق وقلب الطفل في آن واحد. . . !

هل كان يصلح مثل هذا الانسان ان يقود سفينة اسرائيل في ادق مراحل التفاوض والصراع في تاريخها الحديث؟ .

سأترك الحديث عن النواحي الخاصة المظلمة في شخصية عزرا وايزمن. سأتحدث فقط عن الطيار الذي اصبح مليونيراً ، والسياسي الذي اصبح اسطورة مع سر جمع الملايين وسر الاسطورة الطائرة واثر كل ذلك على مستقبل الصلح المزعوم والسلام المنشود في دنيا الشرق الاوسط! فقد يترحم الناس على مناحيم بيغن عندما يشاهدون امامهم زعيماً جديداً لم يترفع بنزاهته الى فوق مستوى الشبهات، ولم ينل من الطبيعة ذكاء الحكام ولا استقامتهم ولا علمهم ولا جلدهم وانما استغل لعبة الحظ في حرب عام ١٩٦٧ لكي يصبح بطلا، كما استغل اسم عائلته لكي يصبح مليونيرا في حقل الطائرات والمطارات والاسلحة الاميركية. . !

شاهدت المستر عزرا وايزمن على شاشة القنال الثانية في تلفزيون باريس وهو يتحدث الى المراسل الفرنسي ويدور بينهما الحوار التالي :

المراسل : هل في نيتكم القبول بمفاوضة ياسر عرفات في المستقبل القريب؟ .

عزرا وايزمن : نحن لم نفاوض عبد الناصر في الماضي وانما فاوضنا خليفته .

المراسل : استطيع ان افهمك . ومن هو في تقديرك خليفة ياسر عرفات؟

عزرا وايزمن : انه احد رؤساء احدى بلديات الضفة العربية! .

هذا العفن العقلي ، وهذا السخف السياسي لم يكن صاحبه سوى ابن وايزمن الذي اضفت عليه اسرائيل اكاليل الغار واحالته ـ كصاحبه دايان الى اسطورة الاساطير. !

وصدق العرب الاسطورة. .

وانطلت علينا اللعبة . .

وقديماً قال شوقي امير الشعراء عن شعب من الشعوب :

ياله من ببغاء . . . عقله في اذنيه!

لم نحاول مرة واحدة ان نسأل انفسنا : ماهي اسرائيل؟ ولو نحن فعلنا ذلك لجاءنا الجواب التالي :

● ديون مالية للعالم باسره تزيد عن مئة الف مليون دولار! .

● سواد الشعب اليهودي من اصحاب الدخل المحدود ومن يهود الدول العربية ويشكلون الاغلبية في اسرائيل، وقد عاشوا على الوعود والاحلام طيلة السنوات الماضية فلم ينالوا الا المزيد من الفقر والتعاسة والبطالة، وبدأت الاضطرابات والشكاوي والاضرابات والتذمر المشحون بالعنف! .

● فشل مباحثات السلام الشامل والدائم في الشرق الاوسط، والنتائج التي ترتبت على ذلك الفشل فعزلت اسرائيل دوليا وازمت علاقاتها مع اميركا ودول غرب اوروبا وزادت من حدة الصراع المسلح في الشرق الاوسط واحالت احلام السلام الشامل مجرد صلح منفرد بين اسرائيل من جهة وانور السادات من جهة اخرى! .

● تدهور سمعة اليهودي في جميع انحاء العالم.

● انشقاق حاد بين صفوف اليهودية العالمية بسبب حرب لبنان.

● تزايد التضخم والبطالة داخل البلاد.

● الاختلاف على مفهوم السلام مع العرب وظهور المظاهرات العامة في الشوارع والميادين.

● فشل المخطط الصهيوني بالنسبة للبنان.

● التذمر في صفوف الجيش الاسرائيلي. الى آخره . . الى آخره.

هل في مثل هذا النوع من الدول مايخيف احداً او يقلق احداً او يستعمر احداً او يرفض الحق لاحد . ؟

متى يتحرر العربي من عقدة النقص تجاه إعدائه . . متى يتعرف العرب الى سرّ اسرائيل ؟ متى نتعلم القراءة والكتابة. . . ؟ !

***

الفصل الثالث عشر
مصيبة اسمها: انور السادات!

● حُكم «قراقوش» وهيبة «جحا» وشكل «علي الكسّار» وعقدة «كافور»!

● أعظم اخطاء عبد الناصر وأخطر خطاياه انه اختار انور السادات خليفة له..

● قالت اسرائيل للعالم: اذا كان انور السادات هو زعيم اكبر دولة عربية، فكيف تكون حال بقية الزعماء العرب؟

● كل ما اعطته مصر عبد الناصر للعرب في ١٨ سنة اضاعته مصر السادات في عشر سنوات!

الفصل الثالث عشر
مصيبة اسمها: انور السادات!

كل هزة جديدة في المنطقة كان يعتبرها انور السادات انتصارا لكامب ديفيد! كل خلاف بين الدول العربية، كل اعتداء على حرمات المسلمين، كل صراع بين لبنان والمنظمة، كل ازمة بين اميركا والخميني، كل تحفظ على أي قرار من قرارات مؤتمر قمة تونس. . كل ذلك عند انور السادات رأسمال جديد يضاف لحساب سياسة كامب ديفيد!.

وما دامت كل هذه الهزات السياسية قائمة، كان انور السادات في أوج سعادته! بل كان الهدف الأكبر عند أنور السادات لكي يضمن نجاح سياسته هو خلق المزيد والجديد من مثل هذه الهزات! الا تذكرون كلاما لانور السادات صرح به للصحفي اليهودي المعروف «شالوم روزنفيلد» محرر جريدة «معاريف» الاسرائيلية في خريف ١٩٧٩ وقال فيه بالحرف الواحد:

«موعدي مع العرب في اواخر هذه السنة حيث تكون الامور قد «توضحت»، وتكون معظم التيارات قد «هدأت»، وتكون بعض الوجوه قد. . «اختفت»!

لم تعد احداث المنطقة مرتبطة بسياسة «كامب ديفيد» فحسب، بل هي من صنعها وضمن مسؤولياتها! ان كامب ديفيد لم توجه نشاطها وانظارها صوب القضية الفلسطينية فقط، او العلاقات بين مصر واسرائيل فحسب، بل هي قد خططت ودرست وناقشت ثم حددت مستقبل منطقة الشرق الاوسط بأسرها، بما فيها

ايران ، وبما فيها السعودية ، وبما فيها البترول ، وبما فيها لبنان ، وبما فيها أمن المنطقة ، محليا وعربيا ودوليا. ! من هذه الزاوية وعلى هذا الأساس كان يجب ان نفهم ابعاد الكثير من الاحداث الخطيرة التي وقعت في دنيا الشرق الأوسط وما زالت تتفاعل وتتصارع وتشتد. ! ان الملاحق السرية التي اضيفت الى اتفاقيات كامب ديفيد ، أكثر خطورة وأوسع اثرا من الاتفاقيات ذاتها ! ان ما سبق واتفق عليه سرا بين كارتر والسادات وبيغن ، من خلال الاحاديث السرية داخل الجلسات المغلقة في واشنطن ، والاسماعيلية وحيفا والقدس ، حول ظروف المنطقة وأوضاعها ومستقبلها وأخطارها ، كل ذلك أهم الف مرة من الاتفاق المعروف حول صحراء سيناء أو «نكتة» الحكم الذاتي للفلسطينيين . ! من هنا ، كان يجب ان لا ندهش ونحن نرى الهزات والخلافات تجتاح دول المنطقة بأسرها بينما ينعم حكم أنور السادات -وحده- بالاستقرار والهدوء!. من هنا كان يجب ان لانيأس وان لانفزع وان لا نركع او نستسلم ونحن نتلقى اخبار الاحداث المؤسفة في «حلب» أو الاحداث المفجعة في «مكة» أو الاحداث الدموية في جنوبي لبنان ، او احداث ايران المذهلة ، او اضطرابات الارض المحتلة ، او اختلافات قمة تونس ، بينما نرى انور السادات -وحده فقط- ينعم بالراحة والسعادة على شواطىء المعمورة ، يدخن الغليون ، ويوزع الاحاديث ، وينشر الشتائم ويقبض الاموال ويحتفل باليهود !.

« . . واني بحمد الله لا واهن القوى
ولم يك قومي قوم سوء فأخشعا»!

ولعل اكبر جرائم انور السادات كونه ـ خلال مباحثات كامب ديفيد وبعدها ـ قد حرم أقدس قضايا الشرق والعرب من دفاع اقوى الأقلام الصحفية في الشرق العربي. واعني بذلك: صحافة مصر!

اكتب هذا من زاوية واحدة فقط هي انني صحفي اتشرف بالانتماء الى مهنة القلم التي وان كنت قد تعلمتها في بلدي الاسير الضائع ومارستها في اكثر من بلد عربي واحد الا انني لم احقق بها امجاد الشهرة ولم اخدم بها اغراض الوطن الا من خلال مصر وحدها! وكما انني افخر بانتمائي المطلق الى بيت المقدس، فانني افخر كذلك بانتمائي الفكري والادبي الى دنيا مصر. وانني لا اعرف فلسطينيا آخر ولا

حتى في سوريا أو في لبنان حمل شرف الفوز بمنصب احد رؤساء تحرير جريدة ثورة ٢٣ يوليو سواي . تلك الجريدة التي كان صاحب امتيازها المرحوم «جمال عبد الناصر حسين» وكان من زملائنا في رئاسة التحرير اقطاب الادب والفكر كطه حسين وصلاح سالم وكامل الشناوي واخيرا لا آخرا الرئيس الحالي انور السادات !

من زاوية قلقي وحيرتي بين القدس والقاهرة، ومن زاوية حبي وتعلقي بفلسطين ومصر، ومن زاوية حرصي على عروبة مصر والمي من كل من يحاول سرقة هذه العروبة او نزعها او اخفائها او طمسها . . من هذه الزوايا كلها سمحت لقلمي ان يكتب كلمة وداع لبعض الاقلام التي كانت الى الامس تملأ صفحات بعض الجرائد العربية خارج مصر الى ان جاء امر السادات بكسرها، وكانت عروق الشرايين التي تنقل الدم من مصر الى العرب ثم تعيده من العرب الى مصر، فجاء حكم السادات يأمر بقطعها! لقد كانت تلك الأقلام ـ ولست موكلا للتغني بأي اسم من أسماء اصحابها الزملاء السابقين ـ تحمل في سطور ما تنشره خارج مصر بعض امجاد مصر وبعض كنوزها وبعض اخبارها، بل كانت تنشر بعض مصر نفسها! أليست هذه اولى واجبات الصحفي الكاتب المتمكن في كل ما يكتبه عن البلد الذي يكتب منه؟ اليس هذا بالامر الطبيعي بالنسبة لكل صاحب قلم يريد ان يملأ اعمدة الصحف بالحديث عن اخبار بلده وتاريخه وحاضره وافكاره وأسراره وحوادثه؟ حتى ولو جنح بعض هؤلاء الصحفيين الى المعارضة او النقد في بعض ما كان يكتبه. اليس النقد هو الجانب الاخر للحقيقة وللخبر معا؟ اليست الحقيقة هنا هي مصر واليست المعارضة هنا هي مصر ايضا؟

اذن فان مصر الخبر والحقيقة والمعارضة هي التي خسرت!

● ترى ماذا عن مصر الموقف او مصر الرأي؟ .

هنا، تكون الخسارة اوسع وأكبر ! فقد كانت صحافة مصر الى الامس القريب تغزو السوق العربية وتنفذ الى قلب القارىء العربي . ثم جاءت نكبة كامب ديفيد واحتجبت تلك الصحف عن معظم الاسواق العربية . وبقي معظم الكتاب المصريين الذين استطاعوا القفز من فوق الاسوار ونشر انتاجهم واخبارهم في بعض الصحف غير المصرية خارج مصر . كان هؤلاء بمثابة بقية البقية من طيب رائحة

مصر الغالية ومن ثمر أشجارها وزهر ليمونها ولحن اغانيها وماء نيلها!

كانت مقالاتهم تذكر العرب على الدوام بمصر العزيزة وتحمل لهم منها الشذى الاصيل الحلو القادر على ان يخفف من لوعة الخلاف او يقلل من ألم الفراق او يعزي عن اوجاع الانقسام! كان كل مقال قادم من ارض مصر عبر اية صحيفة تصدر في الكويت أو أبو ظبي او الجزائر او بيروت بمثابة رسالة غرام بعثت بها مصرالام الى اولادها العرب في الخارج. . !

ثم كان ما كان، وأسدل السادات ستار القطيعة الكاملة!

● عجبا! هل اراد رئيس مصر أن يقابل المقاطعة بالمقاطعة، وأن يرد القطيعة بالقطيعة وأن يثبت بنفسه بأن قرار العرب بمقاطعته كان قرارا حكيما وعادلا بدليل انه قد عمد بذاته الى نفس الاسلوب عندما أراد ان يعاقب العرب فأمر رجال صحافته بمقاطعة صحفهم؟!

● وبلا كلمة وداع واحدة غابت اقلام مصر عن معظم صحافة العرب بأمر من انور السادات.

وعدت الى ذكرياتي عن صحافة مصر في اوائل الاربعينات. كنت اتسلل صغيرا الى دار الاهرام وادخل على سهرة الدار الادبية والسياسية وأجتمع الى رجال عمالقة كبار كأنطون الجميل ومكرم عبيد والعقاد واسماعيل صدقي وعبد الجليل ابو سمرة وكامل الشناوي، والشاعر محمد الاسمر والكاتب الألفي عطية والخطيب توفيق دياب والمفكر توفيق الحكيم والموسيقار محمد عبد الوهاب ثم هناك احمد حسين وأم كلثوم وأحمد سالم ومحمد التابعي . . . وغيرهم وغيرهم. وكان الحديث يومها عن الحرب العالمية وعن الالمان في العلمين وعن ارهاب اليهود في فلسطين. وكان انطون الجميل رئيس تحرير «الاهرام» يشجعني للحديث عن قضايا بلدي فلسطين، ويفتقدني اذا غبت ويسألني اذا سكت، وعندما تنتهي الجلسة مع مطلع الفجر، كان رحمه الله يهمس في اذني: «تعال للاهرام غدا وتعال للاهرام في كل مساء، لانني أريد من فلسطيني مثلك ان يتحدث لهؤلاء الكبار المصريين عن أسرار قضية بلدك ومشاعر أهلك. . ؟

ثم يكمل بهمس:

ـ نريد ان نكسب مصر لجانب لبنان ولجانب سوريا ولجانب فلسطين! انهم يسموننا هنا «بالدول الشرقية»، لا فرق عندهم بين موقع القدس وموقع دمشق، او مشكلة اليهود ومشكلة الاقباط مثلا، فالكل عندهم سواء، وليس هناك سوى عدد قليل من المصريين الكبار المهتمين بالحركات العربية خارج مصر ومنهم فؤاد أباظة ومحمد علي علوية وحسن البنا وصالح حرب وهو عدد غير كاف بالنسبة للملايين. . . ! »

هكذا كانت بداية حياتي الصحفية مع مصر! فقد دخلتها من باب قضية بلدي مدفوعا بعزم مطلق وارادة مجنونة ان اكتب في صحفها عن بلدي وان اتحدث لاهلها عن بلدي وان اكسب عمالقتها لصالح بلدي. هكذا كان حالي ايام فاروق. وهكذا استمر حالي ايام عبد الناصر. وهكذا بقي مفهومي للمهنة وللصحافة كلها وانا اودع مصر بعد حياة لم تكن قصيرة ولاجافة ولا عديمة الفائدة.

● اريد ان اقول بأن الصحفي الملتزم بقضايا بلده يصبح اكثر الناس قدرة وفائدة على خدمة القضايا في خارج بلده. عندما يتصل بصحف الخارج ويحتل مكانه على صفحاتها. . .

ترى، أليست الخسارة هنا مساوية في حجمها للنفع عندما ينقطع الصحفي عن الكتابة خارج الحدود؟.

هذا بالضبط ما جرى لبعض زملائي السابقين واصدقائي من الصحفيين المصريين وما اصاب قضايا بلدهم العزيز نتيجة لما آصابهم!.

الا يخسر البلد الواحد عندما يخسر ابناءه ثم الا تتقدم خدمة المواطن لوطنه عندما يسكت ذلك المواطن عن الكلام لصالح بلده؟.

أليس شوقي هو القائل وبفخر ولغاية جليلة كان يصبو اليها دوما:

كان شعري الغناء في فرح الشرق
وكان العزاء في احزانه؟

أليس هذا بالضبط هو ما دفع جمال عبد الناصر الى فتح محطة صوت العرب في عام ١٩٥٣ لكي تحمل صوت مصر العربي الى العرب قبل ان تحمل اذا استطاعت- صوت العرب الى شعب مصر؟.

● أليست الصحافة المصرية هي التي فجرت الثورات العربية في سوريا والعراق والجزائر واليمن وباعتراف اصحاب تلك الثورات انفسهم. لقد سمعت بأذني عبد السلام عارف يقول لجمال عبد الناصر في مبنى قصر الضيافة بدمشق في عام ١٩٥٨:

ـ قام جيش العراق بثورة ١٤ يوليو بفضل مقالات محمد التابعي في مجلة آخر ساعة!.

● هل نسي الرئيس السادات اول قرار اصدره الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بعد اعلان الوحدة بين مصر وسوريا؟ كان ذلك القرار يأمر بفتح صفحات جميع صحافة مصر امام الصحفيين السوريين للكتابة فيها!.

● ترى، لمصلحة من اغتال انور السادات اقلام مصر ومنعها من الكتابة في صحف خارج مصر ؟.

والجواب قطعا ليس لمصلحة مصر! ليس في مصلحة مصر صدور اجراء يتنافى مع كل عقل ويتعارض مع كل منطق ويختلف عن كل ما اعتادت الدول أن تسعى اليه في الجري وراء غيرها من الامم وغزو غيرها من الافكار والاراء خارج حدود بلدها؟

اني افكر فيما هو اكبر واثمن عندما افكر في حقيقة رسالة مصر الى العرب واسلوب ايصال هذه الرسالة واسباب رفعها وعناصر الحفاظ عليها قبل ان اشغل نفسي بالتفكير في مستقبل الصحافة في مصر وانقاذها من مأساتها.

ان من عادة الدول الكبرى ان تبعث بكبار كتابها ورجال الصحافة والفكر فيها الى مختلف دول العالم لكي يحملون الى خارج الحدود قضايا بلادهم وافكار امتهم. من اجل هذا تأسست الاذاعات والبرامج العالمية الخارجية. ومن اجل هذا جاءت واقيمت المهرجانات الادبية والسياسية والدولية في العالم وهرعت الدول للاشتراك فيها وساهمت بالتكاليف. ومن اجل هذا يتمنى الصحفي البريطاني ان ينشر انتاجه في صحف نيويورك ويتمنى الصحفي الفرنسي ان ينشر في صحف المانيا والدول الاسكندنافية. اما حكام مصر بعد «كامب ديفيد» فقد كان لهم في الموضوع رأي آخر يتلخص في عبارة واحدة: مصلحة الحاكم تأتي قبل مصلحة الوطن. واذا

كان في مساهمة الصحفي المصري في الكتابة خارج الحدود ما يخدم مصر ولكنه قد يسيء الى الحاكم فان مصلحة الحاكم تأتي أولا وعلى الصحفي المصري المذكور ان يذهب الى الجحيم. . . !»

في الماضي القريب كان محمد التابعي رحمه الله يهاجم كميل شمعون اللبناني في صحف دار الصياد اللبنانية من مصر وفي بيروت على السواء. كان يكتب في صحف اخبار اليوم وفي صحيفة الانوار مهاجما معارضا بلا حدود. ولم يتدخل كميل شمعون لكي يطرد سعيد فريحة من نقابة الصحفيين اللبنانيين ولم يتهمه بأنه يعمل لحساب مصر ضد وطنه لبنان. . . !

قلت لهم : وداعا يا زملاء القلم ورفقاء المهنة وشركاء المتاعب . . . !

فقد نعود ونلتقي قريبا عندما ينتهي هذا الليل الطويل وتعود مصر العزيزة الغالية الى ثورتها والى اهلها والى عروبتها وتعود ايضا اليها والينا صحافتها !

قلت لهم : ودعاً يا زملاء الأمس الى ان تتكشف حقيقة الحاكم الذي قطع أوتار القلب بين مصر والعرب وتعرف اميركا بالذات من هو انور السادات ، وأية مصيبة يمثلها هذا الرجل على مسرح السياسة العربية والسياسة العالمية !؟ هذا النكتة التي تسير على قدمين. . حكمه كحكم قراقوش ، وخطبه كخطب جحا ، وكلامه ككلام «علي الكسّار» وأدواره كأدوار أبطال «الريحاني» في رواياته بمسرح «عماد الدين» ! رجل يكذب، وينافق، ويدجل ويفتري! وأنه أمام اسرائيل واميركا، رجل بلا كرامة وبلا حياء. . و مصر العربية الغالية بسبب أنور السادات، قد أصبحت معزولة عن كل مؤتمر عربي، وكل مؤتمر اسلامي ، وكل جامعة عربية، وكل جهد عربي مشترك! ان السودان- أقرب حليف للسادات ، قد تبرأ منه! وأن «الجنة الاقتصادية» التي وعدها السادات لشعب مصر انما كانت كذبة كبرى من أكاذيبه لم يدخلها سوى «عثمان عثمان» وأقارب السادات وأفراد أسرته واصهاره ! وان الفضائح المالية تزكم الأنوف، والفضائح الأخلاقية تذهب العقول ! وأن السادات ليس «عبد الناصر» لا في أخلاقه، ولا في نزاهته ولا في انصاره خارج حدود مصر!

● في الماضي ـ ومنذ ان قامت ثورة ٢٣ يوليو ـ كنا نرى صور جمال عبد الناصر وهو

يلقي خطبه في ميدان عابدين بمصر ـ او المنشية بالاسكندرية او في بور سعيد وقد جلس الى يمينه او يساره زعماء كعبد السلام عارف، او شكري القوتلي، او شارل حلو، او الامير فيصل بن عبد العزيز، او احمد بن بيلا، او محمد احمد محجوب، او المرغني، او الامير البدر، او السلال، او القذافي، او نفر من زعماء لبنان، او وفد من ثوار كوبا، او نهرو، او تيتو او شوان لاي، . . . فاصبحنا اليوم نرى السادات ـ خليفة عبد الناصر ـ يخطب في الاسكندرية والى يساره مباشرة، يجلس «صول لينوفتش» اليهودي الاميركي المبعوث لانقاذ حمامة السلام من سكين مناحيم بيغن. !

وكنا في الماضي نسمع عبد الناصر يقول لمراسل النيويورك تايمز يوم ٦ اكتوبر عام ١٩٥٥ بعد ضرب «غزة» بقنابل اليهود: لقد فرح بن غوريون لانه قتل ٢٩ من رجالنا في اعتدائه على «غزة» واني اعرفه ان الحادث لم يثِرْ الخوف في نفوس المصريين بل انه فقط دق ناقوس الخطر. .

ثم عاد وقال «للنيويورك بوست» بعد ذلك بأسبوع واحد:

«ان النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة يقف حائلا بين العرب والاميركيين وان كل فرد في الدول ليشعر بان جميع الجهود التي يبذلها العرب في الولايات المتحدة ستذهب سدى لسبب هؤلاء الصهيونيين. !»

● وعندما اوشك ان يصاب باليأس قال لاميركا في ٢٨ يوليو سنة ١٩٥٩ بمناسبة مرور نصف قرن على طرد الانجليز من «رشيد»:

«. . . اريد ان اسأل هؤلاء الذين تكلموا عن حرية الملاحة في قناة السويس. . . اريد ان اسأل اميركا مثلا وهي عضو في لجنة ثلاثية من اجل حقوق شعب فلسطين وعودة شعب فلسطين الى بلاده. هذه اللجنة تألفت في سنة ١٩٤٨ وموجودة حتى الان: هل يستطيع وزير خارجية اميركا ان يقول لنا ما الذي عمله بهذا الخصوص؟ ما الذي قدمته لنا اميركا من اجل حقوق شعب فلسطين وعودة شعب فلسطين الى بلده. ؟ ان كلمات اميركا عن اللاجئين الفلسطينيين لا يمكن باي حال من الاحوال ان تعبر عن الحق والعدل. . ».

● وعندما اصابه القرف من اميركا قال للعمال العرب في ٧ مايو عام ١٩٦٠ :

«. . اليوم نرى اميركا وهي تسلح اسرائيل فلا يمكن لنا ان ننسى هدفها من ذلك. هدفها من هذا هو حريتنا وارادتنا وقوميتنا واستقلالنا».

«لقد طالبنا اميركا منذ عام ١٩٥٢ بان تمدنا بالسلاح وكانت هناك اتفاقية وقعت بين مصر واميركا قبل الثورة. ولكن اميركا رفضت ان تمدنا بقطعة واحدة من السلاح لانها تعلم ان السلاح هو سلاح نحمي به استقلالنا. لقد قامت بعض الاصوات في مجلس الشيوخ الاميركي لتفضح عملاء الصهيونية. ولكن هذه الاصوات بقيت ضعيفة لان الصهيونية في اميركا تستعبد الشعب الاميركي وتخضع اميركا وتجعل من نفسها قوة فوق دستور اميركا. ! انا اريد من مجلس الشيوخ الذي يتكلم عن حرية الملاحة في قناة السويس ان يتكلم عن الحرية اجمع. . في جميع بلدان العالم. . في الجزائر وفي فلسطين وفي القارة الافريقية! اننا لن نخضع لاميركا ولن نخضع للصهيونية باي حال من الاحوال لاننا نعلم ان لنا كرامة ندافع عنها ولنا حرية نبذل من اجلها الدماء لندافع عنها. . وانني على استعداد لان اعطي الشعب المثل الكبير كيف يحمي الشعب المصري الصغير حريته وكيف يحمي استقلاله. !».

وقال في «مهرجان الشباب» يوم ١٩ اكتوبر عام ١٩٦٠ :« نحن العرب شعب كبير. . . اكبر مما نظن. »!

وقال في ديسمبر من نفس العام: «يقولون ان اسرائيل تصنع القنبلة الذرية، وردنا على هذا ان هذا الكلام يزيد العرب اصرارا على التمسك بالقومية العربية والوحدة العربية. واذا صنعت اسرائيل هذه القنبلة وبرهنت على مقدرتها في هذا الميدان، فاننا سنلحق بها وسنبرهن عن مقدرتنا في صنعها. »!

ثم كتب رسالة سرية مستعجلة للرئيس جون كيندي في ١٨ اغسطس في عام ١٩٦١ قال فيها بالحرف:

« . . . ومن سوء الحظ يا سيادة الرئيس ان الولايات المتحدة قد وضعت ثقلها كله في غير جانب العدل وغير جانب القانون في هذه القضية الفلسطينية مجافاة لكل مبادىء الحرية والديمقراطية وكان الدافع لذلك ـ مع الاسف ـ هو اعتبارات سياسية محلية لا يتصل بالمبادىء ولا بالمصلحة على مستواها العالي! ولقد كانت محاولة اكتساب الاصوات اليهودية في انتخابات الرئاسة هي الدافع المحلي، ولقد قرأنا

لاحد السفراء السابقين في المنطقة ان سلفكم المستر هاري ترومان لما القى بكل قوته ومن بينها بالطبع قوة منصبه الخطير على رأس الامة ـ ضد الحق الواضح في مستقبل فلسطين، لم يكن له حجة ازاء الذين لفتوا نظره من المسؤولين الاميركيين الى خطورة موقفه غير قوله:

«هل للعرب اصوات في انتخابات الرئاسة الاميركية؟!»

واخيرا، وعندما وقف عبد الناصر لكي يفسر لماذا دعا اقطاب العرب الى اجتماع ٢٣ ديسمبر في عام ١٩٦٣، قال في بورسعيد عن اميركا:

«.. احنا بنقول لامريكا انه لايمكن ان يقوم سلام الا السلام القائم على العدل. اما السلام الذي يتحدثون عنه فهو سلام القراصنة الذي لانقبله. سياسة امريكا لم تتغير رغم ان البعض يقول بانها تغيرت ابدا! السياسة الامريكية منذ سنة ١٩٤٨ وباستمرار وحتى اليوم هي تأييد اسرائيل واقامة اسرائيل وسلامة وقوة اسرائيل على حساب العرب واحنا «بنبص» لاسرائيل على انها قاعدة عدوانية استعمارية عنصرية قامت بالقوة القاهرة على حساب العرب. !»

هذا ما كان يقوله عبد الناصر عن اميركا وعلاقتها باسرائيل وبالعرب منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو الى قيام حرب الايام الستة..

وتمضي الايام.

● ويموت عبد الناصر..

ويتكلم بعده خليفته انور السادات عن نفس الموضوع ونفس العلاقة فاذا به يقول لاساتذة الجامعات بالاسكندرية مساء يوم الاربعاء الثالث من شهر ايلول ـ سبتمبر لعام ١٩٨٠ وبالحرف:

«واقع الحال ان السياسة الاميركية قد اختلفت تماما عن ذي قبل!؟»

ثم قال: الولايات المتحدة زي ما احنا كلنا عارفين اقوى دولة واغنى دولة في عالم اليوم!!»

ثم قال: كل ما فعله العرب في الصراع العربي الاسرائيلي هو انهم على مدى عشرين سنة «بيدوا» لاسرائيل الفرصة وراء الثانية وراء الثالثة لكي تتعقد الامور»...!!

ثم قال «الصراع بيننا وبين اسرائيل له طبيعة خاصة، بصراحة وببساطة قالت لنا الاحداث. القوتين العظميين قالتا لنا لامساس باسرائيل».

ثم قال «انا احارب اسرائيل لكن ما احاربش اميركا ابدا يعني ما اوصلتش الى العته».

ثم قال «لاخوانه» العرب بلاش ندفن راسنا في الرمال مع اخواننا القادة العرب هذا كل ما اطلبه وبلاش انفعال لقد رفعنا لهم للعرب اسعار البترول عشر مرات. برميل البترول كان بثلاثة جنيه، بثلاثة دولار. النهارده برميل البترول بـ ٣٠ دولار يعني تضاعف عشر مرات واكتنزت خزائنهم بالذهب، الذهب ده جاء في اليوم العاشر من معركة اكتوبر. ! » .

ثم قال لزعماء وقادة العرب:

- «ربنا يبارك بار باحهم من البترول اذا كان ده حلال اما اذا كان حرام يحاسبهم بقى وشعوبهم تحاسبهم على نصيب الشعوب في هذه الثروات اللي تبدد في مؤامرات!!»

● ثم قال عن السوفيات وعن اميركا بالحرف:

● «مفهوم ان العناصر اليسار لازم تكون منفعلة لان علاقتنا بالسوفيات ليست على مايرغبوا هم. بكل الصدق انا بحط قدامكم الصورة مجردة من كل رتوش: علاقتنا بالولايات المتحدة ممتازة! آه! نعم. . ليه؟ والله يعني العقل والمنطق ولغة العصر ومصالحنا كلها بتطلب انه في تناول علاقتنا بالعالم الخارجي، انه كل من يقف الى جانبنا لازم نقدره ونقف الى جانبه وكل من يتخلى عنا بنقول له مكانك اسفين، على ان يكون كل هذا واضحا امام الشعب بتفاصيله. علاقتنا كويسة مع اميركا ليه؟ علاقتنا ساءت بأميركا بسبب اللي عملوه بعد الحرب العالمية الثانية. اذا تغيرت هذه السياسة هل من المفروض ان ننفذ معاها ام لا؟ يعني هل نغير طريقة تناولنا لها ام لا؟ اذا كان هناك شيء لمصلحتنا؟ العقل يقول كده والعلوم اللي في السياسة وفي الاقتصاد تقول كده اذا مد انسان لك يد الصداقة والمصافحة نظيفة لازم تاخذها! لا احد وصي علينا لكن اميركا تغيرت! . . سياسة اميركا تغيرت من استعمارية وكذا . . وكذا . . والكلام للسادات الى صداقة ند لند وعلى نفس المستوى وتمد

يدها، امد لها يدي او لا امدها، مديت لها يدي لان في هذا مصلحة مصر!».

● ثم قال لافض فوه بالحرف الواحد:

«اميركا مش واقفة جنبنا لا.. اميركا دخلت طرف اساسي لتقول كلمة الحق علينا وعلى غيرنا وانا مش عايز اكثر من كده اميركا الطرف الوحيد الذي تسمع له اسرائيل لانه خط الحياة بيروح بين اميركا واسرائيل زي ما قلت لكم قبل كده اذا اجتمع العالم كله مجلس امن وامم متحدة واتخذ اي قرار ضد اسرائيل فان هذا لايهمها وتقول ولا حاجة لكن، لما اميركا تقول لها تعالي يا اسرائيل اعملي كذا بتفكر اسرائيل مرة واثنين وعشرة ليه لانه خط الحياة رايح من هناك طب اذا كان هذا هو موقف اميركا انا اتجاهلها ازاي خصوصا اذا جت ومدت يدها لي وقالت انا اقف في الوسط لا معاك ولا معاه واقول الحق ده اللي انا عايزه اخوانا العرب تعبوا اعصابهم في السنتين اللي فاتوا. كيف «يجوعوا» الشعب المصري واحنا رفعنا لهم البترول عشر مرات قعدوا يقدحوا ذهنهم ازاي يجوعوا مصر والله اميركا بتقدح ذهنها ايضا كيف تساعد مصر بدون مقابل ؟!! مين يدافع عن افغانستان وباكستان الا اميركا. وعن ايران، مين حيدافع عن الخليج العربي الا اميركا ؟!! وبعدين انا مش منافق وما اعطيش تسهيلات لاميركا في السر واجي في العلن اقول ابدا زي السعودية ما بتعمل طيب كلنا عارفين اية الأرض السعودية وكل يوم بتطلع من السعودية بيانات رسمية من أكبر المسؤولين فيها انه لن نعطي تسهيلات ولن نعطي قواعد ولن ولن طيب كلنا عارفين اية اللي هناك كلنا عارفين!!»

ثم انهى «اعزه الله» كلامه عن اميركا قائلا بالحرف:

«انا اللي اجري ورا اميركا في عرضك تدافعي عن العالم العربي والاسلامي لانه الوضع المؤسف لنا كعرب النهارده تقدروا تحسوا به من مجمل اللي بيجري في الامة العربية النهارده شرقا وغربا وشمالا وجنوبا باستثناء بلد واحد عايش اسمه مصر! اما بالنسبة للعلاقات بيننا وبين اسرائيل انا مش مستعد برضه اعمل زي اخواننا ـ العرب ـ واتشنج..!!!»

فقط لا غير. هكذا كان يتكلم ويخطب رئيس اكبر واخطر دولة عربية في أخطر مرحلة سياسية مرّ بها التاريخ العربي!

● تشتمه اسرائيل فيقوم هو يشتم العرب والمسلمين .
● يؤنبه مناحيم بيغن ويرسل اليه ردود التوبيخ والتصحيح والتحذير فيتولى هو تأنيب العرب والمسلمين شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . .
● ترغمه اميركا على الركوع والاستسلام والعودة الى مائدة المفاوضات المهينة مع اسرائيل فيقوم بشتم السوفيات والتغني باميركا!
● يقترف العمل المنحرف البعيد عن كل معاني الوطنية ثم يشتم كل من هو وطني بدعوى انه خيالي!
● يتبرع بالدعاية لاميركا ويبايعها بالزعامة على العالم وييأس امام اسرائيل وينادي بان لاحل الا بالركوع والاستسلام ويغسل يده من السوفيات لانهم ضده ويصور الخيانة على انها واقعية وينبش صفحات الماضي لكي يبرر بها اثامه في الحاضر ويزور الحقائق ويشوه التاريخ! مرة اخرى اليس السكوت العربي والافلاطونية السياسية التي تتبناها وتمارسها بعض الدول العربية وما اكثرها هي كل السبب في تشجيع ذلك الرئيس المصري على الادلاء بمثل هذه الاقوال في مثل تلك الايام حول مثل هذه القضايا؟!

اليست سياسة اللامبالاة والنفس القصير والصمت الرهيب والتأدب غير الضروري والسماحة التي لامعنى لها ولا مبرر، والعجز الواضح في الكثير من المواقف هو الذي دفع وسمح وشجع على ظهور مثل هذه الاراء من مثل هؤلاء الناس!

● صدور مثل هذا الكلام هو الذي شجع الرئيس الاميركي جيمي كارتر ان يسعى الى مسقط رأس الرئيس الاميركي المتوفي هاري ترومان الد اعداء العرب في تاريخهم الحديث واخلص انصار الصهيونية منذ عهد هرتزل لكي يضع فوق قبره الزهور ويجتمع بارملته ثم يقارن بينه وبين ترومان في السياسة والانطلاق . !
● ومثل هذا الكلام ايضا وايضا هو الذي شجع امثال النائبة الاسرائيلية «المحترمة جدا» واسمها جئولا كوهين لكي ترسل رسالة مستعجلة الى وزير خارجيتها الارهابي السابق «اسحق شامير» تطلب منه فيها ان يصدر تعليماته الى سفير اسرائيل في القاهرة بعدم الاشتراك في الاحتفالات ومسيرات النصر التي أقامتها مصر في

السادس من شهر اكتوبر بمناسبة ذكرى حرب اكتوبر. وقالت جئولا كوهين في رسالتها البرقية الى وزير الخارجية انها توجهت اليه بهذا الطلب ازاء انباء بلغتها «تبعث على القلق» ومفادها ان سفير اسرائيل في مصر يعتزم في حال دعوته، الاشتراك في الاحتفالات المصرية! كما ان هذه النائبة «المحترمة جدا» قد طلبت من وزير الخارجية الاسرائيلي ان يوضح لسفير مصر في اسرائيل بان الشعب الاسرائيلي ينتظر منه قدرا كافيا من الشعور والمراعاة مما يحول بينه وبين اقامة احتفالات في السفارة المصرية في اسرائيل بمناسبة ذكرى حرب مازالت اثارها المؤلمة حية في نفوس الاسرائيليين!!

● ومثل كلام السادات ايضا وايضا يتفق مع جرأة بل وقاحة الرغبة التي تقدم بها الرئيس «نافون» رئيس جمهورية العدو الاسرائيلي في عام ١٩٧٩ خلال مقابلة للسفير المصري في اسرائيل وابلاغه موافقته على تلبية دعوة السادات له لزيارة «ارض الكنانة» ثم اردف الرئيس الاسرائيلي قائلا للسفير المصري:

«سأقوم بالزيارة لارض الكنانة في النصف الثاني من شهر تشرين اول بعد انتهاء الاعياد الاسرائيلية الدينية مباشرة ولكني امل ياسعادة السفير ان تسنح الفرصة لرئيس الوزراء السيد مناحيم بيغن لالقاء خطاب في مجلس الشعب المصري!!»

● ومثل هذا الكلام ايضا يفسّر ويبرر الوقاحة التي صدرت عن وزارة الخارجية الاميركية عندما رفضت تزويد العراق بخمس طائرات ركاب اميركية من طراز بوينغ ٧٢٧ وعللت ذلك:

«نظرا للدعم الذي يقدمه العراق «لمنظمات ارهابية» ونظرا لموقف الكونغرس الاميركي الذي يقضي بعدم التعامل مع جهات لها ضلع في اعمال «ارهابية» فان وزارة الخارجية قد ابلغت شركة بوينغ بعدم موافقتها على تزويد دولة العراق بهذه الطائرات الاميركية»!

● ومثل كلام السادات ايضا يفسر ويشجع الموجات الاجرامية في الهجمات الاسرائيلية الحربية الشرسة على معسكرات اللاجئين الفلسطينيين في جنوب لبنان وعلى طول الشاطىء اللبناني برا وبحرا وجوا باسلحة اميركية وطائرات اميركية وقنابل عنقودية اميركية!

كل هذا جرى في اسبوع واحد من شهر واحد من عام واحد من تاريخ العرب!

كل معاني التحدي والعداء الاميركي مع كل معاني الصلف والتعصب والاجرام الاسرائيلي مع كل معاني الانحراف والاستسلام وتزوير الاحداث والافتراء على الاموات والاحياء وتشويه الصور الوطنية والمناداة بضرورة رفع الايدي من رئيس مصر كلها في اسبوع واحد!

ثم لايجدون من هو قادر على ان يقول لهم للثلاثة معا:

لا !

ان ضياع القدس كلها لم يمنع زعيم عربي مصري ان يستأنف المفاوضات مع العدو الذي بغى وتجبر وطغى وتكبر وفسد في الارض وملأ الدنيا شرورا وعدوانا فاذ بهذا الزعيم ـ واعني به السادات ـ بعد ان فرح العرب بتجميد المفاوضات المأساة وبفضيحة اسرائيل الهائلة امام العالم الخارجي بسبب «القدس» وقرارات ١٣ دولة لاتينية واوروبية بنقل سفاراتها من القدس الى تل ابيب وبموقف يهود اميركا غير الودي من سياسة مناحيم بيغن وبخطاب المستر «جاكسون» اقوى مناصري اليهود في الكونغرس ضد سياسة مناحيم بيغن حول القدس والمستوطنات وبالهزة الهائلة المدوية في صفوف الاحزاب السياسية وبقرار تركيا اغلاق قنصليتها في القدس الشرقية والقدس الغربية على السواء وبموقف سويسرا في رفضها اجراء مراسيم التوقيع على اتفاقية اقتصادية مع اسرائيل في مدينة القدس والاصرار على ان يجري التوقيع في تل ابيب وحدها. اقول، لم نكد نشعر بخيط سعادة رفيع واحد يظهر من بين سحب الظلام الداكنة المتجمعة فوق منطقة الشرق الاوسط بسبب الطمع والجشع واللؤم الاسرائيلي حتى بادر الرئيس انور السادات بنفسه الى اعلان تراجعه عن موقفه ونسف كل ما قاله في السابق وتجاهل كل نصائح مستشاريه ووضع الى يساره المستر «صول لينوفيتش» والقى خطابه وجعل منه حملة الردح والتشليق والسب المفضوح ضد اخوانه العرب الذين قد يأخذون عليه استئناف مبادرته السياسية بعد ضياع اغلى المدن واعز المقدسات فبادرهم بالهجوم وسبقهم الى الاتهام وانفرد بهم واحدا واحدا وارغمهم على التزام الصمت الرهيب فلا يكاد يرد عليه احد ولايكاد يذكر اسمه احد واذا ردوا عليه لم يسموه واذا سموه دعوا الله ان

يهديه واذا ذكروا اميركا تناسوا عن عمد اسم رئيسها واذا هاجموا الولايات المتحدة لم ينسوا ان يهاجموا الاتحاد السوفياتي بسبب افغانستان.

ان الاسلوب العربي «المؤدب» في معالجة مثل هذا الفسق السياسي والعهر الفكري لم يعد مصر ولا غير مصر الى الحظيرة العربية ولم يقنع اميركا بالضغط على اسرائيل او بالتخلي عنها! ابدا! مطلقا! ان مثل هذا الاسلوب قد أدى فقط الى نتيجة حتمية واحدة جعلت من العرب كلهم لاقدر الله مجرد «ساداتيين» مارقين راكعين مستسلمين.

وقديما قيل: لقد اكل الفاجر مال التاجر. ! ».

لان التاجر كان ناعما مؤدبا يعيش بين اليخوت ويلهو في اوروبا ويقتني القصور على شواطىء فرنسا ولان الفاجر هو الفاجر!

وسلام على الحياء المرهف والادب الجم والدبلوماسية الناعمة وزعماء وقادة ومسؤولين يمارسون لعبة النضال السياسية كما يمارسون لعبة: الحب!

وبعد..

لقد قرر السادات ان يتنكر لعبد الناصر ويفتح ابواب مصر، كلها، امام الولايات المتحدة الاميركية مهما كان الثمن بخساً او رهيباً!

ولكنه ـ اي السادات ـ قد ادرك ولو مؤخرا ومتأخرا ـ انه لم ينجح في اعادة اميركا وحدها الى منطقة الشرق الاوسط وانما اعاد معها الاتحاد السوفياتي ايضا! وعندما فتح السادات ابواب مصر امام اميركا، عقدت سوريا اتفاقية الصداقة مع السوفيات! وقالت جريدة «التايمس» اللندنية «لا احد يفرح لهذا التفتت العربي! لا احد يريد ان يرى السوفيات واميركا تتسللان الى المنطقة نتيجة الخلافات العربية! قد تقول اميركا ان الخلافات العربية قد اعادتها الى الشرق الاوسط؟ ولكن هذه الخلافات قد جاءت ايضا بالسوفيات الى قلب «دمشق»، والى طرطوس واللاذقية. ! هكذا، ولو متأخرا ومؤخرا، ادرك السادات ان الغرب لا يشعر بالكثير من السعادة بسبب هذه التفرقة التي تسود المنطقة مع هذا الصراع بين الاشقاء العرب!. وهكذا ـ ايضا انطلق السادات لكي يؤكد براءته من مسؤولية هذا الشيء مؤكدا بأن مصر ليست هي التي قتلت التضامن العربي او خلقت الفرقة

العربية . . ! . لسان حاله ينادي : «انا مظلوم يا عالم . ! انا بريء! انا لم افعل شيئا!» .

ثم وقف انور السادات على ميكروفونات بلده لكي ينادي بأعلى صوته :

ـ تعالوا لي يا عرب! . تعالوا الى مصر . . ! .

ويعرف انور السادات ان العرب كانوا معه وانه «هو» الذي تركهم وذهب لاسرائيل . . .

ويعرف السادات ان«عربيا كبيرا»ذهب اليه في الاسكندرية قبل سفره الى كامب ديفيد وقال له باختصار شديد: «لا تفرط بالقدس، ولا بالمنظمة، واضمن انسحاب العدو من الضفة، ونحن معك»! .

وذهب انور الى كامب ديفيد وتنازل عن القدس، والمنظمة والضفة! وعندما غضب عليه العرب، غضب السادات لان العرب غضبوا عليه . . ؟!

وفتحوا له الف باب يخرج منه قبل ان يوقع على كامب ديفيد ولكنه رفض واصر على ان يوقع ! . .

وفتحوا له الف سبيل يعود منه الى العرب بعد توقيعه على كامب ديفيد. ولكنه رفض واصر على ان يبقى حيث هو وان يأتي العرب الى . . كامب ديفيد! .

ثم قالوا له: «احصر همك في امور بلدك وحدها واترك قضية فلسطين لاهلها؟» . ولكنه اصر على ان يكون الفلسطيني الاول، والوصي الوحيد على قضية فلسطين! .

● وقيل له: على مهلك! ولماذا هذه العجلة في التطبيع وتوزيع القبلات وقبول الزيارات وفتح الصدور والحدود والاشادة بالعدو، والتغني بأصالة ونزاهة وعبقرية الدولة التي قتلت لمصر مائة الف شهيد واحتلت ارضها وتآمرت على قادتها وشوهت سمعتها ودنست ترابها؟؟ ولكنه اصر على ان يركب رأسه، وان يفتح صفحات جرائد بلده امام انتاج «شمعون بيرس» وابا ايبان وان لايودع «بيغن» الا لكي يستقبل «نافون»، وان لايرى في موضوع قرار ضم القدس الا مناسبة للتهجم على العرب والمسلمين في مؤتمر ـ فاس ـ وان يعيد للنفوذ اليهودي والمال اليهودي وجودا وسيطرة في ارض مصر، وان يتم الزواج الكاثوليكي بين مصر واسرائيل على كافة

مستويات السياحة والصحافة والتجارة والصناعة والخبرة، واستيراد. . البيض واللحوم.

● قيل للسادات: خذ في حسابك ان تفشل مفاوضاتك مع اسرائيل حول موضوع الحكم الذاتي والقدس، وتعال نتفاهم معك على الخطوة التالية؟ فأجاب السادات بأنه، حتى ولو فشلت مفاوضاته مع اسرائيل، فان ذلك لن يؤثر في الامر شيئا، وانه سيبقى صديقا لاسرائيل، وفيا لكامب ديفيد مؤمنا بالتحالف مع تل ابيب، ساعيا للمزيد من المحبة والعمل المشترك مع سلطاتها! . .

قيل للسادات: الا تستحق القدس ـ بعد قرار ضمها لاسرائيل ـ منك وقفة؟

فأجاب: لا! ثم راح يلعن العرب ويشتم المسلمين ويتباكى على افغانستان! .

وقيل للسادات: هل يليق بك، وبمصر العزيزة الغالية، ان يتلفظ عليك وعلى بلدك مناحيم بيغن بمثل هذه اللغة ومثل هذا التهديد ومثل هذه العبارات؟. يا رجل. . ثر لبلدك ان لم تثر لنفسك!؟.

ولكنه لم يثر! لا لنفسه ولا لبلده! وانما كانت كل ثورته ضد العرب ـ اخوانه العرب الذين يصفهم «بالجهل والغرور والحماقة والوسخ والتأخر وجمود العقل وقلة الاخلاق». . . !!

هل في مثل هذه الحالة كلها، ما كان يشجع اي عربي ان يعود للسادات او ان يسمح للسادات بالعودة الى العرب. ؟!.

ماذا ترك انور السادات ـ هذه المصيبة الكبرى ـ للاساطير؟

كلما استقال وزير اسرائيلي من حكومة بيغن واصبح هذا الحاكم المتصلب الاعمى موضع انتقاد العالم، تقدم انور السادات لكي يشيد به ويعاونه ويقدم اليه المزيد من التنازلات. .

وكلما صاح العرب مطالبين اميركا بضرورة الضغط على اسرائيل لاجل منعها من المضي في استهتارها وغرورها وعدوانها، رأينا انور السادات يتقدم لكي يقدم لاسرائيل المزيد والجديد من التنازلات ويمنع عنها غضب اميركا ونقمة العالم. . ! .

● واذا اعتدت اسرائيل على لبنان وضمت جزءا منه لارضها وقتلت بطائراتها معسكرات اللاجئين، فالذنب في قاموس السادات، يقع على اللبنانيين وعلى

اللاجئين، لا على اسرائيل!.

● واذا اصبحت قضية لبنان جزءا من قضية الشرق الاوسط فالذنب ذنب الفلسطينيين لا ذنب اسرائيل التي ترفض ان تسمح للفلسطينيين بوطن صغير يقيمون على ارضه..!.

● واذا تقدمت دول السوق الاوروبية المشتركة بمبادرة سياسية تهدف الى ايجاد حل للمشكلة، غضب السادات وارسل مساعديه الى عواصم اوروبا منذرا متوعدا، واعلن ان اي اعتراف للفلسطينيين بحق تقرير المصير، او بانشاء كيان انما هو «اعتداء» على اتفاقية كامب ديفيد!.

اليس من المؤسف والمحزن معا ـ ان لا يجد مندوب مصر لدى الامم المتحدة مندوبا عربيا واحدا يرضى بالجلوس معه والحديث اليه، فيما المندوب المذكور غارقا في «الوشوشة» والهمس واللقاءات مع المندوب الاسرائيلي؟.

● اليس من المؤسف والمحزن معا، ان تستقبل القاهرة الرئيس «نا فون» الاسرائيلي لكي يحدثها عن ذكرياته في شبابه.. وعن اعجاب والده بصوت ام كلثوم.. وعن حرص والدته ان تعلمه اللغة العربية.. وعن تقدير زوجته للمثلات المصريات بينما «مناحيم بيغن» يحتل القدس، ويصادر اراضي العرب، ويعتقل المئات ويقيم المستوطنات ويسلط ارهابه على الزعماء ورؤساء البلديات ويستهتر بكل مقدسات العرب والمسلمين؟؟!.

وبينما كان السادات في عام ١٩٨٠ يتغنى بصديقه جيمي كارتر وبالسياسة الاميركية اعلن جيمي كارتر وبكل فخر، انه استطاع خلال حكمه ـ ٤ سنوات ـ ان يعطي لاسرائيل نصف جميع ما اخذته اسرائيل من اميركا طيلة الثلاثين سنة الماضية وبلغة الارقام، اعطاها «١٠ مليارات» دولار خلال ٤ سنوات!.

● وبكل زهو اعلن المرشحان الرئيسيان في معركة الانتخابات انهما يعتبران اسرائيل ركيزة اميركا «الاستراتيجية» في الشرق الاوسط!» وبكل تأكيد، اعلن ريغان ان اسرائيل وحدها، لا مصر، ولا غير مصر، هي القاعدة الاستراتيجية الاميركية الصالحة في المنطقة!.

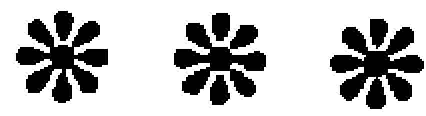
وكل هذا لم يقنع انور السادات بالتراجع او الاعتدال.. ورأت فيه اميركا،

وحليفتها اسرائيل، الدابة المطلوبة ـ طاعة وولاءاً وصبراً ـ للركوب.

فركبوها . .

ولم ينزلوا من على ظهرها الا بعد حادث المنصة الشهيرة. ولكن، بعد «خراب البصرة» وعزل مصر وتفتيت العرب وتهويد الضفة ونسف قضية اسمها: فلسطين!

ويا ويل السادات من حكم التاريخ . .



الفصل الرابع عشر
دبلوماسية الخجل والعجز اسمها عندنا: عدم التدخل...

- هل من حق غيرنا ان يحشر انفه في شؤوننا وليس من حقنا ان نقابله بالمثل؟

- اذا كان الاحتلال يُفجّر المنطقة فهل تريد اميركا تفجير المنطقة؟

- سرّ الصفقة السرية بين ايزنهاور وعبد الناصر؟

- قال الشاعر العربي القديم عن «هند» الحبيبة:
. . . انما العاجز من لايستبد!

الفصل الرابع عشر
دبلوماسية الخجل والعجز اسمها عندنا : عدم التدخل...

لا أشتهي ان أستمع الى درس في أصول السياسة الدولية او الاخلاق الدولية يمنعني صاحبه من حق التدخل في القضايا الداخلية لاي بلد ويحذرني من مغبة الشرور الكبيرة الناتجة عن مثل هذا التدخل. . .

● ولا أشتهي ـ كذلك ـ ان أجد أمامي قارئا أو مسؤولا يهرع كي يرتدي عمامة الوعظ والارشاد، وينكر علي رغبتي في أن احشر أنفي، بل وأذني وفمي وعيني ايضا، في أمور محلية داخلية لبلد اجنبي غريب، كأن أعالج مع شيء من عدم الحياد موضوع الانتخابات الحالية لرئاسة الجمهورية الاميركية، فأرقبها بلذة خاصة، وأتمنى ان يكون للعرب ـ لاهلي ـ فيها مرشحا معينا، أدعو له بالنجاح، وأسهم بجهدي في معركته لكي ينجح، وأربط بين نجاحه المطلوب وبين نجاح الكثير من قضايا بلدي واهلي، وأكون معه على تفاهم خاص يشدني اليه ويشده الى العرب، وتصبح معركته الحاضرة شبه معركتي وانتصاره في الغد شبه انتصار لي. . ؟!

● وبعد. .

لا أعرف ظرفا دوليا مواتيا يناسب العرب ويخدم قضاياهم، منذ بداية الحرب العالمية الثانية، كهذا الظرف الذي مررنا به في هذه المرحلة. سواء من حيث عناصر قوتنا ام من حيث عناصر ضعف غيرنا، وسواء من حيث الحاجة الينا ام من حيث حاجة عدونا لغيرنا، ولنا وسواء من حيث اننا قد أصبحنا موضع تهافت العالم علينا

ومحاولات استقطابه لنا والتظاهر بالحرص علينا ، بينما اصبح عدونا عالة على العالم ، وعلى السلام الدولي ، وعلى الشعوب . وعلى خزائن الأرض كلها !

أقول : عندما انتهت الحرب العالمية الثانية لم يكن عدد الدول العربية المستقلة يزيد عن ثلاثة أو أربعة . واليوم ، يرفرف علم الحرية والاستقلال على أكثر من عشرين دولة عربية ! وفي الحرب العالمية الأخيرة كان عدونا يمثل دور الضحية الشهيد ! وكان «عدو عدونا» هو حليفنا ! وعندما انتصر الحلفاء لم يفكروا الا بانقاذ ضحايا عدوهم الكبير ، واعني بذلك يهود أوروبا والعالم من براثن «هتلر» ومنحهم معنى اللجوء والدولة على حساب العرب في فلسطين! وبمذاك ، كانت خيرات العرب مدفونة تحت الأرض . وكان اسم العرب ، كبعض رجال السياسة أو نجوم السينما ، تحبهم ولكن لاتحترمهم . وتتحدث عنهم ولكن لا تحسب حسابهم ! في تلك الأيام ، منذ ثلاثين سنة ، كان المد اليهودي على اشده . وكان الانحسار الاسلامي على اشده ايضا ! واليوم انقلبت الآية ! ولو استطاع كنيدي او كارتر ان يعلن اسلامه لكي يحل مشكلة ايران ومأساة افغانستان لما تأخر ! فقد اصبح الاسلام سلاحا قويا . واصبحت الثورات الاسلامية -رغم انف العملاء والمرتزقة والموتورين- تقض مضاجع الدول الكبرى ! لقد استيقظ العملاق . والذي عجزت عن تحقيقه «الناصرية» ، ستحققه الثورات الاسلامية ! ولم يعد العرب يتامى في دور الحضانة أو الرعاية لحساب امبراطوريات بريطانيا وفرنسا ! ولم تعد خيراتهم متاعا متاعا مهجورا يستميل اللصوص نهبه والاستيلاء عليه ! ودرس العرب ! واصبح عندهم جامعات . وأصبح عندهم علماء . وتقدم العرب ، وفضحوا اسطورة النبوغ والامتياز عند اليهود ! وجاهد العرب ، وكشفوا حقيقة النوايا الصهيونية التوسعية ! وبلغ العرب سن الرشد فحطموا الأوثان السياسية وعزلوا الأوصياء وتركوا الخيال والعاطفة للشعر والادب عندما بدأوا يمارسون السياسية بالعقل والواقعية والمنطق . والمعرفة !

هكذا كنا . . وهكذا اصبحنا !

● وكما كانت العبودية والصمت والركوع طابع حياتنا ايام الانتداب والاستعمار ، فقد أصبحت الكرامة والعزة والصلابة طابع حياتنا أيام الحرية . . .

وكما كان قدرنا ان ندفع من دمائنا وخيراتنا ثمن استعبادهم لنا واستعمارهم لاوطاننا في الماضي البعيد، فكذلك اصبح قدرنا، بل وحقنا، ان نجعلهم يدفعون لنا من دمائهم ومن أموالهم بعض ما يسدون به ديونهم الهائلة لنا . .

إننا مثل غيرنا، لنا مصالح، وأننا مثل غيرنا، لنا وجود ونفوذ وثقل، وبالتالي، ان علينا ان نطرح للعالم موقفنا، ونعلن لكل من يهمه الامر رأينا، وان نسمي ـ بلا عقد ولا خجل ـ أسماء مرشحينا أو مرشحنا، وان نبني على ضوء كل ذلك سياستنا وخطواتنا القادمة تجاه كل معركة، انتخابية او حدث مهم في مختلف انحاء العالم!

وباختصار شديد: يجب ان نعثر لانفسنا على مرشح! ويجب ان يكون لنا في معركة الرئاسة الاميركية وفي معارك الرئاسة الفرنسية والألمانية صوت والايطالية صوت والتركية والاسبانية الف صوت وصوت!

قد أسمع من يكاد يصرخ في أذني من بعيد قائلا لي في غضب ممزوج بالدهشة والحيرة : ولكن اليهود -واعني بهم اسرائيل- تتدخل في معركة رئاسة الجمهورية الاميركية بسبب وجود «طابورها الخامس» في صفوف الشعب الاميركي ، وبسبب اعتمادها على هذا الطابور في حشد الأصوات وصهر المواقف وبذل الأموال . بينما العرب لايملكون لانفسهم أو لقضاياهم مثل هذا السلاح الخطير . . ! »

وجوابي كالاتي: ان «الطابور الخامس» العربي داخل صفوف الشعب الاميركي موجود ولكنه بحاجة الى، اولا: من يعثر عليه! ثانيا: من ينظمه ويجنده ويصهره! ثالثا: من يبعث فيه روح التعصب للوطن وللقومية وللاهل بعد طول انقطاع وغياب. رابعا: من يأمره بأن يتحرك وان يخوض المعركة وان يعمل. ! انني دائما استعيد في مثل هذا المقام ما سبق لي وسمعته من نائب رئيس الجمهورية الاميركية السابق المستر «سبيرو أجنيو» خلال لقائي به طويلا في مدينة «الرياض» بالسعودية، عندما قال لي: «لايمكن للعرب مقاومة «اللوبي» اليهودي في اميركا الا بخلق «لوبي» عربي مقابل. والامر لا يتطلب جهدا خارقا اذا توفرت العزيمة والمال!».

● أجل! ان في داخل صفوف الشعب الاميركي مئات الالاف من العرب الذين اصبحوا يحملون الجنسية الاميركية. وانني لاشعر احيانا بالحزن عندما اسمع ان استاذا اميركيا من اصل عربي قد جاء لكي يجول في العواصم العربية بحجة القاء

المحاضرات عن السياسة الاميركية لجمهور من العرب، بدلا من ان يبقى حيث هو في اميركا ويجوب الولايات المتحدة لكي يلقي المحاضرات عن السياسة العربية لجمهور من الاميركيين! ومما يزيد في حزني احيانا ان يقال لي بأن معظم هؤلاء المفكرين او الاساتذة المتواجدين في مختلف الولايات المتحدة، وكلهم من اصل عربي، انما يعيشون في شلل فكري وعلمي وسياسي تام بسبب اما عزلتهم عن الناس، او اختلافاتهم مع بعضهم البعض، او استسلامهم لليأس الناتج عن الغربة والضياع، او عجزهم عن تحقيق اهدافهم الخاصة في تحقيق الشهرة وجمع المال، او انشغالهم بالهموم الخاصة، من عائلية او مالية، او التفاتهم الى التحزبات الاقليمية الضيقة وتفضيلها على القضايا القومية الكبرى. .

ورغم كل هذا فان الموقف لا يدعو الى اليأس. وبالتالي، فان الحاجة الى خلق «اللوبي» العربي ما زالت ملحة، بقدر ما هي متوفرة، وبقدر ما هي مفيدة، وبقدر ما هي مستعجلة. !

واذا جاز «لمناحيم بيغن» ان يقف وينادي ذات يوم بأن اسرائيل لن تقف مكتوفة الايدي اذا انسحبت القوات السورية من أرض لبنان أو اذا تعرض «المسيحيون» اللبنانيون الى اي خطر، وانها -أي اسرائيل- لن تكتفي بأن تتدخل في جنوب لبنان وانما ستتدخل في «كل» لبنان. . . اقول، اذا كان لعدونا الحق في ان يفرض دوره ونفوذه وهيبته وسلاحه على الساحة اللبنانية، كما سيفرضها غدا على الساحة المصرية بحجة الدفاع عن مصلحة «الاقباط» أو كما سيفرضها في سوريا للدفاع عن «العلويين» أو الدروز أو الاكراد، او كما سيفرضها في العراق للدفاع عن اية أقلية قد يعثر عليها ويجد فيها تجاوبا مع مطامعه وأهدافه. أقول اذا كان من حق اسرائيل ان تنسب لنفسها المسؤولية والحماية فوق اراض عربية، وقضايا عربية، وشعوب عربية، دون ان يكون لها في أي بلد من هذه البلاد اقلية يهودية محاصرة أو محصورة، مضطهدة أو اسيرة، معذبة أو مقهورة، فلماذا لايكون للعرب الحق في التدخل بقضية من أهم القضايا السياسية التي تمس حياتهم وأموالهم ومستقبلهم ومصيرهم واعني بها قضية انتخابات الرئاسة الاميركية. . !

● لماذا لايكون للعرب الحق في التدخل لاختيار أو ترشيح الاسم الصالح لرئاسة

بلد يرتبط مع الدول العربية في ميزانه التجاري السنوي بأكثر من أربعين مليار دولار، ويرتبط في ميزان مدفوعاته السنوية بما هو أكثر واكبر، ويتسلم من الاموال العربية في مجال التوظيفات المالية سنويا ـ وفي سندات الخزينة الاميركية ـ ما لا تتصوره العقول ولا تقدر على تقديره أجهزة الكومبيوتر . . ؟! لماذا لانتدخل وبترولنا هو سر حياتهم، وثرواتنا هي سر ازدهارهم، واسواقنا هي سندهم التجاري، وجيوشنا هي قوة استمرار معظم مصانع اسلحتهم في العمل والانتاج؟؟ بل لماذا لا نتدخل وقد شجعونا هم على التدخل يوم سمحوا لانفسهم ـ باسم الدفاع عن سلامتنا ـ ان يتدخلوا في صميم مشاكلنا، وان يفرضوا علينا المعاهدات والاتفاقيات منذ مبادىء ويلسون عام ١٩١٩ الى مشروع ايزنهاور، الى حلف بغداد، الى حلف السنتو وجنوب شرقي آسيا، الى المطالبة بالقواعد والخدمات العسكرية، الى اتفاقيات الشؤم في كامب دايفيد، الى العودة للحديث عن سياسة الاحلاف وميثاق كارتر والدفاع عن العالم الحر؟!

بل يجب ان نتدخل!

● وعندما سبق وتدخلنا مع ايزنهاور عام ١٩٥٦ . . انسحب اليهود من سيناء وقطاع غزة! هل يعرف الجيل العربي الحاضر كيف تدخلت مصر ـ باسم العرب ـ مع ايزنهاور، عام ١٩٥٦؟

القصة في غاية البساطة اذا افترضنا فيها حسن النية من جانب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وافترضنا فيها حسن التجاوب والاستعداد للتعاون والعمل المشترك من جانب الرئيس دوايت ايزنهاور . . !

فقد ادرك الرئيس الكبير جمال عبد الناصر انه بمفرده او بالتعاون مع السوفيات لوحدهم، قد لايكون قادرا على ارغام اليهود للجلاء عن سيناء وقطاع غزه بعد العدوان الثلاثي في خريف عام ١٩٥٦ . ! وأنا لا أشك هنا بأن «صفقة سرية ما» قد أبرمت ما بين جمال عبد الناصر والرئيس الراحل «دوايت ايزنهاور» تعهد فيها، وبموجبها، الرئيس المصري الراحل بأن يعترف بدورها الكبير في مساندة مصر وارغام اسرائيل على ان تنفذ قرارات الامم المتحدة وان تنسحب من المواقع التي استطاعت احتلالها خلال ايام العدوان الثلاثي . . !

ورغم ان النفوذ اليهودي في واشنطن قد حاول ان يتدخل ويفسد الضغط على اسرائيل بضرورة التدخل، الا ان ايزنهاور لم يترك لاحد مجالا للتدخل او اللعب! وحاول «دافيد بن غوريون» ـ رئيس وزراء اسرائيل يومذاك ـ ان يقاوم الضغط عندما وقف في مجلس «الكنيست» الاسرائيلي واعلن في السابع من نوفمبر في ذلك العام ان «سيناء التاريخية جزءا لا يتجزأ من ارض اسرائيل، وان تحريرها على يد القوات الاسرائيلية لا يعتبر غزوا لها بقدر ما هو عودة بها الى الوضع التاريخي الديني الصحيح، وان حدود الهدنة لعام ١٩٤٩ هي حدود مؤقتة قد ماتت ودفنت ولن تبعث حية. . !» نفس الكلام الذي جاء يردده زعماء حزب «العمل»، ثم زعماء اتحاد «ليكود» ـ وعلى رأسهم بيغن ـ بعد حرب عام ١٩٦٧! ولكن ايزنهاور ليس كارتر! وجمال عبد الناصر لم يكن انور السادات! والصفقة المعقودة بينهما سرا لم تكن لصالح اميركا ونفوذها بقدر ما كانت لصالح مصر والعرب! ولذا فقد وقف دوايت ايزنهاور على شاشة التلفزيون واعلن «ان عدم انسحاب اسرائيل من سيناء سيؤثر على علاقات الصداقة التي تربط بين اميركا واسرائيل!» وركع دافيد بن غوريون! وانسحبت قوات اسرائيل من سيناء ولكنها احتفظت بقواتها في قطاع غزة، وفي شرم الشيخ! وعاد الرئيس ايزنهاور ووقف على شاشة التلفزيون واعلن انه «اذا استمر بن غوريون في عناده وتحديه فانه ـ اي ايزنهاور ـ سيوقف كل المساعدات الاميركية من القطاع الخاص لاسرائيل، وسيلغي الحسابات الخاصة المعفاة من الضرائب لصالح اسرائيل!» وحاول ليندون جونسون ـ زعيم الاغلبية في مجلس النواب يومذاك ـ ان يتدخل لحساب اسرائيل ففشل! وحاول زعيم الاقلية في المجلس المستر «وليم نولاند» ان يتدخل دفاعا عن وجهة نظر اسرائيل، ولكنه فشل! لقد استمر ايزنهاور في مسيرته الجبارة واعلن للشعب الاميركي انه اذا «اعترفت الامم المتحدة ـ ولو لمرة واحدة ـ انه بالامكان حل المنازعات عن طريق السلاح، فان ذلك سيقضي على العماد الاساسي الذي تقف عليه هذه المؤسسة الدولية!» وهكذا، عاد بن غوريون العنيد، واستسلم راكعا، ولم يطل يوم الاول من شهر مارس من عام ١٩٥٧ حتى بدأت قوات اسرائيل في الانسحاب الذي استغرق مدة اسبوعين فقط لا غير. !

ولكن ـ واقولها للتاريخ ـ ان انفصال سوريا عن الوحدة مع مصر، واثر تلك

الضربة على نفسية جمال عبد الناصر وتفكيره وميوله السياسية، مع فوز جون كنيدي بالرئاسة في عام ١٩٦٠ وما كان يمثله من ميول واتجاهات معروفة بالنسبة لتأييد اسرائيل، مع اتجاه اسرائيل الى اميركا والتركيز عليها بعد ان انتهت حرب الجزائر واصبحت فرنسا صديقة للعرب بعد ان كانت اكبر اصدقاء اسرائيل، ثم اندلاع حرب اليمن ودور مصر الرئيسي فيها ضد السعودية وضد «حلفاء» السعودية في المنطقة. كل ذلك ـ وللتاريخ ايضا ـ قد افسد «الصفقة» السرية التي كانت معقودة بين عبد الناصر، وايزنهاور، والتي بموجبها تدخلت اميركا بكل ثقلها، ووزنها، ونفوذها وارغمت اسرائيل على الانسحاب من سيناء، ثم من قطاع «غزة»، ومن «شرم الشيخ» في ربيع عام ١٩٥٧!!

● واسرد قصة للتاريخ ايضا! في تلك الفترة سبق لي ونشرت مقالا في «اخبار اليوم» من الدور الاميركي المشرف تجاه مصر، ومساعدتها في ارغام اسرائيل على الانسحاب! وكان المقال بعنوان: «شكرا ايزنهاور» ولكن عبد الناصر وقد بدأت البوادر تشير الى بطلان «الصفقة» الاميركية المصرية ـ دعاني لمقابلته في منزله «بمنشية البكري» بالقاهرة لكي يقول لي «ان مقالي خطأ»، وان ايزنهاور «لم يساعد مصر»، وان الوحيد الذي يعجبه مثل ذلك المقال هو «الملك سعود» ـ رحمه الله ـ وان اميركا «لم تقف مع مصر وانما وقفت ضدها. . !!»

وشعر الرئيس في قرارة نفسه ان كلامه لي غير صحيح! وانه في حديثه معي قد زاد العيار فسمعته يقول لي: «ولو افترضنا حقا ان اميركا قد ساعدتنا فهل يجوز ان نغفل دور «خروتشوف» ولا نتحدث الا عن فضل ايزنهاور. !؟»

● لعل هذا «التنكر» للدور الاميركي، او محاولة تخفيفه والاستهانة به، او انقلاب عبد الناصر على كل ارتباط مع الغرب وكفره «بكل حلف عسكري» مع اميركا وحلفائها، او ظهور الضغط السوفياتي فجأة على الراحل جمال عبد الناصر، او شعور عبد الناصر ومخاوفه وهواجسه من ان مخابرات اميركا تخطط لاغتياله، او فشله في الحصول على السلاح المطلوب من اميركا، او الشح الاميركي في شحن الكميات المطلوبة من «القمح» لمصر. . لعل ذلك، بعضه او كله، قد جعل عبد الناصر يقتل «الصفقة السرية» المعقودة بينه وبين «دوايت ايزنهاور»، والتي كانت ـ حسب

اعتقادي ـ نقطة تحول في تاريخ عمله السياسي بأكمله، مما زاد الطين بلة بحيث لم يكد يقتل جون كنيدي، ويأتي «ليندون جونسون» ـ اسوأ عميل صهيوني في تاريخ اميركا ـ حتى بدأ التخطيط الجدي الحثيث لاعادة عقارب الساعة الى الوراء. . الى ماقبل ١٧ مارس ١٩٥٧ . . الى يوم كانت سيناء، وغزة، وشرم الشيخ، ترزح تحت نير القوات الاسرائيلية!

وانتهى التخطيط باكمله صباح يوم ٥ حزيران ١٩٦٧، يوم قامت حرب «الايام الستة»، وعادت قوات اسرائيل الى مواقعها القديمة التي ارغمتها اميركا على الانسحاب منها في عام. . ١٩٥٧!

● واريد ان اضيف شيئا: هناك من يؤكد عن معرفة. لو ان عبد الناصر قد احترم صفقته التاريخية السرية مع «ايزنهاور» لما قامت حرب الايام الستة، ولما كانت الاوضاع في المنطقة كما هي الان من السوء، والتفجر!

ثم امضي واقول:

ترى، هل في افتضاح امر بعض الصفقات السرية السياسية، او التنكر لها، او التخلي عنها، مبررا كافيا لكي يعجز المرء عن الدخول في صفقات سياسية جديدة؟

خاصة اذا كانت مثل تلك الصفقات تعمل لخير العرب ومصلحتهم وسلامتهم واستعادة اراضيهم؟!

● انا اعلم ان «سنة الانتخابات» في اميركا هي اسوأ السنين بالنسبة لاحتمالات الاتفاق مع الرئيس الاميركي ـ اي رئيس اميركي ـ على اية سياسة جديدة تكون متحررة من الضغوط اليهودية او لعقد اية صفقة سياسية سرية تحمل في بنودها اي خير للقضايا العربية! بل انني اعلم ان سنة ١٩٨٤ - مثلاً. ككل سنوات الانتخابات التي سبقتها في ١٩٦٨، و١٩٧٢، و١٩٧٦ و١٩٨٠، هي السنة التي يبلغ فيها الغرور اليهودي اشده، وتصل بها الاماني الصهيونية الى اقصى التطرف، وتصطدم خلالها جهود السلام بالشلل التام والاهمال المتعمد ويصبح معها اي مرشح لرئاسة اميركا مجرد دمية صغيرة تتقاذفها رياح اليهود والصهيونية حسب اهوائها واغراضها. ! ولكن ذلك لايمنع من ان نحاول ونجعل من سنة الانتخابات نقطة نتفاهم فيها ومنها على كل مانريده ونطمع به بعد انتهاء العام وبعد ظهور

الرئيس الاميركي الجديد. . ! اعني، كان يجب ان نحدد بالضبط ما نريد، وان نبحث عن المرشح الاميركي القادر ان يقبل بما نريد وان يساعدنا -في حالة نجاحه- على تنفيذه وتحويله الى حقيقة! . وقد يقال لي بأن العرب -حتى اليوم- لم يتفقوا على الشيء الذي يريدونه، وانه -حتى في البلد العربي الواحد- هناك المسؤولين العرب، أكثر من رأي وأكثر من وجهة نظر تجاه معظم المشاكل أو انه لكي نقدر ان نقول للمرشح الاميركي «ماذا نريد منه» يجب ان نعرف نحن اولا، «ماذا نريد لانفسنا من الغير» . وانه لايكفي ان نضع طلباتنا اما اي مرشح للرئاسة وان نتفق معه عليها ثم لانملك اية قيود أو التزامات أو شروط او ضمانات قادرة ان تمنع مثل هذا المرشح من ان يتنكر لنا ويتجاهل اتفاقه معنا .

وكل هذا معقول ومقبول. .

ولكني اطمع في خطوة عربية حاسمة قادرة على ان تثبت لاي مرشح اميركي ان لنا ـ تجاه المعركة الانتخابية وتجاه المرشحين فيها ـ وجهة نظر محددة تشتمل على مواقفنا «القومية» وتبحث عن المرشح القادر على ان يتبناها بعد فوزه في الانتخابات! اطمع في موقف عربي قادر على ان يكون له «خطوة» مفتوحة مع كافة المرشحين هناك لكي ينقل اليهم تفاصيل الموقف العربي بحيث لايأتي في المستقبل رئيس «كجيمي كارتر» او غيره ويقول للعالم «انه لم يسمع من اي عربي مسؤول اي طلب لانشاء دولة فلسطينية في الضفة والقطاع!».

● وفي غمرة البحث عن المرشح الاميركي «الصالح» بالنسبة لنا ولقضايانا استطيع ان اضع امام كل عربي مسؤول من جهة، وكل مرشح للرئاسة الاميركية من جهة اخرى، الحقائق الثابتة التالية:

● قد يكون من حق اميركا ان تنظر الى كل ما يتعلق بدولة اسرائيل على انه نظرة الحليف الى الحليف، ولكن ماهو الموقف الان وقد اصبح الحليف الاخر ـ اي اسرائيل ـ يتخذ لنفسه من السياسات والمواقف ما يرى فيها ضمانا لمصالحه دون اي اعتبار لمصالح الطرف الاميركي. . حليفه الاصلي؟

● اذا كان «جونسون» ـ الرئيس الاميركي الاسبق ـ لم يطالب اسرائيل بانسحابها بعد حرب ١٩٦٧ كونه كان ضد انسحابها في عام ١٩٥٧، فهل يحق «لكارتر»، او

كنيدي، او كونالي، او «بوش» او «رونالد ريغان» السير على خطى جونسون والسكوت على الاحتلال الاسرائيلي؟

ان ميوعة زعماء اسرائيل، وصلفهم، وغرورهم، واستهتارهم يعود الى اعتقادهم بأن اميركا ـ في نهاية الامر ـ لن تتحداهم، ولن تحاربهم، ولن ترغمهم على المضي في مالا يريدون المضي فيه! هكذا قال «مناحيم بيغن» وهكذا يقول معظم زعماء اسرائيل! ترى، هل يمكن السكوت على مثل هذا الموقف بعد ان اصبح الغرور الاسرائيلي يهدد صميم المصالح القومية الاميركية ويهدد سلام العالم؟!

وهل هناك رئيس اميركي ـ قديم ام جديد ـ يرضى بان تتكرر امامه فضيحة الرسالة المشهورة التي ارسلها «٧٦» سناتور اميركي عام ١٩٧٥ يطالبون فيها «بتأييد اسرائيل والوقوف بجانبها في البحث عن سلام للمنطقة» رغم فشل المفاوضات التي كان يجريها الدكتور كيسنجر يومذاك بغية تحقيق المرحلة الثانية لفك الارتباط نتيجة التطرف اليهودي؟

● اميركا هي التي دفعت لاسرائيل ثمن قبولها بفك الارتباط ـ او الاشتباك ـ عام ١٩٧٥ بصورة خيالية وعلى كافة المستويات السياسية والاقتصادية، فما هي مكاسب العرب المقابلة لمكاسب اسرائيل؟ ماذا كسب الاردن؟ لاشيء! ماذا كسبت سوريا؟ لا شيء! ماذا كسبت مصر؟ الوعود والدراسات.. وتمزيق الصف العربي! هل يجوز ان تقبض اسرائيل مساعدات مستمرة تزيد عن «عشرين مليار» دولار لمدة عشر سنوات، بينما لم يقبض العرب سوى اليأس، والمرارة والحقد الكبير؟!

من المسؤول؟

● اسرائيل تريد ان تستمر في احتلالها للارض العربية! وهي غير قادرة على ذلك بدون المال والسلاح الاميركيين، فما هو موقف اميركا؟! واذا كان «الاحتلال» هو الطريق الى تفجير المنطقة، فهل تريد اميركا ان تفجر المنطقة؟ والا، فما هو الحل؟!

● اسرائيل تسرق مياه العرب وتزرع المستوطنات في الضفة والقطاع لكي يهاجر العرب وتفرغ الضفة من اهلها. فما هو موقف اميركا؟ هل هي موافقة؟ هل هي معنا؟

● اليس من حقنا على اميركا ومن زاوية «حبنا» لها ان نطالب بمجيء رئيس اميركي

يؤمن بالحقيقة القائلة ان في تأميناً المصالح العربية، تأمين للمصالح الاميركية، والعكس، بالعكس.؟! وان ليس هناك فرق كبير بين التوسع الاسرائيلي على حساب العرب والتوسع السوفياتي على حساب الافغان. . والاسلام؟ وان في تقرير حقوق الفلسطينيين، تقريراً لحقوق اميركا؟ وان المال الاميركي، كالسلاح الاميركي، يجب ان لايخرج الى اية «دولة» لا تراعي مصالح اميركا ولاتخذم السلام العالمي؟!

قال لي صديقي الدبلوماسي العربي الكبير وانا «احلم» امامه بهذه الاراء والخواطر المتفائلة على مشهد من الالاف الذين مروا بجانبنا عند ناصية احدى مقاهي شارع «الشانزليزه» التاريخي الساحر بباريس:

- وهل تظن بانك قادر ان تعثر على اي طرف سياسي، او جهة مسؤولة، او شخصية متنفذة قادرة ان تستمع الى ارائك، وان تتبناها، او تتعهد بها وتسعى لتحقيقها خدمة للعدالة، وللسلام خلال اية معركة اميركية قائمة او بعدها؟».

قلت اسأله: هل تعني في الجانب الاميركي بين المرشحين للرئاسة؟

● اجابني: بل وفي الجانب العربي، ايضا بين الرؤساء العرب انفسهم!»

ثم اكمل:

- كلهم «زي» بعض! جهل، ولا مبالاة، ومعالجات محموقة مستعجلة لمشاكل اليوم الواحد!».

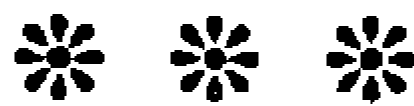
واجبته:

- بل هي دبلوماسيتنا الخجول، المتعثرة بالحياء والخوف، والمجبولة بالتردد والتي يفخر حكامنا بتسميتها:

- النتيجة في الحالتين واحدة:
- عدم التدخل في شؤون الغير!

أجابني بهدوء:

من فشل الى فشل. ومن سقوط الى سقوط!



الفصل الخامس عشر
زعيمة الديمقراطية في العالم حطمت ديمقراطية العرب!

● كان هنري جاكسون اقرب الى تل ابيب من موشيه دايان!
● قال «توماس جيفرسون» في خطابه الافتتاحي عام ١٨٠١ : «. . تجارتنا. . وسلامنا. . وصداقتنا الصادقة مع جميع الشعوب!» واليوم؟؟
● اميركا تعلم ان مأساة ١٩٤٨ هي التي فتحت ابواب الانقلابات العسكرية في الشرق الاوسط.
● بقدر ما يساعد الرخاء والاستقرار على مد عمر الديمقراطية عند الدول ، يساعد التدخل الاجنبي على غرس روح التطرف والتمهيد لمجيء حكم الفرد.
● الا يكفي هوانا ان تجد البشرية نفسها في حالة اختيار محزن بين طفولة كارتر ورعونة كنيدي ، او بين تفاهة مونديل وشيخوخة ريغان ؟

الفصل الخامس عشر
زعيمة الديمقراطية في العالم
حطّمت ديمقراطية العرب !

كان الحكم الديكتاتوري اكبر آفة اصابت الحياة العربية العامة وساعدت على انحدار العربي الى ما «تحت» سطح العقل، و «تحت» سطح الفهم، و «تحت» سطح الوعي المطلوب.

وكان المفروض، والمنتظر، بعد غياب الديمقراطية البريطانية عن المسرح السياسي الدولي الفعال، ان تظهر الديمقراطية الاميركية الى الميدان وتشجع العربي على ممارسة حياته السياسية العامة بالاسلوب الديمقراطي المتسم بالحرية والكرامة وان ترشده ـ وهو مازال فتياً يحبو على عتبات استقلاله ـ الى مزايا الانفتاح السياسي في المجتمع الواسع، والى مزايا المؤسسات التي يقوم عليها الحكم الديمقراطي، وان تزيل من امامه كل عائق يقف في وجه انطلاق الانتخابات الحرة، والصحافة الحرة، والرأي الحر!

كان على الولايات المتحدة، بعيد انتصارها التاريخي في الحرب العالمية الثانية، ومساعداتها لعشرات من الدول المختلفة على خلاصها من الاستعمار البغيض الذي استمر عشرات السنين ان «تكمل المعروف» ـ كما يقولون ـ وتساعد تلك الدول على ان تمارس استقلالها بروح الحكم الديمقراطي البعيد عن الانقلابات العسكرية والديكتاتوريات الفردية . .

وليس سرا ان احلى اماني السياسة الاميركية واكبر اهدافها تنحصر في عودة

الحكم الديمقراطي الصحيح لاكبر مجموعة من دول العالم! هكذا عملت اميركا وما زالت تعمل منذ خروجها عن سياسة العزلة واندماجها في مشاكل الحرب العالمية الاولى ثم الحرب العالمية الثانية. . هكذا جاهدت وما زالت تجاهد في معاركها السرية والعلنية داخل العديد من دول اميركا اللاتينية. هكذا اعلنت وما زالت تعلن في ممارستها للسياسة الخارجية تجاه دول اوروبا وخاصة اليونان والبرتغال واسبانيا او دول اسيا حيث كان ضياعها وفشلها وخروجها ملطخة بالهوان والفشل! .

ولكن الديمقراطية ـ في معناها ومبناها ـ تشبه المال في اختيار عدوها او في اختيار صديقها. ! ان الد اعداء الديمقراطية هو الاضطراب والفوضى وفتح الباب امام التدخل الاجنبي وانتظار المجهول الخطير. وكذلك فان المال يهرب امام الفوضى وعدم الاستقرار. . كما ان الديمقراطية تزدهر في ظل الهدوء والاستقرار وانعدام القضايا والمشاكل وعدم السماح بالتدخل الخارجي، فكذلك المال يزدهر وينمو فقط في ظل مثل هذه النعم.

وليس يكفي ان تتغنى دولة ما بالديمقراطية وتدعو لها وتحاول فرضها على غيرها من الدول، بينما هي في ممارستها الذاتية للحكم الديمقراطي تشجع الارهاب او تعايشه، او تمارس التفرقة او تسكت عنها، او ترى الفساد فتتجاهله، أو تبني حياتها على اساس ضغوط الشركات او عبث العصابات او اهواء الصحف او اغراض بعض النواب، فلا تحاول مقاومتها بقدر ما تستسلم لها وتركع امامها! لايكفي اميركا ان تقاوم حكم الفرد في بوليفيا مثلا، وتحاول تحطيم قائد الانقلاب «البرتو نتوش» بحجة الحرص على الحكم الديمقراطي في لاباز العاصمة بينما هي راقدة في هوان الخضوع امام اهواء ثلاثين اميركيا او اقل في الكونغرس باعوا انفسهم للمصلحة الذاتية وللشيطان فلاعدو لهم الا البترول العربي ولا خطر عليهم الا من العرب ولا حليف لهم الا اسرائيل ولامشكلة امامهم الا انقاذ يهود الاتحاد السوفياتي من عذاب الكرملين. ! لايكفي ان تندد اميركا بتعصب اية الله الخميني باسم الليبرالية والانفتاح والتسامح وحقوق الانسان، بينما يحكم سياسة اميركا البترولية ويتحكم بها شخص كهنري جاكسون اقرب الى تل ابيب من موشي دايان واخلص

للصهيونية من مناحيم بيغن، لايفتح عيناه في الصباح الا لكي يشتم الخميني ويهزأ من الاسلام ويهدد العرب ويتباكى على عصر الشاه ويتغنى بديمقراطية اسرائيل!

لو عدنا الى التاريخ الحديث وسألنا لماذا هربت الديمقراطية من معظم دول اميركا اللاتينية مثلا ايضا، واستبدلت الحكم البرلماني والنيابي والرئاسي بحكم الدكتاتور الفرد لوجدنا ان اميركا مع بعض دول اوروبا كانت كلها السبب:

● الاستعلاء الاميركي مع الغرور والصلف تجاه شعوب اميركا الجنوبية.

● سوء المعاملة والكيد والاستغلال وعدم الوفاء بالعهود المقطوعة والتراجع عن كل المعاهدات المبرمة.

● تسلل الاصابع الاميركية الخفية الى مواطن الثروات في دول اميركا اللاتينية لاستغلالها لحساب الشركات الاميركية.

● اللعب الخفي من وكالة المخابرات الاميركية ضد امن وسلامة الكثيرين من حكام دول اميركا الجنوبية واعتراف رؤساء وكالة المخابرات الاميركية انفسهم في مختلف مذكراتهم.

● الاصرار الاميركي على طبع حقبات التاريخ لعمر دول جنوب اميركا بطابع الفشل والانهيار.

● انزال القوات الاميركية ـ لاكثر من عشرين مرة ـ منذ عام ١٩٠٥ ـ ١٩٦٥ على دول بحر الكاريبي، كجمهورية الدومينيكان ونيكاراغوا وتنصيب عهود الدكتاتور الفرد في تلك الدول.

● فرض رجالات اميركا ومعتمديها وعملائها على رأس مراكز السلطة المختلفة في دول اميركا اللاتينية.. مثلا الرئيس «الليندي» في تشيلي، والرئيس «بيرون» في الارجنتين، و «تروجللو» في جمهورية الدومينيكان، و «جولارك» في البرازيل، و «باتيستا» في كوبا، و «اربنس» في غواتيمالا و «كبريانو كاسترو» في فنزويلا، وغيرهم وغيرهم مما ادى ـ مباشرة وبصورة عكسية ـ الى سقوطهم واستبدالهم بحكام اخرين ايضا متطرفين من طراز المستر بينو شيك في تشيلي وجوان بوش في جمهورية الدومينكان، وكاسترو في كوبا، مع عميل المخابرات الاميركية الشهير في غواتيمالا الكولونيل كاستللو ارماس وغيرهم وغيرهم..

ولو عدنا ايضا الى صفحات التاريخ المعاصر وسألنا لماذا هربت الديمقراطية من دول كاليونان، والبرتغال، واسبانيا، قبل ان تعود اليها مؤخرا، لوجدنا ان التدخل الاجنبي اميركيا كان ام سوفياتيا في شؤون كل هذه الدول بقصد خلق المشاكل وافتعال الازمات لها هو الذي ادى الى سقوط علم الديمقراطية من اعلى شرفاتها. .

● في اليونان مثلا. . ظنت اميركا ان خير ضمان لبقاء الديمقراطية في اليونان هو في انضمامها الى حلف الاطلنطي. وعندما انضمت اليونان الى هذا الحلف عام ١٩٥١ واصبحت رقعة في ظل النفوذ الاميركي لم تستفد شيئا. ولا حكم رجل مثل «قسطنطين كرامنليس» ولا نفوذ عملة كانت يومذاك رائجة ومهمة كالدولار الاميركي، استطاع انقاذ اليونان من تحدي رجل مثل «جورج باباندريو» الذي تحدى بدوره الملك قسطنطين الثاني وادخل البلاد في دوامة من الاضطرابات التي دامت ١٨ شهرا كاملا، جاء على اثرها حكم الكولونيلات مع دكتاتورية عسكرية مظلمة يرأسها الكولونيل جورج ببا دوبلوس لم تتردد في القضاء على النظام الملكي اليوناني عام ١٩٧٣. وعندما سقط هذا الحاكم جاء بعده البريكادير «الوانيدس» رئيس البوليس الحربي فحكم مدة عام كامل ملأ البلاد خلالها بالاسى والاضطراب والفقر ولم ينته الا بمأساة قبرص واحتلال تركيا لنصف الجزيرة ثم عودة الرئيس القديم قسطنطين كرامنليس بالذات لانقاذ الموقف وتحمل المسئولية من جديد!.

وعندما رفعت اميركا يدها عن اليونان، وعندما توقفت اصابع وكالة المخابرات الاميركية عن التدخل، وعندما لم تعد قضية قبرص او مد تركيا بالاسلحة السوفياتية او انضمام اليونان الى حلف الاطلنطي او الانطواء تحت الشمسية الاميركية هي قضية القضايا بالنسبة لليونان، عند ذلك فقط نجح كرامنليس في انتخابات عام ١٩٧٤ باغلبية كانت واضحة وادخل بعدها الدستور الجديد للبلاد ورفع علم الديمقراطية على وطنه.

● وكذلك الامر بالنسبة للبرتغال. . فقد مات سالازار بذبحة صدرية عام ١٩٦٨ وفتح الطريق امام الاجتهاد الشعبي لادخال نوع من الحكم الديمقراطي، وجاء «مارسيللو كاتينياو» رئيسا للوزراء وحاول المستحيلات لكي يدخل الانظمة الديمقراطية ويشجع القيادات الليبرالية على ان تحكم. . واستمر المجهود لمدة

عامين. . ولكن تصميم اميركا على خلق المصاعب المالية امام الرئيس البرتغالي الجديد وما رافق ذلك من تقلبات اجتماعية في الداخل وتشجيع اميركي ساذج للمعارضة الجديدة، كل ذلك حمل العهد على ان يتخلى نهائيا عن اي تيار ليبرالي او فكرة ديمقراطية واستعاد الرئيس نفوذه لكي يمارس حكم الفرد بلا رحمة ولا هوادة. ولولا اتفاق المعارضة مع العناصر المناهضة للفاشية من جهة، ومع الجناح الليبرالي للحكم الحالي من جهة اخرى وتولي رجل حكيم كفء كالجنرال «سبانولا» لكي يبارك مثل هذا الاتفاق لما نجح احد في البرتغال في اسقاط تلك الدكتاتورية العسكرية القائمة يومذاك. .

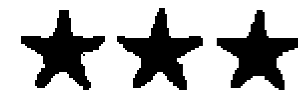
ومع ذلك فقد سقط الجنرال «سبانولا» بعد شهور وادى اللعب الاجنبي وراء الستار الى انتصار المد الراديكالي المتطرف مع تأميم المرافق والمصانع وسيطرة الشخصيات الشيوعية على الاوضاع وعلى نقابات العمال وعلى دور الصحف، ولم تأت ردة الفعل الطبيعية على مثل هذه الهجمة الحمراء او تعود الاوضاع الى طبيعتها او ينتهي الحكم الفرد «فراسكو كوناك ليفس» في عام ١٩٧٥ الا بعد ان انقطعت الايدي الاجنبية عن اللعب وراء الستار وكفت عن تمزيق صفوف الجيش البرتغالي بقصد ضربه من الداخل ـ تماماً كما يحدث في بعض اجزاء الشرق الاوسط، وتوقفت عن وضع المزيد من المشاكل الاقتصادية والقضايا السياسية امام الشعب البرتغالي. .

عند ذلك فقط عادت الوية الديمقراطية الى البرتغال. .

ومثلها اسبانيا. . واقرأوا تاريخ اسبانيا الحديث. . فقد مات فرانكو واغتال جماعة الباسك رئيس الوزراء الاميرال «كارينو بلانكو» وجاء كارلوس نفارو مكانه لكي يحاول ويعيد الديمقراطية الى ربوع اسبانيا ولكن بلا جدوى.

لماذا؟ اقرأوا تاريخ واتجاهات وارتباطات ذلك الرجل المشبوه. . فكان لابد للملك خوان كارلوس ان يتدخل اذ عمد الى طرد «كارلوس نفارو» وجاء بـ «ادلفو سواريس» مكانه. . ولاول مرة بدأت نسائم الديمقراطية تهب على اسبانيا من الداخل والخارج. . ذلك، انه لم يأبه بنصائح واشنطن ولا بضغوطها عندما سمح للاحزاب كلها. بما في ذلك الحزب الشيوعي ان تؤسس نفسها وتنتشر وتعمل بكل

الشرعية ثم عفا عن كل المسجونين السياسيين شيوعيين ويمينيين وغيرهم، ثم اجرى الانتخابات رغم تهديد اليمين الغبي المعتمد على تأييد اميركا وغيرها ولم يمض عام ١٩٧٨ حتى كان الحزبان الرئيسيان في البلاد يتعاونان على وضع اول دستور ديمقراطي صحيح للوطن الاسباني بعيدا عن آراء ووصايا واصابع الولايات المتحدة الاميركية او الاتحاد السوفياتي على السواء..



اعود واسأل لماذا هربت الحرية وهربت وراءها الديمقراطية من حياة دول العالم وشعوبه؟.. وبالأخص: من حياة العرب وحياة دولهم؟!

● لماذا اصبح من الصعب على شعب ايران ان ينسى بأن الشاه السابق وبأوامر اميركا هو الذي قهر الفكر في ايران واضطهد الاقلام وسجن الصحفيين وعذب الشعراء والادباء وحكم البلاد بالكرباج والدم فأصبح يرضى بحكم الخميني ويرحب بأي خميني اخر؟..

● لماذا لايريد الشعب العربي ان ينسى ما الذي فعله به «هاري ترومان» عام ١٩٤٨ وكيف عاشت اسرائيل بالقهر والضرب والعنف مستندة الى سلاح اميركا ومالها وتأييدها على حساب الحق والعدالة واصبح الشعب العربي يكفر بكل ماهو اميركي وديمقراطي وغربي؟..

● لماذا تتهدد اخر معاقل الحرية والديمقراطية في هذا الشرق بالموت ويتحول المعتدلون الى ثوار والديمقراطيون الى دكتاتوريين والمتسامحون الى متعصبين والحلفاء الى اعداء والعقلاء الى مجانين وهم يشاهدون اكبر دولة ديمقراطية في العالم تمارس انذل الادوار السياسية وسط معالجتها لاخطر قضايا التاريخ المعاصر فيتلفتون باحثين عن عبد الناصر جديد؟

وكما كان ـ ولايزال ـ من الصعب على الشعب الصيني مثلا ان ينسى مأساته مع الاتحاد السوفياتي او يغفر لموسكو جرائمه ضده او لايتذكر محاولاتها المتكررة لتجويعه وترويضه اقول.. رغم كل عداء الصين للاتحاد السوفياتي على المستويات السياسية والعقائدية والعنصرية و «الحدودية» الا ان عداء التسعمائة مليون صيني لمئتي مليون اميركي قد فاق في سواده وعمقه كل عداء.! هذا ما لمسته بنفسي عام ١٩٦٥ في

زيارتي للصين، ثم عدت وتأكدت منه في زيارتي الثانية لها خلال اقامتي في ربوع ذلك البلد العظيم . .

ان الشعوب لاتنسى اعداءها الذين يحاصرونها بالاساطيل ويضربونها بالقنابل ويتآمرون عليها سرا ويغمرونها بالمخدرات لقتل روحها وكيانها ومجتمعها . . كذلك فان من الصعب على الشعب العربي وعلى شعب فلسطين ولبنان خاصة ان ينسى دور اميركا او سلاح اميركا او طائرات اميركا في ضربه واحتلال ارضه وحرق مدنه حتى ولو جاءه الف مبعوث سلام ومحبة ابتداء بالمستر «دين براون» او «دوغلوس هير» وانتهاء بالمستر «فيليب حبيب» أو «ريتشارد مورفي» ورغم كل مساعي التهدئة ووساطات الهدنة التي تمهد لعقد مؤتمرات اللقاء المنشود من أجل السلام !

وبقدر مايساعد الرخاء على مد عمر الديمقراطية عند الدول يساعد التدخل الاجنبي والمؤامرات الخارجية على غرس روح التطرف والعداء عند الشعوب! وسينقضي وقت طويل قبل ان تستعيد اميركا ثقة شعوب العرب بها وبديمقراطيتها. وكان يكفي الاتحاد السوفياتي ان يبقى بعيدا ضمن حدود ارضه ليشاهد سعيدا كيف ستنفجر الديمقراطية الاميركية في دنيا الشرق الاوسط بأيدي رؤسائها وشيوخها ووزرائها وصحافتها وخطوط سياستها.

اميركا تعلم جيدا ان مأساة عام ١٩٤٨ وقيام دولة اسرائيل في ظل حراب واشنطن هي الباب الذي دخل منه اول انقلاب لحسني الزعيم في دمشق واول ثورة لمحمد نجيب وجمال عبد الناصر ضد الملكية في ثورة ٢٣ يوليو. ! الظلم والشعور بالقهر ورفض الهوان وعدم تقبل الهزيمة هو الذي يسر على السوريين وعلى المصريين وعلى العراقيين فيما بعد الكفر بالديمقراطية والاحزاب والقبول بحكم الفرد حتى ولو كان ذلك الفرد من طراز حسني الزعيم في سوريا ونصف مجنون ونصف عاقل مثل عبد الكريم قاسم في بغداد. الضغط والمناورات الاميركية على مصر ومحاولة ارغام جمال عبد الناصر على قبول حلف بغداد او الانضمام الى ميثاق ايزنهاور هو الذي فتح ابواب مصر على مصراعيها امام السوفيات.

وكما جرى امس قد يجري اليوم وقد يجري غدا . .

وقد يرقص قلب اميركا لانها وجدت حاكما في حجم السادات لكي ينزع فتيل

الحرب ضد اسرائيل . . ولكن ما فائدة مثل هذا السلاح الكسيح وما قيمته اذا جاء على حساب احتمال ذهاب الديمقراطية بأسرها وذهاب الحرية من شروشها من بعض اجزاء اخرى كثيرة في خريطة الشرق الأوسط ؟ لماذا لاتريد اميركا ان تفهم عقلية هذا الشرق وطبعهم وفلسفة حياتهم وتاريخهم المعاصر؟ .

لماذا لاتريد اميركا ان تفهم بأن كل ماجرى في ايران ـ رغم كل معارضتنا نحن للعنف وهدر الدماء ـ هو مجرد اول خطوات المسيرة الطويلة المرعبة سواء داخل البلد ام خارجه ما دامت عقلية اميركا لم تتطور ولم تتبدل في النظرة الضيقة الجاهلة الى الثورات والى رجالاتها وبالاخص الى تطوراتها ومسيراتها؟ متى تفهم اميركا ان مثل هذا القرف هو الذي دفع بالثورة الى القاء كل معاهداتها القديمة التي تربطها باحدى الدولتين الاعظم في بحر خليج العرب .

علة اميركا انها اقوى من كل حاكم من حكامها، واخطر من كل رئيس من رؤسائها . ! علتها انها تمارس السياسة بعقلية التاجر وتمارس التجارة بعقلية الكاوبوي، وتمارس رياضة المشي او الركض بعقلية جيمي كارتر . ! علة اميركا انها سطحية ساذجة خرافية آلتها اعظم من عقلها وكلماتها اصغر من اصغر مايكرفون في اصغر اذاعة من اذاعاتها . . علة اميركا ان يحكمها بالامس مغامر مثل نيكسون وممثل مثل كيسنجر او ريغان وطفل كبير مثل كارتر وقد يحكمها غدا بيلي كنيدي اجارنا الله من مغامراته ونسائياته وصهيونيته . ! علة اميركا ان تعهد بحل ماتبقى من قضية فلسطين الى رجل مثل روبرت شتراوس واذا ماتبين فشله سحبته فورا الى وظيفة انتخابية اميركية داخلية لكي يحل محله مفاوض فاشل سابق حول قضية بناما، او فيليب حبيب، او ريتشارد مورفي، او الايطالي الاصل المستر «سيسكو»، او اليهودي الطابع والدين المستر لينوفتش !

وهكذا تضيع الديمقراطية وتضيع معها الحرية في معظم بقاع هذا الجرم الصغير . .

ذلك ان قيمة اهل السياسة بأعظم بلاد السياسة قد رخصت وقيمة الصدق في اقوال ساستها قد تضاءلت! كانت ذكريات رجالاتها تكتب وتجمع وتنشر في الكتب لكي يقرأها طلاب الجامعات فأصبحت مذكرات وزراء خارجيتها مجرد اكاذيب او

عبادة الذات او تزوير الوقائع او تمجيد اليهود او تجديد فترة الرئاسة او استجداء اي تأييد شعبي !

وسيقول التاريخ انه في عام ١٩٧٩ مثلاً،تعرضت مالية الفاتيكان الى اسوأ ازمة في تاريخها كما تعرض موسم الزراعة في بولونيا الى ازمة اكثر سوءا . . ولكن السوء الاكبر هو ما تعرضت اليه مستويات القيادة في الولايات المتحدة الاميركية مع مستويات الحكمة والصدق والامانة في اتجاهاتها .

ألا يكفي هوانا ومهزلة ان تجد البشرية نفسها في حالة اختيار محزن بين طفولة كارتر ورعونة كنيدي او بين تفاهة المستر مونديل وعجز ريغان؟ اليس مما يدعو الى الدهشة البالغة ان لايبدأ القلق في الصين الابعد هذا التقارب السريع بين الصين واميركا على حساب الاستقرار والامن في منطقة جنوبي شرقي آسيا؟ . .

هكذا ولاجل هذا وبسببه تتعالى انات الحرية والديمقراطية من بقية زوايا هذا الشرق الصابر الحزين .

ومن يدري فقد تتحول كل انة من هذه الانات غدا الى حشرجة من حشرجات الموت . .

اقرأوا قصة اغتيال رئيس كوريا الجنوبية! الا ترونها قد بدأت تسير في طريق الحكم الدكتاتوري بعد عشرين سنة من زواجها الكاثوليكي مع اميركا . ؟ ثم اقرأوا صحف اميركا نفسها وترحموا معي على السياسة الاميركية قبل ان تترحموا معي على الديمقراطية وعلى الحرية في هذا العالم .

لقد قتلت الولايات المتحدة الاميركية، بسياستها العدائية الساذجة، وطابعها في عدم المبالاة، كثيراً من مباني الحكم الديمقراطي في العالم عامة، وفي دنيا الشرق الاوسط خاصة . .

لعل اميركا كانت -عن عمد- تنفذ قول «توماس جيفرسون» وهي ترى الانقلابات العسكرية تجتاح الشرق الاوسط . فقد كتب هذا الزعيم الاميركي الكبير في عام ١٧٨٧ رسالة الى صديقه «جيمس ماديسون» يقول له فيها «ان انطلاق ثورة هنا ، او ثورة هناك ، ومن حين الى حين ، لأمر لا بأس به مطلقاً . . »!

وما كان لاميركا ان تملك كل هذا التأثير السلبي على ديمقراطية الحكومات في

الوطن العربي لولا اعتماد العرب - بعض العرب - عليها، وارتمائهم في احضانها وعدم قدرتهم على خلق الاوضاع القادرة على ان ترد.. وتصحح.. وتفسد المؤامرات.

● اذا كانت السياسة هي «فن الممكن»، فاني لا اطالب بهذه السطور الا بما هو ممكن.. فقط!

وكان من الممكن جداً ان يتولى العرب -كل العرب- مهمة اشعار امـيركا بالوجود العربي وبالقوة العربية وبالمصالح الاميركية لدى العرب.

وهكذا تكون ترجمة صيحة «الجهاد المقدس» الى عمل ملموس، معقول ومنطقي!

اميركا تشكو لنا، وللعالم عجز ميزانيتها وعجز مدفوعاتها، وعجز امكانياتها، ومع ذلك، فان اميركا تحت الضغط الاسرائيلي، والصوت الاسرائيلي لاتملك الا ان تعطي وان تدفع وان تستجيب..

اليس من حق اصدقاء اميركا في المنطقة دعوة اميركا الى ان ترحم نفسها وتوفر مالها لنفسها وتتمرد - ولو قليلا - على الضغط والجشع والاستنزاف اليهودي التقليدي.. ؟؟

● اليس من واجب اصدقاء اميركا بين العرب، الدفاع عن اميركا ضد الذين يمتصون دم اميركا ويهددون مصالح اميركا ويفتحون ابواب الشرق الاوسط للتيارات الخطرة نتيجة اخطاء السياسة الاميركية ونتيجة سيطرتهم على تلك السياسة في هذا الجزء من العالم. ؟

لماذا يكون من حق نيكسون او ايزنهور او جيرالد فورد التهديد «باعادة النظر» في العلاقات الخاصة بين اميركا واسرائيل ولايكون ذلك من حق رونالد ريغان مثلا؟

لماذا يكون من حق هنري كيسنجر - عندما كان وزيرا للخارجية الاميركية - ان يهدد يهود نيويورك وينذر «هنري جاكسون» بضرورة سحب مشروع تعديل القانون الاميركي الذي يحتفظ للاتحاد السوفياتي بمركز «الشعب المفضل في التعامل التجاري» حفاظاً على علاقة اميركا بالاتحاد السوفياتي، ولايكون من حق «شولتز» - مثلا - ان ينذر يهود نيويورك حفاظاً على بترول العرب او علاقة اميركا بالعرب او

مصالح اميركا في منطقة الشرق الاوسط؟!

هل تعرفون قصة هنري كيسنجر ضد يهود نيويورك في عام ١٩٧٢؟

● في ذلك العام، وفي شهر اكتوبر، تقدم «هنري جاكسون» عضو الكونجرس واكبر دعاة وانصار اسرائيل في اميركا بمشروع قرار من شأنه ان يدخل بعض التعديل على القانون الذي يحدد علاقة اميركا التجارية مع الاتحاد السوفياتي بحيث تشرط هذه العلاقة فتح ابواب روسيا امام هجرة اليهود بحرية تامة. !

وجن جنون هنري كيسنجر. وادرك ان نتيجة انتصار هذا المشروع نسف علاقة «الوفاق» التي بناها مع الاتحاد السوفياتي! وذعا زعماء اليهود في نيويورك الى مكتبه وطلب منهم الضغط على «هنري جاكسون» بضرورة سحب مشروعه من الكونجرس والا فان الرئيس ـ والادارة الحالية كلها «لن تلبي طلبات اسرائيل الملحة للحصول على السلاح..».

وفضح القصة البرفوسور «آلين بولاك» في خطاب له امام المؤتمر الصهيوني بالقدس في نوفمبر عام ١٩٧٣.

وكانت النتيجة ان انتصر هنري كيسنجر وتراجع يهود نيويورك وسحب «هنري جاكسون» مشروعه من الكونجرس!

فاذا كان وزير خارجية اميركا قادراً على ان يتحدى كل يهود اميركا لحساب موسكو وعلاقته الشخصية مع اقطابها، فلماذا لا يقدر وزير خارجية اميركا على ان يتحدى يهود اميركا لحساب ثمانمائة مليون مسلم ومائة وسبعين مليون عربي...؟!

ان الذين تعلموا في الجامعات الاميركية او درسوا تاريخ اميركا المعاصر، يعرفون بلا شك العبارة المشهورة التي اطلقها الرئيس الاميركي الراحل «هربرت هوفر» في ديسمبر من عام ١٩٣٠ ضد تصرفات بعض رجال الكونجرس الاميركي وقال فيها بالحرف:

«انهم يمارسون السياسة على حساب تعاسة البشرية».. !!

والذين قرأوا حياة الرئيس الاميركي الراحل «ويدرو ويلسون»، بطل السلام ومهندس «عصبة الامم» بعيد الحرب العالمية الاولى يذكرون بلا شك عبارته المشهورة التي هاجم بها بعض الاميركيين الذين بخلوا على اميركا بالاخلاص

والولاء وظلوا مشدودين الى اصولهم القديمة في بلاد اجنبية قائلا عنهم في عام ١٩١٤ «ان بعض الاميركيين تحتاج اسماؤهم الى «وصلة» تربطهم بهذا البلد حيث لم يظهر منهم حتى الان سوى بعض اجزائهم فقط . . »!

ويشاء ربك ان تستمر الرواية ـ روايتنا مع اميركا وروايتها مع العالم فاذ بنا لانقدر ان نصدق ما نراه امامنا ، وبعيوننا .

لانصدق مثلاً بأن اميركا تساعد الثوار الافغان وتمدهم بالسلاح الحديث لكي تجعل من هذه المساعدة ـ فيما بعد ـ «سلعة» قابلة للتفاوض بشأنها مع السوفيات حول قضايا عالمية اخرى لاعلاقة لها بأفغانستان ولا بالدين الاسلامي الحنيف الذي تتظاهر اميركا بالتباكي عليه والرثاء من اجله .

لانصدق شيئا من ذلك! ولانصدق ان هدف اميركا بخصوص افغانستان هو مضاعفة الثمن المطلوب من السوفيات دفعه مقابل غزوهم لافغانستان! وان مقاطعة دورة الاولمبياد او منع تصدير القمح او الحظر على تبادل التكنولوجيا كل ذلك ليس بالعقاب الكافي للروس على غزو افغانستان. المطلوب هو مضاعفة الثمن، وبلا حدود، وبصورة تقبل التفاوض وتصلح لان تكون موضعا لمثل هذا التفاوض! فنحن لانصدق بأن اميركا تعترف للسوفيات بمصالحهم الخاصة في افغانستان لا!استغفر الله!اميركا اكثر »اخلاقا»وأقل سواءا من ان تفعل ذلك!ولا نصدق انها اخبرت السوفيات بأن غزو افغانستان هو اخر مطلب سوفياتي «تقبل» به اميركا! ولانصدق بأن اميركا تقف وراء الصين في تحريكها ودفعها للتشهير بالسوفيات بسبب افغانستان! لا . . . لا نصدق شيئا من ذلك، ونكتفي بأن ندين السوفيات ونلعن سنسفيل جدودهم ونستنكر اعمالهم ونتهمهم بنسف الوفاق الدولي واشعال الحرب الباردة وتهديد السلام العالمي لولا ان رأينا اميركا بالذات تقوم بمثل هذه الاعمال المحمومة مع مثل هذه الاراء الصبيانية التي لاتليق الا بالسكارى والحشاشين وضعاف النفوس والاخلاق . .

● في الصومال : استغلال ازمة الفقر من اجل بناء القواعد الاميركية بالثمن المتفق عليه . . !!

● في الصين : مكافأة الحكام الذين بدأوا يحاكمون تاريخهم وينسفون معتقداتهم

ويبدلون سياساتهم، بالاسلحة الاميركية. . !!

● في كمبوديا: التشهير بالاوضاع وبالناس.

● في افغانستان: جر الامم المتحدة الى حبائل لعبة سياسية مكشوفة. . !!

● في ايران: الحكام «برابرة» والعقاب الاميركي قادم في الطريق. !

● بينما اميركا تعلم علم اليقين ان قضية فلسطين ـ او قضية الشرق الاوسط ـ هي الباب الذي تسربت وما زالت تتسرب منه البضاعة السوفياتية ـ بكل عناصرها المبدئية والدعائية والبشرية والسرية ـ الى دنيا الشرق الاوسط عامة والى دنيا العرب خاصة. .

● وبينما اميركا تعلم علم اليقين ان التنظيمات الشيوعية في داخل اسرائيل وفي الضفة الغربية وقطاع غزه ومخيمات اللاجئين قد وصلت الى ذروتها بسبب الدعم الاميركي لاسرائيل واستمرار الاحتلال الصهيوني للضفة والقطاع برضى اميركا وموافقتها. .

● وبينما اميركا تعلم علم اليقين ان شعوب الشرق العربي بأسره لا ترى عدوا لها سوى اسرائيل ما دامت اسرائيل مصرة على الاحتلال والعداء، وان هذه الشعوب اقوى بكثير من حكامها، وان هذه الشعوب لن تعادي العرب ـ لحساب اليهود. !

اميركا تعلم كل ذلك، ولكنها تفضل ان تستمع الى ما يقوله لها كاتب عراقي الاصل يهودي الدين بريطاني الجنسية صهيوني النزعة اسمه «ايلي خضوري». !

هل سمعتم بهذا الاسم من قبل؟

«ايلي خضوري»، جعل من قضية الشرق الاوسط تجارة رابحة بالنسبة اليه، يؤلف عنها الكتب، ويحاضر عنها في الراديو والتلفزيون البريطاني، ويجمع من ورائها الالاف ويخدم من خلالها شعبه ودينه. .

لابأس. .

لولا ان «ايلي خضوري»- الاستاذ «العالم» في احدى جامعات لندن- يخضع الرأي العلمي لنزعته الصهيونية، ويلبس المنطق الصحيح لباس اليهودي العراقي. . القديم! فهو يقول في اخر كتبه عن «الشرق الاوسط» مثلا ان العرب يحاولون التغرير بأميركا ويكذبون عليها عندما يزعمون بأن الاعتراف بمنظمة التحرير

الفلسطينية «يساعد على كسب العرب لجانب اميركا»!.

ويتساءل «ايلي خضوري» بلهجة الصهيوني المحترف: ـ يقول العرب لاميركا ان تعترف بمنظمة التحرير لكي ترضي العرب! واذا رضي العرب.. ماذا؟! هل يتوقف الغزو السوفياتي لافغانستان؟ هل تنتهي المطامع السوفياتية في ارض الخليج وثرواته؟ وماهي قيمة منظمة التحرير؟ وما هي قيمة العرب بالنسبة للصراع الدولي!؟ وهل العرب قادرون على حماية انفسهم وثرواتهم ضد السوفيات؟ وما هي قيمة ان ينضم العرب الى اميركا في صراعها ضد السوفيات.؟!»

الى آخره.. الى آخره!

وبينما يقدر كل صاحب منطق سليم، وكل من يعرف حقائق المنطقة ان يرد على مثل هذا الحشاش الاستاذ او الاستاذ الحشاش بما هو كاف لان ينسف كلامه من أساسه، الا اننا نرى ونحس بأن اميركا قد اصبحت تفضل لنفسها ولسياستها ان تصدق كلام امثال ايلي خضوري على ان تصدق الحقيقة والواقع والمنطق السليم..

وهذا ماتدل عليه تصرفاتها والاقوال الصادرة عن رجالاتها. وبعد.

● رحم الله الزعيم المصري الراحل جمال عبد الناصر، فقد سمعته يقول لي ذات يوم من صيف عام ١٩٦٥ عندما ذهبت لوداعه قبل مغادرتي مصر الى اوروبا:

ـ لا تكتب لي عن المشاكل.. وانما اكتب لي عن حلولها! انني اعرف انك ستجد في اوروبا الف قضية والف مشكلة والف سر عن مصر وعن العرب. وانا لا املك الوقت ولا القدرةعلى ايجاد الحلول لكل هذه القضايا. فاذا كانت المشاكل تهمك، فلا تقف عند الأكتفاء بابلاغي عنها بل اكمل واجبك وقل لي عن الحلول المطلوبة..».

تذكرت هذا الكلام وانا انهي كلامي عن سياسة التخبط والحمى والعمى التي بدأت بها اميركا عهدها. الجديد.

وسألت نفسي: ما العمل؟ وما الحل؟

واجبت على الفور:

ـ الحل في اوروبا! الحل في الخلافات بين اوروبا الغربية من جهة واميركا من جهة اخرى! الحل في دعم المبادرة الاوروبية وتشجيعها واستغلالها! الحل في

تكريس وتشجيع الشخصية الاوروبية المستقلة! الحل في كسب اوروبا كمرحلة اولى نتسلح بها فيما بعد من اجل كسب اميركا. . اذا قدرنا!»

● ثم قلت:

ويجب ان نعرف كيف نستعمل موجات الحرب الباردة لمصلحتنا وان نستغل الخلافات الاوروبية الاميركية لمصلحتنا وان نعرف بأن حزمنا وحده، وصلابتنا وتضامننا وحده ، وقوتنا المالية والبترولية وحدها ، هي القادرة على ان توقظ حشاشي السياسة من أوهامهم السعيدة .

ان اميركا تتحدث دائما عن السلام. . فقط.

ورئيس اميركا الكبير «ودرود ويلسون» هو الذي قال امام الكونجرس الاميركي في ابريل عام ١٩١٧ : «هناك ما هو اغلى من السلام. هناك الحق. . »!

ومشكلة اميركا، بالنسبة الينا، محصورة في يهود اميركا! وفي عام ١٩١٧ قال تيودور روزفلت: اما ان تكون اميركيا مائة في المائة او لاتكون بالمرة! لانقبل عندنا مواطنين اميركيين لايتمتعون من اميركيتهم بأكثر من نصف واجباتها. »

ومصيبة اميركا ان بعض المهووسين المتهورين المغامرين من رجال السياسة فيها قد بدأوا يعزفون ألحان الحرب ويدقون طبولها على دخان الحشيش الاسود! لقد نسوا هؤلاء صيحة ويلسون في عام ١٩١٦ قبل ان تدخل اميركا الحرب، للكونجرس: «اننا نريد ان لاندخل الحرب. ولكننا نريد ايضا ان نحافظ على شرف اميركا. ويجب ان لانفضل خيارا على الاخر. . »!

الى آخره. . الى آخره.

ولكن مصيبة اميركا، بل مصيبة العالم مع اميركا، انها تتغنى كثيرا بالمعاني الرفيعة وبالاخلاق السامية وبالمبادىء السماوية ولكنها ـ للاسف الشديد ـ لاتمارس من هذا كله. الا أقل القليل!

انظروا!

إن النفوذ الصهيوني المسيطر على السياسة والأعلام والمال الاميركي، يريد ان يحرم العرب من نعمة الديمقراطية ومن نعمة الاستقرار.

وقد نجح هذا النفوذ خلال الأربعين سنة الماضية في أكثر من بلد عربي فخلق

له المشاكل وحرمه من القروض وفتح امامه باب الانقلابات العسكرية التي مهدت لحكم الفرد وضياع الحرية . وتلاشي الحكم الديمقراطي !

وسيمضي هذا النفوذ الصهيوني في مؤامراته حتى النهاية . وكان على الذين يذهبون الى واشنطن من زعماء العرب ، ومن قاتهم للبحث ، والزيادة ، والتشاور ، وجني القروض ، وطلب العون ، ادراك هذه الحقيقة البسيطة والعمل بموجبها .

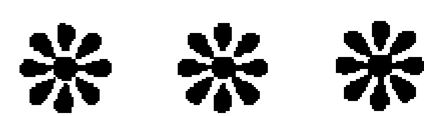
ولعل معظمهم لم يعد بحاجة الى نصيحة من احد . فقد رأيتهم في «واشنطن» ، ورأيت مدى ما أصابهم هناك من غطرسة الكونجرس ولؤم الصحافة وتجاهل البيت الابيض ، بما فيه الكفاية . ! ولكن . . . ؟ سألت ذات يوم الرئيس السابق « جيمي كارتر » لماذا غرر بأنور السادات وخدعه وأرغمه على الغوص في مستنقع معاهدة « كامب ديفيد » ، فأجابني كارتر ، رئيس اميركا السابق ، كان الرئيس السادات يوافق على مقترحاتي تلفونيا وقبل ان يصل الى واشنظن ! كان هو الذي يطلب مني ان أطلب منه الأشياء التي قد ينفر منها العرب . انا لم ارغم « صديقي » السادات على شيء ، وبكل سعادة . . » ! انتهى كلام جيمي كارتر ! وبين الجهل الامريكي من جهة ، وعمالة انور السادات من جهة أخرى ، إنحدرت قضايانا السياسية الى الحضيض . بين المعلم والعميل ، تلاشت الديمقراطية العربية واستمر حكم الفرد وبقي الديكتاتور العربي في منصبه . . .

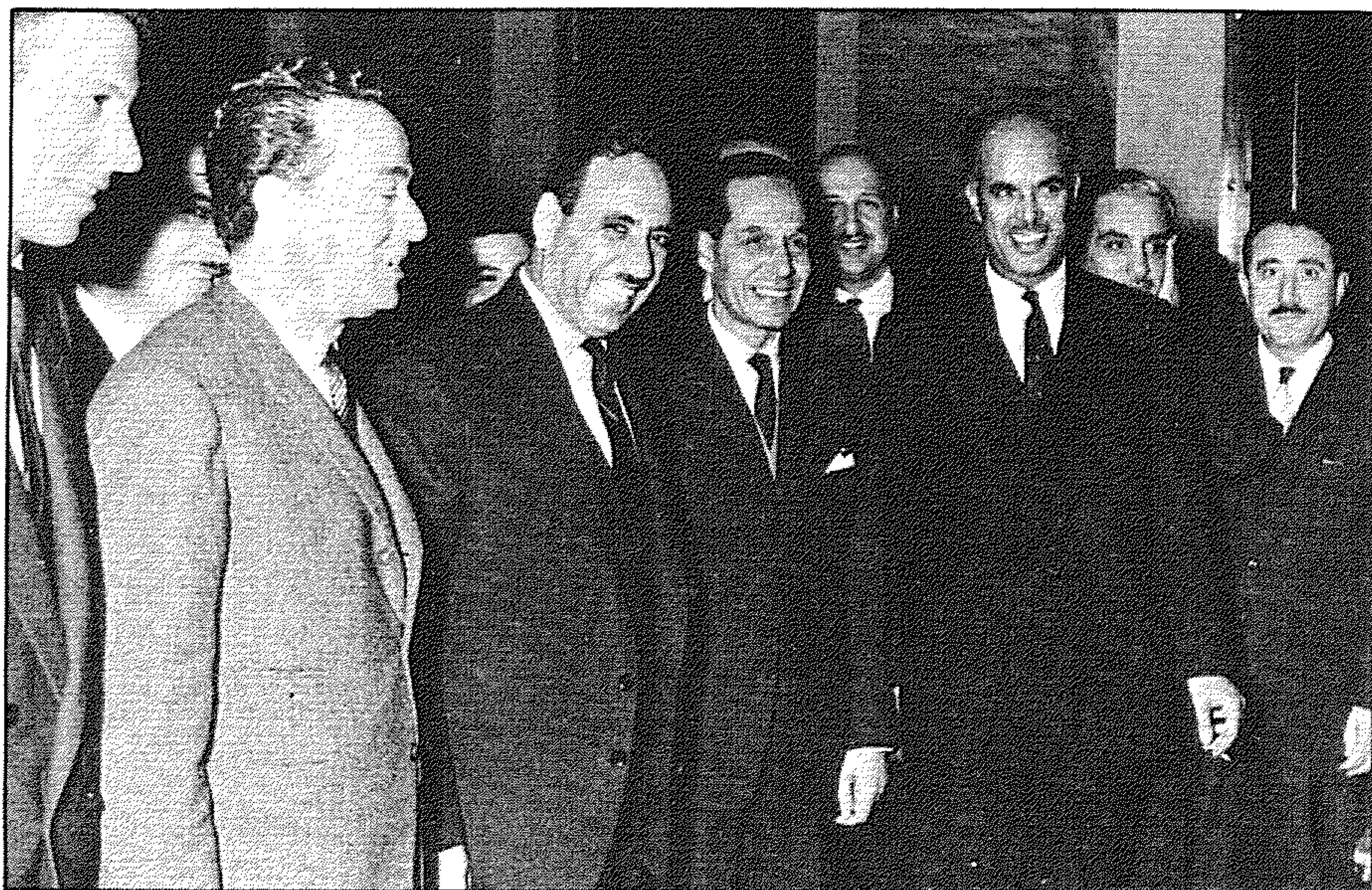
وفي تأييدها للغزو الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ ، بالاسلحة والطائرات والقنابل الاميركية ، استطاعت اميركا أن تحطم كل معاني الحياة الديمقراطية في لبنان . . وان تحطم لبنان نفسه !

وفي تأييدها للغارة الاسرائيلية على تونس في عام ١٩٨٥ ، استطاعت أميركا أن تضع الديناميت الذي ستنسف به كل معاني الحياة الديمقراطية في . . تونس !

واللیالي من الزمان حبالى

مثقلات يلدن كلّ عجيب . .





الرئيس العراقي عبد السلام عارف والى يمينه ناصر الدين النشاشيبي



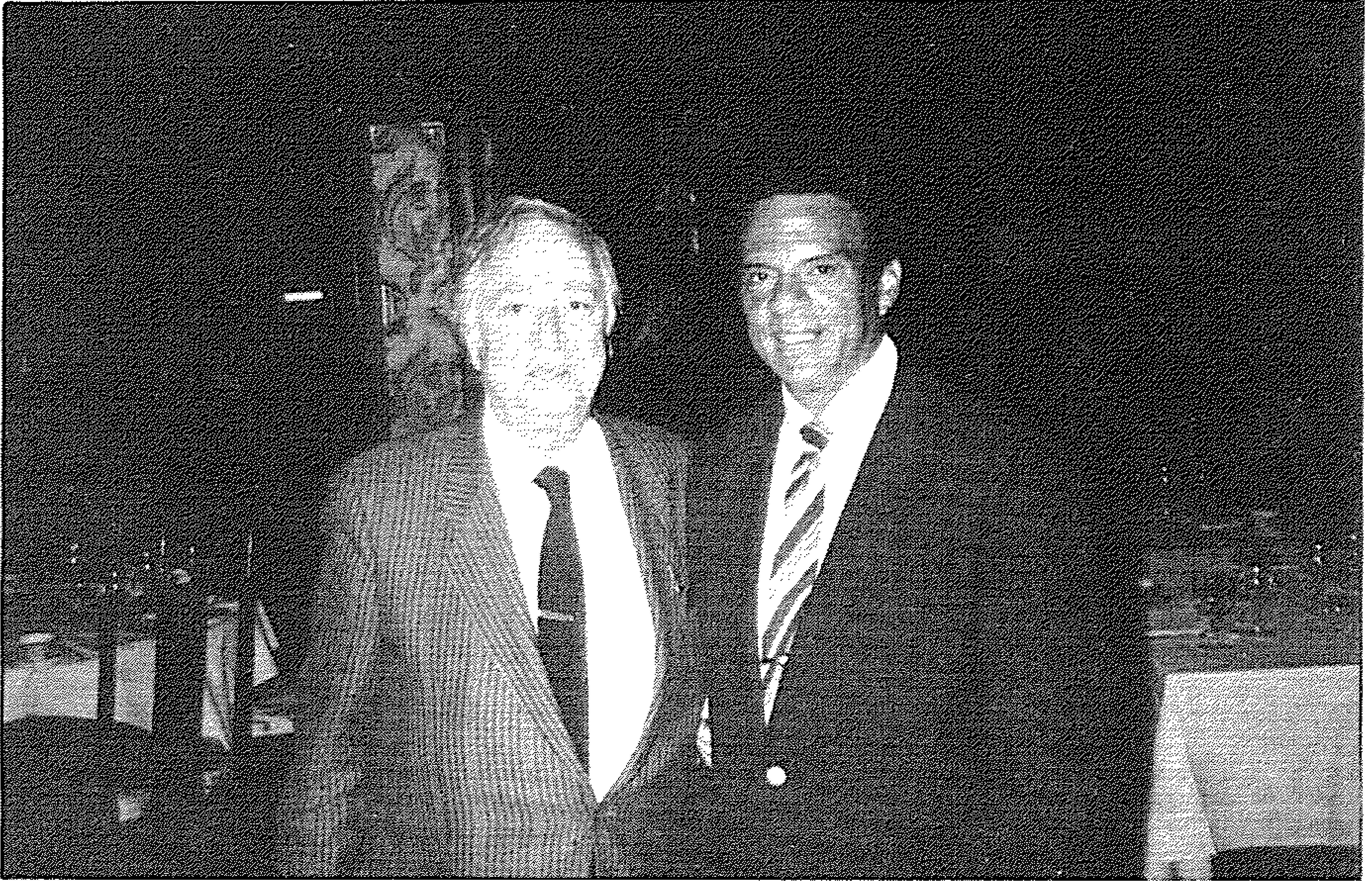
نوم هادىء في الامم المتحدة



في القدس قبيل مصرع الملك عبد الله بشهر واحد
من اليسار الى اليمين روحي باشا عبد الهادي، عبد الرحمن خليفة، سعيد باشا المفتي، ناصر الدين النشاشيبي، الملك عبد الله. هاشم الجيوسي. الشيخ عبد الله غوشه وعارف باشا العارف.



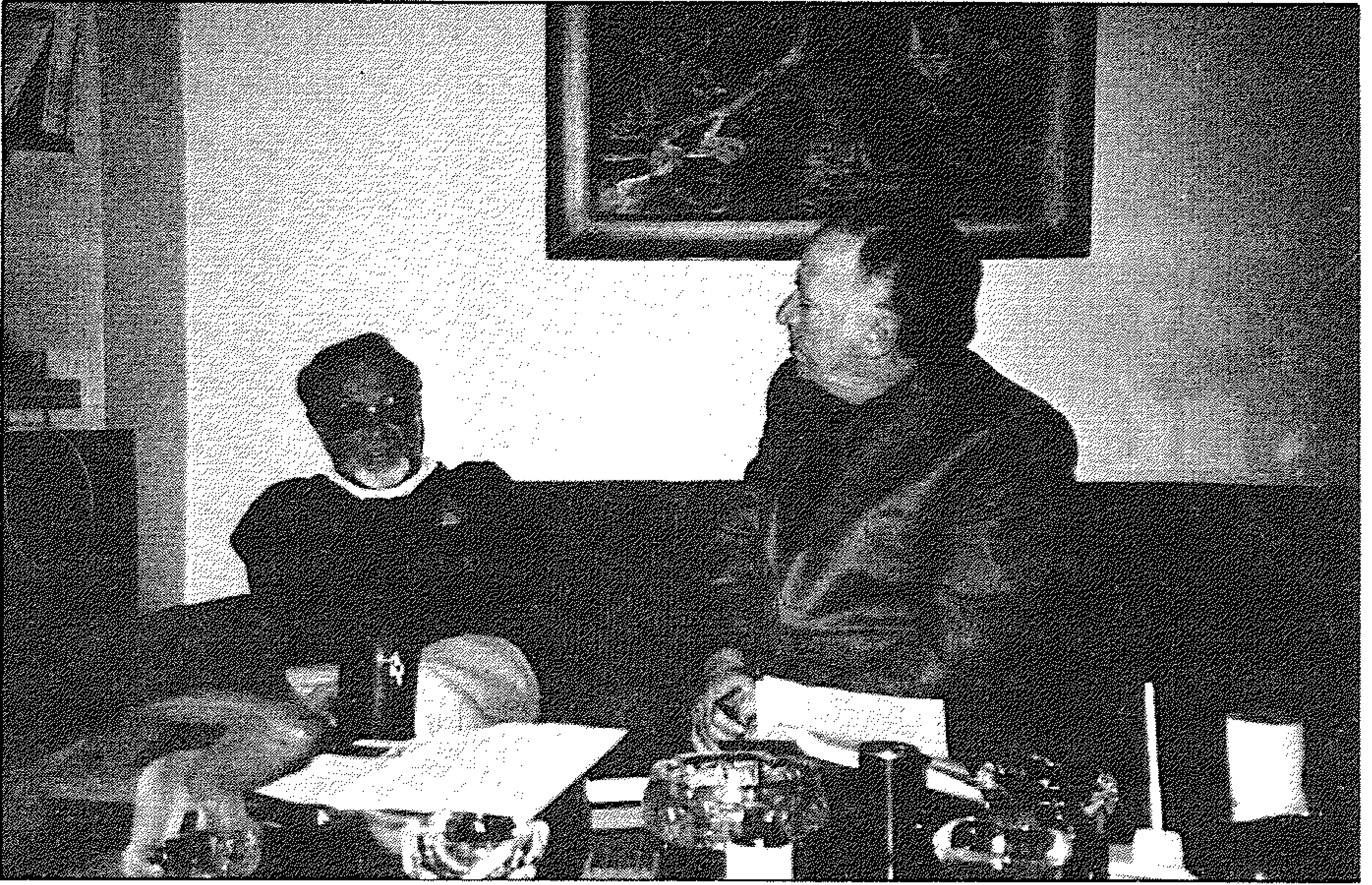
مع الرئيس السوداني السابق جعفر نميري



ومع مندوب اميركا في الامم المتحدة اندرو يونغ الذي فقد منصبه بسبب لقائه مع مندوب منظمة التحرير.



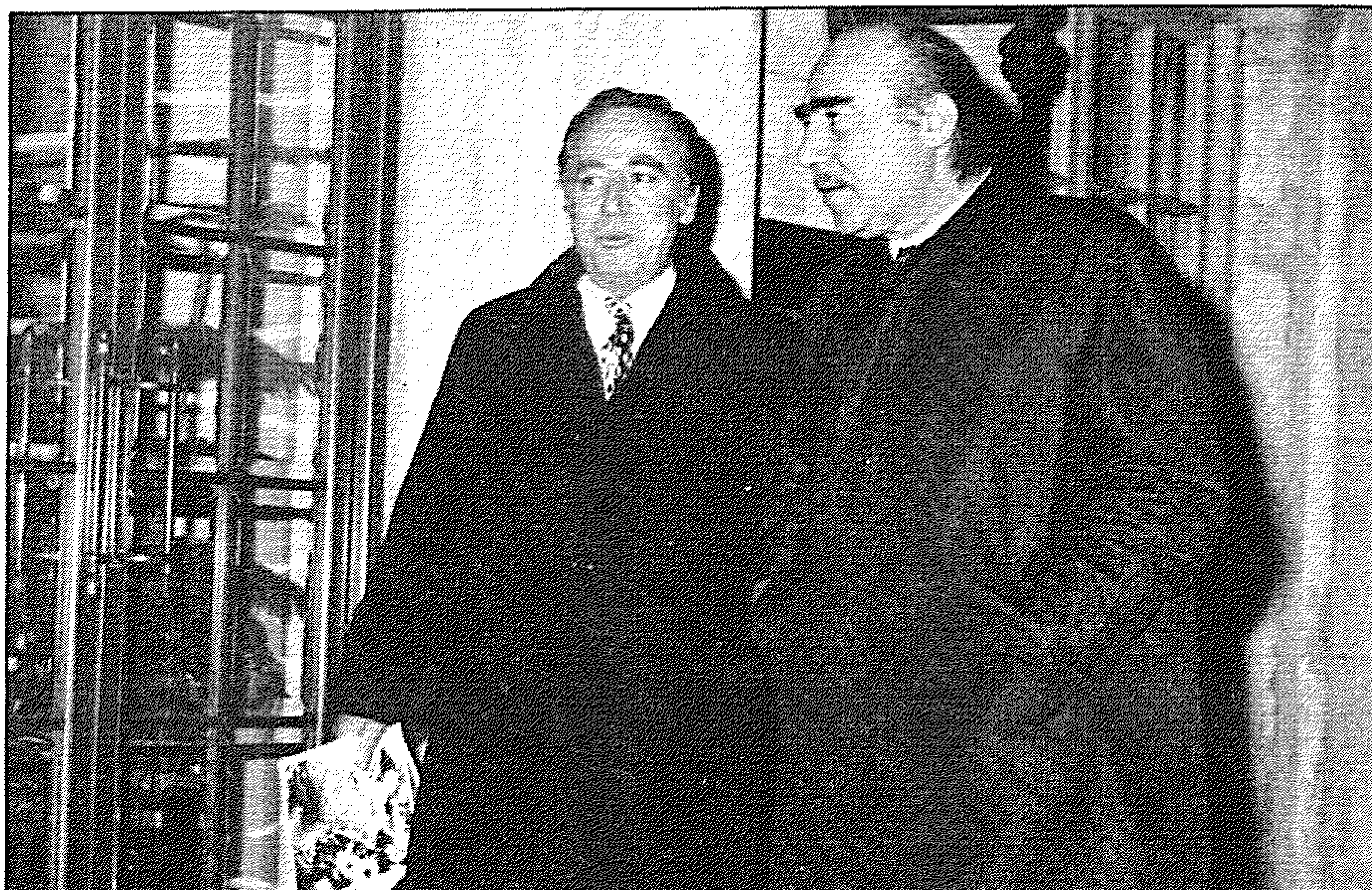
ومع اول سفير لاميركا في اسرائيل جميس ماكدونالد.



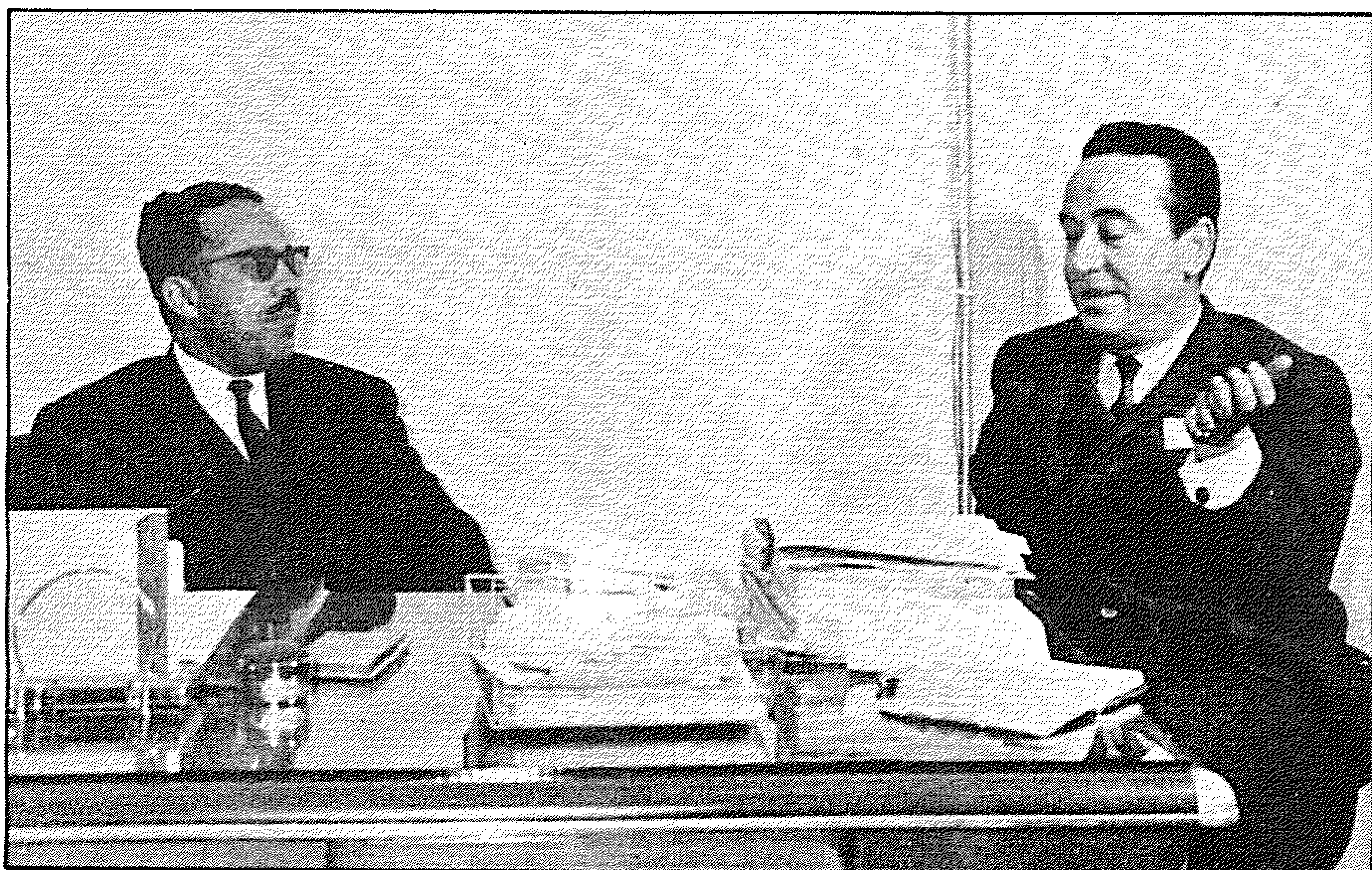
المؤلف مع المستشار النمساوي «برونو كرايسكي» عام ١٩٨٢



«. . . ونظرت صوب الوزير المصرية حكمت ابو زيد فرأيتها تمسح دموعها من التأثر»!



كان صديقي كمال رفعت يطلعني على تقارير المخابرات المصرية عن العرب
ويا ليته عمد الى نشرها قبل فوات الآوان. .



مع سعيد القزاز الذي تنبأ بالمجازر والمشانق في بغداد

الفصل السادس عشر
أشقاء كالأعداء أو أسوأ قليلاً!

● هل حظي الاردن من اشقائه العرب بما يحظى به ـ في العادة ـ الشقيق الصغير الضعيف الفقير؟!

● زيارة الحسين لواشنطن في ديسمبر ١٩٨٢، ثم زيارته لواشنطن في مايو ـ يونيو ١٩٨٥؟

● بداية الهزائم كانت في مؤتمر «انشاص» عام ١٩٤٦ ورغم ذلك، فقد وصف الرئيس القوتلي مؤتمر انشاص: "اعظم مؤتمر عربي في تاريخ العرب منذ الف سنة!"

الفصل السادس عشر
أشقاء كالأعداء أو أسوأ قليلاً!

في يوم الاثنين ١٢ يناير ١٩٨١ قابلت الملك حسين في قصره بالعاصمة الاردنية وسألته عن قصة خلافه مع سوريا، فأجابني بالحرف الواحد:

ـ كنت اشعر بالالم وانا اسحب جيش الاردن من الخط الطويل في العقبة حيث تتحدث اسرائيل عن ضربة قادمة للعقبة التي ترى فيها شريان حياة العراق في الحرب ضد ايران، وان انقلها الى الشمال، الى حدودي مع سوريا، لكي اواجه بها جيشاً عربياً شقيقاً. . »

ثم اضاف قائلاً:

«. . ان الحشود السورية الاخيرة قد فتحت عيوننا على احتمال اخطار جديدة مؤسفة اخرى قد تهددنا، ليس من جانب اسرائيل وحدها، بل من غير اسرائيل ايضاً، ومع الاسف الشديد. . ».

ثم استطرد ـ الملك ـ وكأنه لايريد ان يسكت:

ـ كنت الاحظ ان هناك من يخطط في الاونة الاخيرة من اجل تحطيم كل مايجمع بين امة العرب من روابط، وينسف كل القناعات، وكل الاسس التي قامت عليها امتنا العربية. كانت اتفاقية كامب دايفيد مجرد حلقة واحدة عابرة من هذه السلسلة الاجرامية التآمرية ضد الترابط العربي. ومجرد خطوة من جملة الممارسات العدائية ضدنا، حيث تحول الشقيق الصديق الى حليف للعدو. ثم جاءت الحرب الفارسية

ضد العرب او الحرب العربية ضد ايران ورأينا تبايناً مؤسفاً في الموقف العربي العام تجاه هذه الحرب حيث عز علينا ان يكون هناك بين العرب، من لم يقدر ابعاد هذه الحرب ولم يدرك خطورتها. وخاصة ان يأتي ذلك عقب ماجرى على الساحة اللبنانية من تمزيق لوحدة لبنان واثارة النعرات الطائفية والمذهبية هناك وما سبق ذلك كله من احداث مؤسفة على الساحة الاردنية ـ ويعني احداث ايلول عام ١٩٧٠ ـ في اول السبعينات. كل ذلك كانت بوادر شر تهدد الشخصية العربية في حاضرها وفي مستقبلها الى جانب وجود اقنعة مزيفة كانت تحاول ان تخفي شرور كل هذه النذر مع محاولة دق اسفين في عالمنا العربي، يهدف الى اثارة المذاهب الاسلامية ضد بعضها وتأليب السني على الشيعي واستعداء الشيعي على السني مع تصميم مشبوه لدى بعض الجماعات يهدف الى تجاهل الحق التاريخي العربي لبلد عربي شقيق في مياه واراض عربية، وجزر عربية محتلة والاستسلام امام تيارات ايرانية تريد ان تنتشر وتهيمن وتسيطر. . . »

كان تاريخ هذا الكلام ـ كما قلت ـ في الثلث الاول من الشهر الاول من عام ١٩٨١، وعندما سألت ملك الاردن عن امنياته بمناسبة بدء ذلك العام الجديد، اجابني بأسى:

ـ اتمنى ان يجد العالم العربي قوة كافية يواجه بها التحديات المتربصة به، امامه. وان نبني تضامننا ووحدتنا في ظروفنا القاسية الحالية لكي لا نضيع وتضيع معنا حقوقنا، وان نتمتع بالوعي الكافي لكي نعمل بعقل و ادراك وشعور تام بالمسؤولية. وان لا نقترف اخطاء سياسية في الحقل الدولي قد تهدد امن هذه المنطقة وتعلن انقسامها وخلافات اهلها. وان يعرف العرب انهم محط الانظار فيستغلوا امكانياتهم من اجل صون مستقبلهم واستعادة حقوقهم وكرامتهم بلا تبعية ولا رخص. وهذا كله سهل ولايحتاج الا الى بعض الارادة الصادقة وبعض التنظيم الحقيقي وبعض الايمان بالذات. يجب على كل العرب تعميق ايمانهم بكل العرب ولا مكان لليأس ولا مكان للاستخفاف ولا مكان للهروب ولا مكان للكسل ولا مكان للامبالاة ولا مكان للضياع. ان قضايانا اهم واكبر من بعض خلافاتنا، وان مصيرنا اهم واخطر من «بعض» قضايانا. تعالوا يا امة العرب نصنع التاريخ ولا

نكتفي بقرائته ونحدد معالم الغد ولانكتفي بان نستقبله لكي نعيش ساعاته وعلى هامشه . . »!

انتهى كلام الملك .

ولكن . .

لا العرب عرفوا انهم محط الانظار، ولاهم اسقطوا خلافاتهم، ولا هم استغلوا امكانياتهم، ولاهم استعادوا حقوقهم وكرامتهم، ولاهم نظموا صفوفهم، ولا هم آمنوا بانفسهم، ولاهم نشطوا وادركوا ان مصيرهم اهم من حاضرهم ولم يحددوا معالم الغد وانما اكتفوا باستقبال الحياة كما اعتادت ان تستقبلها كل دابة فوق هذه الارض!

والعجيب الذي يدعو الى الدهشة انني ما قابلت زعيماً عربيلاً او مسؤولاً عربياً الا وسمعته يحاضرني عن فوائد التضامن ومزايا الاتحاد وضرورات التفاهم بين الاخوة العرب. كلام سمعته في بغداد وفي دمشق وفي الرياض وفي عمان وفي الرباط وفي بيروت وفي الجزائر، وكله كلام مؤثر، ومقفى كالشعر، وحزين كالنغم، وعذب كندى الصباح ولكنه يبقى مجرد كلام ولم يتحول ـ ولا مجرد جزء منه ـ الى فعل!

حتى الصحافة تدعو الى التضامن ويبقى كلامها مجرد كلام. وسمعت ذات مرة الامير «سلمان بن عبد العزيز» ـ امير الرياض ـ يقول لي مداعباً:

ـ لو أني قرأت مجلة واحدة او جريدة واحدة لشعرت بالاكتفاء. وسألته، او لعله اجاب قبل ان اسأله عن معنى كلامه قائلاً:

- كل افتتاحيات الصحف والمجلات العربية تدق على نغم واحد التضامن!»

ثم سألني ضاحكاً: اليس كذلك. . ؟!

وقلت على الفور:

ـ هو كذلك يا صديقي الامير. ولكن، لامن سمع ولا من قرأ ولا من استجاب!

والواقع ان الاستغاثة العربية الدائمة بضرورة تحقيق مايسمى بالتضامن العربي، بقيت ـ منذ استقلال العرب الحديث ومولد دول عربية مستقلة ـ مجرد

استغاثة، او مجرد حلم، او مجرد دعاء . . لا غير!

اني اذكر اليوم، ماكنت قد سمعته بلسان الملك فاروق، ملك مصر السابق، في ايار عام ١٩٤٦ عندما القى خطابه الافتتاحي ترحيباً بالذين حضروا الى مؤتمر «انشاص» من ملوك العرب وامرائهم ورؤسائهم فقال «. . . ان اجتماعنا هو قبل كل شيء للتعارف . . ثم لكي نظهر نحن للعالم انه ليس بين دولنا اي انقسام لا في الاشخاص ولا في الاراء . . »

والمطلوب ان نلاحظ عبارة «لكي نظهر نحن للعالم ان ليس بين دولنا اي انقسام!؟»

ترى هل كانت تلك العبارة بداية التمثيلية الدراما المؤسفة والتي دامت حتى كتابة هذه السطور رغم النكبات والهزائم وضياع فلسطين وتحطيم لبنان وتشريد شعب فلسطين باسره . ؟

لقد وصف الرئيس السوري الراحل، شكري القوتلي، مؤتمر «انشاص» قائلاً في فرح ما بعده فرح: «انه اعظم اجتماع في تاريخ العرب من الف سنة الى اليوم . !» وقد عاش هذا الرئيس الراحل ورأى كيف ولماذا ضاعت فلسطين، وكيف ولماذا قامت الوحدة بين سوريا ومصر ثم ضاعت، وكيف ولماذا سار العرب من هزيمة الى هزيمة حتى ضاعت القدس وقامت اسرائيل الكبرى . ؟!

لقد سمعت الرئيس الاردني السابق مضر بدران يقول لي في مكتبه بعمان في اول عام ١٩٨١ وهو يشغل منصب رئيس وزراء الاردن:

« . . لقد صبرنا طويلاً على اتهامات سوريا لنا، ولم نرد على هجومها الاعلامي والسياسي ضدنا وسكتنا على التشهير بنا وعلى التهديدات ضد كياننا وتسلحنا بسعة الصبر والتسامح وكل ذلك لاننا نعرف اننا مع سوريا في خندق واحد ضد العدو الصهيوني ولذا ندعو لهم بالهداية وتقوى الله وندعو لانفسنا بالمزيد من الصبر عليهم وعلى تهجماتهم ضد هذا البلد الصابر الصغير!».

اني اسأل:

ـ هل حقاً ان الامة العربية رأت في الاردن ـ الضعيف الفقير الصغير ـ ومنذ مولد دولة اسرائيل حتى اليوم، شيئاً «كالاخ الصغير»، او «خط الدفاع الاول» في وجه

العدو، او «الملتقى الموقت» للاجىء الفلسطيني مع اخيه اللاجىء الفلسطيني، او «الارض العربية المهددة» دوماً بالغزو التوسعي من الغرب، او ما يشبه ذلك؟

● هل حقاً ان الاردن الصغير الفقير الضعيف وجد من اشقائه العرب ما يستحقه ـ في العادة ـ كل صغير او فقير او ضعيف من اهله واشقائه؟

اذكر انني قلت للملك حسين في مقال صحفي نشرته في ديسمبر عام ١٩٨٢ عن رحلته الى واشنطن بعض السطور التي حملت للملك ـ وبصراحة ـ حقيقة ما كان يدور في اذهان «الاشقاء» العرب عن الاردن، وسياسة الاردن، وملك الاردن! وقد يكون مفيداً ـ للاردن ولملك الاردن وللقارىء العربي ايضاً ـ ان اعيد نشر بعض سطور ذلك المقال في هذا الفصل من الكتاب.

قلت للملك حسين:

«.. هناك مثل فارسي قديم يقول «استعمل يد عدوك لكي تقبض على الثعبان!».

واذا كانت اسرائيل بالنسبة للعرب وللفلسطينيين هي الثعبان، فان اميركا تستعين بالملك حسين على الفلسطينيين، والعرب، والمنظمة، كما ان العرب ـ بعضهم على الاقل ـ يستعينون بالملك حسين للقبض على. . . اسرائيل!

«.. وفي مثل هذا الجو يذهب الملك حسين في ادق واخطر رحلاته الى واشنطن!

«.. وكان صديقنا العلامة الراحل «قدري طوقان»، احد وزراء خارجية الاردن، واحد عباقرة فلسطين المشهود لهم بالفطنة وخفة الدم يقول بعد حرب عام ١٩٦٧ واحتلال اسرائيل للضفة الغربية، ومن بينها مدينة «نابلس» موطن قدري طوقان: لن ينقذنا من هذا الاحتلال الا سلام مع اسرائيل، ولن يقدر على عقد مثل هذا السلام سوى «خيانة» من الملك حسين!

«.. ثم رفع قدري طوقان يديه الى السماء قائلاً: اللهم الهم مليكنا مثل هذه «الخيانة»!

«.. وهناك بين العرب، ملايين من الناس الذين يفكرون بمنطق «قدري طوقان» ويؤمنون بصحته ولكنهم لا يجرأون على اعلانه او الجهر به خوفا من ان يغضب الملك حسين او يغضب العرب او يغضب الملك والعرب معا!

«.. والملك حسين يعلم بأسرار ما يدور في اذهان الناس، وخاصة بالنسبة لسكان

الضفة والقطاع، وبالاخص، بالنسبة لسكان مدينة «نابلس»: زهرة مدائن الضفة وبلد النار التي لاتخمد.

«.. وكذلك، فان ملك الاردن يعلم باسرار ما يدور في اذهان الدول العربية، وما يدور في اذهان اميركا، وما يدور في ذهن اسرائيل؟

«..وهو - بالاضافة الى كل ذلك - يذهب الى واشنطن وامامه اكثر من شريط اسود طويل، ومؤلم، للاحداث التي سمع او قرأ عنها، او الاحداث التي عاينها وعانى منها، او الاحداث التي يراها في التقدير ويخشى ان يراها في الحقيقة. انه ذاهب من اجل فلسطين. وفي جزيرة «قبرص» مات ابو الثورة العربية الكبرى، من اجل فلسطين! والذكريات حول هذا الموضوع مازالت حية تنبض بالالم، وبالامل معا، في نفس الملك حسين! وبسبب فلسطين، وحول فلسطين، سقط الجد «الكبير» بعد ان سقط الجد «الاكبر»! ثم قام الاردن بضم الجزء الباقي من فلسطين واتحدت شرق الاردن، مع «شرق فلسطين» تحت اسم المملكة الاردنية ودام «الاتحاد» من عام ١٩٥٠ الى عام ١٩٦٧.. وعندما تحطم هذا الواقع بسبب الاحتلال الصهيوني، تبين - والجهد لاسرائيل - ان احدا من العرب لم يعترف رسميا باتحاد الضفة مع الاردن، وان دولة عربية واحدة لم تعترف بالسلطة الاردنية على بقية فلسطين، وان الدولتين الوحيدتين اللتين اعترفتا بالوضع هما: بريطانيا وباكستان!

«.. ترى هل انا مخول للكشف عن حقيقة مشاعر الملك الاردني؟!

«.. لقد حسب الاردن ان بالعمل على ضم «الضفة» اليه، فهو قد انقذ الضفة من الوقوع في يد العدو! لقد حسب الاردن انه بسبب قراره منح اهل الضفة الجوازات الاردنية فهو قد منع عنهم صفة التشرد وانقذهم من «هوية اللاجئين» المعطاة لاهل قطاع غزة ولسكان بعض المخيمات! ولكن حسابات الاردن لم تتفق مع حسابات بقية العرب! وقيل للاردن ان ضمه للضفة هو التفريط بالقضية والعدوان عليها! وقيل للاردن ان منح الجنسية الاردنية للفلسطينيين من اهل الضفة هو «تذويب» للعامل الانساني في قضية فلسطين! وقيل للاردن ان وجود الجيش الاردني في القدس والخليل ورام الله ونابلس، هو «احتلال» اردني يتم رغم ارادة الفلسطينيين! ومن هنا، وطيلة فترة السبع عشرة سنة من عمر الوجود الاردني في

الضفة او عمر الوجود الفلسطيني في الاردن، لم ينل الاردن من اشقائه العرب سوى الشك والريبة وخلق المشاكل وافتعال الازمات ومنع المساعدات وتوزيع الاتهامات! لقد حسب الاردن ان ضم الضفة عبارة عن احتواء بقية القضية الكبرى، وان على العرب المبادرة المستمرة الى مساعدة الاردن مادام في تلك المساعدة مساعدة للقضية الكبرى. ولكن الرد العربي العام على تفكير الاردن لم يمنع المساعدات فحسب، بل كان ردا سلبيا ومشاكسا وغيرودي، على احسن الاحوال!

«.. وهذا كله معروف جيدا لدى الملك حسين..

«.. وظروف الانضمام الفجائي الى معاهدة الدفاع المشترك مع مصر في مايو ١٩٦٧، والتي فرضت على الاردن فرضا ـ رغم كل ماقيل عن عكس ذلك ـ ايضا معروفة..

«.. وظروف حرب يونيو، ودخول الاردن الحرب، واسطورة الانتصار «المصري» في اول ايام الحرب مما شجع الاردن على المضي في المغامرة، ايضا معروفة!

«.. واسرار «اللاءات» الثلاثة في مؤتمر الخرطوم الشهير، ايضا معروفة..

«.. ولقاءات الملك حسين مع ليندون جونسون في واشنطن بعد الهزيمة، وبحضور احمد طوقان، والسفير الاردني ـ الشبيلات ـ ومدى استهتار هذا الرئيس الاميركي الفاسد بمصير الاردن بسبب مسايرته لخط جمال عبد الناصر، ايضا معروفة.

● هذا شريط طويل من الاحداث القريبة المؤلمة، يراه الملك حسين امامه بكل تفاصيله، وبكل اهواله، عندما تهبط به الطائرة الملكية في مطار القاعدة الحربية المجاورة للعاصمة الاميركية.

«.. والى جانب شريط «الامس»، هناك ايضا شريط: اليوم! هل ينسى الملك حسين، شريط الاحداث الجارية؟؟

في شريط الاحداث الجارية يرى الملك حسين امامه مايلي:

اولا ـ انه شخصيا، والعرب كذلك، وكل فلسطيني كذلك، في سباق مع الوقت من اجل الوصول الى حل عادل وشامل للقضية قبل ان تتمكن اسرائيل من تنفيذ المخطط الصهيوني الذي يهدف الى اقامة «امر واقع» لاتنفع معه المفاوضات، ولا يقدر على تبديله احد!

ثانيا ـ ان «قوة الدفع» التي رافقت مبادرة ريغان بعد وبسبب احداث لبنان قد

اوشكت على التوقف بسبب العناد الاسرائيلي من جهة، والضعف الاميركي من جهة، والاحداث الدولية المترتبة على وفاة بريجينيف من جهة، واستمـزار الاشتباكات الطائفية في لبنان من جهة، وبعض جوانب الموقف العربي، والموقف اللبناني الرسمي والكتائبي من جهة.

ثالثا ـ ان الاحداث الداخلية في اميركا والعلاقة المتردية بين الرئيس رونالد ريغان من جهة والكونغرس الاميركي من جهة اخرى حول قضية صواريخ «ام. اكس» وهزيمة الرئيس امام قرار الكونغرس حول هذه القضية، ثم هزيمته السابقة امام مجلس الشيوخ حول قضية الزيادة المطلوبة للمساعدات الاميركية لاسرائيل مما ارغم رونالد ريغان ان يقف موقف المدافع اليائس الضعيف امام المساندة الكاسحة التي ابداها «الشيوخ» لاسرائيل. . كل ذلك اصاب صاحب «البيت الابيض» بالهوان والضعف وجعله اكثر ترددا في المضي بمبادرته او التمسك بها في وجه التيار المساند لاسرائيل داخل صفوف الكونغرس.

رابعا ـ ان خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان لم يكن الحل المطلوب لازمة لبنان. وان الوجود الاسرائيلي في لبنان لن ينتهي بانتهاء الوجودين: السوري والفلسطيني! وان ذهاب الياس سركيس ومجيء الكتائب لم يحل الف مشكلة من مشاكل لبنان الاخرى. وان كلام وزير الخارجية اللبناني في لندن حول هذه المواضيع هو كلام جميل ولكنه غـير منطقـي وغـير واقعـي وغـير ذكي! فالكلام الجميل ان يصرح ايلي سالم «اننا اقوياء» لاننا نتسلح بالمنطق. . وان الحرب قد اثبتت انه لايمكن ان يحكم اللبنانيين سوى اللبنانيين انفسهم. . . واننا ـ اي اللبنانيين ـ نتحدث عن الانسحاب الفوري. . غدا. . او بعد غد، لا بعد سنة ولا بعد ستة شهور»!! هذا كلام جميل وحماسي وعاطفي، ولكنه كلام شعراء لا كلام وزراء. . !

خامسا ـ لا معاهدة كامب دافيد، ولا الموقف المصري الودي مع اميركا ومع اسرائيل، ولا ذهاب السادات ومجيء حسين مبارك، ولا تنقلات ورحلات «بطرس بطرس غالي» الى اقاصي الارض بين اميركا الجنوبية واسيا الشرقية، ولا طلبات الرئيس المصري الى «المنظمة» بضرورة الاعتراف باسرائيل. . حتى ولا التعزية

المصرية الرئاسية الرقيقة بوفاة «المأسوف على شبابها» السيدة «الزا بيغن»، قد استطاعت ان تؤثر قيد انملة على التعنت الاسرائيلي حول المستوطنات، او التعنت اليهودي حول مفاوضات الحكم الذاتي ومفهومها وابعادها!

وكذلك، لا الغزل المكشوف من العرب مع حسني مبارك، ولا البرقيات السرية المتبادلة بين القاهرة واكثر من عاصمة عربية واحدة، ولا الحديث عن احتمال عودة مصر الى العرب او ـ كما يصر بطرس بطرس ـ «عودة العرب الى مصر»، قد استطاعت ان تقنع الرئاسة المصرية بضرورة اللجوء الى اسلحة اخرى غير استدعاء السفير المصري من تل ابيب، وغير السماح بنشر بعض افتتاحيات «الاهرام» المنطوية على النقد والهجوم ضد السياسة الاسرائيلية! وليس سرا ان الرئيس حسني مبارك لم يعد يطيق صبرا على الغطرسة الاسرائيلية تجاه مصر، وتجاه العرب؟ ولكن الرئيس «مبارك» يريد ان يتخلص من «العشق» الاسرائيلي بدون ان يغضب اميركا! وهذه هي المعادلة الصعبة! بل هذا هو المركب المستحيل!

ـ سادسا: ان الملك حسين ـ يعلم في قرارة نفسه ـ انه في تحركه الحالي انما يحاول ان يدفع عن نفسه وعن العرب شرا، اكثر من ان يحقق لنفسه او للعرب خيرا! كيف؟

● ليس سرا ان الملك حسين يتحرك وسط هجمة اميركية واسرائيلية شرسة حول الموقف الاردني مع تركيز عدائي على هذا الموقف واظهاره بألوان من العجز المتعمد تارة، او «بالبديل» الموجود تارة، او بالضعف والفقر والحاجة تارة، او بالخلاف مع الفلسطينيين ومع العرب تارة! وليس سرا ان هناك التركيز المشبوه المجرم من «اريل شارون» ومن بعض كبار المسؤولين الاميركيين في الادارة الاميركية الحالية على شخص الملك حسين، وعلى نوعية النظام الاردني، وعلى الزعم بأن الاردن هي فلسطين، وان بريطانيا قد نزعت ـ بدون حق ـ «وعد بلفور» عن شرقي الاردن بينما كان الانتداب البريطاني قائما على فلسطين وعلى الاردن، معا، وان الدولة الفلسطينية التي يطالب بها الفلسطينيون قد اصبحت موجودة حقيقة قائمة بوجود دولة الاردن حيث معظم الشعب من اصل فلسطيني ومعظم الموظفين هم من الفلسطينيين.. الى اخره! هذا التركيز المتعمد على دور الاردن مقصود به تحويل

الانظار عن الضفة والقطاع، ودفن الحق الفلسطيني تحت الارض، واعطاء الفلسطيني حق تقرير مصيره في ارض غير ارضه وفوق وطن ليس بوطنه، وتحريض الفلسطيني على الاردني، وتشجيع هذا الفلسطيني في الضفة والقطاع على ان يهاجر الى حيث يوجد وطنه الحقيقي مع الكثير من معاني تزوير الحقائق وقلب التاريخ وتعطيل المنطق وتشويه الدور الاخوي الكريم الذي قام به الاردن ـ وما زال يقوم به ـ في الدفاع عن عروبة فلسطين والمطالبة باستعادة القدس وتحرير الضفة و القطاع ومنح الفلسطيني حق تقرير المصير واقامة الدولة الفلسطينية على ارض فلسطين او مابقي منها!

● هل معنى هذا ان على الملك الاردني ان يكتفي من موضوع زيارته الحالية الى واشنطن بدور «الدفاع» دون التجرؤ على ان يلعب دور الهجوم؟

● هل معنى هذا ان على الملك الاردني ان يحصر مهمته خلال الزيارة الحالية لواشنطن في موضوع الاردن، وقضايا الاردن، وسلامة الاردن، ووحدة ارض الاردن، دون التطرق البديهي المؤكد الى موضوع فلسطين، وقضية فلسطين، وارض فلسطين، وشعب فلسطين؟!

لا! قطعا لا!

● هل معنى هذا ان الزيارة كلها مجرد «مراوحة» في المكان المحدد، او «صفير في الظلام» او «قفزات رتيبة في الهواء» بانتظار تطور الاحداث، وصدور قرار لجنة التحقيق في مذابح المخيمات، ومصير المواجهة القائمة بين ريغان واسرائيل، وتطور الجهد للوصول الى حل للمشكلة اللبنانية؟

لا! الف لا!

انها ليست كذلك، ولا هو بالتفكير الملكي الاردني، ولا من اجل هـذا ذهب ملك الاردن الى واشنطن، رغم اطلاعه على كل الحقائق، ورغم المامه بكل الاسرار المحيطة بالموقف والتي لا تبشر خيرا ولاتحمل على التفاؤل.

● ان الملك يشعر ان وفرة عدد التصريحات السياسية المسؤولة وغيرالمسؤولة، الصادرة عن عشرات من اقطاب منظمة التحرير، او اعضاء المجلس الوطني، و التي يتضارب بعضها مع بعضها الاخر، في المبنى وفي المعنى معا، هذه الزحمة وهذا

التضارب ليس ضروريا في الوقت الحاضر، ولا هو بالمفيد، ولا معنى له، ولا يدعو الى الشعور بالطمأنينة المطلوبة لدى اصحاب القضية في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ قضيتهم.

● والملك الذي يريد للقضية ولاصحابها البقاء ضمن الاطار الفلسطيني المطلق، يدعو الله ان ينقذ القضية ويحمي اصحابها من بعض الاوصياء عليها من خارج الاطار الفلسطيني مهما كانت شريفة اهداف هؤلاء الاوصياء، ومهما كانت نبيلة مراميهم!

ورغم هذا يذهب الملك حسين الى واشنطن..

اخشى ان اقول انها زيارة مرفوضة..

واخشى ان اقول انها زيارة صعبة..

واخشى ان اقول انها زيارة حرجة ومصيرية و متعبة.

واذا كانت حقا كذلك، فلماذا لم يحاول العرب تذليل الصعاب امام الملك المسافر الى واشنطن، وتخفيف الاخطار المحيطة بمهمته، ومنحه الاوراق الكفيلة بمنع الكوارث ان لم تكن قادرة على تحقيق الانتصارات؟

ماهي تلك الاوراق المطلوبة؟

هل هي الاوراق التي لم يحصل عليها الملك في مؤتمر قمة فاس من اقطاب العرب؟

نعم !

هل هي اوراق التفويض التي لم يحصل عليها الملك - حتى كتابة هذه السطور - من منظمة التحرير الفلسطينية؟

نعم !!

هل هي مجموعة من الاوراق اللبنانية والمصرية والسعودية والسورية والتي تمنى الملك ان تكون معه في حقيبة يده وهو يهبط من الطائرة في مطار واشنطن، ولكنه سافر وهبط ولم تكن هذه الاوراق المهمة في حقيبة يده؟

نعم !!

اما وقد سافر الملك حسين - رغم كل هذه المحاذير ورغم كل الافتقار الى كل

هذه الاوراق، فهل بقيت كلمة حق تساق اليه في هذين اليومين؟

اجل!

وهذه هي . .

ان الملك حسين قادر على ان يستغل هذه الزيارة لكي يقوم بدور «رجل العلاقات العامة» من الطراز الاول! لقد اعتاد مناحيم بيغن ـ في مقابلاته مع جيمي كارتر، ثم مع رونالد ريغان ـ ان يفسر مضمون الامن الاسرائيلي من خلال الحديث عن مذابح اليهود في معسكرات الاعتقال النازي! ومن خلال هتلر، برر بيغن قيام دولة اسرائيل! ومن خلال افران الغاز اصر بيغن على اسطورة الامن الاسرائيلي! ومن خلال سكوت العالم على السلوك الهتلري فسر بيغن اصرار يهود اسرائيل على الانفراد بمهمة الدفاع عن انفسهم امام الاخطار الخارجية! وبوسع الملك حسين ان يبدأ «الدرس» مع رونالد ريغان منذ صدور وعد بلفور وخيانة الحلفاء، وموقف العرب في الحرب العالمية الاولى، وتنكر الانكليز والفرنسيين «للحسين بن علي» ـ انه احق الناس بالحديث عن جده الراحل ونهايته المؤثرة في جزيرة قبرص ـ ثم التخبط الذي عاصر السياسة البريطانية تجاه القضية الفلسطينية، ولجان التحقيق، والكتاب الابيض، والهجرة اليهودية غير المشروعة ووعود «فرانكلين روزفلت» الى العرب عامة والى الملك عبد العزيز آل سعود، خاصة، ثم مجيء اول لجنة تحقيق تشترك فيها اميركا بأمر الرئيس الديمقراطي «هاري ترومان» عام ١٩٤٦، ثم مجيء اللجنة الدولية، ثم قرار التقسيم وما رافقه من رشوات وضغوط وتمثيليات، ثم نشوب الثورة الفلسطينية ضد التقسيم ودخول القوات العربية في مايو ١٩٤٨، وما رافق ذلك من مناورات ومؤامرات ووعود وتدخلات ثم الاعتراف الاميركي باسرائيل وما سبقه وما عاصره من فضائح وتطبيقات وتزوير، ثم الهدنة الاولى ومخالفات اسرائيل في كل يوم من ايام هذه الهدنة، ثم الهدنة الثانية واحتلال اسرائيل للنقب وبقية الجليل الغربي، ثم الاشتباكات المتتالية مع العرب على حدود مصر، وعلى حدود الاردن، وعلى حدود سوريا، ثم العدوان اللئيم عام ١٩٥٦، ثم سرقة مياه الاردن، ثم التآمر على جمال عبد الناصر وجره الى حرب ١٩٦٧، واحتلال الضفة والقطاع وصحراء سيناء والجولان، ثم الانصراف الكلي الى تنفيذ

مخطط اسرائيل «الكبرى»، ومجيء بيغن الى الحكم، وزرع المستوطنات بالعشرات، وتحدي قرارات الامم المتحدة، وضرب بغداد، واحتلال لبنان، وقهر عرب الضفة والقطاع، وضم القدس والجولان، ومصادرة الاراضي العربية، وتهديد الاردن، وغزو اجواء الفضاء السعودي والسوري واللبناني والمصري، ثم التصدي لقادة العالم وتقريعهم والحاق الاهانة بهم ورفض المبادرة الاوروبية واتهام «شميت» بالنازية ووصف ديستان «بقلة الاخلاق» وعرقلة اي تفاهم يساعد ضحيتهم انور السادات على عودته الى العرب او يساعد اي طرف عربي على الانضمام الى موكب المفاوضات او يضمن لاتفاقية كامب دايفيد بعض الشرعية السياسية! وفي كل هذه المراحل تصرفت اسرائيل بعقلية العصابة وقاطع الطريق! وعند كل هذه المواقف تحدت اسرائيل الامم المتحدة، وحقوق الانسان، والرأي العام العالمي، وداست على الحقوق العربية وفرضت نفسها «كالبوليس الحربي» على دول المنطقة بأسرها، وحكمت، وغزت، وضربت، واستحلت، وزورت، واعادت الى الاذهان احلك ساعات التاريخ سوادا، والعن حكام التاريخ شرا، وارذل دول التاريخ تبجحا وغرورا و تعصبا وعدوانا.

● ويقولون ان رونالد ريغان، انسان عاطفي، يبكي لمأساة طفل ويقلق لصرخة امرأة؟!

● ويقولون ان رونالد ريغان لايعرف تاريخ القضية الفلسطينية جيدا ولا يلم بتفاصيلها، وانه بحاجة الى «مستشار» مستقيم شريف او محدث امين يطلعه على الامور التي يجهلها!

● ويقولون ان رونالد ريغان هو مواطن اميركي مخلص يحرص على مصالح اميركا في العالم، ويكره الشيوعية، ويحارب القلاقل، ويمنع القضايا من ان تنفجر فيأتي الانفجار لحساب السوفيات!

● والملك «حسين بن طلال» قادر على ان يكون ذلك «المعلم» المخلص الامين القادر على ان يشرح للرئيس الاميركي اسرار القضية الفلسطينية ومدى ما اصاب العرب والمسلمين من اذى ومن ظلم على يد اليهودية العالمية وعلى يد اميركا ـ بالذات ـ في سبيلها! فان سمع من الرئيس رونالد ريغان كلاما يوحي بأن الحل

«السريع» ـ حتى ولو كان على حساب العرب ـ من شأنه ان يخدم العرش الاردني، فان على الملك حسين ان يرد بأن الحل العادل وحده هو القادر على ان يخدم جميع «العروش» العربية وان يخدم مصالح اميركا في المنطقة، على حد سواء! وان قال رونالد ريغان انه غير قادر على «مناطحة» العناد الاسرائيلي، فان على ملك الاردن ان يجيب بأن الدولار الاميركي وحده قادر عى ان يحقق «المعجزة»! وان قيل لملك الاردن ان على المنظمة ان تعترف باسرائيل، فان الجواب ان تعترف اسرائيل اولا، «بالحق الفلسطيني» سواء بوجود «المنظمة» ام بغيابها! وان قيل له ـ للملك حسين ـ ان مشروع ريغان المعلن والمعروف هو اخر ما تقدر اميركا ان تقدمه للعرب او تفرضه على اسرائيل، فان على الملك حسين ان يصارح رونالد ريغان بمايلي:

اولا ـ يجب ان تدرك اميركا ان اسرائيل لن تقبل مشروع ريغان ما دام مناحيم بيغن على قيد الحياة! فاذا كان في الحكم فهو قائد السفينة، واذا خرج الى المعارضة فهو قائد «الشارع»! وفي الحالتين لن تتمكن حكومة اسرائيلية واحدة من القبول بالمبادرة! يجب ان ندعو الله ان يأخذ روح «بيغن» وباسرع وقت!

ثانيا ـ ان حزب «العمل» ليس أحسن حالا من أئتلاف ليكود! وعندما يصل «شمعون بيرس» او «رابين» الى كرسي الحكم، سنسمع ان اقصى ما تقدر ان تقدمه اسرائيل من حلول هو مشروع «آلون» الذي يقسم ارض الضفة ويغرس المستوطنات ويقيم من الجيش الاسرائيلي حاكما على طول امتداد نهر الاردن، في غور.. الاردن!

● ثالثا ـ ان سر المد الصهيوني في التطرف داخل السياسة الاسرائيلية هم يهود اميركا... بالذات! ومن هنا، يجب ان يوجد العلاج السريع للتبرعات اليهودية الهائلة التي تخرج من يهود اميركا الى اسرائيل والتي لا تخضع لاية «ضرائب»! او حساب، او نقاش، أو مراجعة!

رابعا ـ ان سر الصلف الصهيوني المتمثل في تنفيذ المغامرات العسكرية ضد لبنان وضد كل الدول العربية مرده، اولا وآخرا، الى السلاح الاميركي المعطى ـ هبة وهدية ـ الى اسرائيل!

خامسا ـ ان اسطورة التعاون «الاستراتيجي» بين اميركا من جهة وبين اسرائيل من جهة اخرى بقصد محاربة التسلل الشيوعي الى المنطقة.. هذه الاسطورة بالذات، هي وحدها الكفيلة بتسرب النفوذ الشيوعي الى الشرق الاوسط.. بأسره! المثل القديم الذي يقول: «عدو عدوي، صديق لي، وصديق عدوي، عدو لي» هذا المثل هو لسان حال شعوب المنطقة!

سادسا: لا غزو السوفيات لافغانستان، ولا أحداث بولونيا، ولا هندوراس او أنغولا أو سلفادور او موزامبيق، قادرة على ان تقنع اي عربي او اي مسلم ان الخطر السوفياتي هو «أهم» من الخطر الصهيوني، وان مقارعة السوفيات تسبق الواجب في مقارعة.. الصهيونية!

سابعا) ان قرارات مؤتمر «فاس»، تبقى بحاجة الى من يشرح خطورتها وأبعادها امام الرئيس الاميركي لكي يبين له مايلي:

١ ـ لاول مرة، يتفق كل العرب على حل...

٢ ـ لاول مرة، يتفق كل العرب على حل «سلمي»!

٣ ـ لاول مرة، يتفق كل العرب ـ بشكل ضمني ـ على الاعتراف باسرائيل كدولة قائمة في قلب المنطقة!

٤ ـ لاول مرة يتفق كل العرب، ان حدود دولتهم الفلسطينية المقترحة لاتصل الى يافا او حيفا او الناصرة، وانما تكتفي وتقف عند حدود عام ١٩٦٧!

● ان هذه المقررات هي آخر ما يقدر العرب على الوصول اليه، تنازلا، او صمودا، أو ركوعا، او استسلاما، او تراجعا، أو مساومة! وكما ان رونالد ريغان يقول لنا ان مبادرته هي «كتاب مقدس»، كذلك نقول له، وللعالم ان مقررات قمة فاس، «كتاب مقدس»... ومقدس جدا!

وبعد هذا، هل بقي عند ملك الاردن، بقية يقولها للرئيس الاميركي رونالد ريغان؟

● قل له يا صاحب الجلالة أنك الوسيط وليس الاصيل، وانك تدعو للحق ولست صاحب الحق، وانك تتكلم مثل الفلسطيني ولكنك لا تتكلم نيابة عنه، وأنك «ابن» القضية ولست صاحبها، وانك ثمرة التجربة وترفض ان تصبح ضحيتها!

● قل له ياصاحب الجلالة انك «تتمم» المهمة الاخيرة التي قام بها وفد مؤتمر القمة الى واشنطن فقد يكون ملك المغرب ـ رئيس الوفد ـ قد نسي في غمرة الاهتمام بالصحراء الغربية او الصحراء الاسبانية او البوليساريو بعض ما يتعلق بموضوع فلسطين او بعض ما يمس مصير القدس فكان لزاما عليك، وانت وريث القضية الثورة او «الثورة القضية» من بعد جدك الاكبر «الحسين بن علي» ان تصحح الامور، وتنبه الى الاخطار، وتكمل الكلام، وتؤدي الامانة! لقد ضاعت القدس في عهدك ويجب ان تعود القدس في حياتك! ان روح «الحسين» الاكبر التي تطوف بجوار الاقصى تناديك وتستصرخك ! اننا جميعا نحفظ قول امير الشعراء «شوقي» ونردده في هذه الايام الرديئة ونصرخ من أعماقنا قائلين:

لك في الارض والسماء مآتم

قام فيها ابو المكارم هاشم .

قعد الآل للعزاء وقامت

باكيات على الحسين الفواطم !

قم تحدث «ابا علي» الينا

كيف غامرت في جوار الاراقم!؟

وإذا حاولوا اثارتك، وزعموا أمامك أن قولك «لا»، يعني الخور والضعف، قل لهم أن الضعف اشرف من الانحراف!

وإذا سألوك التنازلات ، قل لهم انك لا تملك الحق، وفاقد الشيء لايعطيه!

وإذا قيل لك ان خروج «المنظمة» من لبنان قد بدد الاخطار الناجمة من قولك «نعم»، أجبهم بانك تخاف الله اكثر وقبل ان تخاف الفلسطينيين، وانك الحريص على الحق الفلسطيني اكثر من حرصك على رضى الفلسطيني نفسه!

وإذا فتحوا امامك باب مفاوضات السلام وقالوا لك: أدخل! قل لهم: «سأدخل اذا كنت واثقا ان مشواري سيوصلني الى القدس وقد اصبحت عربية، والى الضفة وقد استعادت حريتها! سأدخل ان ضمنتم لي ـ سلفا ـ ان ثمرة المفاوضات ستكون في عودة الضفة والقطاع والقدس الشرقية الى اصحابها! سأدخل اذا تعهدتم لي بأن عدوي سينسحب من كافة الارض المحتلة وسيعترف

بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني الاسير هناك! سادخل ان كنت واثقا انني لن أمشي على خطى ضحيتكم «أنور السادات»، الذي ضللتموه ووعدتموه وورطتموه ثم تركتموه تحت رحمة «يوسف بورغ» وموظفي الدرجة الثالثة في وزارة خارجية اسرائيل! سأدخل ان ارغمتم اسرائيل على تجميد كل اعمالها في أنشاء المستوطنات اليهودية فوق الارض العربية المحتلة! سأدخل ان اوقفتم هذه الحملة الاعلامية المسعورة ضدي في صحف بلادكم التي تخضع للصهيونية لا لسبب سوى ان اسرائيل عازمة على ان تسمم في وجهي الابار، وتصورني كالوحش، وتدمغني بالجبن، وتتهمني باللعب، لكي لايقال ان الملك حسين قادر على ان يكون الطرف المثالي المطلوب في التعاون مع الولايات المتحدة للوصول الى الحل العادل، ولكي تخلو «الساحة» من عربي واحد قادر على ان يفاوض اميركا او يقارع اسرائيل او يناقش العالم في مصير قضية أسمها: فلسطين!

● وبين الاقوال العبرية ـ اليهودية القديمة ـ قول يحمل هذا المعنى: «ان من لايقدر ان يتحمل الشر، لايقدر ان يعيش لكي يرى الخير..»

ويشهد التاريخ انك ـ أنت ـ قد تحملت من شرور الدنيا ومن ظلمها ومن مخاطرها ما لا طاقة لبشر على تحمله. ونحن نعلم انك لاتطمع في ان ترى الخير، لنفسك بقدر ما تتمناه لامتك وبلدك!

من هنا، وكما قال «جون كنيدي» قبل وفاته «ان السياسة كلعبة كرة القدم. اذا رأيت نور النهار صوّب الكرة نحو الهدف»!

وانت القادر ان تصوّبها، وان تُصيب!

وحاول يا صاحب الجلالة ان تتشبه أيضا بفلسفة زعيمهم «هاري ترومان» عندما قال لصديقه «هيوبرت همفري» في الستينات: «أحمل المعركة اليهم، ولا تدعهم يحملون المعركة اليك! واجعلهم في موقف المدافع لا في موقف الهجوم! ولا تعتذر لهم ـ مطلقا ـ عن شيء»!

هل بقي شيء؟

نعم!

كان زعيمهم «بنجامين فرانكلين» ينادي على الذين يقفون اليوم في مثل

موقفك:

● تذكر ما يلي: ليس المطلوب منك ان تكتفي بأن تقول الشيء المناسب في الوقت المناسب، فحسب، بل المطلوب منك ايضا ان لا تقول الشيء الخطأ في اللحظة المغرية! وهذا اكثر صعوبة واكبر مشقة . . ! » .

وقلوبنا دوما ـ يا صاحب الجلالة ـ مع كل من يدافع عنا، وكل من يساعدنا على اعدائنا، وكل من يأخذ بأيدينا الى شاطىء السلام والاستقرار! هكذا كنا مع كل زعيم او ملك او قائد عربي تخيلنا فيه صور الخير والنجاة، منذ نهاية الحرب العالمية الاولى حتى هذا الاسبوع! ولعلك، وانت «أقدم» ملك عربي، بل وعالمي بعد امبراطور اليابان ـ قادر بحكم تجربتك وحنكتك ومعاناتك ان تكشف عن المؤامرات اذا وجدت وتنتصر على الشرور اذا تجمعت ولا تفرط بالحق، ولا تجامل عن هوى، ولا تنافق عن غرض، وتعلم ان في قضية «القدس» بعض قداسة السماء، من نالها بأذى نالته بالشر، ومن نصرها، كان الله نصيره!

« . . ان تنصروا الله ينصركم»

«ولينصرن الله من ينصره»

«وينصرك الله نصرا عزيزا»

صدق الله العظيم .

ولكن . .

في ربيع عام ١٩٨٥ ، عاد ملك الأردن وزار واشنطن ضمن سلسلة الدعوات والزيارات التي قام بها عدد من ملوك ورؤساء العرب إثر فوز رونالد ريغان بالرئاسة الثانية .

ترى هل تغير شيء؟

وهل جاءت زيارته الثانية اكثر جدوى من زيارته السابقة؟

وهل ستجيء زياراته الثالثة او الرابعة اكثر نجاحاً واوفر نتائج من زياراته بالأمس . ؟

ان اسباب نجاح اية زيارة رسمية يقوم بها اي مسؤول عربي الى واشنطن او الى غيرها من عواصم العالم، لاتعتمد على الدولة المضيفة ولا على رئيسها او ملكها او

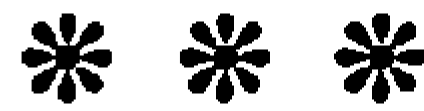
زعيمها وانما تعتمد على كمية ما في جعبة ذلك المسؤول العربي من «اوراق» و«أسهم» و«سندات» و«عوامل ضغط» جمعها وحشرها معه قبل ان يغادر ارض بلده في طريقه الى البلد الآخر. .

إن قوة الشخص موجودة في بلده وليست في الخارج. ونجاحه يأتي من الداخل وليس من عند الغير! وقبل ان نطالب اميركا بان تساعد الأردن على استخلاص الحق الفلسطيني من انياب اسرائيل، يجب ان نسأل، وبكل وضوح:

- هل ساعد الأشقاء العرب، شقيقهم «الصغير» «الفقير» «الضعيف» على استخلاص حقه وحق الفلسطيني من انياب اسرائيل؟؟.

انا شخصياً لا أعرف بلداً عربياً في تاريخ العرب الحديث، أصابه من طعنات اشقائه العرب ومن تجريحهم منذ عام ١٩٤٤ حتى اليوم ما أصاب الأردن. . !

ويليه. . . لبنان!



الفصل السابع عشر
أيتها «القضية» كم من الجرائم ترتكب باسمك!

● قال «ادموند بيرك» عام ١٧٧٥ : «إن امامنا حدثاً خطيراً من الصعب ان نتحدث عنه ومن المستحيل ان نسكت عنه!»

● هل كان ضرورياً صدور القوانين الأشتراكية في مصر عام ١٩٦١؟ وهل كان ضرورياً تأميم الصحافة المصرية ضماناً لخدمة مصالح الشعب العربي. ؟

● بين فاروق ، والأمام البدر ، والأمام يحي ، والمهداوي ، وحسني الزعيم ، والشيشكلي ، وعبد الحكيم عامر ، ضاع الحق والحقيقة !

● «خارطة» فلسطين التي ظهرت ، وفلسطين التي لم تظهر . !

الفصل السابع عشر
أيتها «القضية» كم من الجرائم ترتكب باسمك!

باسم فلسطين، ومن أجلها، عقد مؤتمر «انشاص» عام ١٩٤٦. وباسم فلسطين، ومن أجلها، قام «حسني الزعيم» بانقلابه الشهير الذي فتح به باب الأنقلابات العسكرية في العالم العربي.. ثم تبعه الحناوي، واديب الشيشكلي وبقية القائمة الطويلة..

وباسم فلسطين قامت ثورة ٢٣ يوليو.. في مصر.

وباسم فلسطين قامت ثورة ١٤ تموز في العراق.!

وباسم فلسطين عارضت مصر حلف بغداد.

وباسم فلسطين وقعت انقلابات السودان.

واذا كانت الأمور تقاس ـ كما يقال ـ بخواتيمها، ومع الاحترام الشديد لجميع الثوار وجميع الثورات، الا ان قضية فلسطين لم تستفد من جميع هذه الثورات قيد انملة.

بل لعل العكس هو الصحيح.

فقد جعل ثوار العرب ـ وما اكثرهم ـ من قضية فلسطين «قميص عثمان» الذي رفعوه لأخفاء جرائمهم، و«الشماعة» التي علقوا عليها سوء مسلكهم وشرور اعمالهم مما أدى ـ بالطبع ـ الى تدهور سمعة العرب، وتفتيت صفوفهم، وشماتة العالم بهم، والسخرية منهم، والأستخفاف بوجودهم، وبالتالي، الى ضياع بقية

الحق العربي، ونسيان اصحابه او شطبهم من قائمة البشر!

وقد كتب صديقنا القديم «عبد الرحمن البيضاني» يصف حالة حكام اليمن قبيل قيام الثورة، فقال: «. . ما اشبه اليوم بالأمس، وما أمثل الليلة بالبارحة. الذي يجري في اليمن هو ما كان يجري في قريش في مطلع الفجر، فجر الأسلام. فأسياد اليمن في ظل الشريعة الهاشمية كأسياد قريش في ايام الجاهلية. لا يطيقون العدالة ولايفهمون المساواة ولا يرجعون عن ظلمهم في سهولة ولايقلعون عن بطشهم في يسر! بل يكيدون للأصلاح ويأتمرون على المصلحين ويعاندون الوعد الحق. !»

ترى الم يقرأ، الم يسمع، الم يعرف صديقنا «البيضاني»، وتاريخ كلامه في خريف ١٩٦٢، ما جرى قبل ذلك باربع سنوات في بلد اسمه «بغداد» وشهرته: عاصمة الرشيد . . وبني العباس. . وبلد الأدب والكنوز.

ألم يسمع «البيضاني» عن عبد الكريم قاسم، وابن خالته «محمد فاضل عباس المهداوي» رئيس محكمة الشعب وما جرى على يديهما باسم العدالة وباسم فلسطين، من هدر للحقوق، واعتداء على الكرامات، وتشويه للقانون، واحتقار للفهم، وتدنيس للحضارة، بصورة لم تعرفها جرائم تيمورلنك، ولا اساطير هولاكو، ولا فكاهات الطيب الذكر. . جحا؟

قال «الزعيم» عبد الكريم قاسم لوفد صحفي لبناني كان يزور بغداد أثناء اجتماع وزراء الخارجية العرب في بغداد «ان العقيد المهداوي رجل اشترك في الثورة قبل، وبعد. . وهو رجل مستقيم. . مخلص لمبادىء ثورة ١٤ تموز، فضلاً عن انه ذكي وعنده سعة إطلاع وقد حاكم هو، واعوانه المخلصون عملاء الأستعمار والخونة والمتآمرين على ثورتنا ومبادئها. !»

انتهى كلام «قاسم» العراق عن ابن خالته «المهداوي» رئيس محكمة الشعب العليا وقد قرأها في مستهل جلسة جديدة من جلسات المحكمة العسكرية العليا الخاصة لمحاكمة رجالات العراق في القضية رقم «٣٠»!

ولو جاء اعداء العرب بكاتب مسرحي صهيوني لكي يضع رواية هزلية يسخر فيها من العقل العربي ويتهكم في سطورها على حكام العرب وينال من كل معنى من

معاني العدالة والثقافة والكرامة الأنسانية عند هذه الأمة، لما استطاع أن ينال من العرب ومن سمعتهم في أرجاء العالم كما نال منهم: فاضل عباس المهداوي!

وكان للعراق في دنيا الغرب منزلة، واسم، ووزن! وكان العراق أول دولة عربية اخذت مكانها في عضوية عصبة الأمم. وقد تسابق المستشرقون والأدباء العالميين من بريطانيا وفرنسا والنمسا للسفر الى بغداد والبحث فيها عن الآثار والكتابة عن حضارة عالم «مابين النهرين» وسرد القصص والروايات عن تاريخ هذه البلاد، قديمها وحديثها، ووضع المؤلفات المتعددة عنها.

وفجأة، اذ بالعراق العربي المستقل الذي كان بمثابة «بروسيا العرب» عند أندية السياسة العالمية، يتحول الى محكمة كمحاكم قراقوش، واذ برجل مريض مخبول اسمه عبد الكريم قاسم ينفرد بالسلطة والنفوذ، واذ بالعدالة تداس والحقوق تباح والأعراض تستباح ويصبح اسم «بروسيا العرب» موازياً لأصغر وأتفه دولة من دول العالم الثالث!

وهذا بالضبط ما كانت تريده اسرائيل وتتمناه!.

كان العراق يمثُلّ معنى واضحاً من معاني الدولة الحديثة، فجاء انقلاب ١٤ تموز بقيادة قاسم «وعارف»، وداس على هذه الدولة وكل معانيها، بالحذاء! كانت اسرائيل تقول ان ليس عند العرب حرمة للقانون، او تقدير للخدمات العامة، او دستور ديمقراطي، او منطق صالح، فجاء «المهداوي»، وعلى ميكرفونات الأذاعة وعدسات التلفزيون، وامام العالم بأسره، وايد كل حرف تقوله اسرائيل عن العرب! وعاد الناس بذاكرتهم الى ايام محاكم التفتيش في اسبانيا، ومحاكم الثورة الفرنسية في باريس، وشطبوا العرب من قاموس الحضارة والحرية والعدل..

وكانت صور القتل والتعذيب، والسحل والشنق، التي رافقت ثورة ١٤ تموز، قد اقنعت العالم الغربي بأسره، ان بين العرب والأخلاق، أو بين العرب والحضارة، او بين العرب والمدنية، سور عال كبير كسور الصين الطويل.

وبينما اسرائيل تفخر انها تقدم للبشرية وللحضارة رجال عباقرة اكتشفوا انواعاً من الادوية، او وضعوا الجديد من الالحان، او اخترعوا الجديد من الآلات، او كتبوا الجديد من الفلسفة، وانهم بالتالي، يستحقون «الدولة» الخاصة بهم، والتي

اسمها اسرائيل، نرى، العرب، في صورة قاسم والمهداوي في العراق، او في صورة مجازر ومذابح طرابلس بلبنان، او في صورة ما جرى في مدن «عاليه» وبحمدون وسوق الغرب، أو في صورة الجرائم يوم «السبت الأسود» على يد الكتائب في لبنان، او في صورة مذابح صبرا وشاتيلا في بيروت، او في احداث «حمص وحماه» إياها. . . يقدمون للعالم أسوأ وأخطر وأشر صورة للأنحطاط البشري والتأخر الحضاري الذي لايستحق اهله واصحابه شيئاً من الحقوق او الأنصاف او الرحمة. !

وكل ذلك باسم القضية ومن أجلها. .

وكل جريمة جديدة اقترفها العرب في حق العلم او الحضارة او الانسانية او الثقافة او المجتمع البشري، سجلها العالم فوراً لحساب أعداء العرب. !

ان اصحاب القضية، اية قضية كانت، يبقون دوماً بحاجة الى حلفاء، والى اصدقاء، والى مناصرين، مع بذل الجهد المستمر الذي يهدف الى تحييد الأعداء او تجميد الخصوم. . اما بالاغراء، او بالحرص على المصالح المشتركة، او بالمنافع المتبادلة. ان هذا من ابجديات العمل السياسي ومن أبسط قواعده.

ولكن. .

باسم فلسطين، ومن أجل انقاذها، ولأجل سواد عيونها حارب العرب «حلف بغداد». . «الاستعماري». . «الامبريالي»!!. . وشقوا العرب الى ألف جبهة، وكسبوا عداء اميركا وبريطانيا وتركيا وايران وباكستان، وشغلوا صحفهم واذاعاتهم وخطبهم وانديتهم ومحافلهم لمهاجمة نوري السعيد وعبد الاله وعدنان مندريس وجلال بايار، يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام، وجمدوا الجامعة العربية، ونسوا اسرائيل، ولم تكسب فلسطين، ولاقضية فلسطين من وراء ذلك خردلة واحدة. . !

ولقد تسنى لي ان اشهد مولد حلف بغداد وان اشهد نهايته.

وقد سمعت صلاح سالم، عضو قيادة مجلس الثورة المصري يقول لصديقي واخي الزعيم اللبناني الراحل سامي الصلح، رئيس وزراء لبنان الأسبق، وكانت تشدني اليه روابط صداقة وقربى عائلية ـ سمعته يقول في معرض التنديد بحلف بغداد عام ١٩٥٥ :

«. . لقد ظهر أمامنا مشروع الدول الغربية الذي يعتمد اساساً على جبهة الدول العربية الشرقية، كالعراق، فاذا انضمت مصر الى هذا المشروع فانها سوف تنساق لكي تعترف بالأوضاع الراهنة في المنطقة كما هي ـ ستاتيكو ـ حتى وان لم تعقد مصر صلحاً رسمياً مع اسرائيل، ولكن، والكلام لصلاح سالم ـ اذا ظلت مصر تعارض المشروع المذكور فان القاعدة العسكرية المطلوبة في عملية الدفاع عن الشرق الاوسط ستنتقل منها ـ اي من مصر، الى اسرائيل!»

انتهى كلام صلاح سالم. .

ترى، الم يكن هناك اي متسع لأي موقف سياسي تنضم فيه مصر وينضم فيه العرب الى حلف بغداد مقابل الضغط على اسرائيل لكي توافق على الحل المطلوب للقضية الفلسطينية. . .

الم يكن الغرب مستعداً لكي يدفع للعرب ثمن محالفتهم، وان يكون هذا الثمن فوق ارض فلسطين. . . بالذات؟

ولكن القضية لم تكن قضية حلف بغداد، ولا قضية فلسطين، ورأيت صلاح سالم بعد عودتي معه من «سرسنك» في العراق مقتنعاً بوجهة نظر العراق حول الموضوع، ولكنه ما كاد يفضي بوجهة نظره الى جمال عبد الناصر، حتى ثار جمال وقال لصلاح سالم «ان نوري السعيد قد ضحك عليه»!!

ترى هل كانت القضية تتعلق بمن ولمن سيكون له حق «الزعامة» في الشرق العربي: للعراق ام لمصر. ؟

ترى هل كانت ثورة ٢٣ يوليو سترفض حلف بغداد لو كان اسمه مثلاً: «حلف القاهرة. ؟»

ترى هل كان عبد الناصر سيحارب حلف بغداد بكل هذه الضراوة لو ان الغرب لم يتصل بنوري السعيد وانما بدأ التفاوض مباشرة مع عبد الناصر. ؟

ترى هل كان عبد الناصر ـ الذي وافق في معاهدته مع الانجليز على البند الذي يسمح بعودة القوات الاجنبية الى مصر في حالة وجود أي تهديد على تركيا. . مثلاً. . اقول هل كان عبد الناصر يحارب حلف بغداد احتراماً او تمسكاً بما يسمى ميثاق الضمان العربي، او معاهدة الدفاع العربي المشترك والتي كان عبد الناصر

ادرى الناس بان هذا الميثاق او هذه المعاهدة الدفاعية لاقيمة لها من دون العراق، ولن تفيد العرب بشيء اذا وضعت موضع التنفيذ!

لقد سلخ العرب من عمرهم سنوات طوال وهم يرددون مواويل الهتاف بسقوط حلف بغداد. ثم سقط حلف بغداد، فلم تستفد فلسطين بشيء، ولم يعد لاجيء فلسطيني واحد الى بلده، وانتقل مركز الثقل في موضوع الدفاع العسكري عن الشرق الاوسط الى اسرائيل، وتحولت مطارات اسرائيل ومخازنها الى اكبر ترسانة مسلحة في الشرق الاوسط، واصبحت قوة اسرائيل الجوية والبحرية والبرية هي اكبر من قوة جميع الدول العربية، مجتمعة. !

ويا ايتها «القضية» كم من الجرائم ترتكب باسمك . .

أليس من حق اي مواطن عربي ان يسأل نفسه عندما يستعرض احداث الثلاثين سنة الماضية، ويقف عند منتصف عام ١٩٨٥ :

- ترى ما الفرق بين ما كان يطلبه حلف بغداد من العرب في عام ١٩٥٥ وتوحيد الخطط والمناورات العسكرية بين قوات العراق والقوات «الأجنبية» ، وبين ما جرى، وما زال يجري من مناورات عسكرية مشتركة بين الجيش المصري والجيش الأميركي على طول سواحل صحراء مصر الغربية، وبين الجيش الاميركي والجيش الاردني على طول صحراء الاردن الشرقية، وبين قوات الصومال والقوات الأميركية في قلب الصومال . .

ولماذا يصبح «الشيء» حلالاً في عام ١٩٨٥ ويحمل اسم «النجم الساطع» - بكل فخر وعلانية، ويبقى حراماً محرماً ولعنة قومية في عام ١٩٥٥؟

لماذا . . ؟

وأيضاً . .

هل كان من الضروري صدور قانون تأميم اقوى واقدر صحافة في الشرق الأوسط - وأعني الصحافة المصرية - لكي ترضى موسكو، ويفرح علي صبري، وينتهي اولاد «أمين»، ويختفي «المتمصرون اللبنانيون» من امثال اولاد «زيدان»، ويصبح «هيكل» هو الذي يكتب التاريخ، ويصنع التاريخ، ويزور التاريخ . ؟!

ان الصحافة المحترمة، هي وحدها، الصحافة الحرة. والرأي الذي يدخل

عقول الناس هو الرأي الحر وحده، ولا قيمة لصحافة مستعبدة يحررها موظف في وزارة الاستعلامات او في مكتب وزير الأرشاد القومي! ولن تقتبس صحيفة «كالموند» او «التايمس» عن صحيفة مصرية وهي تعلم انها تقتبس رأي وزير داخلية مصر او وزير زراعتها. وقد تبين لي ذلك بوضوح تام عندما ظهر هجومي على ثورة الاكراد في العراق فبادرت صحيفة «الموند» الى اقتباسه وقالت ان هذا الرأي يعارض رأي الدولة الرسمي في مصر الذي كان يؤيد ثورة الاكراد نكاية بالعراق الرسمي. ! وكانت صحف مصر قبل التأميم، معروفة بصدق دفاعها عن قضية فلسطين وتنوع الاقلام الجبارة على صفحاتها وتوفر النقد العاقل والرأي الحكيم في المقالات المنشورة بداخلها. كان الدكتور «محمود عزمي» والعقاد وفكري أباظة والتابعي و«اسعد داغر» وامثالهم يعالجون القضايا العربية باساليب مختلفة واراء مختلفة فيشدون اليهم الأنظار وتتناقل اراءهم صحف لبنان والعراق وتشير اليهم صحف لندن وباريس والقدس، ويشعر كل مواطن داخل مصر، وخارجها ان في بلده صحافة حرة، واقلام حرة، وان هذه الحرية قد منحت اصحابها القوة والميزة والوزن المطلوب.

وفجأة، وباسم الاشتراكية، ودفاعاً عن الأخلاق والسياسة الحميدة - وتربية لبعض الصحفيين، واعادة الحقوق الى الشعب والاتحاد الاشتراكي، وحرصاً على الربط والضبط والخط المستقيم في الرأي والخبر، اصبحت صحف مصر، مملوكة لما يسمى بالأتحاد الاشتراكي، اي، للدولة المصرية!

وكقطعة المغناطيس التي تفقد تيارها الكهربائي المتوفر بداخلها وتعود الى مجرد قطعة من حديد بارد، فقدت صحافة مصر وزنها ونفوذها وتأثيرها لدى الرأي العام العالمي، وبالتالي فقدت قضايا الشرق الاوسط، وفي مقدمتها قضية فلسطين، عنصر الصحافة القوية، الرزينة، الحرة، القادرة على ان تغزو محافل السياسة والفكر في العالم وان تخوض المعارك وتحلل الاخبار وتفند المزاعم وتقوم بالدور الموكول اليها على الوجه المطلوب. !

لقد دخلت مكاتب اكثر من رئيس من رؤساء تحرير جريدة «التايمس» اللندنية، فوجدت اعداد صحيفة «جيروزاليم بوست» الأسرائيلية، مرصوصة فوق الرفوف

جنباً الى جنب مع اعداد دائرة المعارف البريطانية!

وفي استوكهولم رأيت نفس المنظر في مكاتب صحيفة: «داجنز نايمتر»، اكبر صحف السويد. !

ولكن لم اسمع عن صحيفة بريطانية او فرنسية او اسكندنافية تجمع اعداد صحفية «برافدا» السوفياتية، او صحيفة «بوليتكا» او «بوربا» اليوغسلافية... او صحيفة «الصين اليوم» الصينية!

في الحرية تكمن القوة. وفي القوة يكمن النفوذ. وفي ذلك اليوم الأسود من شهر مايو من عام ١٩٦١، فقدت قضايا هذا الشرق اكبر سند وقوة ودرع ومحام، عندما فقد السند والمحامي، حريته!

وايضاً..

هل كان ضرورياً صدور تلك السلسلة من القوانين الاشتراكية في مصر عام ١٩٦١، «حرصا» على حقوق الشعب وخدمة لقضاياه..؟

أية قضايا لأية أوطان؟؟

لعلني لا أفرض قضية فلسطين على أحد عندما اقول ان قضية فلسطين كانت بمثابة القضية «الاولى» لدى شعب مصر..

فهل استفادت فلسطين من صدور القوانين الاشتراكية التي كانت هي ـ أي فلسطين وقضيتها ـ ضمن القضايا التي من اجلها صدرت تلك القوانين؟

وهل ضاعفت القوانين الاشتراكية من إنتاج مصر القومي ومن ثروتها وبالتالي من قوة جيشها ووفرة سلاحها بالصورة التي افادت منها قضية فلسطين، وجعلت احتمالات النصر في أية حرب قادمة ضد اسرائيل، امراً مفروغاً منه؟؟

إن نتائج حرب الأيام الستة التي اضاعت القدس منا واضاعت مقدساتها، وشردت بقية شعب فلسطين، وانتهت بالعرب الى اتفاقية كامب دايفيد بين مصر واسرائيل، كفيلة وحدها بالجواب المطلوب. !

وما زلت اذكر حتى اليوم خطاباً معيناً لعبد الكريم قاسم ـ «رئيس العراق الأسبق» ـ القاه مساء يوم من ايام اول عام ١٩٦٠ وطلب فيه بالحرف الواحد من شعب فلسطين ان «يعمل على انبثاق جمهوريته!!» قال عبد الكريم قاسم في ذلك

اليوم ما يلي بالحرف الواحد: «. . . لقد طلبت من اهل فلسطين ان يعملوا على انبثاق جمهوريتهم، الجمهورية الفلسطينية الخالدة ـ كيف؟! قبل ان يمر الزمن؟! وقبل ان يصفو الماء على هذه الرقعة ـ اية رقعة يعني؟!. . إننا نتكلم بأسم أهل فلسطين. . اننا لسانهم. . اننا لسان الحق والعدل. . انني اسأل وزير المعارف: هل توجد خريطة تحمل اسم فلسطين في الوقت الحاضر؟ لاشك انكم ستجيبون: لاتوجد! ولكن الخريطة توجد في قلوبنا، وسوف نظهرها للوجود. . !!!» وفعلاً، صدرت بأمر «قاسم» خريطة ملونة لفلسطين مأخوذة عن الخرائط التي كانت معروفة أيام الانتداب البريطاني على البلاد. ظهرت الخريطة. ولكن فلسطين ذاتها لم تظهر. . !

فقد عاد عبد الكريم قاسم وخطب يوم ١٥ أيار ـ مايو ـ ١٩٦٢ في الذكرى ال «١٤» لاغتصاب فلسطين، وطمأن اهل الوطن الضائع بقرب عودتهم الى بلادهم قائلاً بالحرف الواحد، ولم ينس قصة «الخارطة»:

«. . انني اؤكد لكم ان عرب فلسطين عما قريب يعودون الى الديار المقدسة. . وهذه اول «خارطة» لفلسطين رسمت وخططت سنة ١٩٦٢. . فهذه الخارطة تظافرت عليها الجهود المخلصة. . وهي أول خارطة تصل للعراق تأكيداً وتوكيداً بان الجمهورية العراقية الخالدة ستكون في عونكم حتى تعودون الى ارضكم. . هذه «الخارطة» ضمت رقعة فلسطين بكاملها. . وسوف تضم «ارجاء» اخرى هي من ارض فلسطين المقدسة. . »!

هتافات وتصفيق: يعيش مخطط خريطة فلسطين. . خريطة الجمهورية الفلسطينية الخالدة سيادة الزعيم اللواء الركن عبد الكريم قاسم. . . »

ويا ايتها المسكينة، كم من الخرائط ترسم باسمك.!؟ تأميم الصحف في مصر، وصدور القوانين الاشتراكية، و«خارطة» في بغداد تبشر بقرب الخلاص. . وقرارات وخطب وهتافات وفلسفات ومواقف، باطنها شيء وظاهرها شيء آخر؟

هل نعجب لماذا وصلنا الى هنا.؟

باسم القضية، قتلوا الفلسطينيين في البقاع، وفي طرابلس، واشعلوا النار بين الفلسطيني واخيه الفلسطيني وملأوا ساحات المخيمات دماً وحزناً. . !

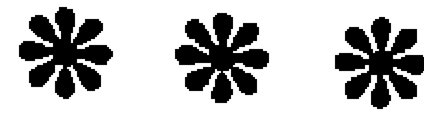
وباسم القضية وعدوا بالدفع وبالدفاع، ثم اخلفوا. وباسم القضية عقدوا مؤتمرات القمة، قمة بعد قمة بعد قمة، ثم اختلفوا . .

وباسم القضية حالفوا العدو، وعادوا الحليف، وزوروا التاريخ، وقلبوا الأوضاع، وايدوا المنحرف، وحاربوا الوطني، وملأوا الدنيا شعراً وخطباً وبلاغات رسمية . .

وبأسم القضية صادروا الحريات وعقدوا الصفقات واغتالوا المعارضين ووزعوا العمولات وقفلوا البيوت ورفعوا الشعارات وسنوا القوانين وكدسوا السلاح وعندما ذهب قائد حامية باريس في خريف ١٩٦٥ لكي يصطحب قائد اكبر جيش عربي من جناحه الخاص في فندق « كريون » الى ساحة الجندي المجهول ودخل على الصالون الخاص الملحق بالجناح ، كان القائد العربي غارقاً في النوم وكانت رائحة « الدخان » الأبيض والأسود تملئ أرجاء المكان . . .

باسم القضية فرفشوا وحششوا . . .

وبعضهم بقي في منصبه . وبعضهم مازال ينتظر. وضاعت القضية . . !



الفصل الثامن عشر
الفاتيكان قوة عالمية أضعناها في القدس .. وفي لبنان .. !

● البابا عام ١٩٨٥ هو غير البابا عام ١٩٤٨ في اسرائيل . !

● كيف يفهم اليهود معنى احترام المسيحية . . بالاعمال؟

● من يتجاهل قوة البابا، يتجاهل قوة ثمانمائة مليون كاثوليكي في العالم . . !

● منذ عام ١٩٤٨ كانت اسرائيل تنتظر ان «تستقر الامور» في القدس الشرقية ليدخل جيشها لاحتلال الاماكن المقدسة . !

● ماذا قال حايم وايزمن لاول سفير اميركي في اسرائيل عن . . القدس؟

الفصل الثامن عشر
الفاتيكان قوة عالمية أضعناها في القدس .. وفي لبنان .. !

انا من مدينة القدس . .

انا مقدسي المولد والنشأة والتربية والهوى والعشق .

ومن زاوية القدس، ومن اجلها، ولحسابها، وضد اعدائها، اجد نفسي مشدوداً بخيط رفيع، ضمن الف خيط وخيط، الى مدينة «الفاتيكان»، حيث المقر الرئيسي لزعيم الكنيسة الكاثوليكية . . البابا!

فان «القدس» بالذات هي بين الشرايين المهمة التي تربطنا بالعالم الخارجي، بالاضافة الى البترول، وقضية فلسطين، وبعض الاثار القديمة المنتشرة على احواض النيل والاردن ودجلة! وعندما اقول القدس فانما اعني مقدساتها. وعندما يجيء ذكر المقدسات يجيء معها ذكر الاسلام والمسيحية. وفي ايام «الميلاد» يتحدث العالم عن القدس، والمقدسات الاسلامية والمسيحية . . ويتحدث العالم ايضا عن : العرب واليهود!

وعندما جاء «ديسمبر» عام ١٩٨٢، رأيت ـ وكعادتي ارقب القدس دوماً على مدى الايام ـ ان ظروف عيد الميلاد في ذلك الشهر من ذلك العام اختلفت تماماً عن ظروف وملابسات واحوال اعياد الميلاد في السنوات السابقة .

● لان الكنيسة التي تمثل هذا العيد، لم تكن في يوم من الايام، موضع النقمة والحسد والتآمر عليها والدس ضدها، كما كانت في ذلك اليوم!

● كانت الشيوعية- من خلال بلغاريا- وبسبب بولونيا، تتآمر على قتل البابا الحالي. تماما، كما كانت الصهيونية العالمية- من خلال اسرائيل- تهاجم البابا وتدس عليه وتتآمر ضده! كانت المسيحية حتى اليوم، تدين اليهود بقتل السيد المسيح، فاذ بيهود اسرائيل اليوم يحاولون ادانة المسيحيين في بيروت ولبنان بقتل.. المسلمين! كانت اليهودية العالمية في الثلاثينات والاربعينات تهاجم البابا «بيوس الثاني عشر» لانه لم ينقذ اليهود من يد البطش النازي، واليوم توجه اليهودية العالمية هجوما الى البابا الحالي «جون بول الثاني» لانه يحاول ان ينقذ اللاجئين الفلسطينيين من يد البطش الصهيوني! في الستينات وبالتحديد في ١٩٦٣، هاجمت اسرائيل البابا بولس السادس لانه بدأ زيارته للارض المقدسة من «القدس العربية». واليوم، تهاجم اسرائيل البابا الحالي لانه قابل «ابو عمار» ولم يوافق على زيارة الارض المقدسة من بوابة... تل ابيب! في عام ١٩٧٤ اتهمت اسرائيل المطران «هيلاريون كابوتشي» بالتعاون مع منظمة التحرير الفلسطينية، وفي عام ١٩٨٢ اتهمت اسرائيل ـ بلسان بلاغ سفيرها في روما ـ البابا الحالي بالتعاون مع منظمة التحرير الفلسطينية! وعندما زار البابا بولس السادس مدينة بيت لحم في عام ١٩٦٣، قرر ان ينشىء جامعة مسيحية خاصة في المدينة قادرة ان تمنح المسيحيين ـ الكاثوليك ـ في الارض المقدسة عامة، وفي بيت لحم خاصة، التعليم الجامعي المطلوب، بالمجان، ودون الاضطرار الى مغادرة البلاد للخارج. وفي عام ١٩٨٢ قررت اسرائيل اغلاق هذه الجامعة بالذات بحجة انها «بؤرة للمبادىء السياسية الفلسطينية المتطرفة في تأييد منظمة التحرير الفلسطينية»!

● تلك هي المعالم الجديدة في عيد الميلاد لعام ١٩٨٢! لقد وصل العداء حتى الى اسم «القدس» نفسها! كان اسم المدينة وما زال عند الملايين من المسيحيين في مختلف انحاء العالم، هو القدس. وبالاسم الانكليزي: JERUSALEM! واليوم، وفي خلال المؤتمر الصهيوني العالمي الاخير، قررت اسرائيل ان تستبدل اسم «جيروزالم» ـ وان تشطبه نهائيا ـ وتضع مكانه اسم: «يوروشالايم»!

هل من اجل هذا كله، نتحدث عن الميلاد في القدس او عن القدس في الميلاد؟

ان القدس التي نغنيها، ونغني لها، اليوم عربيا وقوميا قد غناها العالم قبلنا اسلاميا ومسيحيا لمدة الفي سنة! والقدس التي تدهشنا بعظمتها وشموخها هي «القدس» التي ادهشت قبلنا الناصري عيسى بن مريم، فأحبها كما لم يحب بلدا في العالم وشدته اليها كما لم تشد مدينة احدا بين البشر! ومن خلال هذا الحب المتبادل عرف التاريخ صورا من حب الناس للقدس لم تشاركها فيه مدينة اخرى على مر العصور! وبقيت القدس وحدها هي الحب، وهي المحبة، وهي الخلاص، وهي السلام، وهي الصفاء، وهي المودة، وهي المعجزة!

لقد جمعت بيننا القدس، بالامس، وما زالت هذه القدس تجمع بيننا اليوم، وستبقى تجمع بيننا الى ما شاء الله!

● ثم ان «الكنيسة» ـ منذ ان اعتنق الامبراطور الروماني الكبير «قسطنطين» الديانة المسيحية في عام ٣١٢ ميلادية ـ لم تعد مهمتها محصورة في الروحانيات عندما وجدت نفسها تحكم كل ما كان معروفا يومذاك من عالم.. معروف! لقد بدأت الكنيسة، منذ ذلك اليوم، لاتفكر في الاسلوب الذي يمكنها من التجاوب مع متطلبات البشرية على المستوى الروحي او الديني او العاطفي، فحسب، بل راحت تفكر في الاسلوب الذي يمكنها من المشاركة في اللعبة الدولية والمساهمة في السيطرة على القضايا المعيشية والحياتية للناس وللدول.. ايضا! لقد تطورت الكنيسة من مجرد كنيسة الى... دولة تتمتع بكل امتيازات وسلطات واموال ونفوذ الدول الاخرى! لقد اصبح للفاتيكان سفراء وبعثات دبلوماسية في اكثر من مائة دولة من دول العالم..

لقد كان الفاتيكان عضوا كاملا في مؤتمر «هلسنكي» بكل ما للدول المستقلة من حقوق وامتيازات في ذلك المؤتمر. لقد قال بولس السادس لمجموعة من سفراء الفاتيكان في صيف عام ١٩٦٩ «... يجب ان نكون ـ يعني الكنيسة ـ في كل بقعة من بقاع الارض... وان نعرف كل شيء عن احوال كل كنيسة وكل دولة من دول العالم، ومن كنائسه!» لقد اشتهر بابوات روما على مر الزمن بزياراتهم المتعددة الى اطراف العالم، وبمواجهتهم الجماهير في القارات الخمس، وبالاثار المدوية التي يتركونها وراءهم في كل بلد يقومون بزيارته، وبالدبلوماسية الصامتة الهادئة التي

يمارسونها بكل دقة وتميز ونجاح فتتحقق النتائج المرجوة دون ضجة ولا عقبات! وقد لايكون معروفا للناس ان الفاتيكان كان بين الدول التي وقعت على اتفاقية منع تسرب الاسلحة الذرية! وقد لايعرف الكثيرون ان في دولة الفاتيكان اكثر من مائة سفير وبعثة دبلوماسية اجنبية معتمدة لدولة الفاتيكان وحدها! ورغم انه ليس لاميركا اي سفير لدى الفاتيكان، الا ان جميع رؤساء اميركا كانوا يحرصون على زيارة الفاتيكان والاجتماع الى البابا في كل زيارة رسمية يقومون بها الى اية دولة اوروبية، وكانت قاعات الفاتيكان، وما زالت، كعبة المئات من اشهر الصحفيين والسياسيين والمؤلفين في العالم، الذين جاؤوا اليها بحثا عن الفكر، او الراحة النفسية، او المادة الصحفية، او التوجيه البابوي الخاص مما جعل هذه القاعات تتميز عن غيرها او مثيلاتها في الدول الاخرى بما تضمه عندها من معان تاريخية وقيم فلسفية ومزايا فكرية هائلة! ان قاعات الفاتيكان تتميز «بالعالمية» وبالسخاء الديني والادبي مما جعلها هدف الملايين، وجعل الذين يسعون لسماع خطب البابا ولرؤيته ومصافحته او تقبيل يده او الاجتماع اليه اشبه بالطابور البشري الذي لاينتهي ولا يتوقف، اذ كلما اوشك على النهاية جاء من يقف عنده او ينضم اليه فيبقى الطابور حيا ومكتملا وفريدا!

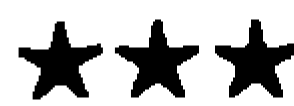
وللمرة الثانية اسأل نفسي:

ـ لماذا اسوق مثل هذا الكلام.

واجبت للمرة الثانية:

ـ لان ميلاد عام ١٩٨٢ يختلف عن ميلاد الاعوام السابقة! ولان «بابا» اليوم، يختلف عن باباوات روما السابقين! وبعبارة اكثر صراحة اقدر ان اقول: لان نظرة وموقف الصهيونية العالمية واسرائيل نحو المسيحية ونحو الفاتيكان ونحو البابا الحالي، مختلفة جدا عن نظرة وموقف الصهيونية واسرائيل من المسيحية ومن الفاتيكان في الماضي!

هل تريدون امثلة؟!



● المعروف ان ليس بين الفاتيكان واسرائيل اية علاقة دبلوماسية. وان الفاتيكان لم

يعترف بأسرائيل، وان جميع الجهود والضغوط التي مارستها الصهيونية العالمية واسرائيل ويهود امبركا لحمل الفاتيكان على الاعتراف باسرائيل قد ذهبت سدى. .

وعندما اقترح الفاتيكان في عام ١٩٥٠ تدويل الاماكن المقدسة او وضع القدس تحت الادارة الدولية، رفض الاردن ذلك مؤكدا ان التدويل مساويا للخيانة! وفي عام ١٩٦٨ كرر الفاتيكان اقتراحه بتدويل القدس، فجاء الرفض ـ هذه المرة ـ من اسرائيل!

وبقي الفاتيكان مصرا على رأيه بضرورة اختيار نوع من الحكم الدولي للمدينة المقدسة لاتنفرد فيه اسرائيل وحدها، وبقيت اسرائيل ترفض رأي الفاتيكان وتؤكد ان القدس هي العاصمة الابدية. . والموحدة. . لاسرائيل!

وبدأت المنظمات اليهودية المتطرفة داخل اسرائيل تمارس نوعا من الارهاب الديني والفكري ضد بعض الكنائس وضد بعض رجال الدين المسيحيين! ولم يكن مهما ان يبادر رئيس بلدية القدس «تيدي كوللك» الى استنكار مثل تلك الاعمال، وانما المهم ان تلك الاعمال قد وقعت فعلا، وانها استهدفت الاماكن الدينية المسيحية كما استهدفت النيل من وقار بعض رجال الدين المسيحيين ومن «حرمة» بعض الكنائس!

وقيل يومذاك في تبرير تلك الاعمال «انها صادرة عن اشخاص افراد لايمثلون موقف الدولة ولايعبرون عن رأي الشعب اليهودي تجاه المسيحيين».

● ثم اعلنت السلطات في القدس انها قبضت على شاب وفتاة كانا يمارسان عملية «الجنس» داخل كنيسة القيامة! واتضح فيما بعد ان الشاب هو يهودي من اصل بولوني وان الفتاة يهودية من اصل. . روسي!

● ثم نشرت الصحف ان «مجهولا» قد القى قنابل محرقة فوق سطح احد المعابد الدينية المسيحية بالقدس مما ادى الى اشتعال النار في انحاء المعبد واتلافه بصورة تامة!

● يضاف الى ذلك القيام المتعمد باضطهاد اشخاص كبار من رجال الدين المسيحي ومن طائفة الارمن. . والسريان، ومنعهم من السفر او تحديد اقامتهم او توجيه بعض التهم الملفقة لهم!.

● وفي ذلك الاسبوع بالذات القت السلطات الاسرائيلية القبض على اليهودي المدعو «اشير راباي» وهو يتسلق سور الدير المسيحي بالقرب من مدينة «نابلس» فاذا بالتحقيق مع المدعو يكشف عن جريمة قتل كان قد اقترفها المذكور في مبنى الدير واغتال خلالها الراهب الارثوذكسي «جورج فيلومينوس» ثم حاول اغتيال الراهبة المسماة «تسيبورا فيلوتا» في نفس الدير وبنفس السلاح!

ماذا كان سلاح هذا المجرم في قتل الراهب ومحاولة قتل الراهبة؟ كانت «البلطة» هي سلاحه!

لماذا؟!

يقول التحقيق ان المجرم قد التقى بضحيته في عدة مناسبات سابقة جرى خلالها بعض النقاش بينهما في الامور «الدينية»، وسمع المجرم من ضحيته بعض الاراء الدينية التي لم تعجبه فقرر اغتيال صاحبها وسافر الى نابلس واشترى «البلطة» وتسلق سورالدير القريب حتى شاهد الراهب يمر امامه في طريقه للصلاة فهجم عليه وضربه «بالبلطة» على رأسه من الخلف وكرر الضربات حتى قضى عليه. !

كيف تفسرون مثل هذه الوحشية ومثل هذا التعصب الاعمى ومثل هذا الحقد عند مثل هذا الوحش الاسرائيلي؟!

انا لا اعرف انسانا واحدا قادرا على ان يبرر مثل هذه الجريمة النكراء او يلتمس لصاحبها المجرم اسباب التخفيف. ولكن اسرائيل تملك التبرير ولا تخجل من ان تعلنه على العالم!

● فاسرائيل لاتريد ان تخفي الالم الذي يشعر به «المواطن» اليهودي العادي من الموقف العدائي الذي تقفه المسيحية من الدولة الاسرائيلية في هذه الايام. . !

واسرائيل تهمس هكذا في تفسير كلامها:

لايجوز للفاتيكان ان يوصي المسيحيين العرب في الضفة والقطاع بعدم الهجرة او ترك وطنهم لغيرهم! ان مثل هذا العمل يعتبر موجها ضد «سلامة». . اسرائيل!

ولايجوز للفاتيكان ان يرسل الهبات المالية لبعض المحتاجين المسيحيين من عرب الضفة والقطاع لان هذا يعتبر تدخلا في امور اسرائيل الداخلية!

ولايجوز للفاتيكان ان يصلي من اجل خلاص اللاجئين الفلسطينيين او ان يطلب

من العالم ان يتذكر شعب الارض المقدسة ويعمل على تخليصه من حياة التشرد والعذاب!

ولا يجوز للفاتيكان ـ والكلام ما زال لاسرائيل ـ ان ينادي بضرورة منح عرب فلسطين حقهم في تقرير مصيرهم!

ولا يجوز للفاتيكان ان يقابل ياسر عرفات!

ولا يجوز للفاتيكان ان يحشر انفه في قضايا لبنان او ان يجعل من نفسه وصيا على المسيحي الماروني في لبنان! ان الوصاية على لبنان ـ وعلى الموارنة بالاخص ـ هي مسؤولية اسرائيلية وليست «فاتيكانية» ولا هي فرنسية او اميركية! ان مصير لبنان ومصلحة مسيحييه امور تقررها اسرائيل وليس الفاتيكان!

★★★

وبسرعة البرق بدأت موجة من الكتب الجديدة «المعنية» تحتل جميع واجهات محلات بيع الكتب في اكبر شوارع لندن، وواشنطن، ونيويورك!

وهذه الكتب مملوءة بالدس على الفاتيكان والتطاول على «البابا» وتزوير تاريخ الكنيسة الكاثوليكية وسرد الاخبار والغمزات التي قد تقول للقارىء بأسلوب مبطن ان دولة الفاتيكان قد دالت، وان شمس الفاتيكان قد غربت، وان قصة الفاتيكان قد تحولت الى «فضيحة»، وان بابا الفاتيكان السابق «بولس السادس» كان عدوا للديمقراطيات الغربية بسبب تحالفه مع معظم دول العالم الثالث وتأييده «للارهابيين» واليساريين في اسبانيا، ودول العالم جنوبي اميركا، وصداقته مع «كاسترو» وسكوته على اضطهاد المسيحيين في هنغاريا ورومانيا وتشكوسلوفاكيا!

هذه الكتب تقول ان بولس السادس كان مجرد «دمية» بين الدمى، وانه «كان طفلا» كبيرا اضاع نفسه والكنيسة معه.. وترك وراءه ـ بعد موته ـ كنيسة محطمة وتعاليم متضاربة!

هذه الكتب تقول ان «كارول وتيجلا» ـ ابن الثامنة والخمسين من العمر، ومطران «كراكو» البولونية، والذي اختير لكي يصبح البابا «جون بول الثاني».. قد ادرك بنفسه بعد اختياره لمنصب البابوية «ان عجلة الزمن قد سبقته وان مجيئه للمنصب قد جاء بعد فوات الاوان، وانه سيبقى عاجزا عن السيطرة على اساتذة

اللاهوت. . ولن يقدر إن يحل مشكلة ملايين الفقراء الكاثوليك في جنوب اميركا، وان احدا. . لن يثق به»!

هذه الكتب الجديدة تقول ان الشعب الاميركي قد فقد ثقته في الفاتيكان كمصدر لخلاص البشرية. . وان الكنيسة الكاثوليكية بوضعها الحاضر، وميزانيتها «المفلسة»، وتحالفاتها السياسية، لاتعطي اي برهان على انها «كنيسة المسيح»، او كنيسة الانسان الضعيف الفقير، وانها سائرة الى. . الموت!

هذه الكتب ـ وما اكثرها وما اكثر اللؤم والدهاء في صفحاتها ـ تقول ان البابا الحالي رجل ديماغوجي، ينافق الشارع، ويكذب على الناس وانه من الصعب على رجل من اصل «سلافي» ـ مثله ـ ان يفهم العقلية الغربية ويميز معالم الثقافة الاوروبية العميقة!

● هذه الكتب تقول للبابا الحالي في مائة اسلوب ومائة عبارة:

ـ انت عاجز عن ان تحدد معنى رسالة الكنيسة الكاثوليكية في الحقلين السياسي والاجتماعي! انت «متهم» بالوقوف وراء الازمة البولونية واستغلالها لحساب غير حساب بولونيا وانما لحساب «ادم ميشنك» العضو البارز في الحزب البولوني الشيوعي الذي عمل لعقد تحالف بين اليسار البولوني من جهة والكنيسة الكاثوليكية في بولونيا من جهة اخرى تمهد لتدخل سوفياتي عسكري وبالتالي تقضي على الكنيسة الكاثوليكية في بولونيا!

هذه الكتب كلها سموم، كلها عداء، كلها هجوم، ضد الكنيسة، وضد الفاتيكان، وضد البابا الحالي، وضد كل خطوة يقوم بها الفاتيكان في ميادين المال، او السياسة، او الاقتصاد! لقد استغلت هذه الكتب تورط الفاتيكان مع احد بنوك ايطاليا المتهم رئيسها بالنصب والاحتيال، وراحت تصور الموقف وكان الفاتيكان نفسه ـ لا مدير البنك ـ هو المسؤول عن الفضيحة! ان صحف سويسرا وصحف فرنسا التي تسيطر عليها الاموال اليهودية قد «جعلت من الحبة قبة»، وراحت تدق على نغمة فضيحة البنك الايطالي وتربط بين اموال البنك واموال الفاتيكان وتكاد تقول للعالم ان البابا الجالس على رأس الكنيسة الكاثوليكية هو رجل نصاب وبلا ضمير!

هكذا تنتقم الصهيونية العالمية، من البابا والكنيسة والفاتيكان.

هكذا ترد اسرائيل على مصافحة البابا لرئيس منظمة التحرير واصرار الفاتيكان على عدم الاعتراف باسرائيل.

هذا هو موقف يهود العالم، من المسيحية الكاثوليكية كما صورته الاحداث، ونقلته الكتب، ووزعته الاذاعات واجهزة التلفزيون، في الثلث الاخير، من الشهر الاخير، من عام ١٩٨٢.

● ترى، هل قدر المسيحيون اللبنانيون على استيعاب الدرس بصورة قدروا معها على «اعادة» نظرهم في موقفهم من اسرائيل بشكل جدي وحاسم وسريع؟

ان اسرائيل التي افترت على الفاتيكان وزورت تاريخ الكنيسة الكاثوليكية لن تعجز عن تزوير الموقف المرتبط بالوجود العسكري الاسرائيلي في لبنان..

ان اسرائيل التي كذبت على «البابا»، لن تعجز ان تكذب على امين الجميل، وشفيق الوزان، وايلي سالم، ووليد جنبلاط، وكميل شمعون، وصائب سلام، وسليمان فرنجية، وبابا بيروت! ان شارون الذي يقف وراء التهجمات على الكنيسة ويشجع الاعتداءات على رجال الدين المسيحي في الارض المحتلة بالضفة والقطاع والقدس، ويأمر سرا بحرق دور العبادة المسيحية في القدس.. «شارون» هذا لن يهمه لو زعم بأن «مفاوضات سرية قد جرت بينه وبين كبار المسيحيين في لبنان وانتهت بقبول لبنان «للشروط» الاسرائيلية مقابل الانسحاب الاسرائيلي من لبنان.. وان هذه «الشروط» قد اعطت اسرائيل كل ثمرات النصر الذي حققته في حرب لبنان»!

● كان المطلوب ان يقف أكثر من مسؤول عربي لبناني واحد في بيروت لكي يقول لشارون انه: كذاب!

وكان المطلوب ان يكون صاحب مثل هذا القول، لبنانيا مسيحيا مارونيا، ولايكفي ان يكون صاحب القول هو رئيس الوزراء يومذاك المسلم اللبناني السني.. شفيق الوزان!

وكان المطلوب ان يقال هذا الكلام علنا، ورسميا، وللعرب، ولاميركا، ولاسرائيل، على حد سواء!

وكان المطلوب ان يقال هذا الكلام بدون خوف ولا عقد ولا مراعاة ولا كياسة تجاه دولة غازية وجيش محتل وحكام لم يصدر قرار التحقيق لتبرأتهم من تهم القتل الجماعي!

ولكن. .

لا زعماء لبنان تكلموا وردوا وصححوا. ولا زعماء العرب شجعوا زعماء لبنان على الكلام او الرد أو التصحيح!

وبقي كلام «شارون»، هو الصحيح. وبقي الكتائبي اللبناني ـ رغم انفه ـ هو حليف اسرائيل وضد العربي! المسيحي اللبناني الكتائبي ملوم. والعربي المسلم ملوم.

والمستفيد الوحيد هو الأسرائيلي. .

تقول الاحصاءات ان عدد المسيحيين في العالم يزيد عن «مليار وخمسين مليون نسمة»، بينهم ـ حسب احصاءات الفاتيكان في عام ١٩٨١ حوالي «٧٥٠» مليون مسيحي كاثوليكي!

كما تقول الاحصاءات ان عدد المسلمين في العالم يزيد عن «سبعمائة وخمسين مليون نسمة. .»!

اما عدد اليهود في العالم، فلا يزيد ـ حسب الاحصاءات الرسمية البريطانية في عام ١٩٨٠ عن «١٤ مليون» وثلاثمائة الف نسمة!

لماذا وكيف استطاعت الاقلية اليهودية ان تتحكم بالاكثرية المسلمة، والاكثرية المسيحية؟!

كيف استطاع ١٤ مليون السيطرة على ملياري نسمة من المسلمين والمسيحيين في العالم؟ كيف؟!

● اسمحوا لي ان اسرق الجواب على هذا السؤال من جريدة «الاوبزرفر» البريطانية الاسبوعية المشهورة التي نشرت على الصفحة العاشرة في عددها الصادر يوم ١٩ ديسمبر عام ١٩٨٢، وعلى عمودين كاملين في أعلى الصفحة، وتحت عناوين مثيرة تقول: « هناك الكافيار وسط الدمار»، مايلي :

« . . . يقول السيد «ريمون داوود» ـ ويسمونه في بيروت الرئيس او «البريزيدان»

وهو شاب وسيم «ودون جوان» وبلاي بـوي ان عند اللبنانيين شهوة للحياة لا يقدر على تحطيمها شيء في العالم»!

وتستمر الجريدة المذكورة فتقول:

«. . . وفي الاسبوع الماضي أقام السيد «داوود» اضخم حفلة عشاء منذ بدء الحرب الاهلية اللبنانية حتى اليوم. . . وذلك بمناسبة عيد ميلاده الخمسين. . في مطعم «الكاف دي روا» المشهور حيث أعيد تأثيث النادي المذكور بأحلى وأفخم الديكورات. . وعلى مقربة من البار الليلي الذي يلتقي فيه البحارة الاميركان مع الجنود الطليان والجنود الفرنسيين للبحث عن فتيات اخر الليل عند «فيلبينو» الذائع الصيت! وقد بلغت تكاليف الحفلة «مائة وخمسين الف جنيه» استرليني. . . وكان البارمان «الدو» حاضرا كعادته. . وكانت السيدات يضعن على صدورهن أغلى الجواهر والعقود المتلألئة، كما كان الرجال يرتدون السموكن وقطع الذهب والياقوت والالماس تتدلى من «اكمام» القمصان المنشاة. . . وسألتني احدى المدعوات: هل تعتقد اننا في بلد مجنون؟».

العفو يا سيدتي!.

إن المجنون هو اللبناني المسيحي الذي لم يعـرف حقيقة المسيحيـة من الصهيونية. . ومن اسرائيل. . ومن اليهود!

والمجنون معه، هو المسلم العربي الذي لم يحتضن اخاه اللبناني ولم يفهمه ولم يطمئنه وتركه فريسة لاحلام «بن غوريون» وتخطيط «شارون» ومغامرات «مناحيم بيغن»!

كلنا يا سيدتي مجانين. .

والعاقل الوحيد هو ذلك اليهودي المشرد الذي استطاع من خلال حرب لبنان ان يفسد الدور المنشود للكنيسة الكاثوليكية في مناصرة العرب وفي انقاذ القدس، وبدلاً من ان يلتفت البابا لانقاذ كنيسة المهد من نعال الصهاينة، شغلوه بانقاذ المسيحيين من خناجر. . الدروز والشيعة وبقية المسلمين!

في عام ١٩٥٠، وكنت يومذاك مديراً عاماً للاذاعة والمطبوعات الأردنية ومستشاراً للملك عبد الله، جاء لزيارتي في منزلي بالجزء الشرقي من القدس المستر

«جيمس ماكدونالد»، اول سفير لأميركا في اسرائيل. !

وكنت أعرف المستر «ماكدونالد» منذ عام ١٩٤٦ عندما جاء الى القدس ضمن الوفد الأميركي في لجنة التحقيق الانجلو - اميركية -. كان طويل القامة أصلع الرأس دائم الابتسامة واسع الثقافة، وكان لايخفي حبه لليهود! وكنت يومذاك اي عام ١٩٤٦ عضواً في مكاتب الاعلام السياسي التابعة للجامعة العربية. وأمرني الزعيم الراحل «موسى العلمي» بوصفه المدير العام للمكاتب المذكورة ان أرقب تحركات المستر «ماكدونالد» وان أتعرف عليه وان أحشر نفسي في برنامجه اليومي وان استكشف كل ما عنده من اسرار ومواقف تتعلق باللجنة المذكورة واهدافها وتقريرها النهائي المنتظر.

ومع الأيام تولدت بيني وبينه شبه صداقة جعلتني اتعرف الى كل ما كان ينتظر فلسطين على يد تلك اللجنة قبل ان يأتي الصيف ويظهر تقريرها النهائي.

ومضت الايام وعادت اللجنة الى بلادها. ثم قامت حرب ١٩٤٨ وقامت بعدها دولة اسرائيل.

وأمر الملك عبد الله في عام ١٩٥٠ بتعيين المرحوم راغب باشا النشاشيبي حاكماً عاماً للضفة الغربية و«حارساً سامياً» للاماكن المقدسة.

وفجأة، سمعت صوت «جيمس ماكدونالد» عبر التلفون يقول لي انه يرغب في مقابلتي.

وعندما التقينا وحدثني عن منصبه واحواله، قال لي بالحرف الواحد:

- في العام الماضي، وبالتحديد في شهر اغسطس قابلت في طريق رحلتي الى اسرائيل لاستلام منصبي الجديد، الدكتور «حايم وايزمن»! وكان اللقاء في مدينة «فيفي» على شاطىء بحيرة جنيف. واعرب لي الدكتور وايزمن عن قلقه الشديد من جراء موقف الفاتيكان من قضية القدس. وقلت لوايزمن - والكلام لجيمس ماكدونالد - اني قبل مغادرتي نيويورك قابلت الكاردينال «سبلمان» الذي سلمني مذكرة مطولة تحمل - بالتفصيل - اسماء كل موقع من الاماكن المسيحية «المقدسة»، وحقوق الفاتيكان فيها، داخل القدس، وحولها. وأعطيت المذكرة الى الدكتور وايزمن الذي قرأها على الفور وقال لي ان الحكومة الاسرائيلية ستحترم جميع هذه

«الحقوق» بالكامل، وان على الفاتيكان ان يتأكد من حسن نوايا اسرائيل تجاه حقوق الكنيسة في الأرض المقدسة. . . »

قال لي جيمس ماكدونالد مستطرداً:

ـ ولكن وايزمن سألني قائلاً: كيف نستطيع ان نضمن سلامة شيئاً لانسيطر عليه. ان الملك عبد الله يسيطر بجيشه على كنيسة المهد في بيت لحم وعلى كنيسة القيامة في القدس، وعندما «تستقر الأمور» وتصبح الاماكن المقدسة تحت سيطرة جيش الدفاع الاسرائيلي عندئذ، سيجد الفاتيكان كل تعاون وكل نوايا طيبة من الحكومة الاسرائيلية. . »

ثم ناولني جيمس ماكدونالد نسخة من المذكرة التي كان قد تسلمها من الكاردينال «سبلمان» في نيويورك وطلب مني ان أرفعها للملك عبد الله وهو يقول:

ـ عندي شعور خفي بان الحل النهائي للاماكن المقدسة لم يأت بعد. فاسرائيل ليست راضية عن بقاء شعبها بعيداً عن حائط المبكى. والبابا قال لي في روما انه لايثق بضمانات اسرائيل ولا بضمانات الأردن حول الأماكن المقدسة. وان قضية هذه الاماكن ستبقى قائمة ومتفجرة الى أمد بعيد. . . »

ولم يشرح لي كلامه. ولم اسأله المزيد. كنت اعرف ان اسرائيل تنتظر الفرصة المواتية لكي تستولي على الجزء الشرقي من القدس وتضع الاماكن المقدسة، من اسلامية ومسيحية ويهودية تحت سيطرتها.

وهكذا كان. .

ويبقى الحليف الاول للعرب في رفض هذا الأمر الواقع بالنسبة للقدس، هو البابا. . والكنيسة . . والفاتيكان!

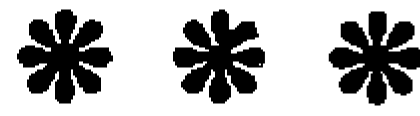
أكاد أسمع بعضهم يشدني من يدي ويشير الى ما اعتدنا على سماعه منذ عام ١٩٦٤ عن المؤتمر الكاثوليكي العالمي ووثيقة تبرأة اليهود من دم المسيح، والتي تكررت في عام ١٩٨٥، ويقول لي:

ـ كفى! هذا هو الفاتيكان الذي تطلب من العرب والمسلمين محالفته في معركتنا ضد الصهيونية. . الا ترى في الموقف ما يغني عن التعليق؟

واجيب على الفور:

ـ انني كمسلم لا تهمني قصة هذه التبرأة لأني ـ اصلاً ـ لا أؤمن بها ولا بحدوثها ولا بحقيقتها. انا لاتهمني الحادثة وبالتالي لايهمني الغاؤها. واذا رأيت في وثيقة الفاتيكان ما يطمأن اليهود للعيش بأمان واستقرار في مختلف دول العالم، بعيداً عن ارض بلدي، فاني ارحب بها واؤيدها. واذ كان في صدور الوثيقة ما يريح سادة الفاتيكان ويضع حداً للابتزاز الصهيوني ـ اليهودي ـ لهم، فاني ـ كصديق ينشد محالفة الفاتيكان في معركة القدس ـ اهتف بحياة هذه الوثيقة وكل وثيقة مثلها سواء عام ١٩٦٤ ام عام ١٩٨٥!

والمسألة بعد هذا، ليست مسألة عواطف. ولا هي تقبل الأرتجال او التجاهل او التشنج. لقد اخطأنا في فهم دور الفاتيكان طيلة الخمسين سنة الماضية، ومازلنا «ننعم» بهذا الخطأ الفظيع.



الفصل التاسع عشر
قضية الفرص الضائعة..!

●قال «جورج برناردشو» عن فلان: إنه جاهل لايعرف شيئاً ولكنه يظن انه يعرف كل شيء. وهذا ـ بالضبط ـ مايؤهله لأن يصبح رجل سياسة!».

● بالعقلية التي رفض بها العرب «الكتاب الابيض»، رفضوا قرار التقسيم، ورفضوا البيان الثلاثي، ورفضوا المبادرة الاوروبية، ورفضوا مبادرة ريغان.

ومازال الرفض مستمراً.

● الذكاء الدبلوماسي أمر مطلوب. ولكن المهم هو.. الدم!

● ماذا قال لي «هنري سباك»؟ في عام ١٩٦٥ ؟

الفصل التاسع عشر
قضية الفرص الضائعة..!

كنت اسأل نفسي دائماً: هل كانت جولدا مائير بعيدة عن الصدق عندما قالت في احدى مذكراتها ان كل ما يهم العرب ليس تحقيق فوائد تساعدهم على حل قضاياهم وانما يهمهم خلق الأضرار من اجل الحاقها باسرائيل. . . »

هذه العجوز الشمطاء ـ كما كنت اسميها في عشرات من مقالاتي السياسية عن اسرائيل ـ هل كانت أعرف بالحقيقة العربية من بعض العرب أنفسهم . ؟

ملعونة هذه العجوز الكريهة في قبرها وفي عظامها .

ولكن . ؟

هل انتصرت اسرائيل على العرب خلال الخمسين سنة الماضية بسبب قوتها ومتانة صفوف شعبها فحسب، أم بسبب الضعف العربي وضياع الفرص الذهبية من يد العرب . ؟! هل انتصر لاعب كرة المضرب لأنه لاعب ماهر أم لأن خصمه في اللعب لايجيد اللعبة ؟

دعونا من الحديث عن الفرص السياسية التي بددها زعماء فلسطين منذ عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٤٧ ورفضوا فيها الحلول والمشاريع وتقارير اللجان وهمسات الوسطاء تحت ستار التطرف والوطنية وعدم التفريط بالوطن .

لانريد ان نسأل ولا ان نجيب لماذا رفض عرب فلسطين الاقتراح البريطاني بانشاء «وكالة عربية» على غرار الوكالة اليهودية تقوم بتمثيلهم والدفاع عن حقوقهم

لدى حكومة الانتداب ولدى عصبة الأمم، في عام ١٩٢٤؟

ولماذا رفضنا قرار التقسيم عام «١٩٣٤» وقرار «الكتاب الابيض» عام ١٩٣٨؟

لقد كنت التقي في لندن بالسياسي العمالي البريطاني الشهير «جورج براون» ـ وقد اصبح فيما بعد اللورد براون ـ وكان من اذكى واقدر وزراء العمال في بريطانيا لولا ان تآمر عليه «الكأس»، واليهود، فقضوا عليه. سألني «جورج براون» ذات يوم لماذا لايحاول احد الأخصائيين العرب او احد المؤرخين السياسيين ويكشف اسرار السياسة البريطانية التي حملها وتزعمها «أرنست بيفن» وزير خارجية بريطانيا منذ ١٩٤٦ حتى ١٩٤٩ والتي لو وافق عليها العرب، لما قامت لليهود دولة اسمها اسرائيل..؟!

لماذا؟

كان اسم «أرنست بيفن» «Bevin» يثير في نفوس يهود العالم بأسره القلق والفزع. كان عالماً ومفكراً وسياسياً محنكاً وزعيماً عمالياً كبيراً.

وقد رفض زعماء فلسطين ـ ومعهم عبد الرحمن عزام الاستماع الى نصائحه، مما جعله يغضب ويثور ويندم على كل ساعة اضاعها مع العرب، وينفض يده من قضيتهم ويصيح في وجه «موسى العلمي»، الزعيم الفلسطيني الراحل:

ـ سأعيد القضية الى الأمم المتحدة، وسأنهي الانتداب، وستخرج بريطانيا من فلسطين كما تطالبون ـ ولكني احذركم بان اليهود يملكون من القوة والسلاح والتأييد الأميركي ما سيمكنهم من اقامة دولتهم خلال عام واحد من الآن..!»

وهكذا كان.!

لماذا لانكشف تاريخ «ارنست بيفن» عن فلسطين؟

ولماذا لا نروي قصة الكونت «برنادوت»، ومصرعه، وتقريره الشهير والاثار التي ترتبت على مقتله، والعجز العربي الفاضح في استغلال الحادث لمصلحة قضية العرب الكبرى يومذاك، رغم ان اميركا وبريطانيا «معاً» اتفقتا على تأييد التقرير الذي خلفه «برنادوت» وراءه والذي ينزع «صحراء النقب» بأسرها من يد اليهود ويعيدها للعرب.؟!

لماذا؟

وانا لست مع اي صلح منفرد مع اليهود. ولكني اسأل بكل صدق:

ـ لماذا رفض العرب ان يسالم الأردن اسرائيل عام ١٩٥٠ رغم موافقة اليهود على منح الاردن ميناء حراً على البحر المتوسط بينما يسعى العرب لمفاوضة اسرائيل في عام ١٩٨٥ وليس في يدهم ورقة سياسية واحدة قد تعيد لهم القدس او الضفة او القطاع؟

لماذا؟

لماذا حارب العرب البيان الثلاثي ـ الاميركي الفرنسي التركي ـ عام ١٩٥١؟

ولماذا أقتصرت رحلة «عبد الناصر» الى الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ على القاء خطاب في الامم المتحدة والالتقاء مع الرئيس ايزنهاور، ثم العودة الى مصر، دون اي بحث في موضوع فلسطين او محاولة العثور على حل لمأساتها؟!

ترى هل كان عبد الناصر يومذاك، بكل ثقله وقوته ونفوذه الدولي، عاجزاً عن العثور ـ مع الرئيس الأميركي ـ على حل عادل للقضية؟!

ويومذاك ايضا:

لماذا رفض العرب مشروع «جونستون» حول تقسيم مياه نهر الاردن وأصروا على تحويل «الروافد» وهم يعلمون ان ليس لديهم قوة عسكرية تحمي عملية التحويل من غارات اسرائيل، وان المشروع العربي المعد يحتاج الى قيادة عسكرية مشتركة قادرة على ان تحمي الاقنية في الارض السورية وفي الارض اللبنانية على السواء وهذا ما كان يفتقر اليه العرب حتى تدخلت اسرائيل وحصلت لنفسها على كل نقطة من المياه العربية الغالية؟

حقاً لماذا؟

وفي اواخر شهر مارس عام ١٩٦٦، أي قبل عام واحد وبضعة شهور من وقوع «حرب الايام الستة»، وكنت يومذاك في باريس أطوف عواصم اوروبا كمندوب، او سفير، او ممثل لجامعة الدول العربية، قيل لي في وزارة الخارجية الفرنسية ان عبد الناصر قد القى خطابا طويلاً في «السويس» هاجم فيه بعنف معظم ملوك ورؤساء العرب ومنهم الملك حسين، والملك فيصل، وبورقيبة.. وغيرهم.

وكعادتي في مثل هذه الحالات، اتصلت تلفونياً بصديقي الكبير الراحل «احمد

الشقيري» ـ وكان مازال زعيماً للمنظمة ـ على تلفون منزله بعمارة «ليبون» بالزمالك، وسألته عن القصة فأجابني باسلوبه المعروف :

ـ لقد إنهال الرئيس عليهم ولم يترك شعرة في رؤوسهم!

ثم اردف قائلاً لي :

ـ ربنا يستر! لقد حرق الرئيس جميع المراكب. . !

ورحت اسأل نفسي في ذهول :

ـ هل كان مثل هذا الخطاب ضروريا في مثل ذلك الوقت بالذات؟

وافسر واقول : هل كان من الضروري ان نعود الى سياسة العداء والشتم والردح بينما قد فشلنا يومذاك . . في تنفيذ المشروع العربي لأستثمار مياه نهر الاردن وفشلنا في تشكيل القيادة العربية الموحدة، وفشل مؤتمر «حرض» في اليمن، وبدت جامعة الدول العربية هزيلة متفككة، وبدى التضامن العربي مجرد اسطورة والحملات العدائية بين العراق وسوريا وصلت الى حد الجنون، والحكومة المغربية سحبت سفرائها من دمشق وبيروت، والأزمة ما زالت قائمة بين الاردن ومنظمة التحرير، وأميركا بدأت في تزويد اسرائيل السلاح . ؟

هل من الضروري صب الزيت فوق النار؟

هل؟! هل؟!

وهناك نقطة اخرى :

قبل قيام دولة اسرائيل، كانت قضية فلسطين تعالج بما يسمى تقارير «لجان التحقيق» . وبعد قيام دولة اسرائيل اصبحت القضية تعالج بأسلوب «المبادرات»! من هنا يصح قولنا ان «الكتاب الابيض» الذي طرحته بريطانيا على العرب واليهود عام ١٩٣٨ كان في حقيقته مجرد «مبادرة» . . تماما، «كمبادرة» لجنة التحقيق الانكلو ـ اميركية في ربيع ١٩٤٦ «وكمبادرة» الامم المتحدة في صيف ١٩٤٧ . . وان القرار الدولي المشؤوم الذي نتج عن هزيمة عام ١٩٦٧ كان يحمل من عناصر «المبادرة» ما حمله من قبل «وعد بلفور» الاكثر شؤما، وما حملته المبادرات البريطانية المنطوية في تقارير لجنة «بيل» الملكية ـ مثلا ـ ولجنة «التقسيم» التي جاءت بعدها، وان جميع هذه «المبادرات» كجميع التقارير التي سبقتها كانت مجرد محاولات بريطانية واميركية

ودولية، يائسة ورسمية ومهمة، تهدف كلها الى حل القضية الفلسطينية التي أصبحت تسمى مع الزمن قضية «الشرق الاوسط» والتي تقلصت وهانت وانحطت مع «الهزائم» فأصبحت تعرف بقضية «اللاجئين» الفلسطينيين. . !

وهنا يبرز السؤال الذي لا يحتاج الى من يطرحه:

ـ لماذا نجحت بعض هذه المبادرات، ولماذا فشل بعضها؟! ولماذا انتصرت وعاشت المبادرات التي خدمت وما زالت تخدم الجانب اليهودي، ولماذا فشلت وماتت وانتهت المبادرات التي تخدم ـ او أريد لها أن تخدم ـ الجانب العربي!؟ لماذا ـ مثلا ـ مات «الكتاب الابيض» عام ١٩٣٨ وعاش وعد بلفور!؟ لماذا سقط مشروع «الوصاية الدولية» على فلسطين بينما نجح مشروع «تقسيم» فلسطين؟!

لماذا؟!

لماذا فشل «جون كنيدي» في ان يحقق للعرب ذرة واحدة من معاني النصر في استعادة حقوقهم، بينما نجح «ليندون جونسون» في «رعاية» اسرائيل وهي تشن حرب الايام الستة عام ١٩٦٧، وتحقق اعظم انتصاراتها في التاريخ الحديث؟!

● بل، لماذا صدر عن الامم المتحدة، بكل لجانها ومؤتمراتها ومجلس أمنها وجمعيتها العمومية الف قرار عن الحق العربي في فلسطين، فماتت واندثرت كلها، ولم نعد نسمع عن واحد منها، اللهم سوى قرار واحد وحيد هو القرار رقم ٢٤٢؟!

لماذا؟!

إن المبادرات السياسية تشبه «الفرص» او «البالونات» أو «المناسبات» التي على الاطراف المعنية العمل على استغلالها وتطبيقها على الفور دون تركها تحت رحمة الظروف والمفاجآت. يعني: ان المبادرة الاميركية ـ مثلاً ـ مجرد «ورقة» رسمية اميركية تعلن موقف اميركا من الصراع العربي الاسرائيلي، والتصور الاميركي للحل المطلوب! ولكن أميركا ليست مستعدة ان ترسل الاسطول السادس الى «حيفا» لكي ترغم اسرائيل على قبول هذه المبادرة!؟ كما ان أميركا ليست مستعدة ان تحشر انفها في سياسة اسرائيل الخاصة او تعاقب ائتلاف ليكود بان تساعد خصومه على اسقاطه بقصد مجيء حزب «العمل» الى الحكم! وعندها في اميركا أصوات قوية ومتنفذة تقول مع كل صباح ومساء وبلا انقطاع ولا راحة: «ان اسرائيل دولة

صغيرة! وان اسرائيل دولة ضعيفة! وان اليهود لايستحقون «الشدة» من «البيت الابيض» او القسوة من وزارة الخارجية، او التهديد من البنتاغون الاميركي! وان النزاع العربي الاسرائيلي ليس مسؤولا عن توتر الاوضاع في المنطقة بقدر ما يقلقها ويهدد أمنها الصراع بين ايران والعراق، أو مطامع السوفيات في الخليج، أو الثورة الايرانية، أو الاقليات الدينية المتطرفة. . الى آخره!»

يعني ان ظهور اية مبادرة سياسية جديدة لايعني ان صاحبها سواء كان في واشنطن ام في زعامة السوق الاوروبية المشتركة سيلجأ الى قوته الجوية او البحرية او البرية بقصد ارغام احد الاطراف المتنازعة على القبول بها. ! هذا حلم. هذا تصور ساذج.

ان الوطنية الصحيحة، هي الوطنية العاقلة الذكية! وقد يكون من شروط الوطنية الذكية ان نضطر احيانا لان نقول «نعم» بينما قلوبنا وعقولنا وعواطفنا تهتف بنا ان نقول: لا!

ويأتي السؤال:

- هل المبادرات وحدها قادرة على ان تعيش بعيدة عن مستلزمات الحياة وفي مقدمتها: الدم؟

أعني: هل يكفي المبادرات ما هي بحاجة اليه من حنكة سياسية او عمل سياسي لكي تبقى وتعيش وتتحول الى حلول وحقائق، ام ان العمل السياسي وحده - في معظم الاحيان - لايكفي، وان «الواقعية» السياسية في بعض الاحيان، وحدها لاتنفع؟!

سأحاول أن أجيب:

ان مبادرة «الكتاب الابيض» البريطاني، وهي في نظري اعظم ما قدمته السياسة البريطانية للعرب حول القضية الفلسطينية قبل قيام اسرائيل، لم تسقط وتمت الا بفضل الدم اليهودي الذي سفكه أدولف هتلر في معسكرات الاعتقال النازية طيلة سنوات الحرب العالمية الثانية!

الدم!

● وعلى مشهد هذا الدم، اعلن ونستون تشرشل عام ١٩٤٢ نهاية سياسة «الكتاب

الابيض» ! وكذلك. . ان المبادرة الدولية لتقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ بين العرب واليهود وانشاء دولة للعرب واخرى لليهود لم تنفذ ولم تصبح حقيقة واقعة الا بفضل دخول القوات العربية الى فلسطين والصراع الدموي المسلح الذي جرى بين العرب واليهود من ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ حتى صيف ١٩٤٨ !

الدم !

ومبادرة «جونستون» للمياه العربية في اواخر الخمسينات ومحاولة تقسيم هذه المياه بين العرب واليهود، لم تتحول كلها لمصلحة اليهود وتضع المياه العربية على اصحابها، الا بفضل القوة المسلحة. . . الاسرائيلية!

الدم !

ولم تنزع سيناء من السلاح، وتصبح صحراء بلا سيادة الا بالقوة !

ولم تخسر المقاومة قواعدها في لبنان، وعلى الحدود القريبة المجاورة «مباشرة» للوطن الفلسطيني المحتل، الا بالدم. .

● وبالنسبة «للجولان»، بقيت اسرائيل تشكو سوريا للامم المتحدة من عام ١٩٤٩ حتى ١٩٦٧ ، وتطالب الامم المتحدة ان تحمي «المستوطنات» الاسرائيلية عند بحيرة «طبريا» من قصف المدافع السورية في هضبة الجولان. واتخذت الامم المتحدة مائة قرار حول هذا الموضوع بقيت كلها «حبرا على ورق» الى ان وقعت حرب عام ١٩٦٧ واحتلت اسرائيل هضبة الجولان! بالقوة !

الدم !

● وألف قرار دولي، وألف مبادرة سياسية حول موضوع القدس، لم تقرر مصير القدس حتى دخلت دبابات موشي ديان الى «القدس الشرقية» واحتلتها من مشارف طريق اريحا حتى مشارف مدينة رام الله!

الدم !

● وفي عام ١٩٦٥ قلت للمسيو هنري سباك وزير خارجية «بلجيكا»، والمهندس الكبير لفكرة «اوروبا الغربية وسوقها المشتركة» ان العالم لم يعد يكترث لقضية فلسطين، ولم يعد يهتم بمأساة اللاجئين العرب، فأجابني :

- ان الاخبار السياسية تبقى عديمة القيمة الا عندما يصبح لونها ممزوجا. .

بالدم!

ثم اضاف:

- عندما يعود العرب الى الثورة داخل، وحول، اسرائيل، يعود العالم للحديث عن.. فلسطين!

الدم!

يعني ماذا؟

يعني اننا أضعنا الف فرصة عندما قلنا لا. وأضعنا عشرة آلاف فرصة مثلها عندما ظننا ان الاكتفاء بقول كلمة «لا» سيحل لنا القضية.. كلها!

إن الدبلوماسية وحدها لاتكفي! وبعض رجال منظمة التحرير الفلسطينية - مثلاً - ينعون على اهل الجنوب اللبناني خطورة هجماتهم الانتحارية على جنود الاحتلال الاسرائيلي بعد ان اعطى بعض هؤلاء الفدائيين اللبنانيين دروساً للعالم في الفدائية الحقيقية! ترى، هل يظن اخوتي من قادة المنظمة الفلسطينية ان اسرائيل ستتنازل لهم عن «القدس» تحت نفوذ الاشعاع الفكري لدبلوماسية ابو فلان، او ابو علان، وان التصريحات الصحفية والصور الاعلامية والتنظير والتخطيط والشرح والتفسير والتكرار والرحلات، كلها - دون حاجة الى دم او استشهاد - قادرة على تحرير نابلس والخليل، وطرد اليهود من ساحة المسجد الاقصى.؟!

انني اكتب عن قضية الاخطاء، والفرص الضائعة واتساءل:

-كيف. وبماذا أاب العرب -أهل القضية- على المبادرة الاوروبية في جنيف عام ١٩٨٠، حول قضية فلسطين؟

لقد اكتفى العرب بان اطلقوا كلمتهم التقليدية المعروفة:

- لا! لا! لا!

لانقبل! لانريد! لانتنازل! لانتراجع! ثم لاشيء! معلهش! «لاشيء» لأن في الرفض راحة واستكانة ونوم عميق. اما الرد العالمي الاسرائيلي، او الصهيوني اليهودي فقد كان كما يلي:

منذ ان صدر بيان المبادرة الاوروبية حول الشرق الاوسط في يوم ١٣ يونيو ١٩٨٠، ويهود العالم، وأنصارهم، في اوروبا وفي أميركا، يتعرضون لمأساة عقلية

ونفسية اشبه بافلام السينما «الخاصة» التي تخصص في اخراجها وانتاجها الطيب الذكر، هتشكوك!

● فالذين سمعوا وقرأوا ما دار من مناقشات حامية في داخل مجلس العموم البريطاني، بين الحكومة من جهة، وبين بعض النواب المحافظين والنواب «العمال» الموالين لاسرائيل من جهة اخرى يؤكدون ذلك. !

● والذين قرأوا ردود حكام اسرائيل وفي مقدمتهم زعيمهم «مناحيم بيغن» على بيان المبادرة يعرفون ذلك. !

● والذين أطلعوا على أفتتاحيات صحف «النيويورك تايمس»، والدايلي تلغراف، والهيرالد تريبيون خلال أيام ١٤ و ١٥و ١٦ و ١٧ يونيو من عام ١٩٨٠ يؤكدون ذلك. .

● والذين اطلعوا على نص جواب مناحيم بيغن لرئيسة وزراء بريطانيا ردا على كتابها اليه حول «المبادرة» وما تضمنه الجواب المذكور من تشنج وشتائم «للمنظمة» وتهجم على الفلسطينيين، ومغالطات ساذجة مضحكة واستشهادات متكررة بقرارات «فتح» في مؤتمرها الاخير بدمشق، يؤكدون ذلك!

● والذين عرفوا تفاصيل الفضيحة الدبلوماسية التي جرت بين المستر «جون روبنسون» - السفير البريطاني في اسرائيل - في حفلة اقامتها جمعية الكومنولث البريطانية - الاسرائيلية يؤكدون ذلك! فقد وقف السفير البريطاني في تل ابيب والقى خطابا في الجمعية المذكورة انتقد فيه رد اسرائيل على المبادرة الاوروبية كما انتقد كلاما سابقا كان «مناحيم بيغن» قد تفوه به وقال فيه «ان ليس هناك دولة أوروبية واحدة - باستثناء الدانمرك - لم يسبق لها التعاون مع النازية الهتلرية في التآمر على اليهود واضطهادهم وقتلهم!» وقال السفير البريطاني في خطابه أنه يكاد لا يصدق اذنيه ان يسمع مثل هذا الكلام من رئيس وزراء اسرائيل. . ولكنه عندما تأكد من ان المستر «بيغن» قد نطق بمثل هذا الكلام، فعلا، فانه قرر ان يرد عليه بأن يرفضه جملة وتفصيلا لأن في مثل هذا الكلام طعنا بالشعب البريطاني ولان هذا الكلام لا يتفق مع آراء ومشاعر أغلبية يهود اسرائيل وخاصة «الثلاثين الف» بريطاني يهودي الذين اصبحوا يحملون الجنسية الاسرائيلية. !» وهنا، وقف اثنان

من ابرز اعضاء الجمعية من الاسرائيليين، وهما الدكتور «حايم تايخمان» المستشار السياسي لرئيس الوكالة اليهودية، والمستر «آري دولتزين» المدير العام لاحد البنوك الاسرائيلية، وانسحبا من الجلسة احتجاجا!

● والذين سمعوا كلام المستر «كالاهان» زعيم «العمال» ورئيس الحكومة البريطانية السابق ـ وأعز اصدقاء الرئيس المصري انور السادات ـ وهو يربط بين المبادرة الاوروبية «وخضوع اوروبا للبترول»، يؤكدون ذلك! وكذلك الذين سمعوا لكلام اليميني المتعصب عضو العموم البريطاني المستر «انوخ باول» ضد اوروبا وضد المبادرة! وكذلك صيحات أعضاء نواب بريطانيين مناصرين للصهيونية من امثال المستر «دانيس سكينر» النائب العمالي الذي قاطع زميله النائب العمالي الاخر «اندرو فولدز» عندما بدأ يقول «انه قابل ياسر عرفات . . . » فاذ بصوت يصرخ فيه : «مت! يا ليتك تموت . !» فما كان من المستر «فولدز» سوى ان رد عليه قائلا : «ان مثل هذا الكلام ليس عجيبا عن أمثال هؤلاء النواب المناصرين للصهيونية . !» يضاف الى ذلك صيحات نواب بريطانيين صهاينة من امثال «موريس ميللر» و«جوليان آمري» واللورد «بايرز» و«اللورد جانير» واللورد «شنويل» ومعظمهم اما يهود بريطانيون او مناصرون لاسرائيل . . اقول، ان الذين سمعوا كل هذه الاقوال ـ كما سمعتها بنفسي ورأيتها وقرأتها في الصحف والاذاعة والتلفزيون البريطاني ـ يؤكدون ذلك . !

● والذين سمعوا «مناحيم بيغن» يستعد في صيف ١٩٨٠ للقيام بحملة دعائية عالمية واسعة ضد المبادرة لكي «يكشف بها القناع عن "نفاق" زعماء أوروبا وخداعهم والاعيبهم . !» يؤكدون ذلك . ! ان اسرائيل لم تعد ترى من كلام «المبادرة» ومعانيها وبنودها سوى أنها ـ أي المبادرة ـ شبيهة بوثيقة «ميونيخ» التي استسلم فيها الانجليز لالمانيا النازية قبيل الحرب العالمية الاخيرة! . . وأن «المنظمة الفلسطينية» لا تختلف عن منظمة ال «اس. اس» . . . ؟؟ النازية . ! وأن ميثاق منظمة «فتح» لايختلف عن كتاب «كفاحي» لهتلر . . وأن اسرائيل لا تنتظر أية حماية من اوروبا لانها لا تحتاج اليها . ! الى آخره . . الى آخره!»

● وكذلك، فان الذين كانوا في باريس ولمسوا ما اصاب يهود فرنسا من اضطراب وقلق عظيمين ادى الى ان يصدر «الفرع الاوروبي للمؤتمر اليهودي العالمي» باسمه،

وباسم مؤتمر يهود فرنسا «كريف» بيانا مطولا يتضمن ادانة جميع اليهود في جميع الدول الاوروبية التسع لبيان المبادرة واعتباره مجرد بيان «مغرض» لصالح العرب . .

يؤكدون ذلك!

● ما معنى كل ذلك . ؟

● ان اسرائيل، سلفا وقبل ان تتبلور المبادرة الاوروبية نتيجة تحقيقات ودراسات لجنتها الاستطلاعية ـ قد رفضت اية مبادرة أوروبية تتضمن النقاط «الاحدى عشرة» التي تضمنها بيان ١٣ يونيو. . !

● وان اليهودية العالمية، بالتعاون مع اميركا، ستعمل على مقاومة هذه المبادرة الى حين القضاء عليها.

وأن «اسرائيل القوية المغمورة بأحدث اسلحة العالم، وبالقنابل الذرية، والتي تتباهى بانها أقوى من جميع الدول العربية «مجتمعة»، مازالت تصر بأنها تخاف على سلامتها من. . . منظمة التحرير الفلسطينية!

ورغم أن ميثاق الامم المتحدة لايعترف بأية مكاسب أقليمية قد تحصل عليها أية دولة نتيجة غزو عسكري. الاّ أن اسرائيل ترى ان من حقها ان تجني مكاسب عدوانها المعروف في عام ١٩٦٧ بحجة انها «دخلت حربا دفاعية اعلنها عليها جمال عبد الناصر!»

وان بين النغمة السياسية ـ أمن وسلامة ـ وبين النغمة الدينية المتعصبة ـ أرض الاباء والاجداد ـ تصر اسرائيل على التمسك والاحتفاظ بالضفة الغربية والقطاع. هذه حمى . !

وأن الاحتلال في قاموس اسرائيل «تعايش». و«الضم» في قاموسها «سلام». والمستوطنات نقاط حراسة. واراضي العرب اراضي الدولة.

ولان العرب ليسوا «ديمقراطيين»، ولان في بعض الدول العربية فسادا ورشوة وصفقات، فان من حق اسرائيل ان تبقى في الضفة الغربية! هذه سخرية!

وأن لا حق لاوروبا أن تتدخل في شؤون الشرق الاوسط بحجة ان هذه الدول ليست متفقة فيما بينها على سياسة «السمك والخضار واللحوم والاجبان»! وكذلك لان هذه الدول تحتاج الى البترول العربي! ولان هذه الدول لاتفهم أسرار السياسة

في الشرق الاوسط!»

وأن لاحق لأي عربي أو أوروبي او عالمي ان يبحث مع اسرائيل او مع غير اسرائيل في قضية فلسطين الا اذا سبق ذلك اعلان الاعتراف الواضح بدولة اسرائيل! «ومن حق» اسرائيل ان تنكر وجود شيء إسمه حقوق شعب فلسطين، ولكن من واجب هؤلاء جميعا ـ وفي مقدمتهم أهل فلسطين ـ اعلان الاعتراف بوجود اسرائيل وحقها في الحياة والاستقرار!

وأن اسرائيل لن تنسحب من القدس العربية ولن توافق على اقامة سيادة عربية فوق اي شبر من القدس بحجة «ان ليس هناك يهودي واحد في العالم يوافق على ذلك» «وان ليس هناك حكومة اسرائيلية واحدة تقدر على ذلك.» «وأن يهود أميركا لن يقبلوا بذلك!» وأن «التوراة» لاتسمح بذلك وان لا معنى للدين اليهودي وللدولة اليهودية وللتعاليم اليهودية وللتراث اليهودي، بدون السيطرة اليهودية الكاملة على القدس!»

هكذا اجابت اسرائيل ـ في الداخل وفي الخارج ـ على المبادرة الأوروبية حول الشرق الأوسط. لم تقل: «لا»، وتسكت، كما فعل العرب. وانما قالت «لا» ثم مضت تقيم الدنيا وتقعدها، وتحرّك البرلمانات، وتثير الصحف، وتوزع البيانات، وتتهم الحكومات، وتستنسجد بالأنصار في كل مكان، حتى تقضي على المبادرة؟

ترى، اين هي المبادرة الأوروبية حول الشرق الأوسط، في هذه الأيام؟

ماذا دهاها؟ ماذا اصابها؟ وهل جاء موتها بالسكتة القلبية ام بحادث سيارة؟!!

وفي مؤتمر قمة بغداد، العتيد، قرر العرب رفض سياسة كامب دايفيد، ومعارضة دور انور السادات في السلام مع اسرائيل، والتنديد باتفاقية مصر مع اسرائيل. وكل ذلك معروف. ولكن المعروف ايضاً ان مؤتمر قمة بغداد المذكور قد قرر ـ بجانب معارضة مصر ومقاومة سلامها مع اسرائيل ـ انشاء جبهة «شرقية» وجبهة «شمالية» وتخصيص اعتمادات مالية تصل الى «٢٥ مليار» دولار تسدد على مدى عشر سنوات بواقع «٢,٥» مليار سنوياً.

وكان هذا هو الجواب العربي العام، على الصلح المنفرد الذي عقده السادات مع اسرائيل و«التعويض» العسكري او ملء الفراغ الناتج ـ عسكرياً ـ عن خروج

مصر من الصف العربي.

ورغم ذلك، ماذا اقول؟

ان جميع الدول العربية «الشقيقة» التي أعلنت هذا القرار التاريخي في قمة بغداد قد رفضت او عجزت او عادت عن التنفيذ ورفضت ان تدفع التزاماتها المالية وبقيت فكرة إقامة الجبهة الشرقية او الجبهة الشمالية، مجرد حبر على ورق!

بل ان هذه الدول «الشقيقة» التي آلمها ان يهادن أو يسالم «السادات» العدو الاسرائيلي ـ ويشهد الله انها كانت جريمة ـ قد راحت تحارب بعضها بعضاً، وتقتل بعضها بعضاً، واذ بالعداء يتضخم ويظهر بين بغداد ودمشق، وبين دمشق وعمان، وبين دمشق ومنظمة التحرير.. على النحو المؤسف المفضوح الذي يعرفه الناس.!

لقد سبق لنا وقلنا في انور السادات إثر كامب دايفيد، ما قاله مالك في الخمر، واقول بفخر انني هاجمته في اكثر من الف مقال صحفي وخصصت له كتاباً بعنوان: «صلاة بلا مؤذن».. واستمطرت عليه لعنات الدنيا والآخره..!

ولكن..؟

ماذا تراني اقول اليوم للقادة العرب الذين عجزوا بعد طرد السادات عن العمل على سد الفراغ، وانشاء جبهة عسكرية واحدة قادرة على ان ترهب العدو، او تشعره بخطورة الموقف او ترغمه على ان يصحح موقفه الأستبدادي العنيف ضد الحقوق الفلسطينية في معاهدة كامب دايفيد.؟

في مارس ١٩٦٦ تبين فشل العرب وعجزهم عن انشاء القيادة الموحدة، وهيأة روافد الأردن، ومناصرة منظمة التحرير الفلسطينية بالأموال المرصودة لها.! وفي اجتماع الجامعة العربية ـ يومذاك ـ تبين ان هناك دولاً عربية «مدينة» لهذه المشاريع ـ التي بقيت شبه مشاريع ـ بما يزيد عن ثلاثين مليون جنيه استرليني!

وبعد ١٣ سنة، وفي قمة بغداد، تكررت المأساة، ورصدت الأموال واتخذت القرارات، ثم بدأ التراجع المعيب، والتخاذل المفضوح، وبدلاً من الأتفاق على الخطة العسكرية العربية الموحدة لمحاربة العدو، ولدت الخطط العسكرية العربية المتنافرة لمحاربة العرب، بعضهم بعضاً!

هل بعد هذا نعجب لماذا وصلنا الى هنا؟

ما اكثر الفرص الضائعة في قضية الفرص الضائعة!

هل يعرف العرب لماذا وافق العرب على الهدنة الثانية في حرب عام ١٩٤٨؟

هل ادرك العرب حقيقة موقف القيادات العسكرية العربية ـ وخاصة موقف عبد الحكيم عامر ـ من حرب الايام الستة؟

هل يعرف العرب شيئاً عما دار في اسرائيل منذ نوفمبر ١٩٧٣ حتى مارس ١٩٧٤ على اثر حرب رمضان؟

وهل استغل العرب الخلاف القاتل بين موشي ديان ومناحيم بيغن؟

وهل استغل العرب خلاف عزرا وايزمن مع زعيمه بيغن؟ وهل يعرف العرب شيئاً عن حقيقة الصراع الحزبي داخل حزب «حيروت» في اسرائيل . ؟

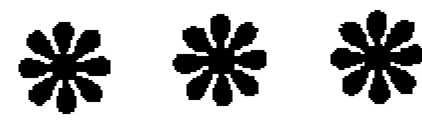
وماذا ادى العرب لحركة «السلام اليوم» الاسرائيلية داخل اسرائيل . ؟

وهل استغل العرب ـ اي عربي ـ تلك الموجة الاجرامية التعصبية التي اوصلت «كاهانا» الى الكنيست الاسرائيلي؟

قد تكون فلسطين هي قضية الفرص الضائعة ، بحق .

ولكنها ايضاً قضية العقول المجمدة، والانانية، والجهل، وعدم المبالاة ، والأخذ بالقشور والمظاهر على حساب الحقيقة الكبرى . .

ولم تضع الاولى ـ اي الفرص ـ الا بسبب وجود الثانية، اي العقول الجامدة المجمدة . !



الفصل العشرون
هل نسينا ان لنا في القدس المسجد الاقصى؟

● من فقد ايمانه، فقد نفسه وفقد بيته!

● الدور التركي.. «يوك».. ودور الباكستان نفاق، ودور ايران تزوير واستغلال.. وللقدس ربّ اسمه: «الكريم»!

● ماذا قال لي «ضياء الحق» عن.. القدس والأقصى؟

● ترى، هل يستحق عرب اليوم شرف امتلاك القدس؟

● هل نسينا ان لنا في القدس: المسجد الأقصى!

الفصل العشرون
هل نسينا ان لنا في القدس المسجد الاقصى؟

سمعتهم خلال السنوات العشر الماضية يطلقون صيحات «الجهاد» في اكثر من بلد عربي!؟

سمعتهم يدعون الى الجهاد المقدس من أجل القدس. !

وصيحة الجهاد المقدس ـ بكل اصالتها، بكل ضرورتها، بكل معانيها وابعادها، انما اطلقت من اجل القدس. !

وليس همي هنا اعادة تذكير المسلمين او العرب باهمية وعظمة هذه المدينة الحبيبة الغالية. .

انني اذكر ما سبق وقلته بنفسي لجلالة ملك الاردن الحسين بن طلال عندما التقينا في مكتبه بعمان، بعد سقوط القدس في صيف عام ١٩٦٧ : «لا عرب بلا قدس. . .»

فاجابني جلالته: ولا اسلام بدون القدس. !

ثم استطرد:

ـ ولا حياة بدونها. . !

كما أني لا اعرف في تاريخنا الحديث او القديم، ملكاً مسلماً استشهد واسم القدس فوق شفتيه سوى فيصل بن عبد العزيز. . !

والقدس التي نحب ونفتدي، هي نفس القدس التي قامت من اجلها الحروب

الصليبية ومات «لويس التاسع» وهو يصرخ: القدس.. القدس!»

● والقدس التي نقدس ونحمي ونشتهي ونتمنى هي القدس التي اغتصبها عدونا واعلن انه لن يعيدها ولن يتنازل عنها..

فالمعركة بالأمس، ومنذ ألف عام، كانت من اجل القدس وضد الصليبيين من ملوك اوروبا وقادتها وجيوشها..

والمعركة اليوم، والى ما شاء الله، اصبحت من اجل القدس وضد الصهاينة من شذاذ الأفاق وطريدي بولونيا وروسيا والمانيا الهتلرية..

وهذه المعركة طويلة وشاقة وباقية ما بقيت القدس نفسها!

ومركز القدس «الجيواستراتيجي» هو الذي يسلب الضفة الغربية من أية مقومات الأمن والطمأنينة والاستقرار ما لم تكن القدس في ايدي الذين يحكمون هذه الضفة..!!

ومركز القدس الديني هو الذي يسلب المسلمين من كل معاني العزة والكرامة والشرف ما لم تعود لهم سيطرتهم على البقاع التي تضم مقدساتهم وتجمع تاريخهم وتطوي صفحات عمرهم منذ ١٥ قرنا حتى اليوم!

ومركز القدس السياسي والجغرافي والاقتصادي والتاريخي هو الذي يسلب من يفقدها كل عناصر الخير والمال والهوية والتقدم والمجد والاصالة..!

● هذه هي هوية القدس وذلك هو معناها..

وعدونا يعرف ذلك بالتمام والكمال. لهذا فهو حريص كل الحرص ان يضمن تأييد اقوى دولة في «العالم الحر» للعمل الذي قام به واغتصب من خلاله مدينة القدس. عدونا يريد اعتراف العالم له بشرعية احتلاله للقدس. وعدونا يعتقد بأن اعتراف اميركا له بهذه الشرعية كفيل بجر اعتراف بقية العالم على المدى الطويل البعيد..

لذا، وهذا هو بيت القصيد، جرت الاتصالات الحثيثة بين العدو من جهة وبين كل من المرشحين الرئيسيين لمنصب الرئاسة الاميركية في عام ١٩٨٠، وفي عام ١٩٨٤، من جهة اخرى بغية الحصول-مقدما- على التعهد الخطي من كل منهما في الاعتراف لاسرائيل «بامتلاك» القدس وعن طريق اعتمادها عاصمة لليهود تفرض

على اميركا -مثلا- ان تنقل اليها مقر سفارتها فور الانتهاء من فرز الاصوات في الشهور القادمة . !

هل تريدون دليلا على صحة هذا القول . ؟

●ألم تسمعوا باسم السناتور الاميركي الذي «تبرع» في جلسات مؤتمر الحزب الديمقراطي بنيويورك، وفي اليوم الأول لانعقاد هذا المؤتمر، وتقدم باقتراح تتعهد فيه أميركا بأن تنقل سفارتها من تل ابيب الى القدس بمجرد الانتهاء من معركة الانتخابات! هل عرفتم اسم هذا السناتور؟ انه «دانيال باتريك موينهاين» نائب نيويورك، وأرخص داعية صهيوني في الكونجرس، وأحمق متعصب لحساب اسرائيل في العالم كله . . !

لقد دفعت اسرائيل عميلها المذكور كي يتقدم باقتراحه هذا الى المؤتمر مغلفا بنصيحة الى الرئيس بأنه لن يقدر أن يكسب الانتخابات ما لم يكسب اصوات ولاية نيويورك التي يشكل فيها اليهود اكثر من ٣٥ في المائة من مجموع نسبة الاصوات!

ولست ازعم بان الرئيس قد استجاب لهذا الطلب العجيب المحموم من هذا السناتور الاجير وتعهد بان يعمل على نقل سفارة أميركا في تل ابيب الى القدس اذا نجح في الانتخابات! لا! إن كلام الرئيس الذي القي في المؤتمر حول القدس كان حذراً ومدهونا بالغموض المقصود حيث قال حرفياً:

« . . كانت سياستنا دائماً ان تبقى القدس للأبد مدينة موحدة غير مجزأة مع حرية المرور للأماكن المقدسة لكل الشعوب مع مختلف الاديان. وكانت دائماً، وستبقى دائماً من اهداف سياستنا ان الوضع النهائي للقدس يجب ان يكون موضع مفاوضة بين الاطراف . »

هذا ما قاله الرئيس!

ولكن المؤتمر الديمقراطي للحزب المذكور أعلن في برنامجه في اغسطس عام ١٩٨٠ للمعركة الانتخابية موقفه تجاه القدس، بقوله:

« . . . كما سبق وقررنا في عام ١٩٧٦ فان الحزب الديمقراطي يعترف ويؤيد الوضع الحالي للقدس كعاصمة لاسرائيل مع حرية المرور لسائر اماكنها المقدسة . . الى آخره، وعلى هذا الاساس، واعراباً عن هذا الموقف فان على سفارة اميركا في تل

ابيب الانتقال الى . . القدس»!

انتهى كلام برنامج الحزب الديمقراطي . .

●ويأتي السؤال الأخير:

ـ هل كان يمكن السكوت عن مثل هذه الأمور؟ واذا علمنا ان اسرائيل جادة كل الجد من أجل الحصول على تعهد خطي مكتوب من كل مرشح أميركي لمنصب الرئاسة بخصوص القدس، فهل يسمح لنا هذا بالتزام المزيد من السكوت.؟

قد يكون صحيحاً ان كارتر في انتخابات ١٩٨٠ قد تحفظ حول الموضوع وانه لم يجار المؤتمر في تطرفه الصهيوني. ولكن من كان يضمن قدرة كارتر على الصمود حتى نهاية شوط الانتخابات؟ ومن يضمن ريغان؟

في المستقبل سيقف جميع المرشحين لمنصب الرئاسة الاميركية خطباء في الحفلات الصهيونية الاسرائيلية الاميركية التي دعت اليها جمعيات «بناي بريث» الدولية اليهودية في نيويورك . .

وسيتحدث كل مرشح منهم عن موقفه وعن سياسته تجاه اليهود، واسرائيل، و. . القدس!

ونحن نعرف موقف الرئيس : رونالد ريغان !

ونحن نعرف كذلك موقف خصومه ومنافسيه ! وبقي ان نتساءل سلفاً عن. .

● هنا ، وفي هذا الموقف، وحول هذا الموضوع، ومع هذا الشخص، وفي هذا الوقت ومع كل مرشح للرئاسة تصلح صيحة «الجهاد المقدس» لكي تطلق على الدنيا، قوية مجلجلة عارمة. . صريحة!

ولكن. .

هل كانت القدس مسؤولية عربية فقط؟

ام انها -بحكم الأقصى الذي بارك الله حوله- مسؤولية اسلامية؟!

قال لي ملك «ماليزيا» عندما سألته هذا السؤال:

ـ إن انقاذ القدس وما فيها من مقدسات هي مسؤولية عربية في الدرجة الأولى، فاذا فشل العرب، عندئذ لا مناص من ان يتدخل المسلمون»!

وكدت أصيح يومذاك في وجه ملك «ماليزيا» بأن العرب قد فشلوا في انقاذ مقدساتهم، فليتفضل المسلمون ويؤدوا واجبهم . ؟

ولكني لم أفعل! إذ قبل ان اطالب ملك «ماليزيا» بانقاذ القدس؟ وهو البعيد عنها في اقاصي اسيا، يجب ان اسأل نفسي عن بقية المسلمين هنا، وماذا فعلوا من اجل القدس؟

تركيا مثلاً . ؟

ان الدولة التي كانت ذات يوم بعيد، بمثابة العدو للعرب، قد راحت في الاونة الاخيرة تبدي من الرغبات وتتخذ من المواقف ما يؤهلها لكي تنتقل من موقف العدو الى موقف الصديق . !

واذا كان العرب يشعرون بحاجة الى الصداقة التركية لكي تؤازرهم في هذه الايام «الصعبة» فأن تركيا ـ بدورها ـ تشعر بحاجة اكثر الحاحا الى المال العربي. والنفوذ العربي . . والصداقة العربية لكي تؤازرها في ايامها الاكثر صعوبة . !

واذا كانت الاخطاء العربية في ممارسة السياسة ـ وما اكثرها ـ قد سمحت لدولة غير عربية ـ كايران ان تقتحم ميدان اللعبة العربية وان تشارك في القضايا العربية وان تصبح عضوا اساسيا في ميدان الصراعات العربية ـ داخليا وخارجيا ـ بصورة استراتيجية مخيفة ، فأن من حق دولة اسلامية مجاورة كتركيا ان تدق باب السياسة العربية في الشرق الاوسط ، وان تقول للذين يتصارعون داخل الساحة الكبيرة الممتدة من الخليج الى المتوسط ، ومن اعالي النيل الى عالي الفرات :

ـ «نحن هنا!»

ثم ندخل، بعد هذه المقدمة، الى صميم الموضوع . .

فمنذ مؤتمر القمة الخليجية في أوائل عام ١٩٨٣ ، تساءل اكثر من زعيم من زعماء دول «التعاون الخليجي» عن الدور الذي يمكن ان تؤديه دولة اسلامية كبرى، كتركيا، حيال الصراع العربي، الايراني . ؟

ذلك ان ايران قد ركبت رأسها ولم تعد تسمع او تسمح لاية وساطة بينها وبين العراق قادرة ان تضع حدا للحرب القائمة . ! لقد رفضت ايران كل الوساطات الدولية، والعربية، والاسلامية، وعدم الانحيازية، والاوروبية ، واليوغوسلافية،

والهندية! لقد ركبت ايران رأسها في التصميم على مواصلة الحرب وتعريض المنطقة الى المزيد من الاخطار والمفاجآت! وامام العجز العربي، اتخذ العالم من هذه الحرب حياداً عجيبا يكاد يشبه العجز في مظاهره واصوله! وامام التضارب المؤسف في الموقف العربي تجاه هذه الحرب، تظاهرت الدول الكبرى بالحياد وعدم التدخل حيال هذه الحرب تاركة أكبر دولتين اسلاميتين في المنطقة الى استنزاف اموالهما، وامكانياتهما، وسلاحهما، وبترولهما بلا فائدة، ولا طائل، ولا نهاية، ولا هدف!

وكان المفروض في الدول العربية التي تقرأ صفحات السياسة جيدا، ان تكون اكثر صلابة واكثر حزما واكثر مشاركة في هذه الحرب. كما كان المأمول في الدول العربية التي تعرضت مياهها وشواطئها وخيراتها الحيوانية والسكانية والزراعية في الخليج الى الاخطار الناجمة عن استمرار هذه الحرب، ان تتحرك بسرعة وتهز ارجاء مجلس الامن وتدق مكاتب المسؤولين في موسكو وواشنطن ونيويورك وباريس ولندن، وتطالب باتخاذ موقف في حرب ايران لا يقل خطورة عن موقف مجلس الامن ودول العالم من استمرار حرب كوريا في عام ١٩٥٠! كان المفروض ان تسمع اميركا واوروبا، الكلام الصريح حول النتائج الخطيرة المترتبة على استمرار هذه الحرب، وعلى المستويات البترولية والمعيشية والمالية بالاضافة الى المستويات العسكرية والسياسية، وان تبادر كل من هاتين الدولتين الاعظم الى التدخل السريع بكافة الوسائل الدبلوماسية والعسكرية بهدف وضع حد لاستمرار المعارك. !

● وما دام ان شيئا من هذا لم يحدث، فقد اطلت على ميدان الصراع، دولة اسمها «تركيا» لكي تدلي بدلوها وتؤدي دورها، لعل وعسى.. !

وفي هذا التطور معان كثيرة صادقة، وناطقة:

اولها: ان العرب فشلوا حتى اليوم في معالجة قضية «الحرب» كما سبق لهم وفشلوا في معالجة قضية فلسطين!

ثانيا: ان الفشل العربي في فرض النهاية للحرب القائمة حاليا، قد فتح الباب، امامهم وامام غيرهم، على السماح للدبلوماسية التركية ان تطل برأسها بعد ان

سمحوا لغيرها من الدبلوماسيات ان تتدخل!

ثالثا: ان نجاح تركيا بأي دور سياسي او دبلوماسي حيال حرب الخليج في المستقبل، معناه بالتالي، فشل دول غير تركيا في كل ما قامت به من مساع في هذا السبيل. !

رابعا: ان تركيا اقرب الى اميركا من بعض الدول العربية المحسوبة على الصداقة الاميركية في المنطقة وانها بالتالي قادرة على ان تفوز في اميركا بما عجز ويعجز غيرها على الفوز به. !

ورغم كل ذلك، فأن المريض الذي يبحث عن الشفاء لا يهمه ان يدقق في نوعية او جنسية «الطبيب» الذي سيتولى مهمة علاجه! نحن ـ اي العرب ـ نريد نهاية مشرفة لصراعنا ضد ايران، ولم يعد يهمنا، سواء جاءت هذه النهاية على يد الجزائر، ام على يد يوغوسلافيا، ام على يد. . تركيا!

والمعروف ان تركيا، رغم كونها دولة مسلمة، فأنها ليست عضوا في لجنة «الوساطة» المنبثقة عن المؤتمر الاسلامي. . اياه!

● وكذلك، فان لتركيا علاقات تجارية واقتصادية وسكانية، مع ايران ومع العراق على حد سواء. .

وكذلك، وهو الاهم، فأن من مصلحة العرب بعد ان استفحل النشاط الصهيوني وبعد ان بلغ المد الاسرائيلي اقصى مداه، ان تقف الى جانب الدول العربية، دولة اسلامية مثل تركيا، قادرة عند الضرورة ان تقول لاميركا، وللعالم، ولاسرائيل، ان مصير المنطقة ومستقبلها وسياستها لا تقرره دولة واحدة قوية اسمها اسرائيل، وانما تقرره مجموعة دول عربية واسلامية من اهل المنطقة نفسها، وان كلاما ككلام «شارون» عن ضرورة المرور «بتل ابيب» للوصول الى اية نقطة في منطقة الشرق الاوسط، انما هو كلام رجل اهوج، او مغرور، حتى ولو كان صاحب هذا الكلام جنرال مثل «شارون» يفخر بانتصاراته العسكرية في لبنان، وان كلامه منشورا في صحيفة فرنسية محترمة كصحيفة «الموند» العالمية المشهورة. !

● ان هذا الزمن «غير الحسن» قد سمح لحكام اسرائيل بالكثير من التبجح القائم على الاستهانة بكل دول المنطقة ـ دون استثناء ـ مع الظن بأن لا اميركا ولا بريطانيا

قادرتان على التأثير في سياسة الشرق الاوسط بمثل ما تقدر عليه اسرائيل! من هنا، اصبحت الضروريات تفرض علينا السماح لدولة «غير عربية» مثل تركيا، ان تنضم الى الركب، وتتبوأ كرسي الوساطة، وترفع علم الصداقة، حتى ولو كان لها مع العرب تاريخا استعماريا غير شريف، وكان لها مع سوريا في «الاسكندرون» سياسة غير عادلة، وكان لها في البيان الثلاثي الشهير عام ١٩٥٠ اصبعا يؤيد ويضمن حدود دولة اسرائيل بالتعاون مع اميركا وفرنسا ضد اي تهديد عربي. !

● وما زلت كعربي، اذكر جيدا مقابلتي لزعيم تركيا الراحل «عصمت اينونو» في صيف عام ١٩٥٨ عندما قامت الوحدة بين القاهرة ودمشق، ورأيت «عصمت اينونو» في مدينة استنبول فسألني:

ـ هل سيطالبنا الرئيس عبد الناصر باعادة لواء «اسكندورن» للعرب بعد ان اصبح هو زعيما للجمهورية العربية المتحدة؟»

وعندما ابديت للزعيم التركي الكبير دهشتي من سؤاله، اجابني:

ـ ان صور العداء العربي لنا منذ الحرب العالمية الاولى مازالت حية في نفوسنا ويصعب علينا نسيانها! ان موقفنا من قيام الوحدة بين القاهرة ودمشق يتوقف على موقف عبد الناصر من تركيا، فأذا اراد عبد الناصر ان يبني المزيد من زعامته بين العرب على حساب المزيد من مناصبتنا العداء، فأننا عندئذ ـ لن نقف مكتوفي الايدي امام الخطر الجديد الذي يقف على حدودنا، وسنحارب هذه الوحدة بكل امكانياتنا وسنضرب عبد الناصر في كل مكان «يوجعه» حتى نقضي عليه!»

● واني اعترف بمدى الذهول الذي اصابني وانا استمع الى زعيم تركي عالمي كعصمت «باشا» اينون. وهو ينطق بمثل هذه التهديدات الرخيصة التي لاتتفق مع السمو، ولا السمعة، ولا الاحترام، ولا حسن الجوار. !

ترى، هل استطاعت احداث السنوات الثلاثين الاخيرة ان تبدل مثل هذه الاحوال، او تخفف مثل هذا العداء، فتبدو تركيا لنا، وللعرب، ولاهل فلسطين بصورة الصديق الشقيق المسلم الذي يقف مع صديقه الشقيق المسلم في وجه الاعاصير والزلازل؟؟

من كل قلبي ارجو ذلك. . ومن كل قلبي أريد أن أنسى!

ومن كل قلبي اريد ان انسى بأن تركيا ـ وعهدها الحالي بالذات ـ كان دائم الشكوى من منظمة التحرير الفلسطينية بسبب وجود «بعض اليساريين» الاتراك في صفوف قوات الثورة الفلسطينية ايام وجودها في لبنان . .

ومن كل قلبي اريد ان انسى ان تركيا تأخذ على اليونان شدة تطرفها في تأييد الفلسطينيين ورعايتهم في وجه اليمين اليوناني وفي وجه التيار الاميركي المعروف داخل اليونان، وخارجها!

ومن كل قلبي اريد ان انسىٰ كل ما على الشواطىء التركية من قواعد حربية اميركية كانت، وما زالت السند الاكبر للقوات الاميركية التي عاشت وهي تسند اسرائيل في حرب ١٩٥٦، وحرب ١٩٦٧، وحرب ١٩٧٣ . . !

● ومن كل قلبي اريد ان انسى بأن لتركيا اهدافا جديدة معينة من وراء تقربها للعرب وعلى رأس هذه الاهداف، الرغبة التركية في شراء عدد من الطائرات الاميركية التي في حوزة مصر، والتي ترغب مصر في بيعها بسبب عدم الحاجة اليها، وان ثمن هذه الصفقة الجبارة من الطائرات لن تدفعه تركيا، وانما ستترك «الفاتورة» لدولة عربية اسلامية شرق اوسطية تقوم بتسديدها في الوقت المناسب!

نريد ان ننسى كل ذلك . !

ونريد ان نفتح صفحة جديدة، ومشرفة مع الشقيقة المسلمة الكبرى، «تركيا» لاننا بحاجة الى هذه الخطوط الحاسمة بعد ان اوشك القرار العربي ان يضيع، واوشكت الارادة العربية ان تهدر، واوشك الوجود العربي ان ينهار.

ترىٰ، هل يجوز لنا ان نضيف المزيد، فنكون كمن يلعب النار التي قد تحرق اصابعه؟

في حي الشيخ جراح، بمدينة القدس المحتلة، يوجد مبنى قنصلية تركيا المعتمدة لدى. . اسرائيل! . . كانت هذه القنصلية معتمدة منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٧ لدى المملكة الاردنية الهاشمية، وعندما احتلت اسرائيل مدينة القدس، بقيت القنصلية في مكانها بعد ان اضافت الى «اليافطة» التي تحمل اسمها على باب المبنى حروفا باللغة العبرية!

وطيلة مدة الاحتلال الماضية، اصرت تركيا على ان تحتفظ بقنصليتها في مكانها

التقليدي وان تتحدى مشاعر اهل القدس وغضبهم واشمئزازهم!

وكنا نسأل المسؤولين الاتراك «في عمان»، وفي «غير عمان» لماذا لا تقرر تركيا اغلاق قنصليتها في القدس احتجاجا على عدوان اليهود او ردا على تدنيس المسجد الاقصى او تجاوبا مع آلام اخوانهم المسلمين في مشارق الارض ومغاربها، فيرد علينا المسؤولون الاتراك بعبارة واحدة لم تتغير ولم تتبدل:

ـ ان تركيا عضو في حلف الاطلسي. والحلف الاطلسي يخضع للسياسة الاميركية واميركا تخضع لاسرائيل!»

وكنا نرد عليهم قائلين:

ـ وان بعض دول اوروبا الغربية التي هي عضو في حلف الاطلسي تتصرف احيانا بصورة تنم عن حرص هذه الدول على استقلاليتها وعلى مصالحها بالرغم من عضويتها في الحلف المذكور! ان فرنسا فعلت ذلك. وايطاليا فعلت ذلك! وبريطانيا على ايام حكومة العمال فعلت ذلك! وبلجيكا وهولندا اعلنتا رفضهما استقبال بعض انواع الصواريخ الاميركية حرصا على مشاعر الشارع البلجيكي والهولندي! وكان الهر «شميت» مستشار المانيا السابق يصر على ان «يغازل» موسكو ويتقرب اليها حتى ولو كان في ذلك اغضاب لواشنطن! فلماذا لاتفعل تركيا ما تفعله تلك الدول؟ لماذا تتساهل في موضوع طابعها الديني الرسمي المعروف من اجل خاطر اميركا وخاطر اسرائيل؟ لماذا تجعل من ارتباطاتها العسكرية والسياسية بالولايات المتحدة الاميركية اساسا وحيدا وواحدا لكل ارتباطاتها الدينية والدنيوية؟ ان احدا من العرب لا يطلب من تركيا المسلمة ان تتخلى عن تحالفها التقليدي مع الولايات المتحدة وتستبدل واشنطن بموسكو او تحالف بكين بدلا من لندن. ولكننا نطالب تركيا ـ وهذا حقنا ـ ان تتخلى عن ممارسة السياسة باساليب الحواة ولاعبي السيرك، وان تتحمل مسؤولياتها تجاه المسلمين ـ على الاقل ـ وتجاه جاراتها من الدول العربية، وتجاه المنطقة باسرها بامانة وشجاعة وان تعرف ان حلف الاطلنطي، بكل جبروته، سيبقى عديم الفائدة، وعرضة للثغرات والضربات اذا لم يتحقق السلام العادل في مختلف انحاء الشرق الاوسط ويعود الحق الى اصحابه في فلسطين، ويعود الهدوء الى سابق عهده على جبهات العراق وايران.

● لقد تبرعت تركيا بأن تتوسط في عمليات تبادل الاسرى بين العراق وايران. ولم يتردد وزير الخارجية التركي في القول بأن تركيا تقوم بهذا العمل على اساس علاقاتها الوطيدة مع كل من الدولتين المتحاربين. ترى هل من حقنا ان نطالب تركيا بأن توظف مثل هذا الرصيد السياسي الكبير، لا في ميدان تبادل الاسرى فحسب، وانما في الضغط على ايران لكي توقف مثل هذه الحرب المجنونة، ايضا؟

وبالاضافة الى موضوع ايران:

ـ هل من حقنا ان نطالب تركيا بان توظف رصيدها السياسي الكبير من اجل انقاذ القدس وتحرير المسجد الأقصى؟؟

● فالمطلوب من تركيا ان تدل حليفتها الكبرى على العلاج المطلوب، لا لمشكلة الشرق الاوسط فحسب، بل لجميع مشاكل المنطقة ايضا. اليس عجبا ان تكون تركيا على عهد جلال بايار، وعدنان مندريس، هي اصدق اصدقاء «بغداد» ، فأذا مرت السنون وتبدل الحكام اضحت تركيا دولة ليس لها في الشرق الاوسط الا مركزها الجغرافي، ولا يهمها من مصير الشرق الاوسط الا سلامتها ولا تكترث لاحداث الشرق الاوسط الا بما يؤثر على مظاهرات اليسار في شوارع «استنبول» او اضرابات العمال في شوارع «انقره». ؟

اليس عجبا ان تكون تركيا في الخمسينات هي رائدة الدول ومحركة السياسات ومحور القرار بالنسبة لسلام المنطقة وامنها، فهي التي رسمت وخططت للحلف التركي الباكستاني، وهي التي خططت ورسمت لمولد «حلف بغداد»، وهي التي ارسلت قواتها ـ اكبر قوة اشتركت في تلك الحرب ـ الى كوريا، وهي التي كان لها الرأي الاول ـ والاخطر ـ في مراقبة مصر، ومقاومة جمال عبد الناصر، ومحاصرة سوريا، وكل ذلك، باسم السلام، وحرصا على المنطقة، ودفاعا عن الحريات. . فأذا مرت السنون وتطورت الاحداث، وقف سياسي يهودي اسرائيلي مثل «ابا ايبان» ـ وزير خارجية اسرائيل السابق ـ لكي يقول في معرض محاضرته امام احد الاندية الاميركية، مؤخرا:

● «اليس عجبا ان تحاول دولة كتركيا ـ مسلمة معروفة ان تتنازل عن طابعها الشرقي المسلم لكي تصبح دولة اوروبية بينما تحاول دولة غير اسلامية كأسرائيل ان

تتنازل عن طابعها الدولي وتندمج في جسد الشرق الاوسط؟؟ وكلانا لم ينجح . . وكلانا يعاني . . وكلانا مازال يحاول».

انتهى كلام آبا ايبان . .

وبقي ان يبدأ دور تركيا المطلوب في احداث الشرق الاوسط عامة، وفي قضية القدس ومسجدها الاسير، خاصة.

إنّ المطلوب ان تبدأ تركيا مسيرتها «الاسلامية» الصادقة في الاتجاه الصحيح وتقول كلمتها، مدوية عالية، بانها لم تعد تسكت على ما يجري للمقدسات الاسلامية في فلسطين، من تدنيس، وأنها عازمة على ان تعالج القضية بكل ما تملك من وزن، وقوة، ونفوذ، وايمان بالله وبرسوله !

هذا هو المطلوب من الدور التركي. . «الاسلامي».

ترى، هل يستجيب القدر وتتحرك تركيا ؟؟

وجوابي واضح، وواحد، وحزين:

- لم يكن في احداث الأمس ما يبشر بالخير، وليس في احداث الغد ما يدعو الى الأطمئنان. !

ذلك في مايتعلق بالدور التركي الذي لايدعو الى الارتياح.

اما دور الدولة الاسلامية الاخرى، باكستان، فاني لا أملك الا ان اكشف الستار عن تفاصيل ما جرى بين الرئيس الباكستاني «ضياء الحق»، وبيني خلال مقابلتي له في سلطنة «بروناي» خلال شهر فبراير عام ١٩٨٤.

قلت للرئيس الباكستاني ان شعب فلسطين عامة، واهل مدينة القدس بوجه خاص يتطلعون صوب اخوتهم من مسلمي باكستان لأنقاذ «الأقصى» وتحرير القدس. فاجابني ضياء الحق، على الفور، متأففاً:

- اسمع يا أخي المسلم. إن العالم باسره قد نسي شيئاً اسمه قضية فلسطين. وهذا العالم يوشك ان ينسى شيئا اسمه القدس. !»

وغاظني كلام ضياء الحق، فسألته:

- هل سبب ذلك اننا لم نعد نتحدث الا عن الخلاف الهندي الباكستاني. . مثلاً؟

واجابني وقد أدرك الغمزة:

ـ انتم لاتريدون حلاً للقدس! القدس للجميع! لايمكن ان يرضى العالم بان تصبح القدس عربية! يجب تدويلها! إنها لجميع الأديان وليس للعرب وحدهم . . !»

ولعله أدرك انه يتحدث بمثل هذا الكلام الخطير عن مدينة من «مدائن الجنة» الى صحفي عربي ومسلم، فاستدرك قائلاً بصوت خافت:

ـ ارجوك ان لاتنشر هذا الكلام على لساني والا ستقوم القيامة فوق رأسي! قل، فقط، ان القدس تخص جميع البشر!

ولكني لم ألبِّ رجاء صديقي رئيس باكستان. فقد ابرقت بنص حديثه الى صحف الخليج، ونشرته، وقامت قيامة رئيس باكستان وخاصة عندما بادرت صحف بلاده ونقلت الحديث مترجماً على صفحاتها الأولى.

واصدر رئيس باكستان بياناً رسمياً يقول فيه ان الحديث محرف. ولم اجب . .

ولعله قد نسي انني عندما قابلته كنت احمل في يدي، وبصوره واضحة، جهاز التسجيل الذي قام بتسجيل كل حرف سمعته منه. فقد عاد واصدر في اليوم الثاني بياناً بلسان الخارجية الباكستانية ينفي فيه انني قابلت «ضياء الحق»، وان خبر المقابلة مختلق من اساسه!!

عندئذ، فقط، أعددت عدة نسخ من شريط المقابلة المذكورة وارسلته الى أصدقائي الصحفيين في الخليج بعد ان طلبتُ منهم «اهداء» نسخة مفصّلة الى سفير الباكستان في الكويت، ونشر بيان على لساني في صدر الصفحة الأولى يؤكد بان المقابلة قد تمت، وانها حقيقة، وكلماتها مسجلة بصوت ضياء الحق . . بالذات!

واضطر ضياء الحق ان يدعو وفداً صحفياً يمثل جميع صحف الخليج للمجيء الى باكستان على نفقة الحكومة، ويقابل الوفد، ويؤكد له ان الباكستان تتمسك بعروبة القدس وعودة الأقصى حراً طليقاً!

تلك هي حصة القدس عند رئيس باكستان . . . العتيد !

وعندما وضع انور السادات امضاءه على اتفاقية كامب دايفيد، لم يعدم ظهور عدد من شيوخ الأزهر يباركون الاتفاقية ويرددون: «واذا جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله . . »!

ونسوا ان الاتفاقية الدنسة لم تحرر المسجد الأقصى ولم تعد القدس ولم تحقق املاً عربياً أو أسلامياً واحداً. . !

ونسوا كلام «بيغن» ان القدس، بكل ما فيها ومن فيها، هي عاصمة اسرائيل الأبدية. . الموحدة. !

ونسوا ان «القدس» مدينة تشد اليها الركاب، وتضم تاريخ امتهم، وتحتوي على كنوز تاريخهم، وهي رمزّ عزتهم وركن دينهم وقد بارك الله مسجدها، وبارك حوله. .

ومنذ احتلال القدس، وعلماء اسرائيل يحفرون بجوار المسجد الأقصى، حتى أوشك المسجد على السقوط.

وحرقوه. . حرقوا المنبر والسقف. !

واعتدوا على المصلين في ساحة الحرم! ضربوهم بالرصاص! وكان المفروض ان يدخل العرب والمسلمون الى قضية فلسطين كلها، من باب «القدس»، ويدخلون الى قضية القدس من قضية المسجد الأقصى. !

ولكن. . ؟

منذ عام ١٩٦٧ لم تقم مظاهرة شعبية واحدة في اي بلد عربي او أسلامي تطالب بالقدس أو تحتج على احتلالها. او تذكر العالم بمأساتها!

واكتفى المسلمون بالمذكرات، والرسائل، وتشكيل اللجان الملكية في الشرق والغرب، للدفاع عن القدس. .

وبقيت القدس أسيرة، وبقي «الشطّي» اميناً للمؤتمرات الاسلامية طيلة السنوات الطوال، وبقي العرب والمسلمون ينادون على «القدس» كما اعتاد الموسيقار الراحل «فريد الأطرش» ان ينادي على حبيبته قائلاً:

- هاتوا لي حبيبي. . ! وينك يا حبيبي!

ولم يذهب - هو - لكي يأخذها. فلم تحضر حبيبته. ولم يلتق العاشقان. !

ما هو السر؟ ما هو التفسير؟ لماذا ؟ !

- هل تريد الحقيقة؟؟ ان عرب اليوم لايستحقون شرف إمتلاك مدينة. . كالقدس!»

* * * * *

الفصل الحادي والعشرون

متى نفهم ان «الكبار» لهم مصالح وليس لهم اصدقاء .. ؟

● من امين عثمان باشا . . الى نوري السعيد باشا . . الى انور السادات «باشا» . . الى جعفر النميري «باشا» . . كلهم وثقوا بالغرب وكلهم سقطوا نتيجة ذلك . !

● كيف تفهم اميركا معنى الدفاع عن سلامة الشرق الاوسط؟

● سمعت جعفر النميري في آخر ساعة من آخر زيارة له في واشنطن يشتم ويلعن ويقول :

- ربنا يخرب بيتهم !

● يا ليت امين الجميل ادرك حقيقة اميركا «وخفف» قليلا من صب لعناته على . . الفلسطينيين .

الفصل الحادي والعشرون

متى نفهم ان «الكبار» لهم مصالح وليس لهم اصدقاء..؟

كان «امين عثمان باشا» من اقدر وزراء مصر، ومن اقربهم الى العقلية البريطانية. وكان يعتقد بأنه اكبر صديق للامبراطورية البريطانية في وادي النيل، وان حكام لندن سيبادرون الى حل مشاكل مصر باكملها اكراماً لامين عثمان. وكان متزوجاً من سيدة انجليزية جعلت منه خاتماً في اصبعها الصغير. وكان يتكلم اللغة العربية بلهجة انجليزية، ويتغنى بصداقته للورد «كيلرن» السفير البريطاني وكأنه من مواليد «اكسفورد»! وكان هو الواسطة السرية بين الوفد والسفارة. وتاريخه في مصر، هو بعض تاريخ اخطر الاتصالات السرية التي اجراها الانجليز مع الملك «والوفد» عندما كان المارشال الالماني «روميل» يدق ابواب العلمين!

وفجأة، اغتيل «امين عثمان باشا» برصاص مجموعة من شباب مصر، وقيل ان «السادات» مع حسين توفيق كانا منهم ـ فلم يكترث احد، ولم يبكه احد ولم يذرف عليه صديقه اللورد «ليكرن» دمعة واحدة..

وكان «لامين عثمان» في بغداد العراق شبيهاً اسمه نوري السعيد! وكان نوري السعيد يحب الانجليز ويثق بهم ويزور بلادهم مرات عديدة في العام الواحد. وكان يحمل على صدره جميع الاوسمة البريطانية منذ ايام جورج الخامس حتى ايام حفيدته الملكة اليزابيث. وكان ينادي بان مفتاح الحل للقضايا «العراقية» موجود في لندن، وان لندن موجودة في جيبه، وان جيبه مغلق عندما يكون خارج الحكم

ولايفتح الا عندما يتولى «الباشا» رئاسة الوزراء! كان مولها بحب الانجليز وتربطه معهم صداقات واسعة على اختلاف احزابهم السياسية، ولا يقرر شيئاً بدون استشارتهم ولاينفذ سياسة قبل موافقتهم واذا عطس تشرشل في لندن، مرض نوري السعيد في منزله على شاطىء دجلة. . واذا خطب «انتوني ايدن» في جامعة «كمبردج»، صفق نوري السعيد، ومعه جميع وزرائه واعوانه، وهتفوا بحياة الزعيم البريطاني الانيق وصديق العراق الرشيق «السيد انتونى ايدن!»

ثم قتلوا نوري السعيد في وسط شوارع بغداد «وسحلوا» جثته وحطموا عظامه وحرقوا منزله، ولم تحرك السفارة البريطانية ساكناً.

وعندما ذهبت ارملته العجوز لكي تسحب الف جنيه استرليني من بنك «لويدز» بلندن على حساب اموال زوجها المودعة في البنك المذكور، رفض مدير البنك تسليفها المبلغ بحجة انها لاتملك الاوراق الشرعية التي تثبت انها ـ حقاً ـ ارملة نوري السعيد!

ومضى زهاء ربع قرن، واذ بروح نوري السعيد، او روح امين عثمان، تبعث حية في شخص ضابط مصري اصبح فيما بعد صاحب منصب رفيع، وصاحب اسم لامع، واسمه: محمد انور السادات!

وكان تفكير انور السادات يميل نحو تبسيط الامور، ولا اقول تسفيهها، كما كان يعنى تماما بمظاهر الامور لابجوهرها ولم يكن يدري ان مشاكله الكبرى ليست محصورة في داخل مصر وحدها، وانما هي ايضا موجودة في صورة تحالفه مع شخصيتين او زعيمين او حاكمين متناقضين متضادين: احدهما يمثل التعصب والعنف والعناد والتطرف وعدم التسليم بأي شيء، واسمه مناحيم بيغن، والثاني يمثل الضعف والخور والتساهل والاستسلام والعجز، واسمه: جيمي كارتر!

وبين الاول والثاني، فقد انور السادات شخصيته وزعامته وقدرته على التحرك! عند الاول لم يفز للفلسطينيين بدرهم حق او حقيقة في ميدان القضية الفلسطينية! وعند الثاني لم يفز للعرب او لدول الخليج او للعراق بدرهم نصر او انتصار ضد التعنت الايراني، والثورة الايرانية، والخطر الايراني!

وبقي انور السادات يلعب ورقة «الوقت»، وينتظر، ويدعو السماء ان تهبط

المعجزة القادرة على انقاذه من ورطته.

وفي اخر صيف له، وفي غمرة موجات من اليأس والقلق، سافر انور السادات الى «المعمورة» بالاسكندرية للراحة ولقاء البحر وقال الذين رأوه، ومنهم وبينهم اصدقاء كبار لنا من زملائنا الصحفيين ورجال السياسة في مصر ان السادات قد اصبح رجلا يائسا متهاويا وخائرا وكأنه بقايا ضحية سياسية وعسكرية من ضحايا اصدقائه في اسرائيل وفي الولايات المتحدة الاميركية! كان قلبه مليئا بالالم وخيبة الامل من صديقه جيمي كارتر، ولكنه لم يقدر ان ينال منه بحرف واحد خشية ان يؤثر ذلك على سير المعركة الانتخابية ويفشل كارتر في البقاء في الرئاسة مدة اربع سنوات اخرى! لقد حاول ان يهرب من جحيم قضية الفلسطينيين ويشغل نفسه بالتصدي لنار «الخميني» فيظهر امام عرب المنطقة وكأنه القوة العربية «الوحيدة» القادرة على ان تتصدى لثورة ايران وان تحمي سلامة الخليج ومنابع البترول! ولكن كل ما استطاع ان يحققه السادات في هذا المجال هو ان يطيل في استضافته للشاه السابق الراحل داخل غرف قصر «القبة» بمصر، وان يعود من الاسكندرية بعد شهر واحد لكي يمشي في جنازة صديقه الشاه الذي مات وترك اسرة اصبحت بعد وفاته اسرة انور السادات، على حد قول السادات نفسه! لقد زعم السادات انه استضاف الشاه في مصر لاسباب انسانية، واسلامية؟ ولكن الحقيقة ان السادات قد استضاف الشاه في مصر لاسباب سياسية اراد من ورائها ان يستعطف اميركا ويسترضيها، وان يغزو ـ بعمله الانساني ـ قلوب الشعب الاميركي ويدفعه لكي يتحرك في تأييد خطوات السادات في المنطقة وخاصة.. ضد اسرائيل! لقد حسب السادات ان انضمامه لاميركا ـ ولجيمي كارتر خاصة ـ ضد ثورة ايران وضد الخميني ثم قراره بمنح اميركا قواعد عسكرية فوق التراب المصري تنطلق منها الطائرات الاميركية للحفاظ على سلامة الخليج وحرية مياهه وسلامة ناقلاته.. اقول ظن السادات ان ورقته ضد ايران ستعود عليه بالخير والمنفعة في «الورقة» التي كان يبحث عنها ضد... اسرائيل! لقد حسب ان تأييده لكارتر في ايران، سيرغم كارتر على ان يؤيده ـ يؤيد السادات ـ ضد مناحيم بيغن في تل ابيب وفي القاهرة! ولكن.. والف آه على الذكاء والعقل والمعرفة، اذ لم يمض على دفن الشاه اربعة ايام فقط، ولم

يكد السادات يستريح من عناء اشتراكه في جنازة «اخيه وصديقه» الشاه الراحل، حتى اصدر مناحيم بيغن، رئيس وزراء اسرائيل قرارا رسميا يقضي ـ بتطبيق جميع قوانين اسرائيل على القسم العربي الشرقي من القدس ـ وضم المدينة كلها الى الدولة اليهودية واعلان القدس عاصمة . . ابدية . . لاسرائيل!

ولم يحرك جيمي كارتر ساكنا . !

● يعني: منذ «ست» سنوات بالضبط، انبرى رجل حاكم في مصر اسمه انور السادات ولاسباب شخصية او سياسية او «مكيافلية» ـ نسبة الى المرحوم (ماكيافللي) ـ وتصدى للاخطار المتفجرة في صفوف الثورة الايرانية، واهدافها، ولقضية الرهائن الاميركيين، وابعادها، ولمطامع ايران في الخليج ومعانيها، ولسلامة البترول وقيمته، واعطى الولايات المتحدة الاميركية «جميع» ما كانت تحلم به او تطلبه من قواعد وتسهيلات وموانىء عسكرية من اجل ان تتعاون مع مصر، او مع السادات بالذات، على احتواء اخطار الثورة الايرانية والحد من مضاعفاتها وتأمين وضمان سلامة دول الخليج ومياهه وشواطئه، فماذا كانت النتيجة، وكيف استفادت الولايات المتحدة الاميركية من هذا العرض المصري ـ السخي ـ الذي تحدى به انور السادات مشاعر كل وطني مصري، وكل وطني عربي، وكل مسلم صحيح؟

الجواب على السؤال هو: لاشيء!

والجواب على السؤال الثاني هو ايضا . . لاشيء!

واستفحلت الثورة الايرانية، اخطاء وشرورا، وراحت بعد اسابيع قليلة من ذلك التاريخ، تتحدث بلسان وزير خارجيتها ـ وبالتحديد في ٢٨ ـ ٥ ـ ١٩٨٠ ـ عن ان العلاقة مع العراق «ليست حربا حتى الان، وربما سيحدث ذلك وتشتعل الحرب قريبا» . !

وقال الخميني بالذات في اكتوبر من نفس العام: « . . ان القضية قضية رسالة وليست مسألة رغبات. نقول للناس: لا صلح لنا اطلاقا مع هؤلاء البعثيين العراقيين!» .

وفي منتصف شهر يونيو ـ حزيران، اعلن المتحدث بلسان الحكومة الايرانية ان

ايران لم تعد تتمسك باتفاقية الجزائر . !

وفي نفس المدة، صرح وزير خارجية ايران، «قطب زاده» ان: عدن وبغداد تابعتان لنا!

● وتتابعت الاحداث الرهيبة بلا ضابط ولا رادع . . !

وتعرضت سفارة العراق في ايران الى الاعتداء والتهديد . . والحرق!

وتعرضت مدارس العراق في ايران الى الهجمات والاعتداءات .

وراحت القنابل تلقى على طلاب جامعة «المستنصرية» في قلب بغداد، كما حاولوا اغتيال وزير الثقافة العراقي في مكتبه بالعاصمة العراقية كما توالت اعمال العدوان الايرانية على الحدود العراقية فبلغت قبل نهاية شهر اغسطس ـ آب من عام ١٩٨٠، اكثر من مائتين وخمسين حادثا . . بالاضافة الى اختراق الطائرات العسكرية الايرانية للاجواء العراقية بمعدل مرة او مرتين في كل يوم، مع فتح النار على المخافر العراقية عند الحدود المشتركة بصورة مستمرة ومتزايدة، وقصف الاراضي العراقية ـ القطاعات الحدودية ـ بلا رحمة ولا هوادة!!

● ماذا فعلت حكومة الولايات المتحدة الاميركية وبماذا ردت على تفجر هذه الحال؟ .

الجواب على السؤال الاول: لاشيء!

اما الجواب على السؤال الثاني: لاشيء . . ايضا!

واستمر التدهور يظهر للعالم بصورة واضحة ومفجعة وبدأت القوات الايرانية تضرب المنشآت البترولية العراقية في «خانقين» وتضرب آبار البترول العراقي في «ميسان» وتضرب (الحفارات) العراقية في ـ شط العرب ـ بينما العالم وفي مقدمته الولايات المتحدة الاميركية، لاتحرك ساكنا لانها مشغولة بمعركة انتخابات الرئاسة الاميركية ولان «جيمي كارتر» لايريد ان يغادر البيت الابيض قبل مضي اربع سنوات اخرى . . وليكن مايكون!

● هل اقدر ان اقول: ما اشبه الليلة، بالبارحة؟

● وهل اقدر ان اقول: ان انور السادات الذي وضع كل مقدراته وامكانياته تحت امرة الولايات المتحدة لانقاذ امن الشرق الاوسط عامة، وامن الخليج خاصة، لم

يجد لدى اميركا سوى التجاهل، والضعف والعجز، حتى سقط نفسه برصاص جيشه نتيجة فشلٍ اميركا، وخورها، وترددها، وعجزها في عمل اي شيءٍ؟؟

تعالوا نقرأ معاً بعض صفحات التاريخ السياسي المعاصر. . ! منذ أول صيف عام ١٩٨٤، وبالتحديد منذ ان استفحلت حرب الناقلات في مياه الخليج، ومنذ ضرب بعض السفن السعودية والكويتية في المياه البعيدة عن ايران وعن العراق معا، احست الولايات المتحدة الاميركية ـ وكنت شخصيا في واشنطن ادور بين كواليس وزارة الخارجية الاميركية ـ ان دول الخليج، او دول مجلس التعاون، او السعودية والكويت بالاسم، ستطلبان من اميركا مساعدتها على مواجهة هذا الخطر الثوري الايراني الجديد. . المستفحل!

وعلى الفور بادرت واشنطن، بلسان رئيسها، ووزير خارجيتها، ووزير دفاعها الى القول بان اميركا على استعداد لان تسهم في الدفاع عن سلامة وامن الخليج بشروط ثلاثة:

اولا: ان يتقدم اصحاب الشأن ـ اي السعودية والكويت ـ بطلب رسمي لمساعدتهم من جانب اميركا.

ثانيا: ان يجيء الطلب المذكور بصورة علنية وواضحة!

ثالثا: ان تسمح الدول المعنية في الخليج لحكومة الولايات المتحدة الاميركية باقامة قواعد عسكرية فوق ارض الجزيرة العربية تصلح لاستيعاب قوات وطائرات اميركية قادرة على الانطلاق عند الضرورة ومواجهة الطائرات الايرانية المعادية في غاراتها القادمة على الناقلات العربية.

سؤال: لماذا لاتقيم اميركا هذه القواعد فوق بوارجها وحاملات طائراتها المقيمة حاليا عند باب الخليج؟!

وترد اميركا:

ـ هذا لايكفي! ان الاستعداد الصحيح يجب ان يتم فوق ارض السعودية وفوق ارض الكويت وعند الموانىء السعودية وموانىء الكويت. . ؟

● ترى هل تريد اميركا العودة الى الارض العربية ـ عسكريا ـ ومن خلال الحرب العراقية الايرانية بعد ان مضى على تصفية قاعدة «الظهران» وفي عهدالملك ـ سعود ـ

اكثر من ٢٤ سنة؟

● ترى هل تريد اميركا ان تحل محل القوة البريطانية التي رحلت وانتهت ونسيناها منذ امد بعيد فوق ارض الكويت؟!

لا ادري . !

● ولكن «المرحوم» الراحل «انور السادات» قد سبق الجميع وتحدى الجميع واعطى لاميركا جميع القواعد العسكرية المطلوبة فوق شواطىء البحرين الاحمر والابيض، لكي تقوم اميركا بدور ـ البوليس الحربي ـ في الاشراف على امن «وسلامة» الشرق الاوسط عامة، ومنطقة الخليج خاصة، لولا ان اميركا لم تفعل شيئا سوى ان خذلت السادات واقامت مظاهرة اشتراك جيشها مع الجيش المصري في احد الموانىء واحدى القواعد وكفى المؤمنين وغير المؤمنين القتال او الاشتراك في مناورة اسمها: «النجم الساطع»! .

لاشيء بالمرة . .

وجاء الملك حسين، وابدى استعداده ـ او تعاونه ـ للمساهمة في انشاء اية قوة عربية ضاربة تحل محل ـ القوة السريعة الحركة ـ المنوي انشاؤها للحفاظ على امن وسلامة المنطقة مقابل عملية تسليح وتدريب لاتزيد جميع نفقاتها عن مائتين واربعين مليون دولار! ولكن؟ وعندما وصل الامر الى مسامع الكونغرس، تحركت الافاعي الصهيونية، وتعالت الصيحات المعادية للفكرة وتقلصت المبالغ المقررة لمساعدة جيش الاردن، والغيت صفقات الطيران والسلاح بحجة انها تهدد امن اسرائيل، واصبح «الملك حسين» في عيون اقطاب الكونغرس عدوا لدودا لايستحق التعاون ولا العطف ولا المال ولا السلاح . . ولا الثقة!

واليوم، تعود اميركا وتتحدث من جديد عن القواعد والشروط العلنية . ؟

وبلا حياء ولا خجل تظهر افتتاحيات جميع صحف اميركا كي تقول لدول الخليج ما معناه:

● نحن نعطيكم السلاح، وانتم تدفعون الثمن! ولكن «استعمال» هذا السلاح يحتاج الى قرار سياسي! ترى ـ والكلام لاميركا ـ هل تملك دول الخليج القدرة على اصدار مثل هذا القرار السياسي؟!

● ثم تقول للخليج وبالفم المليان:

نحن نعطيكم السلاح اللازم. ولكن استعمال هذا السلاح بصورة ناجحة يتطلب التعاون مع «الخبرة» الاميركية! ترى، هل تقدر دول الخليج ان تعلن رسميا ثقتها بالتعاون الاميركي؟!

● ثم جاء دور الصحف البريطانية! ولولا ان الحديث جاء على صفحات مجلة سياسية اقتصادية بريطانية نعتبرها من ارقى واعظم صحف العالم، لما اعرنا حديثها اي اهتمام، او اي تعليق. قالت صحيفة «الايكونومست» في عددها تاريخ ٢٦ مايو ١٩٨٤ على صفحتها رقم ٤٧ تحت عنوان: «نترك ذلك للسعودية مع «الاواكس» ومع دعواتنا.» مايلي:

● «.. ولذا، فمن المتعذر على دول الغرب ان تقدم اية حماية للملاحة في الخليج بدون الحصول على قواعد جوية لها على الارض! واذا طلب السعوديون مساعدة الغرب فان اقصر الطرق لتأمين هذه المساعدة تأتي بارسال سربين من طائرات «اف ١٥» الاميركية لتقوية الطائرات الموجودة حاليا، والتي هي من طراز «اف ١٥» وعددها حوالي الستين طائرة..».

«.. ان حماية الملاحة في الخليج قضية مستعجلة! اما على المدى البعيد فان على الغرب ان يقلق ايضا حول كيفية الصورة التي ستصل اليها حرب الخليج، على الارض!.»

ثم تقول:

«... اذا انتصرت ايران فان على الغرب ان يختار بين احد امرين: اما ان يتدخل في الحرب، او ان يرى «آية الله الخميني» او الثورة الايرانية تسيطر على الخليج وبترول الخليج بأسره! ان الطريق الوحيدة للتدخل هي من خلال الطيران.. الخ»

ثم تقول:

«.. ولكن ماذا نقول في معركة البر؟ قد تستطيع بضعة طائرات او اسراب من طراز «اف عشرة» الاميركية او الجاكوار البريطانية ان تلحق اصابات بالغة في اية تجمعات وحشود عسكرية ايرانية! ولكن اسلحة الجو لم تكن دائما العلاج الحاسم في

منع اي جيش مصمم على التقدم من ان يتقدم! ان هناك حقيقة واضحة واحدة هي انه اذا شعر الغرب بضرورة التدخل فان مثل هذا التدخل يجب ان يتم بينما الجيش العراقي مازال سليما وقادرا على القتال، وليس بعد ان يتحطم مثل هذا الجيش ويتم اختراق صفوفه. !»

ثم قالت «الايكونومست» بالحرف الواحد:

«.. لقد ظهرت الفرصة المواتية امام دول الخليج بعد ضرب الناقلات وعليهم انتهازها! فقد كانت السعودية منذ امد بعيد تلوم اميركا بسبب اسرائيل وتعيرها بسبب فشلها في لبنان بينما هي - اي السعودية - تعتقد في حساباتها ان «العم سام» سيهرع في آخر الامر الى انقاذ الدول العربية «المحافظة» وانه - اي العم سام - موضع الثقة في ذلك..»

ثم تقول «الايكونومست» بالحرف الواحد:

«.. وها نحن نصل الى التحدي الذي تواجهه السعودية! انها - اي السعودية - تملك احسن وافضل طائرة محاربة في العالم.. وهي «اف ١٥» الاميركية، وعندها من هذا الطراز عدد كبير! فاذا اعلن العراق استعداده لرفع الحظر عن الموانىء الايرانية مقابل ان ترفع ايران حظرها عن الموانىء العراقية ورفضت ايران هذا الاعلان العراقي، عندئذ على السعودية، وعلى الطيران السعودي بالذات ان يشكل مظلة جوية ويضعها عل الجانب السعودي من الخليج وبذلك يعطي الحماية المطلوبة لقوافل بواخره وناقلاته ويثبت نجاحه ومدى خبرته في الكفاءة الفنية..»

ثم تنهي الايكونومست افتتاحيتها قائلة:

«.. ويكون من الافضل ان تقوم السعودية واخوتها في مجلس التعاون الخليجي بهذه المهمة بمفردهم رغم ان اجهزة «الاواكس» الاميركية ستقود السعوديين الى اهدافهم المطلوبة! واذا شاءت دول الخليج ان تقوي عملها بمساعدة عسكرية من الغرب - من بريطانيا او فرنسا وبوارجهما موجودة حاليا على سواحل عمان وجيبوتي وحتى من اميركا - فلا بأس! وهذا كله وارد ومحتمل او موجود كما اعلن ذلك الرئيس ريغان. بشرط ان تأتي الدعوة من العرب بشكل «علني وواضح» و «غير غامض»! فانه من «الغرابة» بمكان ان تطالبنا دول الخليج بحماية سفنها ولكن بشرط

ان لاتسمح لاي من هؤلاء «الكفار» بالنزول على شواطئها».

ثم تنهي كلامها بالسطور التالية:

«... لقد حان الوقت ان يضع السعوديون عضلاتهم حيث توجد افواههم! فمنذ سنوات طويلة وهم ـ اي السعودية ـ «يشترون» مختلف الانواع والسمات من العرب السوريين، والفلسطينيين واللبنانيين بحجة ـ او على امل ـ البقاء خارج حلبة المشاكل العالمية! وقد تلقى العهد السعودي المعطل او المربك للامور ـ واستعملت كلمة «Cumbersome» ـ الكثير من المحبة والتشجيع من اميركا، ولكن، وفي كل مرة تخاطر اميركا بالمغامرة وتتلقى الفشل، كانت السعودية اول من يدير ظهره لاميركا.! والان، جاءت اللحظة التي يتوجب فيها على السعودية ان تثبت انها تملك الجرأة في ما تؤمن به، وانها تملك ايضا ـ ما تؤمن به..»!

● هذا كلام صادر عن «مجلة» وصفها امامي الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون بأنها «اعظم صحيفة في العالم!» ومن هذه الزاوية سمحت لنفسي بأن اترجم للقارىء بعض فقرات افتتاحيتها لكي اجعل منها دليلا او مثالا حول كيف تفكر اميركا والعالم الغربي حيال احداث الخليج، وكيف تنظر دول اوروبا واميركا الى الدور العربي حول هذه الاحداث!؟

وعلى ضوء ذلك نتساءل:

ـ هل حقا ان العقبة الوحيدة تكمن في «القواعد» او في الحصول على «القواعد».. وفي ان يكون «الطلب» علنيا لا سريا ولا دبلوماسيا؟!

وهل حقا اننا ـ نحن لا اميركا ـ الطرف الذي لم يحفظ الجميل ولم يثبت حسن الوفاء؟!

وهل حقا ان اميركا والغرب، والعالم الحر، سيسمح للعرب، او للعراق، او للسعودية، القيام بأي عمل واسع وحاسم وقادر على ان ـ لايكفل حرية الملاحة في الخليج فحسب ـ بل وان يضع حدا للحرب العراقية الايرانية ايضا؟

وجوابنا على كل ذلك مايلي:

● منذ ست سنوات، وفي مثل هذه الايام بالذات قام رجل مصري اسمه «انور السادات» بكل ما من شأنه ان يجيب على كل هذه الاسئلة. ولكنه لم يتلق من

«اصحاب الشأن» الا الاهمال والتسويف والانشغال بمعاركهم الداخلية واظهار المعاذير لتبرير العجز الفاضح . . !

لقد اراد انور السادات ، التشبه «بنوري السعيد» في تبرير الثاني لجمال عبد الناصر دخوله في حلف بغداد ، وتبرير الأول لنفسه وللعرب ارتمائه فى احضان اميركا! كان «نوري السعيد» يطلب من سفيره في القاهرة ان يؤكد لجمال عبد الناصر بأن انضمام العراق لحلف بغداد سيمكن العراق من التأثير على بريطانيا واميركا لحل مشكلة فلسطين! وكان عبد الناصر يقول : «لا!» وجاء انور السادات وقال لمصر وللعرب ان تحالفه مع اميركا والسماح لها بالقواعد في مصر سيمكن مصر من حل قضية فلسطين ـ من خلال اميركا ـ وسيضمن مساعدة اميركا للعرب و لمصر وللخليج ، ضد ايران . وقال له العرب :

ـ لا!

وكما مضى نوري السعيد . . مضى انور السادات!

الاول ضحية «سلوين لويد» وبريطانيا . والثاني ضحية «جيمي كارتر» والولايات المتحدة الاميركية!

وانا لا اظن ان اميركا او اي رئيس من رؤسائها ، او اي عهد من عهودها ، سيعثر على اي زعيم عربي او مصري ، يعطيها «بعض» ما اعطاها ، انور السادات . !

قالت له اميركا ان يزور القدس ، فزارها . وان يصالح اسرائيل فصالحها! وان يستقبل بيغن فاستقبله ! وان يقيم مع تل ابيب علاقات دبلوماسية فأقام! وان يوافق عل كامب ديفيد فوافق! وان يخرج عن العرب ، فخرج! وان يشتم العرب فشتمهم!

● قال لي جيمي كارتر في معرض حديثه عن السادات : «كان يوافق على الامور قبل ان اطلبها منه . . وقد وافق على كل طلباتي قبل ان يغادر مصر في طريقه لمقابلتي في واشنطن . »!

● وعندما غزا السوفيات ، افغانستان ، قام السادات وطرد «بقية» ما تبقى من خبراء السوفيات الذين لم يطردهم في المرة الاولى!

● واعلن الف مرة ومرة ، انه يؤيد «مشروع كارتر» لأمن المنطقة وانه يضع تحت

تصرف اميركا «كل» القواعد والمطارات فوق ارض مصر لكي تقاوم اي خطر سوفياتي قد يهدد امن الخليج!

● وفي قاعدة «قنا» المصرية الجوية، تمت جميع عمليات التجارب للقيام بعملية «الانقاذ» الاميركية في صحراء ايران في ٢٤ ابريل من عام ١٩٨٠! ورغم فشل هذه العملية بصورة مذهلة، الا ان السادات ـ على عادته ـ راح يكرر تأييده لها ويتمنى ان تكرر اميركا المحاولة حتى تنجح.. !

ورغم كل ذلك، كان جيمي كارتر هو ضحية «الخميني»، وليس العكس! وكان انور السادات هو ضحية كارتر، وليس العكس.

اقرأوا صفحات الغيب جيدا..

● ان اسرار الاتفاق الاستراتيجي العسكري بين واشنطن وتل ابيب تكاد تصل الى مافوق السحاب وتفجر كل ثقة، وتنسف كل موقف، وتهدد كل تحالف، وتبدل كل خطط، وتقيم الدنيا ولا تقعدها، وتعطي «للعميان» عيونا يبصرون بها..

هذا التعاون الاستراتيجي، يقول لنا ولكم ولكل عربي:

ـ لاتثقوا بالحليف الاميركي..

ولا تعتمدوا عليه.!

والقضية قضيتكم وحدكم، واللعبة لعبتكم انتم، وقديما قيل: «ما حك جلدك مثل ظفرك».

اذ ان اظافر «العم سام»، ملوثة بالسم الزعاف!

ترى اليس في مأساة جعفر النميري وعلاقته مع اميركا ما يضيف امثلة وشواهد جديدة اخرى على صحة هذه الاقوال.؟

لقد حكم «جعفر النميري»، السودان طيلة ١٥ سنة مارس خلالها جميع اصناف المبادىء السياسية وتنقل من اليسار الى اليمين، من الجنوب الى الشمال، وتغنى بالديمقراطية وطبق حكم الفرد، ولبس الف قميص ورفع الف شعار وكل ذلك سعياً وراء ايجاد الحل المطلوب لمشاكل السودان المحيطة به كالليل الاسود، ولكنه فشل في العثور على حل واحد لمشكلة واحدة من مئات المشاكل المستعصية في

بلاده. والسبب واحد وبسيط: لقد بقي النميري يفتش عن حلول مشاكله في خارج بلده لا في داخله. وظن ان مقاومته للشيوعية او معارضته للحكم الاثيوبي او كراهيته «لليبيا» ستفتح له ابواب واشنطن على مصراعيها. وعندما داهم القحط، وانحباس المطر، وغزو اللاجئين وقسوة الطبيعة وخراب الميزانية، حياة «النميري» ومنصبه، التفت صوب اميركا يناشدها العون السريع. ولكن اميركا لم تستجب لطلب النميري وانما حددت له شروطاً اقتصادية قاسية تطالب بفرض التقشف وتقليص النفقات والتقليل من الدعم المالي الحكومي للغذاء اليومي للشعب. فاذ بالمظاهرات تعم الشوارع واذا بالشعب يهتف بسقوط النميري.

وذهب النميري في آخر رحلة له لاميركا يستحثها ويستغيث بها ان تهرع لانقاذه. وقد تسنى لي ان اراه يومذاك في واشنطن وهو على باب منزله بضواحي العاصمة الاميركية يودع جورج شولتز، وقد بدا متعباً، شاحب الوجه، لايكاد يقوى على المشي.

وسألته عن اخباره فاجابني بصوت خافت مريض انه على استعداد لكي يتنازل عن منصبه ويضع مصيره بين يدي الحزب الاشتراكي الحاكم بشرط ان يتم الانتقال بصورة دستورية سلمية بعيدة عن العنف وحب الانتقام. عند ذاك سمعت نفسي اسأله:

ـ وهل اخبرت «الامريكان» بهذا القرار.. قرارك على التنازل؟ واجابني وكأنه يشتم احداً ويلعن احداً:

ـ يا اخي الله يخرب بيتهم.!

من هم.؟

قلت «للنميري» ان الاخبار القادمة من الخرطوم تؤكد قرب ظهور انقلاب عسكري يطيح به..

فاجابني وكأنه يتوقع ذلك او يعلم به سلفاً:

ـ انا ذاهب الى القاهرة، ولكل حادث حديث!

وكان ماكان..

وسقط جعفر النميري على صخرة الصداقة السودانية الاميركية..!

ولم ينفعه الف حديث صحفي والف خطاب ايد فيها اتفاقية كامب دافيد، وتغنى فيها بعبقرية انور السادات!

ولم يستفد من الف تصريح قال فيه ان اسرائيل «حقيقة قائمة» وان على العرب السعي لمصالحتها. !

ولم تفده هجماته المستمرة على العقيد القذافي، وعلى اليمن الجنوبي، وعلى سوريا، وعلى ايران، ارضاءاً لاميركا وجرياً وراء تأييدها وصداقتها!

كل ذلك لم يفده بشيء! وانما الحق الاذى والضرر والشر بالقضايا العربية وبوحدة الصف العربي، واظهر العرب بمظهر الاختلاف والتصارع، ودفع بالمستوى العربي العام للقيادات وللشعوب الى الهاوية السحيقة!

لقد دام حكم جعفر النميري ١٥ سنة كاملة، وكل سنة منها كانت بمثابة طعنة قاتلة في جسد هذه الامة وفي قضاياها، وعلى رأسها قضية فلسطين. . !

هل نعجب لماذا وصلنا الى هنا؟

ومثل النميري كثيرون!

لقد حاول الرئيس اللبناني ان يضرب على نفس الوتر، ويقول لواشنطن انه يعارض التسلط السوري ويقاوم الهيمنة البعثية القادمة من عبر الحدود، وبالتالي، فان على اميركا ان تؤيده وتساعده وتمده بالمال والسلاح والاساطيل. . !

واوغل الرئيس اللبناني، السيد امين الجميل، في محاربة الفلسطينيين، وحملهم - زوراً وبهتاناً - مسؤولية كل ما جرى في لبنان من احداث، ومشى مع النغمة الاسرائيلية التي تقول «ان الفلسطينيين هم اصل البلاء» وانه لولا الوجود الفلسطيني في لبنان لما قامت ثورة لبنان. ! وراهن «الجميل» على اميركا فأيد وخطط ورضي باتفاق مايو بين لبنان واسرائيل. وكان رئيس لبنان، على علم مسبق بكل الزيارات الرسمية والسرية التي قام بها اريل شارون، وخليفته المستر «ارينز» الى لبنان واجتماع كل منهما «بالقوات اللبنانية» وباقطاب حزب الكتائب. ! ورعى امين الجميل، سياسة فيليب حبيب، وسافر الى اميركا عدة مرات يدق ابواب البيت الابيض ويستجدي العون الاميركي. .

وادارت له اميركا ظهرها ونفضت يدها من لبنان. .

وادرك امين الجميل ـ متأخراً ـ ان الكبار ليس لهم اصدقاء وان لهم مصالح . . فقط!

وبعد . .

ليس المطلوب منا ان نعامل اميركا كما تعاملها اسرائيل، مثلاً. فانا اعلم ان العرب لايملكون الوقاحة او الصفاقة التي يملكها رجال كمناحيم بيغن او شمعون بيريز او اسحق شامير او رابين او غيرهم من حكام اسرائيل. كان بيغن يعامل كارتر وكانه تلميذ صغير. وكانت «جولدا مائير» تردح لريتشارد نيكسون وكأنه «صبي حلاق» يعمل في صالون والدها الراحل! وعندما اعلن ريغان مبادرته الشهيرة، اجابه بيغن على الفور:

ـ لا . . ابداً . . مطلقاً، ، ليس لاحد الحق ان يقرر سياستنا!»

وعندما اعترضت اميركا على سياسة اسرائيل التعسفية ضد العرب في الارض المحتلة، اجابها رابين:

ـ نحن نأسف للاسف الاميركي!

وعندما صدر البيان المشترك بين كارتر وجروميكو عن الشرق الاوسط عام ١٩٧٧، طار دايان الى اميركا والتقى بزعماء اليهود في «لوس انجلوس» والقى خطاباً هاجم فيه جيمي كارتر وهدد باسقاطه وهو داخل الارض الاميركية . !

لا ! نحن لانطالب العرب التشبه باليهود في محاسبة اميركا او معاقبتها، ولكننا طالبنا العرب بعدم الارتماء في احضان اميركا أو تركها هي -اميركا- تحدد لنا سياستنا، وترسم لنا خطواتنا، وتختار لنا حلفاءنا وأعداءنا، وترضى علينا متى تشاء وتحرمنا من القروض والسلاح متى تشاء . . !

نحن اجرمنا في حق اهلنا وامتنا وقضيتنا، عندما ظننا ان عداءنا للسوفيات يعني صداقتنا لاميركا . . وان صداقتنا لاميركا تعني قدرتها على حل مشاكلنا كما نشتهي ونتمنى! ان الصداقة لها ثمن، وان الثمن الذي نتوقعه منها يجب ان يتساوى مع الثمن الذي ندفعه لها . ! لقد اقمنا سياستنا مع اميركا على قاعدة وهمية ساذجة من العواطف المفضوحة واكتفينا بان نعطيها كل ما تطلبه منا من اموال بترولية، وقواعد عسكرية، ونبادلها التهاني والمحبة، ونزورها وكاننا «نحج» الى دورها المقدسة . .

ودون ان نسألها اي مقابل . .

محبة بلا ثمن . وتحالف «ببلاش» . وعمالة بلا مقابل . !

حتى وصلنا الى القاع . .

هل نعجب لماذا وصلنا الى القاع . ؟

هل كنا ننتظر أن تقوم الطائرات الاميركية المحاربة بخطف الطائرة المصرية الحليفة والصديقة ،حتى ندرك حقيقة حرص امريكا على صداقة حلفائها العرب المحافظين والمعتدلين في الشرق الاوسط ؟

من عادة العصابات الثورية ان تنتصر وتكبر وتتحول الى دول وحكومات ! ولم نسمع ان دولة كبرى تحولت الى مجرد عصابة للخطف الا في الاسبوع الاول من شهر اكتوبر من عام ١٩٨٥ !

* * *

الفصل الثاني والعشرون

اليهودي يوزن بالذهب
والعربي يوزن بالتراب

● عبارات متكررة سمعناها اثر كل حادث اغتيال للشخصيات الفلسطينية. !

● عندما يكتب التاريخ قصص ما جرى للفلسطينيين في مخيماتهم، سيخفي التاريخ وجهه خجلاً من.. العرب!

● لم يكن اللورد «موين» الانكليزي، اكثر عداء لليهود من عداوة شارون.. والحاخام كاهانا، للعرب!

● قال تقي الدين الصلح: «انا زعيم المقتولين». واذا كان لابد من زعامة القتل.. فالافضل له ان يكون: «زعيم القاتلين!»

الفصل الثاني والعشرون

اليهودي يوزن بالذهب والعربي يوزن بالتراب

في الامثال المصرية الشعبية : «اللي اختشوا ماتوا!» ويجب ان نقولها بالفم المليان ان ليس لنا، ولا للقدس ولا لفلسطين، ولا للقضية، اية علاقة بهذه الجريمة البشعة التي جرى اقترافها في مدينة «طرابلس»بلبنان !

ويجب على كل من يهمه الامر ان يسمعها بوضوح «ان انقاذ فلسطين لايتحقق عن طريق ذبح اهل فلسطين، وان خدمة القضية لايجوز عن طريق ضرب ابنائها بالصواريخ بمعدل خمسين صاروخا في الدقيقة الواحدة، وان استرجاع يافا وحيفا وبيسان لايمكن جعلها حقيقة تشبه المعجزة اذا نحن قضينا بالقنابل على اهل يافا وحيفا وبيسان في معسكرات نهر البارد، والبداوي، واننا لانستطيع ان نهاجم الذين ذبحوا اولادنا في «صبرا وشاتيلا» ما دمنا نسمح لانفسنا بذبح اولادنا في طرابلس، وان مقاومة مبادرة ريغان، او التصدي للمشاريع الاستسلامية، او الاصرار على تحرير «كل» فلسطين، او التمسك بشعار «الصمود والتصدي» . . كل ذلك لن يفيد ولن يكسب ولن يتحول الى حقيقة عن طريق الاصرار على اسقاط «ياسر عرفات» بحجة انه ـ كما يحلو لخصومه اتهامه ـ انه يكذب؟ .

يكذب؟

ولكن مقاومة الكذّاب بقتله لاتجوز! واصلاح الخطأ باقتراف الخطيئة امر لايقره المنطق! والحاق الضرر «بكل» الشعب «وكل» القضية للانتقام من فرد واحد، امر

لايرضي الله ولا الضمير ولا القضية نفسها!

وفي الماضي، في الثلاثينات، قالت «السراي» في مصر عن مصطفى النحاس باشا، انه رجل «كذاب» وعلى الفور انطلقت المظاهرات الشعبية الصاخبة في «كل» شوارع القاهرة والاسكندرية، وهي تهتف:

ـ كذاب برضه نريده! كذاب برضه نحبه! كذاب برضه معاه!

وعلى ضوء ذلك، يجب ان نعلن لكل من يهمه الامر اننا مازلنا نملك كل حقنا في اختيار «ثوارنا»، ونملك «كل» حريتنا في اختيار زعمائنا، وان «غيرنا» لن يكون اكثر حرصا على قضيتنا منا، ولا اكثر غيرة عليها من اهلها، واننا نطالب وبكل وضوح برفع الايادي عن اهلنا وثوارنا!

ثم نسأل وبكل سذاجة:

ـ هل كان ذلك الوقت العصيب بالذات هو انسب الاوقات من اجل تسديد الحسابات القديمة بين خصوم المنظمة، وقادتها؟

يعني:

في شهر نوفمبر من عام ١٩٨٣، وعندما اعلنت اسرائيل عن استدعائها للاحتياطي واعلنت التعبئة العامة وخططت للانتقام من عملية «صور» المعروفة وتشاورت مع اميركا حول الاسلوب الاكمل للانتقام الاكبر من المنظمة ومن الفلسطينيين ومن السوريين ومن العرب كلهم، اقول، هل كان يجوز ان نشغل انفسنا وفي ذلك الوقت بالذات في مثل هذا الذي جري في انحاء مدينة طرابلس؟! هل يصح فينا المثل: «الناس في هوساتهم والدب يرقص في الجبل؟» هل اصبحنا مجرد قطط يقال فيها «الناس بالناس والقطة بالخلاص»؟! هل نهزل حيث يجب الجد، ونلعب حيث يجب الضرب؟ هل نترك عدونا لكي نحارب بعضنا، ونغفل عن اسرائيل لكي ننشغل بياسر عرفات! هل نتجاهل الخطر الاكبر لكي نؤدب مواطنا ثائرا مسلما عربيا لم نعد نحبه لانه لم يعد يحبنا ولم يعد مزاجنا يتفق مع مزاجه لان مزاجنا متقلب ومزاجه متشعب ومتنوع؟ هل هكذا تكون خدمة الثورات والقضايا وانقاذ الشعوب واسترداد المقدسات والدخول الى صفحات التاريخ؟

في كل هذا الذي جرى بطرابلس- في ذلك اليوم الأسود-ليس في مايعود بالشرف ، لا على السوري ، ولا على الفلسطيني ولا على العربي ! وفي كل هذا الذي وقع في مخيمات الفلسطينيين بجوار طرابلس ، ليس فيه ذرة نفع للقضية الكبرى التي قامت من اجلها الثورة ، واحتضنتها الدول العربية وفي مقدمتها. . سوريا!

ولكي نكون في حكمنا اقرب الى المنطق والانصاف، يجب ان نسأل وبلا خوف :

- لماذا وجدت منظمة التحرير الفلسطينية نفسها في مثل هذا المأزق التاريخي، وفي تلك الايام الحاسمة؟

والجواب. . وبلا خوف ولا مجاملة :

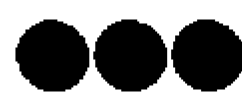
- لان المنظمة قد سمحت لنفسها ان تتحول من ثورة الى دولة، وسمحت لاقطابها بالتحول من ثوار الى وزراء، وسمحت لمكاتبها السرية في الخارج بالتخلي عن طابع السرية المطلوب وارتداء ثوب السفارات الزاهي المريح!

وكذلك :

- لان المنظمة قد سمحت لنفسها ان تتنازل عن الكلام الثوري الصريح وتتحدث بلغة المهادنة والملاطفة والمساومة والغموض، ففقدت حقيقتها ولم تكسب من الدبلوماسية اي شيء!

كذلك :

- لان المنظمة قد امعنت في التساهل مع نفسها تجاه اخطائها حرصا على وحدتها، فكبرت الاخطاء ولم تقدر المنظمة ان تصون هذه الوحدة. ! لقد انطلقت الهمسات حول تصرفات بعض «الثوار» وقيلت القصص والاشاعات حول بعض اسماء الكبار والصغار، ولعل قيادة الثورة قد تعمدت ان تتساهل او تتجاهل هذه القصص حرصا على عدم السماح بالتصدع والخلافات، وهنا كان الخطأ الاكبر. . فقد شجع التجاهل على المزيد من الاخطاء، وشجعت الاخطاء على المزيد من التحدي. وكانت الكارثة!



وأنا أعلم، ككل عربي، أن المهم في هذا الصراع الدائر بين سوريا والمنظمة، وبين المنظمة مع بعض اجنحتها، وبين أنصار ياسر عرفات وخصومه، أن العنصر

الاهم في الموضوع ليس شخص ياسر عرفات، بقدر ما هي المنظمة نفسها، وأن المنظمة ـ على عظمة اهميتها ـ ليست في اهمية القضية نفسها!

● وانا اعلم، ككل عربي، أن «أحمد الشقيري» ـ رحمه الله ـ عندما قرر الاستقالة من قيادة المنظمة في القاهرة، انما فعل ذلك حرصا على المنظمة، وعلى علاقتها ـ يومذاك ـ مع الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر! قال لي «أحمد الشقيري» في منزله بالزمالك بالقاهرة عشية استقالته من رئاسة المنظمة:

ـ وعندما قرأت في «الاهرام» خبر «اتساع الخلاف» في المنظمة منشورا على ستة اعمدة، أدركت ان الرئيس عبد الناصر هو الذي أمر بالنشر، وانه يقف وراء الخلاف، فقررت الاستقالة. !»

وليس احمد الشقيري وحده، هو الذي يضع مصلحة المنظمة فوق مصلحته الشخصية، ويحرص على حسن علاقة المنظمة بالزعماء العرب قبل ان يحرص على حسن علاقته الشخصية مع المنظمة! ان كل فلسطيني مخلص لا تهمه نفسه بقدر ما تهمه قضيته، ولا يهمه «الكرسي» بقدر ما يهمه النصر، ولا يفكر بالزعامة بقدر ما يفكر بضمان استمرار التعاون المثمر القوي بينه وبين بقية اخوانه من القادة العرب! ونحن كفلسطينيين نعتبر انفسنا ـ جغرافيا ـ بمثابة الجزء الجنوبي من سوريا! ونحن كفلسطينيين نعتبر انفسنا ـ كثوار ـ جزءا من الثورات العربية الباقية في اي جزء من الوطن العربي! ان الفلسطيني يعجز عن ان يحارب الصهيونية « العالمية» الا بعروبة عالمية معاكسة! ان فلسطين لا تعود على يد اهلها وحدهم، وانما على يد كل عربي وكل مسلم! لذا فان الفلسطيني ـ ثائرا او غير ثائر ـ يبقى دوما بحاجة الى مساعدة اخوانه العرب والمسلمين في سائر انحاء الارض لكي يتعاون معهم على اليهودية العالمية المتفشية في انحاء الارض. وان الفلسطيني ـ هذا الفلسطيني بالذات ـ يبقى دوما أول من ينادي بضرورة ان يذوب الشخص في جسد الامة، ويتضاءل الفرد تجاه المجموع، ويفنى الجزء لحساب الكل. . .

وياسر عرفات نفسه اول من يؤمن بهذه الحقائق ويعتنقها بصدق.

ولكن ابو عمار نفسه، وكلنا معه، لانرضى ان يفرض علينا ـ من الخارج ـ حلا يتعلق بنا او بزعاماتنا او بمصيرنا. نحن لا نريد أن نتحول الى هيئة عربية عليا. .

نحن لا نريد ان نصبح مجرد «اقسام» في وزارات الخارجية لبعض الدول العربية.

نحن لا نريد ان تصبح «قوى الثورة» مجرد كتائب مسلحة في اي جيش عربي غير فلسطيني.. !

نحن لنا هويتنا ، ولنا شخصيتنا، ونحن نحرص بالدم على هذه الهوية وعلى هذه الشخصية.

نقول هذا، جنبا الى جنب، مع كل ما قلناه في بدء هذا الحديث. !

ونقول كذلك:

أن من يقرر بقاء ياسر عرفات او ذهاب ياسر عرفات هو شعب فلسطين وحده، لا دمشق ولا بيروت ولا بغداد ولا الرياض ولا تونس، ولا عدن.. ولا موسكو!

ونقول كذلك:

ـ أن الشعب الفلسطيني المثقف الواعي، يعتبر نفسه قد تجاوز المرحلة التي يحق لبعضهم اعتباره «قاصرا!» او يرى البعض حقهم في زج انوفهم داخل اموره وقضاياه! ثم نقول كذلك:

ـ وعلى ضوء كل ذلك، فأن هذا الشعب الواعي ـ بالثورة وخارجها ـ قادر وحده ان يقول لابو عمار، ابق او اخرج، او استقل، او اترك، أو حارب حتى الموت! وأن يقول ذلك بكل راحة، ووضوح، وثقة، وطمأنينة، بلا خوف ولا دجل!

ثم نأتي الى بقية الحديث..

كنت دوما أسأل نفسي:

ـ لماذا تحولت الثورة الى دولة او حكومة؟ لماذا تحول اقطاب الثورة الى خطباء ودبلوماسيين؟؟ لماذا انشغلت الثورة بالمظاهر وهجرت «الجواهر»؟ لماذا الاصرار «الثوري» على نشر اخبار الرحلات والتنقلات والمقابلات مع الصور والتفاصيل؟ وما فائدة الالقاب المقرونة «بأبي فلان» وأبي «علان»، ما دامت الاسماء معروفة ومنشورة جنبا الى جنب مع اللقب المختار. ؟

وقلت لنفسي طيلة العامين الماضيين:

ـ قد لا نقدر على ان نمسح اسرائيل من خريطة الشرق الاوسط، ولكن علينا أن

نتأكد من ان اسرائيل لن تعرف طعم الراحة او الهدوء يوما واحدا في تاريخها القادم! وقد لانتمكن من نسف الكيان الاسرائيلي بأكمله، ولكن علينا ان نشق في جدار الكيان الاسرائيلي شروخا واضحة تحمل للعالم كل معاني وجود الانقسام والصراع الداخلي بين رجالات الكيان الاسرائيلي واقطابه! لقد هزت قضية لبنان في خلال عام واحد جدار اسرائيل من أساسه واحدثت فيه من الشروخ ما لم تستطع الثورة الفلسطينية أن تحدثه طيلة عشر سنوات كاملة. لقد تحول الغزو الاسرائيلي للبنان الى كارثة اسرائيلية واطاح «بمناحيم بيغن» وخلق الانقسامات «الشارعية» وكشف عن حقيقة ونوايا الصهيونية وعرى اليهود كما خلقهم ربهم، واخرج «شارون» من وظيفته الوزارية مطرودا واوجد الخلاف بين فئات اليهود في داخل اميركا! ومن خلال الضربات السرية المجهولة التي وجهت الى مقر «المارينز» ومقر الجنود الفرنسيين ومقر الحاكم العسكري الاسرائيلي في «صور» تحققت المعجزات النفسية والسياسية التي لم تستطع الثورة الفلسطينية ان تحققها بالعمل الفدائي «العلني» المعلن عنه بالبلاغات الرسمية والاذاعات المختلفة! فالمهم ان تقع الضربة ضد اعدائنا وليس المهم من الذي وجه تلك الضربة! ان المهم ان يصرخ اعداؤنا ويقولون: «آه!» وليس المهم ان يفرح صاحب الضربة ويقيم الافراح والليالي الملاح! وعندما تعود الثورة الى سابق سريتها، تعود اليها سابق أمجادها...!

● ومن طبيعة الثورات، بل من شمائلها الرفيعة الاصيلة ان لا تجنح الثورة الى المبالغات ولا تميل الى التهويل ولا تجافي الحقائق ولا تخترع المعجزات..!

فالمعروف ان عملية غزو اسرائيل للبنان كانت كارثة على العمل الفلسطيني الثوري! وقد جاءت الاخبار وتطورات الاحداث لكي تثبت صحة هذا القول الذي كتبناه بالقلم العريض اثر خروج الثورة من بيروت.

ولكن بعضهم أراد ان يقلب الحقيقة ويصور الهزيمة وكأنها «النصر» ويرفع يده - متشبها بتشرشل - علامة الانتصار! وقد يكون صحيحا ان الثورة قد صمدت ابان حصار اسرائيل لبيروت، وقاومت، وتعرضت للقصف والضرب والغارات والصواريخ بشجاعة وايمان. ولكن الصحيح ايضا ان الثورة لم تنتصر في حرب لبنان وان اميركا وحدها ومعها الذيل الصهيوني الذليل المعروف، هي التي

انتصرت!

وقد يكون في الوصف الدقيق الذي سمعته شخصيا من الصديق المجاهد «ابو السعيد» في هذا المجال ما يصور الامور على حقيقتها ويسمي الاشياء بأسمائها الحقيقية، اذ قال لي «ابو السعيد» خلال لقائنا في الرياض:

«. . . قد يكون خروج الثورة الفلسطينية من بيروت يحمل معنى النصر، ولكن نتيجة غزو اسرائيل للبنان وما نتج عنه من خروج الثورة من لبنان، كل هذا لانعتبره نصرا وانما نعتبره هزيمة».

● وفسر ابو السعيد كلامه قائلا:

- «في الاسلوب» الذي خرجت به الثورة من بيروت نرى بعض النصر، ولكن في الخروج نفسه لا نرى الا الهزيمة. .

ترى، وانصافا للتاريخ والحقيقة، هل كانت هذه الثورة الفلسطينية تحمل - وحدها - مسؤولية مثل هذه الهزيمة ووزرها؟

ام ان غيرها من العرب ومن الدول العربية تشاركها في المسؤولية؟!

وهل كان من المفروض على الثورة الفلسطينية أن تواجه اساطيل اميركا وطائراتها ودباباتها واحدث اسلحتها المعطاة لاسرائيل، وحدها، دون أن تبادر دولة عربية واحدة الى مساعدتها وشد أزرها؟

● والسؤال الكبير هو:

- هل كانت معركة بيروت، هي معركة فلسطينية تتعلق بمستقبل ووجود منظمة التحرير الفلسطينية أم ان هذه المعركة كانت معركة عربية تتعلق بوجود ومستقبل «معظم» دول منطقة الشرق الاوسط من العرب والمسلمين؟؟

● وعلى ضوء الجواب الصحيح على هذا السؤال، يحق لنا ان نتهم او نبرىء ياسر عرفات من مسؤولية هزيمة «العرب» في حرب لبنان. . !

وبعد. . .

ان كل طفل فلسطيني وكل طفلة عربية، أكاد اسمع صوته، وصوتها، وهما يسألان اهلهما في دهشة الاطفال وذكائهم وحيرتهم في تلك الايام:

- هل يجوز ان ينصرف العرب الى قتل بعضهم في طرابلس والبقاع، بينما

اسرائيل تخطط للمزيد من الحرب وبينما أميركا تستعد للمزيد من الانتقام وبينما المنطقة بأسرها على كف عفريت ؟ !

● أكاد اسمع اطفال العرب يتساءلون في تلك الايام :

ـ هل يجوز ان تتعرض الثورة الفلسطينية للفناء بينما ريغان. . . ووانبرغر. . وشولتز. . وشامير. . وارينز. . وكل عدو للعرب يتحدث عن الضربة القادمة ومتى ستقع، واين ستقع، وضد من ستقع؟

● أكاد اسمع كل أولادنا يصرخون في وجوهنا بكل يأس وغضب وألم :

ـ لماذا نلبس السواد ونعلن الاضراب ونلعن «وعد بلفور» الذي صدر منذ ٦٧ سنة ، ونحن لا نفعل ولا نتصرف ولا نفكر الا بكل ما يخدم «وعد بلفور» ويسعد دولة اسرائيل ويضمن مصالح اميركا !

● في عام ١٩٣٦ اعلن الفلسطينيون اضراب الشهور الستة ضد الانتداب البريطاني ، فتدخل بعض زعماء « العرب » وأمروا بانهاء الاضراب وتعهدوا للفلسطينيين بضمان حقوقهم .

وكانت كاثة. . . !

● وفي عام ١٩٤٧ صدر قرار التقسيم ، وتدخل بعض زعماء العرب ونصحوا الفلسطينيين بضرورة رفض قرار التقسيم .

ورفض الفلسطينيون قرار التقسيم، وكانت كارثة!

● وفي عام ١٩٤٨ قرر العرب الدخول الى فلسطين بجيوشهم واسلحتهم من اجل «تأديب العصابات اليهودية ونصرة شعب فلسطين» .

وبعد اسابيع اعلنت الهدنة الاولى، ثم الهدنة الثانية واختلف العرب. . ودفع الفلسطينيون الثمن!

وكانت كارثة!

● وفي اواخر الخمسينات حاول قادة بعض الجهات الفسطينية الفدائية ان يتسلل الى اسرائيل من «غزة» ، ومن الضفة الغربية للقيام بأعمال ثورية ضد الكيان الاسرائيلي وتدخل بعض العرب والقوا القبض على هؤلاء الفدائيين وزجوا بهم في سجون غزة. . وغير غزة !

وكانت كارثة!

● ودخل العرب حرب ١٩٦٧ فضاعت بقية فلسطين، وضاعت القدس، وضاعت غزة! ودفع الفلسطينيون الثمن.

وكانت كارثة!

● وبعد ١٧ سنة وبضعة شهور على قيام الثورة الفلسطينية المسلحة ضد اسرائيل، لم يعدم الفلسطينيون من يتصدى لهم ويطحن صفوفهم ويحاربهم بأسم المصلحة.. العربية!

وكانت كارثة الكوارث!

وبينما كان جو الحرب يخيم على المنطقة، وأساطيل اميركا تبحر الى شواطئنا، واسرائيل تعلن التعبئة العامة، ولاونالد ريغان يرسم طريق الانتقام، وجدنا انفسنا على شواطىء طرابلس نتحارب عند نهر البارد، والبداوي، ونملأ الدنيا صراخا وضجيجا بين انصار عرفات وخصوم عرفات.

وما هكذا ـ يا ناس ـ تورد الابل.

والذين يظنون ان مقتل عرفات سيعيد «القدس» انما يقتلون عرفات ويقتلون القدس معا!

وكان ذلك في النصف الاول من شهر نوفمبر، من عام ١٩٨٣. وأشهد ايها التاريخ.!

وبعد...

لماذا يوزن اليهودي العادي بميزان الذهب، ولايوزن اي عربي، إلا بميزان التراب؟

لماذا تقوم الدنيا ولا تقعد عندما يسقط اليهودي الفرد برصاص العرب، ولا يتحرك احد عندما يسقط في حرب لبنان خمسون الف فلسطيني، ويذبح في مخيمات صبرا وشاتيلا ثلاثة آلاف فلسطيني، وتتحطم مباني معسكرات اللاجئين في طرابلس فوق رؤوس سكانها من اللاجئين الفلسطينيين، وتغتال المخابرات الاسرائيلية رجالات المنظمة في لندن، وباريس وروما واثينا وقبرص؟ لماذا؟

وكلما اغتالت أجهزة اسرائيل، مسؤولاً فلسطينياً، بادر المتحدث بلسان منظمة

التحرير لكي يعلن على العرب وعلى العالم باسره، ان «الثورة ستأخذ بالثأر». . وان «لهذا اليوم ما بعده»، وأن «دم الشهيد لن يضيع سُدى. . » . . وان العدو سيدفع الثمن غالياً. . »! الى آخره!

ثم تمضي الأيام، و«لا» تأخذ الثورة بالثأر. . و«لا» ترغم العدوّ على ان يدفع ثمن جريمته «غالياً»! وتنسى الثورة. وينسى الناس!

ولو كان العدوّ يعلم سلفاً ان الثورة قادرة على ان تنتقم، وان تأخذ بالثأر، وان تقبض الثمن، لكان يتردد كثيراً قبل ان يرسل عملاءه من تل ابيب الى عواصم اوروبا لاغتيال رجال المنظمة ونسف دورهم ومكاتبهم. !

لعل اسرائيل قد اصبحت تشعر بالأطمئنان والسلامة وانعدام الخطر على رجالاتها في الخارج، الأمر، الذي جعل رجلًا ارهابياً مثل الوزير «اريل شارون» يقضي ثمانية أشهر في نيويورك وهو يتنقل بين فندقه وقاعة المحكمة التي كانت تنظر في دعواه ضد مجلة «تايم» الاميركية، بلا حراسة، وبكل راحة واطمئنان، وخطوات استعراضية!

ويسافر الى اميركا مع كل شهر، الأرهابي الحاخام «كاهانا» ويتنقل في عواصم أوروبا، حراً طليقاً، ولايناله بالأذى أحد!

وفي اوائل الاربعينات، ولم تكن اسرائيل قد أصبحت دولة بعد، ذهب وفد من عصابة «شتيرن» اليهودية، وعلى رأسها «اسحق شامير» واغتالت اللورد «موين» البريطاني في منزله «بالمعادي»، بمصر، وتخلصت من اكبر دبلوماسي بريطاني اشتهر بعدائه للصهيونية!

ويشهد الله، ويعرف التاريخ، ان «اللورد موين» البريطاني لم يكن اشد عداوة لليهود، من عداوة شارون، او الحاخام «كاهانا» او اسحق شامير، للعرب. !

إن الثورة لاتقدر ان تكون ثورة، وحكومة في آن واحد. وعلى الثوار الاختيار: بين الصراع المسلح ضد اعدائهم، أو الجلوس على موائد المفاوضات بألالبسة الرسمية والقفازات البيض والابتسامات التلفزيونية.

على الثوار الاختيار بين الحرب الدموية، او الراحة والتصريحات الصحفية. !

وقد اراد صديقنا السياسي اللبناني المشهور «تقي الدين الصلح» ان يرسم صورة

دبلوماسية مؤدبة للحال الذي وصلت اليه اقلية السنّة الاسلامية في لبنان فقال ذات يوم: انه «زعيم المقتولين»!

ومع تقديرنا لكل الذكاء الكامن وراء كلام تقي الدين بك، كنا نتمنى ان يكون كل مسلم، زعيماً لا للمقتولين، وانما للقاتلين. إذا كان لابد من الزعامة، ولابد من القتل». .

هكذا أمرنا قرآننا: «وقاتلوهم كما يقاتلوكم»

وهكذا تأمرنا كرامتنا وكبرياؤنا وتاريخ معارك ديننا.

وهكذا هي شريعة العصر. .

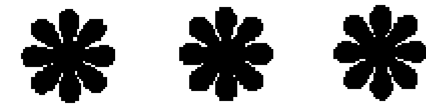
ولكن. ؟

لعلهم قرأوا حكمة «ابي العلا» مع العصافير:

- استضعفونا، فذبحونا. .

ترى، متى يتحول العصفور الى صقر؟

متى ؟ !



الفصل الثالث والعشرون
القضية الكبرى بقيتْ صُغرى ... بقيتْ يتيمةً!

● دار حديث بين مصطفى النحاس باشا، وبين رياض بك الصلح عن الفرق بين الاقباط في مصر، واليهود في فلسطين..

● ماذا قالت أم كلثوم للرئيس عبد الناصر صباح يوم الأنفصال بين مصر وسوريا؟

● «موسى العلمي» ـ زعيم صادق من أرض فلسطين ـ يروي جانباً من المأساة التي سبقت وقوع النكبة..!

الفصل الثالث والعشرون
القضية الكبرى بقيتْ صُغرى ... بقيتْ يتيمة !

في أحد الأجتماعات التمهيدية التي سبقت عملية التوقيع على «بروتوكول» الأسكندرية والتي سبقت إنشاء جامعة الدول العربية في عام ١٩٤٥، قال الزعيم المصري الكبير «مصطفى النحاس» للزعيم اللبناني الكبير «رياض الصلح» في معرض الحديث عن قضية فلسطين:

ـ ليه يا «رياض بيه» لايجري بين العرب واليهود في فلسطين ما يجري بين المسلمين والأقباط في مصر؟.

وفتح رياض الصلح فمه دهشة وسألة:

ـ وماذا يجري بين المسلمين والأقباط في مصر يا «رفعة الباشا»؟

وأجاب زعيم مصر:

ـ سمن وعسل! صلح وسلام! تفاهم وتعاون! لا في قتل ولا في ضرب ولا في خناقات. !»

ثم اضاف متسائلا:

ـ لماذا لا يعيش عرب فلسطين مع اليهود كما يعيش أقباط مصر مع المسلمين؟!»

وبقية القصة ان المرحوم رياض الصلح راح يشرح لمصطفى النحاس تاريخ الصراع العربي اليهودي وكيف ان اليهود قد جاءوا الى فلسطين في هذه المرة كفاتحين وغازيين ومستعمرين، وبايديهم كتب «ثيودور هرتزل»، وتعاليم «جابوتنسكي»،

وأموال اغنياء يهود العالم، وفي ركابهم انواع الدسائس والفتن والمؤامرات؛ وامامهم الهدف الاكبر بانشاء دولة يهودية فوق ارض فلسطين، تنسجم مع مبادىء الصهيونية التوسعية التي تنادي بفرض الهيمنة اليهودية ـ من النيل الى الفرات ـ على شعوب المنطقة بأسرها، وتوظيف الخبرة اليهودية لانشاء المصانع وبناء المستعمرات، وغزو الأسواق العربية والتحكم بمصير المنطقة الى ألف سنة قادمة. !

وقال رياض الصلح لصديقه مصطفى النحاس باشا:

ـ وهكذا ترى يا باشا ان الصراع بين العرب واليهود في فلسطين ليس صراعاً دينياً وانما هو صراع سياسي يختلف تماماً عن الأختلاف الديني المعروف بين مسلمي مصر واقباطها. ان المسلم المصري لايريد ان يطرد القبطي المصري من أرضه وبلده. ولكن اليهودي يريد ان يطرد العربي الفلسطيني من ارضه وبلده. إن المسلم المصري لايزعم ان مصر تخصه وحده وان على القبطي ان يرحل عنها. ولكن اليهودي في فلسطين لايرى مكاناً للعربي فوق ارض ابائه وأجداده! ان القبطي لا يشكل خطراً على العرب في خارج مصر ولا في داخلها، ولكن اليهودي يحمل في ذاته «كل» اسباب الخطر على كل عربي في داخل فلسطين وفي خارجها!. . »

«..ومن هنا ترى يا صديقي رفعة الباشا ـ ان محاربة الصهيونية ليست قسراً على الفلسطيني وحده، وانما هي واجب مفروض على كل مسلم وكل عربي في العالم.. »

ومضت الأيام. وقامت على ارض مصر مؤسسة عربية شاملة اسمها: «جامعة الدول العربية». وبدأ العرب يزورون مصر ويتعرفون على حياتها وسياستها واهلها وقضاياها، كما بدأ المصريون يزورون العواصم العربية ويقرأون صحفها ويتعرفون الى زعمائها! ولم يعد المصري يصف الدول العربية كما اعتاد بالأمس بانها الدول «الشرقية». ولم يعد زعماء مصر يرددون عبارة «سعد زغلول» عن الوحدة العربية بانها «صفر زائد صفر فالنتيجة هي صفر»! وأقام «فاروق» حفلات غنت فيها أم كلثوم قصائد «محمد الأسمر» التي يتغنى فيها بالعرب وبالعروبة. وبدأت «الأهرام» تنشر مقالات لكاظم الصلح، وتقي الدين وحميد فرنجية وتقلا وجميل مردم والجابري، وصالح جبر، يعالجون فيها قضايا العرب! ولم تعد سياسة العروبة وقفاً على مجموعة صغيرة من المصريين من أمثال صالح حرب، وفؤاد اباظه، وحسن

البنا، وعبد الرحمن عزام، وعلوّبة باشا. وانما اتسعت حلقات «العروبيين» في مصر، وتضاعف عددهم وظهر نشاطهم. وعندما جاءت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ كان الرأي العام المصري قد أصبح مهيئاً كي يساند «النقراشي باشا» في قراره بأرسال جيش مصر لمحاربة اليهود في فلسطين، كما كانت مصر قد بدأت تدرك واجبها القومي وانتماءها العربي ودورها القيادي في معركة العرب ضد الصهيونية.

ولكن..؟!

ما ان انتهت حرب ١٩٤٨ بالهزيمة العربية الكبرى على يد اسرائيل، حتى ظهرت عشرات من الأقلام المصرية تطالب المسؤولين بغسل اليد من العرب والعروبة والالتفات الى قضايا مصر وحدها! وكادت ان تحقق تلك الأقلام هدفها الأقليمي الضيق لولا ان قامت ثورة ٢٣ يوليو بقيادة ضباط سبق لهم وحاربوا في ارض فلسطين وادركوا ابعاد الصراع العربي الاسرائيلي على حقيقته..

واستطاع جمال عبد الناصر ان يفرض العروبة على شعب مصر، بحد السيف ـ إن صح التعبير! وكان شعب مصر يقول بانه لايحب زعيمه الا لأن الشعوب العربية التي هي في خارج مصر، تحبه! وعندما راح عبد الناصر يغني «موال» فلسطين، وجد جماهير الأمة العربية تقف وراءه وتؤيده وتبايعه بالزعامة المطلقة وتفتديه بالدم! وعندما حصل عبد الناصر على صفقة السلاح التشكوسلوفاكي ـ لاول مرة ـ هتف العرب بحياة تحرير فلسطين اعتقاداً منهم بان أي سلاح تشتريه مصر لجيشها انما هو «عربون» المعركة القادمة من اجل تحرير فلسطين!

ومن اجل فلسطين بارك العرب التقارب المصري ـ السوفياتي وهتفوا بحياة خروتشوف، وبولجانين، واندريه جروميكو..!

ومن أجل فلسطين قامت الوحدة بين مصر وسوريا، وجاء زعماء العراق الى دمشق وقابلوا عبد الناصر على شرفة قصر الضيافة هناك وسمعتهم باذني يقولون له بلسان «صديق شنشل» وفائق السامرائي:

ـ العراق باسره ملك يديك....!

وعندما ذهب عبد الناصر الى نيويورك والقى خطابه التاريخي في الأمم المتحدة

وقابل «ايزنهاور» ، قال كل عربي لنفسه ولمصر ولفلسطين، ان عبد الناصر «مفوض» لحل القضية كما يشاء، وكيفما يشاء، وانه ينطق باسم كل فلسطيني وباسم كل عربي . . !

وقال الخبثاء يومذاك ان مصر قد امتلكت «الورقة العربية» «لا» لكي تحل قضية فلسطين، وانما لكي تحل قضايا مصر السياسية، والاقتصادية والغذائية، على حساب العرب وعلى حساب فلسطين، وباسم العرب، وباسم فلسطين. . ايضا!

وقال الخبثاء يومذاك ، كذلك، ان «جمال» قد أصبح مشغولاً بتأمين وصول القمح والمعونات الغذائية والمالية من اميركا اكثر من انشغاله بتأمين عودة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم . . !

ثم قال الخبثاء كذلك، ان عبد الناصر قد ارتفع الى مستوى عالمي رفيع، وارتبط بصداقات عظيمة مع امثال نهرو، وتيتو، وزعماء الحياد في العالم الثالث، الى الحد الذي شغله عن الالتفات الى قضايا مصر الداخلية، او قضية فلسطين، او أية قضية عربية أخرى، وان قضايا العالم الواسعة المتشعبة هي التي استحوذت على وقته وعلى تفكيره. . وعلى طموحاته!

وعندما وقع الانفصال بين الأقليم الشمالي ـ سوريا ـ والأقليم الجنوبي ـ مصر ـ سمعت السيدة «ام كلثوم» في منزل جمال عبد الناصر «بمنشية البكري»، تقول له على مسمع من الحضور بأسرهم، وبينهم الموسيقار «محمد عبد الوهاب»، وبالحرف الواحد:

ـ أنا جايه أهنئك يا سيادة الرئيس لأنك خلصت من أولاد الكلب. . دول. ؟»

ترى من هم اولاد الكلب. ؟

هل هم الذين ثاروا على الوحدة مع مصر ودبروا الانفصال بعد ان رأوا ان «وحدتهم» تلك لم تحقق لهم واحداً من أمالهم، ولم تعد لاجئاً واحداً الى فلسطين ولم تمنح سوريا ذرة من أحلام الانتعاش الأقتصادي او التطور الصناعي؟

هل هم سكان دمشق الذين حملوا سيارة عبد الناصر على اكتافهم ومشوا بها من قصر الضيافة الى المسجد الأموي وظنوا ان قيام الوحدة، بزعامة مصر، كفيلة باسترجاع أيام «حطين» وصلاح الدين. ؟

هل هم سكان «حلب» الذين تحملوا من «طيش» عبد الحكيم عامر، ومن صراعاته ضد «عبد الحميد السراج»، ما لايقدر ان يتحمله بشر بانتظار ان تهدأ الأمور وتبدأ جولة الحق على أرض الجبهة؟

لقد تبين للعرب كلهم، وللدنيا بأسرها، ان مفهوم الوحدة عند حكام مصر، وعند حكام سوريا، في ذلك الزمن، كان مفهوماً خاطئاً وانانياً، وذاتياً، وجاهلاً، ومجهولاً، وان فلسطين او محاربة الصهيونية العالمية، او مقارعة الاستعمار والأمبريالية الدولية. لم يكن لأية منها أي مكان في مفهوم تلك الوحدة النبيلة. !

وعندما قامت اسرائيل تحارب تلك الوحدة في بدء قيامها ظناً منها انها تشكل خطراً على امن اسرائيل وكيانها، قيل لها - لاسرائيل - بلسان اكثر من لبناني «معروف»، واردني مشهور، ومصري «معارض»، ان تلك الوحدة لن تهدد الكيان الاسرائيلي، لأنها. . لن تعيش!

وهكذا تحطمت اكبر وأنبل تجربة عربية قومية في العصر الحديث، على صخور الجهل والأنانية وقصر النظر! وهكذا اثبت العرب ان مناصبهم ولهوهم والقابهم ومشاعرهم الأقليمية الضيقة، تسبق احساسهم القومي أو غيرتهم على فلسطين او تمسكهم بالوحدة كوسيلة مرجوة لانقاذ الوطن السليب! وبدلاً من ان تصبح «الوحدة» المذكورة المقدمة المطلوبة لايجاد الحل العادل للمأساة الفلسطينية، اذ بها تتحول الى روايات متصلة ومستمرة في القاء الخطب، وتوجيه الشتائم والاتهامات، واثارة الطوائف في لبنان، واثارة الغيظ لحكام الأردن، واستجداء التصفيق والهتاف، وصب اللعنات على الملك سعود، واحالة جميع زعماء سوريا القدامى، ورجالاتها واصحاب المال والأرض فيها، الى المعاش، والى العدم!

وبقيت القضية «الكبرى»، مجرد قضية ثانوية، تعيش على هامش الاحداث، وتعجز عن ان تتصدرها او تحركها أو تتزعمها.

بقيت فلسطين، يتيمة. .

ترى، هل كان كل هذا الحال المأساوي المؤسف، مفاجأة لنا، او للذين يعرفون. . ؟

اني ما زلت اذكر حتى هذا اليوم تفاصيل ما سبق وسمعته باذني في اولى

اجتماعات مجلس الجامعة العربية عام ١٩٤٥ ، وكنت سكرتيراً لوفد فلسطين الى ذلك المجلس برئاسة الزعيم الفلسطيني الكبير الراحل السيد موسى العلمي.

وقبل ان أسرد ما سمعته بنفسي في ذلك الأجتماع، أسمح لنفسي ان أقتبس فقرات لموسى العلمي ـ بالذات، كان قد كتبها قبل ان تضيع «بقية» فلسطين وقبل وقوع حرب الأيام الستة، اي ان موسى العلمي قد كتب ما كتب في آذار ـ مارس ١٩٦٦ ، فقال يتحدث عن قصه مولد الجامعة العربية :

«. . . أخذ رجال العرب في التداول فيما بينهم ابان الحرب العالمية الثانية والبحث عن انجع السبل التي ينبغي ان تسير عليها الحركة العربية بعد الحرب. فكانت هناك مشاورات واجتماعات بين زعماء العرب من سائر الاقطار اهمها سلسلة من اجتماعات غير رسمية في ربوع لبنان، ثم تلتها اخرى من مشاورات رسمية في القاهرة دعت اليها الحكومة المصرية سائر الحكومات العربية كل منها على حده. وقد نتج عن هذه الابحاث ان قرر العرب ان يجتمعوا في مؤتمر لوضع الاسس لوحدة عربية. وبالفعل اجتمعت وفود الدول العربية في ٢٥ ايلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٩٤٤ في الاسكندرية في مؤتمر عرف فيما بعد بمؤتمر الاسكندرية مع ان اسمه الحقيقي كان «اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام» واشترك فيه مندوبون عن مصر وسوريا والعراق ولبنان وشرقي الاردن والسعودية واليمن. اما فلسطين فلم تدع لهذا الاجتماع مع ان قضيتها من صميم القضايا العربية، بل انها اكثرها خطورة وابعدها مدى في التأثير على مستقبل العرب وعلى كرامتهم وعلى امكانية تكتلهم وجمعهم في وحدة شاملة. غير ان ذوي الرأي في فلسطين رأوا خلاف رأي الدول العربية وصمموا على ارسال وفد لهذا المؤتمر لكي يوضح لرجال الدول العربية حقيقة الموقف وليؤكد لهم انه لن تكون هناك وحدة اذا لم تكن فلسطين في صميمها وان اهمالهم دعوتها للمؤتمر قد يفسر في الخارج على انه اقرار من الدول العربية بان فلسطين ليست عربية وان امرها ومستقبلها لن يثير في العرب اي اهتمام. وبعد التشاور فيما بينهم قررت احزاب فلسطين الستة ارسال وفد للاسكندرية لينوب عنها في اقناع الدول العربية بضرورة اشتراك فلسطين في المؤتمر ثم في الدفاع عن قضيتها فيه. وقد شرفني اخواني رجال فلسطين بالثقة التي اولوني اياها بانتدابي لتمثيلهم في

مؤتمر الاسكندرية. فتوجهت اليها وبعد جهد وعناء وتذليل صعوبات لم تكن في الحسبان تمكنا من اقناع المؤتمر بقبول وجهة نظر عرب فلسطين. فاشتركت في ابحاث المؤتمر ودافعت عن قضيتنا ضمن حدود ميثاقنا القومي. وكانت نتيجة ذلك، ان وضع عام ١٩٤٤ بروتوكول الاسكندرية وفيه «عهد» الدول العربية لانقاذ فلسطين وسيقرر التاريخ في المستقبل ما اذا قامت الدول العربية بهذا العهد...».

انتهى كلام الزعيم الراحل موس العلمي.

وكان تاريخ ذلك -كما اوردت- في مارس عام ١٩٦٦، وبعد «١٥» شهر فقط وقعت حرب الايام الستة، وضاعت بقية فلسطين بدلاً من انقاذ نصفها الضائع منذ عام ١٩٤٨.. وراحت اسرائيل تزرع أرض الضفة والقطاع بالمستوطنات اليهودية بحجة انها انما تستغل الأراضي الحكومية -الميري- والتي لاتخص احداً وانما تخص الدولة البريطانية ايام الانتداب ثم الدولة الاردنية منذ عام ١٩٤٩. !

وعدت وتذكرت ما سبق لي وسمعته بأذني عندما رافقت «موسى العلمي» الى مباحثات الجامعة العربية وما دار في الجلسة السابقة يوم ٥ تشرين الاول ـ اكتوبر ـ من عام ١٩٤٤ حول مشروع انقاذ اراضي فلسطين قبل ان تضيع للعدو. «في ذلك الاجتماع اقترح «موسى العلمي» ـ باسم عرب فلسطين ـ تأسيس صندوق قومي عربي عام تشترك فيه جميع البلدان العربية وتشرف على ادارته، فتوقف للعرب كما يوقف اليهود لليهود اراضي فلسطين الباقية لتبقى الى ابد الابدين في ايدي العرب.

وهنا، سأله نجيب الهلالي باشا رئيس وفد مصر قائلاً:

ـ ماهو رأس المال المقدر لهذا الصندوق حتى يقاوم الصندوق اليهودي؟

واجاب موسى العلمي قائلاً: «ان ما يلزمنا لانقاذ الاراضي اقل بكثير مما يلزم اليهود لشرائها. نرى انه يلزمنا ميزانية سنوية بمليون جنيه لمدة خمس سنوات.. فالارض التي تشترى توقف وقفاً صحيحاً على العرب ثم تؤجر الى المزارعين الذين كانوا فيها، وايجارها هذا يدخل الصندوق القومي..»

وقال رئيس الجلسة انه تأثر كثيراً بكلام مندوب فلسطين.. «وما كنت اظن ان الحالة خطرة الى هذا المدى.»!

وقال السيد «حمدي الباجه جي» مندوب العراق: «اننا حقاً قد تأثرنا. . !»

وقال «موسى العلمي» بالحرف الواحد، وهذا كله مُسجّل في دفاتر الجامعة العربية ومحاضرها:

ـ اذا عملت الدول العربية الان، ولو بعد ان ضاع علينا قسم كبير من البلاد، فانه يمكننا ان نحتفظ بالبقية الباقية من الاراضي. اما اذا خرجنا منها فلن نتمكن من الرجوع اليها. . وبالرغم من ان المليوني دونم التي بايدي اليهود الان هي اخصب اراضي البلاد، الا اننا قانعون برؤوس الجبال وبوعورها اذا ساعدتمونا على ذلك. . .»

وانتهت الجلسة. .

واحيل اقتراح مندوب فلسطين الخاص بمساهمة الحكومات والشعوب العربية لانقاذ اراضي العرب في فلسطين، الى لجنة الشؤون الاقتصادية والمالية لتبحثه من جميع وجوهه. .»

وكان هذا ـ كما قلت ايضاً وايضاً ـ في اكتوبر ١٩٤٤.

وفي عام ١٩٦٦، كتب موسى العلمي نداءاً الى العرب تحت عنوان: «للتاريخ». قال فيه:

«يؤسفنا ان نسجل ان القرارات المختلفة التي صدرت بتأييد فكرة المشروع الانشائي العربي لانقاذ اراضي فلسطين وبتمويلها لاجل تحقيق اهدافها. . لم تحقق»!

ومات موسى العلمي ولم يصله من ملايين العرب التي طالب بها لانقاذ بقية فلسطين سوى مبلغ ثلاثمائة الف دينار عراقي تبرعت به حكومة صالح جبر قبل انشاء اسرائيل. .

وبقيت ملايين العرب حيث ارادها اصحابها ان تبقى: في بنوك اميركا واوروبا. وفي مصايف أوروبا المتعددة. وفي الكازينوهات والسهر والسمر والبطر. .

وبقيت القضية الكبرى، مجرد قضية صغرى. . بقيت يتيمة!

ومما زاد الطين بله، كما يقول اخواننا في مصر، ان العواطف الشخصية، والحزازات الحزبية، والمآرب الذاتية بقيت اقوى واغلى على قلب المسؤول العربي من

اي شيء آخر، حتى ولو كان هذا الشيء اسمه: فلسطين.

«البعثية» اغلى من فلسطين. «والمارونية» اغلى من فلسطين. والاشتراكية اغلى من فلسطين. وصداقة اميركا اغلى من فلسطين. والبترول اغلى من فلسطين• وسلامة العهد اغلى من فلسطين. والقانون اغلى من فلسطين. و«الانا» . . «انا» . . تأتي حتماً قبل فلسطين!

وضاعت القضية في خضم تصفية الحسابات والعداوات بين بغداد والقاهرة، وبين دمشق وبغداد، وبين عمان ودمشق، وبين بيروت ودمشق، وبين الرباط والجزائر، وبين تونس وبنغازي وبين بنغازي والخرطوم. !

وتحول العمل من اجل فلسطين الى نكايات ومؤامرات ودسائس ضد بعضنا بعضاً. اصبح الخلاص من اي حاكم معين بالذات اهم واحلى على قلب زعيم آخر من انقاذ فلسطين. اصبحت الحزازات هي القاعدة وهي الاساس وهي الحكم. وتحت شعار ان طريق «القدس» تمر «باليمن» رحنا نصرخ بعدها ان طريق القدس تمر «بجونية» بلبنان، وتمر بالاردن، وتمر بالقاهرة، وتمر ببغداد، وتمر بدمشق، فخسرنا الاردن والقاهرة وبغداد ودمشق من اجل فلسطين وفي معركتها المزعومة!

وفي غمرة اليأس والقنوط والمرارة، لم تعرف الثورة الفلسطينية «حدودها» في العمل ولم تعرف متى تنتهي حقوقها لكي تبدأ حقوق غيرها من الاخوة الاشقاء في الدول العربية. وبسبب الشكوك وانعدام الثقة وتيارات الظلام، وقعت احداث «ايلول» في الاردن، وبعدها احداث لبنان، ثم احداث طرابلس والبقاع، وبدأ العرب يكفرون كفراً بالقضية، واصبح الفلسطيني في عيون اخوانه من الحكام العرب اما ارهابيا مخربا: او عميلا للخارج، او عالة على المجتمع، او مصدر خطر على القانون والنظام!

وبدلاً من الاتجاه نحو الخطر الصهيوني ومحاربته للقضاء عليه التهى العرب بمحاربة شعب فلسطين وبدأوا في ذبحه. ! لم يعرف الفلسطيني حدود ثورته، ولم يتسامح معه اخوته العرب في مساعدته على تجنيب الخطأ او التسامح معه بعد وقوع ذلك الخطأ وهو يمارس حقه في الثورة. وتضخمت اخطاء الفلسطيني وتحولت الى اساطير. واصبح هذا الفلسطيني مسؤولاً عن كل خراب اصاب لبنان، وكل ضرر

يصيب سوريا، وكل مصيبة تقع على رأس الاردن! ونسي العرب انهم في ضربهم للفلسطيني انما يضربون فلسطين، فالقضية بلا شعب هي شيء بلا حقيقة او نبوة بلا نبي، او قضية بلا صاحب، او حق بلا اهل! نسي العرب ان كل مابقي من فلسطين القضية، هو فلسطين الشعب، وانهم من اجل الاولى عليهم التسامح والغفران والصبر مع فلسطين الشعب. !

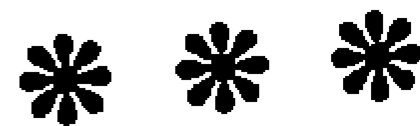
لا. !

لقد فرض العرب على الفلسطيني ان يثبت ولاءه لهم، قبل ان يثبت ولاءه لبلده الضائع. !

واصبح من واجب الفلسطيني في سوريا ان يهتف بحياة «البعث السوري»، ومن ضروريات الفلسطيني في الاردن ان يحافظ ويفتدي «الكيان الاردني» ومن شروط بقاء الفلسطيني في مصر ان يؤمن بعروبة السيد رئيس الجمهورية ولا يعارض اتفاقية كامب دايفيد ويترحم ليل نهار عن روح انور السادات ويقرأ مقالات هيكل وموسى صبري وانيس منصور!

وضاع الولاء الفلسطيني لفلسطين في غمرة الولاء المفروض على الفلسطيني، لزعماء ٢٢ دولة عربية. . شقيقة!

ولا حول ولا قوة الا بالله!



الفصل الرابع والعشرون
جريمة الرهان على حصان اسمه: الامم المتحدة

● قال لي احمد الشقيري بعد اعتزاله العمل كمندوب لسوريا ثم للسعودية في الامم المتحدة: «قضية فلسطين ولدت في فلسطين، ولا حل لها الا على ارض فلسطين. !»

● الامم المتحدة ملجأ للدول العاجزة!»

ـ ظفر الله خان ـ

● ان كل تشريد لانسان، تشريد لي»

الشاعر «جون دون»
ـ ١٥٩٠ ـ

الفصل الرابع والعشرون

جريمة الرهان على حصان اسمه : الامم المتحدة

منذ عام ١٩٤٧ بدأت فلسطين ـ القضية ثم النكبة ـ تظهر بوضوح وعناد على سجلات الامم المتحدة . .

ومع ظهور دولة اسمها اسرائيل ، الى عالم الوجود، ظهرت مع ظهورها، مأساة او قضية اسمها قضية «اللاجئين» الفلسطينيين!

اللاجئون الفلسطينيون . . فقط لاغير!

وماذا عن فلسطين الوطن؟ لاشيء! وماذا عن الارض؟ لا شيء! وماذا عن الاملاك والبيّارات ، والبساتين والشوارع والمدن والقرى؟ لاشيء! لا شيء! لا شيء!

مجرد مشكلة تتعلق بمصير مليون ومائتي وعشرة الاف وسبعمائة و «١١» شخصاً لاغير! مجرد مشكلة «اعاشة» وطحين، وحليب، وردت في تقرير مدير وكالة غوث للاجئين المستر «ديفيز» . . الموقر حفظه الله!

وقد نصت الفقرة «١١» من قرار الجمعية العامة رقم ١٩٤ في لجنة التوفيق عام ١٩٤٨ على عودة هؤلاء اللاجئين، او «تسهيل امر العودة لهم»، ولكن . . على من تقرأين مزاميرك يا امم متحدة؟

وهل كان اللاجىء الفلسطيني الذي عاش فوق ارض وطنه وارض اجداده الاف السنين، بحاجة الى قرار دولي يسهل له امر العودة الى ذلك الوطن لو انه كان

يملك القوة التي تفتح له ابواب الوطن رغم انف الاعداء؟

وهل كنا نطمح ان تعالج الامم المتحدة قضية فلسطين على اسس قومية سياسية غير محصورة في الاطار الضيق المتعلق بقضية «اللاجئين» ما دامت لجان الامم المتحدة ومجلس امنها لايرى في قضية فلسطين، ومنذ البداية، سوى قضية لاجئين؟

لقد ظننا ان البكاء والتوجع والاستجداء ستعيد اللاجىء الفلسطيني الى ارضه، وان زوابع الشتاء وحرارة الصيف ستفتح قلوب الدول الاعضاء في الامم المتحدة، وترغمها على اصدار قرار دولي جديد بفتح ابواب فلسطين امام اللاجىء الفلسطيني.

ولم نكن ندري ان عدونا الذي طردنا من ارضنا كان ـ وقبل ان تصبح له دولة وجيش ـ يخاطب الامم المتحدة بلغة تختلف تماماً عن لغة العواطف والاستجداء التي رحنا نستعملها لكي نخاطب العالم بها. ففي عام ١٩٤٧، وعندما وصلت اللجنة «الدولية» للتحقيق في قضية فلسطين، ارسلت اليها عصابة الهاجانا ـ جيش اسرائيل غير الرسمي قبل قيام الدولة ـ مذكرة رسمية تقول بالحرف الواحد، وهي محفوظة في سجلات «الهاجانا» والامم المتحدة، معاً:

ان «الهاجانا» تطلب اقامة الدولة اليهودية دون اي اكتراث بمعارضة العرب او اهتمام بوجودهم. وليس ثمة من شك في تفوق القوات اليهودية تنظيماً وتدريباً وتخطيطاً وسلاحاً، واذا كنتم تقبلون ـ والكلام موجه الى اللجنة الدولية ـ بالحل الصهيوني في اقامة الدولة اليهودية ولا ترغبون او تجدون انفسكم عاجزين عن فرضه،فكل مانرجوه منكم ان لاتتدخلوا فنحن قادرون تماماً على تحقيقه وتنفيذه!!»

تلك هي اللغة الوحيدة التي استعملها يهود العالم في مخاطبتهم للامم المتحدة حول فلسطين..

لغة التهديد. لغة القوة. لغة التفوق العسكري. لغة الثقة بالنفس. لغة احتقار الغير لحساب الذات!

من هنا كانت البداية..

وقبل البداية نفسها، لم يفهم العرب لماذا قررت بريطانيا ـ وهي الدولة المنتدبة على فلسطين ـ انهاء الانتداب البريطاني دون اي عذر شرعي او حق دستوري، ثم

احالة القضية الفلسطينية برمتها الى الامم المتحدة؟!

لم نفهم يومذاك ان بريطانيا قد احالت القضية الى المنظمة الدولية الخاضعة بكل قراراتها ولجانها وميزانيتها الى النفوذ الانجلو ـ اميركي لكي تمهد السبيل امام صدور قرار دولي شامل عام باقامة الدولة الاسرائيلية وتقسيم فلسطين بعد ان فشل الانتداب البريطاني - بكل جبروته وقسوته - على ان يحقق ذلك ! لقد تذرعت بريطانيا بالعناد العربي لكي تغسل يدها من فلسطين !

وبعد البداية، وبعد النكبة التي حملتها لنا الامم المتحدة، عجزنا عن ان نفهم معنى الف اشارة والف بادرة والف غمزة مع الف موقف والف تلميح رأيناها امامنا او سمعنا كلماتها باذاننا او قرأناها منشورة بالخط العريض في صحف العالم ومجلدات الامم المتحدة وكلها تنذر بالشر، ولا تبشر بالخير، ولا تعد الا بالمزيد من الضربات والويلات!

مثلا:

لم نفهم معنى وجود لجنة التوفيق الدولية المؤلفة منذ عام ١٩٥٠ من اميركا وفرنسا وتركيا وحصر العضوية في هذه الدول الثلاث ومنع دخول اية دولة اخرى، لكي تبقى اللجنة خاضعة للنفوذ الاميركي، وبصورة ادق، خاضعة لاوامر الرئيس الاميركي «هاري ترومان». !

في عام ١٩٥٠ جاء الى الاردن السيد «رشدي اراس» ـ وزير خارجية تركيا لمقابلة الملك عبد الله، واقام له الملك حفلة غداء كبرى في حرش حكومي بجوار «عمان» حضره الوزراء ورجال الحكم. وفجأة سأل الملك عبد الله ضيفه عن لجنة التوفيق الدولية ومدى قدرتها على ايجاد الحل المطلوب للقضية الفلسطينية. فقهقه «رشدي اراس» طويلا وقال للملك، وعلى مسمعنا جميعاً:

ـ الحل يا مولاي بيد «الرئيس ترومان» وليس بيد لجنة التوفيق!

مثلاً : لم نفهم معنى فشل العرب في تعيين قيم ،، ام اقامة جهاز دولي يشرف على املاك العرب الفلسطينيين في وطنهم السليب !

مثلاً:

لم يدرك العرب روح العداء التي كانت تسيطر على جلسات الامم المتحدة

ضدهم وضد مطاليبهم بحيث كان العرب في معظم الجلسات يقومون بدور الدفاع عن انفسهم وعن قضاياهم بينما كانت اسرائيل وحلفاءها تقوم بدور الهجوم! . .

مثلاً: لم يفهم العرب الابعاد السياسية التي تقف وراء اقتراح مندوب اسرائيل في الامم المتحدة وتقديمة لمشروع قرار الى الجمعية العامة في عام ١٩٥٠ يطالب باجراء مفاوضات للسلام بين اسرائيل والعرب . ؟!

مثلاً: لم يستوعب العرب لماذا صدر مشروع السكرتير العام للامم المتحدة بشأن اللاجئين الفلسطينيين في صيف عام ١٩٥٩؟

مثلاً: لم يستطع الذكاء السياسي العربي ان يفهم في عام ١٩٦٠ لماذا رفضت «اللجنة السياسية» التابعة للامم المتحدة ان تكتب في سجلاتها حضور «الوفد العربي الفلسطيني» لبعض الجلسات، واصرت ان يكون الاسم هكذا: «وفد عربي فلسطيني»؟!

مثلاً: لم تدرك عبقرية الزعماء العرب معنى فشل الامم المتحدة في تنفيذ الفقرة «١١» من القرار ١٩٤ «٣» والتي تقضي بعودة اللاجئين او بتعويضهم. . ؟!

مثلاً: لم نسأل انفسنا لماذا مات «بروتوكول لوزان» الصادر في ١٢ اذار ـ مارس ١٩٤٩ والذي يحمل تواقيع ممثلي مصر والاردن ولبنان وسوريا واسرائيل؟!

مثلاً: لم نقف لحظة واحدة عند العبارة الكلاسيكية التي وردت اكثر من مرة في قرارات الجمعية العامة والتي تقول: «. . . بضرورة ادماج اللاجئين في الحياة الاقتصادية للشرق الادنى. . . تمهيداً لزمن تنقطع فيه المعونة الدولية. . »

مثلاً: لم ندرس مشروع «همرشولد» الذي صدر في الدورة ١٤ عام ١٩٥٩ بضرورة «ادماج» اللاجئين في الحياة الاقتصادية للشرق الاوسط. !؟»

مثلاً: لم نناقش ولم نفهم ولم نقرأ ولم ندرك خطورة تقرير الدكتور «جوزيف جونسون» الممثل الخاص للجنة التوفيق الدولية والذي رفعه الى الامم المتحدة عام ١٩٦١ وكل حرف فيه يهدف الى تصفية القضية الفلسطينية ودفنها!

وعندما وقعت حرب الايام الستة، وصدر القرار المشؤوم رقم ٢٤٢ رضي العرب به، ووافقوا عليه، وراح مندوب مصر يجاهر علناً وبكل فخر بان الرئيس جمال عبد الناصر قد اتصل به تلفونيا من القاهرة وامره بضرورة الموافقة على ذلك

القرار. . . الذي رمى على قبر فلسطين حفنة تراب، وداس على حقوق العرب، وعالج اقدس واخطر قضايا القرن العشرين وكأنها قضية مجموعة من. . اللاجئين!

وها هم العرب في هذه الايام، يجنون ثمرة جهلهم في قبول ذلك القرار ويحاولون التخلص منه، ويتبارون في «الاحتفاء» باللورد البريطاني العجوز الذي يزعم انه وراء صياغة عبارات القرار المذكور. .

ان قصة العرب مع الامم المتحدة، مليئة بالسراب والخداع والتلفيق والتسويف. وكانت اسرائيل تلجأ الى الامم المتحدة في اوائل الخمسينات عندما كانت دولة ضعيفة مهددة وكان العرب يلهثون جرياً وراء البحث عن طريق سهل يستعيدون به بضعة اشبار من ارضهم الضائعة. ولكن اسرائيل تحدت الامم المتحدة، والقت بالقفاز في وجهها، وتمردت على قراراتها، ومنعت جميع مندوبيها ورسلها من الدخول الى اسرائيل، وصبت عليها اللعنات، وشوهت سمعتها، عندما حققت اسرائيل لنفسها اسباب القوة، وامتلكت السلاح، وبنت الجيش، وضمنت المساندة الاميركية لها، ولسياستها.

وبقي العرب يحجون الى نيويورك ويبكون عند حائط المبكى الجديد، ويتسابقون في القاء خطبهم ويتركون للصحفي الارمني الاصل، الفلسطيني اللبناني «ليفون كشيشيان» مهمة تسويق خطبهم في اسواق بلادهم، وتصويرهم في مواقفهم الخطابية المؤثرة. . جداً.

ويشهد الله، كم من فضيحة اخلاقية عالمية شهدتها نيويورك وكان ابطالها من بين وزراء العرب الموفدين الى اجتماعات الامم المتحدة في خريف كل عام. !

ويشاء ربك ان يجعل من المنبر الدولي الذي سمع عبارات العرب في هجومهم على اسرائيل، منبراً يسمع عبارات العرب في هجومهم على اخوانهم. . العرب!

«شارل مالك»، وقف يشكو سوريا ومصر باسم لبنان. . !

ومندوب الاردن، شكى مصر وسوريا باسم الاردن. !

وشكوى من مندوب اليمن! وشكوى من مندوب السعودية! وشكوى من مندوب تونس! وكلها ضد العرب وضد زعماء العرب وحكامهم.

وقال لي السيد هارولد بيلي، اقدم سفراء بريطانيا في السلك الدبلوماسي

البريطاني ومندوب بريطانيا السابق لدى الامم المتحدة:

- سمعت المستر «ابا ايبان» السياسي الاسرائيلي المعروف يقول لي في احدى جلسات الامم المتحدة: لو لم تكن هناك «امم متحدة»، لقررت اسرائيل ان تنشىء واحدة! ان الامم المتحدة هي اعظم مسرح سياسي دولي كشف فيه العرب عن حقيقتهم. !»

ولم يكن «ابا ايبان» بعيداً عن الحقيقة في كلامه المذكور عن العرب والامم المتحدة. . او عن العرب «في» الامم المتحدة.

فقد اصبح وزراء العرب المنتدبين لتمثيلٍ دولهم في الامم المتحدة، اضعف الوزراء ثقافة، واقلهم خبرة، واكثرهم جهلاً باصول اللعبة الدولية، واشدهم تعصباً للدس على بقية الزملاء العرب. . الاشقاء.

وتحكي اروقة الامم المتحدة قصة ذلك المندوب الخليجي الذي حسب ان زميله مندوب «سلطنة عمان» هو اقرب اليه من سائر الزملاء الاخرين بسبب مذهبه الديني فراح يشكو اليه من تسلط جماعة «السُنّة» على بقية الناس.. وانه لن يتعاون الا مع من كان يتبع مذهبه الديني المعروف. . وانه لايكترث لما يقوله عنه الناس!!» وعندما انتهى اللقاء، ابرق مندوب سلطنة «عُمان» بتفاصيل الكلام الى حكومته التي اطلعت شقيقتها الدولة الخليجية المجاورة عما يقوله مندوبها لدى الأمم المتحدة. !

-قل لهم «هناك». . اليس لديهم مندوب آخر يرسلونه ممثلا عنهم الى الأمم المتحدة ويكون عربي الاصل والاسم والهدى. ؟ »

- يا اخي قل لهم يبعثوا واحد عربي. . مش ايراني الأصل يتكلم العربية. . ويتآمر علينا في أورقة الأمم المتحدة؟ ! »

ولم يتركني اسأله عن معنى كلامه فقال مستطرداً:

- يا اخي قل لهم يبعثوا واحد عربي. . مش ايراني يتكلم العربية. . ويتآمر علينا في اروقة الامم المتحدة؟!»

وهكذا استطاعت اسرائيل، ومن ورائها اميركا، ان تتسلط على ندوات هذه المنظمة الدولية وان تجردها من اية فائدة عملية قد يطمع العرب في الحصول عليها. واصبح كل هم العرب في هذه الندوات اما التقرب الى مندوبي الاعداء والتزلف

اليهم ـ كما فعل «احدهم» متزلفاً الى السيدة جين كيرك باتريك مندوبة الولايات المتحدة، عندما سألته السيدة المذكورة عن احواله العائلية وصحة زوجته الغالية فاجاب بالشكر والتقدير والامتنان. . . واما بصب اللعنات الساذجة على كل مندوب اجنبي في الامم المتحدة كما كان يفعل المندوب الراحل السيد «البارودي» في حملاته العاطفية على اميركا والكوكاكولا وطبق الهمبرجر. !

ماذا اقول. ؟!

لقد حسب العرب ـ بكل سذاجة ـ ان الامم المتحدة كما اسماها الرئيس الاميركي الراحل «روزفلت» عام ١٩٤٢، «بالامم المتحدة» وذلك عندما دعا «٢٦» دولة تعاهدت على الاستمرار في الحرب حتى تنتصر على النازية واليابان. . اقول، لقد حسب العرب ان الامم المتحدة، هي حقاً «متحدة». . وان ميثاقها الذي يقول ان دولها قد اقسمت «بان تنقذ الاجيال المقبلة من ويلات الحروب التي جلبت على الانسانية مرتين، وفي خلال جيل واحد آلاماً يعجز عنها الوصف، وان تؤكد من جديد ايمانها بالحقوق الاساسية للانسان وبكرامة الفرد وقدره. . وان تبين الاحوال التي يمكن تحقيق العدالة في ظلها. . . الخ» اقول، لقد آمن العرب بكل سذاجة بحروف هذا الميثاق واعتقدوا بصدق اصحابه، وان الدول التي اقامت الامم المتحدة قد اعتزمت حقاً وحقيقة بان «. . تأخذ نفسها بالتسامح وان تعيش معاً في سلام وحسن جوار. . »!

ما اطيب قلب العرب، وما اشد غفلتهم. .

كان بامكان الكتلة العربية في الامم المتحدة ـ وتضم حوالي العشرين دولة ـ ان يكون لها الوزن والصوت والاهمية في صنع القرارات لو ان وزراء العرب في نيويورك اتفقوا على سياسة واحدة وصبوا اصواتهم في اتجاه واحد.

ولكن. .

استطاعت كتلة «برازافيل» التي كانت تضم الكاميرون وجمهورية افريقيا الوسطى وتشاد وداهومي والغابون وساحل العاج ومدغشقر، ان تكون اكثر نفوذاً واهمية من الكتلة العربية.

وحسب بعض العرب ان الامم المتحدة هي صاحبة الفضل في انسحاب فرنسا

من سوريا ولبنان في الأربعينات ، او حيال قضية الجلاء عن مصر ، او عند ازمة قناة السويس والعدوان الثلاثي. . ولم يفكر واحد منهم باسرار الموقف في كل قضية من هذه القضايا لكي يدرك ان الموقف «الداخلي» وحده ، والادارة الصادقة -يومذاك- وحدها ، والمقاومة العنيفة والاصرار على التحدي. . كلها ، كانت السلاح الحاسم في تحقيق النصر ، وليس الأمم المتحدة ولا قراراتها !

وسيقول التاريخ ان اكبر خدعة سياسية انطلت على العرب، وصفقوا لها، وآمنوا بها، ورأوا فيها الخلاص، هي «قوة الطوارىء الدولية» التي تشكلت بقرار من الجمعية العامة في الرابع من نوفمبر من عام ١٩٥٦ ، وان اسرائيل قد عرفت وحدها معنى هذه القوة وابعاد وجودها واخطارها، فلم تعرها اي اهتمام بل مضت ترفض وجود هذه القوة على ارضها وتصطدم معها ومع قادتها وضباطها بلا خجل ولا تردد ولا خوف!

كما سيقول التاريخ ان جمال عبد الناصر بالذات قد وقع في «الفخ الدولي» الذي نصبه له «يوثانت» السكرتير العام «للأمم المتحدة» في عام ١٩٦٧ والذي ادى الى «الحرب» ثم ضياع القدس والمقدسات !

لقد رقصنا وطربنا وهتفنا بحياة الامم المتحدة، لان «شارل مالك» اللبناني، او «المنجي سليم» التونسي، حقق كل منهما «المجد» الكبير واصبح رئيسا لدورة من دورات الامم المتحدة. . ولم نكن ندري ان مثل هذا «المجد» كان بمثابة قطعة الحلوى التي يتفضل بها الانسان على الطفل المشاغب لكي يسكته او يمنعه عن الشغب والصراخ! وكان «كريشنا مينون» وزير الدفاع الهندي الراحل، ورفيق نهرو، يحذر جمال عبد الناصر من الامم المتحدة، ويلفت نظره الى «غباء» همر شولد ولؤم «يوثانت»، وان «عبقرية» محمود فوزي واتصالاته في الامم المتحدة لن تنقذ جمال عبد الناصر ـ في النهاية ـ من المؤامرات التي تنتظره على يد هذه المؤسسة الدولية الخاضعة للسيطرة الاميركية والاسرائيلية بكل جزء وكل قسم من اجزائها واقسامها.

وقيل ان العرب في عام ١٩٨٥ يقاومون القرار ٢٤٢ بحجة انه يعالج قضية فلسطين من زاوية اللاجئين ولا يتطرق الى الحقوق الشرعية لشعب فلسطين!

صح النوم . . ! !

منذ عام ١٩٥١ وقضية فلسطين لا تذكر على المسرح الدولي الا بسبب التقرير السنوي الذي يقدمه المدير العام لوكالة غوث «اللاجئين» الدولية الى الجمعية العامة طبقاً لانظمة الامم المتحدة وقراراتها.

ومهما حاول العرب، التطرق في خطبهم امام الجمعية العمومية الى النواحي السياسية للقضية خارج نطاق «اللاجئين» الا انه كان متعذراً، بل ومستحيلاً الحصول على قرار من الامم المتحدة يتطرق الى القضية الاساسية او يتعلق بها لان القرارات يجب ان تنسجم ـ حسب الاصول والقوانين مع الموضوع المدرج . . لاغير.

لقد اقترفت الامم المتحدة جريمتها في حق فلسطين، واعدت مراسيم الجنازة، واشرفت على اتفاقيات الهدنة بين العرب واسرائيل، واقامت جهاز «الرقابة» الدولية، ولجان الهدنة المشتركة الكفيلة بحماية امن اسرائيل وسلامتها وحدودها، وانشأت ما يسمى بالقوات الدولية، ثم غسلت اياديها وطوت الصفحة . . والى الابد!

ولم يفهم العرب شيئاً . . .

كانوا اشبه بالقرود الثلاثة التي لاترى ولا تسمع ولا تتكلم!

اذ ان عرب اليوم، لم يشعروا بالجريمة وفداحتها. ولم يدركوا معاني «المراسيم» التي تبعتها. ولم يفهموا ان «الفقيد الغالي» قد ووري الثرى، وردد المشيعون لاهل الفقيد عبارة تقول: ـ «عظم الله اجركم ! »

كان على العرب خلق الظروف الدولية والمحلية المطلوبة «لارغام» الامم المتحدة بالمجيء الى الشرق الاوسط، الى العرب انفسهم، الينا في ديارنا، والعمل لمساعدتنا وانصافنا، بدلاً من ان يذهب العرب «الى» نيويورك يستنجدون الامم المتحدة ان تدرس اوضاعهم وتحل مشاكلهم وتعيد لهم حقوقهم . !

ان قوانين الامم المتحدة تفرض عليها ـ عندما يتهدد الامن الدولي او تنطلق الثورات او ينتشر الدم ـ بالانعقاد والتشاور السريع والتدخل لدرء الاخطار المحدقة . .

وقد عجز العرب عن ادراك هذه الحقيقة، كما عجز العرب عن القيام بخطوات عسكرية حاسمة كفيلة بان تجعل سكرتير الامم المتحدة يستيقظ من نومه عند منتصف الليل كي يدعو اعضاء مجلس الامن الى الانعقاد السريع لبحث الاوضاع . . المتدهورة!

ولو لمرة واحدة. . .

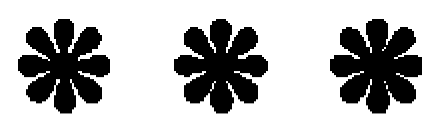
ولكن عدوّنا قدر أن «يفعلها» مرات ومرات. . !

وبعد أن داس بقدمه على المنظمة الدولية التي قررت له اقامة «الدولة» ، وضمّته في عضويتها ، وارسلت قواتها لحماية حدوده ، عزل نفسه عنها وتركها للعرب كي يتباكون من على منبرها ويستجدونها الرحمة والخلاص ويشاركون في احتفالاتها الأربعينية !

عدونا لجأ الى الأمم المتحدة عندما كان ضعيفاً مهزوزاً في أوائل الخمسينات ، ولكنه لجأ الى القوة وحدها ورمى بالمنظمة الدولية وبميثاقها وبشرفها الى المستنقع عندما فقدت هذه المنظمة قوتها وهيبتها وهويتها ووزنها الدولي في العالم .

عدونا عرف متى يبكي ومتى يضحك ومتى يلعب على الحبال ومتى يقفز فوق الاسلاك ومتى يغزو ويغتصب ويحتل ويضم وينتصر ويترك الولولة والعويل ولطم الخدود للعرب وحدهم . . . !

ويا موت ذر . . . !



الفصل الخامس والعشرون

اللامبالاة ... واللامعرفة!

● لقد عجز العرب عن ادراك اي سر من اسرار كل الحروب التي شهدها الشرق الاوسط، خلال الاربعين سنة الماضية.

● ماذا قال لي صدام حسين عن موقف العرب من الحرب ضد ايران؟
وماذا قال لي صائب سلام عن موقف العرب من حرب لبنان؟

● ماهو الفرق بين لبنان ـ «سويسرا الشرق»، وسويسرا الحقيقية؟

الفصل الخامس والعشرون
اللامبالاة ... واللامعرفة!

اصبحنا اساتذة في هز الاكتاف وقلب الشفاه وابداء عدم المبالاة بكل صفاقة وبرودة اعصاب!

حرب ايران من معها لايهمنا، ومن ضدها لايهمنا!

حرب الصحراء لاتهمنا: لايهمنا من معها ومن ضدها؟

ما يجري في «جنوب» السودان لايهمنا. كل مايهمنا ان يسقط «جعفر النميري» وبعد سقوطه فليكن الطوفان!

حرب لبنان لاتهمنا. غداً يتعب المحاربون ويتوقفون عن القتال. والى ان يتعب المحاربون لا بأس ان يخرب لبنان ويموت نصف الشعب اللبناني وتموت معه قضية اسمها: فلسطين!

احداث القنابل في دول الخليج لاتهمنا.

المجاعة لاتهمنا. الاغتيالات لاتهمنا. التحالفات والانقلابات والمعاهدات كلها لاتهمنا!

ذلك اننا قد اصبنا بمرض عضال اسمه: عدم المبالاة.

ولا اعرف مرضاً اشد فتكاً واكثر خطراً على ارادة الشعوب وعلى قضاياها وعلى مصيرها من هذا المرض.

كان صديقي وزميلي الصحفي الاميركي المشهور، السيد «ارنولد بوشغريف»

كان يعيش في جنيف ويقيم في عواصم الشرق الاوسط ويفخر بأنه اقدر صحفي اجنبي على معرفة اسرار القضايا الشرق اوسطية التي يسمعها مباشرة من افواه اصدقائه الكبار الذين يحكمون عواصم هذا الشرق. والواقع ان «ارنولد بوشغريف»، كان صديقا شخصيا لجميع حكام اسرائيل ومصر ولبنان وسوريا والاردن. وانه كان يزور ايران وينزل ضيفا على الشاه فيها. ولكنه ـ لالف سبب وسبب ـ هجر الشرق الاوسط، وعاد الى قواعده الاصلية في واشنطن وانتقل من مجلة «نيوزويك» التي كان احد كبار محرريها الى مجلة اميركية اخرى لاتكتب الا في الاقتصاد ولاتهتم الا بأخبار الاسهم والسندات!

ما علينا. .

التقيت مع ارنولد بوشغريف على موعد في مدينة نيويورك ! وجلسنا في عام ١٩٨٣ لنتحدث في موضوعات ثلاثة : انتخابات اسرائيل ، واحداث ضرب الناقلات ، وانتخابات مصر ! وقال لي ارنولد وكأنه يفتح امامي دفتر مذكراته :«. . العرب يرفضون الاعتراف بصحة الحقائق التي لاتسرهم! ولذا ، فالعرب يرفضون الاعتراف بوجود تحالف صريح وقوي ودائم بين اسرائيل من جهة ، وبين اي عهد ايراني من جهة اخرى! ان اسرائيل تهمها ايران ، ولا يهمها من يحكم ايران ! ان اسرائيل ترى في ايران الحليف الطبيعي لها ضد العرب ، سواء كان هذا الحليف في صورة امبراطور ام في صورة رجل الدين! ان اسرائيل المعادية للاسلام تحالف الثورة الايرانية لا حبا في هذه الثورة وما تقوم به حاليا ، وانما حبا في ان تبقى ايران الغد والمستقبل حليفة قوية لاسرائيل ! يعني ، ان الاستراتجية الاسرائيلية تقوم على اساس التحالف المستمر مع ايران ، ضد العرب ، دون اي اعتبار لمن يحكم ايران او لشكل الحكم الايراني ، فاذا سقط الشاه وجاء الخميني ، فان التحالف الاسرائيلي مع ايران الشاه لن يسقط مع ايران الخميني وانما يبقى مع الخميني لكي يبقى -ايضا- بعد ان يسقط الخميني. . !»

مفهوم. . !

واستمر صديقي ارنولد بوشغريف يقول والحديث بيننا ذو شجون :

ـ اما عن انتخابات اسرائيل والامال التي يعلقها العرب على نجاح حزب

«العمل» المعارض لكي تنسحب اسرائيل من ارض الضفة الغربية وتعقد صلحا عادلا مع العرب، فأني اقدر ان اكشف امامك مايلي: اسمع يا صديقي. انا ذهبت الى اسرائيل في صيف عام ١٩٦٨ واجتمعت الى «ليفي اشكول» رئيس الوزراء يومذاك والى وزير خارجيته ابا ايبان والى اقطاب وزارته كلهم. وقد سألت «ليفي اشكول» خلال حديثه الصحفي الذي ادلى به لي كي ينشر في مجلة «نيوزويك» الاميركية التي كنت اراسلها في تلك الايام عن رأيه في مصير الضفة الغربية فقال لي «ان اسرائيل لن «تتحرش» بالمدن العربية الكبرى في الضفة الغربية ولن تبني المستوطنات بجانب اية مدينة عربية في الضفة الغربية، كالخليل، ونابلس، وطولكرم، واريحا، ورام الله» وانتهى الحديث وعدت الى فندقي في القدس فاذا بالتلفون يدعوني لمقابلة رئيس الوزراء الاسرائيلي على عجل وعندما ذهبت لمقابلته في منزله وكانت الساعة قد قاربت التاسعة مساء، قال لي «ليفي اشكول» انه قرأ بعض فقرات من حديثه معي على بعض رجال احزاب الاقلية المتدينين والمشتركين معه في الحكومة فثاروا عليه وعارضوا رأيه وهددوا بالانسحاب من الحكومة كلها اذا هو لم يسحب ـ اي رئيس الوزراء ـ تصريحه المذكور عن مستقبل الضفة. !»

● وقال ارنولد بوشغريف الى رئيس الوزراء الاسرائيلي ليفي اشكول انه قد ابرق بالحديث الى مجلته في نيويورك ولكنه مستعد لان يدخل عليه اية تعديلات طفيفة. فأجابه اشكول ان عليه ان يشطب عبارة «ان اسرائيل لن تبني اية مستوطنات بجانب اية مدينة عربية بالضفة»! وبعد نقاش قصير وافق المراسل ان يبرق الى مجلته لكي تشطب العبارة المذكورة! ولكنه بعد ان عاد الى الفندق للنوم، دق جرس التلفون بجانب سريره، وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة، وسمع ارنولد بوشغريف صوت رئيس الوزراء ـ شخصيا ـ يطلب منه ان يشطب اي كلام سمعه منه حول الضفة والمستوطنات والمستقبل بحجة ان زعماء الاحزاب الدينية قد رفضوا التعهد بأي شيء.. وانهم يعتزمون الانسحاب من الوزارة اذا مضى رئيس الوزراء في ربطهم بالقيود والتعهدات ضد سياستهم الدينية التوسعية في تحقيق انشاء اسرائيل الكبرى فوق كل شبر من ارض اسرائيل. !»

قال لي صديقي ارنولد بوشغريف وهو ينهي قصته:

ـ ولكن بعض العرب ما زالوا يتعلقون بالاوهام ويحلمون بالخرافات ويظنون ان «شمعون بيريس» افضل لهم من مناحيم بيغن، وان حزب العمل اقل «صهيونية» من حزب «حيروت» وان السلام المطلوب ينتظرهم عندما تنتهي انتخابات اسرائيل ويجلس «بيريس» في مقعد رئاسة الوزراء وتغيب شمس ائتلاف «الليكود» من سماء السلطان والنفوذ. ! انني اسمعتك قصة حقيقية عمرها حوالي ١٦ سنة. . وبطلها حزب العمل الحاكم يومذاك، وميزتها ان احداثها قد وقعت قبل ان تعقد مصر صلح كامب ديفيد وتخرج عن المجموعة العربية، وقبل ان يتفتت التضامن العربي وينهار بالصورة التي نراها حاليا، وقبل الحرب العراقية الايرانية، وقبل ان يحكم حزب حيروت وائتلاف ليكود اسرائيل لمدة ثماني سنوات طوال انهار خلالها كل تيار معتدل داخل الشعب اليهودي وانتصر التيار العنيف والمتطرف والمتعصب الذي حمل جيش اسرائيل الى مشارف بيروت وحمل طائرات اسرائيل الى مشارف. . بغداد! كان هذا قبل ان تصاب اسرائيل بداء الجنون والعظمة فما بالك وقد اصابها ما اصابها من امراض عصبية بفضل اناس من امثال بيغن وشامير وايريل شارون. . ؟»

اما عن مصر، فقد سمعت صديقي الصحفي الكبير، يقول لي:

ـ عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو، قال الناس ان اميركا قد باركت الثورة لان قيام الثورة الاشتراكية قد منع قيام الثورة الشيوعية. . وان مجيء امثال عبد الناصر قد حجب مجيء امثال خالد محي الدين. . وان حلول الجمهورية الاشتراكية مكان النظام الملكي قد ابعد خطر التسلل والانقلاب الشيوعي في مصر! واليوم، يقرر حسني مبارك السماح بقيام معارضة سياسية محدودة في برلمان مصر كي يحجب قيام ثورة اسلامية واسعة تقضي على النظام المصري بأسره! اي: الرضى بالقليل لكي ندفع عنا الكثير! اي القبول ـ ببعض ـ المعارضة كي لا يتحول النظام كله الى معارضة! اي امتصاص النقمة والثورة والمشاعر المعادية للنظام عن طريق فتح الابواب امام بعض عناصر «الوفد» وبعض العناصر الاسلامية الاصولية بالوصول الى كراسي البرلمان! وهكذا تبدو المسألة كلها وكأنها قد خضعت لحسابات دقيقة مدروسة لا علاقة لها بالحرية او النزاهة او عدم التدخل وانما هي سياسة حكومية

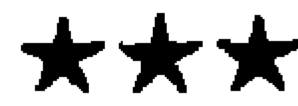
ورسمية هدفها ليس التفاخر بقيام مجلس برلمان مصري ديمقراطي جديد وانما هدفها انقاذ الوضع العام والابقاء على هيكل العهد مع امتصاص النقمة الشعبية وتحجيم المعارضة داخل قفص برلماني صغير تبدو معه الحكومة وكأنها العملاق الذي تسنده اغلبية الامة وتؤيده معظم قطاعات الشعب!

قلت له وكأني استخرج له، ولي، معنى كلامه:

- من هنا يجب ان لانتوقع اي تغيير او تبديل في سياسة مصر الرسمية تجاه كامب ديفيد، او تجاه امريكا، او تجاه العرب او تجاه فلسطين.. وانما تستمر المراوغة ويستمر التمثيل...»

اجابني وهو يسحب نظارته عن وجهه المتعب ويعيدها الى مكانها في جيبه الصغير:

- هدف كلامي واحد لايتغير: لقد اردت ان اثبت لك ان اهلك العرب لايسرهم تصديق الاخبار التي لاتسرهم، وانما يسرهم العيش في دخان الاوهام والاحتمالات والظنون بانتظار ان تحدث المعجزة ويأتي الشيء الذي كانوا بانتظاره او انتظار وقوعه. ولذا، تبقى الخسائر السياسية في سائر المعارك الدائرة حاليا من حظ العرب وحدهم، وتبقى الانتصارات السياسية في هذه المعارك من حظ اعداء العرب.. وحدهم!



وانتقلنا الى موضوع آخر..

كان من قبيل الغفلة وحسن الظن عند العرب ان اعتقدنا بأن مشكلتنا مع ايران ومع ثورة ايران قد انكمشت وتضاءلت بحيث لم تعد تزيد عن موضوع تأمين سلامة الملاحة في مياه الخليج.؟!

وقد اصبحنا - بفضل الغباء والكسل واحلام اليقظة - نظن بأن قرارا للجامعة العربية في تونس، او بيانا للحبيب الشطي في «جدة»، او اعلانا بانضمامنا الى اتفاقية «سلامة الارواح في الخليج» لعام ١٩٧٤، او استغاثة يطلقها احد وزراء الداخلية في احدى دول الخليج، او حديثا صحفيا يدلي به «الظاهرة الثورية» الجديدة في العمل الدبلوماسي المصري الدكتور بطرس غالي عن المبادرة المصرية

الجديدة لانهاء الحرب بين العراق وايران . . اقول بتنا نظن ان بعض كل هذا، او كل بعض هذا، قادر على ان يقنع الخميني بمزايا السلام بين الفرس والعرب، او بين طهران وبغداد وان يقنع حكام ايران بعدم التعرض الى ناقلات السفن البترولية في داخل المياه الاقليمية للسعودية وللكويت . ؟

بتنا نظن ان الخميني سيتوقف عن المضي في اعمال عدائية اخرى ضد السعودية وضد الكويت، بالاضافة الى العراق والبحرين . ؟

وتسألنا :

ـ لماذا استمرت حرب الخليج طيلة هذه المدة وفشلت جميع محاولات التوسط بين العراق وايران . . ؟

وأجبنا: لان جميع الجهات الدولية والاسلامية والسياسية التي تدخلت او توسطت لانهاء حرب الخليج ، كانت في حد ذاتها اقل هيبة واضعف نفوذا واصغر حجما من الثورة الايرانية ، ومن آية الله الخميني!

● والكلام صحيح بالنسبة للامم المتحدة التي لم تعد شيئا مذكوراً بعد ان تضاءل حجم امينها العام ، وكثر عدد المرات التي ترددت فيها كلمة النقض ـ فيتو ـ وبعد ان اشتدت الحرب الباردة بين الشرق والغرب، وبعد اللجوء الى السلاح ـ كوسيلة للحل ـ في موضع جزر الفوكلاند وفي موضوع جزيرة «غرينادا»، وبعد كل الجليطات العسكرية والسياسية التي قامت بها اسرائيل في ضرب مفاعل بغداد وفي غزو لبنان، وبعد اعلان مولد دولة «قبرص التركية»، وبعد سلسلة لم ولن تنته من مآسي الحروب والتدخلات والمؤامرات «الاجنبية» في دول اميركا الوسطى!

● والكلام صحيح ـ كذلك ـ بالنسبة لدول عدم الانحياز التي توسطت وحاولت ولكنها باءت بالفشل في موضوع حرب الخليج لان هيبة هذه الحركة كأصالتها قد ضاعت وتلاشت بعد وفاة كبار اقطابها من امثال نهرو، وتيتو، وعبد الناصر . . وبعد ان اصبحت عضوية حركة الانحياز لاتعني ـ بالتالي ـ حياد الدولة العضو، فلا كاسترو بالرجل الحيادي وهو المرتمي في احضان السوفيات، ولا النميري او خليفته بالرجل المحايد وهو المستجدي عطف اميركا . !

● والكلام ـ ايضا ـ صحيح بالنسبة لسائر المؤتمرات والمنظمات الاسلامية التي

حشرت انفها في حرب الخليج وتوسطت ـ باسم الاسلام والمسلمين ـ لانهاء الحرب بين دولتين اسلاميتين شقيقتين متجاورتين، ولكنها لم تفز من وساطتها بأي طائل واعلنت فشلها!

هل نقول لماذا ؟!

● لان احدا لم يكتب للآن مهزلة الدور الذي قام به الرئيس سيكوتوري مع امين عام منظمة المؤتمر الاسلامي، السيد «الحبيب الشطي» عندما زارا بغداد وطهران كوسطاء من القمة الاسلامية ومن المؤتمر الاسلامي، في عام ١٩٨٤، فأخطآ في نقل وجهات النظر، واخطآ في التصرف بأمانة، واخطآ في استعمال اللغة الدبلوماسية المطلوبة او اللغة الحاسمة الحازمة، واخطآ في التوقيت وفي السفر وفي المقابلات، وكان كل همهما الخروج بنتيجة تؤهلهما للفوز بجائزة نوبل عربية اسلامية تتوج نجاحهما في الوساطة بين الدولتين المتحاربتين دون اي اعتبار للحقائق والاوضاع والظروف مما اعطى حكام ايران ذريعة تبرر رفضهم للوساطة وسببا يفسرون به تراجعهم عن قبول التفاوض او قبول السلام. !

ان حرصي على ذكرى سيكوتوري تمنعني من ان اسرد تفاصيل الجليطة الدبلوماسية التي شهدتها مطارات بغداد وطهران منذ عامين باسم الوساطة الاسلامية لانهاء حرب الخليج. !

وهكذا بقيت ثورة ايران، في عمقها وهيبتها ووزنها الدولي اكبر حجما من اية وساطة دولية او سياسية او اسلامية غامرت في العمل من اجل انهاء الحرب القائمة! لا كون هذه الثورة قد دخلت التاريخ من اوسع ابوابه، وانما كون الوسطاء انفسهم قد عجزوا عن الحصول على مساحة شبر واحد لانفسهم او لدولهم او لرسالتهم ولمهمتهم، في دفاتر التاريخ. !

وهكذا، ومن اجل هذا استمرت حرب الخليج!.

وعدنا نسأل: . . . »

ـ لماذا طالت هذه الحرب واستمرت ودامت حتى هذا اليوم؟

ونجيب:

ـ لان الطرف الايراني قد مضى يحارب العراق حتى اليوم وكأنه يحارب دولة عربية

معزولة عن العرب، او بعيدة عن التأييد العربي او ان الانتصار عليها لن يغضب العرب، وانما ـ قد ـ يسعدهم!.

وايضا:

ـ لان العرب لم ينظروا الى حرب الخليج وكأنها خط الدفاع الاول في وجه الزحف الفارسي المنتظر على دول الخليج وعلى الجزيرة العربية فبقوا حتى اليوم يدفعون «بعض» المال، ويدعون للعراق بالنصر.

● لقد سمعت صديقنا الاستاذ «طارق عزيز» وزير خارجية العراق يقول لي وكله الم وحزن:

ـ ما بال اخوتنا في الخليج ـ ويعني وزراء دول الخليج العربي ـ كلما اصدروا بيانا سياسيا عن حرب الخليج ادانوا فيه «العراق وايران» معا بمسؤولية استمرار هذه الحرب، وطالبوا كلا من ـ العراق وايران ـ بوقف هذه الحرب؟ الا يعرف اخوتنا في الخليج ان العراق قد نادى بالسلام مع ايران، وطالب بوقف هذه الحرب، ورضي بكل الوساطات الدولية والاسلامية.. فلماذا يكون التساوي بيننا وبين ايران في المسؤولية وفي رفض السلام؟ لماذا هذا التجني على العراق؟.»

ثم سمعته يقول لي:

ـ اذا كان الاخوان العرب في الخليج يعتبرون هذه الحرب هي حربهم فاني اقول بكل شرف وصراحة ان تأييدهم المعنوي المادي لنا لم يصل الى المستوى الذي «تفرضه الحرب وكأنها حربهم»! اما اذا كانوا يرون في الحرب شيئا يفرض عليهم بعض المساعدة والعطف، فاني اقول بأنهم اعطوا كل ما يتفق وهذه النظرة العابرة!».

وكنت قبل لقائي بالوزير الصديق (ابي زياد) قد قابلت الرئيس المجاهد صدام حسين واجريت معه حديثا مطولا نشرته في حينه. اما الشيء الذي لم انشره من حديث صدام حسين، فهو قصير ويدعو الى الاسى. لقد بدأت اسأله عن موقف العرب ـ بعض العرب ـ من حرب الخليج فرأيته يمد يده ويبسط كفه ويضع الغليون الذي في فمه على الطاولة ويقول لي مع رنة ألم:

ـ اخي! ارجوك! لا لزوم للدخول في موضوع حساس لا يتأتى منه الا الاسى

والالم!. . »

وفهمت كل شيء. . .

واحسست بكل شيء. . .

وسمعت ـ دون اي كلام ـ كل شيء!

ولو ان دول الخليج العربية، ودول العرب «العربية»، اعتبرت حقا وحقيقة ـ ومنذ اليوم الاول ـ ان حرب الخليج هي حربها، وان المصير الواحد هو مصيرها، وان العدو هو عدوها، وان النصر والهزيمة هو نصرها او هزيمتها. . اقول لو ان المشاعر العربية تجاه هذه الحرب قد انصهرت في بوتقة واحدة تعمل لهدف واحد وتبصر بعين واحدة وتتكلم بلسان واحد، وترفعت فوق الصغائر، وكبرت فوق الحساسيات، ونظرت الى المستقبل لا الى اليوم ولا الى الامس. . اذن، لادرك حكام ايران ان حربهم ضد العراق هي حرب ضد الامة العربية «كلها»، وان الظروف تفرض عليهم اختصار طريق الحرب للدخول في طريق السلام. !

ولكن، ، آه والف آه. .

بسبب التردد والخطأ وسوء التقدير، تدهور الموقف وازداد سوءا الى سوء:

● في يوليو ١٩٨٠ هددت ايران، بلسان الحركة الاسلامية في العراق، كلا من الكويت والسعودية من مغبة مساعدة العراق في الحرب الدائرة!. ولم نحرك ساكنا. ولم نرد.

● وفي الساعة الثامنة من مساء يوم ٣٠ ديسمبر عام ١٩٨٠ هددت ايران، السعودية من مغبة تزويد العراق بالبترول!. ولم نحتج. ولم نرد. ولم نستنكر، ومضت الايام. .

وفي منتصف شهر مايو ١٩٨٤ ضربت الطائرات الايرانية شاحنات النفط السعودية والكويتية في المياه الاقليمية لكل من الدولتين المعنيتين!

● ويقول البروفسور الاخصائي «آفي بلاسكوف» في تقريره بعنوان: «السلامة في مياه الخليج ـ الفارسي» والصادر عن مؤسسة الدراسات الاستراتيجية في «نيوجرسي» بالولايات المتحدة الاميركية:

«. . ان تاريخ المنطقة المليء بالكراهية والدماء سيكرر نفسه في صورة هزات

سياسية وعسكرية مكثفة تتضمن محاولات انفصالية وانقلابات مدبرة تغذيها عناصر داخلية وقوى خارجية وتجعل العلاقات الدولية وخاصة بين موسكو وواشنطن اكثر اضطرابا وتعقيدا . !»

ثم يقول التقرير في الصفحة (١٦٩) بالحرف الواحد :

« . . لقد قررت ايران ـ كما يبدو جليا ـ ان تبقي على خصومة مع نفسها وذاتها! ونتيجة ذلك كله تتوقف على نتيجة حرب ايران مع العراق. وتطويل عمر هذه الحرب يأتي ضمن مصلحة جميع الاطراف الايرانية المتصارعة ـ سرا ـ على السلطة في ايران! ان التدهور الاقتصادي الايراني قادر على ان يحطم العهد الحالي. ويجب ان لاننسى ان مجيء (الخميني) الى السلطة كان نتيجة يأس عامة الشعب الايراني في نزاهة الحكم وحاجة هذا الشعب الى (الخبز)، ولذا، قد ينقلب هذا الشعب على الرجل الذي جاؤوا به الى السلطة . ان اليسار وحده هو المستفيد من استمرار هذه الفوضى وهو وحده القادر ـ عند الضرورة ـ على ان يملأ الفراغ الناتج عن سقوط العهد الحاضر . !»

ترى هل نظن بان حكام ايران يجهلون كل هذه الحقائق؟

وما داموا انهم لايجهلونها، فماذا تراهم يفعلون؟

والجواب :

ـ يدفعون بمركبة الحرب الى المزيد من التوسع والى المزيد من الاخطار عن طريق المزيد من المغامرات والمزيد من الاعمال العسكرية!

ماهو الرد؟ وما هو العلاج؟ وكيف يكون العمل النافع السريع في منع وقوع الكارثة؟

صديقنا « الشيخ محمد بن مبارك آل خليفة » وزير خارجية البحرين اعطى جوابه عند وصوله الى مقر الامم المتحدة في نيويورك في صيف ١٩٨٤ فقال :

«لا ادري! ان الانبياء وحدهم يملكون الجواب على هذه الاسئلة الحائرة . !»

سيدي الوزير :

بل نحن وانت معنا، ندري، وتدري!

● **ان القصة قصة حرب. . . !**

وهل مثلك ـ ياسيدي ـ بحاجة الى من يشرح له طرق النصر في الحروب . ؟

لقد عقد زعماء العالم الغربي مؤتمرهم القمة الاقتصادي في لندن وقد وضعوا قضية تزويد فرنسا للعراق بصواريخ وطائرات من طراز «سوبر ايتندار» على رأس جدول اعمالهم، لا من اجل تشجيع فرنسا على المضي في مساعدة العراق وتسليح جيشه ضد التعنت والصلف والنفسية الايرانية الحاقدة المتعطشة للدم، وانما من اجل الضغط على الرئيس الفرنسي «فرانسوا ميتران»، للتوقف عن تسليح العراق ارضاء للضغوط الصهيونية الكارهة للعرب، وجريا وراء سراب محاولة كسب ايران وتحييدها وارضائها . !

وهكذا مازالت دول العالم، بفضل اليهود واسرائيل، تفضل جنون ايران على سلام العراق، وتزيد حمى الثورات الدموية على تعقل العرب واعتدالهم .

الم يكن لدينا كلمة نقولها حيال هذا الواقع المر، ومع الكلمة خطوات نخطوها من اجل «تعريب» حرب الخليج كي تصبح ـ حقا وحقيقة ـ حربا من الفرس ضد كل العرب، لا مجرد حرب من الخميني ضد صدام حسين . !؟

الحديث طويل، وشائك، ولا يحتاج الى تكرار .

وانا ، يشهد الله، ، حزين . . حزين!

ففي يونيو ١٩٨٤ صورت صحيفة برازيلية تصدر في «ريو دي جانيرو» حقيقة حرب الخليج فقالت وهي على بعد ١٥ الف ميل من موقع الاحداث :

«ان حرب ايران والعراق هي اكثر حرب مجنونة وخطرة في التاريخ ! . انها حرب لامعنى لها! ان العالم لم ير ولن يرى حربا سوداء فارغة دموية مستنزفة مثل هذه الحرب . !»

هكذا تفكر البرازيل .

ترى، كيف يفكر . . العرب؟

والجواب :

ـ ان العرب لايفكرون . !

بل لعلهم لايبالون، ولا يكترثون ولا يعرفون! هكذا عالجوا حرب الخليج . وهكذا عالجوا حرب لبنان ! قال لي صديقي الزعيم اللبناني صائب سلام :

ـ نصف العرب يتدخلون في ثورة لبنان لحسابهم الخاص فيدفعون المال ويرسلون الاسلحة ويجندون الانصار وينسفون السفارات ويغتالون الخصوم . !»

وسكت صائب سلام . فسألته على الفور:

ـ وماذا عن نصف العرب الباقي؟

واجابني:

ـ النصف الباقي يتفرج ولا يتدخل، والذي يجري امام عينيه احلى على قلبه من طعم العسل !!. »

انتهى كلام صائب سلام .

وانا اقول:

لا غرابة ان يقع في لبنان كُلّ هذا الذي وقع .

إنّ الذين راهنوا على اسرائيل من اللبنانيين يدركون اليوم كم اخطأوا في حق العرب عندما احسنوا الظن في اسرائيل .

والذين راهنوا على اميركا يدركون اليوم كم اخطأوا في حق لبنان عندما انتظروا مجيء المعجزات على يد اميركا .

والذين تجنوا على الفلسطينيين وحملوهم بالامس مسؤولية خراب لبنان يدركون اليوم ان مصيبة لبنان تنبع من ارض لبنان ومن حكام لبنان ومن احزاب وزعماء لبنان وليس للفلسطينيين في ذلك دخل . لقد سقط كل شيء في لبنان الا المتفرجين .

سقطت الاخلاق وسقطت المبادىء وسقط المعنى الانساني والطابع البشري .

ومع الحزن الذي لا حدود له نقول باختصار شديد: كل ما سبق وقلناه عن لبنان منذ قيام حرب لبنان قد جاء فيما بعد لكي يصبح حقيقة راهنة .

كل ما حذرنا منه وكل ما طالبنا به وكل ما تنبأنا بمجيئه قد اصبح اليوم واقعا مؤلما قائما .

انها ازمة اخلاق ومحنة مبادىء ونكبة امة بأسرها .

* * *

ان الدول الكبرى لاتعمل لمصلحة المبادىء وانما تعمل لمصلحتها . والدولة الذكية هي القادرة على ان تصور مبادئها وكانها مبادىء البشر كلهم! والزيارات

المتبادلة عند زعماء الغرب تكون مجرد وسيلة لاهداف معينة، بينما تبادل الزيارات عندنا ـ في القانون العربي ـ غاية في حد ذاتها! وغيرنا من الزعماء العالميين يجعل ثمن الزيارات المتبادلة مكسبا يعود به الى وطنه، اما زعماؤنا فالزيارات عندهم مكسب شخصي يكيدون بها حسادهم وخصومهم! وزيارات غيرنا، مبنية على الحقائق، وزياراتنا مبنية على الاماني . .

اسمعوا : الارهاب ، والفساد ، والعنف ، واعداء الحريات ، وحقوق الانسان ، كلها مجرد كلمات ، لم يعد لها الوزن الكبير في قاموس السياسة الدولية المعاصرة موديل ١٩٨٥!

هكذا قال اسحق شامير في تل ابيب. وهكذا قال هلموت كول في بون . .

وهكذا قالت «مرغريت تاتشر» ورونالد ريغان في واشنطن! وزعماء الكرملين في موسكو! وفرق الاعدام المسلحة في السلفادور . . «وبعض» زعماء مصر والعرب، في القاهرة، والدار البيضاء.

هل هناك من يسمع؟ هل هناك من يقرأ؟ هل هناك من يفهم؟ . هل هناك من يهتم او يكترث؟

لا! لا! لا!

ذلك ان زعماء لبنان لايفهمون معنى «الدولة» كما يفهمه بقية زعماء العالم؟

زعماء لبنان مجموعة قبضايات ورؤساء عشائر واولاد ذوات، بعضهم قضى نحبه وبعضهم مازال ينتظر وما بدلوا تبديلاً.

زعماء لبنان لا يسافرون الى دمشق أملاً في الوصول الى حل مع حكام سوريا يخدمون به وطنهم، وانما يسافر زعماء لبنان الى دمشق من اجل «استعداء» دمشق على خصومهم من زعماء لبنان الاخرين والامعان في تقسيم الوطن وتفتيته وخرابه!

وزعماء العرب لايريدون حلاً للمشاكل اللبنانية يخدمون به لبنان وانما يريدون الحل الذي يجعل من لبنان «محمية» ليبية، او مستعمرة سورية، او مصيفاً كويتياً، او مصرفاً خاصاً لحاكم دبي! .

وفيما عدا ذلك لاشيء يهم . .

ان صديقي رجل الدين المسيحي، وقد عاد من مقره في جبل لبنان الى باريس،

سمع كلاما خطيرا من صديقه المسؤول الفرنسي الكبير خلال لقائهما في العاصمة الفرنسية، مفاده ان المسؤولين الفرنسيين يعتبون على العهد الجديد في لبنان بسبب ارتماء الحكام اللبنانيين الجدد في احضان اميركا وتخليهم عن الروابط التاريخية التي كانت دوما تشد فرنسا الى لبنان وتجعل منها ـ من فرنسا ـ بمثابة الام الرؤوم لكل مسيحي ماروني في لبنان الصغير. . الكبير!

وقال الفرنسي المسؤول لصديقنا رجل الدين المسيحي اللبناني في سياق العتاب والمصارحة:

ـ نحن لم نؤيد الفلسطينيين ضدكم، ولم نساير العرب على حساب امنكم وسلامتكم! نحن وقفنا مع الفلسطينيين لكي نخدمكم، ولذا يتملكنا الشعور بالدهشة عندما نراكم تزحفون على بطونكم صوب اميركا وتضعون مصيركم عند رونالد ريغان! لقد وقفنا «احيانا» مع الجانب العربي ضد اسرائيل وليس ضدكم، وسايرنا العرب ـ وعلاقاتنا الاقتصادية معهم لاتحتاج الى شرح ـ ضمن الخطوط العريضة لسياسة دول السوق الاوروبية المشتركة وليس بهدف الانتصار للوجود الفلسطيني المسلح في لبنان ضد السيادة اللبنانية! اني اصارحك بأن فرنسا لاتريد ان تخسر لبنان او ان تجعل لبنان يخسرها. نحن موجودون في لبنان بثقافتنا ولغتنا وديننا وتاريخنا واصدقائنا! ولكن الصداقة ـ كما تعلمون ـ طريق باتجاهين، لا باتجاه واحد. وعلى لبنان ان يثبت لنا صدق صداقته لكي نبادر بالرد المطلوب منا تجاهه! . .»

وسكت صديقي رجل الدين المسيحي ولم يجب. .

ولكن حكام لبنان ـ واقصد الذات ـ رئيسه والحزب «الكتائبي» الحاكم، قد بقوا مستمرين في رهانهم على الدور الاميركي الكبير، والمنتظر، في قضية لبنان.

وبقي العرب، اكراماً لحكام لبنان، وللشرعية اللبنانية يباركون الموقف الرسمي اللبناني وينتظرون على يد اميركا، كل الخير وكل البركة وكل السلام. .

فماذا فعلت اميركا من اجل لبنان؟

كانت اميركا تعلم ان العرب ليسوا على استعداد لقبول لبنان وقد اصبح محمية اسرائيلية وان سوريا تنطق بلسان كل عربي عندما تخوض معركة لبنان دفاعا عن

سلامتها وامنها وشعبها ضد الوجود والهيمنة والنفوذ الاسرائيلي في لبنان.

واميركا تعلم تفاصيل المشاكل الداخلية في لبنان وصراع الطوائف وصلات «الكتائب» باسرائيل، وحرمان الدروز من حقوقهم، وسوء توزيع الثروات والفرص والوظائف بين مختلف المواطنين. .

واميركا تعلم حقيقة نوايا اسرائيل في لبنان، تجاه المياه والارض والثروات الطبيعية.

كانت اميركا تعلم كل ذلك، ولكنها ـ تصر على ان تدفن رأسها في رمال ارضها وان تتجاهل كل شيء الا ما يرضي اسرائيل وما يسعد يهود اميركا!.

وهكذا اصبح الموقف السوري ـ في نظرها ـ مساويا للعدوان والتوسع! واصبحت ثورة الدروز مساوية للتدخل السوفياتي الراديكالي ضد الاستقرار والشرعية اللبنانية، واصبح القاتل قتيلا، والقتيل ـ عند اميركا ـ قاتلا!

وماذا كانت النتيجة؟

لعل ابلغ الدروس التي افرزتها حرب لبنان تتلخص فيما يلي:

اولاً: ان حكم الحزب الواحد لم ولا ولن ينجح في لبنان!

ثانيا: ان حكم الميلشيات الحزبية المسلحة، لم ولا ولن ينجح في لبنان. . !

ثالثا: ان حكم الفساد والعمولات والبقشيش لم ولا ولن ينجح في لبنان. . ودعونا من ذكر الاسماء!

رابعا: ان تحويل لبنان الى محمية اسرائيلية لم ولا ولن ينجح في لبنان. !

خامسا: ان الاستهتار بالقرار السوري فيما يخص عروبة لبنان لم ولا ولن ينجح في لبنان. !

سادسا: ان الهروب من قصاص الله وقصاص القدر لن يضمن النجاة للسفاحين والقتلة في لبنان. !

سابعا: ان الاعتماد على اميركا والارتماء في احضانها ضد ارادة العرب وضد ارادة شعب لبنان، لن ينجح في لبنان! لقد فشلت وستفشل لغة الاساطيل!.

وبعد. .

هل حاول اي مسؤول عربي كبير ان يدرس «سر» لبنان كما درسته اسرائيل منذ

قيامها حتى اليوم . ؟

هل هناك زعيم عربي، احب لبنان بقلبه لا بعواطفه ولا بارقام حساباته في بنوك بيروت ولا بغرامياته مع حسان جونيه وعاليه، ووجه الى نفسه الاسئلة التالية :

ـ هل حقا وحقيقة ان الميثاق اللبناني الاسطوري الذي عقده الموارنة مع المسلمين عام ١٩٤٣، مازال صالحا وعادلا، ويمثل حقيقة الواقع اللبناني بعد مرور اربعين سنة على صدوره؟

ان جواب المسلمين بالفم المليان :

ـ لا ! الف الف لا!

ولكن الموارنة يرفضون التنازل عن مراكزهم «السيادية» التي مكنتهم من جمع الثروات وفرض الاراء وجمع الانصار والتمتع بمباهج الحياة، مع استغلال ثروات لبنان واسم لبنان ومزايا لبنان في الداخل والخارج!

وسؤال آخر . .

- هل هناك اي وجود للمساواة والعدالة في مخصصات كافة الطوائف اللبنانية ضمن ميزانيات التعليم والتجارة والصناعة والاصطياف والسلك الدبلوماسي ومعظم الوزارات الحكومية ، والجيش ؟ ؟

وجواب العارفين بحقائق الامور هو باللغات العشر :

ـ لا!

ولكن الذين يعتقدون انهم «انتصروا» في حرب العشر سنوات الاخيرة يرفضون اجراء اي تعديل على ميزانية اية وزارة قد تسلب «الموارنة» بعض حقوقهم وتعيد الى «غير» الماروني بعض حقوقه. !

وسؤال ثالث :

ـ هل لبنان دولة عربية، ام دولة «بوجه عربي» ام دولة شرق اوسطية لا علاقة لها بالعرب وبالمسلمين؟

والجواب متروك لصاحبه! وقد تنازل المسلم اللبناني عام ١٩٤٣ عن عروبته مقابل ان يتنازل الماروني اللبناني عن امه «الرؤوم» ـ فرنسا ـ وعن ولائه للغرب وعن تعصبه ضد العرب وشكوكه ضد المسلمين! وبعد اربعين سنة، تحالفت الكتائب

مع الد اعداء العرب - اسرائيل - وفتحت ابواب لبنان امام جيش الاحتلال الاسرائيلي. !

الا يحتاج مثل هذا الموقف الشاذ، الى وقفة تفكير، واعادة نظر؟!

ثم نسأل:

- ان في لبنان اربعمائة الف فلسطيني، بشري، حي، بني ادم، وكل واحد منهم قد تعرض لحراب اليهود وحراب الكتائب وحراب الذين لم يستنسروا الا في ظل الاحتلال الصهيوني. ! وهؤلاء الناس - اعني الفلسطينيين - لهم قضاياهم، وظروفهم، ومستقبلهم وعلاقاتهم بالدولة اللبنانية التي ترفض الاعتراف بوجودهم وتصر على ملاحقتهم بالارهاب تمهيدا لارغامهم على الرحيل. !

الرحيل الى اين؟؟

والعيش مع من؟ وفي اية ظروف؟ والى متى؟!

واذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية مشغولة بتصفية خلافاتها ولحم شروخها وتوحيد صفوفها، الا ان قضية اربعمائة الف انسان، تبقى عندي وعند الناس وعند التاريخ وعند العرب، اهم من كل المنظمات ومن كل الاشخاص ومن كل الخطب والاسفار والبلاغات الثورية!

لقد بقي العرب يسمون لبنان: سويسرا الشرق!

وما زال ضحايا حمام الدم في دنيا لبنان يحلمون لو يصبح لبنان مثل سويسرا وتصبح بيروت مثل جنيف!؟

وما زال الذين يتمتعون بالتفرج على حمام الدم يتحدثون عن احتمالات التشبه بعالم «جنيف» لعل العدوى تتسرب منها الى بلدهم فتتحقق المعجزة وينتهي شلال الدم في حمام الدم وفي بلد الدم!

ولكن مازال الذين يتشبهون بالسويسريين من اهل لبنان يتسابقون الى وضع الشروط «العنترية».. في وجوه بعضهم لكي لا يصبح لبنان مثل سويسرا ولا يقول اللبنانيون انهم صاروا.. سويسريين!

ان مشكلة اللبناني الكبرى انه يمارس السياسة كما يمارس الطرب، ويعيش في المآسي كما يعيش في الافراح، وينظر الى الاحلام وكأنها ابواب فرج، ويرى في

التمنيات وكأنها احسن الحلول!

ان اللبناني الذي يريد المجيء الى «جنيف» لكي يجد فوق ارضها حلا لمأساته، او لكي يتشبه بها في تقرير مصيره، لايعرف ـ بالتحديد ـ ماهي «جنيف»؟!

ان معلوماته عنها ناقصة، وحساباته خطأ، ومنطقه اعوج وحديثه معاد ويدعو الى الملل!

ان مأساة «بيجماليون» تتكرر كل يوم بين لبنان من جهة وشعب لبنان من جهة اخرى! انا اعني مأساة الذي صنع الصنم وعبدالصنم ثم حطم الصنم! وكل الذي ناله لبنان من اهله العشاق انهم قالوا انه مثل سويسرا . . وانه «قطعة سماء» . . و «بيروت يا جنة العالم»!

● وذات يوم ليس ببعيد، قال لي الصديق الراحل «احمد الشقيري» وهو يمر في حالة اعتزاز بالنفس انه سمع الرفيق السوفياتي المسيو «فيشنسكي» يقول لبعض الوزراء العرب الذين التفوا حوله بمبنى الامم المتحدة بنيويورك في اواسط الخمسينات.

ـ لماذا تقولون ان «الشقيري» هو فيشنسكي العرب ولا تقولون ان «فيشنسكي» نفسه هو . . شقيري الروس؟!

شيء عظيم؟!

وعندما كان المواطن اللبناني يمر في حالة اعتزاز بالنفس تشبه الحالة التي كان يمر بها صديقي الراحل احمد الشقيري، كان هذا المواطن يقول في اعتزاز شديد:

ـ لماذا يقولون ان لبنان هو سويسرا الشرق ولا يقولون عن سويسرا انها ـ اي سويسرا ـ لبنان الغرب!؟

فبالاضافة الى ما يراه «اللبناني» من اوجه الشبه بين «ضهر البيدر» وسان مورتنر، او بين جنيف وشاطىء جونيه، او بين بحمدون و «لوزان»، فان زعماء لبنان ايضا ما زالوا يعيشون في احلام طويلة ومستمرة يتمنون معها ان يصبح نوع الحكم في لبنان مشابها لنوع الحكم في سويسرا . . او قريبا منها . . او نسخة ـ فيدرالية ـ عنه!

وكل من عرف الحياة السويسرية، او عاش على ارضها، او خالط شعبها، يدرك تماما ان سر نجاح التجربة السويسرية في الحكم، ليس موجودا في النصوص وانما هو موجود في الروح، وان سعادة السويسريين لم تتحقق نتيجة النظام الفيدرالي في

الحكم وانما تحققت نتيجة التربية والاخلاق، وان ازدهار سويسرا ليس نتيجة ثروة البنوك بقدر ماهو نتيجة ثروة النفوس. !

ولعله من مفارقات القدر ولؤم الايام ان يجيء القرار اللبناني بالذهاب الى «جنيف» للمصالحة الوطنية متفقا مع موعد اجراء الانتخابات السويسرية العامة للبرلمان الفيدرالي في اواخر شهر اكتوبر عام ١٩٨٣ .

وقد جرت هذه الانتخابات في الجو الاعلى من الحرية المطلقة، وفي الجو الاسمى من الهدوء والسكينة، وفي الجو الاعظم من النظام والمحبة، بعيدا عن المواكب، بعيدا عن الشعارات، بعيداً عن السلاح، بعيدا عن الصور والتماثيل، بعيدا عن استغلال الدين والعائلة والمال لحساب الكرسي، بعيدا عن ترديد العبارات السمجة المقفاة والموزونة من طراز:

«يا اخوان صفوا النية وانتخبوا يوسف عطيه».

او: العربي المجاني «نسيم مجدلاني» !

او: توكل على الله وانتخب «عبد الله»!

او: هل الي «فاضل». . «منير ابو فاضل» ؟ !

او :« عبد الناصر مابيروق الا بعبد الله المشنوق ! »

الى اخر هذه السلسلة الفريدة من «اليافطات» الانتخابية التي التمس اصحابها منها العون للفوز بالانتخابات والتمتع بالجاه والنفوذ فاذا بها ، واذ بهم ، يصبحون وبالا على لبنان ، وشرا على اللبنانانيين !

لماذا ؟ لان قشور الديمقراطية ومظاهر الحكم ورموز الاستقلال هي التي شغلت حكام لبنان عن الالتفات الى قلب الديمقراطية واصول الحكم الصحيح واعمدة الاستقلال الكامل ، الواعي !

ولاجل هذا بقي لبنان بعيدا عن سويسرا، وبقيت سويسرا تختلف كثيرا عن لبنان في المعنى والمبنى، والجوهر والمظهر، والوطن والمواطن. !

ففي سويسرا، ومن خلال معركة الانتخابات البرلمانية الاخيرة، اتفق جميع المرشحين على رفع شعار واحد هو: «نرفض اي تدخل اجنبي في شؤون سويسرا الداخلية لكي تبقى سويسرا لاهلها وحدهم. . »!

وعلى ضوء هذا الشعار تبارى جميع المرشحين في الاصرار على «رفض هجرة الاجانب كي يبقى الوطن لاهله» وعلى رفض الانضمام الى المؤسسة الدولية كي «لايشغلنا العالم بمشاكله» وعلى تمكين اواصر الوحدة بين مختلف «الكانتونات» كي تبقى دولة سويسرا قوية ومنيعة وصلبة!

● هذه هي ثمرات سبعمائة عام من الحكم الديمقراطي الصحيح، ومن حياة الحرية الكاملة! لا هزات، ولا انقلابات، ولا ميليشيات! بل ان كل من يتابع التاريخ السويسري المعاصر يعرف ان المجلس الفيدرالي السويسري الذي يحكم سويسرا لم يتغير ولم تتبدل نسبة تمثيل الاحزاب فيه طيلة ربع القرن الاخير، وان الاحزاب الاربعة التي تمثل الشارع السويسري قد بقيت نفسها، تمثل هذا الشارع، منذ عام ١٩٥٩ حتى اليوم!

وعلى كل من يهمه الامر، ان يعرف بأن في حياة سويسرا السياسية احزاب متصارعة منها الديمقراطي المحافظ، والاشتراكي اليساري، والديمقراطي المسيحي والشعبي المحدود، ولكن الخلاف بين هذه الاحزاب لا يعني استمرار الصراع بينها بقدر ما يفرض عليها حتمية الاتفاق او الوفاق! وهناك رئيس جمهورية يكاد لايسمع باسمه احد، ويجري انتخابه لمدة عام واحد فقط بطريقة التناوب بين اعضاء الحكومة الفيدرالية السبعة! واذا كان من عادة السياسيين في مختلف انحاء العالم التسابق للفوز بالمناصب الوزارية، الا ان وزراء سويسرا هم الذين ـ مع مرور الوقت ـ يقررون الاستقالة من مناصبهم والتفرغ الى شؤونهم الخاصة، اللهم، الا اذا جرى لأحدهم ما جرى للوزير السويسري «ويلي ريتشارد» الذي مات بالسكتة القلبية وهو يرفع شعار الحزب الديمقراطي الاشتراكي. في قلبه وفي ضميره!

● سويسرا بلد من نوع خاص! لايعرف الحروب ولا الثورات! وقد عاش بعيدا عن اهوال الحربين العالميتين الماضيتين فلم يخسر مالا، ولم يفقد ارضا، ولم يبكِ جنديا، ولم يخف غارة ولا سلاحا! وعندما اجتاحت اوروبا ازمات الاقتصاد والمال، بقيت سويسرا ترتع في بحبوحة من العيش اللذيذ! ان البطالة في بريطانيا قد زادت عن عشرة في المائة بينما نسبة البطالة في سويسرا لم تزد عن «ثمن» ـ واحد على ثمانية ـ

في المائة! في بريطانيا يعيش ثلاثة ملايين ونصف مليون بريطاني بلا عمل! وفي سويسرا لايزيد عدد العاطلين عن العمل عن عشرين الف مواطن! في اسرائيل وصل التضخم الى مائة و اربعين في المائة! ونسبة التضخم في سويسرا لم تزد عن ستة في المائة! في سويسرا يتمتع الفرد السويسري بأعلى نسبة «مدخول للشخص الواحد» في العالم كله! في سويسرا لايتمتع المواطن السويسري بحقه الديمقراطي ويشترك في معركة واحدة من الانتخابات فقط، وانما يعيش المواطن السويسري في سلسلة لاتنتهي من الانتخابات المتلاحقة! فاذا قررت الحكومة رفع اسعار «البنزين»، اجرت استفتاء شعبيا! واذا قررت شق نفق في الجبل، عادت الى الشعب لتسأله المشورة! واذا قرر الوزراء تحديد عدد الاجانب، عمدوا الى اجراء استفتاء جديد حول هذا الموضوع! الانتخابات والاستفتاءات الشعبية تجري في كل شهر، ومع كل حادث، وعند كل قرار مهم! ان نسبة الاجانب في مدينة «جنيف» - مثلا - لا تزيد ولا تقل عن ٣١ في المائة! ولكن هذا الرقم لن يزيد مطلقا! هكذا اتفقت جميع الاحزاب! ان سلامة المدينة مسؤولية عامة يشترك فيها الجميع ويتحملها كل مواطن سويسري يقطن في مدينة جنيف! وقد يكره اهل «جنيف» موجات الغزو من الاجانب لمدينتهم، ولكنهم يهدأون ويصمتون عندما يقال لهم ان ازدهار المصارف السويسرية والصناعة السويسرية يعتمد الى حد كبير على. . هؤلاء الاجانب!

وفي سويسرا، لا احد يسألك عن نوعية مذهبك الديني او السياسي. ولا احد يعكر عليك صفو حياتك بعد غروب الشمس فيفاجئك بالزيارة غير المنتظرة او الاتصال غير العادي! وكل مواطن في سويسرا هو «خفير» يحافظ على سلامة بلده ونظافة الحي وهدوء الحديقة وخضرة المنظر!

● اما بالنسبة للحريات، وللحقوق، وللكرامة الشخصية، فان سويسرا - على كافة المستويات - تتمتع بنسبة تصل الى الخمسة والتسعين في المائة في ميدان الحفاظ على حقوق الانسان! ان المواطن السويسري يتمتع - بموجب القانون - بما يلي:

١- حرية التنقل والسفر.

٢- حرية جمع المعلومات ونشرها. .

٣ـ حرية المعارضة السياسية، واعتناق المبادىء السياسية بكافة انواعها.
٤ـ حرية الاجتماع والنقاش.
٥ـ حرية المساواة بين الرجل والمرأة..
٦ـ حرية العبادة والزواج المدني..
٧ـ حرية الصحافة..
٨ـ حرية منع البوليس من اقتحام السكن.
٩ـ حرية منع التعذيب من قبل الدولة.
١٠ـ حرية التمتع بالبراءة الى ان تثبت الادانة.
١١ـ حرية القضاء والتحقيق.
١٢ـ حرية الاتصالات البريدية والاسلكية والتلفونات.
١٣ـ حرية تعاطي الكحول.
١٤ـ حرية المرأة في استعمال جميع وسائل منع الحمل.
١٥ـ حرية الاجهاض.
١٦ـ حرية الطلاق للرجل والمرأة بالتساوي.
١٧ـ حرية الراديو والتلفزيون والاخبار والتعليقات.
١٨ـ حرية نشر الكتب والمطبوعات على اختلاف انواعها.
١٩ـ حرية الابحار والاتجار والعمل بكافة انواعه.
٢٠ـ حرية مقاضاة الدولة.

الى آخره! الى آخره!

هذه المميزات كلها، تجعل من سويسرا شيئاً اخر، غير لبنان! وتجعل مهمة وصول لبنان لان يصبح «سويسرا الشرق» امرا يكاد يكون مستحيلا!

● ذلك ان الحريات ـ في العادة ـ بالغة التكاليف! وان القدرة على التمتع بالحريات دون العبث بها ميزة تتطلب حضارة وثقافة وعلما واخلاقا، ومواطنية صالحة وصادقة.

وهذا كله ما ينقص لبنان!

قد نجد من يقول ان هناك تشابها بين جمال الطبيعة في سويسرا وجمال الطبيعة في

بلد كلبنان؟؟

وهذا صحيح لولا ان التشابه في الطبيعة ليس وحده قادرا على ان يجعل من البلد الواحد مساويا في العلم والمدنية والمنزلة والوجه الحضاري للبلد الاخر، والا، لتساوت «كشمير» الهند مع «سان مورتـز» السويسرية، او تساوت شواطىء «بنغلاديش» مع شواطىء الريفيرا الفرنسية!

ان في سويسرا الكثير من الاقليات والاجناس واللغات والطوائف والاديان! ولكن سويسرا بالذات، هي البلد الاول الذي تتعاون فيه جميع هذه الاقليات والاجناس والاديان من اجل خدمة الكيان السويسري وتوفير اسباب الرخاء والسعادة والمنعة له. ان «كانتون» زوريخ يحرص على رخاء «كانتون» جنيف اكثر من اهل جنيف انفسهم! لان سلامه مدينة «لوزان» تشغل بال اهل مدينة «بازل» اكثر من اهل لوزان انفسهم! وهذا هو مفهوم النظام الفيدرالي الصحيح عند اهل سويسرا! لا فرقة بينهم رغم اختلاف اللغات! ولا خلاف بينهم رغم اختلاف الاديان! ولا صراع بينهم رغم تباين الجنسيات! ان سبعين في المائة من اهل سويسرا يتحدثون باللغة الالمانية! وعشرين في المائة الذين يتحدثون بالفرنسية. وعشرة في المائة فقط باللغة الايطالية! ورغم هذا، فان مدير البنك السويسري في مدينة جنيف يجيد الالمانية كما يجيد الفرنسية، وكما يجيد الايطالية، وان حرمه ـ حرم المدير ـ تحرص على مشاهدة برنامج التلفزيون السويسري باللغة الايطالية قبل ان تشاهده باللغة الفرنسية!

● دنيا من التسامح والتعايش والتعاون..

● عالم من الفهم المتبادل والمصلحة المشتركة.

● بشر يعيشون بلا عقد نفسية ولا مؤامرات ولا دسائس ولا تخريب ولا هدم.

ولاجل هذا، وبسببه، عاشت سويسرا طيلة الحروب العالمية الماضية، سليمة قوية الجانب، محترمة الرأي، مصونة الارض، تتمتع بكل ما تتمتع به الدول الكبرى من هيبة ووقار ومناعة.

وعندما تضيع منها هذه الصفات، سيدخل اليها الاجنبي. تماما، كما جرى في لبنان.

وعندما يفعل اللبناني ما سبقه اليه السويسري، سيصبح لبنان ـ حقا وحقيقة ـ سويسرا الشرق!

لاقبل ذلك! ولا بعد ذلك! ولا فوق ذلك! ولا تحت ذلك!

وقال مواطن سويسري، لصديقه المواطن السويسري الاخر يسأله:

ـ يقولون ان وفدا من بلد «شرقي» يسمونه «سويسرا الشرق» سيأتي الينا لكي يحل مشاكله عندنا.. فهل هذا صحيح؟!

واجابه المواطن الاخر:

ـ بلدنا مفتوح لمن يشاء ولكن الزعم بأن سويسرا الشرق تلجأ الى «سويسرا» الغرب بحثا عن حل لمشاكلها، فهذه نكتة! ان سويسرا الحقيقية لاتبحث عن حلول لمشاكلها خارج ارضها وانما تترك الاخرين يبحثون عن حلول لمشاكلهم.. عندها..»

واخيراً..

قامت الحرب بين ايران والعراق، ودامت خمس سنوات او يزيد وعجز العقل العربي عن مواجهتها او حلها او الانتصار فيها!

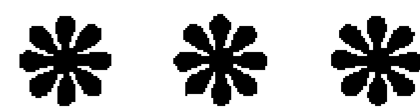
وقامت الحرب في لبنان ودامت عشر سنوات او يزيد، وعجز العقل العربي عن مواجهتها او حلها او الانتصار ـ بالسلم المشرف ـ فيها!

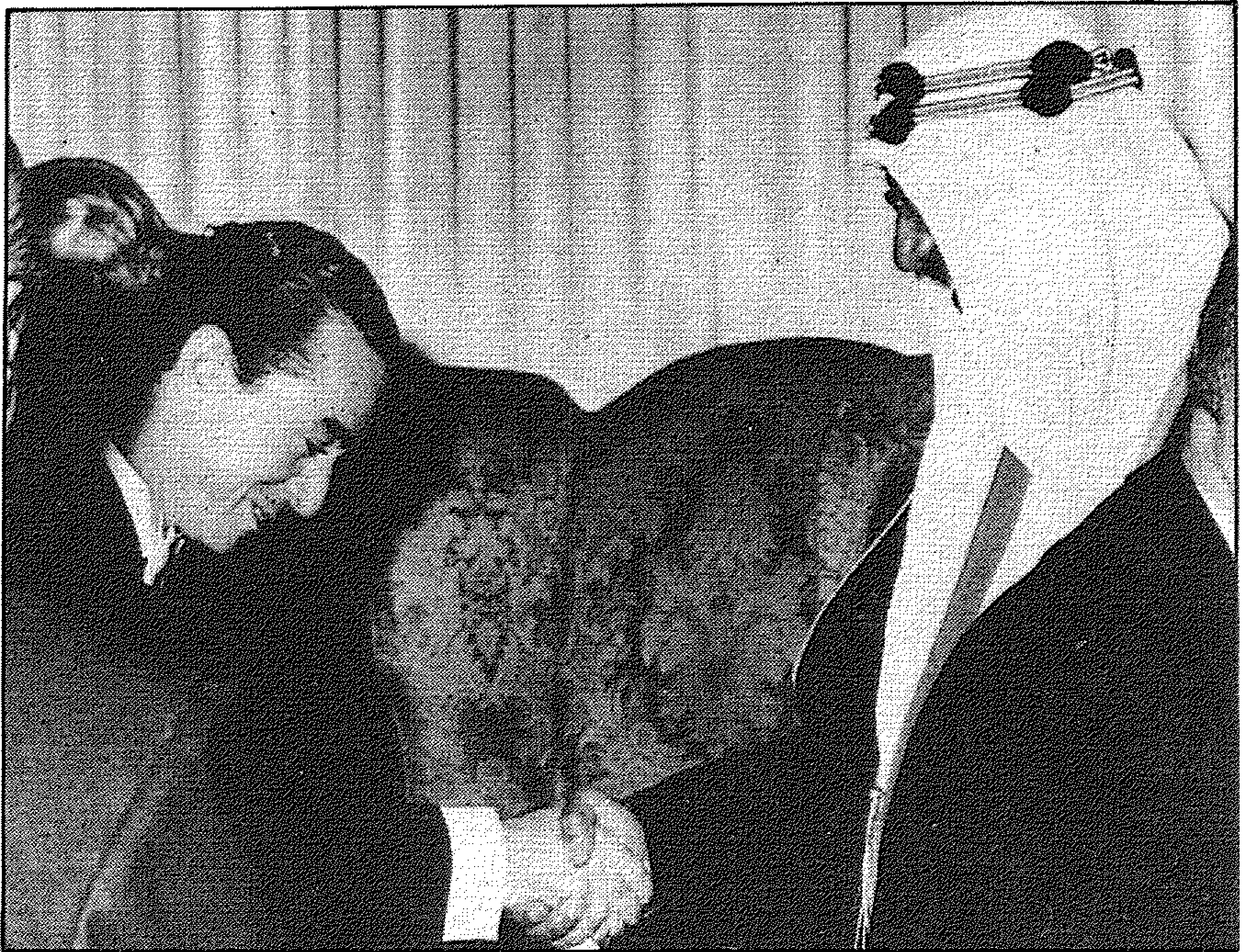
وبعض الشعوب تمتاز باللامبالاة لانها مجرد مجموعات من الجهل، والفقر، وحرارة الجو، وكثرة الانقلابات..؟

اما الشعوب العربية ـ وبالتحديد ـ المسؤولين عنها فان ميزة «اللامبالاة» عندهم مصدرها الغرور، ووفرة المال، و«كثرة» الاستقرار، وليالي السهر الطويلة.

واستمرت كرة الثلج تنحدر.. وتكبر.. وتسقط.!

حتى وصلت الى ما وصلت اليه..!





الملك سعود سمع من ايزنهاور قوله : «لو كانت يدي هي التي اعترفت باسرائيل لقطعتها»

Cypher/OTP POLITICAL DISTRIBUTION

FROM AMMAN TO FOREIGN OFFICE

Sir A. Kirkbride D. 4. 5 p.m. 10th October, 1949.
No. 510
10th October, 1949. R. 6.36 p.m. 10th October, 1949.

Repeated to Bagdad Saving
Beirut "
Cairo "
Damascus "
Jedda "
British Middle East Office (Cairo) Saving
Jerusalem Saving

CONFIDENTIAL

Addressed to Foreign Office telegram No. 510 of 10th October repeated for information Saving to Bagdad, Beirut, Cairo, Damascus, Jedda, British Middle East Office (Cairo), and Jerusalem.

The Prime Minister of Jordan asked me to convey to you the following messages about Arab Palestine, Syria and Iraq and about Jerusalem.

[Begins].

(a) King Abdullah and his Government note that the Saudi and Egyptian Governments are endeavouring to set up a new Government for Arab Palestine. Their representations at Lake Success are working for this end while the delegates of Syria and Iraq oppose it and favour the union of Eastern Palestine with Jordan. The Lebanese delegate has asked his Government for instructions, and in view of the recent statements made to the Prime Minister of Jordan by the Lebanese President and the Premier it is to be expected that they will side with Syria and Iraq. His Majesty and the Government feel that any delay in uniting Eastern Palestine with Jordan is dangerous, and consider that if the present intrigue continues they may have to take positive steps without waiting for a United Nations decision.

(b) King Abdullah and his Government favour closer union [illegible] States provided that this is accomplished by material means, but they regard as dangerous to this country the artificial union proposed today between Syria and Iraq. The ultimate aim of this move might well be to remove Jordan from the existent Treaty Powers with the loss of the constitutional rights of His Majesty and his Allies. They consider also that it is dangerous to

/stability amongst

CONFIDENTIAL

Amman telegram No. 510 to Foreign Office

(2)

stability amongst the Arab States and will be requested to oppose the move to the best of their ability. They do not believe that His Majesty's Government and the United States Government will accept instability in the Middle East.

(c) King Abdullah and his Government do not believe that it is practical to internationalise Jerusalem, or that the United Nations could enforce that policy. Therefore they reject that solution notwithstanding its acceptance by the other Arab States. As the Arab part of the City is held by Arab legion they consider that their opinion should carry the greatest weight. They will not willingly evacuate the Arab part of the City and consider it their duty to announce that fact now.

[Ends].

2. The Jordan authorities are alarmed at the present moves to shake their hold over Eastern Palestine and feel they should not declare the union of Eastern Palestine and Jordan for the present, as prejudicing the chances of that union ever being effected. Their present intention seems to be to wait until about the New Year to see what the United Nations do on the subject, unless the other Arab States set up another Palestine Arab Government, in which case, they will announce the formal union of the two countries immediately and hold elections covering the whole of the area after having dissolved the present Jordan Parliament. As regards the declaration on the subject of the proposed union of Syria and Iraq, the Prime Minister said in reply to a query I raised, that this was made for information only and that he did not expect His Majesty's Government to take any action. They are most nervous about being faced with a decision on the subject of Jerusalem which will amount to internationalisation of the old City only. They also feel that it is a mistake that only the Israelis should make statements rejecting in advance the internationalisation of the whole City.

3. In my view the Jordan authorities will declare the formal union with Arab Palestine regardless of the consequences if the other Arab States set up another Palestine Arab Government. As regards Syria and Iraq their line is that as others were entitled to oppose the more natural union of Syria and Jordan, they are entitled to oppose a union which would only be temporary if it ever came about. I agree in thinking that the possibility of the Syrians and Iraqis settling down to live as one country is remote. I still consider that Jordan would accept internationalisation of the whole of Jerusalem in spite of their present announcement. The reason for this sudden

/outburst appears

CONFIDENTIAL

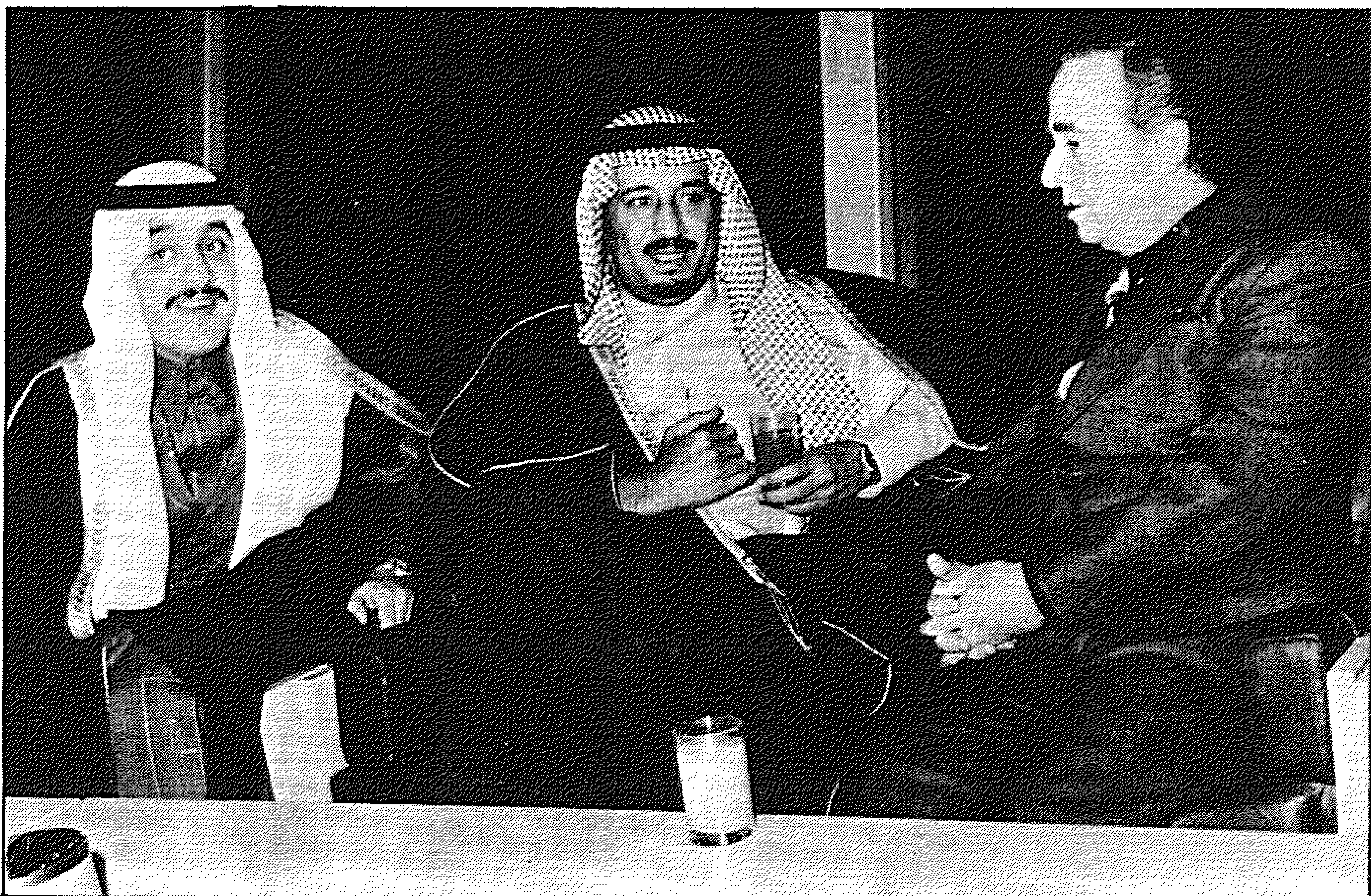
Amman telegram No. 510 to Foreign Office

(3)

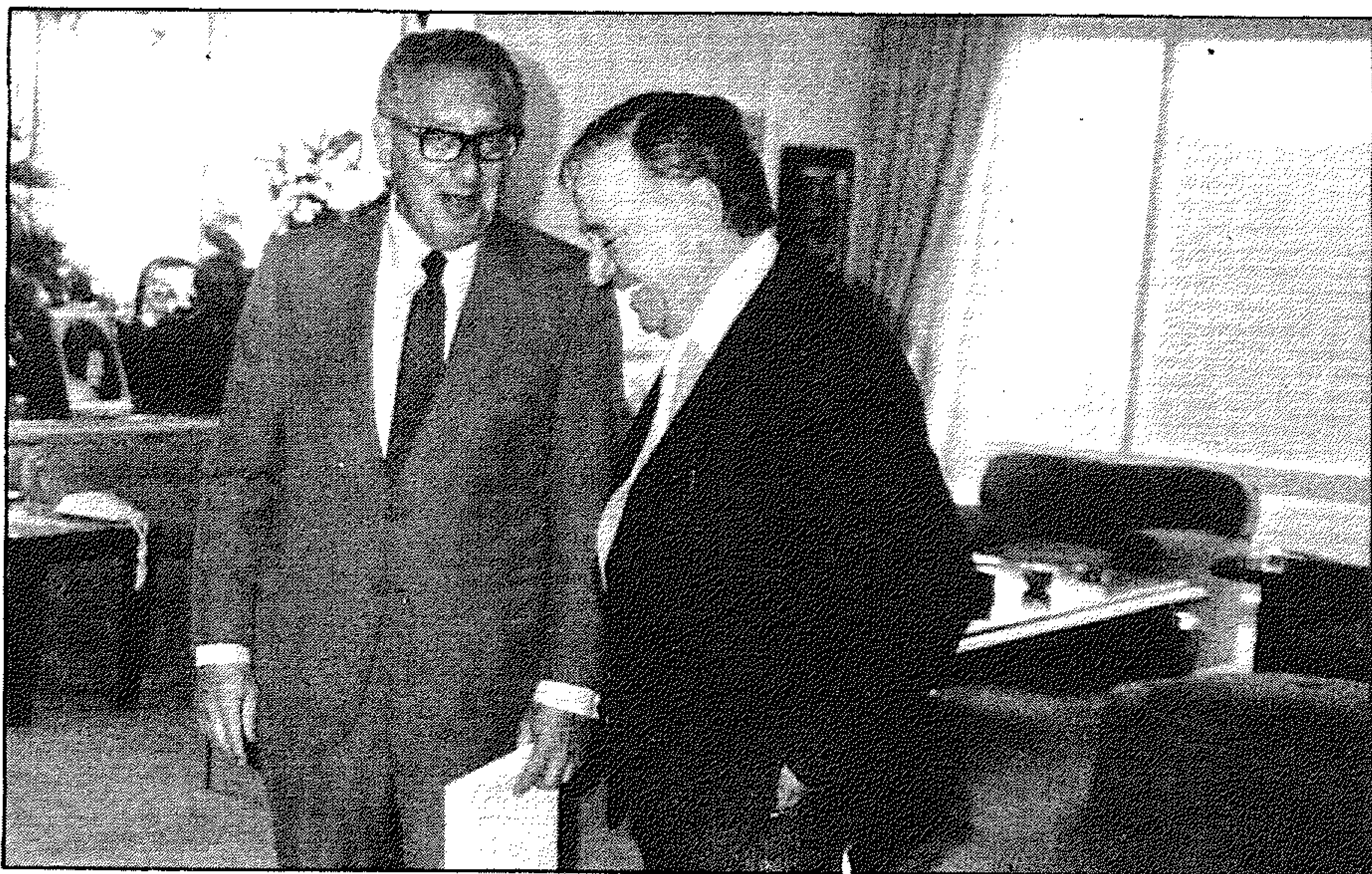
outburst appears to be the conviction shared by King Abdullah and his ministers that Jordan is losing ground by continuing to be sweetly reasonable while other parties are the contrary.

KKKK

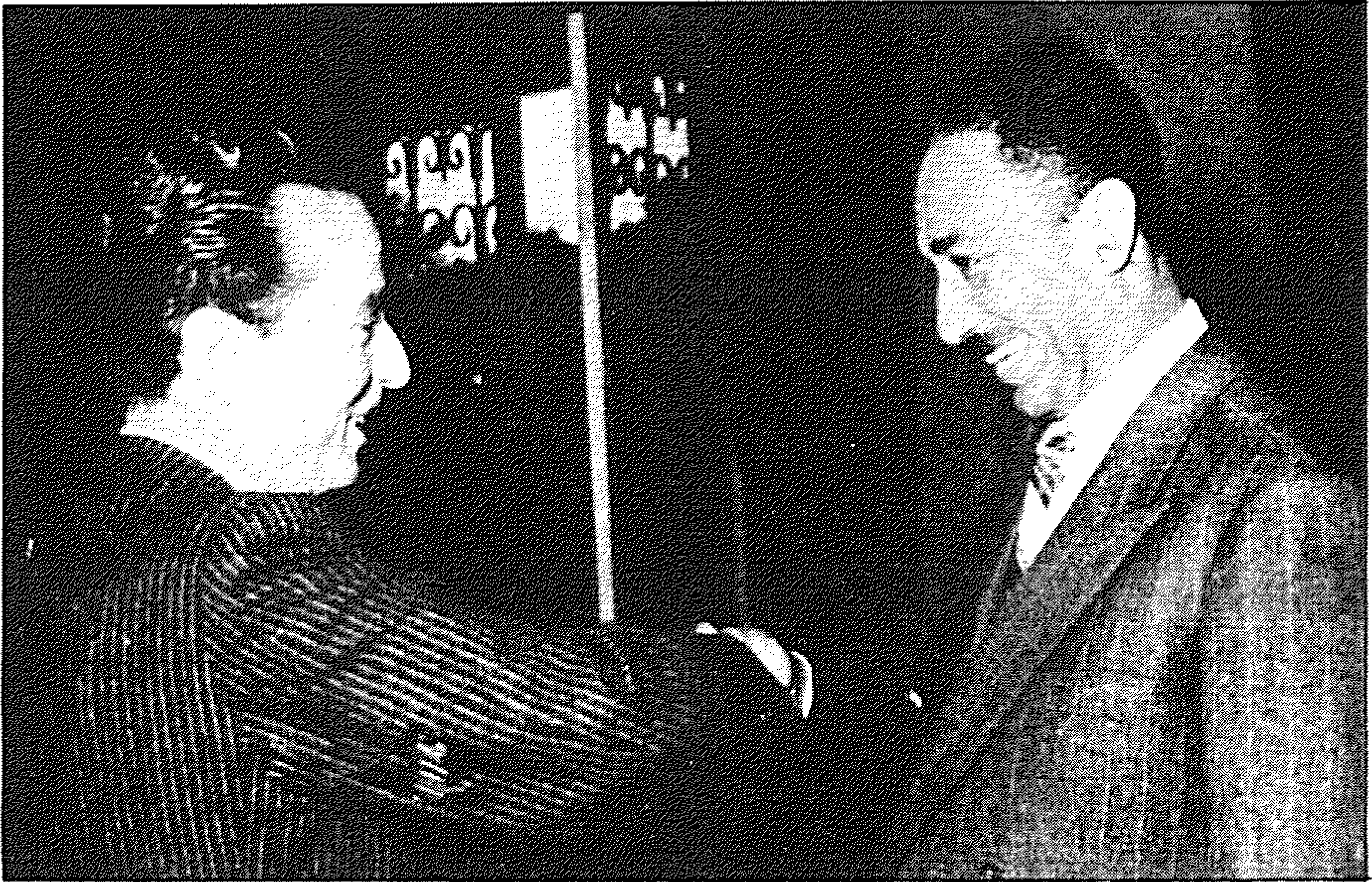
وثيقة بريطانية : «اختلف العرب حول مصير القدس منذ ٣٤ سنة ومازالوا كذلك!



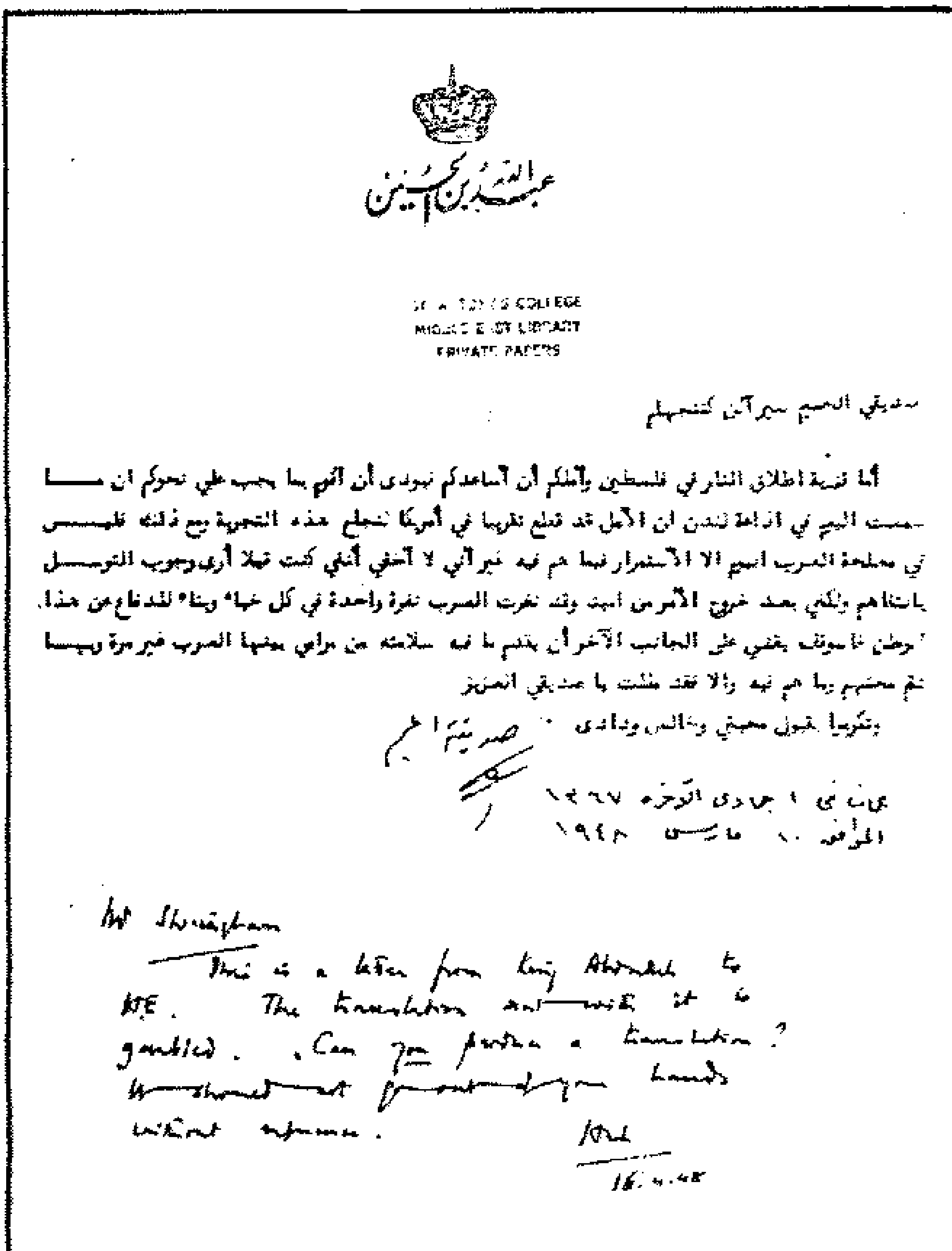
بصراحة واصرار قال لي الأمير سلمان: «نحن في السعودية نتعاون مع جميع الدول العربية، لاننا نحب ان نبقى في موضع نقدر به ان نجمع الحلقات في حلقة واحدة...»



المؤلف مع هنري كيسنجر كانون اول (ديسمبر) ١٩٨٤...



ناصر النشاشيبي يصافح الرئيس أنور السادات . عندما كان السادات رئيساً لمجلس الأمة المصري .



عبد الله بن الحسين

ST. ANTONY'S COLLEGE
MIDDLE EAST LIBRARY
PRIVATE PAPERS

صديقي الحميم سير آلن كننغهام

أما قضية اطلاق النار في فلسطين وأملكم أن أساعدكم لتودوا أن أقوم بما يجب علي نحوكم ان [illegible] ست البحر في اذاعة لندن ان الأمل قد قطع تقريبا في أمريكا لنجاح هذه التجربة ومع ذلك فلست في مصلحة العرب اليوم الا الاستمرار فيما هم فيه غير أني لا أخفي أنني كنت قبلا أرى وجوب التوسل بالتفاهم ولكني بعد خروج الأمر من اليد وقد نفرت العرب نفرة واحدة في كل خباء وبناء للدفاع عن هذا الوطن فالموقف يقضي على الجانب الآخر أن يقدم ما فيه سلامته من مراعي [illegible] العرب غير مرة [illegible] ثم [illegible] بما هم فيه والا فقد مللت يا صديقي العزيز

وتكرموا بقبول محبتي وخالص ودادي صديقكم المخلص

عمان في ١ جمادى الآخرة ١٣٦٧
الموافق ١٠ مارس ١٩٤٨

Mr [illegible]
This is a letter from King Abdullah to H.E. The translation [illegible] it is garbled. Can you produce a translation? [illegible] hands without [illegible].
[illegible]
16.4.48

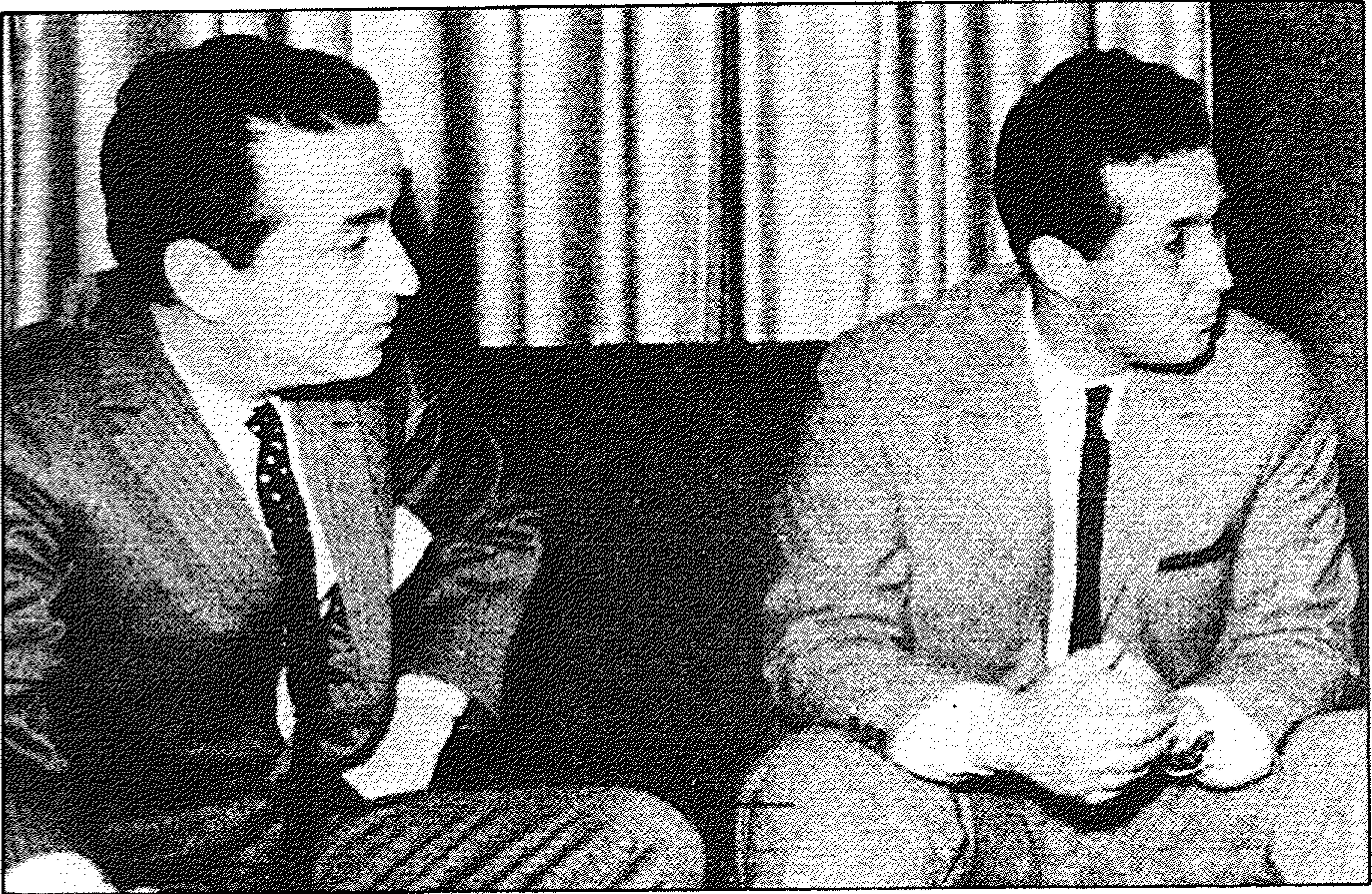
كتب الملك عبد الله بن الحسين الى المندوب السامي البريطاني في عام ١٩٤٨ يقول : لقد مللت



ومع زبيغنيو بريجنسكي



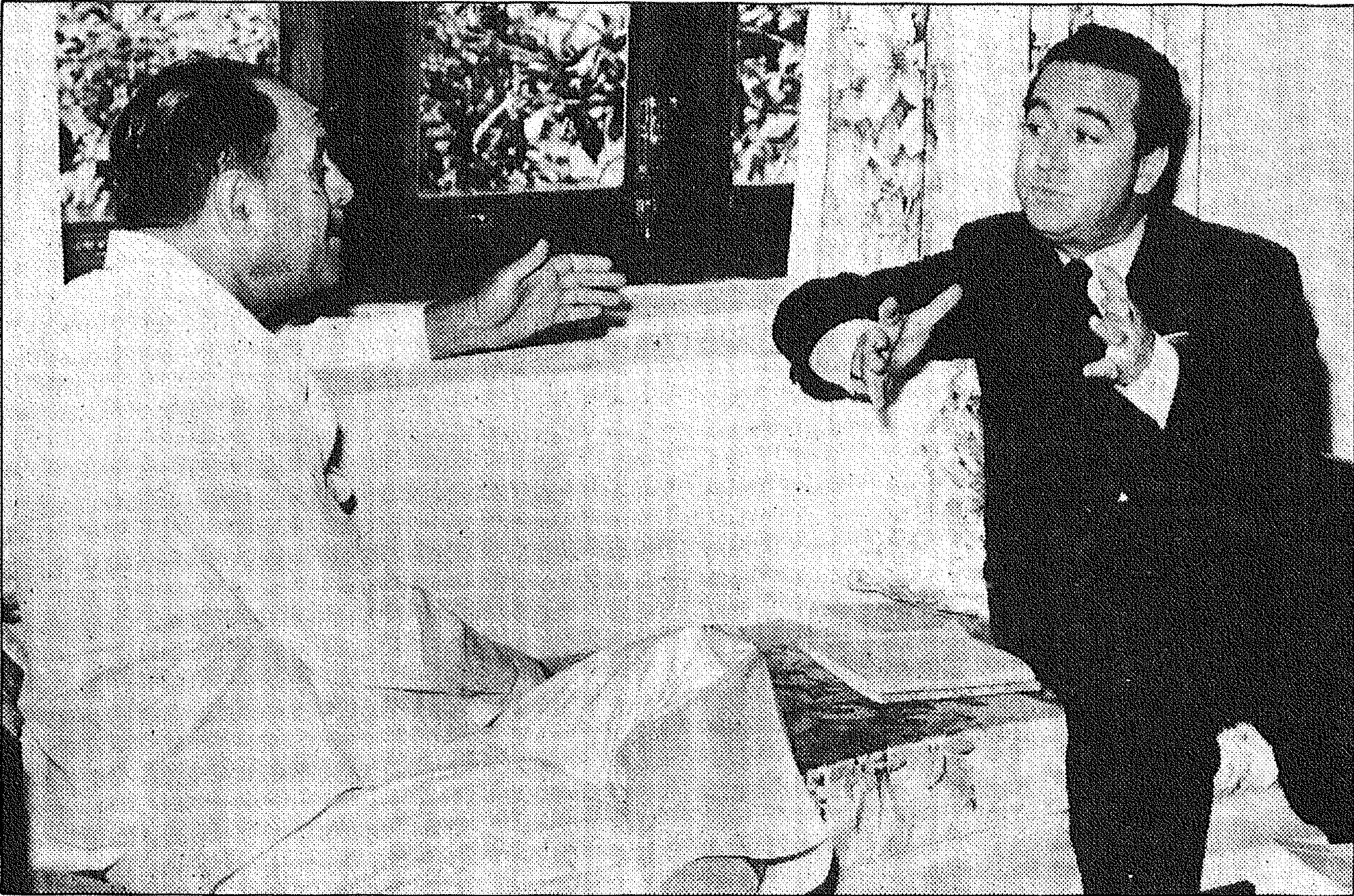
. . . ومع رئيس وزراء السودان السابق محمد احمد محجوب



قال لي احمد بن بيلا في الجزائر: ستمر اجيال طويلة قبل ان تقدر الجزائر على رد الجميل للعرب!



. . . بين عبد الرحمن البزار والسيد حجازي امام ميكروفونات جامعة القاهرة. .



حوار بين الرئيس ايوب خان والمؤلف في كراتشي عام ١٩٦٦



قال لي عبد الله فيلبي الاب : هناك قطعة ارض فسيفسائية التركيب اسمها: «الوطن العربي» اهلها تأثروا بالغرب على الصعيد القومي ولكن قوميتهم العربية خلدت في عالم مسلم . . .

الفصل السادس والعشرون
أيتام على مأدبة اللئام...

● اين اموال الصمود؟ ومن يشتري زيتون العرب، وزيتهم؟ ومن المسؤول عن بناء مستوطنة «كريات اربع»؟!

● السياسة دائماً مناسبات. ودائماً، يبقى العرب «اشطر» الناس في عدم استغلال المناسبات!

● اطفال القدس يستجدون ويشحتون، ولكن باللغة: العبرية! انهم يصرخون: «ادونيم! ادونيم!»

الفصل السادس والعشرون
أيتام على مأدبة اللئام...

رحم الله صديقنا فهد القواسمي. لقد سمعته يقول لي في عام ١٩٧٣ على مسمع من بعض الاصدقاء الفلسطينيين ومنهم القاضي الفلسطيني تيسير كنعان وعضو بلدية الخليل السيد النتشه والمحامي الفلسطيني عزيز شحاده ورجل الاعمال الخليلي السيد حجازي ما يلي بالحرف الواحد كما سبق ودونته في دفتر مذكراتي:

نحن اهل الضفة الغربية مجرد اسرى حرب في يد اسرائيل. وعندما تعتقل روسيا مواطنا روسيا من اصل يهودي تقوم قيامة الصهيونية العالمية وتضغط على اميركا لكي تضغط بدورها على الكرملين لكي يتم الافراج عن المواطن الروسي اليهودي المعتقل. لقد رهن اليهود كل اميركا لحساب يهود السوفيات. لقد اصبح القمح الاميركي وتبادل التكنولوجيا بين الشرق والغرب وتنفيذ سياسة الوئام جزءا من رضى اليهود او عدم رضاهم على الاتحاد السوفياتي. اما نحن ـ والكلام مازال للصديق الراحل فهد القواسمي ـ في الضفة الغربية فأن اسرائيل تقتلنا وتعتقلنا وتمنعنا من السفر وتهدم منازلنا وتصادر اراضينا ولا تتحرك شعرة واحدة عن رأس اي ملك أو رئيس أو امير أو زعيم عربي واحد. . . »

ثم استطرد فهد القواسمي قائلاً لي وكان مازال يومها رئيسا لبلدية الخليل:

«انا لا استطيع ان اترك الضفة لكي اسافرُ الى الكويت او الخليج لأجمع المال اللازم لمساعدة بلدي واهلي .ان اسرائيل تمنعني من السفر. لقد طلبت ان اسافر الى

ليبيا، فرفضوا طلبي، وطلبت ان اسافر الى الخليج فلم يأذنوا لي. وكلما امعنت في مقاومة خططهم امعنوا هم في تعذيبي والحاق الاذى بي والاهانة بعائلتي..»

وقاطعته يوم ذاك سائلا بلهفة:

- وما هي خططهم؟ ماذا طلبوا منك؟

واجابني فهد القواسمي:

- امامنا مستوطنة اسمها «كريات اربع» التي اقامها موشيه ديان لكي تصبح مدينة الخليل بأسرها رهينة تحت رحمة اعدائها. وان قصة «كريات اربع» لم تنته بعد وهي قصة لم يعرف حقيقتها الا من جاء مثلي الى منصب رئاسة البلدية واطلع على الاوراق السرية والرسائل المتبادلة وادرك ان الجريمة ليست كلها اسرائيلية وان المجرم ليس وحده موشيه ديان»؟

وصرخت يومها اسأل فهد القواسمي:

- قل ماذا تعني؟ اشرح! فسر! تكلم!

واجابني فهد القواسمي بكل مرارة:

- لو اني فعلت لقتلني العرب قبل ان يقتلني اليهود. !!!

ترى ماهي قصة مستوطنة «كريات اربع» التي بناها الاحتلال الصهيوني على مشارف «الخليل» لكي تتحكم بالاهالي العرب ويصبح كل عربي في تلك المنطقة تحت رحمة هؤلاء المستوطنين؟!

وكيف قامت هذه المستوطنة في جو مريب مليء بالشكوك والالغاز، في اوائل السبعينات، دون ان ينبس رئيس بلدية الخليل يومذاك - الشيخ محمد علي الجعبري - بكلمة احتجاج واحدة، بل، دون ان يتوقف الجنرال «موشيه دايان» عن زياراته الودية لبلدية الخليل وحضوره الاحتفالات الرسمية التي كانت تقام باسم اهالي الخليل تكريماً له.؟!

وهل كانت منظمة التحرير الفلسطينية، وهي الممثل الشرعي والوحيد - كما تريد - للشعب الفلسطيني، على علم ببعض ماكان يجري في منطقة الخليل يومذاك، ام ان المنظمة كانت كالزوج المخدوع، آخر من يعلم؟؟

وهل كان سكوت المنظمة ورجالاتها وانصارها داخل الارض المحتلة على اقامة

مستوطنة «كريات اربع» بجوار الخليل، سبباً في تشجيع سلطات الاحتلال على المضي في مشاريع الاستيطان والاستخفاف باية مقاومة عربية قد تقف ـ يومذاك ـ في وجوههم؟

إنّ مأساة بناء مستوطنة «كريات اربع»، تصلح ان تكون نموذجاً لوصف الحالة التي عاش فيها مليون فلسطيني في الارض المحتلة منذ عام ١٩٦٧، وهم كالايتام في مأدبة اللئام.. او كالرهائن في حراسة القتلة.. او كالاسرى في حوزة الاعداء.!

ولن يعرف التاريخ المعاصر، احتلالاً اسوأ من الاحتلال اليهودي، وشعباً، كالفلسطينيين تمنى، لو كان يملك الوسيلة- لكي يقاوم ذلك الاحتلال كما لم يقاومه شعب في التاريخ!

ولكن الوسيلة المطلوبة، لم تتوفر لهذا الشعب الاسير، مع الاسف الشديد! «واموال الصمود»، لم تكن تصل كلها الى اهل الصمود.. الصامدين! والوزير المسؤول عن «الارض المحتلة» كان يقضي ايامه «خارج» الشرق الاوسط و لايشعر بأي حرج في ان يحمل مشتريات دفع ثمنها من مخازن «مارك اند سبنسر» في لندن!

وتجار الزيت والصابون في الارض المحتلة وقد عجزوا عن تصدير محصولهم من الزيت والزيتون والصابون الى دول الخليج، باعوا المنتوج في اسواق حيفا وتل ابيب، وقبضوا القيمة «التشجيعية» من سلطات الاحتلال وكان الله يحب المحسنين!

والعمال العرب في قضاء «رام الله»، ونابلس، والخليل، واريحا، وقد سدت في وجوههم منافذ العمل، لم يجدوا بداً من الالتحاق «بالورش» العمرانية التي اقامتها سلطات الاحتلال لاقامة المستوطنات فوق الاراضي المصادرة من اهلها العرب..!

وكان الله غفوراً رحيماً!

ويأتي السؤال الذي يطرح نفسه:

ـ من المسؤول؟ واين منظمة التحرير؟ واين الدول العربية؟ واين الزعماء والرؤساء والامراء؟ واين لجان الانقاذ ولجان التحقيق؟ اين؟!

في سنوات الحرب العالمية الاخيرة، كانت الوكالة اليهودية لفلسطين تعلم ـ من خلال جواسيسها وعيونها في داخل معسكرات هتلر ـ كل خبر وكل سر يتعلق بأي

يهودي معتقل في داخل تلك المعسكرات! كانت تعلم بأوضاع كل يهودي، وحالته المالية، وعمله، ونشاطه، وميوله، ومقاومته! وعلى ضوء تلك المعلومات كانت اليهودية العالمية، تتحرك وتتشاور وتقرر وتخطط وتنفذ. ! اما فيما يتعلق بالمليون عربي اسير في الارض المحتلة؟ فقد كان الاهمال العربي لهم، وقلة الاتصال بهم، وعدم رعاية شؤونهم، مع احساسهم بالبعد، والعزلة، سبباً في تمكين قوات الاحتلال من افتراسهم وترويضهم. !

ويسأل اهلنا في الارض المحتلة:

- هل هناك من يسأل عن مساجيننا العرب في سجون «الرملة»، وبئر السبع وعتليت؟!

وهل هناك من ساعدنا بالمال لكي نقاضي قوات الاحتلال التي تصادر اراضينا بدون حق؟

وهل هناك من يستجيب لاستغاثات الشيخ «سعد الدين العلمي» مفتي القدس عن احوال المسجد الحزين والاخطار المحدقة به وما يقوم به الحاخام «كاهانا» وجماعته من اعتداءات وتحديات وتصرفات. ؟

وهل هناك من يرعى العمال العرب العاطلين عن العمل، او الطلاب العرب الذين انهوا دراساتهم ويبحثون عن عمل، او الفلاح العربي الذي لم يعد يجد سوقاً لمحصوله او ارضاً يعمل فيها ويكسب قوت يومه؟

ولا جواب! لا جواب!

ومما يزيد في الحسرة والالم، ان العرب «الاسرى» في الضفة الغربية المحتلة، يعيشون وسط «سيرك» من الالاعيب السياسية الاسرائيلية، مليء بالفضائح، زاخر بالشتائم، مفعم بالضعف والخور والانقسامات بينما اخوتهم العرب في الخارج عاجزين عن الرؤية الصحيحة ولا يقدرون استغلال مثل هذه الاوضاع السياسية المتهالكة الغضة لحسابهم او لحساب قضيتهم. !

مثلاً:

كان المفروض ان لاتجري انتخابات اسرائيل في عام ١٩٨٤ قبل اكتوبر من عام ١٩٨٥ لولا ان عمد الادون - وترجمتها من العبرية «السيد المحترم» - اهرون ابو

حصيرة ـ اليهودي المغربي الاصل وزعيم حزب «تامي» وخريج السجن والمتهم بسرقة اموال الدولة عندما كان رئيسا لبلدية «الرملة» ـ اقول لولا ان عمد هذا «المحترم الشريف» الى تفجير الموقف عندما اعلن الاعضاء الثلاثة من حزبه في الكنيست ضرورة اجراء انتخابات مبكرة فانسحبوا بذلك من الموقف الحكومي الى الموقف المعارض . !

ويقال ان «ابو حصيرة»-وهو ضعيف امام اغراءات المال-قد شعر يومذاك بوطأة التدهور الاقتصادي في البلد عندما امتنع صديقه اليهودي المليونير المغترب ـ واسمه نسيم جاعون ـ وهو صاحب فندق «هيلتون» الشهير في مدينة «جنيف» بسويسرا والذي يفضله بعض عرب مصر والخليج على سواه عند مجيئهم الى اوروبا ـ امتنع هذا السيد المليونير عن تزويد «صديقه» ابو حصيرة بالمال المعتاد لان حكومة اسرائيل رفضت اعطاءه الضمانات المالية الضرورية ولانه ـ اي نسيم جاعون ـ يشكو من ازمة مالية حادة بسبب ركود اعماله الانشائية التي يجريها في نيجيريا!؟

وقامت قيامة «اهرون ابو حصيرة» ضد الحكومة، واعلن حزبه الانضمام الى المعارضة!

● واسقط في يد حيروت . . وليكود . . واسحق شامير! فالوقت ليس مواتيا لاجراء انتخابات لان الحالة الاقتصادية في البلاد «عدم» والميزانية عدم والصادرات عدم، والهجرة الى البلاد عدم في عدم . . !

يضاف الى ذلك ان الصراعات الشديدة ليست بين الاحزاب فقط، وانما هناك صراعات اشد وادهى بين اعضاء الحزب . . الواحد! مثلا : صراعات داخل «الحزب الديني القومي» بين زعيم الحزب ووزير الداخلية «يوسف بورغ» من جهة، واقطاب حزبه المتطرفين من امثال «هنان بورات» والحاخام «حايم دركمان» من جهة اخرى!

وصراعات داخل حزب «اغودات اسرائيل» مع ظهور تيار ديني ـ سفاردي متطرف ـ اسمه «شاسن» داخل الحزب!

ثم ظهور مفاجىء للوزير السابق «عزرا وايزمن» وعزمه على العمل السياسي بحزب سياسي جديد قد يفوز اعضاؤه على حساب اعضاء حيروت، والليكود . !

ثم قرار السفاح الاشهر ايريل شارون ـ وزير الدفاع «والمذابح» السابق ـ على ان يتحدى اسحق شامير في زعامة حزب حيروت، وبالتالي، الليكود!

هيصة!

● ولو كانت مثل هذه الفوضى السياسية في اي بلد عربي، او كانت مثل هذه الافلاسات المالية عند اية عاصمة عربية، او كان هذا «العدم» في الحكم وفي النظام وفي الهيبة وفي القانون وفي البطالة وفي التضخم وفي التلاعب وفي الذبذبة وفي الغش عند اي شعب عربي، لانطلقت اذاعات اليهود وصحف اسرائيل وعملاء الصهيونية في انحاء العالم، يسخرون منا ويضحكون علينا ويتهموننا بالجهل والعجز والكسل والفشل، وينادون بان لاصلح ولا سلام مع امة بلا اخلاق، ولا كلام مع دول بلا مال، ولا تعايش مع شعوب بلا مبادىء!

ولكن العرب ـ سواء داخل الضفة ام خارجها قد بقوا عاجزين عن الاستفادة من الازمات التي يمر بها عدوهم، وتحويل هذه الازمات الى انتصارات لحسابهم، والضرب ـ والحديد كما يقولون ـ حام!

ومما يزيد الامر اسفاً، ان القيادات الفلسطينية الداخلية في الارض المحتلة، بقيت صورة للتناحر والصراع الذي يكتنف اخوانهم في القيادات الفلسطينية خارج الارض المحتلة! ولم يستطع الاحتلال البغيض مثلاً، ان يجمع بين رئيس بلدية بيت لحم ورئيس بلدية نابلس، او يجمع بين انور الخطيب وانور نسيبه، او يصهر جهود المحامي عزيز شحادة مع جهود القاضي تيسير كنعان، او يرسم لصحف الضفة سياسة وطنية واحدة تلتزم بها في معالجة الاحداث، او يوحد بين نضال عرب «حيفا» ونضال عرب «اريحا» ضد العدو. !

وكان الرسل والسفراء الاجانب من اميركا واوروبا يأتون الى القدس لمقابلة القيادات العربية الفلسطينية المحلية والاستماع الى وجهات نظرها في القضايا المطروحة، فيجدون امامهم اكثر من رأي، ويستمعون الى اكثر من وجهة نظر، بل كانت بعض الاراء تتضارب تماماً مع الاراء الاخرى، وكان صديقنا الحاج رشاد الشوا -مثلاً- يقول في «غزة» شيئاً يختلف عما يقوله حكمت المصري او بسام الشكعة في نابلس. . .

ومسؤولية كل هذا التخبط، تقع بالدرجة الاولى على القيادات الفلسطينية الممثلة بمنظمة التحرير الفلسطينية وعلى الحكومات العربية التي اكتفت من جانبها بمقررات الرباط فغسلت يدها من القضية وتركتها ـ حسب المقررات ـ للممثل الشرعي . . الوحيد!

نعم! واقولها بالفم المليان وكلي فخر واعتزاز بكل قطرة دم عربية سفكت على تراب وطني المحتل، ان المقاومة الفلسطينية العربية داخل الارض المحتلة، وعلى مدى الـ «١٨» سنة الماضية، كانت اقل مما يتمناها لها العرب، او يتمناها لها فدائيو الجنوب اللبناني او يتمناها اهل الضفة انفسهم!

والسبب واضح ولا يحتاج الى تكرار.

ولهذا، ولانعدام المقاومة الشرسة لقوات الاحتلال، استأسد البغاث واستنسر الذباب، واصبح الحاخام «كاهانا» وامثاله ابطالاً في نظر شعب اسرائيل، نراهم يدخلون القرى العربية ويهددون اهلها بالطرد، ويحملون السلاح فوق اكتافهم، ويحملون القانون والنظام فوق ايديهم، ويمارسون لعبة «اللص ورجل البوليس» في وقت واحد. !

وهكذا يصح فيهم الحوار الشعبي الذي يقول: « قيل لفرعون من فرعنك ، فأجاب: لم اجد من يخيفني أو يمنعني ! »

الواقع يقول اننا في حالة حرب ضد اسرائيل.

ترى: هل «اجازات الصيف»، وتحويل الاموال، وتصدير البرتقال، وتبادل الزيارات، كلها امور تتفق مع الحرب وظروفها وشروطها؟

هل يجوز ان يقال ان العرب يملكون شركة عربية اسمها «شركة كهرباء القدس» ورئيسها عربي مقدسي، وموظفوها عرب، ولكنها مملوكة باكثر من «تسعين» في المائة من رأسمالها، الى اليهود، واكثر من «تسعين» في المائة من انتاجها موجه للمستوطنات اليهودية المحيطة بالقدس؟!

وليس سراً ان جميع فنادق القدس «الشرقية» التي هي اصلاً فنادق عربية، لاتستقبل زائراً واحداً، او تقبل في غرفها وفداً سياحياً واحداً الا بعد ان تتفضل عليها، وزارة السياحة الاسرائيلية وترسل اليهم الفائض من زوارهم وزبائنهم!

اتمنى على العرب ان يرسلوا وفداً صغيراً واحداً الى شوارع «القدس القديمة» حيث يلعب اطفالنا واولادنا في الحارات المظلمة ويتبادلون الكلام والسباب، بالفاظ من لغة الاعداء، ويمدون اياديهم الصغيرة الى اي «خواجا» يعبر امامهم. يطلبون منه المال يشحذون، ايضاً، باللغة العبرية!

انا اكتب هذه السطور بالعقل لا بالعاطفة، وبالحقيقة لا بالخيال، وبصورة الامر كما هو، لا كما نتمناه ان يكون او لايكون!

وفي مرارة حديث العقل ما يدعو الى الالم. كما ان كلام الامر الواقع يتشح بالسواد اكثر منه دعوة الى الاسترخاء! واذا كان من واجب الانسان المؤمن ان يستعيذ بالله من شرور الشياطين، فاننا لانملك الا ان نردد ونحن نكتب الآن عبارة تقول: « لاقدر الله» او «لاسمح الله» فيصبح عنوان هذا الكلام هكذا: «من سيهدم الاقصى. . . لاسمح الله ؟» او «متى سيسقط المسجد الاقصى لاقدر الله!» او «لماذا سينسفون الحرم الشريف عليهم لعنة الله ؟!».

هل سمع المسلم العربي بالارهابيين اليهود الذي اعتقلتهم السلطات الاسرائيلية واعترفوا بخططهم ونواياهم واسلحتهم واسماء شركائهم من اجل تنفيذ نسف المسجد الاقصى وتحطيم الحرم الشريف وتخريب قبة الله المشرفة «وتنظيف» الساحة بأسرها تمهيدا لاقامة المبنى الجديد المنتظر لهيكل سليمان. . العتيد!

ورغم الاعترافات الصريحة التي ادلى بها هؤلاء الارهابيون اليهود من اعضاء «الجوش امونيم» ومن سكان مستوطنات «كيشيت» في الجولان، «وكريات اربع» بجوار مدينة الخليل، ومستوطنة «كوني شمرون» ومن اصدقاء الوزير السابق ايريل شارون، وبينهم الحاخام «موشيه ليفنجر»، رغم ذلك، الا انني لم اسمع ولم اقرأ عن مسؤول عربي واحد، في اي بلد عربي، سواء كان من الملوك المحافظين ام من الرؤساء الثوريين العقائديين، استدعى الى مكتبه او قصره او مجلسه السفير الاميركي المعتمد في بلده لكي يلفت نظره الى خطورة الموضوع ويطلب منه نقل تفاصيل المقابلة والحديث الى المسؤولين في حكومته!؟

لا السعودية ودول الخليج، ولا سوريا ودول الثورات، ولا حتى اليمن الجنوبي والشمالي ولا الجزائر ولا مقام «امير المؤمنين» ورئيس «لجنة انقاذ القدس» الملك

الحسن الثاني وفقه الله!

ويظل السؤال الذي يطرح نفسه تلقائيا ويقول:

ـ وماذا دخل اميركا في الموضوع؟ لماذا اميركا؟

ويجيء الجواب هكذا:

لان الاعترافات الكاملة ـ والمذهلة ـ التي ادلى بها المتهمون اليهود امام رجال التحقيق الاسرائيليين قد اعلنت بما لايتطرق اليه اي شك ان:

اولا ـ ان يهود «اميركا» الذي يحملون الجنسية «الاميركية» ويدفعون الضرائب «لاميركا» وينعمون بالرعاية الاميركية هم الذين كانوا يتبرعون للمنظمات الارهابية اليمينية التي ينتمي اليها الارهابيون، بالمال والمساعدة والتشجيع وعلى مختلف المستويات. . !

ثانيا ـ ان يهود اميركا ـ هؤلاء ـ هم الذين بادروا الى جمع المزيد من الاموال وارسالها الى عائلات هؤلاء المتهمين فور سماعهم بانباء اعتقالهم، وذلك للانفاق منها على القضايا والمحامين. . !

ثالثا ـ ان واحدا من هؤلاء الاميركيين، ويعمل رئيس تحرير مجلة اسمها: «الجوش برس»، ومقرها في «بروكلين» بالولايات المتحدة قد تبرع بمبلغ ثلاثين الف دولار، من جيبه الخاص لمنفعة هؤلاء المتهمين!

رابعا ـ ان الدعوات الشعبية والرسمية لمساعدة الجمعيات اليمينية الارهابية في اسرائيل قد لاقت تجاوبا هائلا من رجال الاعمال اليهود ومن كبار الممولين والشخصيات اليهودية في اميركا. . بالذات!

خامسا ـ ان بعض الصحف اليهودية في اميركا قد بادرت الى نشر سلسلة من الاحاديث الصحفية على لسان المتهمين اليهود ممن اعتقلتهم سلطات اسرائيل ووجهت اليهم تهم القتل، والنسف، وتهريب السلاح، ومحاولة قتل رؤساء البلديات العرب وهدم المسجد الاقصى، وقد جاء هذا النشر منافيا للقوانين القضائية في اميركا وفي اسرائيل معا!

سادسا ـ عمد المئات من يهود «اميركا» الى ارسال المئات من برقيات الاحتجاج الى السلطات الاسرائيلية بسبب «اعتقالها» لهؤلاء الرجال الذين يدافعون عن

«شرف» اليهود ويحملون السلاح ضد العدو . . العربي!

سابعا - ظهر في «لوس انجلوس»، بالولايات المتحدة يهودي اسمه «ايوان موير» واعلن عن انشاء لجنة رجال يهود «كبار» من بينهم الحاخام «افنير وايز» المشهور بتزعمه للحملات الشعبية ضد الاتحاد السوفياتي بسبب موقف السوفيات من يهود روسيا، وكذلك المستر «نواح دير» عضو مجلس بلدية نيويورك وغيرهم!

ثامنا - جميع رجالات اليهود «الاميركيين» الذين يؤيدون الجمعيات الارهابية ويتبرعون لها ويدافعون عنها، يؤمنون بأن ارهاب اليهودي ضد العربي هو عمل «شرعي»! قال احدهم «الفرق بين «ارهاب» الفلسطيني وارهاب الاسرائيلي ان الفلسطيني يمارس الارهاب للقضاء على اسرائيل، بينما الاسرائيلي يمارس الارهاب «دفاعا عن اسرائيل!».

تاسعاً - بين كبار المؤيدين الاميركيين للمنظمات الارهابية الاسرائيلية التي تكشفت اعمالها وجرائمها، يوجد اسم الحاخام «دوف اهرذني» المدير التنفيذي لفرع حزب «حيروت» الاسرائيلي في اميركا، والذي ادلى بحديث قال فيه بالحرف: «. . ان هؤلاء المتهمين الذين اعتقلتهم سلطات اسرائيل هم «احسن وانظف» الناس بين شعب اسرائيل!».

عاشرا - ان بين الجهات الاميركية المتنفذة التي ايدت ورعت وتبرعت لتلك المنظمات الاسرائيلية الارهابية المذكورة، توجد اسماء بنوك ومصارف وشركات يهودية اميركية معروفة لها فروع وشركاء ومصالح في الاسواق «العربية» وفي الكثير من عواصم الشرق «العربي»، ولا لزوم للشرح ولا لذكر الاسماء فالقائمة طافحة باسماء يهود لبنان والعراق والمغرب!

احد عشر - ان الحاخام «موشيه ليفنجر» الذي يتزعم التنظيم السري الاسرائيلي ضد العرب، والذي كان «بطل» فكرة الاستيطان اليهودي في مدينة «الخليل» العربية «وبطل» موجة الاستيطان السياسي والعسكري الاسرائيلي في مختلف انحاء الضفة الغربية، وصاحب ارذل واحقر والعن نفسية اجرامية ضد العرب . . هذا «الحاخام» بالذات ما زال يحمل الجنسية الاميركية بالاضافة الى جواز سفره . . الاسرائيلي!

ثاني عشر ـ من بين كبار المؤيدين الاميركيين المعروفين للتنظيم السري الارهابي الاسرائيلي في الضفة الغربية المحتلة يأتي اسم «هاري توبنفيلد» احد كبار المحامين الاميركيين، واسم «بوب جاكوبز» رئيس شركة محاسبة اميركية معروفة، والحاخام «ستانلي شومسكي»، والحاخام «اريه رال باغ» الزعيم الروحي للشبان اليهود في «بروكلين»، و «ياكوف شتيرن برخ» ممثل التنظيم الارهابي في نيويورك!! كما ان المدعو «ايرا رابورت» المتهم بالاعتداء على حياة بسام الشكعة في نابلس وكريم خلف في رام الله، مازال مختفيا عند اصدقائه . . في نيويورك!

يعني؟؟!

● يعني ان التنظيم السري الارهابي المتطرف، والمتعصب في يهوديته وصهيونيته، والذي تكشفت معالمه وصوره، انما هو تنظيم اسرائيلي ـ اميركي، يستمد المال والخبرة والتنظيم والتأييد من قلب الولايات المتحدة الاميركية لكي ينفذ اعماله ضد العرب وضد المسلمين داخل مدن الضفة الغربية المحتلة، وفي مقدمتها القدس والخليل!

من هنا يأتي جوابنا على علاقة اميركا ـ رسميا وشعبيا ـ بفكر الارهاب الصهيوني ضد العرب في الارض المحتلة!

● ومن هنا، ايضا، يصح قولنا اننا لم نسمع ان زعيما عربيا مسؤولا واحدا قد استدعى سفير اميركا في بلده لمقابلته ولكي يعرب له عن مشاعر الاشمئزاز والقرف التي يشعر بها العرب تجاه ما يتعرض له اخوانهم الاسرى في الضفة الغربية من هوان واذلال، وما تتعرض له مقدساتهم من خطر وخراب . . وتدمير . . وتهويد!

الا يجوز لنا ـ نحن العرب ـ ان نأخذ الدرس من غيرنا ونتشبه بسوانا من كرام الناس، او من غير كرامهم؟!

انظروا الى ايرلندا، وحرب الكاثوليك مع البروتستانت في ايرلندا الشمالية وتأييد الايرلندنيين الاميركيين الكاثوليك لاخوانهم الثوار وخاصة الجيش الجمهوري الايرلندي ـ ضد الانكليز. ماذا كان موقف حكومة لندن من هذا الموضوع؟؟ ماذا قالت «مرغريت تاتشر» لرونالد ريغان حول التبرعات المالية التي يرسلها كاثوليك اميركا الى كاثوليك ايرلندا الشمالية لمواصلة الحرب ضد الانكليز؟؟ قالت رئيسة

الوزراء البريطانية للرئيس الاميركي ان كل دولار يتبرع به الاميركيون الذين هم من اصل ايرلندي لاخوانهم في ايرلندا الشمالية انما هو بمثابة رصاصة او قنبلة موجهة الى رأس كل جندي انكليزي يحارب في ايرلندا الشمالية. وان على حكومة الولايات المتحدة ان تنظر في الامر وتمنع وصول هذه التبرعات الى الثوار الكاثوليك في ايرلندا، وان تشجيع ثوار ايرلندا يعني تشجيع الارهاب الدولي والتمرد على الحكومات الشرعية في العالم وتحدي القانون والنظام والاساءة الى العلاقات الاميركية مع بريطانيا واهانة الشعب البريطاني باسره!

● وعلى الفور توقف سيل هذه التبرعات الاميركية من كاثوليك اميركا لاخوانهم الايرلنديين ولم يستطع رونالد ريغان خلال زيارته الرسمية عام ١٩٨٥ لجمهورية «ايرلندا» ان ينبس بكلمة تأييد واحدة لثوار ايرلندا الشمالية رغم حاجته، وحاجة كل رئيس اميركي لاصوات الاميركيين الايرلنديين في نيويورك وسان فرانسيسكو في كل المعارك الانتخابية في اميركا!

ترى لماذا لم يتحرك العرب ـ ولا مسؤول عربي واحد ـ حيال اخطر تنظيم ارهابي يهودي يهدف الى نسف مقدساتهم وذبح اخوانهم وتشريد اهلهم واغتصاب حقوقهم؟!

لماذا لم يقل العرب لرونالد ريغان وحكومته، ماسبق وقالته السيدة مرغريت تاتشر دفاعا عن اهلها في ايرلندا الشمالية؟!

صحيح لماذا؟ والف لماذا؟

وجهت هذا السؤال الى دبلوماسي عربي صديق يمثل بلده العربي الكبير لدى المقر الاوروبي للامم المتحدة في مدينة «جنيف» بسويسرا، فأجاب:

ـ لعل العرب يظنون ان موجة التنظيم الارهابي الاسرائيلي السري قد جاءت مع بداية عهد مناحيم بيغن، وانها بالتالي، ستذهب وتختفي مع ذهاب بيغن واختفائه..

وللمرة الالف، يتخبط العرب في دياجير الظنون الخاطئة والحسابات المغلوطة ويظنون ان نهاية ظلامهم ستنتهي مع فجر عودة «شمعون بيريز» وحزبه الى الحكم!

ثم قال لي:

ـ اسمع :

● ما الذي يمنع هؤلاء المتطرفين الارهابيين من تنفيذ جميع خططهم السرية ضد المقدسات الاسلامية، لابقصد القضاء على تلك المقدسات فحسب، بل من اجل توجيه الضربة القاتلة الى حكومة حزب «العمل» ـ ان كانت في السلطة ـ واحراجها امام الرأي العام العالمي، والعربي، واتهامها بالعجز والتقصير، وعزلها عن الشارع اليهودي المعارض وجرها الى معركة حاسمة وشاقة ضد قطاع كبير من يهود اسرائيل، ويهود اميركا؟!

تعال نقرأ صفحات التأريخ المعاصر، معا، وجيدا :

● ان مذابح دير ياسين، وكفر قاسم، وناصر الدين، قد جرت بايدي انصار شتيرن والارغون، بينما «بن غوريون»، زعيم (العمل) هو الجالس في مقاعد السلطة. . سواء كان قبل قيام الدولة ام بعدها!

● ان مقتل اللورد «موين» في القاهرة قد جرى رغم ارادة بن غوريون، وبايدي شتيرن والارغون!

● ان اغتيال الكونت «فولك برنادوت» ومساعديه في شوارع القدس قد جرى بينما (العمل) يحكم اسرائيل، والمعارضة في يد «حيروت» وعصابات حيروت.

● ان عمليات زرع القنابل في دور السينما بالقاهرة، وتهديد السفارة الاميركية في مصر بالنسف، قد تمت كلها بايدي جماعات يهودية اسرائيلية متطرفة بقصد اثارة الشقاق بين مصر واميركا في اوائل الخمسينات، وكان بن غوريون، الجالس يومذاك في مقاعد السلطة، اشبه بالزوج المخدوع، آخر من يعلم!

الى آخره. . الى آخره.

وما دام كل هذا جرى بالامس، فما المانع ان يكرر التاريخ نفسه، ويكرر «الارهابي اليهودي» اعماله، بل جرائمه.

هل شعر هذا الارهابي باية مقاومة عربية مسلحة تقف في طريقه وتمنعه من الاسترسال في غيه وضلاله؟

لا!

هل وجد هذا الارهابي الاسرائيلي اية سلطة اسرائيلية في الداخل، تمنعه من

مواصلة اعمال الضرب والقتل وتهريب السلاح، وحمل السلاح، وذبح المصلين في ساحة الحرم ونسف سيارات رؤوساء بلديات الضفة الغربية؟

لا!

هل احتج عربي مسؤول واحد على اميركا بسبب «طوفان» المال والسلاح والتأييد القادم من قلب اميركا الى هذا الارهابي في قلب اسرائيل؟

لا!

ولئلا ننسى يجب ان نذكر دائماً ان عمليات زرع المستوطنات ونشر الارهاب قد بدأت بعد نكسة عام ١٩٦٧ عندما احتل الحاخام «موشيه ليفنجر» مركز بوليس مدينة الخليل بحجة البقاء بجوار ما يزعمه اليهود لهم من مقدسات في المدينة، ثم ترك المبنى الى حديقة المركز، واقام فيها، ثم ترك الحديقة واختار بقعة ارض بجوارها وراح يبني مساكن لنفسه ولاهله. وهكذا نشأت اكبر واضخم مستوطنات الضفة الغربية التي اسمها: كريات اربع!

هل تعرفون من كان الحليف القوي المسؤول لهذا الحاخام الارهابي عندما بدأ يخطو اولى خطواته في طريق الارهاب ضد عرب «الضفة» خلال صيف ١٩٦٧؟

● انه الخواجا «يغئال الون» الذي اصبح ذات يوم زيرا لخارجية اسرائيل! هذا الخواجا الذي مات، هو الذي كان يمنح هذا الارهابي الحاخام التأييد الرسمي، ثم الاذن الحكومي ببناء اول واكبر مستوطنات اليهود في الضفة الغربية المحتلة!

● ترى هل اكتفى هذا الحاخام الارهابي باقامة المستوطنة المذكورة؟

لا! فقد مضى يطالب بادخال واسكان اليهود في «قلب» مدينة الخليل! وكان له ما اراد! وعندما احتج عرب الخليل عام ١٩٧٦ على هذا الغزو الفظيع، اصدر الحاخام الارهابي المذكور اوامره الى سكان مستوطنة كريات اربع بضرورة حمل السلاح واطلاق النار على اهالي الخليل!

وهكذا من عام ١٩٦٧ الى عام ١٩٨٥، صعد الارهاب الاسرائيلي السري المنظم سلالم النصر والفوز «والانتاج»، فاقام مائة مستوطنة، وشوه جميع الاماكن المقدسة داخل اسوار القدس، وذبح المصلين المسلمين في ساحة الحرم، واعتدى بالنار والموت على رؤساء بلديات الضفة، وحمل القانون بنفسه واصبح هو الذي

يسيطر على جميع طرقات مدن الضفة الغربية، ونقل السلاح السري من معسكرات الجيش الى قلب المستوطنات، ونشر روح العداء والبغضاء ضد كل عربي فلسطيني، ووزع الارهاب والخوف على النساء والاطفال، وخلق موجات الكراهية المطلقة ضد المسلمين «الذين بنوا مساجدهم فوق مبنى الهيكل»، واصبح اسطورة رمزية ملوثة بالدم والجرأة والمفاجآت، يصفق لها اطفال اسرائيل، ويركع امامها حكامها!

فماذا بقي؟

بقي هدم المسجد الاقصى!

وهذا هو السيناريو اللازم لتنفيذ الجريمة..

اعود واكرر بأني اكتب هذه السطور بعقلي لا بعاطفتي، وبالحقيقة لا بالخيال، وبمداد الخبر المؤكد لا من وحي الاشاعة او الظن.. او التخمين!

اسمعوا:

● ان اخطر انواع العصابات الارهابية الصهيونية في العالم، ليست هي التي نقرأ عنها او نعرفها او نسمع اخبارها في داخل اسرائيل، سواء في الماضي القريب، كعصابات شتيرن والارجون، ام في الحاضر كجماعات الحاخام كاهانا، والحاخام موشيه ليفنجر، وجماعة «امونيم»، وانما اخطر واحقر انواع العصابات الصهيونية السرية هي الموجودة داخل الولايات المتحدة الاميركية والمعروفة بشدة تطرفها وكراهيتها للسلام ومقتها للعرب وظمأها للدم، مع الفلسفة التوسعية المطلقة، والعداء للاسلام، والتآمر على كل انسان او هيئة تحاول ان تعقد صلحا بين العرب واليهود!

ويسموبهم في اميركا «الزيتاس». و بالانكليزية ZETAS.

والاسم المذكور ظهر منذ عشر سنوات، وكان المصدر لاول مرة دوائر الامن العام والمخابرات الاميركية التي اطلقت على العصابات اليهودية الاميركية السرية التي تسرق المعلومات لحساب المخابرات الاسرائيلية، وتجند الضباط الاميركيين لحساب الجيش الاسرائيلي، وتملأ الحياة السياسية في واشنطن بتيارات شنيعة من الاشاعات والاخبار المعادية للعرب ولحكامهم ولمؤسساتهم.. اسم: «الزيتاس»!

والاسم مكروه من اصحابه اليهود لانهم يشمون فيه رائحة (اللاسامية)!

ولكن دوائر الامن الاميركية ـ على اختلاف اسمائها وانواعها ـ ما زالت تستعمل الاسم المذكور عندما تتحدث عن العناصر الصهيونية الاميركية اليهودية الشريرة، والمتطرفة، والتي تعمل بالسر والخفاء لحساب المبدأ الصهيوني المتطرف والتي لايعرف احد بالضبط، عدد اعضائها او عناوين مراكزها والتي يقولون انها تشبه جبال الثلج الغارقة في البحر، قد يرى المرء نصفها العائم ولكنه يجهل تماما حقيقة حجم الجزء المغمور تحت الماء..

هؤلاء الـ «زيتاس» يعيشون ـ كما قلت ـ تحت سطح الارض، ويعملون في اجواء محاطة بالسرية التامة، ولكنهم يظهرون الى العيان ويضاعفون نشاطهم امام عيون الناس عندما تسنح لهم الفرصة المناسبة؟

● وعلى رأس قائمة «الفرص المناسبة» التي ينتظرها هؤلاء الناس بفارغ الصبر، ويستغلونها بمنتهى النشاط، تأتي مناسبة انتخابات الرئاسة الاميركية.

في هذه المناسبة، اعني في المعركة الانتخابية، يتحول الرئيس الاميركي المرشح، وكل مرشح منافس، الى مجرد.. فأر!

فأر امام ضغوط اليهود ومناوراتهم وطلباتهم التي لاتنتهي! فأر امام نشاط اليهود واعمالهم المتسمة بالجرأة والوقاحة والتحديات.

فأر امام الاعمال الخارجة على القانون من خمسمائة جمعية يهودية وصهيونية في انحاء الولايات المتحدة الاميركية!

انا لا اجد مثالا استعين به في هذه المناسبة للتدليل على مدى قوة النشاط الصهيوني واثره على جميع المرشحين لانتخابات الرئاسة الاميركية خير من الحادث الذي جرى في الماضي عندما اعلنت السيدة «ماكسين ايزاك» السكرتيرة الصحفية للمرشح الديمقراطي وولتر مونديل ان المستر «مونديل» قد اسقط فكرة اختيار المرشح الملون «جيسي جاكسون» كنائب للرئيس لان المستر جاكسون «يؤيد فكرة انشاء وطن قومي للفلسطينيين ولانه على استعداد لمفاوضة منظمة التحرير الفلسطينية!».

● المهم، ان عام الانتخابات في اميركا، هو عام اليهود، او عام النشاط الصهيوني،

او عام خروج جماعات الـ «زيتاس» الارهابيين اليهود المتطرفين من جحورهم. ومن مخابئهم تحت سطح الارض الى فوق الارض حيث يملأون الدنيا عنتريات ومغامرات واعتداءات وتحديات ومفاجآت!

مفاجآت.. مفاجآت!

● واذا ضربوا المسجد الاقصى، اصابوا - كما يقولون هم ويؤكدون - اكثر من عصفور واحد في مجرد حجر واحد..!

اذا ضربوا المسجد الاقصى وهدموه، اشعلوا النار في جميع العواصم العربية.

وعندما تشتعل النيران، تستيقظ الفتن وتنطلق المؤامرات، ويظهر الحقد ويتبين الناس من من بين قادتهم وزعمائهم قادر على ان يواجه العاصفة، ومن منهم يعجز عنها ويقف دونها ويستسلم لها!

● وفي غمرة النيران، ينصرف الشارع العربي من محاسبة الذين هدموا المسجد الى «محاسبة» الذين «عجزوا» عن محاسبة الذي هدم المسجد! يعني: الانتقال المحموم من موضوع الجريمة والرد عليها الى موضوع البحث عمن عجز عن الرد على الذي اقترف الجريمة! يعني: ان ننسى المجرم الحقيقي - اليهودي في نيويورك - ونشغل انفسنا بمحاربة «طاحونة» من طواحين «كيشوتية» عربية! يعني: اشعال فتنة عربية جديدة في قلب الوطن العربي!

مفهوم؟

هكذا، وكما يقول شكسبير بلسان مارك انتوني في رواية يوليوس قيصر: «لقد ايقظتك ايتها الفتنة فأتخذي اي طريق تشائين!».

وتمضي الفتنة التي يشعلها جماعات الـ «زيتاس» في مسيرتها، لكي تأكل الاخضر واليابس، وتلتهم الطيب والخبيث، وتقضي على اليمين واليسار!

والكلام السالف، معظمه، منسوب جملة وتفصيلا الى المجرمين المذكورين اعلاه، والمختبئين تحت سطح الارض، في مدينة الاجرام الدولي، او اعظم مدينة يهودية في العالم، واسمها: نيويورك!

ومثل هذا الكلام لايحتاج الى زيادة، ولا الى شرح، ولا الى تفصيل!

ان صديقي المحامي العربي الفلسطيني المثقف، قد كتب لي من بلدته «رام الله»

رسالة شخصية حملها احدهم عبر الحدود، وقال فيها:

يجب ان لاننسى ـ ولو على سبيل التذكير ـ ان حزب «العمل» الاسرائيلي بالذات، وليس الليكود ـ هو الذي وضع الاسس اللازمة لانشاء وبناء وتطوير وتوسيع عملية المستوطنات في الضفة والقطاع، وان «العمل» ـ وليس الليكود ـ هو الذي ربط الضفة الغربية ـ اقتصاديا وسياسيا وامنيا ـ بالسيادة والسيطرة والقرار الاسرائيلي!

كذلك، يجب على كل عربي ومسلم وشرقي وفلسطيني، ان لاينسى الدور الخطير والعدائي والذكي، مع القذارة والدهاء، الذي قام به «موشيه ديان» خلال حكومات (العمل) الاسرائيلي بوصفه وزيرا للدفاع في تحديد سياسة اسرائيل تجاه الضفة الغربية منذ احتلالها حتى استقالته من الوزارة! اذكروا ان «ديان» بالذات كان ضد اعادة الضفة الى اي حاكم عربي! اذكروا ان «ديان» كان عدوا للفلسطينيين كعداوته للاردنيين، كعداوته لكل عربي وكل مسلم، وانه، بالتالي كان المسؤول عن ربط مصير الضفة باسرائيل والحيلولة دون عودة هذه الضفة الى العرب في المستقبل! كان ـ لا رحمه الله ـ يسمي الاحتلال، «تعايشا»، والضم «تفاهما»، والسيادة الاسرائيلية على الارض العربية، «تبادل منافع ومشاركة خدمات»!

واذكروا كذلك :

ان «ياجال الون» ـ قطب (العمل) الاسرائيلي لم يغفر لزعيمه بن غوريون جريمته في عدم تحرير (كل) اراضي فلسطين في حرب ١٩٤٨ . . !

● وان زعماء حزب «العمل» بالذات هم الذين رفضوا قبول اي حل عادل او شريف لقضية (الضفة)، وانهم هم الذين ـ وهذا ما يقوله التاريخ المعاصر ـ رفضوا عرض «الملك حسين» عام ١٩٧٠ باقامة اتحاد فيدرالي بين الاردن والضفة الغربية، ورفضوا الحاح هنري كيسنجر عليهم بضرورة الوصول الى (حل ما) مع الملك حسين قبل ان يتولى ياسر عرفات مسؤولية الامر، ورفضوا كل مشروع اردني او دولي يهدف الى منح شعب الضفة الغربية حقه في تقرير المصير، ومضوا (يمضغون) كلامهم المبهم، ووعودهم الغامضة، وعباراتهم الملونة بانتظار ابتلاع كل شيء،

وهضم كل شيء، وخلق الامر الواقع الجديد كما تريده الصهيونية الحديثة!

● كان هذا، كله، قبل ان يأتي مناحيم بيغن الى السلطة، وقبل ان تستبد باسرائيل اعاصير التطرف والتعصب، وقبل تزوير التاريخ، وقبل (كامب دافيد)، وقبل غزو لبنان، وقبل نشر العشرات من المستوطنات الجديدة، وقبل ان يستأسد بغاة (الحاخامات) ويستنسر ذباب رجال الدين او رجال الاحزاب اليمينية المتعصبة في اسرائيل! كان هذا قبل عام ١٩٧٦.

فما بالكم ونحن الان في منتصف عام/ ١٩٨٥؟

ما بالك وقد وجد حزب (العمل) في حكم مناحيم بيغن وجرائم شارون وفي عنتريات «شامير» العامل السحري الذي يشجع هذا الحزب على ان يسمي - بعد اليوم - الاشياء باسمائها، بلا غموض ولا حياء، وبلا مداراة ولا مداهنة، ولا حذف!؟

ما بالك وقد اصبح تطرف الزعماء في اسرائيل وتعصبهم وجنونهم يسمح للمعلق الاجنبي ان يصف زعيما ووزيرا كـ «عزرا وايزمن» - رئيس الحزب الجديد الذي حمل اسم (ياحاد) - ومعناها «معا» - على انه من.. المعتدلين الطيبين المعقولين؟!

ما بالك وكل حزب في اسرائيل مهمابلغت قوته، ومهما جاء مدى نجاحه، يبقى - من اجل القدرة على تشكيل الحكومة المطلوبة - تحت رحمة الأحزاب (الصغيرة) اليمينية المتعصبة من امثال حزب «تشيا» اليميني الذي يرأسه (رفائيل ايتان) رئيس الاركان الاسرائيلي السابق، وحزب (ماراشا) اليميني المتعصب الذي يرأسه الحاخام «دراكمان»!

ما بالك وقد مضى على خروج حزب (العمل) المذكور من السلطة تسع سنوات طوال، كان البديل الذي حكم اسرائيل طيلة هذه السنوات التسع، حيوان صهيوني مفترس، نفخ في الناس روح التطرف وفتح تيارات التعصب، ومارس اعمال الارهاب، وقلب حقائق التاريخ، وملأ سماء الشرق الاوسط بدخان الحقد والكراهية؟

اقولها للمرة الاولى بعد المائة:

يجب ان لاننسى ـ ولو على سبيل التذكر ـ ان برنامج حزب «العمل»، هو بالتحديد:

● لا عودة الى حدود ١٩٦٧!

● ولا عودة عن توحيد القدس وبقائها كجزء لا يتجزأ من ارض اسرائيل!

● ولا تنازل عن «غزة» او قطاعها!

● ولا قبول بقيام دولة فلسطينية، ولا تفاوض مع منظمة التحرير، ولا اعتراف بها، ولا دولة مستقلة «عربية» غرب نهر الاردن!

وبعد هذه المقدمة القصيرة، يحق لي ان اضع امام كل مسلم عربي، وكل مسلم غير عربي، السؤال البسيط التالي:

ـ ترى ماذا وكيف كانت تتصرف اسرائيل ومن ورائها اليهودية العالمية لو تعرض حائط المبكى على يد العرب، لما يتعرض له المسجد الاقصى المبارك، او بقية المساجد الاسلامية في القدس، وفي الخليل، حاليا على يد اليهود؟!

وسؤال آخر:

ـ ترى ماذا وكيف كانت تتصرف اميركا لو ان العرب جمعوا الاموال وارسلوها الى منظمات عربية في اميركا لكي تهدد الكنائس في قلب نيويورك، وتحرق المراكز التذكارية التاريخية في قلب واشنطن؟

اقرأوا السؤال جيدا، ثم اسألوا ضمائركم:

ـ هل يستحق بعض المسلمين شرف الانتساب الى الدين الاسلامي؟!

● ان النار تحيط باعز مقدساتنا، وتقترب من اغلى تراثنا وتطعن بالخراب والدمار انصع صفحات تاريخنا. ونحن ما زلنا نتفرج، وننتظر مجيء الفرج على يد حزب العمل الاسرائيلي!.

واللهم اشهد لقد بلغت.. بلغت.. الف بلغت!..»

انتهت رسالة صديقي الساكن في مدينة «رام الله»، بالارض المحتلة.!

ومني، الى من يهمه الامر...

فلو ان المسلمين احتجوا او تحركوا ضد عمليات «التنقيب» في بدايتها حول المسجد الاقصى، لما اصيب الاقصى بعد عامين بالحريق!

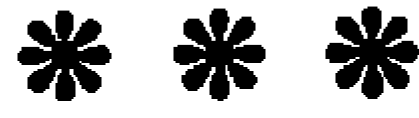
ولو تحرك المسلمون يوم حريق المسجد الاقصى كما يفرض عليهم دينهم ورسولهم، لما تعرض المصلون في باحة الحرم الشريف الى رصاص الحاخامات اليهود بعد خمسة اعوام!

وسكوت المسلمين اليوم على مايجري، سيشجع الاعداء والكفار على هدم المسجد الاقصى، والخلاص منه! واذا لم نتقدم، تأخرنا. واذا لم نتحرك سقطنا..

ويا اهلنا في الارض المحتلة:

ـ ان للبيت رب اسمه: الكريم!

وان لكم السماء برحمتها ومعجزاتها واسرارها!



الفصل السابع والعشرون

ياواشنطن حبينا الله..!

- من هو صاحب الدعوة الى مؤتمر دولي للشرق الاوسط؟
- لماذا فشلت زيارات حسني مبارك الى البيت الابيض؟
- ماذا قال «الملك الحسن» لريتشارد نيكسون عن ثورة ايران . . ؟

الفصل السابع والعشرون

ياواشنطن حبينالك..!

كانت العبارة في الاصل: «يا فلسطين جينالك»! ولكن ـ وقد ضاعت فلسطين على يد واشنطن ـ فأصبح لابد لنا من الذهاب الى واشنطن لكي نستعيد فلسطين!

وليست زيارات واشنطن بالشيء الجديد على زعماء العرب واقطابهم، وخاصة عندما يأتي الى «البيت الابيض» رئيس جديد، او تتفاقم الامور في الشرق الاوسط، او يكثر الحديث عن حلول جديدة لقضايا المنطقة، او تظهر في الافق السياسي علامات معينة تتعلق بصفقات السلاح او صفقات القروض!

ولكن الرئيس الاسبق جيمي كارتر ـ مثلا ـ كان هو صاحب المبادرة الاولى في دعوة زعماء العرب للالتقاء به في واشنطن في ربيع عام ١٩٧٧ للتباحث معهم في قضايا المنطقة عامة، وقضية فلسطين خاصة، ولانه ـ كما قال في كتاب مذكراته: «رجل دين منذ الصغر، يحرص على سلامة الاماكن المقدسة، ويطلع على الكتاب المقدس، ويعترف لليهود بحقهم في تكوين شعب واحد يعيش بسلام وسط جيرانه وعلى ارض عالمه القومي بما يتفق وتعاليم الانجيل التي امر بها الله.. مما جعل التزاماتي نحو سلامة اسرائيل امرا ثابتا..»!!

وعندما اصبح جيمي كارتر رئيسا لبلاده، ولحرصه الشديد على استتباب السلام والاستقرار في منطقة الشرق الاوسط.. بعيدا عن النفوذ السوفياتي.. واعترافا بقيمة اسرائيل الاستراتيجية لدى اميركا... وبعد ان تحررت مصر من السيطرة

السوفياتية. . . واتجهت صوب الحياد، او صوب الصداقة مع اميركا. . . وخوفا على المصالح الاميركية في الشرق الاوسط، مع تزايد التهديدات «لنا» هناك. . لذا، «قررت ان اواجه العاصفة واعالج هذه القضايا. . وابدأ عملي بان التقي بالضرورة مع بعض زعماء اسرائيل وزعماء العرب لكي اكتشف ان كان هؤلاء يشاركونني تقديراتي او طموحاتي تجاه هذه القضايا!؟»

وهكذا اعلن جيمي كارتر في التاسع من شهر مارس عام ١٩٧٧ انه سيلتقي بزعماء مصر. . والاردن. . وسوريا. . والسعودية، في خلال الشهرين القادمين! عال. . !

وفي ٢٥ ابريل ١٩٧٧ التقى كارتر مع الملك حسين. .

وفي ٩ مايو من نفس العام التقى مع حافظ الاسد في جنيف. .

وبعد ذلك باسبوعين كاملين، التقى في البيت الابيض مع «الامير» «فهد بن عبد العزيز» ولي عهد السعودية، يومذاك.

وكان قبل ذلك كله، قد التقى بأول من عرفهم من الزعماء «العرب»، واعني به السيد «انور السادات» حيث تقابلا في الرابع من شهر ابريل من ذلك العام وفي البيت الابيض بواشنطن.

وفي مقابلته مع السادات، يقول «كارتر» ان السادات قد سأل رئيس رومانيا «نيقولا تشاوشيسكو» عن رأيه في مناحيم بيغن وهل هو قوي، فأجاب تشاوشيسكو:

«نعم! انه صادق»! وقال السادات لكارتر انه شعر بالارتياح الشديد بعد ان سمع كلام شاوشيسكو عن مناحيم بيغن!!

ويا للهـول. . . . !

اما عن مقابلته مع الملك حسين، فيقول كارتر انه سمع الملك حسين يعرب له عن تفاؤله ـ لاول مرة ـ ومنذ ثلاثين سنة في احتمال الوصول الى اتفاق حول الشرق الاوسط. . وكان الملك ـ والكلام لكارتر ـ ما زال مفعما بالحزن على زوجته الجميلة التي ماتت في حادث طائرة هليكوبتر وقد شكرنا على تعزيتي له وكانت الدموع تتلألأ في عينيه!»

وبعد مقابلته لحافظ الاسد، الرئيس السوري، قال جيمي كارتر ان المقابلة «كانت تجربة لذيذة وشيقة». . وان الرئيس الاسد «صاحب نكتة ويملك موهبة في الدعابة والسخرية». . كما انه «ايجابي» في اتجاهاته ومرن في معالجته للامور الصعبة المتعلقة بالسلام كموضوع الفلسطينيين واللاجئين والحدود. . وقال لي ان الحديث عن السلام مع اسرائيل كان يشبه عملية الانتحار الى ما قبل عامين فقط ولكننا ـ والكلام لكارتر على لسان الاسد ـ قد قطعنا شوطا بعيدا وقررنا الان ان نتعاون!!»

وفي ٢٤ مايو قابل جيمي كارتر، سمو «الامير» فهد السعودي، في البيت الابيض وقال انه بعد العشاء الرسمي الذي حضره عدد من اعضاء الكونغرس. . . «صعدنا مع الامير الى الطابق العلوي وقضينا معا مدة نصف ساعة في حديث عن الفلسطينيين. . . وقلت «للامير» اننا ملتزمون بقرار ان لانعترف بمنظمة التحرير او نتفاوض معها ما لم تعترف المنظمة بالقرار «٢٤٢» وحق اسرائيل في الوجود. . واننا لن نسمح للمنظمة بالاشتراك في عملية السلام ما لم تقم المنظمة بتنفيذ هذين الشرطين! فوعدني «فهد» ـ والكلام لكارتر ـ «ان يساعد بكل السبل لايجاد حل لهذه القضية!!»

ويلخص كارتر رأيه النهائي حول لقاءاته مع الزعماء العرب يومذاك، فيقول، وبالحرف الواحد: «. . لقد اقتنعت بأن جميع هؤلاء الزعماء العرب مستعدون للترحيب بأية خطوة «قوية» من طرفنا لكل هذه الخلافات القديمة. . وان في. . «ومع» مجيء هذه الخطوة تجيء عملية اعترافهم هم باسرائيل وحق اسرائيل في العيش بسلام. . !»

● كان هذا كما قلت ـ في ربيع عام ١٩٧٧ اي بعد ثلاثة شهور فقط من تسلم جيمي كارتر سلطاته الدستورية كرئيس للولايات المتحدة الاميركية.

ومرت شهور اخرى. . وطويلة.

● وانتظر العرب نتيجة «التفاؤل» و «التعاون» و «الايجابية» التي ابداها زعماؤهم واقطابهم للرئيس الاميركي المذكور في لقاءاتهم معه، فاذ بها تتبخر الى. . لا شيء! كما انتظر العرب وصول «الخطوة القوية» التي وعدهم بها جيمي كارتر لحل مشاكلهم المعلقة مع اسرائيل، فاذ بها ـ يا صديقي ـ تحمل صورة اتفاقية ثنائية بين

مصر واسرائيل واسمها: كامب دافيد!

كان هذا، وللمرة الثالثة كما قلت - في ربيع عام ١٩٧٧! اي قبل ان يأتي «بيغن» الى الحكم حيث كانت نتائج استفتاءات الرأي العام اليهودي يومذاك تقول في تل ابيب وفي واشنطن معا ان «٦٣» في المائة من يهود اسرائيل يريدون صلحا مع العرب، وان «٥١» بالمائة يظنون ان الفلسطينيين يستحقون وطنا قوميا، وان «٤٣» في المائة منهم يؤيدون ان تصبح الضفة هي الوطن القومي للفلسطينيين، وان «٤٥» في المائة من شعب اسرائيل يؤيد التحاور والتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية. . !

ودارت الايام. .

واذ بهذه الارقام كلها لاتتعدى في عام ١٩٨٥ خانة أقل من عشرة بالمئة!

فقد نفخ مناحيم بيغن في شعب اسرائيل من روحه الشريرة، ونشر ما استطاع من مبادئه المتطرفة، وحكم بالتزوير والتعصب والكراهية، وزرع المستوطنات بالعشرات، وغزا لبنان، وضرب بغداد، وتنكر لمصر والسادات، وسخر من اميركا، وملأ الدنيا شعورا بالتقزز والنفور والاشمئزاز، وتقلد الحكم مرتين، وفرض حزبه وانصاره في المرة الثالثة شركاء ورقباء في حكومة ائتلافية واسعة هي الحكومة الاسرائيلية الحاضرة!

وفي وسط هذا البحر العجيب من العنصرية السياسية الاسرائيلية، والاجرام اليهودي المتتابع، والتحدي الصهيوني المستمر، جرت الانتخابات الاميركية للرئاسة، وفاز بها رونالد ريغان للمرة الثانية، وعادت المسرحية المعتادة في الدعوات واللقاءات من جديد، وحزم زعماؤنا حقائبهم للسفر الى واشنطن ومقابلة رئيسها والتباحث معه في «اسرع وانجع واوفر السبل لحل مشاكل الشرق الاوسط!»

● الغيرة المصطنعة عند حاكم واشنطن. . تعود وتظهر من جديد!
● والود الكاذب عند والي البيت الابيض يعود ويظهر من جديد!
● والحياد الخادع عند اقطاب اميركا يلعب دوره من جديد!

حتى الدعوة الى مؤتمر دولي يعقد في «جنيف» لبحث وحل مشاكل الشرق الاوسط بدأت تطفو على السطح من جديد، ويبادر مستشار الامن القومي

الاميركي الى اعلانها واستعداد بلاده للموافقة عليها . . !؟

هل تعرفون من هو صاحب فكرة عقد مؤتمر جنيف «الدولي» لحل مشاكل الشرق الاوسط ؟

● بالرغم من ان مؤتمر جنيف هو المنبر الوحيد الذي يقدر ان يحتضن اي عمل دولي يتعلق بقضية الشرق الاوسط، وان «جنيف» بالذات كانت المكان المختار في «ديسمبر ١٩٧٣» للتوقيع على فك الاشتباك بين مصر واسرائيل بحضور هنري كيسنجر واركان الحكومتين المصرية والاردنية بالاضافة الى ممثلي اسرائيل، الا ان عملية الدفع السري التي اعطت فكرة العودة الى مؤتمر جنيف، قوة وسحرا لدى «جيمي كارتر»، كان صاحبها المستر «ارثر جولدبرج» ـ الاميركي اليهودي المعروف والذي كان ممثلا لاميركا في الامم المتحدة ابان حرب ١٩٦٧ ـ عندما جاء هذا الرجل وقابل جيمي كارتر ونصحه بان يدعو الى عقد مؤتمر دولي في جنيف لبحث قضايا المنطقة وان يذهب بنفسه لكي يترأس المؤتمر مع نظيره السوفياتي المستر برجنيف . . ! ان المؤكد ان جيمي كارتر، قد استقبل الفكرة ـ فكرة المؤتمر الدولي ـ بكل ارتياح، وان خيبة الامل التي اصابته بعد لقائه مع مناحيم بيغن في يوليو ـ تموز من ذلك العام ـ عام ١٩٧٧ ـ قد جعلته يزداد تحمسا للفكرة وتمسكا بها، وخاصة بعد لقائه في ٢٣ ايلول ـ سبتمبر مع المسيو غروميكو وزير خارجية السوفيات واستماعه الى كلمات التشجيع التي قالها غروميكو عن تصوراته للسلام الشامل بين العرب واليهود!

وهكذا ولد بيان اول اكتوبر عام ١٩٧٧، والذي اشتركت فيه اميركا والاتحاد السوفياتي في الدعوة الى مؤتمر دولي يعقد في جنيف!

وفجأة، وكنت يومذاك في نيويورك اشهد جانبا من جلسات الامم المتحدة وكان يشترك فيها ويحضر جلساتها الوزير عبد الحليم خدام عن سوريا واسماعيل فهمي وزير خارجية مصر وبعض رجال المنظمة ـ ومنهم ابو ميزر ـ اقول، فجأة سمعت «عبد المحسن ابو ميزر» يقول لي انه سمع كلاما غير ودي من وزير خارجية مصر السيد «اسماعيل فهمي» حول البيان المشترك حيث بادره ورفقاءه قائلا لهم :

ـ هه! مبسوطون؟؟ اذهبوا الان الى السوفيات واطلبوا منهم مساعدتكم على حل

قضيتكم!»

● وفجأة، ايضا، غاب اسماعيل فهمي او سافر الى مصر لكي يعود الى نيويورك حاملا رسالة من انور السادات تطلب من جيمي كارتر ان لايفعل شيئا يحول او يمنع مصر من التفاوض مباشرة مع اسرائيل!!

يعني: لا مؤتمر دوليا في جنيف!

● ثم فجأة، سمعنا يومذاك ان جيمي كارتر بعد انتهائه من القاء خطابه في الجمعية العمومية بنيويورك، قد ذهب الى شقته الخاصة في فندق «بلازا الامم المتحدة» المواجه لمبنى الامم المتحدة وانه اجتمع مع الجنرال «موشي ديان» من ساعات المساء حتى طلوع الفجر!

وكان «ديان» يعمل بكل نقطة دم في عروقه لكي ينسف البيان المشترك وينسف معه فكرة المؤتمر الدولي في جنيف خوفا من اي تدخل سوفياتي في قضايا المنطقة!

ونجح ديان في مسعاه وبدأت فكرة المؤتمر الدولي تتحطم رويدا، رويدا! لقد اتفق السادات مع موشي ديان على قتل فكرة مؤتمر جنيف!

اذ عندما ذهب المستر «فانس» وزير خارجية اميركا لمقابلة انور السادات ومباحثته في موضوع المؤتمر الدولي المذكور، اجابه السادات ـ وكان ذلك في ٩ نوفمبر من عام ١٩٧٧ «انه يريد ان يلتقي مع مناحيم بيغن وجها لوجه... ولا فائدة ترجى من مؤتمر جنيف!»

وبعد ذلك بستة ايام فقط، اي في ١٥ نوفمبر اطلق انور السادات صيحته المحمومة المضلة التعسة في استعداده للذهاب الى القدس!

وطار مؤتمر جنيف... وطار السادات الى القدس!

وبقية القصة معروفة..

وفي عام ١٩٨٥ تكررت المأساة! ولم تجد الامة العربية مسؤولا عربياً يقول للرئيس الاميركي ـ وبكل وضوح وصراحة ـ ان الوهن الاميركي والعجز الاميركي والجمود الاميركي واللامبالاة الاميركية ـ التي رافقت السياسة الاميركية وكانت طابعها الاول والوحيد منذ عام ١٩٧٩، هي المسؤولة، اولا واخرا، جملة وتفصيلا، عن تدهور الاحوال في المنطقة وعن كل قطرة دم سفكت، وكل مدينة

تحطمت، وكل ارض سلبت، وكل عائلة عربية تشتتت، وكل امل ضاع، وكل حق تلاشى، وكل اعتدال تحول الى تطرف، وكل عقل اصبح حمى وجنونا!

ولم يعثر العرب على زعيم عربي يقول لاميركا ان الجمود والسذاجة والصوت اليهودي والجهل الاميركي هي كلها التي قتلت انور السادات، وحطمت ـ ولله الحمد ـ اي تعاون كان منتظرا بين مصر واسرائيل، وشجعت على غزو لبنان، ودفنت امال السلام في المنطقة، وفتحت الابواب امام الاعاصير «الحمراء» للتسلل والدخول.. والعمل!

وكذلك..

لم يجد العرب زعيماً كبيراً من بينهم يقول للادارة الاميركية ولاقطابها بان السلبية الاميركية في السياسة المطلوبة تجاه الشرق الاوسط ستقود المنطقة بأسرها الى البراكين المتفجرة، وان عدم الاخذ من جديد بزمام المبادرة لحل المشكلة سيضيع على اميركا نفسها اي وجود لها عند العرب، وسيجعل من احداث ايران مجرد مقدمة او فنجان شاي لما قد يحدث في خارج ايران من احداث واهوال..!

لم نجد عندنا او بيننا من هو قادر على ان يصارح اميركا بهذه الحقائق.

لم نجد بيننا من هو قادر على ان يقول لرونالد ريغان، وبالعربي الفصيح او الفم المليان هذه النقاط:

اولا: خير لكم ان تتعاونوا مع سوريا، بدلا من محاربتها، وخير لكم ارضاء سوريا على حساب اسرائيل بدلا من ان يرضيها السوفيات على حسابكم!

ثانيا: خير لكم تشجيع الملك حسين على الاستمرار في التعاون مع منظمة التحرير بدلا من التهجم الدائم على المنظمة لانها ـ «ارهابية» ـ وعلى الملك حسين ـ لانه يتعاون مع «الارهاب»..

ثالثا: خير لكم ان تعود «طابا» الى مصر، وتخرج اسرائيل تماما من لبنان، ويرفع الظلم الاسرائيلي يده عن ارض الضفة وشعبها وحقوقها ومقدساتها، بدلا من ان يجد حسني مبارك نفسه وسياسته في الموقع الذي كان فيه... انور السادات!

رابعا: خير لكم تشجيع الحوار الدائر بين مبارك «المصري» وحسين «الاردني» بدلا من التهجم على مبارك لانه تعاون مع الملك حسين الذي رضي بالتعاون مع..

«الارهابيين». . . اياهم!

● خامسا: يجب ان يكون مفهوما للرئيس الاميركي ولاقطاب حكومته ان جدول الاعمال المطلوب لمؤتمر جنيف الدولي المقترح لن يقتصر على بحث موضوع «طابا» مثلاً او حرب الخليج مثلاً او ترتيبات الامن في جنوب لبنان. . وانما يجب ان يتضمن جدول الاعمال المذكور وعلى رأس القائمة: قضية فلسطين! وقضية القدس! وقضية الضفة! وقضية اللاجئين! وقضية غزة! وقضية الصراع العربي الاسرائيلي. !

اجل! لم يجد العرب من هو قادر على ان يصارح اميركا كيف يفكر العرب؟

ولذا، فان التوفيق المرجو، والمطلوب، والمنتظر، لم يرافق زيارة واحدة من الزيارات المتعددة التي قام بها زعماء العرب الى واشنطن في الشهور الستة الاولى من عام ١٩٨٥!

لا زيارات الملوك نفعت. .

ولا زيارات الرؤساء «الحلفاء» المرتبطين باتفاقية كامب دافيد، قد افادت! وكان اهل بلدي ـ على طيب مشاعرهم وسذاجتهم ـ يسألونني:

لماذا لم تتجاوب اميركا مثلا مع زعماء و رؤساء وملوك عرب في دعواتهم للسلام العادل في ظروف كان العالم بأسره يعتقد فيها يشبه اليقين بأن العلاقة الوثيقة الخاصة التي تشد اميركا الى هؤلاء الزعماء والرؤساء والملوك تكاد تفرض عليها ـ على اميركا ـ ان تراعي مصالحها عندهم وان تسعى لنشر السلام في ربوعهم وان تضغط على اعدائهم لكي لايطول عمر الحروب في بلادهم فيستردون حقوقهم ويستعيدون كرامتهم وينصرفون لبناء اوطانهم وشعوبهم؟

لماذا. . . ؟

لماذا هذا الاصرار الاميركي الرسمي العجيب على المفاوضات المباشرة بين العرب واسرائيل؟

لماذا هذا التمسك الاميركي المريب بالقرار الدولي رقم ٢٤٢ دون اشارات الى القرارات الدولية الاخرى؟

لماذا هذا العداء الاميركي للكرامة العربية وللحق العربي ولكل ماهو عربي مع الاصرار الغريب على رفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ورفض اي دور

ايجابي جديد لاميركا من شأنه ان يعيدها ـ يعيد اميركا ـ بكل ثقلها ووزنها الى المشاركة في عملية البحث عن السلام؟

لماذا هذا الاذلال، وبكل الوسائل، وبكل الضغوط للعرب وللفلسطينيين؟

هل هو الخوف الاميركي من الفشل المحتمل؟ هل هي نزعة انعزالية اميركية سياسية جديدة؟

قيل لي والعهدة على كل مسؤول اميركي في الديار الاميركية ان هناك اسبابا عديدة ادت الى تحطيم معاني النجاح المطلوب في رحلة الرئيس حسني مبارك الاخيرة الى واشنطن.

وعندما سألتهم ـ هؤلاء الذين يعرفون او يزعمون المعرفة ـ عن هذه الاسباب الخفية اجابوني وكأنهم قد حفظوا الدرس جيدا، او كأنهم يبررون لاميركا موقفها من الرئيس المصري بينما يضعون اللوم كله على مصر:

اولا: ان الاسلوب الذي تعاملت به مصر مع اميركا يختلف تماما عن اسلوب اسرائيل في تعاملها مع واشنطن. ان اسرائيل تلجأ الى الحديث الصريح عن المشاركة الاستراتيجية بين البلدين والى العداء المشترك للسوفيات والى الحرص على المصالح الاميركية بالشرق الاوسط والى حماية سلامة اسرائيل في وجه التهديدات العربية لها، عند اي حديث عن طلب المعونات الاميركية او القروض او المساعدات العسكرية لاسرائيل. بينما تلتزم مصر اسلوبا آخر في التخاطب حيث تكتفي بالحديث عن حاجاتها السكانية او الغذائية وعن طلباتها السلاحية بلهجة تتسم عادة بالاستنجاد الملح او الاستغاثة الصارخة او الادب المجبول بالحياء الشرقي وقد سألت المدير العام المسؤول عن شركة العلاقات العامة التي تتولى مهمة الدعاية لمصر في واشنطن ـ وهي شركة نايل الاميركية ومديرها المستر دانيس نايل عن سر الاسلوب الخاص في التخاطب المصري مع اميركا فأجابني:

ان شركتي التي قامت باعداد الرسالة المصرية الرسمية الى واشنطن حول طلب الزيادة المالية في القروض والهبات قد واجهت صعوبات كثيرة امام الخلافات الجذرية في الرأي بين مختلف الجهات المصرية المسؤولة حول العلاقات المصرية الاميركية ومفهومها وتحديد نوعها وماهيتها . . »

ثم اضاف:

«ان اسرائيل مثلا عندما تطالب اميركا بالزيادة المالية لها فأنها تصر على ان يتضمن الطلب اشارة واضحة الى العلاقة الاستراتيجية الخاصة بين اسرائيل وواشنطن. اما مصر فان بعض الجهات الرسمية المصرية قد رفضت حتى مجرد الاشارة الى اية علاقة استراتيجية قائمة بين مصر واميركا. كما رفضت هذه الجهات الحديث المكتوب عن اية مشاركة عسكرية بين مصر واميركا في المستقبل. وهكذا جاءت المذكرة المصرية الاخيرة الى اميركا حول طلب الزيادة في المساعدات خالية من اية مبررات او اسباب قد تحمل اميركا على ان تفهمها، وعلى ان تلبي بالتالي رغبات مصر في الزيادة المالية المطلوبة».

ثانيا: ان ضعف اللوبي العربي المصري في اميركا قد ادى الى انعدام اي تمهيد اعلامي منظم وفعال يسبق وصول حسني مبارك الى واشنطن وبالتالي الى ظهور الاصوات اليهودية المعادية لمصر والتي راحت تندد بالزيارة وتعمل على احباطها جهارا نهارا.

ثالثا: حشد الاقلام الصحفية المعادية للعرب من اجل تسميم الابار على حسني مبارك في الصحف الاميركية على اختلاف ميولها، وعلى شاشات التلفزيون باختلاف انواعها. وقد شارك التلفزيون الاميركي في هذه الزفة وقال بكل صراحة وفي اول يوم من وصول الرئيس المصري الى واشنطن ان اميركا لن توافق على منح مصر اية زيادة في القروض والمعونات المقررة والتي قد تصل الى ٨٠٠ مليون كما تتمنى مصر، وان اميركا لن توافق على طلب مصر الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، وان اميركا لن تقبل بمجيء وفد اردني فلسطيني مشترك الى واشنطن الا اذا سبق ذلك لقاء مباشرا مع مفاوضات مباشرة بين اسرائيل من جهة والعرب الفلسطينيين الاردنيين من جهة اخرى.

رابعا: استغلت اسرائيل قضية غياب السفير المصري عن تل ابيب واعتبرت ذلك مخالفا لروح اتفاقية كامب ديفيد وبالتالي طالبت اسرائيل حرمان مصر من اية مساعدات اضافية مالية او عسكرية من اميركا.

خامسا: اتهمت اسرائيل حسني مبارك بأنه لم يعمل بما فيه الكفاية على نشر روح

السلام المنبثقة عن اتفاقية كامب ديفيد بين بقية الدول العربية المجاورة. وقالت الاوساط الاميركية المتعاطفة مع اسرائيل ان السلام لايعني فقط انعدام الحروب وانما السلام يعني تبادل السياحة والزيارات المشتركة والعمل السياسي والتجارة والاقتصاد، وكل ذلك لم تحققه مصر.

سادسا: قالت الاوساط السياسية المتخصصة في واشنطن ان زيارة الرئيس مبارك لم تسبقها دراسات واتصالات متعددة مع اعضاء الكونغرس ورجال المال والاقتصاد الاميركيين. وبالتالي، لم يكن الجو السياسي او المالي مهيأ لاستقبال الرئيس المصري بصورة تمكنه من التغلب على جميع المفاجآت التي كانت بانتظاره والتي لم يكن يدري بها.

سابعا: جاءت وفاة الرئيس السوفياتي الراحل قسطنطين تشيرنينكو المفاجئة ومجيء الرئيس غورباتشيف السريعة لكي تغطي على زيارة رئيس مصر الى واشنطن وانتقال اخبار الزيارة في صحف اميركا من الصفحات الاولى الى الصفحات الداخلية. كما ادت هذه الوفاة المفاجئة الى سفر نائب الرئيس بوش ووزير الخارجية شولتز في اليوم الثاني من بدء الزيارة الى موسكو وترك حسني مبارك يبحث عن بديل يفاوضه.

ثامنا: تصوير الزيارة المصرية لواشنطن عند جميع الاوساط الصهيونية داخل اميركا وخارجها وكأنها زيارة للاستجداء والشحاته. وهذا بالطبع ما يتفق مع العقلية اليهودية الخاصة التي يسيطر عليها الطابع التجاري والكسب المالي قبل اي شيء آخر.

تاسعا: كان للجو العربي المتفتت والمتناحر في الشرق الاوسط واستمرار الحرب العراقية الايرانية، واحداث السودان واحداث لبنان اثرها لدى اوساط واشنطن في صرف النظر عن اهمية الدور المصري في المنطقة. كما ان الخلافات الحزبية المعروفة داخل اسرائيل والتي تهدد دوما بسقوط الحكومة الائتلافية لا تشجع اميركا على القيام بأية خطوة حاسمة تجاه الشرق الاوسط في الوقت الحاضر من شأنها ان تزلزل الاستقرار الوزاري الاسرائيلي.

عاشرا: كانت الاوساط الصهيونية المتنفذة في واشنطن تضع على لسان بعض

رجالات اميركا المسؤولين العبارات التالية غير الودية ضد مصر وضد رئيسها.

مثلا: كانت بعض تلك الاوساط المعادية تقول ان حسني مبارك لايعرف كيف يتحدث الى الاميركيين لا لغة ولا روحا ولا اسلوبا.

وكذلك كانت بعض تلك الاوساط المعادية تقول ان حسني مبارك لايوحي بالثقة ولا يستحق الاهتمام ولا التشجيع، لانه، في رأي تلك الاوساط المعادية مجرد حاكم عابر سبيل.. !

وكذلك بعض تلك الاوساط كان يتهم حسني مبارك بأنه من اجل تحقيق عودة سريعة لمصر الى الحظيرة العربية قد تطرف في مسايرة الفلسطينيين، وبالاخص بمساندة منظمة التحرير الفلسطينية. وهذا كله في نظر تلك الاوساط المعادية يستحق العقاب ولا يستحق التشجيع ولا يستحق الزيادة في المساعدات المالية والعسكرية. لقد راحت تلك الاوساط تعمل على تذكير الشعب الاميركي بأن حسني مبارك لم يتردد في زيارته الاخيرة لاميركا قبل عامين ان يدعو اميركا الرسمية للتفاوض السريع والاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية.

تلك هي الهمسات الصارخة التي اطلقتها اصوات الدبلوماسيين في واشنطن في مجال تبريرها او في مجال حديثها عن عدم نجاح زيارة حسني مبارك للعاصمة الاميركية كما كان مرجوا لها في ربيع ١٩٨٥ !

● اليس مما يدعو الى العجب العجاب ان يبادر كاتب اميركي مشهور مثل «جاك اندرسون» وينشر صباح يوم الاربعاء ١٣ مارس ١٩٨٥ في صحيفة «الواشنطن بوست» مقالا عنيفا ضد المملكة العربية السعودية وضد العائلة السعودية الحاكمة بينما حسني مبارك يحاول في لقاءاته مع الرئيس ريغان ان يستخلص للفلسطينيين بعض حقوقهم الضائعة في اسرائيل باسم العرب ومن بينهم المملكة العربية السعودية؟

● وكذلك اليس مما يدعو الى العجب العجاب ان يبادر استاذ اميركي كبير كالبروفسور «دانيس بيلر» وقد كان فيما مضى استاذا محاضرا في جامعة القاهرة الاميركية ويكتب في صحيفة «الوول ستريت جورنال» صباح يوم ١٣ مارس ١٩٨٥ مقالا مطولا يطالب فيه اميركا ان لاتدفع مالا لمصر، بحجة ان القروض الاميركية

للمصريين تجعلهم يعتمدون تماما على اميركا وبالتالي تحول دون تقدمهم وتطورهم ونشاطهم واعتمادهم على انفسهم . . . ؟!!

عجيب امر هذا العداء لنا. واعجب منه ان لا يجد مثل هذا العداء العجيب جهدا عربيا مشتركا قادرا على مقاومته او الحد منه او معالجته بالتي هي احسن او بالتي هي اسوأ.

ترى، هل يحق للمواطن العربي ان يظن بأن حسني مبارك وحده هو المسؤول عن فشل حسني مبارك في واشنطن؟ او هل يحق للمواطن العربي ان يظن ان حسني مبارك لم يحاول بكل طاقاته وجهوده ان يحارب هذا الجو العدائي المسموم وان يستخلص لبلده وللفلسطينيين بعض ما كان يرجوه وينتظره من الولايات المتحدة الاميركية؟

ابادر واقول على الفور مايلي:

● ان حسني مبارك في نظري يختلف عن بقية زعماء العرب في طبيعته وفي اسلوب عمله. انه في اعتقادي ذلك المسؤول الاداري الذي يعمل لمصلحة شعبه وليس ذلك الزعيم الذي يعمل تحت ضغط الشعارات واليافطات والشارع العام. انه اشبه بمدير شركة مساهمة يريد تحقيق المكاسب لشركته، ولا يريد ان ينشر صوره او يكتب مذكراته او يوزع نصائحه على الناس. وفوق هذا فهو رجل عملي. يطالب بالمليون جنيه لكي يحصل على الربع مليون. ويصر على طلب الاعتراف العاجل والكامل بمنظمة التحرير الفلسطينية لكي يضمن الاعتراف العاجل الكامل بوفد اردني فلسطيني مشترك يأتي الى واشنطن او يذهب الى القاهرة، ويصرخ في وجه مندوب التلفزيون الاميركي في الساعة السابعة واحدى عشرة دقيقة من صباح يوم الخميس ١٤ مارس عام ١٩٨٥ قائلا لذلك المندوب التلفزيوني: «. . . دعونا نكون واقعيين . . . ان السوفيات واميركا والعالم كله يساند اسرائيل ويحمي اسرائيل ويدافع عنها، فهل من المنطق في شيء ان نقول بأن منظمة التحرير الفلسطينية قادرة على ان تزيل اسرائيل من الخريطة؟

ثم سمعت حسني مبارك يقول بكل واقعية ووضوح على شاشة ذلك التلفزيون المذكور ولذلك المراسل التلفزيوني:

ـ «ان الفلسطيني بشر! حلوا للفلسطيني قضيته. اعيدوا للفلسطيني كرامته. وعندها يعود السلام ويعود الاستقرار».

وعندما سأله مندوب التلفزيون الاميركي:

ـ ولماذا تصر مصر على شراء السلاح الجديد المتطور واقتناء المزيد من السلاح الجديد المتطور؟ اجابه حسني مبارك بكل بساطة:

ـ ولماذا تصر اسرائيل على شراء السلاح الجديد والمتطور، ولماذا تصر اسرائيل على اقتناء السلاح الجديد والمتطور؟

فقال له المندوب:

ـ ولكننا ندفع الفلوس لمصر.. !

فقاطعه مبارك قائلا:

ـ ولكنكم كسبتم مقابل ذلك صداقة مصر... صداقة دولة قوية في الشرق الاوسط... اليست هذه الصداقة اكثر واثمن واغلى من المال الذي تقدمونه لمصر؟

فعاد المندوب وسأله:

ـ والان ماذا؟

واجاب حسني مبارك:

ـ الان ان الكرة في مرمى اميركا وعلى اميركا وحدها ان تجد الجواب وان تجد الحل... !»

هكذا عاش حسني مبارك على اعصابه طيلة الايام التي قضاها في واشنطن.

الذين رحبوا به قالوا له: ان الرئيس ريغان يشكرك على جهودك للسلام ولكنه لايشكر اراءك!

والذين لم يفرحوا لمجيئه مضوا يلاحقونه بالمواقف الحرجة والتصريحات غير الودية.

فقد تذكرت جمال عبد الناصر كما تذكرت انطوني ايدن ونوري السعيد خلال زيارة «حسني مبارك» لواشنطن في ربيع عام ١٩٨٥ اكثر من مرة..

● ففي عام ١٩٥٦ وبالتحديد يوم ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ عندما اعلن جمال عبد الناصر قرار تأميم القناة كان نوري السعيد والوصي على عرش العراق في مأدبة

عشاء رسمية بلندن اقامها لهم انطوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا.

وقيل يوم ذاك ان خبر تأميم قناة السويس وقع على رأس انطوني ايدن كالصاعقة. وان بعض الحاضرين قد حسب ان يكون الجواب البريطاني على مصر قاسيا وجازما.

وعلى كل حال فان خبر قرار التأميم افسد جو حفلة انطوني ايدن وخيم القلق على نفوس الحاضرين في تلك الليلة وخرج الوفد العراقي الملكي قبل انتهاء الحفلة بساعة كاملة.

وقيل لي، انه خلال اللقاء التاريخي بين الرئيسين رونالد ريغان وحسني مبارك، وبينما كان الرئيس مبارك يتحدث للرئيس الاميركي عن ضرورة ايجاد حلول عادلة للمشاكل المستعصية في لبنان، وفي الضفة الغربية وقطاع غزة، ويوصي بانسحاب اسرائيل العاجل من الاراضي المحتلة، اي في نفس تلك الساعة التي كان رئيس مصر يلتقي برئيس اميركا في البيت الابيض كان مجلس الامن الدولي يعقد جلسته لبحث العدوان الاسرائيلي الاخير على قرية الزرارية بجنوب لبنان ومقتل ٥٠ لبنانيا ويجري عملية التصويت على قرار دولي بادانة اسرائيل فاذ بمندوبة اميركا في المجلس ترفع اصبعها وتستعمل حق الفيتو وتقتل القرار الدولي دفاعا عن اسرائيل!

اقول، لاشك ان الموقف كان محرجا وبالاخص للرئيس المصري العربي الضيف الذي سمع الخبر المذكور فور وقوعه في مجلس الامن.

● لقد فعل حسني مبارك كل ما في طاقة البشر من اجل ان يجعل زيارته لاميركا حدثا تاريخيا ناجحا. لقد تذرع بصبر ايوب. واستعان بكل ما عرفه ودرسه واختبره عن اميركا منذ ان كان نائبا لانور السادات الى هذا اليوم. ولم يتردد في ان يرسل السيدة الفاضلة قرينته للالتقاء بزوجات اعضاء مجلس الشيوخ والنواب في الكونغرس الاميركي وتبادل القهوة الصباحية معهن والتحدث اليهن عن المجتمع المصري وحاجاته ومتطلباته.

● ولكن...

كل هذا والتصريحات المسؤولة الاميركية تدق رأسه صباح مساء وتقول له بالفم المليان:

ـ اميركا تفهم اوضاع مصر الاقتصادية، ولكن امر الزيادة المالية لمصر يخضع للكونغرس الاميركي ولا نظن ان الكونغرس سيوافق على هذه الزيادة.

وتقول له ايضا:

ـ ان اميركا تطالب مصر والعرب باجراء مفاوضات مباشرة مع اسرائيل. ومصر تفهم اكثر من غيرها، كما انها تفهم جيدا ماذا تعني كلمة المفاوضات «المباشرة» وكيف تكون وفي اية ظروف وعلى اية طاولة؟!

وتقول له تلك الاوساط:

ـ ان الرئيس مبارك يطالبنا بالتحدث الى الفلسطينيين. ولكن اميركا لم تنقطع يوما واحدا عن التحدث الى الفلسطينيين والى الاردنيين معا. ان اهل الضفة هم من الفلسطينيين اما منظمة التحرير الفلسطينية فلا نعترف بها ولا نفاوضها الا اذا اعترفت بالقرار الدولي رقم ٢٤٢ واعترفت باسرائيل بلا غموض ولا ابهام.

ثم يسألونه بكل سذاجة الاشرار:

- قل لنا يا مستر «بريزدان»... لماذا لايعود السفير المصري الى مقر عمله في تل ابيب؟!

يضاف الى ذلك كله مايلي:

ان حسني مبارك قد لعب في زيارته الاخيرة لواشنطن ورقة الفلسطينيين والعرب من دون ان يبادر الى مساعدته عربي ديبلوماسي واحد في واشنطن او تبادر الى نجدته دولة عربية واحدة في العاصمة الاميركية.

بل لعل العكس هو الصحيح...

ان المغرب قد راح يوزع التصريحات ضد الاتفاق الاردني الفلسطيني وضد التفاهم المصري الاردني!

لماذا؟ لا ادري!

حتى السفراء العرب في واشنطن، واقول بعضهم، ولا داعي لذكر الاسماء، قد حزموا حقائبهم وغادروا العاصمة الاميركية خلال زيارة الرئيس المصري لها!

وقد سألت عن احد السفراء العرب الكبار فقيل لي انه مسافر في رحلة عمل الى لندن والشرق الاوسط. وسألت عن القائم بالاعمال في سفارته فقيل لي انه مسافر

خارج واشنطن . فسألت عن القنصل العام فقيل لي انه في نيويورك في عمل رسمي ، سألت من هناك فأجابوا : لا أحد !

وبعض السفراء العرب التزم سريره وسكنه الخاص ولم ينزل الى مكتبه لكي يتلافى الاحراج بسبب وجود الرئيس المصري في واشنطن.

وفي الحفلة الرسمية التي حضرها ريغان احتفالا بحسني مبارك كان عدد الحضور ٤٥ مدعوا من بينهم عشرة اشخاص مصريين وخمسة وثلاثون اميركيا. ولم يحضر الحفلة المذكورة سفير عربي واحد.

وهكذا يكون التضامن العربي من اجل فلسطين والا فلا!

لقد فشلت زيارة حسني مبارك الى اميركا، ولم تحقق اغراضها. .

ولكن. ؟ ورغم ذلك؟

لقد كشف حسني مبارك ـ في فشله ـ للعرب ـ لكل العرب، المحافظ منهم والمتطرف، والقريب منهم والبعيد، حقيقة اميركا وحقيقة دورها وحقيقة نواياها وحقيقة علاقتها المرتبطة مع اسرائيل ومدى ما تقدر عليه وما لا تقدر عليه في مجال حل القضايا العربية المعلقة، وهذا ايضا ما يستحق عليه الرئيس المصري الشكر الجزيل.

ترى على اي دور مصري نوجه نحن الشكر الى حسني مبارك رئيس مصر؟ هل نشكره على نجاحه؟ ام نشكره على فشله؟

لا . . . !

يجب توجيه الشكر اولا وقبل كل شيء الى اميركا والى المسؤولين فيها.

● فلولا كل مارأيناه وكل ما سمعناه عن الرحلة «المباركية» لبقينا وبقي في العرب (المحافظ والصديق) من يردد نغمة الصداقة ويقول ان أوراق الحل كلها موجودة في واشنطن -ورحم الله انور السادات- وان الحل واللعبة والاوراق ما زالت كلها في يد حكام واشنطن وفي استمرار الصداقة مع واشنطن .

وجاء حسني مبارك وفقع البالون.

واذ بالحقيقة شيء والاوهام شيء اخر.

ومن هنا اصبحت اميركا مثل حسني مبارك وقبله ، تستحق الشكر.

كان على العرب ـ وعلى جميع العرب ـ بكافة الوانهم وهيئاتهم وسياستهم ومشاربهم وشعاراتهم، استخراج العبرة من كل ماجرى لهم يومذاك ثم بناء السياسة القادرة على مواجهة هذا التحدي الواضح المذل للكرامة والحق والعدالة والانسان العربي . . والا . . . !؟

ان العرب في مدريد يحتفلون اليوم بمرور ١٢٠٠ سنة على بناء مسجد قرطبة. واسرائيل في القدس تحتفل بمرور ١٨ سنة على احتلال المسجد الاقصى المبارك!

وسيبقى كل هذا على حاله، ما دامت امة العرب، هي امة العرب، وما دامت اميركا هي اميركا . .

يعني ماذا؟ وماذا اريد ان اقول؟

اريد ان اقول ان هناك ثلاثة «اشياء» تبدأ اسماؤها جميعا بحرف «اي» بالانكليزية، ولا يمكن لاي مرشح نيابي او بلدي او اداري عن ولاية نيويورك ان يتجاهلها اذا اراد الفوز بأية معركة للحصول على اصوات اهل الولاية! هذه «الاشياء» هي: ايطاليا، واسرائيل، وايرلندا! وجميعها تبدأ بحرف «اي» بالانكليزية!

ولان ايرلندا وايطاليا لاتكترث اي منها لشيء اسمه «العرب»، او لقضية اسمها «فلسطين» فقد بقيت اسرائيل وحدها في الميدان، وبقي يهود نيويورك مع بقية يهود اميركا هم الذين يفصلون في المعارك، وبالتالي، هم وحدهم الذين يقررون الامور ويختارون الحكام ويرسمون السياسة ويحكمون البلاد!.

من هنا، كان السر المكشوف في الطابع الصهيوني المستمر للسياسة الاميركية منذ «هاري ترومان» حتى «رونالد ريغان» . .

ومن هنا، ايضا، اصبحت هذه اللجنة بالذات ـ واسمها «اللجنة الاميركية الاسرائيلية للشؤون العامة» ـ هي التي تحكم واشنطن وتتحكم في كل ما يصدر عن العاصمة الاميركية من تشريعات وقرارات تتعلق بالعرب او بالشرق الاوسط او باسرائيل . !

هل احدثكم قليلا عن هذه اللجنة التي اصبحت اسطورة النفوذ والرأي والسيطرة والتحكم، لا على البيت الابيض والكونغرس فحسب، بل على المانيا

الغربية وبريطانيا ودول حلف الاطلسي، من خلال واشنطن، ايضا!؟
● اسمها ـ كما قلت ـ «اللجنة الاميركية الاسرائيلية للشؤون العامة» وبالانكليزية American Israel Public Affairs Committee ويختصرون الاسم احيانا ويصبح «ايباك» او AIPAC! وقد تأسست ـ كما تقول الوثائق ـ في عام ١٩٥٤ واتخذت عنوانا لها في شارع «نورث كابيتول» بالعاصمة الاميركية وكان رئيسها المستر «لورنس واينبرغ» وسكرتيرها المستر «موريس اميته» ورقم تلفونها «٦٣٨٢٢٥٦» وهدفها ـ كما هو مسجل في الدفاتر الحكومية ـ «مراوضة ومداورة اعضاء الكونغرس ـ اي اللوبي ـ في كل ما يتعلق باسرائيل، واليهود السوفيات، وعمليات بيع السلاح الى دول الشرق الاوسط، من تشريعات وقرارات على اساس ان هذه اللجنة تمثل كل اميركي يؤمن بان الحرص على بقاء اسرائيل القوية الامنة، هو بالتالي الحرص على مصالح اميركا!»

ومنذ عامين تقريبا اي في عام ٩٨٣ تولى الادارة التنفيذية لهذه «الجمعية» مدير جديد هو «توماس داين»، فأحالها من مجرد لجنة صهيونية عادية تخدم المصالح اليهودية والصهيونية والاسرائيلية في العاصمة الاميركية الى «لجنة عليا» تتمتع «بكل» النفوذ والسيطرة داخل اروقة البيت الابيض ودهاليز الكونغرس، وتفرض كلمتها في كل ما يتعلق بالعلاقات السياسية والاقتصادية «والسلاحية» بين اميركا من جهة، وجميع دول منطقة الشرق الاوسط، من جهة اخرى. . !

هل تصدقون؟؟

● رئيس هذه الجمعية يرفع سماعة التلفون من مكتبه في العاصمة الاميركية ويطلب محادثة رونالد ريغان على الخط، ويلبي الرئيس الاميركي الطلب ويجري معه حديثا مفصلا يتعلق بأية صفقة سلاح تنوي اميركا ان تبيعها للسعودية او للاردن، وبأي موضوع سياسي يتعلق بالعلاقات بين واشنطن والاردن والسعودية ومصر ودول الخليج!

هل تصدقون؟!

● رئيس هذه الجمعية قد علم بقرار الحكومة الاميركية ـ اي بقرار رونالد ريغان ـ في الغاء بيع صفقة الصواريخ الاخيرة الى الرياض والاردن «قبل» ان يعلم بالقرار اي

موظف في الخارجية الاميركية، ولا حتى «ريتشارد مورفي» مساعد وزير الخارجية لسياسة الشرق الاوسط!

● هل تصدقون ما روته «النيويورك تايمس» في عددها الصادر يوم السبت «٢٤ مارس» ١٩٨٤ من ان رئيس هذه اللجنة قد عقد مع رونالد ريغان صفقة سياسية تم بموجبها ان يتعهد ريغان بالغاء صفقة الصواريخ للسعودية وللاردن مقابل ان تخفف «اللجنة» ـ اياها ـ من ضغوطها على الحكومة لنقل سفارة اميركا من تل ابيب الى . . القدس؟

● هل تصدقون ان رونالد ريغان ـ رئيس الولايات المتحدة الاميركية بالذات ـ قد رفع سماعة التلفون ابان التدخل الاميركي في لبنان لكي «يشكر» المستر «تومات دين» رئيس «ايباك» على تأييده لسياسة العنف الاميركية في حرب لبنان؟

وبعد هذا يقولون لك ان «ايباك» هذه مجرد لجنة يهودية عادية لاتزيد ميزانيتها عن «اربعة ملايين» دولار، ولا يزيد عدد غرف مكاتبها عن «ستة»، وانها تعمل بالصمت ولا تؤمن بالضجيج ولا يزيد عدد اعضائها الذين يدفعون الاشتراك عن خمسين الف . . يهودي اميركي . . . . فقط!

ـ عال . !

ولكن الحقيقة الثابتة التي لاينالها اي شك تؤكد ان هذه «الجمعية» بالذات تأخذ اوامرها من دولة خارجية غير اميركية، اسمها، اسرائيل، وان كل مواقفها السياسية والعسكرية تجاه سائر القضايا المشتركة بين اميركا والعرب، كانت ـ بالتمام والكمال ـ هي المواقف الرسمية لحكومة تل ابيب، وان هذه الجمعية ـ بالذات ـ كانت على اتصال فوري وسريع مع معظم اعضاء الكونغرس الاميركي في الساعة التي وقعت معها غارة اسرائيل على المفاعل الذري العراقي في بغداد قبل ـ اكرر قبل ـ ان يعلن مناحيم بيغن رسميا عن الغارة بأكثر من ساعتين!!

وكل مسؤول في واشنطن، يملك من المعلومات عن هذه الجمعية مايكفي لاغلاقها ونسفها وتحديد حجمها ومقاضاتها امام المحاكم الاميركية.

ولكن؟

ان رئيس الجمعية ـ نفسه ـ يقول بان سر نجاحه «وعظمته» ونفوذه ينحصر في

كونه لايعمل الا «بما يتفق ومصلحة اميركا»!! وان سر تفوقه على بقية الجمعيات الصهيونية في اميركا يوجد في كون معظم المرشحين لرئاسة الجمهورية او لعضوية الكونغرس يقومون بالاتصال به خلال معاركهم للحصول منه على المعلومات الضرورية حول قضايا العرب واسرائيل والاستنارة بها في احاديثهم الصحفية ومقابلاتهم التلفزيونية»!

ترى، هل هذا الكلام صحيحا او شبه صحيح؟؟

●هل هذا هو السر الذي جعل من استاذ جامعي كبير كالسناتور «دانيال باتريك موينهان» سفير اميركا السابق في الهند وممثل اميركا السابق في الامم المتحدة مجرد خادم صهيوني يعمل في بلاط اسرائيل وينتهز كل مناسبة لكي يشتم العرب او يتقدم للكونغرس بالمشاريع والقوانين التي تفسد مابين بلاده والعرب او يجعل من اسرائيل منبرا ـ مزورا ـ للحضارة والمدنية والديمقراطية؟؟

هل هذا هو السر الذي جعل ادوارد كوش ـ او كوخ ـ رئيس بلدية نيويورك اليهودي يتحول الى آلة صماء عمياء في يد اسرائيل، يعادي من يعاديها، ويصادق من يصادقها، ويتفانى في خدمتها، ويتسابق للفوز برضاها، ويطلب من اهل نيويورك تأييد «ولتر مونديل» ضد غاري هارت «لاني اعرف ولتر مونديل جيدا!»؟

ومثله زميله السناتور «الفونس داماتو».. الجمهوري.. عن نيويورك! ومثله الحاكم «هيو كاري».. العسكري سابقا وحاكم نيويورك الديمقراطي حاليا!

● انا اقول ان اللجنة المذكورة هي حكومة داخل حكومة، وانها تزود المرشحين بالمال والنفوذ والاصوات والتوجيهات، وانها ترسم بالضغوط المستمرة ـ لحكام واشنطن ونيويورك سياستهم هيصة !. سلطة روسي ! سمك لبن تمر هندي !

وكل هذا ، والادارة الاميركية -في مختلف مراحلها على مدى الثلاثين سنة الماضية- تتخبط في مستنقعات الجهل والتردد والرهانات الخاسرة . .

في عام ١٩٧٦ ، وكنت ازور واشنطن في رحلة صحفية وكان جيمي كارتر ـ بسذاجته وسطحيته ـ يحكم اميركا، سمعت من جاء يقول لي معقبا على فوز مناحيم بيغن بالسلطة:

ـ ان مجيء زعيم مثل مناحيم بيغن الى الحكم يعني ان الشرق الاوسط سيشهد

قريبا بوادر السلام بين العرب واليهود!»

ثم اضاف:

ـ وكما ان السلام بين اميركا والصين قد احتاج الى زعيم اميركي مثل ريتشارد نيكسون، المشهور بعدائه للشيوعية، لكي يتولى مسؤولية بناء ذلك السلام واقامة العلاقات الطبيعية بين واشنطن وبكين، كذلك فان السلام مع العرب يحتاج الى زعيم اسرائيلي في مكانة وشعبية مناحيم بيغن!»

● ولم اقل له ان رجلا مثل «بيغن» لن يعقد سلاما مع العرب الا اذا جاء هذا السلام على حساب العرب انفسهم.

● ولم اقل له كذلك، ان مبادىء «بيغن» السياسية، وتاريخه الارهابي ومعالم شخصيته قد قامت كلها على التطرف والتعصب والدم، وان مثل هذا الرجل غير قادر لكي يتنكر لماضيه او ينقلب على نفسه او ينسف مبادئه من اجل ان يخدم السلام او يعيد حقا ضائعا الى اهله العرب..!

● ولم اقل له ان مجيء مناحيم بيغن ـ يومذاك ـ الى الحكم، يعني بداية مرحلة جديدة في مفهوم العمل السياسي، والتفكير السياسي داخل اسرائيل، تهدف كلها الى ابتلاع الضفة الغربية، وتعميق العداء للعرب، ومضاعفة التعصب اليهودي، ومزاولة اعمال العدوان والمغامرات العسكرية ضد كل دولة عربية مجاورة سواء كان اسمها العراق او كان اسمها لبنان، مع تزوير التاريخ وتهويد الاثار وتهديد العرب والحكم بالحديد والنار واطلاق يد الارهابيين المتدينين اليهود في حمل القانون بأنفسهم وتطبيق اعنف المبادىء المتطرفة ضد كل من هو غير يهودي او غير صهيوني!

لم اقل لمحدثي الاميركي المسؤول، يومذاك، كلمة واحدة، بل تركته غارقا في احلامه المعسولة الكاذبة التي تصور له مجرما عريقا كمناحيم بيغن في صورة ملاك سماوي يحب السلام ويعمل من اجله..

ومضت الايام، وثبت للجميع مدى عقم التفكير الاميركي في القضايا العامة مع مدى خطأ المفهوم الاميركي للبشر!

واثبت مناحيم بيغن، للعالم كله، انه صورة طبق الاصل عن ادولف هتلر في تعصبه وجنونه، وعن ستالين في ظمأه للدم، وعن «غوبلز» في حبه للكلام وتعلقه

بالعبارات والشعارات، وعن «جابوتنسكي» في كراهيته لغير اليهود، فملأ الدنيا عدوانا وحروبا، واستهان بالامم المتحدة، وشتم زعماء الدول، واستحل المقدسات السماوية عند المسيحيين والمسلمين، واغتصب الحقوق، وشوه تفكير المواطن الاسرائيلي بكل غريب ومختلق، وكان بالنسبة لاميركا ـ بالذات ـ اسوأ حليف والعن صديق!

● وبسبب امثال مناحيم بيغن، خسرت اميركا مصداقيتها عند العرب وعند المسلمين... خسرتها عند الملوك وعند الشعوب!

● وبسبب امثال مناحيم بيغن، عادت صورة الاميركي القبيح حية في اذهان اهل هذا الشرق!

● وبسبب امثال مناحيم بيغن تفتحت كل ابواب الشرق الاوسط امام التيارات الشيوعية الحمراء!

وبسبب امثال مناحيم بيغن، عادت موجات التعصب والحقد تملأ قلوب اهل هذا الشرق حيث لاجواب على التعصب الا بالتعصب، ولا رد على التطرف، الا بالتطرف، ولا دواء للمد الديني اليهودي الا بالمد الديني.. الاسلامي، ولا تعليق على نشر مبادىء «جابوتنسكي» وتهويد المسجد الاقصى وتهديد المسلمين في الضفة والقطاع الا بنشر الثورات الاسلامية الكفيلة بالردع والعقاب!

● قال لي الرئيس الاميركي السابق «ريتشارد نيكسون» في واشنطن انه سمع «الملك الحسن» المغربي يقارن امامه بين الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وبين ثورة ايران عام ١٩٧٩ فقال الملك ان الثورة الفرنسية قد قامت من اجل تحطيم الماضي وبناء الحاضر والمستقبل، بينما قامت ثورة ايران من اجل بعث الماضي على حساب قتل الحاضر.. وقتل المستقبل!»

● وسألت الرئيس «ريتشارد نيكسون» وانا اسمع منه هذا الكلام الطريف:

ـ الم تقل للملك المغربي من هو المسؤول الاول عن نشر مبادىء الثورات المتعصبة في دنيا الشرق الاوسط؟ الم تحدثه عن «مناحيم بيغن» الذي قلب السياسة الى دين، وجعل من الصهيونية مبادىء توراة، واحال التوراة الى حزب سياسي، وافسد عقول شعبه بكل الخرافات والاضاليل، فكان لابد له من جواب، ومن

صدى، ومن رد، ومن ثورات مضادة ومماثلة وقوية في اجزاء اخرى من هذا الشرق؟!»

وصمت «ريتشارد نيكسون» قبل ان يقول لي ما معناه:

ـ ان الطرافة في حديث التفاصيل لايقابلها الا طرافة حديث ملك المغرب عن المقارنة بين الثورتين. . »!

سألته:

ـ ترى ماذا ستفعل اميركا في معالجة مثل هذه الحالات؟ وهل يقدر رونالد ريغان ان يجد الدواء الشافي للامراض المستعصية التي خلفها وراءه سلفه الساذج جيمي كارتر في مختلف انحاء دنيا الشرق الاوسط؟!»

لم اسمع من ريتشارد نيكسون الجواب الذي كنت ارجوه. فقلت له وكأني احدث نفسي معه:

ـ لقد فشل التحالف الاستراتيجي بين اميركا واسرائيل. كما فشلت اتفاقية كامب دافيد. كما فشلت عملية «سلام الجليل» التي باركتها اميركا. كما فشلت اتفاقية «كريات شمونة» بين لبنان واسرائيل. كما فشلت السياسة الاميركية في لبنان. كما فشلت وضاعت مبادرة ريغان للشرق الاوسط. فماذا بقي؟؟ وهل مازالت اميركا تراهن على رجال من امثال مناحيم بيغن وتساعدهم على الفوز في الانتخابات كي يستمر الطوفان ويعم الخراب ويضيع بقية الاصدقاء وتقوم ثورات جديدة في انحاء اخرى من هذا الشرق ؟!

وافترقنا قبل ان اكمل بقية الحديث. .

● ولم اقل له ـ مثلا ـ انه اذا كان من حق اسرائيل ان تتدخل في معركة انتخابات الرئاسة الاميركية، فان من حق اميركا ـ مثلا ـ ان تتدخل في المعركة البرلمانية باسرائيل!

● لم اقل له ـ مثلا ـ ان «الاجهزة» الاميركية القادرة على ان تقرر نوع الحكم في «شيلي» او «الارجنتين» او «زائير» او «تايوان» او «الفلبين» او «السلفادور»، قادرة ايضا ان تقرر نوع «الحاكم» في بلد كأسرائيل!

● لم اقل له ـ مثلا ـ ان التغيير المطلوب في عقلية ونوع الحاكم الاسرائيلي، امر

تفرضه مصلحة اميركا قبل ان تطلبه مصلحة العرب. . !

واخيرا. .

لم اقل لريتشارد نيكسون، مثلا ان لاسرائيل معركة حاسمة تدور رحاها في قلب واشنطن، وان الرد الاميركي المنطقي على هذه المعركة يكون في خلق معركة حاسمة لاميركا ولحسابها ولمصلحتها ومن اجلها، في قلب تل ابيب! وكما ان اسرائيل تعمل للنصر في معركتها الاميركية، فان على اميركا ان تعمل للانتصار في معركتها. . الاسرائيلية!

فقط لاغير! بدون تفاصيل ولا اسماء ولا شرح ولا امثلة ولا لف ولا دوران.

لا!

لم اقل شيئاً من هذا لصديقي الرئيس الاميركي السابق. .

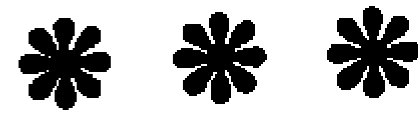
فقد اشعرني - دون كلام - انه مثلي يعرف حقيقة اميركا، ومدى التسلط الصهيوني عليها، ومدى التقصير العربي في محاربة هذا التسلط او مقاومته او موازنته.

ريتشارد نيكسون - مثلي - لا يلوم اميركا «وحدها» في موالاتها للصهيونية او في عدائها للعرب. .

ترى، متى يفهم العرب، عن اميركا، «بعض» مايفهمه عنها، اصدقاء العرب، من كبار الاميركيين. . الحاكمين. . المعروفين. . . الحاليين. . . والسابقين ؟

متى؟

قبل ان نصل الى. . الحضيض؟!



الفصل الثامن والعشرون
وانما الامم الاخلاق ما بقيت ...

● اذا سيطرنا على ثروتنا، اصبحنا اغنياء واحراراً! اما اذا سيطرت علينا ثرواتنا، اصبحنا عبيداً وفقراء. !

«ادموند بيرك» ١٧٨٠

● من توفيق الحكيم الى نجيب محفوظ الى بعض شيوخ الازهر الذين انقلبوا على «الناصرية» وايدوا كامب دايفيد.. ماذا نقول؟

● اشترينا «هارودز» ولكننا عجزنا عن ان نشتري مجلة او جريدة عالمية واحدة نستغلها في الدعوة لقضية واحدة من قضايانا... !
وعندما اشترينا هارودز، صب الانجليز لعناتهم على رؤوسنا!

الفصل الثامن والعشرون

وانما الامم الاخلاق ما بقيت ...

لايكفي ان تكون صاحب حق لكي يسرع غيرك ويعترف لك بذلك الحق. ان امتلاك المرء لحقه شيء مهم، ولكن الاهم منه ان يكون المرء في حالة يستحق معها امتلاك الحق الذي يدعيه.

وليس مهماً - في نظر العالم - ان يكون للعرب او للفلسطينيين حقوقهم الضائعة في ارض فلسطين، وانما المهم ان يثبت العرب للعالم انهم يستحقون استرداد حقوقهم الضائعة لانهم اكثر جدارة بها من الذين اغتصبوها منهم!

ترى هل اثبت العرب للعالم انهم يستحقون ما «يزعمونه» لانفسهم من حقوق في فلسطين، او انهم اكثر جدارة من اعدائهم في الفوز بالسيادة على الارض المقدسة.؟

لقد تسنى لي ان اسمع المجرم الاسرائيلي الكبير «ايريل شارون» يحاضر على شاشة تلفزيون بلجيكا ويقول للعالم في رده على الذين هاجموا اسرائيل بسبب حرب لبنان «لقد اعطى اليهود للبشرية اعظم رجالاتها في جميع ميادين الطب والموسيقى والعلوم والفيزياء والمال، ويجب ان لاينسى العالم ذلك..»

وفي عام ١٩٤٦ قال «حايم وايزمن» لاعضاء لجنة التحقيق الانجلو - اميركية خلال الادلاء بشهادته امام اللجنة المذكورة :

«... انا اعطيت «الحلفاء» ثمرة تجاربي في ميادين الكيمياء والعلم فأفدت

المجهود الحربي وساهمت في النصر. . . واصبح من حقي ان اطالب بالثمن. . . وان يكون الثمن لاهلي من يهود العالم في العودة الى فلسطين واقامة دولتهم على ارضها. . »!

وقد يكون من الصعب على العرب والمسلمين، الحنين الى ايامهم السابقة والخالدة عندما اضاءوا مشاعل العلم والمعرفة في ارجاء العالم وخدموا الانسانية في ميادين الطب والادب والموسيقى والحساب والفلسفة واخرجوا اعظم العلماء والادباء، اقول قد يكون صعباً ان يعود العرب الى سيرتهم الاولى ويكملوا رحلاتهم العلمية الكبرى في ميادين الفكر، ولكن، هل يكون صعباً على العرب ان يكفوا اذاهم عن الاخرين، ولا ينشرون فضائحهم امام الناس، ولا يقومون في اعمالهم الخاصة والعامة بما يؤذي العين، او يؤذي الحضارة، او يؤذي الذوق ، او يؤذي الاداب العامة؟!

ان العالم بطبعه ينفر من الاجرام، والمجتمع العالمي في المستوى العام يكره البذخ والسفه والقمار واغنياء الفرص والمناسبات! والبشرية في معظمها تشكو من الجوع والعراء والفقر والقحط ولا تتساهل امام مظاهر التكبر والثروة الضائعة في اقتناء الجواهر والقصور واليخوت واللهو الدنس المكشوف. . !

والعالم بطبعه لايحترم الاديب المتلون او المفكر المنافق او الروائي الانتهازي او رجل الدين الذي يوظف منصبه الكبير في خدمة سيده الزعيم السياسي الجاهل او المنحرف! وكان العالم يضحك منا ونحن نغار من الاسماء اليهودية التي تفوز بجوائز «نوبل» ونتساءل في سذاجة الاطفال: «لماذا لانرشح توفيق الحكيم، او نجيب محفوظ او شارل مالك او سعيد عقل لجوائز نوبل للاداب. . !؟» فقد كان العالم يعرف تماماً حقيقة هؤلاء المفكرين الادباء، وكيف مشوا في ركاب الرجعية والملك فاروق، ثم في ركاب الثورة وعبد الناصر، ثم في ركاب الخيانة والسادات، ثم في ركاب السلام مع اسرائيل، ثم انقلبوا وارتدوا وكفروا، وعادوا وآمنوا بمجد العروبة. . . «واللوم كله عن رئاسة الجمهورية وعلى انور السادات وعلى الضغط الرسمي. . وقد اخطأنا. . ونحن مجرد بشر. . ولا لزوم «لعودة الوعي» او وعي العودة او نبش الماضي او الحساب والعقاب» ! كما كان العالم يعرف ان «سعيد عقل»

الذي اهان لغته وتبرأ من اهله وقومه وجعل من نفسه ومن شعره اضحوكة امام الناس، سيبقى ابعد الناس عن التقدير والاحترام! مثله، مثل فيلسوفه «شارل مالك» الذي جعل من الفلسفة نكتة قروية لبنانية ومن تعاليم «سانت اغسطين» مجرد عبارة للتعصب، وعبودية للكتائب، وتمجيد للعنف وقتل المسلمين في لبنان!

ان اهل الفكر، كأهل الحكم، كأهل المال، هم «الواجهة» التي يطل منها العرب على العالم، او هم «العنوان» الذي يستدل به ومن خلاله، العالم على هذه الامة. وقد جاءت تصرفات الجميع - اعني اهل الفكر والحكم والمال - صورة قبيحة في عدم الشعور بالمسؤولية وفي الاستخفاف بالاخطار المحدقة بالامة العربية.

يضاف الى ذلك ان وفرة المال العربي منذ اول «السبعينات» مع نشوب الحرب اللبنانية واغلاق ابواب لبنان في وجه المصطافين العرب من دول البترول قد حمل هؤلاء المصطافين او الباحثين عن «السعادة» على السفر الى عواصم الدنيا الواسعة ودخول عالم جديد من العادات والتقاليد والقوانين والمجتمعات دون اي استعداد مسبق، او دراية مطلوبة لعدم الانزلاق في المخاطر.. والفضائح!

وقد حسب هؤلاء «الاغنياء الجدد» من العرب، ان مجرد وفرة وجود المال في ايديهم، تعني وفرة العلم والذكاء والخبرة في خطواتهم وتصرفاتهم. وكان الغرور القاتل. وكان التبجح المخيف! وكانت التصرفات الجاهلة الرخيصة التي افقدت العربي احترام الاجنبي او محبته او تقديره او صداقته.

وشهدت عواصم اوروبا، المليئة بالجاليات المعادية للاسلام والعروبة، فصولاً من غرائب التصرفات العربية على مدى الشهور والاعوام.

ورأى الانجليز في لندن، كيف يغتال المسلم العربي اخاه المسلم العربي في ساحة «مسجد» لندن الاسلامي دون اي احترام لبيت من بيوت الله! وشاهد الملايين على شاشات التلفزيون البريطاني كيف يستطيع وزير دفاع عربي ان يملك اربعمائة حصان ومائة جمل وناقة تقدر قيمتها بمئات الملايين من الجنيهات، وكيف يعيش ويتصرف هذا الوزير العربي في ميادين السباق، وبمعاونة مستشاريه من كبار ضباط وزارة الدفاع البريطانية وكيف يدعو مندوبة تلفزيون «لندن» لكي تطير معه في طائرته البوينغ الخاصة وتشاهد ربوع الخيام وساحات القصور وملاعب الحسان

وبيوت الخيل وملاعب السباق على ساحل الخليج . . العربي!

وقرأ الناس في لندن وفي باريس كيف ضبط بوليس المحلات التجارية جماعات من العرب، رجالاً ونساء، بتهمة السرقة!

وسمع الناس كيف ان بعض هؤلاء المتهمين بالسرقة قد اعترفوا بالسرقة ولكنهم برروا جريمتهم بانهم انما يسرقون . . محلات . . يملكها . . الاعداء اليهود . !

وفي كل ليلة عشرات من حوادث السرقة على منازل الاثرياء العرب مع كشوفات تعلنها الشرطة بقيمة المال المسروق والتي تتعدى دائما حدود مئات الالاف من الجنيهات . . والذهب والالماس والجواهر . !

ومنذ عام ١٩٧٣ ، اي منذ معركة حظر البترول وارتفاع اسعاره وتدفق المال على الدول الخليجية، بدأ العالم يعلق كل همومه وكل مصائبه وكل ازماته على «شماعة» البترول العربي ويعزي الضربات التي تنهمر فوق رأسه الى الجشع العربي والى «الاوبيك» والى بترول العرب والى المال العربي!

وبدلاً من ان تتدارك الدول العربية المنتجة للبترول هذا الوضع الدولي العدائي المحموم، التزمت موقف التجاهل والاستهتار ، ودفنت رأسها في الرمال، ومضت تتحدى الرأي العام العالمي بالمزيد من الفضائح والمزيد من الاستهتار . !

صديقنا . . احد وزراء البترول العرب اشترى منزلاً في «سويسرا»، وطلب من بلدية المدينة التي يقع فيها منزله الجديد، ان تبدل اسم شارعه من مجرد «شارع كذا» الى «بولفار» كذا . . او «افنيو» كذا . !

وتم للوزير ما اراد بما يتفق وعلو منصبه ووفرة ماله! ووزير اخر من وزراء البترول العرب كان دائماً يوحي لزميله البترولي في دولة خليجية مجاورة ان يدلي بتصريحات معينة حول الاسعار المرتقبة للبترول في السوق العالمية من شأنها التأثير على اسعار الدولار والاسترليني، والذهب! وعندما يتحقق الاثر المطلوب، وتتجاوب السوق العالمية مع تصريحات معالي الوزير العربي الهام، يهرع اصحاب تلك التصريحات المقصودة الى عقد عمليات البيع والشراء ويكسبون من وراء صفقاتهم ملايين الدولارات!

ووزير ثالث من وزراء البترول «العربي» ـ ولا اقول من وزراء البترول «العرب»

ـ احال جلسات منظمة الاوبيك العالمية الى سوق عكاظ، يمتحن فيها قريحته الشعرية وينكت فيها على زملائه الوزراء ويتباكى على مصير البترول ويرثي المنظمة التي كانت الى الامس القريب اقوى سلاح في يد الامة العربية. !

ولا املك وصفا صادقا ينطبق على حالة اوبيك وحالة اعضائها سوى ان اقول بأنه الضياع او التفتت او الانحدار السريع نحو الهاوية.

لقد اصبحت ـ اي منظمة اوبيك ـ اشبه ببلاد محتلة كفلسطين مثلا، او اشبه بمسجد اسير حزين كالمسجد الاقصى في القدس، او مسجد الجزار في عكا او مسجد قرطبة بالاندلس. انها صورة محزنة للصراعات والحزازات والتناقضات التي لم يعد يدرك اصحابها انهم بما فعلوه واقترفوه في حقها قد حطموا منظمة اوبيك ونسفوا اسسها وشوهوا صورتها وسلبوا العرب خاصة، من اقوى اسلحتهم السياسية والاقتصادية في القرن العشرين.

وكما فعل الذهب بالاسبان، فعل البترول بالعرب!

فقد نهب الاسبان في احتلالهم لدول اميركا الجنوبية كل ما وجدوه هناك من ذهب وفضة وخيرات وعادوا بها الى اسبانيا. وبدلا من ان تصبح هذه الثروة الذهبية عامل نمو وانتاج في يد الاسبان اصبحت المرض الذي صرفهم عن العمل ودفعهم الى الكسل وجعل مليكهم شارل الاول في عام ١٥٢٠ يلهو بالحفلات ويبذخ على المظاهر وينصرف الى السهر والترف والنساء فما ان ذهب شارل الاول وجاء بعده ولده فيليب الثاني حتى بدأت شمس اسبانيا القوية في المغيب، فانتحر اسطولها «الارمادا» امام الانجليز واشتعلت حرب الاسر بمجيء واحد من اسرة البوربون الى عرش البلاد وانجرت اسبانيا الى حروب نابليون فاحتلتها جيوش فرنسا وجلس على عرشها ملك فرنسي في عام ١٨٠٨ ثم تفتتت البلاد في صراعات داخلية في منتصف القرن التاسع عشر وفقدت مستعمراتها في اميركا وتحولت فيما بعد الى دولة من الدرجة الثالثة. . ؟

لقد كانت منظمة الاوبيك في يد العرب الى عهد قريب اشبه بالذهب والفضة في يد الاسبان على عهد شارل الاول. فماذا جرى؟ ليس سرا ان جلسات المنظمة المذكورة قد تحولت عند بعضهم الى مواسم دعاية وتصوير وعدسات تلفزيون.

وتحولت عند البعض الاخر الى مواسم سهر ولهو في ليالي فيينا وجنيف. وتحولت عند الباقين الى فرص للردح والتشهير وتسديد الحسابات القديمة. وهكذا تفتتت المنظمة وفقدت ثقة العالم بها وضاع تأثيرها على الناس واصبحت مجرد اداة يستفيد منها المنتجون من خارج اطارها كدول النرويج وبريطانيا وروسيا والمكسيك. او يتحدث عنها الناس كما يتحدثون اليوم عن عصبة الامم الراحلة بعد ان قتلها موسوليني في غزوه للحبشة وداس عليها هتلر في ضمه للسوديت.

هل يصدق احد «بعض» هذا الذي جرى في اخطر ازمات منظمة «اوبيك» خلال اجتماعها في مدينة جنيف في اول شهر من عام ١٩٨٥؟

هل يصدق احد بعض هذه الخناقات والتمثيليات والتهديدات والانسحابات والمناورات؟

في تلك الجلسة، وانا اكتب عنها كمجرد مثال استشهد به - انسحب السيد وزير بترول الامارات «العربية» المتحدة - وهو شاعر واديب كبير - لان المستر ديفيد تاموث وزير البترول النيجيري قد تحدث في بدء الجلسة قائلا ان على الدول الاعضاء الامتناع عن الادلاء بالتصريحات المتناقضة الى رجال الصحافة والاعلام عند انتهاء الجلسات وذلك حفاظا على وحدة المنظمة و سمعتها، وان لجنة المراقبة التابعة للمنظمة - اي للاوبيك - والتي يرأسها السيد مانع العتيبة وزير بترول الامارات لم تفعل كثيرا في القيام بمهمتها بدلا من ان تشغل نفسها او يشغلها رئيسها بامور ثانوية لا علاقة لمنظمة الاوبيك بها. وعلى الفور ظن الوزير العتيبة ان زميله النيجيري يتعرض له او يغمز من بعض قصائد الشعر التي كان الوزير العتيبة قد نظمها في الماضي عن اعمال المنظمة ونشرها في مختلف صحف العالم فهاج وماج وانسحب من الجلسة لكي يجد جموع الصحفيين المنتظرين في الخارج في استقباله على الرحب والسعة فقال لهم رأيه الصريح في زميله النيجيري وفي لونه وفي جنسه وفي افريقيا السوداء كلها . . . بينما لزم رئيس الجلسة الوزير الاندونيسي الصمت واستمر في ادارة الجلسة وكأن شيئا لم يقع، لولا ان اسرع الوزير السعودي الشيخ احمد زكي اليماني للخروج وراء زميله الدكتور العتيبة، فلما لم يجده في غرفته بفندق الانتركونتيننتال حيث تنزل الوفود رسميا جرى وراءه الى فندق هيلتون حيث يقيم

الدكتور العتيبة بصورة «خاصة»، ولكنه عجز على ان يعيده معه، فقال المراقبون انها غمامة صيف عابرة سببها سوء تفاهم بسبب عدم فهم عبارة اصطلاحية وردت باللغة الانجليزية على لسان الوزير الانجليزي فلم يفهم معناها وزير الامارات العربية. . . !

وهكذا وبدلا من الاهتمام بما هو اهم وجدنا نحن معشر الصحفيين ـ وجدنا انفسنا نهتم بالخناقات الحامية بين نيجيريا من جهة والامارات العربية من جهة ووجدنا احمد زكي اليماني يقوم بدور الوسيط المرحوم الكونت فولك برنادوت لكي يزيل سوء التفاهم وينشر حمامات السلام بين الاعضاء المتخانقين.

ولو ان وزراء منظمة الاوبيك قرأوا تقاريرهم السرية التي امامهم جيدا وعرفوا الحقائق المؤلمة المتعلقة بأوضاع البترول في العالم لما شغلوا انفسهم بمثل هذه الخناقات. الحقائق السرية تقول بأن نسبة الانتاج في شهر يناير عام ١٩٨٥ من البترول قد هبطت الى ما دون رقم الـ ١٦ مليون برميل بسبب نقص الانتاج السعودي والايراني وبعض دول الاوبيك. وان الطلب على البترول في السوق العالمية مازال اقل من العرض بل وان الطلب هو اقل مما كان متوقعا او منتظرا. وكذلك فان التقارير السرية تقول بان المخزون البترولي الفائض لدى الشركات البترولية الكبرى يزيد عن اربعة مليارات برميل وان الحكومات الاوروبية تملك مخزونا احتياطيا بتروليا لاحتياجاتها يكفيها لاكثر من مائة يوم بالكامل!

ولكن وزراء بترول اوبيك ـ كما يبدو ـ لا يحبون القراءة بقدر حبهم للخناقات!

وكذلك فان وزراء اوبيك قد فقدوا ـ كما يبدو ـ الحرص الصحيح في تحمل مسؤوليتهم عن ضياع هذه المنظمة وبالتالي عن اللجوء الى نقد الذات ومحاسبة الضمير.

فهل نسي بعض وزراء اوبيك من هو المسؤول بينهم عن الاصرار في الحفاظ على نسبة الانتاج اليومي مع الحفاظ على نسبة الاسعار عند بلادهم، دون الالتفات الى تدهور الدور المؤثر للمنظمة في السوق العالمية بسبب منافسة الدول «غير الاعضاء في الاوبيك» والتي زادت من انتاجها وخفضت من اسعارها كبريطانيا والنرويج والمكسيك وغيرها؟!

ومن المسؤول بين وزراء اوبيك عن انكماش حجم التجارة للبترول الذي تملكه الدول الاعضاء من ٦٠ بالمائة منذ عامين اثنين الى اقل من ٣٠ بالمائة في ١٩٨٥؟

● من المسؤول عن جعل الدول غير الاعضاء في الاوبيك تحتل مكان الدول الاعضاء في السوق البترولية العالمية، ومن المسؤول عن انخفاض انتاج دول اوبيك من ٣٠ مليون برميل يوميا في عام ١٩٧٩ الى اقل من ١٥ مليون برميل يوميا في عام ١٩٨٥؟

● ومن المسؤول عن رفض بعض دول اوبيك ان تخفض من اسعار بترولها لكي تواجه المنافسة القادمة من بترول الدول غير الاعضاء فارتكبت بعض الدول العربية غلطة العمر عندما اصابها العمى المقصود فلم تر ان ظروف السوق البترولية قد تبدلت وان الطلب على البترول قد انخفض وقل واصرت هذه الدول بذاتها نتيجة جهل وزراء بترولها او نتيجة جبنهم او نتيجة نفاقهم لرؤسائهم وامرائهم على ان يبقى الانتاج عندهم مقدسا كما هو بلا تغيير وان تبقى الاسعار عندهم مقدسة كما هي بلا تبديل مع تجاهل الجاهل للمنافسة الخارجية، والعمى في رؤية حقائق السوق البترولية الحاضرة خاصة وان دول الخليج العربي وحدها تشكل مايزيد عن ٦٠ بالمائة من احتياطي البترول في العالم؟!

اجل من المسؤول؟

من المسؤول عن ضياع السوق البترولية امام البترول «العربي» واصابة هذا البترول بكل هذه الخسائر المادية مع تحطيم منظمة الاوبيك فوق رؤوس اصحابها وضياع سلاح البترول من يد اصحابه العرب؟

من يا ترى من؟

فالمعروف مثلا ان تكاليف انتاج البترول الانجليزي او النرويجي او الروسي تزيد عن تكاليف انتاج البترول العربي، ورغم ذلك فان البترول غير العربي عند الانجليز او النرويج او الروس يباع بأرخص مما يباع به البترول العربي لماذا؟

لماذا هذه السلسلة من الاخطاء المتكررة الساذجة والمتعمدة، والتي جعلت من منظمة اوبيك مجرد جثة بلا حراك ولا حياة وكأنها ـ بلغة الشعراء وخيال المؤرخين ـ اندلسا بترولية اخرى جديدة من طراز ١٩٨٥؟

سيقول التاريخ مايلي :

لقد اجتمع وزراء الاوبيك في اواخر الشهر الاول من عام ١٩٨٥ وسط متناقضات سياسية واقتصادية تملأ حياتهم وتستبد بتفكيرهم وقراراتهم. بعضهم - بعض اعضاء الاوبيك - كانوا في حالة حرب مشتعلة مع بعضهم الاخر. وبعضهم كان في حالة خوف دائم من رؤسائهم وامرائهم فكانوا يهربون من الحقيقة ويعيشون في الاوهام الجديدة. وبعضهم كان لايملك من الكفاءة والاخلاق التي يحتاج اليها اي مسؤول بترولي في الوقت الحاضر. وبعضهم كان يطلق التصريحات والبيانات ثم يستغلها لكي يتاجر بالعملة والذهب والاسهم. وبعضهم لا يبالي وبعضهم لايشعر ولايحس وبعضهم لايكترث ولا يهتم. وبعضهم يقوم بالمناورات والتمثيليات كوسيلة لتنفيذ سياسته والاعراب عن ارائه العجيبة.

ورحم الله الملك فيصل بن عبد العزيز... ففي تاريخ البترول العربي بأسره هناك وقفة عز واحدة، واحدة فقط جعلت من البترول العربي اقوى اسلحة العرب ضد اعدائهم. وكان ذلك كما هو معروف في عام ١٩٧٣... لاول مرة ولآخر مرة.

وبعد عشر سنوات او اكثر تفككت الاوبيك وضاعت السوق العالمية على معظم اعضائها وبعد ان كان دخل السعودية في عام ١٩٨٠ يزيد عن ١١٠ مليارات من الدولارات انخفض الرقم في عام ١٩٨٤ الى اقل من ٣٠ مليارا. وبعد ان كانت الاوبيك صورة مشرقة للتضامن العربي - الاسلامي اصبحت الاوبيك صورة محزنة للتناقضات العربية والاسلامية.

وفي اروقة مبنى الامم المتحدة في مدينة جنيف وقريبا من المكان الذي يعقد فيه وزراء بترول اوبيك مؤتمراتهم، كانت الهمسات المدوية تتردد على السنة جموع الصحفيين والمراقبين والمعلقين العالميين عما يدور داخل الجلسات المغلقة لمنظمة الاوبيك وتقول بالحرف الواحد :

- هذه مسرحيات ميلودراماتيكية، انها تثير السخرية، ولكنها لاتضحك وتثير الدموع ولكنها لاتبكي وتثير الاسى ولكنها تعجز عن ان تدخل الحزن الى القلوب. هذه مؤتمرات اصحابها يكذبون على انفسهم بالداخل فيقولون في خارج الجلسات

عكس ما يقولون داخلها. هذه حالة استرخاء لمجموعة وزراء يحضرون الى جلسات مؤتمرهم متأخرين عن موعدهم الرسمي ساعة كاملة بحجة تساقط الثلوج في مدينة جنيف. هذه حالة انهيار سياسية واقتصادية لمنظمة بترولية قد تأتي قراراتها المنتظرة كعلاج مؤقت عابر بسيط قادر على ان يؤجل موعد وفاة المريض ولكنه عاجز قطعا عن ان ينقذ هذا المريض من الموت!

من يدري -والكلام مازال على السنة حشود الصحفيين والمراقبين داخل مبنى الامم المتحدة المجاور لمكان جلسات منظمة الاوبيك في جنيف ـ اذا استمرت حالة اوبيك على ما هي عليه سيصبح بترول معظم اعضائها مجرد بترول احتياطي فقط للبترول الاميركي وان يصبح هذا البترول جزءا لايتجزأ من استراتيجية الطاقة الاميركية».

نحن نقول وبالفم المليان :

ليست اسعار البترول العربي وحدها هي التي هبطت وانخفضت.

ان اسعار العرب كلهم ما زالت في هبوط مستمر وملحوظ.

ان المرض الذي امامنا ليس مجرد وجع في الرأس.

ان المرض المطروح يشبه الكوليرا او الجدري او السرطان.

هل من المعقول ان يداوى السرطان بحبات الاسبرين؟

وهل من المعقول ان نداوي ازمة الاخلاق في المجتمع العربي برفع الشعارات وترديد الاغاني والقاء الخطب وتوزيع التصريحات الصحفية في الاعياد والمواسم. !

لانريد ان نعترف بان الامة العربية بأسرها تمر بأخطر واشنع ازمة اخلاق في تاريخ تطورها الطويل.

. . واننا في محنة مؤلمة ومحزنة ومؤسفة.

. . . واننا اصبحنا ضحايا عقد نفسية تتحكم بنا وتكاد تفترسنا وتقضي علينا.

واننا استسلمنا للدعة وجمع المال وحياة الرخاء وكفرنا بالدين والفضيلة والعمل الجدي والمحبة والتعاون.

وفجأة، راح فكرنا صوب الدين. وفوراً قررنا ممارسة «النشاط» الديني. واذ بهذا النشاط الديني يعني العودة بالمرأة المسلمة الى عصر الجاهلية، مظهراً او نظرة

ومنزلة. كما يعني تحويل المسلم المثقف الطيب الى ارهابي متعصب يشرب الدماء. كما يعني نسف الطائرات واثارة الحزازات ونبش النعرات وتصدير الثورات والتفرقة بين الشيعي المسلم والمسلم السني، وبين العربي المسلم، والمسلم غير العربي، مع السكوت المريب على احتلال «القدس» وتدنيس المسجد «الاقصى» وهدم جوامع المسلمين في «يافا» وتحويل مسجد «الجزار» في عكا الى متحف ومرقص!

فجأة رفعنا شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية! ولكننا مارسنا الحكم باسلوب انعزالي اقليمي، وصادرنا حريات الشعوب، وسمحنا لاقاربنا واشقائنا وانفسنا بجمع المال وحصره في جيوب الانصار، وشجعنا كل حركة انفصالية، وحصدنا المعارضة بالحديد والنار، فبقيت الشعارات مجرد شعارات، وفقدت المثل والاخلاق قيمتها ومضمونها.

وبدلاً من ان نشتري باموالنا الباهظة، صحيفة عالمية واحدة تصبح منبراً عالمياً ناجحاً لنشر دعواتنا والدفاع عن حقوقنا ـ كما فعل اعداؤنا في شراء «التايمس» و «الصن» وعشرات من صحف اميركا واستراليا ـ هرعنا في عمليات سرية مجبولة بالمغامرة والريبة الى شراء «هارودز» الذي يمثل بقية اعتزاز الانجليز ببقية عظمتهم، فصبوا لعناتهم علينا، ودخلنا في متاهات السب العلني ضد بعضنا، وتحولنا الى عملاء للسلاطين والامراء بدلاً من ان نبقى اسياداً باموالنا وكرماء بعزتنا ووضوحنا واستقامتنا.

وسر كل ذلك ـ واقولها للمرة العاشرة ـ اننا دخلنا في ازمة اخلاق كما يدخل المريض في ازمة اختناق او ازمة قلبية حادة.

وقد سمحت لنا هذه الازمة ان نفترش الحدائق العامة في لندن وباريس ـ وعلى مرأى من الناس ـ ونأكل السردين والبصل ونجعل من حدائق «هايد بارك» نسخة من حدائق حيوانات القاهرة يوم شم النسيم!

وان نأخذ اطفالنا معنا الى الحفلات الموسيقية العامة والمسارح الكلاسيكية ونترك لهم، لهؤلاء الاطفال، حرية البكاء والصراخ، وتحويل الحفل الى روضة اطفال.. عربية!

وان نمتطي السيارات الخاصة المكشوفة في منتصف الليل ونجوب بها شوارع اية

عاصمة اوروبية ومعنا من يعزف الموسيقى او يطلق الصوت او يزرع الشتائم على المارة او يخالف نظام السير، فيسأل الناس من نحن، ويطاردنا رجال البوليس، وتنصّب على العرب وعلى قضاياهم لعنات الدنيا والآخرة وتصدر سفاراتنا المعنية في اليوم التالي بياناً رسمياً تعتذر فيه عن الحادث وتعد بالتحقيق وبالعقاب !

لقد استهنا بما اصابنا عام ١٩٦٧ ، ونظمنا سلسلة اغان جديدة مملوءة بالسماجة والقرف وثقل الدم من امثال: النايلون . . والسح منح . . امبو . . ونحنا اللي خلقنا التعريفة . . »

وكانت جليطة واستهتار بالنكبات . واستخفاف بالهزائم !

وفي عام ١٩٧٩ ، عقد السادات اتفاقية الصلح المنفرد وعزل مصر عن العرب، وفتت الصف العربي، وخان القضية الفلسطينية، فهرع الى تأييده والهتاف بحياته وحياة السلام الدنس مع العدو، كبار ادباء العرب في مصر، كما بارك الاتفاقية فضيلة شيخ الازهر وتناولها بالتحليل الرخيص والتمجيد صفوة الصحفيين المصريين الكبار.

فكانت اكبر جليطة وفضيحة فكرية وادبية وصحفية في نصف القرن الاخير . . !

ولم يتغير شيء!! ذلك الاستاذ الجامعي المصري الذي امتهن الصحافة كي يؤرخ المذكرات ويقيم الثورات، يفرد ثمانين صفحة في احد كتبه الحديثة كي يبرر مقتل الملك عبد الله بيد «احمد عشو» بحجة ان عبد الله قد فاوض اليهود في عام ١٩٥٠؟ ولكن الاستاذ المذكور الذي يعلم النشء في مصر الجامعات، مبادىء الصدق والحقيقة، لم يتعرض بكلمة واحدة الى معلمه ورئيسه الذي «عقد» الصلح ـ فعلا ـ وباع العرب ـ فعلاً ـ الى اليهود والى اسرائيل. . . !

وذلك المؤرخ «الاديب» الذي هجر مدينته في الارض المحتلة وسافر الى «قطر» لكي يؤرخ تاريخها، قد عاتبني بكتاب خاص لاني قلت في كتابي عن القدس انها مدينة عصرية، مليئة بالنوادي، والفنادق، والمدارس، والمسابح، وان فندق الملك داوود كان ملعباً من ملاعب السياسة والتقاء الملوك طيلة سنوات الحرب العالمية، وكانت لي في ذلك الفندق ذكريات وسهرات ولقاءات !

«لا ! لايجوز! هذا عيب! اذا كتبنا ذلك غضب علينا «الخميني» واتهمنا الناس

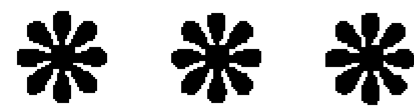
باننا اضعنا «القدس» بسبب فجورنا وكفرنا؟ ! »

ولكن ما علاقة الكفر بالحقيقة؟؟ وهل نترك اليهود يزعمون انهم تسلموا منا القدس وهي صحراء قاحلة لا بشر فيها ولا فنادق ولا مدارس ولا حضارة ولا رقي فأحالوها الى جنة تضاهي اية عاصمة اوروبية؟ انها ازمة اخلاق؟ بل ازمة ضمير! بل هو النفاق الديني الذي يصور انساناً لم يخف ربه حيث كان عليه ان يخافه، فجاءه «الخميني» لكي يخيفه ويرهبه ويرغمه على حب الدين بالحديد، والارهاب !

اسرائيل تجند العالم لكي تنقل يهود «الفلاشا» من اثيوبيا الى تل ابيب، فيما بعض دول الخليج تطرد الفلسطيني والسوري من ارضها، وبعض دول شمالي افريقيا تطرد المصري من وطنها، ومصر تقول للفلسطيني ان عليه ان يبيع ارضه الزراعية، خلال ٥ سنوات، ويهاجر الى الخارج لان ارض مصر لايجوز ان يمتلكها . . اجنبي !

وانما الامم الاخلاق مابقيت

فان همو ذهبت، اخلاقهم ذهبوا . !



الفصل التاسع والعشرون

الحب من طرف واحد...

● في معظم الحالات، تكسب الدول معارك الأعلام، بأن «لا» تفعل شيئاً بدلاً من ان تفعل شيئاً.. غبياً!»

ادولف هكسلي ١٩٣٢

● متى أصبح «كريستان بينو».. الفرنسي الصهيوني، صديقاً للعرب؟

● قال لي ريتشارد نيكسون: «هات لي «لوبي» عربي، وأنا على استعداد لكي أخدم العرب.. بالمجان!»

● دردشة قديمة مع «عصمت عبد المجيد» عندما كان مستشاراً في سفارة مصر بباريس!

● تجربة قاسية مع وفد دول مجلس التعاون الخليجي للأعلام الخارجي...

الفصل التاسع والعشرون
الحب من طرف واحد ...

الأعلام الفاشل كالحب الفاشل، يبقى محصوراً في طرفٍ واحد ولايشعر به الا صاحبه ولا يتأثر بوجوده الاّ مصدره!

والأعلام الغبي، كالأدب الغبي، او كالشعر الغبي، أو كالصحافة الغبية لايقرأها أحد ولايسمع بها او عنها أحد.

وقد أصبح الحديث عن الأعلام العربي «الغبي»، مملاً ومكرراً ويشبه قصة «ابريق الزيت» التي يتحدث عنها، وبها اطفالنا في شهر الصيام من قبيل التسلية وقتل الوقت. اذا كان لقصة ابريق الزيت متعة التسلية، الا ان اعلامنا الغبي ليس فيه الاّ المرارة واليأس وخيبة الأمل.

ولم يعد عربي مسؤول واحد يجهل اسباب فشل الأعلام العربي في المحافل الدولية وخارج حدود الوطن العربي. ولكن احداً من هؤلاء المسؤولين لم يكترث لكي يعالج هذا الفشل او يخفف من فداحته وشروره.

ومن عادة الدول الحضارية ان توظف في سفاراتها الدبلوماسية في انحاء العالم ملحقين صحفيين اخصائيين يعهد اليهم بمهام الأعلام والدعاية لدولهم على المستوى المطلوب. ولكن دولنا العربية قد ارتأت ان توفّر على نفسها نفقات مثل هذه التعيينات وتترك لجامعة الدول العربية الممثلة بمكاتبها الدعائية في الخارج، القيام بمهمة الدعاية للقضايا العربية... المختلفة!

والدول العربية، تعلم جيداً، ان لا ميزانية «الجامعة»، ولا نوعية موظفيها، ولا طبيعة عملها، ولا نوعية سياستها، ولا تصارع اعضائها، يمنح هذه الجامعة العربية أمكانيات النجاح المطلوبة للقيام بمهامها الأعلامية على الوجه اللازم.

والدول العربية تعلم جيداً، ان جامعتهم العربية قد تحولت، ـ وبسبب هذه الدول ـ الى مايشبه الملجأ الذي يتجمع فيه نفر من الموظفين الذين أمرت دولهم «بتصديرهم» الى الخارج اما للتخلص من شرورهم في الداخل، واما تلبية لرغبة هؤلاء الموظفين الذين ارادوا حياة الخارج بحثاً عن السعادة، والسهر، والرفاهية فلم يعد يهمهم القيام بأي عمل جدي صادق يخدمون به قضاياهم.

والجامعة العربية، قبل كل شيء، وكما تقول في الدفاع عن نفسها انما هي صورة طبق الأصل للخلافات العربية والصراعات «الأخوية» والتفتيت والضياع والهوان الذي يلف العرب في هذه الأيام.

ومن هنا تفتت الصوت الأعلامي العربي، وضاع، واندثر. وبدلاً من ان تلتفت الحكومات العربية الى تقوية أجهزتها الأعلامية «الخارجية» لكي تواجه بها طوفان الأعلام العدائي الذي يقوم به الأعداء، مضت هذه الحكومات الى إنشاء عشرات من المحطات الاذاعية الداخلية، وعشرات من الموجات الخاصة، وعشرات من المجلات والصحف الصادرة باللغة العربية والمخصصة للتسويق الداخلي، وكل ذلك من أجل الدعوة الى «عبادة الاشخاص»، أو مهاجمة الاشقاء أو تأليب شعوب الدول المجاورة الشقيقة على حكامها، او الاستمرار في سياسة الردح والسب والتشليق باساليب الراقصات وجريحات العفة في الأزقة المعروفة!

وبقي الصوت العربي في الخارج يتيماً ومهزوزاً وجريحاً وفقيراً ويكاد لايشعر به أحد.

وفقد العرب أقوى الاسلحة المعروفة في هذا القرن والتي تحرص كل دولة حضارية على امتلاكها واستعمالها وبذل الأموال من أجلها واختيار اعظم الكفاءات للقيام بمهماتها، وبقيت قضايا العرب ـ كلها ـ رهينة الصوت العدائي ضدها: مشوهة وكسيحة ومجهولة. !

وقد تسنى لي ـ منذ عشرين سنة بالتمام والكمال ـ أن أمارس مهمة الأعلام

السياسي من خلال وظيفتي كمندوب او سفير متجول لجامعة الدول العربية! ويشهد الله انني ما اوشكت ان اكفر بنفسي او اكفر بقضايا أهلي وبلدي الا بعد ان التقيت يومذاك بسفراء العرب في العواصم العالمية، واطلعت على «اهتماماتهم» الصغيرة وتجردهم من اي حسّ وطني او شعور قومي!.

يومذاك .. شعرت بالفراغ الكبير الذي تشكو منه قضايانا في المجتمع الدولي..

ويومذاك اي في عام ١٩٦٥ قلت «لعبد الخالق حسونة» ،امين الجامعة العربية في أحد تقاريري له ولعله مازال يحتفظ به في احد ادراجه السرية :

ـ اذا وقع اي صراع مسلح بيننا وبين اسرائيل، فإن الرأي العام الأوروبي سواء في بريطانيا او فرنسا او هولندا او الدانمارك او البلجيك، لن يقف معنا ولن يفهم وجهة نظرنا، ولن يدين عدونا ولن ينصفنا بل سينحاز مائة في المائة الى جانب اسرائيل وسيبقى العرب في نظر الجميع امة من اكلة لحوم البشر»!

وبعد عام ونصف فقط قامت حرب حزيران من خلال عدوان اسرائيلي مسلح على مطاراتنا وقواتنا، فاذ بعواصم اوروبا كلها تدق اجراس الفرح، واذ بجميع اجهزة الراديو والتلفزيون في جميع عواصم اوروبا الغربية تديننا وتشتمنا وتدافع عن عدوان اسرائيل ضدنا.. واذ بجميع صحف اوروبا الغربية تفرد المقالات الافتتاحية لكي تفرغ كل حقدها الأسود الدفين ضد الأسلام وضد العروبة. !

ذلك، وليس هو كل شيء، ان سفراءنا كانوا يومذاك يصفقون لجمال عبد الناصر في هجومه على الملك حسين، او يلعنون جدود «الحبيب بورقيبة» بسبب دعوته «لأحتواء اسرائيل»، او يهاجمون مصر بسبب حرب اليمن، او يؤيدون سوريا في هجومها على عبد الناصر..!

اما القضية الكبرى، فلا شيء..

واما الأعلام الحقيقي الصادق، فلا شيء!

وكنت أدخل على صديقي القديم، الدكتور «عصمت عبد المجيد»، وزير خارجية مصر الحالي، والمستشار ـ يومذاك ـ في سفارة مصر في باريس، وأتحدث اليه في تلك الحالة المزرية التي تكتنف العمل الدبلوماسي والدعائي العربي، وأجد في

مكتبه السيد «شرف» شقيق «سامي شرف» سكرتير عبد الناصر، ويسمع الدكتور كلامي ثم يلتفت ـ باسلوبه الدبلوماسي ـ الى السيد «شرف» ويسأله:

ـ هه. ! ماذا تقول؟.

ويجيب السيد «شرف» بحديث نبوي، أو بآية قرآنية، او بنكتة مصرية من النوع البلدي ونضحك .. ونشرب القهوة.. وينتهي الدوام وينصرف كل منا الى جهته. !

كان ذلك منذ عشرين سنة.. !

وفي العامين الماضيين تسنى لي ان اكون مدعواً للمساهمة والأشتراك في الندوات العالمية المختلفة التي دعت اليها لجنة الأعلام الخارجي التابعة لمجلس «التعاون الخليجي» برئاسة وزير اعلام الكويت الشيخ ناصر الأحمد في بريطانيا، وكندا، واليابان، وفرنسا.

واشهد صادقا انه بالرغم من كفاءة الوزير الكويتي المذكور واجادته للغات الاجنبية وطبيعته السمحة المؤدبة الشفافة، الا ان الصدى المنتظر لتلك الدعوات، والاثر المطلوب من وراء عقدها، لم يكن كما كان مرجوا او مطلوباً او متفقاً مع الهدف والغاية.

وكذلك الندوة التي رعتها او التي دعت اليها وزارة اعلام دولة قطر في فرنسا كانت صورة للتخبط والفشل الذريع، وعندما حاولت ان اتعرض لموضوعها في فقرة أخيرة واحدة من إحدى مقالاتي الأسبوعية التقليدية، قامت قيامة وزارة اعلام «قطر»، وتبرع صحفي هناك بان يسطر المقالات المملوءة ضدي بالتجريح والسب العلني مدفوعاً بالايحاء «الرسمي» والتشنج الشخصي.. !

ما علينا..

لقد أثبتت هذه الندوات الاعلامية ان المشرفين عليها قد اخطأوا في ثلاث اتجاهات:

● خطأ في اختيار المدعوين من الاجانب للاشتراك او الحضور.

● وخطأ في اختيار المكان... والمشرفين!

● وخطأ في اختيار المواضيع المطروحة للنقاش او المعدة ضمن احاديث الأعضاء.

وليس معقولاً ـ مثلا ـ ان اجد امامي في ندوة فرنسا الوزير الفرنسي السابق المسيو «كريستيان بينو» وزير الخارجية الاسبق، يقف بكل صفاقة وعهر، لكي يشير صوبي بيده، وعلى مسمع ومرأى من جميع المدعوين، ويقول لي بالفم المليان:

ـ لقد سمعتك هذا الصباح تتحدث عن الضباب العدائي الصهيوني الذي يبقى حاجزاً بين الشعبين الفرنسي والعربي فيما يختص بالقضايا المشتركة. وانا أحب ان أطلب منك ان تدعو للسلام بين العرب واليهود لان ذلك ينقذكم من مشاكلكم ويخفف عنكم بلواكم، فالدعوة للحرب لا تفيد احداً، والعداء المسلح يضر الجميع..»!

واقول الحق بأن هذا الكلام المحموم الموجه لي قد اصابني بالدهشة وجعلني أرفع يدي طالباً حق الرد. وقلت موجهاً الكلام للحضور ومتجاهلاً الوزير المذكور:

ـ انا اعجب للمسيو «كريستيان بينو» الذي جاء اليوم يتغنى «بالسلام» ويدعونا اليه بينما هو نفسه كان يتولى منصب وزير خارجية فرنسا في وزارة «جي موليه» والتي اشتركت مع بريطانيا ـ انتوني ايدن ـ واسرائيل ـ دايفيد بن غوريون ـ وقامت بالعدوان الثلاثي المسلح على مصر في عام ١٩٥٦. . !»

ثم قلت له:

- نحن نشكر دعوة المسيو بينو«للسلام» ، ولو انها موجهة الى العنوان الخطأ. . ! فنحن العرب نعمل للسلام وندعو له بينما اسرائيل ـ صديقة المسيو «بينو» ـ هي التي تماطل وتشن الحروب وتضم الارض وتشرد السكان وتتظاهر بالحرص على السلام. !. . . »

ورأيت المسيو «بينو» يحمل عصاه ويترك مقعده ويغادر الصالة. !

ترى من الذي دعا مثل هذا الوزير الصهيوني المأجور لحضور مثل تلك الندوة الاعلامية في باريس عام ١٩٨٣. ؟

ومن الذي دعا امثال هيلموت شميت، وكالاهان، للمجيء الى ندوة حكومة «قطر» في باريس في شتاء عام ١٩٨٤ وتوجيه اللوم والتأنيب الى العرب «لانهم يرفضون الصلح مع اسرائيل ويختلفون فيما بينهم ولا يعرفون مصلحتهم. . !»

انا أقر بان الأدب والتأدب واللسان الحلو والطبيعة السمحة كلها مطلوبة

وضرورية عند التخاطب مع المجتمع الاجنبي العالمي في امور قضايانا. ولكن اقول كذلك، ان كثرة مثل هذا التأدب تصبح ضارة وتنقلب علينا عندما لا نعرف نوعية الشخص الذي نخاطبه او نوعية المجتمع الذي دعوناه للاشتراك معنا في ندواتنا. وقد اسمح لنفسي ـ مثلاً ـ ان اكشف عن بعض ما دار بين الوفد الأعلامي المسافر الى كندا عام ١٩٨٤ وبين وزير خارجية كندا خلال الالتقاء به في العاصمة «اوتوا» في ذلك العام.

لقد كنت ضمن ذلك الوفد «الاعلامي» في لقائه مع الوزير الكندي الذي سمعته يبدأ حديثه معنا بقوله وكأنه يخاطب تلامذته:

ـ نحن هنا في كندا نتابع كل اخبار دول الخليج ويسرنا ان نسمع بان اهم ما يصلنا من اخبار عنكم هو مضاعفة دخل الفرد في دولكم، وعظمة المباني «الفيلات» والقصور التي اصبح يملكها معظم افراد شعوبكم! يعني؟ مال كثير وقصور حلوة!»

وسكت وزير الخارجية الكندي..

واحسست بان صفعة قوية قد لطمت وجهي واسالت الدم من عيني فقلت له وانا اتطلع الى وجوه زملائي واخوتي اعضاء الوفد:

ـ هذه الاخبار يا سعادة الوزير ـ على اهميتها ـ ليست كل الاخبار المهمة التي تتعلق بنا. ان اسرائيل تزعم مثلاً انها البلد الديمقراطي «الوحيد» في الشرق الاوسط! ويهمنا ان نؤكد في هذا اللقاء ان الحياة الديمقراطية الصحيحة ليست في دولة اسرائيل بقدر ما هي الحياة في دولة الكويت.. الصغيرة المتفتحة التي تنعم بالصحافة الحرة وبالمجتمع الحر وبالتمثيل الانتخابي الصحيح. ونحن اذ نفخر ـ ولله الحمد ـ بثرواتنا وقصورنا... ـ الا اننا نفخر اكثر بما استطعنا ان نحققه لوطننا من حرية ومساواة واقتصاد حر وحياة سياسية ينعم فيها المواطن بالاستقلال والكرامة والمساواة. وهذا في نظرنا اهم ما كان يجب ان يصلكم عنا من اخبار!»

وابتسم الوزير الكندي وكأنه لم يصدق ما يسمعه..

وفي طوكيو، رأيت الفريق الياباني الذي جاء للمساهمة معنا ـ وقد غاب الوفد الكويتي عن الندوة بمناسبة حادث خطف الطائرة الكويتية يومذاك ـ اقول رأيت افراد الوفد الياباني الذين اشتركوا معنا في الندوة وكأنهم قد جاءوا للمصارعة

اليابانية التي اشتهروا بها! ارقام واوراق، وخطب، ومواضيع، ومشاريع، وخطط، بالاطنان! وسمعتهم يقولون لنا ـ وكان بين الوفد رجال من السعودية وقطر والامارات ـ انهم وبصريح العبارة يبحثون عن بدائل للبترول.. ويبحثون ايضاً عن بدائل للبترول العربي بالذات وان «العرض» في عمليات البيع والشراء قد اصبح اكثر من «الطلب»، وانه ـ وهذا هو المهم ـ لا يجوز مزج الاقتصاد بالسياسة، او مزج قضايا العرب ضد اسرائيل او ضد ايران، بامور البترول.!»

صفاقة وتحد وذوق معدوم في كلام واضح وصريح!

وكان الملك «فهد» السعودي يومذاك قد ادلى بتصريح الى مندوب صحيفة «الصنداي تايمز» اللندنية اعلن فيه ان صبر العرب يكاد ينفذ من التلكؤ الدولي في معالجة قضاياهم، وانه يحذر الغرب من مغبة مثل هذا التلكؤ.. وان البترول لن يكون أغلى على العرب من مقدساتهم وأوطانهم..»

وعلى الفور، طلبت الكلمة ورفعت نسخة من صحيفة «الصنداي تايمز» بيدي وقلت للخطيب الياباني الذي جاء يهددنا بكلامه:

ـ في عام ١٩٧٣، قال الملك السعودي فيصل بن عبد العزيز كلاماً للغرب لم يشأ الغرب ان يفهمه او يستوعب ابعاده. وعندما وقعت الواقعة بعد ذلك بقليل، امر الملك السعودي بفرض حظر البترول على الغرب! واليوم، ها هو الملك السعودي «الجديد» يقول كلاماً لا يختلف عن كلام اخيه الذي قيل في عام ١٩٧٣. وبين عام ١٩٧٣ وعام ١٩٨٥ توجد ١٢ سنة. ولكن الموقف العربي البترولي تجاه القضايا المصيرية يبقى على حاله سواء سعد بذلك رفيقنا المتحدث الياباني في هذه الندوة، او لم يسعد..»!

ورأيتهم وكأن على رؤوسهم الطير..

فقد يكون الأدب والتأدب مطلوباً في مناقشة الاجنبي، ولكن الصراحة او الحزم او الصرامة او حتى انعدام الادب والتأدب يكون احياناً اكثر فائدة وأوفر محصولاً..

هذا الرأي يتعلق بنوعية المشتركين في الندوات التي ندعو اليها او نسافر من اجلها..

اما فيما يتعلق «بالاماكن» التي اخترناها لتكون مقراً لهذه الندوات، فان الامر

يدعو الى الرثاء . .

وخاصة اذا تركنا تلك الندوات «لسماسرة» محترفين من امثال ما يسمون «رؤساء جمعيات الصداقة العربية الفرنسية»، او الصداقة العربية الكندية . . او «اساتذة» عرب هجروا اوطانهم واصبحوا اساتذة في جامعات كندية واصبح من حقهم استغلال المال العربي البترولي لخدمة الجامعات التي يعملون فيها عن طريق اعداد الندوات واستئجار القاعات وتوظيف السكرتيرات وتأمين السيارات . !

واعود وأشهد صادقاً ان رعاية الشيخ «ناصر الاحمد» لهذه الوفود كانت متسمة بكل اسباب النجاح لولا ان متطلبات النجاح لا تكتفي بقدرة المسؤول او بسمو اخلاقه . . .

يعني : ندوة جامعة «داندي» ببريطانيا لم تخرج اثارها عن حدود القرية ، ولم يكن لها صدى ابعد من المبنى الكنائسي القديم الذي اقيمت فيه حفلة العشاء! . ولم اقرأ عنها حرفاً واحداً في اية صحيفة بريطانية . ولم تشر اليها صحيفة او مجلة واحدة . ولم يعلق عليها في مجلات «الجامعة» استاذ واحد من اساتذتها . !

اما ندوات كندا فقد قتلها برد كندا وطمستها موجات الثلوج هناك وماتت قبل ان نغادر مطار اوتوا . !

ولا حول ولا قوة الا بالله . . .

وليس همي ان اخفف من أهمية هذه الندوات، او انال من وطنية ومقدرة المشرفين عليها . بل لعل تقديري الشخصي لرئيس اللجنة الاعلامية التابعة لدول الخليج ، يجعل شهادتي في اعماله مجروحة . ولكني اقول شيئاً يتعلق بماهية الاعلام العربي، ككل ، وبمفهومه الخاطىء عند اصحابه العرب ، وبممارسته العرجاء على يد من يسمون انفسهم برجال الاعلام . .

● بعض رجالنا لا يفهم ان الاعلام موجة فى الاصل لخدمة قضايانا ، وانما يحسبه موجة له . . هو ! يعني : بعضهم لايخدم القضية الا من خلال نفسه ، ولا يدعو لها الا لكي يدعو لشخصه! اذن : بعض رجالنا لايفهم معنى الأتصالات الشخصية التي تبقى في طي الكتمان . . ولا يقوم بتنفيذها لأنها لاتتحدث عنه ولا تفيده . ! وليس مهماً -عند بعضنا- ان نكسب عضواً في مجلس الشيوخ الأميركي لجانبنا

نتيجة إتصالات سرية مباشرة معه، وإنما المهم عندهم ان ندخل في مناقشات علنية ضد أعضاء الكونغرس وان نشتم فيها اميركا لكي نعود وننشر كلامنا في صحف بلادنا ونجني «الشعبية» المطلوبة او «الترقية» التي هي اقصى المراد من رب العباد.!

انانية حمقاء سلبت اصحابها أبسط معاني الأخلاص في القيام بواجبهم القومي والوطني.

وبعض رجالنا يخاطبون شعب باريس او ندوات واشنطن بنفس اللغة التي يخاطبون بها سكان مدينة «النبطية» او اهالي مدينة الموصل في العراق. ! مواضيع كلامهم لا تتغير. ومواد خطبهم لا تتبدل. واسلوبهم في الحديث الى اهالي «العريش» كاسلوبهم في مخاطبة اهالي «لاهاي». والمناظرات «القيمة» التي اعدوها لالقائها في ندوة جامعية على مدارج كلية «اربد» بالاردن يصرون على القائها في «السوربون» او اكسفورد. ! ونراهم مشدودين الى استعمال بعض الكلمات العلمية او المصطلحات الفلسفية، يرددونها بلا مبرر، ويحشرونها بلا سبب، فتخرج كلماتهم اشبه بالنكات، وتصبح محاضراتهم كحديث الاطفال او هذيان الشيوخ، وينصرف الناس عنهم وعن قضاياهم وعن كلامهم. . ! هذا ما كنت اعنيه بالخطأ الثالث الذي اقترفته بعض اللجان الاعلامية العربية في ندواتها التي عقدتها بين اوروبا واميركا واليابان بهدف خدمة القضايا العربية وعلى رأسها القضية الفلسطينية فكانت النتائج مخيبة للأمال!

وقد اسمح لنفسي ان أضيف الى كل هذه المآخذ التكتيكية في ممارسة «الاعلام» الخارجي، مأخذاً يتعلق بطبيعة الأنسان العربي، او طبيعة المسؤول العربي في عدم قدرته على اتباع سياسة «النفس الطويل»، وبالتالي عدم القدرة على الاحتفاظ بذكرى الاحداث المؤلمة التي اصابت الوطن العربي واستغلالها والتذكير بها ـ تماماً ـ كما يفعل اليهود.

لقد احتفلنا لمدة ٣٠ سنة بذكرى وعد بلفور الاسود، ثم قامت اسرائيل، ونسينا وعد بلفور. !

ورحنا نحتفل بالحداد والسواد، بذكرى تقسيم فلسطين وذكرى قيام اسرائيل ـ ٢٩ نوفمبر و ١٥ مايو ـ ثم قامت حرب حزيران ونسينا مايو، ونسينا معه نوفمبر!

ورحنا نتذكر يوم الخامس من يونيو ١٩٦٧ وضياع الضفة والقطاع الى ان جاءت حرب لبنان. . فنسينا «النكسة» في غمرة الطوفان!

الى آخره. . الى آخره. .

وكل ذلك، والعدو الصهيوني امامنا يلقننا كل يوم درساً جديداً في قدرته على ان «لا ينسى» وان يحفظ التواريخ جيداً، وان يستغل كل «تاريخ» لمصلحته، وان يعالج قضاياه على ضوء تطور هذه التواريخ. . وتتابعها.

اليس في الحديث السياسي الكبير حول زيارة رونالد ريغان الى المقبرة العسكرية الالمانية في صيف ١٩٨٥ ما يدعو الى التأمل والدراسة؟

إنا اقول ما يلي:

كما يصر اليهود على عدم النسيان، وعدم الغفران، فمن واجبنا ـ نحن العرب ـ ان نجاري اليهود في عدم النسيان وعدم الغفران للذين يخطئون او يجرمون او يعتدون.

ويبقى من حقنا ان نطالب رونالد ريغان، وزميله الهر كول ـ مثلاً ـ بعدم النسيان ـ نسيان، كل ما أصابهما من جراح واهانات وهجمات وطعنات منذ ان اعلن رونالد ريغان برنامج زيارته للمقابر العسكرية الالمانية في بيتبرغ حتى اليوم!. ومن واجبنا ان نطالب رونالد ريغان با لا ينسى. . . غداً ولا بعد غد!

● لا ينسى اسماء النواب الاميركيين الذين طالبوه بعدم الذهاب الى المقبرة العسكرية، واسماء النواب الانجليز الذين هاجموا الزيارة بأوامر من النائب البريطاني ـ اليهودي ـ «جريفيل جانير». . واسم «شمعون بيريز» الذي قال ان ريغان قد اخطأ كثيرا في زيارة المقبرة الالمانية واسم اليهودي الاميركي «مناحيم روزين سافت» الذي «ردح» لريغان باسلوب العاهرات، واسم «هادرر فريدمان» رئيس الجمعية الاميركية اليهودية، واسماء ال «٩٣» نائبا يهوديا في الكنيست الاسرائيلي الذين رفعوا عريضة تحمل اسمائهم وتلعن سنسفيل جدود ريغان، وكول، والمانيا وزيارة المقابر.

على ريغان ان لا ينسى الذين حاولوا نسف سياسته وطعنوه في شرفه وشخصيته رغم كل خدماته التي قدمها لهم طيلة السنوات الخمس الماضية!.

وكان رونالد ريغان يظن، ان يهود العالم هم اصدقاؤه، وانهم له، ومعه، فاذا بزيارته الى المانيا تكشف له عن الوجه الحقيقي ليهود العالم!.

كما كانت المانيا ـ وخاصة «الهر كول» ـ يظنون ان طيبة قلب اليهودي قد جعلته ينسى جرائم الامس، ويمد يده للتعاون الصادق مع الالمان والشعب الالماني والمصلحة الالمانية فاذا بالاحداث تضع كل الماني في العالم امام الحقيقة العارية وتطالبه بان يفتح عينيه جيدا لكي يتجنب سم الافاعي التي تحيط به!.

ابادر واقول، انه للمرة الاولى، ومنذ اكثر من ربع قرن، استطاع اي رئيس اميركي مسؤول ان يرسم ثم ينفذ عملية مفهومه السياسي الخاص لعلاقة اميركا الخارجية مع دول العالم، بعيدا عن المفهوم اليهودي، وبمنأى عن التأثير اليهودي، ودون الخضوع للضغط اليهودي. !

● في الماضي، وحتى اليوم، كانت علاقة اميركا الخارجية مع الاتحاد السوفياتي تخضع الى حد كبير، ومذهل، للضغوط اليهودية والمصالح اليهودية وحدها!.

مثلا: في يوم الخامس من شهر «مارس» عام ١٩٨٥ ظهر على صفحات جريدة «الواشنطن بوست» الاميركية المعروفة، الاعلان العجيب التالي:

«.. كان العام المنصرم عاما سيئا بالنسبة لليهود السوفيات. ولم يزد عدد اليهود الذين سمح لهم بمغادرة الاتحاد السوفياتي عن تسعمائة فرد. ولكننا ـ مجلس المؤتمر اليهودي الاميركي لليهود السوفيات ـ نعتقد بان الكثير من اهل الولايات المتحدة مستعد للتجاوب الايجابي مع اي تطور يطرأ على موقف السلطات السوفياتية من قضية اليهود، وخاصة فيما يتعلق بسياسة السماح بالهجرة اليهودية الى اسرائيل. فلماذا يبقى موضوع الهجرة اليهودية هو العائق الاكبر في طريق تحسين العلاقات التجارية والمالية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وتطوير التبادل العلمي والثقافي بين البلدين الكبيرين..»؟!

انتهى نص الاعلان..

وبعبارة اخرى فان يهود اميركا يخاطبون الحكام السوفيات بقولهم ان السماح لليهود السوفيات بالسفر الى اسرائيل يعني ان تسمح اميركا فورا بتصدير القمح والتكنولوجيا الى الاتحاد السوفياتي!

● وبعبارة اكثر تركيزاً، ان يهود اميركا، من فوق رؤوس الحكام والمؤسسات الاميركية كلها، يمارسون ديبلوماسية سرية خاصة مع الخصم الاكبر والاخطر للولايات المتحدة، ويفاوضون موسكو لحسابهم وحساب مصلحتهم وحساب قضاياهم الخاصة دون اي اعتبار للمصلحة الاميركية او للمصلحة السوفياتية الشاملة او لمصلحة اي دولة صغيرة او اي شعب صغير سواء في بولونيا، ام افغانستان ام نيكاراغوا ام اي بلد آخر في الشرق الاوسط. ! لقد جعل اليهود موضوع العلاقة الاميركية السوفياتية محصورا في موضوع «الهجرة» اليهودية من الاتحاد السوفياتي وحده دون اعتبار لاي موضوع عالمي آخر! انها صورة مخجلة للديبلوماسية الفاجرة المعتمدة على الانانية وحب الذات، وتجاهل الغير والدس السري الخطير! كما انه اعتراف ذاتي من اليهود انفسهم بمدى تسلطهم على مقادير توجيه دفة السياسة الاميركية الخارجية في الاتجاه الذي يقررونه بانفسهم ولمصلحتهم!.

● وما دام يهود اميركا يشعرون بقدراتهم، او بحقهم، في رسم وتحديد معالم السياسة الخارجية الاميركية مع اكبر واخطر خصم للولايات المتحدة ـ واعني السوفيات ـ فلماذا يترددون، او يتنازلون، او يتأخرون عن رسم وتحديد معالم السياسة الخارجية الاميركية مع دولة ليست كالسوفيات في قوتها، وليست كاميركا في ثروتها، ولكل يهودي عندها ثأر قديم، وهي اليوم مقسمة ومحتلة، واسمها: المانيا الاتحادية؟!

لقد مضى على نهاية الحرب العالمية الثانية أربعون عاما! وسقطت المانيا وتقسمت! واهينت! واحتلت!. وحوكم زعماؤها واقطابها وضباط جيشها وسجنوا واعدموا! ودفعت المانيا لاسرائيل ولكل اسرة يهودية في العالم مئات الملايين من الدولارات كتعويض رسمي وشخصي عن جرائم الماضي. وعندما جاء «رونالد ريغان» بعد «٤٠» سنة كي يصفح ويطوي الامس ويطالب بالنسيان، ثارت عليه اليهودية العالمية في داخل اميركا وفي خارجها، والصقت به كل التهم، واحاطت موكبه في شوارع المانيا الغربية بالتظاهرات والهتافات العدائية، وشوهت سمعته وحرقت صوره وتنبأت له بالسقوط القريب العاجل!.

لماذا؟!

● لان يهود اميركا مع يهود العالم لن يسمحوا لغيرهم ان يحدد نوع علاقتهم الخارجية او علاقة اميركا مع اية دولة في العالم. !

ولان للصفح وللغفران ولنسيان الماضي، ثمنا جديدا على المانيا الغربية ان تدفعه لاسرائيل وليهود اميركا فورا وقبل كل شيء!.

ولان الارتماء في احضان المانيا الغربية يعني المزيد من التقارب والود والتعاون بين اميركا من جهة والالمان من جهة اخرى، فمن حق اليهود مطالبة اميركا نفسها بحصتهم من «التعويض» عن جرائم الامس التي ارتكبها الالمان.. أصدقاؤها الجدد، ضدهم!.

ولان يهود اميركا وحدهم ـ حسب اعتقادهم ـ هم الذين يملكون الحق في الاجابة على هذا السؤال الكبير حول سياسة اميركا الخارجية والذي يقول: «متى تكون العزلة العمياء في السياسة الخارجية اكثر نفعا من التدخل الاعمى».؟ ومتى يكون التدخل «الاعمى» في شؤون الدول الخارجية اكثر جدوى على الولايات المتحدة نفسها، وعلى مصالحها، ومن الاكتفاء بالحياد وممارسة الحياد «الاعمى»؟!

ثم جاء رونالد ريغان، واعلن تمرده الصريح على هذه القيود والمفاهيم عندما نادى بضرورة النسيان، وفوائد الصفح وفتح صفحة جديدة ـ بعد ٤٠ سنة ـ مع «دولة ديمقراطية صديقة» اسمها المانيا الاتحادية!.

ان الموقف العدائي ضد رونالد ريغان، قبل وخلال وبعد مؤتمر الاقطاب السبعة في عام ١٩٨٥ قد اوحى للعالم بأسره ان اسرائيل، ومعها يهود العالم، كانت «موجودة» وبكامل اعضاء وفدها، داخل مؤتمر الاقطاب في مدينة «بون» في ذلك الاسبوع.

وان موقفها السلبي قد غطى وانتصر على اي موقف ايجابي لأي عضو من الاعضاء السبعة!.

«لقد قامت اسرائيل بالدور القبيح الذي اعتاد ان يقوم به البلطجية المأجورين والقبضايات العملاء في ليالي الافراح من تكسير للمصابيح، وتحطيم الزينات، وارهاب المدعوين، بحيث يهرب اهل الفرح ويختفي المدعوون ولا يبقى الا

الخراب والظلام . . . والخفافيش! .

واستطاعت اسرائيل - رغم كل شيء - ان تفرض وجودها وان تجعل جميع وسائل الاعلام تشعر بها في قلب «المؤتمر» وفي قلب المانيا، وعند طرقات المعسكر النازي والمقبرة العسكرية، وان ترغم رونالد ريغان ان يعترف في خطابه بالمقبرة، «وبالمعسكر» انه اذا حاول ان يدفن الماضي قد وجد انه فتح الجراح القديمة، وان الموت وحده، ليس كافيا لكي يكون العقاب والنهاية!».

● ترى، هل كان للعرب، او لقضاياهم، او لبترولهم، او لاموالهم، اي وجود داخل ذلك المؤتمر «الاقتصادي» العالمي للأقطاب السبعة الذين يمثلون ثلثي اقتصاد العالم الحر؟!

* * *

لقد اثبت رونالد ريغان، من خلال اصراره على زيارة المقبرة العسكرية في «بيتبرغ» بالمانيا الغربية انه رجل عنيد، وانه لا يقبل بالتراجع امام «الضغوط» الخارجية اذا كان مقتنعا بصواب العمل الذي هو بصدد القيام به، مهما كانت تلك الضغوط قوية او قريبة . . او متسلطة! .

وقد يكون رونالد ريغان، هو الرئيس الاميركي المطلوب للقيام باي عمل سياسي تاريخي يخدم به «الحق العربي» ويتعرض بسببه للاعاصير الصهيونية، داخل بلاده وخارجها ، فلا يلين ولا يتراجع ولا يخاف بشرط ان يكون مقتنعا بصحة العمل الذي سيقوم به وبعدالة الخدمة التي سيؤديها لنا !.

● ترى هل سنجد القائد العربي الماهر والقادر على ان يقنع رونالد ريغان بصواب «الصيحة» العربية كما استطاع الهر الالماني «كول» ان يقنعه بصحة الصيحة الالمانية؟ .

● هل نستطيع ان نكسب ريغان، كما كسبه «كول»؟

● هل يقف ريغان معنا بعد غد، كما وقف مع المانيا، ولالمانيا بالأمس ؟

● هل نطمع ان نجد رونالد ريغان يواجه اليهودية العالمية في المستقبل من اجلنا، او من اجل استعادة حقوقنا الضائعة، كما سبق له وواجه اليهودية العالمية من اجل

المانيا. . او من اجل استعادة الكرامة الالمانية؟ .

ان الجواب على هذه الاسئلة هو واحد وبسيط: ان المطلوب ان نقتنع نحن العرب، بصحة حقوقنا، قبل ان نقنع ريغان بصحتها! والمطلوب ان نجد العربي القادر على ان يلعب دور «المستشار كول» بالنسبة لرونالد ريغان كي نضمن ان يقوم ريغان بحمل قضيتنا معه الى المؤتمرات العالمية للدفاع عنها! واخيرا، فان المطلوب ان ننصرف ونحالف ونصادق، بالاسلوب الالماني تجاه اميركا لكي تشعر اميركا بالوزن العربي وتبدأ في ان تفرد لهذا الوزن حسابا خاصا في دفتر سياستها الخارجية ومصالحها الاستراتيجية!

ان احدا منا لم يطلب من اي زعيم من الزعماء السبعة الذين اجتمعوا في «بون» في صيف ١٩٨٥ ، ان يضع قضايانا السياسية او قضايا بترولنا او قضايا اسواقنا واموالنا على جدول اعمال المؤتمر!.

ولم يشعر بنا او بوجودنا او بترولنا او اموالنا احد من الاقطاب السبعة! .

لقد كتبت طويلا عن نتائج الزيارات الرسمية التي قام بها الى واشنطن عدد من «زعماء» العرب طيلة ربيع ٨٥، وكيف ان هذه الزيارات لم تحقق شيئا من الآمال التي كانت معقودة عليها! .

● وكان الرئيس «الجزائري» هو صاحب آخر زيارة رسمية عربية قام بها زعيم عربي الى واشنطن.

وكالعادة، قبل ان تتم الزيارة، ملأنا القلوب الآمال، واستبشرنا خيرا وقلنا انها اول زيارة لاي رئيس جزائري الى الولايات المتحدة منذ الاستقلال! .

وبدأت الزيارة وانتهت، كبقية الزيارات وبقية الزعماء العرب! .

إلى لا شيء!.

ولا اميركا عادت بحاجة الى الغاز الجزائري، فأصبحت الجزائر نفسها بحاجة الى العون الاميركي! .

ولم يثر «احد» موضوع الغاء الاتفاقيات البترولية المعقودة بين شركة «بان هاندل ايسترن كوربوريشن» الاميركية وبين الجزائر! .

ولم ينتقد «احد» سياسة اميركا المنحازة الى اسرائيل! .

ولم يعلن «احد» تمسكه او دفاعه عن مبادرات مؤتمر «فاس» ومنظمة التحرير الفلسطينية والاتفاق الاردني الفلسطيني! .

وهكذا نجحت الزيارة نجاحاً كبيراً. . . وكان ثمن النجاح واضحاً وهائلاً على جانب العرب:

- الحق العربي! والقضية العربية!

ثم اني اقول وعيني على الصوت العربي الضائع في اميركا، ما يلي:

لماذا لا يصل العرب في داخل اميركا -قوة ونفوذا- الى الحد الأدنى الذي وصلت اليه ، مثلا جماعة ترانس افريقيا التي تأسست في عام ١٩٧٧ لكي تخدم دول افريقيا السوداء وشعوبها ودول وشعوب البحر الكاريبي في داخل الولايات المتحدة الاميركية !؟

هذه المؤسسة، او هذه الجماعة قد استطاعت ان تحقق لنفسها ولرسالتها نجاحا هائلا في اوساط الكونغرس، كما استطاع رئيسها «راندل روبنسون» ان يصبح مثلا للعمل الدعائي والسياسي الصامت والمنتج في اندية واشنطن ومنتدياتها السياسية، بحيث اعترف له ولمؤسسته الجميع بأنهم اللسان الاقوى الوحيد «للسياسة السوداء»؟

وهذه المؤسسة - اعني «ترانس افريقا» - قد اعلنت مجموعة قرارات بخصوص الشرق الاوسط وبخصوص فلسطين وكانت معظمها مؤيدة للعرب بلا حدود، ومفندة ومعارضة للسياسة الاسرائيلية، بلا حدود ايضا، فهي تؤيد الاعتراف بالمنظمة الفلسطينية وهي «تتذكر» دوما حقيقة مناحيم بيغن الارهابية في بناء اسرائيل وهي تؤيد القرارين الدوليين رقم ١٨٤ ورقم ١٩١! والاول ينص على تنفيذ قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨ وانشاء دولة فلسطينية. . هناك! وهذه المؤسسة ايضا تحارب سياسة جنوب افريقيا وتكشف دائما عن التحالف المعيب بين جنوب افريقيا، واسرائيل. وهي دائما تهاجم المواطنية المزدوجة بين الاميركيين والاسرائيليين، وتنادي بلا خوف «ان اميركا هي رهينة اسرائيل» وتؤكد للعالم كله انها - اي ترانس افريقا - لا تنوي ان تخدم السود في اميركا كما خدم اللوبي اليهود، يهود اسرائيل. . ! .

الى آخره . . الى آخره! .

انا أسأل :

- هل هناك اي ضرر في ان يقوم تعاون مثمر، وفعال ، وغني ، بين هذه المؤسسة وبين جميع الاصوات العربية المنتشرة في انحاء الولايات المتحدة الاميركية والتي تحمل الالقاب السعيدة ، وتقبض الاموال الطائلة ، وتكتفي بالحفلات والسهرات والتصريحات وكتابة المقالات في الصحف. . . العربية؟!.

ثم انا اسأل :

ـ لماذا نستحي ولماذا نخاف ان نؤيد ونتعاون جهارا نهارا مع رجال «سود» في الكونغرس من امثال السناتور «دلومز» وزميله السناتور «كونيير» وبالتالي ان نؤيد ونتعاون جهارا نهارا، مع زعماء سود، كالمستر جاكسون، ذاته؟ .

ماذا بقي لنا في اميركا لكي نخشى عليه؟ .

وماذا بقي لنا في اميركا لكي نخشى منه؟ .

ان الاعلام الغبي كالحب الغبي ، يبقى في حدوده الضيقة، لا يتأثر به أحد ولا يبادله بالشعور أحد، ولا يعود بالنفع على أحد .

ومن ملامح الاعلام الغبي ، ايضاً، ان نجهل مواقع كبريات صحف العالم، او نتجاهل دورها وسياستها ونصر على التعامل معها ومدها بالاعلانات المأجورة على مدى عشرين صفحة او اكثر من صفحاتها . !

من ملامح الاعلام الغبي ، ان تصر «الامارات» او مسقط، او «قطر» عن نشر ملحق صحفي طويل عريض في صحيفة «كالهيرالد تريبيون» وهي تعلم انها بكل من فيها وما فيها، تعتنق الصهيونية وتخدم اسرائيل!

ومن ملامح هذا الاعلام الغبي ان تصر بعض صحفنا العربية على ترجمة مقالات الصحفي الصهيوني اليهودي «ارت بوشوالد» ـ ونشرها في الصفحات البارزة مع صورته الرقيقة وهي تعلم ـ او لا تعلم ـ من هو صاحب هذه المقالات؟ .

ومن مظاهر هذا الاعلام الغبي ان ننافق الاجنبي على حساب كرامة رجل الاعلام العربي، حتى اذا ما جاء ملك او أمير او رئيس الى واشنطن او باريس بادر السفير العربي في ذلك البلد الى تقريب رجال الصحافة الاميركية او الفرنسية الى

الاحتفالات والمؤتمرات الصحفية مع اقصاء كل صحفي عربي اورجل اعلام مسلم بحجة ان الصحفي العربي قد يكون ارهابياً او عدواً او جاسوساً. ان مثل هذا التصرف لم يكسب العرب الا السخرية والاحتقار.

ان رئيس اسرائيل يحرص على ان يصطحب معه في زيارته الى العواصم الأوروبية وفد صحفي اسرائيلي يهدد به المسؤولين الذين ذهب لزيارتهم زاعماً ان هؤلاء الصحفيين سيبادرون الى نشر الاسرار اذا لم تتجاوب الدولة المضيفة مع طلبات اسرائيل وآمال اليهود. !

إن قيمة زعمائنا مستمدة من قيمة اعلامنا. . إن قوة قضايانا تعيش على قوة صحافتنا وقوة اقلامنا. وكنت أدعو الله ان يهب العرب صحيفة عربية في قوة «الجيروزالم بوست» التي ما دخلت مكتباً لرئيس تحرير التايمس اللندنية، او الواشنطن بوست، او «الميامي هيرالد» الا ورأيت مجموعات اعدادها مرصوصة ومجلدة على رفوف المكتب! .

مرة اخرى:

ان قصة الاعلام العربي الغبي، كقصة ابريق الزيت، او قصة جحا، او «الحية والطفل»، لم يبق كاتب الا وعالجها او انتقدها او هتك سرها او استنجد بالمسؤولين العرب ليعملوا على انقاذها! .

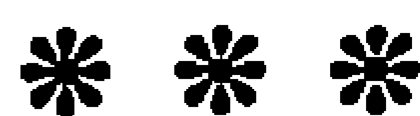
ولكن . . .

على من تقرأ مزاميرك يا داوود. . ؟

قال لي الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون في عام ١٩٨٤ :

ـ هناك حقيقة واضحة يجب ان يعرفها العرب ويعملون على مواجهتها. ان اللوبي اليهودي الموجود في اميركا هو شيء شرعي وقانوني، ولا غبار عليه بموجب «جميع» قوانين الولايات المتحدة الأميركية وانظمتها. . فهل عند العرب ما يردون به على هذا اللوبي في داخل اميركا؟ اذا اجبتني بالايجاب سأكون انا اول من يتبرع بالانضمام الى الصف العربي، للخدمة، بالمجان. ؟!»

. . ومني الى كل العرب!



الفصل الثلاثون

الاستهتار...!

● «افجع ما في حرب حزيران أنها أدانت العرب أمام أنفسهم واثبتت لهم ضعفهم وانهم لم يدخلوا بعد هامش التاريخ.»

● «ولقد عولجت قضية فلسطين حتى الآن بخفة ما بعدها خفة سببها الجهل والغرور..»

● «.. ولعل يوماً يأتي يفهم فيه أبناء وطني كم أحبهم فيمنحوني من أرضه عشرة أشبار ارقد عليها مطمئناً فاحكي لهم في قصص صغيرة قصيرة وطويلة ما حلمت به طوال اربعين عاماً.»

«سامي الجندي»

● «ويلي برانت» فسر لي سرّ العرب!

● وسؤال من جمال عبد الناصر. ؟!

الفصل الثلاثون

الاستهتار...!

سألني الزعيم الراحل جمال عبد الناصر خلال لقائي معه في الأسكندرية في الاسبوع الاول من شهر أيلول ـ سبتمبر من عام ١٩٦٤ :

ـ ماذا يقول عني حكام العرب؟

واجبته بعد تردد :

ـ يقولون انك تجاوزتهم الى شعوبهم، وتجاهلت وجودهم كي تخاطب رعاياهم، وانك تعاملهم في حدود الشكليات والرسميات بينما تتعامل مع الشارع العربي في كل الوطن العربي بلغة صريحة وعبارات ثورية قد تحمل في كلماتها معاني الاثارة والثورة وتدعو الشعوب الى محاسبة حكامها او الانقلاب عليهم . . »

وقاطعني عبد الناصر، ضاحكاً :

ـ وهل كان المطلوب مني ان اسكت عن فضائح هؤلاء الحكام واسايرهم على حساب مصلحة الأمة العربية باسرها، او ان اتجاهل أخطاءهم وأستر على استهتارهم فيقول عني التاريخ انني ساهمت في الحاق الأذى بالأمة العربية ارضاءاً لحفنة من الرؤساء والزعماء والسلاطين!؟»

ثم اضاف عبد الناصر يقول لي وقد غابت ضحكته :

ـ انا شخصياً ضد العنف وضد سفك الدماء. وعندما رأيت صورة جثة الامير العراقي «عبد الاله» معلقة بالمقلوب على باب وزارة الدفاع العراقية ومنشورة في

مجلة تايم الاميركية عام ١٩٥٨ ، امرت على الفور بنزع الصفحة المنشورة فيها تلك الصورة من المجلة قبل توزيعها في السوق . ولكني تمنيت في قرارة نفسي على سائر المسؤولين العرب الاطلاع على تلك الصورة وتفهم معانيها وادراك ابعادها لعلهم يحدّون من استهتارهم ويشفقون على شعوبهم ويعرفون باب الله. . !»

وبعد ان مات عبد الناصر، ومات بعده فيصل بن عبد العزيز، وجرى «ماجرى» من احداث مفجعة على الساحة العربية، تضاعف معنى الاستهتار عند المسؤول العربي، واشتد الفجور، والعهر، والكذب، والاختلاق، وقلب الحقائق!

وأصبح الوهم هو القاعدة، والحقيقة هي الشواذ.

وانتشرت النميمة ومظاهر الكراهية والعداء بين مصلحة الأمة العربية من جهة، وبين المسؤول العربي من جهة اخرى. كما تضاعفت كميات الحقد بين مختلف المسؤولين العرب الى الحد الذي ضاعت معه القضايا العربية وتلاشت المصلحة وتشوه الحق.

واصبح من حق اي مسؤول عربي ان يقول ما يشاء، كيفما يشاء، ومتى يشاء وفي أي موضوع يشاء، دون ان يحسب حساب الشعب او حساب الضمير، او حساب التاريخ، او حساب المصلحة العامة!

ولم تعد فضيلة الاستهتار والكذب وهز الاكتاف مقتصرة على المسؤول «المحافظ» او الزعيم «المعتدل» التقليدي، بل انتشرت حتى وصلت الى المسؤولين الثوار او الثوار المسؤولين في اكثر من بلد عربي. .

وكانت القضية الفلسطينية - في معظم الحالات - هي محور هذا الاستهتار، وملعبه. .

اليس مما يدعو الى العجب ان نسمع زعيماً مسؤولاً ثورياً عربياً يقول لشخصية عربية مسلمة كانت تشغل منصباً رفيعاً في وطنها وتتصل بصلة النسب الى مسؤول مسلم كبير مشهود له بالصدق والوطنية والأيمان:

- اذا حسب «ابو عمار» انني سأحرر له «الضفة الغربية» لكي اسلمها له فيما بعد على طبق من ذهب، فهو غلطان! هذه الارض جزء من الوطن العربي الكبير ولا مكان فيها «للدويلات» والاقطاعيات والزعامات الصغيرة. هل انت قادر على ان

تنقل هذا الكلام لياسر عرفات . . !»

وارتسمت معالم الدهشة على وجه الشخصية العربية المسلمة التي كانت تزور ذلك البلد «كمندوب خاص» من اعلى المقامات، وسألت محدثها:

-ولكننا- كما نعلم- متفقون على وجوب قيام دولة فلسطينية مستقلة فوق أرض الضفة والقطاع، وان «المنظمة» هي المسؤولة الشرعية عن هذه الدولة. !»

فاذ بالزعيم المسؤول العربي الثوري يقول مقاطعاً في غضب:

ـ من؟! من؟! شرعية؟! من اعطاه الشرعية؟؟ هل سألوا شعب فلسطين في امر اختيار زعمائه؟ إن المتفق عليه هو «تحرير» الارض المحتلة . . «فقط»، اما مستقبل الارض المحررة، فمتروك للأطراف ولم نتفق عليه مع أحد . . »!

وما زلت اذكر حديثاً خاصاً دار بين صديقي الزعيم الثوري الفلسطيني «ابو اياد» وبيني، في مدينة الكويت عندما سألته عن تفاصيل أخبار زيارته التي قام بها الى الاردن عام ١٩٨٤ بعد غياب دام ١٤ سنة، فقال انه لم يشعر بالراحة في تلك الزيارة بسبب تحرشات غير لائقة واستفزازات غير حضارية قام بها ضده مسؤول اردني كبير يشغل منصباً حساساً رفيعاً مما دفع «أبو اياد» الى الشكوى للملك حسين الذي عمل بسرعة لتلافي الأمر بحكمة. ولكني سألت «ابو اياد» عن سبب تلك الاستفزازات اللاحضارية من جانب ذلك المسؤول الاردني الكبير ضده، فاجابني بهدوئه العجيب:

ـ أصل الحكاية ان «صاحبنا» المذكور ما زال يذكر الامر الذي اصدرته شخصياً عام ١٩٧٠ باعتقاله ووضعه في «الزنزانة» ايام احداث الاردن! ورغم مرور ١٤ سنة على هذه الحادثة الا ان المرارة التي في قلوب هؤلاء الناس ما زالت متأججة كالنار التي تأكل بعضها!»

قلت مقاطعاً:

ـ ولكن صاحبنا ـ قد أصبح اليوم في موقع السلطة، والظروف تفرض عليه ان ينسى اكراماً للقضية وللتفاهم الجديد بين المنظمة والاردن، وللسلام المنشود، فلماذا تراه يتمسك بالحقد ويفضله على . . . فلسطين؟!

واجابني «ابو اياد» في صدق:

ـ فلسطين هي آخر ما يخطر على بال هؤلاء الناس او يشغل تفكيرهم. ان السلطة لم تزدهم الا استهتاراً بفلسطين، وحقداً على شعبها !»

ثم تفشى الاستهتار، وانتشر كالطاعون والكوليرا.

وتعددت مظاهره..

وتفرعت ميادينه وصوره وابطاله! لقد أصبحنا كلنا مستهترون!

وكانت مظاهر استهتارنا كثيرة.

استهترنا بالمنطق وبالقوانين وبالعادات وبالنظريات السياسية والعسكرية والاقتصادية كلها.

ولم نحترم الا اجهزة مخابراتنا. ولم نثق الا بتقارير جواسيسنا. ورفضنا ان نعترف بان الحروب ضد اعدائنا لا تبدأ متى نقرر نحن وانما تبدأ ـ ايضاً ـ متى يقرر موعدها اعداؤنا. !

وكفرنا بشيء اسمه العلم، او التدريب، او الخبرة! ورفضنا ان نعترف بان الجندي الاسرائيلي ـ عدونا ـ يمتاز بوفرة تدريبه ووفرة علمه! قال لنا غرورنا ان الجندي العربي قادر على ان يحارب الجندي الاسرائيلي «بالسكاكين»، وان ينتصر عليه! وقال لنا غرورنا ان الثائر العربي «جريء» على عكس المسؤول الاسرائيلي.. الجبان! واستهترنا بالشعب وكذبنا عليه وزورنا امامه الحقائق في صورة بلاغات رسمية! وكرهنا بعضنا ونحن نتغنى بالمحبة! وحاربنا بعضنا ونحن نردد مواويل السلام. وكفرنا بالأسلام ونحن ندعي اسطورة «الجهاد المقدس».

وسمح لنا غرورنا وجهلنا ان نستهتر بالعدو الغادر ونغفل عن حقيقة اهدافه ونواياه نحونا! لقد ظننا ـ عن جهل وغرور ـ ان معركة «القدس» قد انتهت في عام ١٩٤٨ بتقسيم المدينة واحتفاظ العرب باماكنهم المقدسة. ولم نكن ندري ان حرب عام ١٩٤٨ لم تكن الا مقدمة لحرب عام ١٩٦٧ وان استيلاء اليهود على الاحياء «الجديدة» في المدينة المقدسة لم يكن الا جزءاً من خطتهم للاستيلاء على بقية احياء القدس بعد قليل. كان استهتارنا بقوة عدونا شديداً ولا يعادله الا معرفة عدونا بحقيقة استهتارنا به! لم نشأ ان نعترف ولو لانفسنا ان عدونا لن يسمح للعرب او للمسلمين بان تبقى «القدس» تحت سيطرتهم، وان لا معنى لدولة اسرائيل بدون

«القدس»، ولا روح لليهود بدون «الهيكل»، ولا قيمة لشعب اسرائيل بدون «المبكى» ومقدسات اليهود. لقد ادى بنا استهتارنا بعدونا الى العجز والجمود فلم نحاول ان نعطي «القدس» الطابع الشمولي الأسلامي الواسع الذي يجند كل مسلم في الارض لحمايتها والتمسك بها والدفاع عنها! لم نوظف اموال المسلمين لبناء مساجد جديدة ومستشفيات جديدة فوق ارض القدس! لم نجلب اهتمام الباكستاني والماليزي والاندونيسي بالقدس عن طريق انشاء المدارس الاسلامية التي تهتم باللغات والتقاليد والعادات والدروس الماليزية والاندونيسية والباكستانية. وبقيت القدس ـ كما تسلمها العرب عام ١٩٤٨ ـ مجرد مدينة اسلامية عربية صغيرة، محاطة ببحر من الاعداء، وحولها سور اثري قديم بناه السلطان الاموي، وسور جديد آخر بناه الجنرال البريطاني الاردني العربي جلوب باشا!/اجل. . .

لقد استهترنا بالعدو وحرمنا السلاح عن اهلنا في الخطوط الامامية المواجهة لاسرائيل على طول خط الحدود! ظننا ان اسرائيل لن تقوم باي غزو عسكري للضفة الغربية. وان امريكا قادرة ان تمنع اسرائيل من القيام باية مغامرة ضد اية قرية عربية تقع على خط الهدنة! وعندما اعتدت اسرائيل على قرية «السموح» في قضاء الخليل عام ١٩٦٥، قال لي «محمد حسنين هيكل» بلسان الحكم المصري ان «اسرائيل تحفر قبرها وان مصر ستكون سعيدة لو كررت اسرائيل عدوانها لكي يزحف الجيش المصري على تل ابيب. ! كما سمعت نفس هذا الكلام من الرئيس عبد الناصر فيما بعد. وكان حكام مصر يستهترون باسرائيل ويمنعون اي صحفي من الكشف عن حقيقة نواياها الشريرة الخطيرة حفاظاً على معنويات الشعب. ! كان صديقي الراحل «حسن صبري الخولي» الممثل الشخصي للرئيس، يتحدث معي عن اسرائيل وكانه يتحدث عن مجرد عصابة صغيرة مسلحة خارجة عن القانون ولا يحتاج امر ترويضها وتأديبها اكثر من كتيبة مصرية واحدة. !

وما زلت اذكر تلك العبارة الساذجة التي اطلقها ذات يوم المرحوم كامل عريقات . من رجال الجهاد الفلسطيني -مخاطباً الملك عبد الله ، أوسماحة المفتي الاكبر عام ١٩٤٨ :

ـ لو امرني مولاي لقذفت باليهود الى البحر!

ولم يأمره مولاه.

وبقي اليهود فوق ارض فلسطين بقوة السلاح.

واخرجوا العرب من فلسطين.. من ديارهم بقوة السلاح ايضاً!

وبقي الاستهتار العربي، بهم على حاله لم يتغير.

بل لقد تحول استهتار العربي باليهودي، الى استهتار العربي بالعربي، وداس العربي على كل قيود الحياء والتربية الوطنية والسمعة القومية والكرامة السياسية، واصبحنا نرى ونسمع في لبنان من يرحب جهاراً نهاراً بالغزو الاسرائيلي للوطن اللبناني، واصبح بيننا رجالات سياسية لبنانية معروفة تتغنى بصداقتها مع «ايرل شارون» وتتمنى لو انها كانت موجودة في بيروت للترحيب به عند زيارته الاولى للبنان، واصبحنا نتقابل في باريس وفي لندن وفي جنيف مع شخصيات لبنانية تفخر بانها قادرة على ان «تفتح» التليفون من باريس وتطلب رئاسة المخابرات الاسرائيلية في تل ابيب وتسألها عن آخر الاخبار.. او تمدها بالاخبار!

فجور وعهر وخيانة وطنية واستهتار ما بعده استهتار.

ولم يستطع المطران اللبناني «مبارك» في عام ١٩٤٨ ان يرفع صوته الموالي لليهود اكثر من مرة او مرتين! اما في عام ١٩٨٥ فقد اصبح امامنا الف «مبارك».. والف «كويسلنج».. والف مارق من طراز «حداد» واعوانه. لقد استهتر الناس بقضاياهم واستهتروا باشقائهم واستهتروا بالاخلاق والمثل، ولم يعد احدهم يعرف معنى كلمة: عيب.!

ومع هذا الاستهتار العجيب، مضت قضايانا تتدهور في سقوطها الى الحضيض وهي تجر معها، سمعة العرب، وشرفهم وكرامتهم!

● ومع كل يوم يمضي، يزداد «الشارونيون في لبنان» صلفا ونفوذا وغرورا... وانصارا!..

● ومع كل نهار جديد يفقد امين الجميل شرائح واسعة من المسيحيين اللبنانيين! فقد بدأت المأساة ضمن جماعة عميلة تعيش في «البترون» او «جبيل»، واصبحت بعد ذلك تشمل قطاعات مسيحية واسعة فوق الساحل اللبناني ومناطق صيدا

والكثير من القرى اللبنانية!. . .

● ومع كل ساعة تنقضي يمعن هؤلاء العملاء في المزيد من التطرف والتعصب والكراهية للعرب والمسلمين مع الولاء لاسرائيل والمناداة ببرلمان مسيحي ودويلة مسيحية وشعارات مسيحية ما انزل الله بها من سلطان! . . انهم يطالبون بترحيل الدروز الى جبال حوران، وطرد المسلمين من مناطق صيدا وبسيطرة «قوات لبنان» على مناطق الجبل باسرها! . . كانوا الى الأمس القريب يطالبون بمجرد «الضمان الامني» من الاغلبية المسلمة فاصبحوا اليوم يطالبون بتغيير هوية لبنان وتبديل طبيعته وسكانه «وانسانه»! . . كانو يتظاهرون بالحياد بين السلطة الشرعية والعدو الاسرائيلي فاصبحوا اليوم يتظاهرون جهارا نهارا بالولاء للعدو الاسرائيلي والعداء للسلطة الشرعية! كانوا يهادنون الرئيس الجميل فاصبحوا يهاجمون سياسته ويتهمونه «بالتفريط» في حقوق «المجتمع المسيحي»! كانوا يشترطون ازالة جميع الحواجز الامنية التي اقيمت بيد الميليشيات المسلحة الاسلامية والدرزية في لبنان كشرط اساسي لازالة حاجز «البربارة» الذي يشرفون عليه، فاصبحوا اليوم يتمسكون ببقاء الحاجز المذكور - حتى - لو ازيلت جميع الحواجز الاخرى في لبنان! . .

وباختصار شديد، كان عند «الجماعة» بعض بقايا الحياء الوطني، فلم يمض وقت طويل حتى سقط القناع واصبحوا اشد صهيونية من بني صهيون!

وكل ذلك، باسم المسيحية والدفاع عن حقوقها وتأمين سلامتها والحفاظ على مصالحها في هذا البلد الذي اسمه : لبنان!

وكل ذلك، والعرب. . . يتفرجون. . وينتظرون!

حتى امس قريب، كان العهر السياسي في لبنان يؤكد ان اسرائيل ليست لها انصار بين اللبنانيين، وان كل ما يريده اللبنانيون هو الخلاص من الفلسطينيين وترحيل اية قوة مسلحة فلسطينية من ارض لبنان.

ثم خرج الفلسطينيون من لبنان وبقي العهر السياسي اللبناني يتعاون مع اسرائيل ويأخذ منها المال والخبراء والسلاح؟!

وقال تجار السياسة من عملاء «شارون» في لبنان ان تعاونهم الجزئي مع اسرائيل

يعود ـ اولا ـ الى وجود النفوذ السوري فوق ارض لبنان، وان هذا التعاون سينتهي عندما تخرج سوريا من الاراضي اللبنانية!

وقالت سوريا انها ستخرج من لبنان بعد خروج آخر عسكري اسرائيلي من الوطن اللبناني، وان ليس لسوريا اية مطامع جغرافية او اقليمية في لبنان! ولكن تعاون العهر السياسي اللبناني مع اسرائيل بقي في نمو وازدياد حتى بدا واضحا للعيان بعد ان سقط عن وجوه اصحابه كل اثر للحياء او الخجل او الخوف. !

وقد بلغ بنا الاستهتار حداً جعلنا نشوه المعنى الذي كنا نرجوه من وراء عقد مؤتمرات «القمة» العربية. لقد استهترنا بتلك المؤتمرات، وقتلناها، اما بالتغيب، او بالتسلط، او بالعجز او بالمقاطعة، او بفرض الشروط، فاذ بتلك المؤتمرات تصبح كسيحة مجمدة، تعجز عن ان تجد حلاً لمشاكل لبنان، او العراق، او اليمن، . . ناهيك بمشكلة فلسطين الكبرى.

ومنذ قمة «انشاص» في عام ١٩٤٦ حتى اليوم لا اعرف قمة عربية واحدة استطاعت بما اتخذته من قرارات وتوصيات ان تجد الحل المطلوب لاية قضية عربية او تملك القوة والنفوذ من اجل فرض مثل هذا الحل!.

ذلك ان مؤتمرات القمة ـ دون استثناء ـ لم تكن وسيلة صادقة من اجل الوصول الى الحلول العادلة للقضايا العربية بقدر ما كانت ستارا شفافا يقصد به اخفاء بعض تلك القضايا، او مقبرة تدفن فيها بعض القضايا الكبرى، او قطارا مسافرا تركبه القضايا فتذهب بها الى المجهول، او مخدرا يستولي بأثره على نوع معين من القضايا فيفترسها بالنوم اللذيذ، او عملية حسابية ذكية تتوزع بموجبها حسابات الخسائر وارقام الهزائم ومسؤوليات النكبات بحيث لا يتحمل المسؤولية حاكم فرد ولا يواجه الحساب رئيس واحد!.

واتخذنا من مؤتمرات القمة «شمّاعة» وهمية نعلق عليها الآمال في اعادة توحيد العرب واستعادة التضامن العربي. !

ولا ادري لماذا ننشد التضامن العربي في «فاس» ولم ننشده في المواقع التي شهدت الخلافات العربية، واعني بها: دمشق، وعمان، وبغداد، وبيروت، والقاهرة؟

الم يكن الرئيس «سوهارتو»، الاندونيسي محقاً في ان يقول للاذاعات العالمية

عشية وصول الرئيس المصري حسني مبارك الى بلاده في ابريل ١٩٨٣ ان اول ما سيبحثه مع رئيس مصر هو موضوع وساطة اندونيسيا بين مصر والدول العربية بقصد اعادة «التضامن العربي» الى سابق عهده؟!

وهكذا اصبح البحث عن التضامن العربي لا يبدأ الا عبر البحار والمحيطات، ولا يأتي الا في بلاد غير عربية وعلى ايدي رؤساء غير عرب، بل هكذا لم يعد في مقدور الفلسطيني المسؤول ان يتفاهم مع السوري المسؤول، ولم يعد باستطاعة الاردني الحاكم ان يتحدث الى الفلسطيني القيادي، الا من خلال مؤتمرات القمة، وعلى مسمع من اذاعات وتلفزيونات العالم، وامام عدسات التصوير والسينما، ومن على منبر «فاس».

كان المطلوب منا، قبل ان ندعو الى قمة جديدة، ان ندعو الى «مقدمة» قمة استثنائية نتفق خلالها على ان نجعل قرارات القمة، ملزمة، ونبحث فيها جميع امكانيات النجاح والفشل في عملنا السياسي، ونناقش عندها كافة الاحتمالات الطارئة والمستبعدة لخططنا ومشاريعنا السياسية والعسكرية والاقتصادية بحيث لا نضطر عند كل خطوة جديدة او مع كل طارىء جديد ان نتنادى الى عقد مؤتمر قمة عربية جديد، وان يقال لكافة العرب خلال ذلك ان مؤتمرات القمة لا تغني عن اللقاءات العربية الثنائية المطلوبة، وان القمة الكبرى ليست البديل عن القمة «المصغرة»، وان الاكثار من عقد مؤتمرات القمة الموسعة سيؤدي الى ان تفقد هذه المؤتمرات الكثير من سحرها وقيمتها واثرها لدى العالم عامة والعرب وقضاياهم خاصة..

لقد سمعت الرئيس اللبناني الاصيل صائب سلام يقول لي صباح ذات يوم من ايام خريف ١٩٨٤:

● منذ صدور قرارات قمة «فاس» الثانية حتى اليوم كنت اتساءل عن الأثر الملموس الذي حققته قرارات فاس المذكورة على الصعيد الدولي بالنسبة لقضية الشرق الاوسط.؟ هل جعلت اميركا تعترف بالمنظمة؟ هل اقنعت اسرائيل بتجميد بناء المستوطنات؟ هل احيت المبادرة الاوروبية لدول السوق الاوروبية المشتركة حول الشرق الاوسط؟ هل طردت اسرائيل من لبنان؟ هل بدلت شيئا من الموقف

السوفياتي تجاه العرب؟ هل جاءت بالصين الى دنيا الوطن العربي؟ هل انقذت شعب الضفة والقطاع من العذاب الصهيوني؟ هل اصلحت بين سوريا وبين بعض رجالات منظمة التحرير الفلسطينية؟ هل اقنعت ليبيا ان المسيحي في لبنان يفضل ان يبقى على دينه ولا يعتنق الدين الاسلامي؟ هل انهت حرب العراق وايران. ؟!»

انتهى كلام صائب سلام . . .

● وكنت اردد هذه الاسئلة، وغيرها، على مسمع من مسؤول عربي كبير ما زال يشغل نفسه ويشغل اصدقاءه ويشغل انصاره ومحبيه بكل صغيرة وكبيرة تتعلق بامور الشرق الاوسط، فسمعته يقول لي وكانه يبدأ القصة من اولها:

ـ في صالون الحديقة الشتوية الملحقة بقصر الامير السعودي بندر بن سلطان، بواشنطن، اجتمع كل من وزير خارجية اميركا، ووزير دفاعها، ونائب رئيسها، والمستر فيليب حبيب، وبعض رجال الكونغرس في النصف الاول من شهر مارس عام ١٩٨٣، مع الزعيم اللبناني صائب سلام الذي جاء مبعوثاً من الرئيس اللبناني لمقابلة رونالد ريغان ومباحثته في موضوع جلاء اسرائيل عن لبنان. . . . »

واستطرد المسؤول العربي يقول لي :

ـ وكان جورج شولتز، وزير خارجية اميركا، يقود دفة الحديث ولا يدع فرصة لسواه ان يتكلم. وكان ـ على غير عادته ـ هائجا ومتحمسا ويصر على ان يكرر عبارة واحدة يقول فيها ان على الملك حسين ان ينضم فورا الى موكب المفاوضات. . وان على الاردن ان يحسم الموقف ويقرر موقفه. . وان المفتاح بيد الاردن وحده. . وان هذه هي فرصة العمر امام الملك الاردني. . الى آخره! واذ بالسيد صائب سلام يقاطعه ويقول له: قبل مجيئي الى هنا ارسلت كتابا الى الملك حسين نصحته فيه بعدم المجيء الى واشنطن وعدم الانضمام الى عملية المفاوضات! هل تعرفون لماذا؟ لاني لا اريد لهذا الملك العربي الشجاع ان يحرق نفسه في عملية سياسية لا تعود عليه ولا على بلده ولا على الفلسطينيين بأية فائدة. انني اقول لكم يا مستر شولتز ان ارغام الملك حسين على المجيء والتفاوض دون ان يسبق ذلك ظهور نتائج ملموسة أهمها خروج آخر جندي اسرائيلي من لبنان وتجميد بناء آخر مستوطنة يهودية في الارض المحتلة، انما هو انتحار للملك حسين! لماذا تريدون قتل الملك حسين؟ لماذا

تريدون التضحية باصدق واجرأ حلفائكم في المنطقة؟ لماذا تختارون الامر السهل وبدلاً من الضغط على اسرائيل وحملها على تلبية شروط الملك حسين للتفاوض، نراكم تضغطون على الملك حسين وتتركونه تحت رحمة اسرائيل وتحت رحمة المجهول المخيف؟ . . »

● قالت لي الشخصية المسؤولة وهي تستطرد حديثها:

ـ وقد سمع الحاضرون كلاما من السيد صائب سلام يقول لهم فيه ان «الدلع» الاسرائيلي قد وصل حدا لا يمكن السكوت عنه! لقد سأل مستمعيه لماذا حمل «اسحق شامير» وزير خارجية اسرائيل طلبا الى رونالد ريغان في زيارته الاخيرة بضرورة تنحية فيليب حبيب عن مهمته في المنطقة؟ لماذا تصر اسرائيل على الاحتكاك ببعض القوات الاميركية المنتشرة في لبنان؟ لماذا تتمسك اسرائيل بشخصية عسكرية مارقة لا قيمة لها، كالرائد سعد حداد، وتجعل من قضية هذا الشخص قضية سياسية وعسكرية عامة يتوقف عليها مصير السلام في المنطقة؟ لماذا نطالب الملك حسين ان يقوم بواجبه نحو عملية السلام ولا نطالب اميركا ان تضع حدا للدلع الاسرائيلي الذي كان ، وما زال من اقوى عوامل الهدم في تحطيم هذا السلام قبل ان يولد؟! وعندما اوشك صائب سلام ان ينتهي من سرد اسئلته اذ بوزير الخارجية الاميركية يؤكد له ان بلاده مصممة على ان تنقذ السلام من انياب اعدائه وان المستقبل سيكشف عن خطوات اميركية حاسمة في هذا الموضوع.

ولكن؟ لا شيء!

قال لي صائب سلام وهو يتذكر تلك الجلسة:

ـ «قلت لهم يومذاك. ان اسرائيل تريد ان تغزو العرب، كل العرب، من باب بيروت. ان همها ليس لبنان وانما همها البترول والمال والاسواق العربية القادرة على الشراء والبذل والاستيراد! وهذا ما لا نوافق عليه لاننا لا نملك الحق فيه ولا نملك التصرف به ولا نريد ان نكون سببا في خراب اشقائنا او في غزو اسرائيل لمصارفهم وشركاتهم وتجارتهم وان نصبح ـ بالتالي ـ هدفا لانتقام هؤلاء الاشقاء منا ومقاطعتهم لنا وامتناعهم عن مساعدتنا على التعمير والبناء. ! ان المسألة كما ترون مسألة عربية شاملة وواسعة، وليست مجرد مسألة لبنانية محدودة وبسيطة! وعلى

الذين ينشدون الصداقة العربية، ويعتمدون على البترول العربي ويحرصون على المصلحة العربية التي تتجاوب مع مصالحهم، ان يجدوا الجواب الحاسم على كل هذه النوايا الاسرائيلية التي اصبحت بعض «الثمن» المطلوب لجلاء اسرائيل عن ارض لبنان! . »

وعدت للشخصية العربية اسألها:

ـ ماذا تريد ان تقول:

واجابني ضاحكا:

ـ اريد ان اقول ان مثل هذا الكلام لا يحتاج بالضرورة الى مؤتمر قمة لكي يخرج ويصبح معروفا ويبحث عن حل! ان اقطاب الحلفاء من تشرشل الى روزفلت الى ستالين الى ترومان، لم يلتقوا طيلة سنوات الحرب سوى مرتين بهدف تقرير مصير العالم بأسره لا مصير فلسطين وحدها!»

● ثم اضاف:

ـ ان الدعوة الى عقد المزيد من مؤتمرات «القمة» تفتح الباب امام كل رئيس دولة عربي ان يصر على ادراج قضية بلاده على جدول اعمال القمة بحجة ان قضيته لا تقل اهمية عن قضية فلسطين! اليس من حق الرئيس امين الجميل ـ مثلا ـ ان يقول للسفير المغربي الذي جاء يحمل اليه الدعوة للقمة الاستثنائية ان قصر جدول الاعمال على موضوع القضية الفلسطينية ينطوي على الكثير من الاجحاف بحق القضية اللبنانية التي تثق بالاشقاء العرب وتلتفت نحوهم للخلاص من الاحتلال الاسرائيلي للبنان، ومساعدة اللبنانيين على استعادة استقلالهم وسيادتهم وتعمير مدنهم وتوحيد طوائفهم ؟؟. . »

وبقية حديث الشخصية العربية المسؤولة، ليس للنشر، لانه خارج عن موضوع القمة التي استحوذت على اهتمام العرب وافكارهم، بحق، او بدون حق.

● ومرة اخرى: هل اصبحت ابجديات الحقائق المتعلقة بقضية الشرق الاوسط، بحاجة الى مؤتمر «قمة» كي يطلع عليها العرب ويعرفها زعماؤهم واقطابهم؟ اعني: هل اصبحت مؤتمرات القمة من مستلزمات النجاح لأية حقيقة من حقائق قضايانا، بحيث اضحت هذه المؤتمرات وحدها، هي المدرسة، وهي المنبر، وهي المحكمة،

وهي الكتاب، وهي المعلم، وهي المفتاح السحري، لكل ما يتعلق بنا او كل ما يدور حولنا من مشاكل وتيارات ومؤثرات؟!

هل أصبح العرب في حالة من الصراع والخلاف والكراهية والكذب والنميمة بحيث لا يتحدثون مع بعضهم الا في «مؤتمر قمة» ولا يتبادلون التحيات العابرة الا في «مؤتمر قمة»، ولا يتصرفون كبشر عاديين الا في مؤتمر قمة. ؟

إن القول الصادق، والأحساس الصادق، والشعور الصادق، والعمل الصادق لايحتاج الى مؤتمرات قمة. إن الحدّ من الاستهتار لا يتوقف بقمة أو بمهرجان.

في صيف عام ١٩٦٥، وخلال مقابلة لي مع الهر «ويلي برانت» مستشار ـ المانيا السابق وقطب الاشتراكية الدولية المعروف، قال لي ونحن نتحدث عن ازمة جمال عبد الناصر مع الحكام الالمان بسبب اعترافهم الرسمي بدولة اسرائيل:

ـ أنا اعترف امامك بأننا أخطأنا لاعترافنا بأسرائيل، ولكني حريص لكي اكشف لك عن سبب هذا الخطأ. لقد بنينا قرار الاعتراف على معلومات رسمية كانت تصلنا من عشر عواصم عربية ـ واكرر عربية ـ عن مبادىء السياسة العربية تجاه المانيا الشرقية وتجاه المانيا الغربية ايضا. وكانت هذه المعلومات تتضارب فيها بينها وتتناقض مع بعضها، جملة وتفصيلا! وكان بعض سفرائنا ـ اي سفراء المانيا الغربية ـ المعتمدين لدى الدول العربية يزودنا بمعلومات عربية، لا عن موقف الدولة التي يعمل فيها فحسب وانما عن موقف الدول العربية المجاورة ايضا. وكانت هذه المعلومات غاية في الطرافة! بعضها يؤكد لنا أن بعض العرب يعادي المانيا الشرقية أكثر مما يعادي اسرائيل! وبعضها الآخر يؤكد ان زيارة الهر «اولبرشت» زعيم المانيا الشرقية للقاهرة لا تعني احدا وانما تعني القاهرة وحدها وبعضها يؤكد ان اي اعتراف من المانيا الغربية باسرائيل لن يغضب العرب بقدر ما سيغضب القاهرة التي تتحالف مع المانيا الشرقية لا ضد اسرائيل وحدها وانما ضد بعض الدول العربية المحافظة ايضا! وبعضها الباقي يؤكد ان اعترافنا بأسرائيل لا يهمها ما دمنا نتعهد لها بأن نمد هذه الدول العربية بالقروض او المساعدات او الخبراء أو السلاح. »

وسألني الهر ويلي برانت مستطردا:

ـ هل تعرف سر هذه الفوضى في الرأي وفي الموقف؟ ان سرها ان الدول العربية

تصر على ان تتحدث على الف موجة وتنطق بألف لسان وسرها ان المسؤولين عندكم لا يقولون الحقيقة، ولا يصارحون بعضهم بها ولا يكشفون لاخوانهم عن حقيقة اتجاهاتهم وحقيقة أوراقهم لا تجاه الدول الاوروبية وتجاه امريكا فحسب وانما تجاه قضاياهم التي تخصهم، هم، ايضا!»

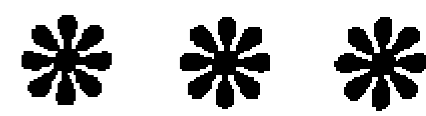
وقد يكون «ويلي برانت» مبالغا في كلامه عن التضارب العربي في الدبلوماسية العربية او عن اصرار المسؤولين العرب على اخفاء حقائق الامور عن بقية اخوانهم من المسؤولين العرب، ولكن بعض ما جرى ومازال يجري حاليا على الساحة العربية من مفارقات مضحكة - واحيانا مبكية - ومن مغالطات في المواقف وتشويه للحقائق واخفاء للامور تجعلنا نشعر وكأن كلام «ويلي برانت» عن النفاق العربي لا ينطبق على موقف العرب من ازمة المانيا في صيف ١٩٦٥ فحسب، وانما مازال ينطبق على تسعين في المائة من القضايا العربية الراهنة، والمعلقة، ايضا!

يقول علماء النفس ان «الأستهتار» بالآخرين، هو التفسير العلمي للانسان الذي يكذب ويصر على الكذب.

ولم يشرح لنا علماء النفس تفسيرهم للزعماء الذين يكذبون ويصرون على الكذب فيلحقون الأذى بقضاياهم، وباوطانهم، وبشعوبهم!

لقد كان الاستهتار هو توأم «الأنهيار»، ورفيق دربه، وأكبر سبب من اسبابه!

ليرحمنا الله . . .



الفصل الحادي والثلاثون

وا إســـــــــــلامـــــــــــــاه..!

يا قدس يا سيدتي . . معذرة
فليس لي يدان
وليس لي أسلحة
وليس لي ميدان
كل الذي املكه لسان
والنطق يا سيدتي أسعاره باهظة والموت بالمجان!

«أحمد مطر»

الفصل الحادي والثلاثون

وا إســــــــلامــــــــــاه..!

« . . قل لنا يا سيدي الشيخ ، ما حكم الاسلام في الأمة التي سمحت لعدوها ان يدنس بيتا ويحتل مسجداً أمر الله بالحفاظ عليه وباركه وبارك حوله . !»

« . . قل لنا يا سيدي الشيخ ، ما حكم الخالق في شعب سمح للكافر بأن يدخل مسجده ويحرق منبره ويغتال المصلين في ساحة الحرم . . !»

« قل لنا يا سيدي الشيخ ، ما حكم الشرع في اناس تخاذلوا وتحاربوا وتصارعوا وتركوا عدوهم يستغل فرقتهم وتفتتهم ، فحاربهم وانتصر عليهم واحتل مسجد الخليل ابراهيم عليه السلام واحاله الى كنيس يهودي ، وما زال يخطط لنسف المسجد الأقصى واقامة هيكل سليمان على انقاضه؟ . . »

ولم يجب الشيخ . .

فقد كانت الاسئلة تنهمر عليه من المصلين في بهو المسجد الأقصى بالقدس كانهار المطر ، وكان بعد ان القى «خطبة الجمعة» يتحاشى ان يجيب على اسئلة المصلين خشية ان يلتقط جواسيس اسرائيل المندسين بين المصلين كلامه ، فيصدر الأمر باعتقاله وترحيله الى ما وراء النهر . .

ولكن اسئلة هؤلاء المصلين في ذلك اليوم وفي ساحة الأقصى ، بقيت تتردد على السنة الآلاف من اهل الضفة الغربية المحتلة ، ويرددها معهم كل مسلم وكل عربي تحت كل سماء في هذا العالم . !

وستبقى كل تلك الاسئلة تصرخ كالرعد، والنواح، والطوفان، والبركان، ما دامت القدس اسيرة الاحتلال، وما دام مسجدها أسير الذل والأخطار . .

وسيبقى كل مسلم مؤمن صادق يسأل نفسه، مع كل صدق وصراحة وجرأة:

ـ ما هو الاسلام؟

ـ ومن هو المسلم؟

ـ ومتى يصبح غير المسلم، مسلما، ومتى يصبح المسلم، غير مسلم . !

متى . ؟ ومن ؟ وما هو؟ واين ؟

وهل الاسلام هو مجرد صوم رمضان والحج الى بيت الله وممارسة الصلاة والايمان بالفرائض المعروفة؟

واذا كان «رمضان» هو شهر العبادة، فانه ايضا شهر الصراحة والحقيقة! واذا كان من واجب المسلم ان يتقرب لربه في شهر الصوم، فان عليه ايضا، ان يقترب من واقعه، ويخلص لحقيقته ويعترف بذنبه! ان مباهج رمضان، شيء، واحزانه وآلامه شيء آخر! بل لعل صفاء الصائم هو الحافز الذي يدفع به الى المزيد من التفكير في حاضره والتمعن في مشاكله والاعتراف اما بتقصيره او استعداده للتكفير عن هذا التقصير.

ولم يكن رمضان يوما، وليمة افطار او برقية تهنئة، او سهرة تعارف، او مظاهر الزينات في الشوارع والطرقات! وليس رمضان هو وجبات السمك والارز في «ماليزيا» او اطباق «الضولمة» والشركيسية في «تركيا» او حساء الفراخ في اندونيسيا او الفول بالبيض في مصر او طبق «التبوجين» ومشروب «الكنكباة» في السنغال! رمضان جوهر لا مظهر، وصيام اكثر منه اكلا، واعتكاف اكثر منه سهرا او طربا، وحساب اكثر منه نفاقا، وهو شهر التكفير والحسم «لا» شهر التدجيل ولا التمثيل ولا التمويه ولا التسويف ولا التأجيل!

من هنا، يظهر مدى ألم المسلم البعيد عن وطنه وهو يرى امامه اكثر الشهور قداسة في عمره وفي دينه وقد انقلبت على يد بعض «المسلمين» المنتسبين الى هذا الشهر وأفسدت حقيقة غاياته وجوهر آياته وسمو راياته وبيناته فهم لم يتنكروا لرسالة الشهر وكرامته وقداسته فحسب ولكنهم سمحوا لانفسهم، اما باستغلال

الشهر وكل معانيه لحساب مآربهم وسياساتهم الذاتية الخاصة ، وهي لا تقل شراً عن الشهوات والملذات ، واما بالمضي في كل ما حرم الله في ايام الشهر من قتل وسفك دم بيد اي مسلم ضد اخيه المسلم ، واما بالاستهتار بحرمة الشهر الكريم من خلال الاستهتار بقيمة المقدسات وعظمة المساجد وخطورة العبتات والاماكن الاسلامية التي باركها الله ، او بارك حولها ، فصبروا آثمين على احتلالها ، وسكتوا مذنبين على ذلها ، وتجاهلوا -متصدين ومتعمدين- آهات اهلها وانات سكانها !. .

في ذلك الشهر الكريم، يحلو الحديث «الشهي» عن بعض المسلمين العرب، وبعض المسلمين غير العرب في مختلف أرجاء المعمورة! فقد حسب اعداؤنا علينا وفرة عددنا الذي بلغ «المليار» مسلم، وضاعفوا من حجم زهوهم وانتصارهم عندما راحوا يعلنون ويكررون انهم في استيلائهم على «أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين»، بكل ما حوله، وبكل ما فيه، وبكل ما يعني وما يرمز، فانهم قد انتصروا على المليار مسلم بالذات، وبكل فرد منهم، وان العشرين مليون يهودي اثبتوا في النهاية أنهم اقوى وامضى وأشد من المليار مسلم!

فهل هذا صحيح .؟

هل المليار مسلم هم الذين حاربوا معركة العرب ضد اسرائيل في القدس، وبجوارها، سواء عام ١٩٤٨، ام عام ١٩٦٧؟ وهل المليار مسلم هم الذين حاولوا ـ كلهم ـ انقاذ القدس بعد سقوطها طيلة العشرين سنة الماضية؟

أليس جلالة الحسن الثاني ملك المغرب، ضمن المليار مسلم، اليس هو بالذات الذي يحمل لقب أمير المؤمنين؟ اليس هو بالذات الذي استضاف المؤتمر اليهودي الاسرائيلي في بلده، واشترك فيه نواب ما زالت اصواتهم تتعالى في ساحة «الحرم المقدسي»، وما زالت اصواتهم تتعالى بضرورة قيام اسرائيل الكبرى من النيل الى الفرات؟

أنا أرجو ان يكون «أمير المؤمنين» ـ ملك المغرب قد اطلع على المقال المنشور في صحيفة «النيويورك تايمز» الاميركية يوم السبت في التاسع من يونيو ١٩٨٤ عن «القدس. . . والضفة الغربية. . وسياسة الضم والتوسع». . وان تكون أنظار جلالته الكريمة قد وقعت على الفقرة التالية من المقال، والذي كتبه مؤلف أميركي

مشهور اسمه «جوفري أرنسون» ـ ومن عادة النيويورك تايمز ان تختار كتابها ومعلقيها ـ قال فيها بالحرف الواحد:

«. . . وعلى عكس وجودها في لبنان، فان احتلال اسرائيل للاراضي العربية في الضفة الغربية وفي القدس لم يعد يراه الناس أمرا غير طبيعي، أو بالشيء الذي يتسم بالعدوان! لقد اصبحت حدود القدس الحالية تقع بين مدينتي رام الله وبيت لحم، أي ما يشكل ثلث الضفة الغربية، وهذه الحدود أصبحت جزء لا يتجزأ من دولة اسرائيل. ورغم ان بقية الاراضي في قلب الضفة والقطاع ليست في مثل هذه الحال الا ان سياسة خلق الامر الواقع قد اصبحت تتسم بالاستمرارية وأن دروس الامس تؤكد بأن هذه الاراضي سيكون مصيرها الضم قبل وقت ليس ببعيد. !»

ثم يقول المؤلف في الصحيفة المذكورة:

«. . . ان خصوم سياسة «الضم» لا يملكون القدرة او التصميم على احتواء هذه السياسة. لقد فشل الفلسطينيون ـ وليسمع من له أذنان للسمع ـ كما فشل العالم العربي والاسلامي ـ وليسمع جلالة أمير المؤمنين ـ في اقناع اسرائيل بان سياسة التوسع والضم هي سياسة باهظة التكاليف على مستوى المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاخلاقية. وهكذا اصبح العدد القليل من اليهود الاسرائيليين الذين يعارضون التوسع والضم متهمين بالاستسلام والتخاذل وما هو اشد وأدهى . . »

ثم ينهي كلامه في مقاله الطويل قائلا:

«. . ومنذ التوقيع على اتفاقية كامب دايفيد في ايلول ـ سبتمبر ١٩٧٨ بدأت حكومة اسرائيل في خلق الاسس التي سيقوم عليها مستقبل المليون عربي من سكان «القدس» والضفة والقطاع، واستمرار حياتهم كمواطنين من الدرجة «الثانية» !

. . وفي كل يوم تقريبا، تصدر القوانين الرسمية والشرعية التي تتضمن استمرار السيطرة الاسرائيلية على الاقلية العربية هناك بلا خلل ولا انقطاع. . وتحقق من خلال الضم، وحدة اسرائيل الجغرافية من البحر الى النهر. . والصراع السياسي حاليا محصور ضمن حدود اسرائيل «الكبرى» الحالية. . وهو صراع يبدو جليا ان شعب فلسطين لن يكون الطرف المنتصر فيه رغم ان النصر الذي سيفوز به

«التوسعيون» اليهود سيكون على حساب ضياع التقاليد الديمقراطية اليهودية . !!»

وألف «طظ» يا تقاليد ويا ديمقراطية! وألف عزاء للمليار مسلم الذين التمسوا السلامة والدعة والرخاء، ووقفوا يتفرجون على مسجدهم الاقصى وعلى بلدهم الذي يضم صفوة تاريخهم منذ الف وخمسمائة سنة حتى اليوم، وهي تضيع تحت أقدام الطغاة فانصرفوا عن الجهاد ضد العدو الى الجهاد ضد البوليساريو والجزائر وليبيا بدلا من محاربة اليهود، ومحالفة «بن عمار» بدلا من ان يحالف «ابو عمار». . !

* * *

ومثل امير المؤمنين في المغرب، كان «جهاد» آية الله في طهران!. وباسم الثورات وتصدير الثورات، سيرمي آية الله جميع دول المنطقة في احضان اميركا او السوفيات للدفاع عن نفسها ضد ثورته وجنونه! كنا الى الامس ننادي بالحياد الايجابي، وبعدم الانحياز! كنا نرفض ان تتدخل الدول الكبرى في شؤوننا وأمننا! كنا نرفض منح القواعد للاجنبي! كنا نقاوم تدويل قضايانا أو «بلقنة» مشاكلنا! ولكن ـ والفضل لثورة ايران ـ ستتقسم المنطقة بين اميركا والسوفيات، وستعود اميركا الى قواعدها التي نسفها وعمل على تصفيتها جمال عبد الناصر، وسيصبح الشرق الاوسط جزءا من الحرب الباردة بين الدولتين العملاقين، وسنخضع للعبة «الدومينو» الشهيرة التي يتحدث عنها هنري كيسنجر، وسيضيع العداء العربي الاسرائيلي، ومعه الحق العربي في فلسطين تحت امواج العداء العربي الفارسي والحرب الايرانية العراقية!

هل هذا كله من الاسلام في شيء. ؟

آيات الله كلهم في ايران لم يحركوا ساكنا بينما المصلين المقدسيين في ساحة «الحرم الشريف» يذبحون كالنعاج بيد المتعصبين اليهود في القدس، ولم يحركوا ساكنا والمسلم الهندي يذبح كالنعجة بيد الهندي «السك» في مدينة بومباي وفي «البنجاب». . ولم يحركوا ساكنا والمسلم «الفلبيني» يذبح كالخروف بيد الفلبيني الحاكم. . ولم يحركوا ساكنا والمسلم «النيجيري» يذبح كالدجاجة بيد النيجيري المتسلط. ولكن آيات الله تحركوا كلهم للتصدي للسعودية والكويت، البلدين المسلمين العربيين الشقيقين المتجاورين، لأنهما وقفا مع العراق، أو لأنهما تمسكا

بسيادتهما واستقلالهما، او لأنهما أصرا على مبدأ الدفاع عن أجوائهما الاقليمية في البحر وفي الماء، أو لأنهما يريدان ان تبقى مياه الخليج حرة وآمنة وسالكة. !

سمعت صديقي الدبلوماسي وهو يطلبني لكي يقول لي بالتليفون من واشنطن:

● هل قرأت الهجوم الصهيوني المسعور على السعودية في الصحف والتلفزيون الاميركي؟ اليس مما يدعو الى العجب العجاب أن يأتي رد الفعل الفوري على اسقاط الطائرات الايرانية بالسلاح السعودي، من اسرائيل، ومن الصهيونية العالمية المتأصلة في صحف أميركا ووسائل اعلامها، وان تكتفي ايران بالاحتجاج بينما تتواصل أجهزة اعلام اسرائيل في نيويورك وواشنطن ولوس انجلوس، هجومها وشتائمها ضد السعودية لانها تجرأت.. وأسقطت لايران طائراتها.. وأثبتت أن لدى السعودية «سلاح طيران» قادر عند الضرورة على ان يخوض المعركة، ويدفع الخطر، وينتصر؟!»

ثم اضاف:

ـ هذه مجرد صورة عابرة من صور التحالف الاستراتيجي بين ايران «الشقيقة» المسلمة، وبين اسرائيل العدو الاكبر، والذي لم يبق محصورا في نطاق مد ايران بالسلاح المطلوب لاستمرار الحرب ضد العراق، وانما تعدى السلاح الى ميادين الاعلام والتخطيط السياسي.»

سألته وكأني استعيد كلامه:

ـ هل قلت التخطيط السياسي؟

● اجابني الدبلوماسي الصديق الذي يزن كلماته بميزان الذهب:

ـ واذا ـ لا قدر الله ـ ووقع عدوان ايراني جديد على الكويت، فلا تقولوا ان ايران هي التي اعتدت، بل قولوا ان هذا العدوان قد جاء نتيجة ضغط صهيوني «اميركي» اسرائيلي مثلث، ومنظم، وعنيف على ايران لكي تضرب الكويت..»

سألته: ولماذا الكويت؟

● واجابني وما زال كلامه محفوفا بالحذر:

ـ السفارة السوفياتية الوحيدة في دنيا الخليج هي .. في الكويت! وأكبر جالية فلسطينية في الخليج، هي في .. الكويت. وأكثر الصحف حرية ونفوذا وتأثيرا في

الخليج، هي الصحف الكويتية! وأوسع نشاط دبلوماسي حر ومستقل في عالم الخليج، هو في أرض الكويت! يضاف الى ذلك، الوضع الجغرافي المحدود للكويت، واعتزاز الكويت بكيانها واستقلالها وحيادها أمر لم يعد سرا على اميركا او السوفيات او اسرائيل او ايران!»

وألف مبروك هذا التحالف الاستراتيجي المشبوه بين آيات الله، وبين اعداء الله، او بين الذين يزعمون بأنهم حماة المسجد الاقصى، والذين دنسوا المسجد وأرضه وحوله وزواره، بالعار والشنار..

ترى هل كل هذا من الاسلام أو من الايمان في شيء؟

* * *

وقبل أن يقفل صديقي الدبلوماسي في واشنطن، مخابرته التليفونية معي، في مدريد، أذكر اني سألته عن أثر اسقاط الطائرات الايرانية بالسلاح السعودي لدى الدوائر... «الاميركية» المسؤولة فأجابني:

ـ أنا أسألك أولا لماذا تضمن البيان السعودي الرسمي الذي صدر على أثر اسقاط الطائرات الايرانية بعض العبارات «الدبلوماسية» التي قد يفهمها البعض وكأنها تحمل «الاعتذار» السعودي لايران على اسقاط الطائرات، ولا تحمل الاستنكار السعودي ضد الجرأة الايرانية في اختراق الاجواء السعودية والاعتداء على البواخر البترولية داخل المياه السعودية/الاقليمية؟ لماذا الرقة مع الذي يعتدي عليك؟؟ لماذا الدبلوماسية مع الموت او الحرب؟ لماذا الحديث عن الجوار والمحبة والاخوة والسلام، مع من أنكر عليك حبك وأخوتك وسلامك وحسن جوارك؟! لماذا؟»

وبعد...

ان اجمل ما في الوجود ان يتكاثر عدد المسلمين مع مطلع كل شمس وأن عدد «المليار مسلم» في عام ١٩٩٠ سيتضاعف ـ باذن الله ـ مع منتصف القرن القادم.!

● ولكن:

ـ أين هم ابناء «المليار» مسلم.! أين إيمانهم في بعضهم، واين ثقتهم في ارضهم، وأين حماسهم للدفاع عن اخوتهم، وأين نخوتهم للذود عن معالم دينهم،

وأين معرفتهم بأصول الدين وحقائق الدنيا . . ؟

اين تآخيهم ومحبتهم وطاعتهم لربهم في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . . وفي الجهاد والاستشهاد . . وفي طلب الموت لكي يضمنون الحياة . . وفي التقرب الى الله بالخلق الحسن ، والطاعة المؤمنة ، والصلاة القائمة ، والاحسان ، والتمسك بالحرية والكرامة؟

قد أجد نفسي مدفوعا بأحساس خاص أن اقول ما يلي :

● لقد قضيت منذ عام ٨٤ خمسة شهور في عالم اقطار أسيا ، من الباكستان الى ماليزيا ، ومن أندونيسيا الى «بروناي» ، ومن الفلبين الى اليابان ، واستطيع ان اقول بانني وجدت هناك الملايين من المسلمين ولكنني لم أعثر الا على القليل القليل من الاسلام الصحيح ومن المسلمين الحقيقيين . !

كان الاسلام في بدء نشأة الباكستان ، خير ألف مرة منه الآن! كان محمد علي جناح ، ومن بعده رؤساء الباكستان ، يتعاطفون مع القضايا الاسلامية بروح صادقة وقلب مفتوح وبذل وعطاء! كانوا رغم فقرهم اغنياء ورغم بعدهم عنا ، أقرباء ، كانوا يتحدثون عن أسم «القدس» بعبارات التهليل والقداسة والحب والعزيمة .

ولا اريد أن أعيد كل ما سمعته بنفسي منِ ضياء الحق عن بلدي ! ولكنني اريد ان اقول ما يلي :

ان استغلال الاسلام ، دينا وسياسة وشريعة ، في دنيا الباكستان من اجل غايات مادية ، هو مجرد جريمة كبرى ، تماما كموقف السيد السند «النميري» رئيس السودان السابق في تمسحه بالشريعة وتغنيه بالاسلام جريا وراء قروض أو هبات يحل بها مشاكله الاقتصادية في بلده . !

ان الاسلام براء من كل ذلك . .

لقد شعر السيد «النميري» بالفخر لانه أمر بجلد أسقف من رجال الدين المسيحي لانه ضبط وفي حوزته زجاجة خمر! ولكنني لم أشارك السيد النميري زهوه ولا سعادته! لان فعلته المذكورة ضد رجل الدين المسيحي قد أساءت الى المسلمين كلهم ، وصورتهم بمظهر التعصب والجهل والتطرف والقسوة وعدم احترام الاديان الاخرى! كما أن عملية السيد النميري قد أقامت علينا الدنيا في صحف الفاتيكان

واذاعاته فاستغلها اليهود، ومضوا يدقون على النغم المعروف اياه، بأن العرب والمسلمين مجرد وحوش بربرية تقطن مجاهل افريقيا وتحارب التسامح وتفتقر الى أبسط معاني الحضارة.. والمدنية..!

ان الاسلام بخير سواء جاء الى السودان أسقف مسيحي وبيده أو في شنطته زجاجة خمر، ام لا.

ما زاد «حنون» في الاسلام خردلة

ولا النصارى لهم شأن بحنون!

● والاسلام بخير سواء أعلن ضياء الحق الباكستاني انه سيطبق ما يسميه نظام الديمقراطية الاسلامية التي لا يأخذ منها سوى اطاعة اولي الأمر. أم لا ولكن الاسلام يئن ويشكو ويتألم ويستغيث اذا بقي المسجد الأقصى -أولى القبلتين وثالث الحرمين- اسيرا معذبا ومدنسا ومعزولا وبعيدا... وجريحا!

... وتستمر تصريحات آيات الله تتوالى على مسامع الجنود الايرانيين تحثهم على الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة ضد العراق والتي ستنهي هذه الحرب بانتصار ايران.!»

... وتقوم اسرائيل ومصانعها الحربية باجراء التعديلات المطلوبة على كل ما يملكه الجيش الاسرائيلي من دبابات بريطانية طراز «سنتوريون» مع اضافة مميزات دبابات من طراز «ماركافا» الاسرائيلية عليها، ثم شحنها الى ... ايران الثورية..! المسلمة! الشقيقة! الصديقة؟!

الله.. الله!

وآيات الله يتناقشون ويتباحثون هل تكون ضربتهم القادمة فوق البحرين أم فوق الكويت؟!!

و «الخميني» يناقش مستشاريه: هل يطالب بالتعويضات ويشكو الى محكمة العدل الدولية ويقبض المليارات وينهي الحرب، أم يستمر في القتال وفي بلده أربعة ملايين لاجىء من الحرب، ونسبة البطالة ثلاثين في المائة والتضخم «٢٥٠» في المائة، والصناعة مع الزراعة مع التجارة الخارجية قد وصلت كلها الى درجة.. الصفر!!؟

قال صاحبي :

ـ ولكن أيران، سواء كانت ثورية ام ملكية، تبقى قطاعا هائلا من الأمة الاسلامية . . أليس كذلك؟

وأجبته :

ـ على انقاض الكثير من الامبراطوريات والممالك، قامت الامبراطورية العربية . . . الاسلامية لكي تمتد من اسبانيا الى بلاد السند! وبينما كانت الامبراطورية البيزنطية تعيش على الاسس الاقطاعية وتستمد حياتها من المزروعات، جاءت الامبراطورية الاسلامية كي توحد الشرق الادنى، مع الامبراطورية الفارسية، تحت ادارة عربية قوية، وغنية، واحدة! وفي عام ٨٣٠ ميلادية اصبحت «صقيلية» احدى العواصم العربية ومنها وحولها اطلق العرب مشاعل حضارتهم وفلسفتهم وعلومهم الى الدنيا الواسعة! وكان جامع «بالرمو» في صقيلية يتسع لثمانية آلاف مصلي! وكان في المدينة وحدها اكثر من ثلاثمائة جامع! وبقي العرب في صقيلية أكثر من مائتين وخمسين سنة!

وانا احدثك الآن من مدريد! وعلى بعد اميال قليلة منا تقع طليطله. وعلى مسافة ليست ببعيدة تبدأ حدود «الاندلس» المفقود الغالي! هل تعرف قصة الاندلس؟! هل جاءك خبر «ملوك الطوائف»؟ . هل قرأت قصة ثورة «الزيردين» في تونس على ملوكهم في «مصر» الذين شغلوا بمصارعة خصومهم من خلفاء «المسلمين» في بغداد عام ١٠٤٠ للميلاد؟ هل سمعت عن قصة قبيلتي : بني سليم وبني هلال وما فعلاه من خراب ودمار في شمال افريقيا ضد اخوانهم المسلمين . ؟ مع ألف قصة وألف معركة وألف صراع! فماذا كانت النتيجة؟ سقطت «صقيلية» بيد النورمان، وسقطت «الاندلس» للاسبان، وأنحسر المد الاسلامي عن معظم دول شرقي أوروبا والبحر المتوسط، وشهدت أرض الاندلس ألف مذبحة وألف مجزرة في ألف سجن ومعتقل ضد نساء المسلمين وأطفالهم وشيوخهم؟

● في هذا الهول البشري أو النكبة الكبرى التي حلت بالمسلمين وممالكهم وحضارتهم وأهلهم، قال الشاعر الاندلسي في تلك الأيام :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ان كان في القلب اسلام وايمان!

قل يا صديقي :
- هل عندك شاعر معاصر يصف لنا حال المسلمين في هذه الايام؟!

● **وفي شهر يناير من عام ١٩٨٤ ، قرر المسلمون في الدار البيضاء اعادة جمهورية مصر العربية الى منظمة المؤتمر الاسلامي .**

وقال المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها :
- وبقي ان يعيد المسلمون - مع مصر - مدينة القدس الى . . المسلمين!
وقال المسلمون أيضا :

لقد فرحنا كثيرا لأن منظمة المؤتمر الاسلامي برعاية ملك المغرب قد ادت واجبها المنتظر وتجاوبت مع آمال المسلمين وفتحت صدور تسعمائة مليون مسلم لاحتضان الاربعين مليون مصري، وبقي ان تؤدي مصر المسلمة واجبها التاريخي الملقى على اكتافها وتتحرر من قيود كامب دايفيد لكي تقدر ان تحرر - مع المسلمين - أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين!

ليست عضوية مصر في منظمة المؤتمر الاسلامي هي أساس مسؤوليتها تجاه القدس! وليست هذه العضوية هي مقياس ارادة مصر، أو سلاحها، أو مدى صحة ايمانها بالعمل الوطني والجهاد السليم لخدمة الاسلام والمسلمين! ان العضوية المذكورة لا قيمة لها باتجاه الارادة والايمان. ونحن مع مصر - وبلا حدود - ما دامت مصر تؤمن بأن الاسلام يبقى جريحا بدون القدس وأن الايمان يستمر في النزف ما دام «الاقصى» يئن تحت نير الاحتلال! وسواء سعدت مصر بعضوية المؤتمر ام لم تسعد، فاننا نؤمن بان هذه العضوية مجرد وسيلة الى غاية، وأن الغاية هي خدمة الاسلام والمسلمين، وان قيمة الوسيلة تتضاءل بجانب خدمة الهدف، وان الاكتفاء بالهدف دون الوسيلة هو فخر كبير!

وليست عضوية منظمة المؤتمر الاسلامي شهادة كهنوتية أو صك غفران! ولا تعني الفرحة بها ان مصر كانت غير مسلمة فأصبحت اليوم، مسلمة. . او ان مصر كانت في «الجاهلية» فدخلت - بفضل العضوية - الى دنيا الاسلام! ان مآخذ المسلمين على مصر الرسمية بعد توقيعها على اتفاقية كامب دايفيد، ليست - لا سمح الله ولا قدر - أن مصر قد خرجت عن دينها، وانما مآخذ المسلمين في مصر

بعد كامب دايفيد، ان مصر قد ارتضت ان تقيد نفسها بالاغلال التي قد تمنعها او تحول ما بينها وبين تأدية دورها المطلوب كدولة مسلمة، في خدمة الاسلام والمسلمين!

يعني: هذه العضوية، تبقى في قيمتها الحقيقية مجرد مظهر لا جوهر، ومجرد اسلوب لا هدف، ومجرد وسيلة لا غاية، ومجرد سلاح للمعركة، وليست المعركة ذاتها!

● ويعني أيضا: ان العبرة في العمل وليست العبرة في الشكليات. وان السعي لخدمة البلد الذي «تشتد اليه الرحال» لا يحتاج الى جواز سفر ولا يحتاج الى اذن ولا يحتاج الى عضوية مؤتمر ولا يحتاج الى قرارات من أحد! ان قرار «الخلاص» يأتي من عند الله لا من عند المؤتمر! وان فضل الجهاد تمنحه السماء ولا يمنحه البشر! وان دخول التاريخ أو اعادة كتابته، أو صنعه، او خلقه، هو قدر الخالدين وليس مجرد ضربات.. القدر!

من هنا، تبقى مصر، هي الاهم، وتبقى عضوية مصر في أية هيئة او مؤتمر أو منظمة هي الاقل اهمية. بل من هنا: تبقى سياسة مصر هي الموضوع، ويبقى كل ما سواها، مجرد هوامش!

وقبل ان تعلن منظمة المؤتمر الاسلامي قرارها بعودة مصر الى المنظمة ـ وبحضور ٢٥ ملكا ورئيس دولة و١٥ وزيرا وكبيرا ومسؤولا ـ بادر اسامة الباز وكيل وزارة الخارجية المصرية بابلاغ ملوك المسلمين ورؤسائهم بأن مصر لن تقبل الشروط مقابل عودتها الى المنظمة.!

وقلنا: عال. ولعل وكيل الخارجية قد رأى من حقه ان لا يراعي اصول البروتوكول وان يتجاهل قوانين الدبلوماسية وان يخاطب ـ وحده ـ جميع ملوك المسلمين ورؤساء جمهورياتهم.

مرة اخرى: لا بأس.

ولكن السيد أسامة الباز رأى أن من حقه ان يستمر في اللعبة وان يدلي بتصريح لجريدة النيويورك تايمز الاميركية يحدد فيه «جميع» معالم العمل السياسي المشترك بين مصر من جهة، والاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية من جهة اخرى وان لا يكتفي

باعلان موعد اجتماع هذه الدول الثلاث للاتفاق على موقف جديد بشأن ـ ما أسماه ـ بالمفاوضات حول ـ ما اسماه ـ بالاراضي ـ التي تحتلها اسرائيل فحسب، وانما تفضل سيادته وأعلن سلفا نوعية مثل هذه المفاوضات واهدافها فقال عنها ـ حرفيا ـ «تستهدف توسيع جدول الاعمال الذي يمكن عقد مفاوضات بموجبه مع . . مع من؟ مع اسرائيل»!

من هنا يبدأ الخطأ . .

ومن هنا، تظهر معالم التعالي في القول، والغرور في الكلام، والانفراد في القرار، والاستهانة بالآخرين!

● فلا قضية فلسطين تحت امرة اسامة الباز، ولا الاردن يخضع لمشورة اسامة الباز في اختيار الوقت المناسب لدعوة اسرائيل ـ اذا دعيت ـ للتشاور والتفاوض، ولا الرئيس ريغان موظف في مكتب اسامة الباز لكي يوافق على تحديده لنوعية المساهمة الاميركية في المفاوضات او لكي يكفي بان «يتحدث» الى الفلسطينيين دون ان «يتفاوض» معهم او يعترف بمنظمتهم . . !

بل لعل سيادة المستشار المذكور قادر على ان يدرك ـ وبالضبط ـ قيمة كلامه المنشور في صحيفة النيويورك تايمز، ومدى القدرة على تحقيق هذا الكلام، لو تفضل سيادته وقرأ بقية السطور المنشورة مع حديثه لوجدها تقول: «ان الدبلوماسية المصرية تعرف تماما ان الاحتمالات ضئيلة جدا حول اشراك الادارة الاميركية في اية مفاوضات مشتركة بين مصر والاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية للوصول الى «صيغة تسوية» تتضمن شيئا من مقررات قمة «فاس»، وشيئا من مقترحات ريغان، وشيئا من المشروع الفرنسي المصري المقدم للامم المتحدة.» ثم يقول « . . ولكن لاسباب داخلية محضة ليس امام مصر والاردن سوى الحصول على المساهمة الاميركية في المباحثات خوفا من انتشار القوى الاسلامية المتطرفة في انحاء المنطقة . .»

يعني ـ والكلام للجريدة و التفسير من عندنا ـ أن كلام أسامة الباز عن اية وساطة او اشتراك اميركي في البحث عن صيغة جديدة للسلام في الشرق الاوسط، هو مجرد . . كلام ولا يستند الى ظل من القدرة على التنفيذ!

لماذا اذن يكون الحرص على الكلام الفارغ والاحلام الساذجة مع الحرص على

ترديده عبارة: « الحكم الذاتي » بمناسبة وبدون مناسبة؟

أخشى ان يكون السبب هو تبرير اتفاقية كامب دايفيد، وليس البحث عن الغائها أو استبدالها او فضح جرائمها! واخشى ان يكون الهدف، تبرئة الماضي، وليس خدمة المستقبل! اي: الترحم على السادات، وليس انقاذ القدس!

●وأخشى ان يكون العلاج، باقناع العرب ان ليس بالامكان افضل مما كان. . . ـ أي كامب دايفيد وامريكا والحكم البلدي الاهلي المحلي الذاتي ـ وليس بالدولة، ولا بالجلاء، ولا بالحرية، ولا بعودة الارض الى اهلها وعودة الاهل الى ارضهم!

وما هكذا يا سعد ـ أو يا أسامة ـ تورد الابل!

وبقدر ما نشعر بأن السيد مستشار الرئيس المصري، يتعمد الانفراد بالرأي، ثم فرض مثل هذا الرأي علينا مع حرصه على ان يفرغ الرأي من جوهره، ويضمنه الكثير من الغموض، والفراغ، واللاشيء، كذلك نشعر بان بعض اخواننا واحبابنا من رجال منظمة التحرير الفلسطينية ـ يساهم بدوره ومن دون قصد ـ مع السيد الباز في توزيع الاحاديث الصحفية ونشر الآراء السياسية وكتابة المقالات المتتابعة التي لم تزدنا ـ افادكم الله ـ الا حيرة وقلقا واكتئابا!

● يقول ـ مثلا ـ «فلان»، ـ ودعونا من ذكر الاسماء ـ في صحيفة اخبار اليوم القاهرية ان مقاطعة منظمة التحرير الفلسطينية لمصر طيلة ست سنوات مضت بسبب سلام مصر مع اسرائيل كان ـ كان ماذا؟ ـ كانت غلطة تاريخية!!

ونسي هذا «الفلان» ان العرب كلهم وليست منظمة التحرير وحدها هم الذين قرروا المقاطعة في مؤتمر قمة بغداد! كما نسي هذا الفلان ان وفد المنظمة في مؤتمر قمة بغداد، المشار اليه، كان اكثر الوفود العربية الحاحا وتطرفا واصرارا على مقاطعة مصر بسبب سلام الاستسلام مع العدو لان الوفد أعتبر سلام مصر المذكور هدرا للقضية الفلسطينية وتفتيتا لها وضياعا للحق الفلسطيني وضربة للصف العربي واستهتارا بالمقدسات وعزل مصر عن واجباتها القومية وركوعا أمام الجبروت الاميركي والصلف الصهيوني!!

● ترى، هل تراجع هذا الفلان عن كل هذه المعاني وانقلبت أمامه الاوضاع وأصبح السلام الاستسلامي واجبا وطنيا واصبح كل من يعارض هذا النوع من

السلام، مخطئا ـ تاريخيا ـ في حق نفسه، وحق وطنه، وحق أمته؟!

كنت أسأل ومعي كل مسلم يسأل:

ـ هل المقصود في غمرة ما كان يدور من احاديث وتصريحات واذاعات وبيانات، ان ندافع عن فلسطين، ام ندافع عن زيارة ياسر عرفات الى حسني مبارك؟؟ أعني: هل كنا في غمرة الدفاع عن هذه الزيارة، قد أوشكنا ان نترحم على انور السادات وان نطالب باقامة حفل تأبيني جيد له نعيد به «للراحل» المذكور كرامته، ونستغفر التاريخ عن اساءتنا له في حياته؟!

ما هذا الكلام «المسؤول» الذي اصبحنا نسمعه في تلك الايام من اقطاب المنظمة؟.

بل ما هذا التضارب المؤسف والمستمر بين ما يقوله «فلان»، وما يقوله «علان»، او بين ما يصرح به سيادة عضو اللجنة المركزية في تونس، وما يصرح به المسؤول الاعلامي أو الاداري أو العسكري في عمان. . مثلا!

في القاهرة، يؤكد مسؤول المنظمة أن منظمته تريد الانضمام الى محادثات السلام «لكيان مستقل». وفي عمان يقول مسؤول آخر أن المنظمة قد رتبت العلاقات مع الاردن بصورة تضمن «التعاون الاستراتيجي»! وفي أبو ظبي يكشف «فلان» ان المنظمة اتصلت سرا مع مصر منذ «مارس» من العام الماضي! ويرد عليه قطب فلسطيني في اليوم التالي قائلا أن « كامب دايفيد هي العقبة في طريق اعادة العلاقة مع مصر»! كيف اذن تمت الاتصالات رغم القناعات بان مصر باقية في كامب دايفيد أو أن كامب دايفيد باقية في مصر؟ واحد من اثنين: اما ان «المنظمة» قد قررت ان تعيد النظر في موقفها من كامب دايفيد، واما أن مصر قد قررت ان تفعل ذلك! وما دامت مصر ما زالت تصر بأنها متمسكة، حتى الرمق الاخير باتفاقية كامب دايفيد فلا مفر من ان نفهم « اذن « ان المنظمة هي التي ستتولى معالجة مهمة التكفير عن موقفها السابق من هذه الاتفاقية! ترى هل في مثل هذا التفسير ما يرضي الضمير، أو الحق، الفلسطيني، أو الاسلام أو حكم التاريخ أو إعادة القدس!

كان المطلوب من اخواننا واحبابنا في منظمة التحرير الفلسطينية، ـ الاتفاق فيما بينهم ـ لا على معالجة قضايا المعارضين أو المنشقين في طرابلس والبقاع فحسب ـ بل

الآتفاق فيما بين سائر الموالين والمؤيدين والمناصرين للسيد «ابو عمار» ايضا بحيث لا نقرأ على ألسنة بعضهم في الكويت ما يتضارب مباشرة مع ما يقوله بعضهم في تونس ولا ينسف ما يقوله البعض في ابو ظبي كل ما سبق وقاله القطب «ابو فلان» أو القطب «ابو علان» في جدة أو دمشق! هذه البلبلة لا تفيد احدا ولا تطمئن احدا ولا تخدم احدا وانما تزيد من القلق، وتدفن البقية من الثقة التي ما زال يحملها الشعب الفلسطيني لاخوانه واصدقائه . . . ومنظمته!

ونعود ونقول:

ـ ان عودة مصر الى منظمة المؤتمر الاسلامي ليست غاية في حد ذاتها انما هي مجرد وسيلة تؤدي الى الهدف!

وقد تساءل الملايين من العرب والمسلمين في مختلف الاقطار العربية والاسلامية بعد صدور قرار المؤتمر بعودة مصر الى عضويته، وبلهجة تكاد تكون واحدة:

ـ اي مصر التي نتمنى عودتها الى العرب والمسلمين؟

وايضا:

هل هي مصر الضعيفة التي ستعود ام هي مصر القوية؟

وايضا:

هل هي مصر المتحررة من كامب دايفيد، ام هي مصر الوفية لكامب دايفيد؟

وايضا:

- هل هي مصر العربية المسلمة المؤمنة بدورها القومي التاريخي التقليدي في التصدي لكل قضية عربية ومعالجتها وإداء الواجب تجاهها- وعلى رأس هذه القضايا . قضية فلسطين ، ام هي مصر المصرية التي يعتقد بعض حكامها وبعض المسؤولين الاعلاميين والسياسيين فيها ، بانها -اي مصر- قد سبق لها ودفعت كل ما عليها للعرب وللعروبة ، وأن المسألة قد وصلت الى حدها النهائي وأن على مصر بعد اليوم الالتفاف الى نفسها وتطورها ومصالحها ؟

أنا اسأل:

ـ لماذا نطالب اليوم بانهاء الحرب العراقية الايرانية؟

والجواب: لكي نوفر امكانيات العراق وامكانيات الثورة الايرانية لمحاربة

اسرائيل وأستعادة القدس عربية حرّة. . !

أنا اسأل:

- لماذا نطالب بضرورة تسليح جيش الاردن بأحدث أنواع الاسلحة الاميركية والسوفياتية؟

والجواب: لكي نضمن قدرة الاردن على المساهمة الفعالة في أية حرب قادمة ضد اسرائيل تستطيع معها ان نحرر الأقصى . !

أنا اسأل:

- لماذا تصر السعودية على شراء الجديد والمزيد من الاسلحة والصواريخ والطائرات، وتدفع البلايين من الدولارات ثمنا لهذه الاسلحة؟

والجواب: لان السعودية قد اصبحت بعد ١٩٦٧ من دول المواجهة ضد اسرائيل ! والسعودية ملزمة باستعادة المقدسات !

انا اسأل:

- لماذا قاومنا ورفضنا اتفاقية مايو بين لبنان واسرائيل؟

والجواب: لان في تنفيذ هذه الاتفاقية ما يعطي اسرائيل عمقا جويا وجغرافيا وسياسيا واستراتيجيا واقتصاديا داخل أرض الوطن العربي تهدد به سوريا والدول المجاورة.

● ومن هذه الزاوية، ولاجل هذه الاسباب كلها، طالبنا بعودة مصر الى العرب والمسلمين شريطة ان تكون مصر العائدة الينا، هي مصر التي نحبها ونتمناها ونمشي وراءها! اي مصر: القوية، العربية، والمجاهدة، والحرة، والثورية والمتعطشة لتحرير «القدس» والمسجد الحزين من انياب اعداء الله واعداء الشعوب! قلنا هذا، وننكر او نتنكر، لكل ما قام به الرئيس المصري من «خدمات» سياسية او دبلوماسية خلال الازمة اللبنانية مع اسرائيل، او الازمة الفلسطينية مع لبنان، او الازمة الفلسطينية مع. . بعض الفلسطينيين ومع سوريا بالذات!

وقلنا هذا، كذلك، ولم ننكر او نتنكر «للجميل» الذي اسداه الرئيس المصري في اصدار أوامره لقوات مصر البحرية بضرورة مواكبة سفن الفلسطينيين النازحين عن طرابلس في طريقهم الى اليمن.

ولكن القضية يا سيدي، ليست مجرد حراسة اشخاص، وانما هي انقاذ شعب.
اي: القضية ليست في تأمين سلامة القائد وانما في تحرير أمة بأسرها.

قد سمعنا من يسأل ويتساءل: «وماذا على مصر الرسمية ان تفعل في الميدان الدبلوماسي او السياسي لكي تتجاوب مع قرار المؤتمر الاسلامي بعودتها المباركة؟!»
وأجبنا:

● ان اميركا ـ وبلسان مندوبة اميركا السابقة في مجلس الامن الدولي السيدة كيرك باتريك ـ قد اعلنت انها ترفض تماما دعوة السكرتير العام للامم المتحدة حول عقد مؤتمر «دولي» لبحث القضية والوصول الى الحل الشامل، بحجة ان هذه الدعوة ـ حسب الرأي الاميركي ـ ضارة وتعرقل مسيرة السلام!

ألم يكن لدى مصر كلمة تقولها لاميركا ـ الحليفة ـ حول هذا الموضوع؟!

● وكذلك: ان اسرائيل ـ بلسان اسحق شامير ـ تصر على انها لن تعترف بمنظمة التحرير، ولن تتفاوض معها ـ لا مباشرة ولا غير مباشرة ـ وان لا طريق ولا وسيلة ولا امن ولا سلام ولا تفاوض ولا حياة، لقضية الشرق الاوسط، الا عن طريق كامب دايفيد، ومن خلال كامب دايفيد، وعلى اساس كامب دايفيد، وضمن اطار كامب دايفيد..!!

هذه الـ «كامب دايفيد» التي اصبحت كتابا مقدسا في القاموس الدولي، وخاصة في قاموس الشرق الاوسط، من هو المسؤول عن حاضرها، وعن ماضيها، وعن مصيرها؟ من الذي خلقها ومن الذي يتمسك بها، ويعلن المرة تلو المرة ان بلده «لا تفكر بالتنازل عن كامب دايفيد أو الغائها او التنكر لها..»؟! من القادر على ان يهز كيانها ويثبت فسادها ويعلن احتضارها وموتها؟. اليس هم اصحاب الشأن بالذات؟ اليست هي مصر بالذات.. بالتحديد؟ اليس هو حسني مبارك خليفة بطل كامب دايفيد.. بالحصر؟!

● ان الهر «كول» مستشار المانية الغربية قال في يناير ١٩٨٤ خلال زيارته الاخيرة لاسرائيل كلاما يدل على انه اكثر جرأة وأكثر رجولة من بعض الزعماء العرب! ان مستشار المانيا أعلن ان حل القضية يجب ان يمر من خلال قرارات مؤتمر «البندقية» لعام ١٩٨٠! اي: عودة الضفة وتقرير حق المصير للفلسطينيين!

وليس بالسر ان هناك صداقة ومودة تربط مصر الى المانيا الغربية، وان الحليف الاميركي، هو الصديق الاول لكل من بون والقاهرة. . وان لالمانيا الغربية - وخاصة في الايام المليئة بألوان الحرب الباردة بين الشرق والغرب - كلمة مدوية ومسموعة في الامور الدولية. .

ترى الم يكن على حسني مبارك الحريص على العودة الى العرب والمسلمين ان يقول كلمة يعلق بها على كلام صديقه المستشار الالماني ؟ الم يكن عليه ان يتحرك ، ويتشاور ج ويزور ، وينسق ويخطط لكي يعرف العالم ان مصر ، ومصر بالذات -ترى ان قرار- قمة البندقية- مع قرارات «فاس» مع «مبادرات ريغان» ، مع قرارات المؤتمر الاسلامي في الطائف والدار البيضاء ، مع القرارات الدولية المعروفة ، والقرارات العربية المعروفة ، هي وحدها الاساس الصحيح لتحقيق السلام العادل في منطقة الشرق الأوسط ؟

هل هناك ضرورة للشرح؟

هل من حاجة للتذكير بما جرى للغرب والشرق معا بسبب ما جرى لشاه ايران ولحكام طهران الهامايونية الشاهنشاهية؟ هل نعود ونكرر الحديث عن صور «المنصة» اياها، في ذلك اليوم الرهيب أمام العرض العسكري في صحراء مصر الجديدة؟

لقد قلنا لرئيس مصر:

ان الذكاء ان تسبق العاصفة قبل ان تهب! واذا هبّت فان الذكاء ان تحني لها الرأس كي لا تقصف الرأس. !

والذكاء ان يعرف الحاكم ظروفه الداخلية على حقيقتها ويدرك أوضاع بلاده على الحقائق الجيوبولتيكية المحيطة به.

والذكاء ان يفهم المسؤول اين توجد الحلول المالية والاقتصادية لبلده، على المدى الطويل، والمدى البعيد؟ والذكاء يقول ان يبادر المسؤول الى اعادة النظر في سياسته التي ورثها عن السلف، اذا وجد في الامور المتطورة والاحداث المتلاحقة ما يفرض اعادة النظر. !

وقلنا لرئيس مصر الحالي ان انور السادات لو بقي حتى اليوم على قيد الحياة،

لسمعنا صوته مجلجلا من اذاعة القاهرة ، يعلن من خلال «وقفة جديدة مع صديقه» عن الغاء اتفاقية كامب دايفيد ونقضها وبطلانها ، بعد ان اثبتت كافة الاطراف الاخرى عدم التزامهم بروح هذه الاتفاقية ، ونصوصها !

ولم نقرأ في التاريخ العسكري، ان الضابط في «سلاح الاشارة»، اكثر جرأة من القائد الجوي! ولم يقل احد في فنون الحرب، ان نسور الجو هم أقل اقداما من جنود البر.

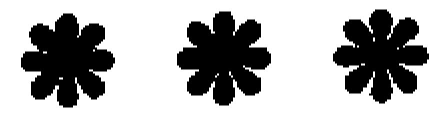
واخيرا . . قلنا لرئيس مصر:

هيا، وتوكل على الله! ان لم يكن من اجل رسالة مصر الى العرب والمسلمين فليكن من اجل كلمة شكر وتقدير وتجاوب، ترد بها مصر على قرار العرب والمسلمين بإعادة مصر الى عضوية المؤتمر الاسلامي. . !

كي يصبح هذا القرار الاسلامي، ورقة عبور الى صدور القرار العربي. . المطلوب؟!

ولا يصبح مثل هذا القرار سببا في اشتداد فرقة العرب، وانقسامهم وتشتتهم!

ما أقل حاجتي الى الشرح، وما أقل حاجتك الى سماعه،يا سيادة رئيس مصر. .



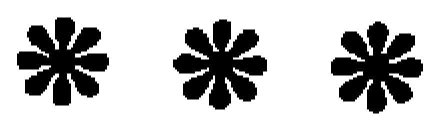
ومضت الشهور الطويلة.

ولم يسمع رئيس مصر حرفاً واحداً من هذا الكلام!

وعادت مصر الى عضوية المؤتمر الاسلامي، ولم تعد مصر الى واجبها الديني تجاه تحرير الاقصى وتحرير القدس. .

وبقي المسلمون يصرخون عند بوابات ذلك الحرم الأسير:

واإسلاماه!



الفصل الثاني والثلاثون
الخيط الرفيع بين الثائر والارهابي

● لاتجامل حيث عليك ان تقاتل، ولا تخاتل حيث يجدر بك ان تناضل. بل حارب وتوقع الحرب. واضرب او فادفع الضرب!»

مكرم عبيد باشا

● كلمات من «مواطن فلسطيني» الى ابو عمار، وتاريخها: ٦/١/١٩٨٤

● كلما سمعت العالم يتحدث عن الشعارات والمبادىء رحت اتحسس مسدسي واصافحه!»

«المارشال جورنج» - ١٩٣٨

الفصل الثاني والثلاثون
الخيط الرفيع بين الثائر والارهابي

هناك حديث طويل وشائك عما يسمى بالارهاب الدولي.

مثلا؛ لقد قرر ريغان، مؤيدا من بعض اعضاء الكونغرس، بان يعالج مثل هذا الارهاب الدولي باتباع سياسة تقول ان الهجوم هو احسن انواع سياسة الدفاع. يعني ان تبدأ اميركا في القيام بمغامرات عسكرية ضد المواقع والمنظمات والدول التي تعتقد انها تصدر الارهاب الدولي الى العالم بحجة القضاء على الارهاب واستنادا الى ضرب الارهابي قبل ان يقوم هذا الارهابي بتوجيه ضربته.

● من هم الارهابيون في الشرق الاوسط؟

لقد اجاب على هذا السؤال «موشيه ارينز» وزير دفاع اسرائيل السابق في حديثه الى شبكة تلفزيون اي. بي. سي. في واشنطن عندما قال بالحرف الواحد: «ان سوريا والعراق وايران وليبيا هي دول ارهابية. وان منظمة التحرير الفلسطينية هي منظمة ارهابية وان المنظمة المذكورة تتمتع بالحماية الديبلوماسية في بعض الدول العالمية رغم انها تمارس الارهاب وتشجعه وتحييه وان الدول العربية المذكورة اي سوريا وليبيا والعراق تستغل مكاتب سفاراتها وحقائبها الديبلوماسية لكي تمارس الارهاب الدولي، وان معمر القذافي مجرد واحد من اربعة رؤساء شرقيين في الشرق الاوسط يمارسون الارهاب، وان على العالم ـ والكلام ما زال لوزير دفاع اسرائيل السابق ـ ان يقاطع هذه الدول ويسحب اعترافه منها ما لم تتعهد كل منها بان تكف

عن ممارسة الارهاب باية صورة من الصور ».. !

ثم قال موشيه ارينز اخطر واقدر وزير دفاع لاسرائيل حرفيا:

ـ لقد اثبت العراق باستعماله الحرب الكيماوية ضد ايران ان اسرائيل كانت على حق في عملية ضرب المفاعل الذري لانها ـ اي اسرائيل ـ لو تركت العراق ينتج القنبلة الذرية لما تردد العراق في استعمال هذه القنبلة في حربه ضد ايران وما يتبع ذلك من تهديد سلامة الامن في بقية انحاء العالم!»

قيل للوزير الاسرائيلي في تلك المقابلة التلفزيونية:

● هل صحيح ان اميركا قد منعت السادات بالماضي من ضرب القذافي والقضاء عليه؟

واجاب وزير دفاع اسرائيل السابق: لا أقدر ان انفي او اؤيد هذه المعلومات ولكن اسرائيل تكون اسعد حالا واكثر امنا واطمئنانا لو ان نظام الحكم في ليبيا قد تغير وزال القذافي وجاء حكم ديمقراطي !»

وعاد احدهم وسأل وزير دفاع اسرائيل السابق:

«وهل هناك هدف عسكري عربي جديد تنوي اسرائيل ان توجه اليه ضربتها وتقضي عليه كما فعلت مع المفاعل الذري في العراق» ؟

واجاب موشيه ارينز:

ـ ان العراق دولة مجنونة وارهابية ولن نسمح بوضع القنبلة الذرية بيد حكام مجانين كحكام العراق.»

وقد وجه احد المراسلين سؤالا آخر الى المتحدث بلسان الخارجية الاميركية حول مقتل الفلسطيني الفدائي الشاب السيد مجيد ابو جمعة في عملية الباص داخل اسرائيل وعما اذا كانت اميركا توافق على ان تقوم اسرائيل بقتل احد الفدائيين العرب الذين اعتقلتهم فور القبض عليهم وبدون محاكمة فاجاب المتحدث الرسمي الاميركي بشجاعة يحسد عليها:

ـ لا يحق لنا ان نحشر انوفنا في كل امور اسرائيل الداخلية !»

عال. ولكن السؤال يبقى بلا جواب عندما يقال للمسؤول الاميركي: ايهما اهم في القاموس السياسي: احترام القانون الدولي ام التصدي للارهاب

الدولي على حساب الاعتداء على القانون الدولي وعلى كرامات الدول وعلى حساب حياة الانسان؟

ونعود الى كلام المستر «موشيه ارينز» عن النقطة الاساسية التي تخصنا ـ كشعب لاجيء ومنكوب ـ وحرصه على ان يصف القيادة الفلسطينية الشرعية، والوحيدة، بانها مجرد «منظمة ارهابية» تمارس «الارهاب»، ونسأل:

ـ هل في كل ما قامت به منظمة التحرير منذ عام ١٩٦٥ حتى زيارة ابو عمار للقاهرة في الشهر الاول من عام ١٩٨٤ ما ينطبق عليه صفة «الارهاب»، ثم هل في زيارة ياسر عرفات لحسني مبارك في القاهرة والتي اعتبرها المعلقون نهاية مرحلة ثورية وبداية مرحلة سياسية وديبلوماسية ما يساعد المنظمة المذكورة ان تنفي عن نفسها صفة الارهاب امام الرأي العام العالمي، وامام دولة اسرائيل، بوجه خاص..

انا افضل ان ابدأ الحديث عن الشطر التالي من السؤال المتعلق بزيارة ابو عمار لحسني مبارك في يناير من عام ١٩٨٤ جريا وراء الديبلوماسية الصامتة بعد ان خرجت الثورة من ارض لبنان «جريحة» القلب، والجسد، والسمعة، والبنيان، واقول:

إنّ حكومة عموم فلسطين للطيب الذكر احمد حلمي باشا لم تستطع ان تنقذ شبرا واحدا من ارض فلسطين. كانت وزارة بلا وطن ووزراء بلا مسؤوليات واسماء بلا مسميات والقاب بلا حقيقة ومراسم بلا عمل. ولكنها كانت ايضاً تجامل العموم وتخطب ود العموم وتوزع الوعود على العموم.

وعندما تولى الراحل الكبير احمد الشقيري رئاسة منظمة التحرير، قيل ان مزاياه العظيمة لم تكن تتفق مع متطلبات المرحلة التي كانت تمر بها القضية الفلسطينية. فهو خطيب وليس محاربا وديبلوماسي وليس ثائرا، ويعرف فنون السياسة ولا يعرف فنون القتل، ويجيد المناورة بالكلام ولا يجيد المناورة بالسلاح.

وعندما استلم المسؤولية السيد يحيى حمودة قيل انه رجل قانون وليس رجل تحطيم القانون. وانه يجيد الدفاع عن حقوق فلسطين بعقله وحججه وبياناته، بينما القضية تحتاج الى الرصاص والقنابل ومدافع المورتر وصراحة الثوار.

وعندما قيل لنا ان عبور السيد ياسر عرفات من الضفة الشرقية لقناة السويس الى الضفة الغربية منها ثم لقائه مع السيد حسني مبارك انما هو التمهيد لكي يعبر السيد عرفات بعد ذلك من الثورة الى الديبلوماسية او من الحرب الى السلام، او من المواجهة الى المفاوضة، او من الصراحة الى الغموض، قلنا اننا نخشى ان يقال في ابو عمار - ان صحت الاخبار - ما سبق وقيل في حلمي باشا والشقيري ويحيى حمودة وبقية رجال السياسة في تاريخ هذه القضية الازلية!

ولسنا - باديء ذي بدء - ضد ابو عمار ولا ضد الرئيس حسني مبارك ولا ضد ان تنقلب منظمة التحرير الفلسطينية الى ما يشبه الحكومة في صنفها وديبلوماسيتها، ولكننا ضد المفاجآت التي لا مبرر لها، وضد المزاج السياسي المحفوف بالغموض والاحاجي، وضد الانفراد بالمسؤولية التي لا تتفق مع روح فلسطين وضد التقلب الديبلوماسي الذي يؤيد اليوم ما سبق وهاجمه بالامس او يبرر غدا ما سبق وادانه بالسذاجة او الخيانة او الانحراف قبل ايام.

وفي صيف ١٩٨٣ عندما دعت منظمة التحرير الفلسطينية عددا من الوجوه المصرية المعارضة لحضور مؤتمر الجزائر ثار الرئيس حسني مبارك واعتبر المسألة تدخلا في الشؤون المصرية الداخلية وهدد بطرد جميع الفلسطينيين المقيمين في مصر، وعندما التقى بعدها مع السيد الياس فريج رئيس بلدية بيت لحم قال له وهو يلعب بورقة بيضاء موضوعة على مكتبه:

«ان الذين دعتهم منظمة التحرير الفلسطينية للسفر الى الجزائر لا قيمة لهم ولا وزن. ومصطفى خليل مثلا لا يقدر ان يحرك هذه الورقة البيضاء من مكانها. فاذا كان السيد عرفات يحسب ان مائة مصري يقدرون على تقرير مصير مصر فهو مخطىء جدا!».

وما سبق وقاله حسني مبارك بهذا الموضوع في صيف ١٩٨٣ نقوله اليوم لسيادته. فهو مخطىء جدا ان يحسب ان لقاءه مع السيد ياسر عرفات قادر ان يروض قضية فلسطين حسب برنامج كامب دايفيد، او ان يمسح من قلوب العرب خطيئة الرئيس الراحل انور السادات في عقد هذه المعاهدة المشؤومة او ان يعيد مصر العربية الاصيلة الغالية الى الصف العربي بشروط جيمي كارتر ومناحيم بيغن ومحمد انور

السادات، او ان يحول كل الحقد العربي على اميركا وعلى اسرائيل الى ما يشبه الحكومة الفلسطينية القادرة على امتصاص المرارة والالم او ان يقلص المطلب الفلسطيني الخالد من دولة تضم التراث والشعب الى شبه حكومةمنفى تبحث عن عنوان لائق بها في احد شوارع القاهرة.

ترى، هل قدرت منظمة التحرير، ممثلة برئيسها ياسر عرفات ان تجعل من زيارة القاهرة في اول ١٩٨٤ ما يشبه صك الغفران القادر على ان يمسح عنها وعن رجالها تهمة «الارهاب »، وان يدخلها باب «الجنة» التي يريدها حكام اسرائيل؟

والجواب لا يحتاج الى ذكر ولا كلام. فان حكام اسرائيل ما زالوا حتى كتابة هذه السطور، اي حتى خريف عام ١٩٨٥، وبعد مضي ١٨ شهرا على عناق القاهرة، يرددون بان ياسر عرفات رجل ارهابي، ومنظمة التحرير عصابة ارهابية، ورجال المنظمة سواء من كان بينهم عضوا في المجلس الوطني، او في اللجنة المركزية، وسواء من كان منهم يعيش في دمشق او يحمل جوازا كويتيا، كلهم ارهابيون!

اذن، فقد فشلت الديبلوماسية، ان تجعل من منظمة التحرير صورة مقبولة، وغير ارهابية في عيون اليهود. يهود اسرائيل ويهود اميركا.

وفشل التخلي عن الثورة المسلحة او التمسح بالاساليب الديبلوماسية المعتدلة «الرزينة»، ان تعطي منظمة التحرير وثيقة براءة لدى اميركا، او لدى اسرائيل، وان تنفي عنها صفة: الارهاب!

كان هذا في العامين الاخيرين من عمر الفلسطيني الثوري. اما ما قبل ذلك، فقد كان الفشل اكبر واشمل واعظم..! فالمعروف ان الخيط يبقى رفيعا جدا بين الثائر، وبين الارهابي، والثائر ليس هو الذي يحمل سلاحا او يزرع لغما او يقذف قنبلة على سيارة عسكرية للعدو.

وهوية الثائر ليست كما زعم خيال الشاعر زورا وبهتانا، انها البندقية.

الثورة روح ووجدان. والثورة اخلاق وشمائل. والثورة انتظام وولاء وطاعة. والثورة تجرد وزهد وقناعة لا تفنى. والثورة انضباط واستقامة وبساطة وصدق. والثورة جرأة لا تخاف، والثوار صادقون لا يكذبون! والثورة معرفة بحقائق الامس ورفض لحقائق اليوم وتطلع صوب حقائق الغد. والثورة لا تجامل ولا تخاتل ولا

تساوم ولا تراوغ وانما ـ كما وصفها الزعيم ابن سعد زغلول «مكرم عبيد»، هي «تقاتل حيث يجب عليها ان تناضل، وتناضل حيث يجدر بها ان تقاتل، تحارب وتتوقع الحرب، وتضرب او تدفع الضرب.. !»

نعود الى القصة الأزلية. قصة الثورة او الحكومة قصة الحرب او السلم. قصة المدفع او الزبدة. قصة الخنجر او غصن الزيتون. ؟

ونقف لكي نقول انه من المظاهر المؤسفة في الاجنحة المتعددة التي تشتمل عليها منظمة التحرير الفلسطينية ان تتعدد الافكار وتتضارب الاراء وتتصارع المواقف بصورة مذهلة تدعو الى القلق العجيب. انها مجرد فوضى وليست ديمقراطية. انها اختلافات مؤسفة وليست كما يقولون حرية. فالقطب الثوري الفلسطيني فلان ـ مثلا ـ يكتب باستمرار في صحيفة مصرية ويدعو الى العقل والتعقل والعقلانية امتثالا لحكمة هنري كيسنجر اياه.

والقطب الثوري علان ـ مثلا ـ يصرح في العاصمة الاردنية انه «لا بد من حوار اردني ـ فلسطيني لصياغة تصور المرحلة المقبلة وان لا بد من ارساء العلاقة الاردنية ـ الفلسطينية بشكل تتحول معه الى منطق عربي شامل لان من دون التضامن العربي ـ افادكم الله ـ لا يمكن تحقيق اي شيء لصالح القضايا العربية. . !»

عال. . .

ثم هناك الف حديث فلسطيني مسؤول ينادي بان التحالف مع سوريا هو «عماد الثورة واساسها واستراتيجيتها بعيدة المدى وان لا ثورة فلسطينية بدون دمشق ولا تحرير بدون سوريا. . . !»

وعلى الجانب الآخر نسمع من يؤكد ان الثورة الفلسطينية مستمرة (حتى النصر) وان لا مجال للبحث في اية مفاوضات او اية تسويات او اية تنازلات الا بقيام الدولة على كل التراب الفلسطيني!

ثم هناك من يمسك العصى من الوسط وينفي علنا ما سبق واعلنه بالامس وينقض في المساء ما سبق واعلنه في الصباح على اعتبار ان مثل هذا العمل ضرب من الفهلوة والحنكة السياسية والبراعة في ممارسة العمل الديبلوماسي الصحيح!

● كان الحل المنطقي المعقول الوحيد هو ـ وبكل تواضع ـ ان تتطور الثورة بعد كل ما

جرى لها وما جرى معها في العامين الماضيين الى ما هو اقصى واشد من مجرد الثورة ! اعني : ان تتنازل الثورة عن المظهر الحكومي الرسمي في اعمال الثورات وان تتخلى عن المكتب وعن السيارة وعن العلم والاسم وعن اللقب والشهرة والعنوان وان تستبدلها كلها بالسرية والخندق وبالاشارة والتنظيم وبالصمت الرهيب وان تصبح اكثر ثورية واكثر تطرفا واكثر حقداً والماً واكثر نزيفاً وعرفاً و اكثر اصراراً وايماناً وليس العكس. كان الحل ـ وبكل تواضع ـ ان تعود الثورة الى اصالتها والى عنفها وسريتها والى معنى الفدائي فيها والى معنى التضحية في نفوسها وفي رسالتها وليس العكس.

ولكن. ؟

لقد خلعت الثورة رداء الثوار، واختارت رداء الحكومات، فشجعت الاعداء على الاستهانة بها، والتطاول عليها، وكشف اخطاءها وعوراتها، ثم الحديث المحزن والمؤسف عن اعمال وتصرفات مذهلة قيل ان الثورة قد اقترفتها في لبنان عامة وفي بيروت خاصة والتي لا تتفق مع اخلاق الثوار ولا مع طبيعتهم، مع الزعم بان عشرات من مستشاري قائد الثورة قد استغلوا موقعهم الثوري لحساب صفقات مالية وتجارية مشبوهة لا تعود بالفخر على احد سواء كان ثوريا فلسطينيا ام كان مواطناً عادياً، خاصة وان ابو عمار ما كان يوما الا المثل الصادق للثائر المتجرد النزيه الذي يكتفي من طعام يومه بفنجان شاي معسول، ويكتفي من اجر يومه، برضى ربه ومحبة شعبه ولا يفهم لغة المال والقصور واستغلال الثورة لمصالح الذات!

ولكن ابو عمار ـ كما يبدو دائماً ـ يرفض ان يفتح فمه، وان يتكلم وان يصارح شعبه وعالمه بكل الحقيقة التي يعرفها او الحقيقة التي يجب ان يسعى لكي يعرفها.

● وحجة ابو عماربالتمسك بالصمت او الجنوح الى الديبلوماسية او عدم الكلام بالفم المليان اعتقاده بانه يتعامل مع جماعة «كذابين» يصرون على ان يكذبوا عليه فيصر ان يعاملهم بنفس اللغة اي. . . بالكذب! لعله يقول لمن حوله: «يكذبون واكذب. . وينقرون وانقر. . ويلعبون علي فالعب عليهم. . ويخفون علي الحقيقة فاخفي الحقيقة عليهم. . . !»

وهنا يكمن الخطأ. . .

فاذا كان الحكام يكذبون ـ وهذا شأنهم ـ فان الثوار لا يكذبون. . ! واذا كذب الحكام فان على الثوار محاربة كذب الحكام بصدق الثوار. وقد يصلح الكذب ان يكون سلاح الحاكم ولكن في الكذب مقتل الثائر. ذلك ان الثورة لا تكذب ولا تجامل ولا تخاذل ولا تهادن ولا تساوم ولا تقبل بنصف الحلول ونصف الحقيقة. وان قوة الثورة في صدقها وفي صراحتها وفي اندفاعها وفي وضوحها وفي ثقة الناس بها.
وعندما تتحول الثورة الى ما يشبه الحكومة او السفارة الديبلوماسية في التعامل مع الناس تعطي العالم الحق في ادانتها ومعارضتها والتشكك في صحة اسباب دعوتها والسخرية من اصحابها والتساؤل حول مدى قدرتها على الحياة مع التطاول على مبادئها وعلى ميثاقها.

فلماذا لم يتكلم ابو عمار ويعلن علنا الحقيقة كلها؟ لماذا لم يصارح شعبه الذي خسر الوطن وبذل الدم وتبرع بالروح والمال والعمر من اجل النصر؟ ان ما سمعناه حتى اليوم من قائد الثورة الفلسطينية لا يقنع الناس ولا يطمئن النفوس لان قائد الثورة الفلسطينية يرفض ان يعلن للناس كل الحقيقة ولان الناس يعرفون ان ابا عمار قد اعلن بعض الحقيقة ولكنه اخفى عليهم ثلاثة ارباعها!

هل يعرف ابو عمار ماذا كان عليه ان يقول؟

● كان عليه ان يعلن وبالتفصيل حقيقة ما دار بينه وبين الرئيس المصري في اللقاء التاريخي بينهما في مصر.

● كان عليه ان يعلن وبالتفصيل حقيقة الاسباب التي دعته الى ذلك اللقاء المفاجىء.

● كان عليه ان يعلن بالتفصيل رده على كل من بادر الى التعليق على هذا اللقاء سواء كان الرئيس ريغان او زعماء السوق الاوروبية المشتركة او الملك حسين في حديثه التلفزيوني او زعماء سوريا او رجال التكتلات الفلسطينية المعارضة له او رجالات الضفة والقطاع او حكام العدو الاسرائيلي.

● كان عليه ان يعلن وبالتفصيل لماذا ذهب الى طرابلس ولماذا وافق على الخروج من طرابلس وما هو ثمن الخروج وماذا بعد هذا الخروج؟

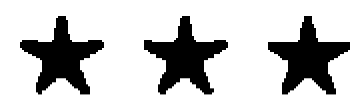
● كان عليه ان يعلن وبالتفصيل خطته السياسية القادمة في مرحلة الغد. هل

ستستمر الثورة؟ هل ستولد حكومة منفى؟ هل سيتكرس الانقسام داخل المنظمة؟ هل يعود الى عمان ام يستنجد بالعرب لاعادته الى دمشق؟ هل يصر على الدولة الحلم ام يقبل بريغان ومشروع ريغان؟ هل ينفض يده من التطرف ويقتنع بسياسة الامر الواقع؟ هل ودع سوريا لكي يتحالف مع مصر؟ هل ينتقل من تونس لكي يقيم دائماً في عمان؟

● كان عليه ان يعلن و بالتفصيل حقيقة مشاعره واتجاهاته الشخصية مع حقيقة تقديراته للموقف وللمسؤولية ولقيادة المنظمة وللعمل السياسي الثوري بعد اليوم! كان على زعيم منظمة التحرير ان يعلن الحقيقة حتى ولو كان ثمن هذه الحقيقة ان يعتزل العمل السياسي او ان يستقيل من مسؤولية الثورة او ينفي الى اطراف الارض. ان للزعامة ادبها وسلاحها واسلوبها. ولكن للزعامة ايضا ثمنها وواجبها. ومن بعض ثمن الزعامة، بل من ارخص جوانب هذا الثمن واكثره ضآلة وقلة ان يكون الزعيم الفدائي مستعدا على الدوام للتضحية بنفسه من اجل قضيته او من اجل بلده او من اجل شعبه او من اجل الحقيقة التي يحرص على اذاعتها.

● كان ذلك الوقت بالذات هو وقت الحقيقة. . ! لا لان الحقيقة قادرة على ان تنسف البلبلة وتنهي الخوف وتنقذنا من الحسابات الخاطئة فحسب، بل كونها ـ اي الحقيقة ـ قادرة على ان تعيد لهذا الشعب الاسير بالضفة الثقة بنفسه وللمحارب الخارج من طرابلس وبيروت ايمانه الضائع بسلاحه. وللشعب الفلسطيني، باسره قدرته على الاستمرار وسط غيوم الضياع وضباب التشرد وضربات القدر!

ألم يفرد تاريخ الجهاد السياسي العربي المعاصر انصع الصفحات لرجال مسلمين عرب اماجد قالوا للعالم «لا» او قالوا للعالم «نعم» ودفعوا بالحالتين ثمن صراحتهم وشجاعتهم من امثال عرابي وسعد زغلول في مصر ومحمد الخامس في المغرب والسعدون في العراق وعمر المختار في ليبيا وابراهيم هنانو في حلب وغيرهم؟!



لقد شغل زعيم المنظمة نفسه بالحسابات الدولية، فصرفته بدورها عن التفكير او الالتفات الى الاهم، الى الحسابات الداخلية! وقد يكون مفيدا ـ مثلا ـ ان يناقش ابو عمار موقف السوفيات من منظمة التحرير، ولكن الاكثر فائدة لو راقب ابو عمار

موقف المنظمة من نفسها بنفسها! قد يهمنا ان نبذل جهدا لكي نعرف حقيقة سياسة دول السوق الاوروبية المشتركة من اسرائيل أو حقيقة موقف جورج شولتز من لبنان او ماذا تريد فرنسا وايطاليا من امين الجميل ولكن يجب ان نبذل الجهد الاكبر لكي نعرف حقيقة الوضع الفلسطيني في بيروت وفي طرابلس، وحقيقة الوضع الفلسطيني في البقاع وفي الجنوب اللبناني المحتل، وحقيقة الوضع الفلسطيني في الضفة الغربية وفي قطاع غزة وفي القدس الاسير ولن يفيدنا ان نقلد المارشال تيتو اليوغسلافي يوم انصرف لمحاربة جوزيف ستالين والشيوعية العالمية ونسي ان يحارب الفقر والبطالة في بلده. ولن يزيد في احتمالات النصر لثورتنا لو اننا قلدنا جمال عبد الناصر عندما انصرف الى توطيد سياسة الحياد الايجابي في العالم ومحاربة سياسة الاستقطاب الدولي ونسي رحمه الله ان ينقذ الاتحاد الاشتراكي المصري او انقاذ المصانع الحربية المصرية من الركود والافلاس. ان السياسة الخارجية للبلد الواحد جزء من السياسة الداخلية ولكن الجانب الداخلي يبقى دائما هو الاهم وهو الابقى وهو الاساس. وعندما يحيط ابو عمار بكل الحقائق المتعلقة بالجبهة الداخلية ـ اكرر الداخلية ـ كنا نرجو ان ينقل كل الحقائق المتعلقة بهذه القضية للشعب الفلسطيني الذي قضى مع القضية الفلسطينية ثلاثة ارباع القرن وقضى من النكبة خمسا وثلاثين سنة وقضى مع الثورة الفلسطينية الحالية أكثر من عشرين سنة وقضى مع نفسه العمر كله وهو غارق بالهموم وفي الأحزان وفي الضربات وفي الخسائر وفي المفاجآت فأصبح من حقه ان يسأل ابو عمار ويسأل نفسه:

● الى اين؟ وماذا غدا وكيف؟ ومتى؟

● كان المطلوب ان نقف مع الحقيقة ومع ضمائرنا وان نعترف بان خروجنا من لبنان كان هزيمة وان خروجنا من سهل البقاع كان هزيمة، وان خروجنا من طرابلس كان ايضا هزيمة، وان مفاوضاتنا مع الاردن كان تخبطا، وان خلافاتنا مع سوريا كان خطأ، وان تسرعنا الى الالتقاء مع الرئيس المصري في مثل تلك الظروف الدقيقة الحرجة كان. . . سذاجة!

ذلك ان الرئيس المصري ـ يا ابو عمار ـ اراد ان تصبح زيارتك له بمثابة الجسر الذي يعبر منه سيادته الى العرب. وانت اردت ـ يا ابو عمار ـ ان تستعين به لكي

تصبح الجسر الذي تعبر منه انت الى فلسطين ! ما اسهل ما اراده حسني مبارك وما اصعب ما تتمناه انت! بل ما اقربه هو من تحقيق هدفه وما ابعدك انت من تحقيق هدفك! فالفرق كبير يا ابو عمار بين مصر الدولة وفلسطين الدولة. والفرق كبير يا ابو عمار بين الشعب العربي والشعب اليهودي، والفرق اكبر واكبر بين عودة مصر الى العرب وعودة الخلاص الى فلسطين.

وفي ذلك اليوم، يوم السادس من يناير من عام ١٩٨٤ كتبت لياسر عرفات مقالا منشورا قلت له فيه، بالحرف الواحد:

ماذا بقي لك؟

بقيت الحقيقة كلها تعرفها او تسعى اليها وتجمعها ثم تعلنها علينا وعلى العالم بكل وضوحها وبكل آلامها وبكل نبضة حياة فيها!

وبعدها؟!

انت الثائر اولا وانت الثائر اخيرا. وقد يخطىء الثائر يا ابو عمار ـ ولكنه لن يسقط. وقد يصاب الثائر بالجراح ولكنه لن ينتهي. وقد يموت الثائر ويستشهد، ولكنه لن يغيب. وقد يرحل الثائر ولكنه لن يختفي. وقد يستريح الثائر ولكنه لن يضيع.

يا ابو عمار. . .

كان سلاحهم ضدك هو الاستعانة بالكذب عليك فاجعل سلاحك ضدهم ان تستعين عليهم بالله اولا ثم بالحق والحقيقة.

حاربوك بالغموض فحاربهم بالوضوح! اتهموك بالتقلب فأجبهم بالمصارحة. عاملوك بالوعود فعاملهم بالافعال. حدثوك بلغة الاحاجي فحادثهم بلغة الثوار. عذبوك لوفرة ما غالطوا وداهنوا وكذبوا وخلطوا الجد بالهزل فاتركهم لعذاب الضمير بعد ان تواجههم بالحقيقة الواحدة المرة التي تجعل المرء دائما حرا.

ثم دعنا يا ابو عمار نسمع هذه الحقيقة المرة منك لكي نستمر مع الناس في حبك ومناصرتك وفي تأييدك.

اعانك الله. . .»

وقد ظهرت هذه الكلمات في صحف الخليج العربي ولم يقرأها ابو عمار ولم يعمل

بحرف واحد من حروفها. !

فقد بقي ملفوفا بالغموض، مطاردا بالاشاعات، متهما بالتساهل، لا يدفع عن نفسه تهمة، ولا يرد عن اسمه إشاعة ولا يصحح شيئا مما يقال بألسنة الاصدقاء وبألسنة الاعداء. !

وبقيت الثورة مع زعيمها تدفع الثمن من اسمها ووقارها وهيبتها ونفوذها ومدى شمول تمثيلها للشعب الفلسطيني، ومدى صحة المعنى الثوري الاصيل في تصرفاتها!

وبقيت اميركا على عنادها في رفض الاعتراف بالمنظمة ما لم تعترف هذه المنظمة ـ وبالفم المليان والعبارة الواضحة ـ بدولة اسرائيل!

وبقيت اسرائيل على موقفها العدائي المتعنت في ادانتها للمنظمة كهيئة «ارهابية» خطرة توزع الارهاب وتمارسه وتشجعه وتحياه!

وكل ذلك كان سره يكمن في الضعف الذي اصاب هذه المنظمة، الغموض الذي اصبح يكتنف خطواتها، وفي ارتمائها العجيب المذهل في احضان رئيس مصر، وملك المغرب، مع العداء العجيب المذهل لسوريا ولرئيسها. . . !

واذا كان الدفاع عن الارض والتمسك بالارض والاخلاص للمقدسات يوصف «بالارهاب» في قواميس اميركا واسرائيل، فان كل فلسطيني وليست منظمة التحرير الفلسطينية وحدها، هو الارهابي بل والارهاب كله. !

واليهود يعرفون ذلك. . كبيرهم وصغيرهم.

واميركا تعرف ذلك. . المسؤول فيها، والمواطن العادي.

ولم تقم منظمة التحرير في ثورتها ضد الصهيونية «بواحد على عشرة» مما قامت به عصابات الأرجون، وشتيرن، والهاجانا ضد الانكليز، وضد العرب في فلسطين منذ عام ١٩٤١ حتى عام ١٩٤٨. .

ولم تمارس ثورة فلسطين في سنواتها الاخيرة من اعمال «الارهاب» واحدا على مائة مما مارسته المؤسسات الصهيونية في اوروبا وفي الشرق الاوسط ضد الانتداب وضد الوسطاء وضد لجان التحقيق وضد مبعوثي الأمم المتحدة.

ولكن الثورات عندما تنتصر، تتحول الى دول او حكومات.

ولكنها عندما «لا تنتصر» او تتجمد في بحر الهزائم والنكبات ـ تتحول الى مجرد منظمات ارهابية!

وقد استطاع الرئيس الاميركي «هاري ترومان» ان يضغط على الانكليز، ويأمرهم بالغفران والاعتراف بدولة اسرائيل وبالصفح عن كل جرائم اليهود ضدهم في فلسطين.

وتحول «الارهابي» مناحيم بيغن وزملاؤه اسحق شامير، وشتيرن، الى وزراء. !

واصبح الارهابي دايفيد بن غوريون، اول رئيس للوزراء. !

ولولا هاري ترومان، والضغط الاميركي، لبقي اسم مناحيم بيغن معلقا على اللافتات الامنية التي تطالب برأسه «كأرهابي» دولي قام بنسف فندق «الملك داوود» وعلق الجنود الانكليز على اشجار البرتقال في شواطىء فلسطين!

ولولا اميركا لبقي « الانتربول الدولي » يطارد اسحق شامير وعصابته بتهمة قتل «اللورد موين» ويطارد جماعة شتيرن والارجون بتهمة اغتيال الكونت فولك برنادوت. !

وهكذا عثرت الصهيونية العالمية على المعجزة التي قدرت بها ان يتحول يهود فلسطين من ارهابيين خطرين مشردين الى وزراء مسؤولين في دولة عضو في الامم المتحدة..

ولكن ابو عمار، ومنظمته، قد فشلوا ـ حتى الان ـ في العثور على «هاري ترومان عربي» قادر على ان يوجه الضغط المطلوب الى اميركا والى اسرائيل لكي يتحول الثوار الى رجال دولة، وتسقط عنهم تهمة الارهاب المزعوم. !

والمفتاح ليس ـ كما يظن الناس ـ في يد السعودية او الكويت او سوريا او مصر. .

لا !

ان المفتاح في يد ابو عمار وحده. . وفي يد منظمته.

هو قادر ان يحمي «الهيكل» ويحفظه وينظم فيه قصائد الشعر غزلا واعجابا، وهو ـ ايضا ـ قادر على ان يحطم الهيكل بكل ما فيه ومن فيه ويصيح :

عليّ وعلى اعدائي يا رب! . . .

هو قادر على ان يعود الى صفاء ثوريته وثورته التي بدأ بها كفاحه عام ١٩٦٥ او

يعود ويتمسح بالقرار ٢٤٢ وشروط القرار ٢٤٢ ، وملابسات هذا القرار ومحتوياته والنتائج المترتبة على القبول به . !

القرار ٢٤٢ . . او نهاية المطاف!

ما هو القرار رقم ٢٤٢ . ؟

ما معناه؟ ما مضمونه؟ ما اهدافه؟

● انا شخصيا لا ادري ، ولا اريد ان ادري ، ولا يهمني ان ادري! لكن صديقنا وزميلنا، وابن مدينتنا المؤرخ الاستاذ «ادوار سعيد» يقول عن هذا القرار، وبالحرف الواحد: « . . انه قرار لا يمكن للفلسطينيين القبول به . . » ثم يستطرد ادوار سعيد في كتابه «قضية فلسطين» وفي الصفحة «٢٢٦» من الطبعة الشعبية ويقول عن القرار المذكور: « . . . ان القبول بالقرار «٢٤٢» ينكر على الفلسطينيين ابعادهم القومية . . » حيث ان القرار المذكور يعالج القضية الفلسطينية على اساس كونها قضية . . لاجئين . . لا غير»! انتهى كلام البروفسور ادوار سعيد . .

● ترى لماذا التمسك الاميركي والاسرائيلي بالقرار ٢٤٢ ، مع الاصرار على اهمال كل قرار سياسي آخر، صدر قبل قيام دولة اسرائيل، و «بعد» قيام دولة اسرائيل؟

لماذا الصلاة والسلام على القرار ٢٤٢ ، ورفض ونسيان واهمال ونسف قرار لجنة «جون سمبسون» بتقسيم فلسطين عام ١٩٣٣ وقرار لجنة «بيل» عام ١٩٣٧ وقرار «لجنة وودهيد» عام ١٩٣٨ ، «والكتاب الابيض» . . عام ١٩٣٨ لماذا ؟

لماذا التمسك بالقرار «٢٤٢» ورفض الاستماع او الانصياع الى مائة قرار دولي آخر صدرت عن الجمعية العامة وعن مجلس الامن وكلها تنص على الاعتراف بالحق الشرعي المعروف لشعب فلسطين؟

لماذا التخلي عن «٦٥» سنة من تاريخ فلسطين، وتاريخ الجهاد العربي ضد الصهيونية، وتاريخ الصراع العربي الاسرائيلي منذ صدور وعد بلفور حتى كتابة هذه السطور، من اجل الاكتفاء بتاريخ واحد، ويوم واحد من اسبوع معين واحد وعام محدد واحد، هو يوم ٢٢ نوفمبر من عام ١٩٦٧ . . يوم صدور القرار الدولي رقم ٢٤٢!

● لعل الذين يبنون الامال الكبار على توفر حسن النوايا لدى الاسرائيليين،

وبالتالي، على احتمال فتح ابواب التفاوض والتنازل والانسحاب والسلام فور القبول بالقرار الدولي رقم «٢٤٢» قد نسوا حقيقة تاريخية معاصرة، ومهمة، وهي ان القرار المذكور قد نص على تعيين مندوب دولي يتولى مهمة تنفيذ البنود التي يتضمنها القرار، وان الديبلوماسي السويدي الدولي الذي اختير يوم ذاك ـ واسمه جونار يارنغ ـ قد اصبح مندوبا دوليا بموجب القرار ٢٤٢. ولكنه ـ اي جونار يارنغ ـ قد باشر عمله في حلقة مفرغة، واصطدم بالعناد الاسرائيلي الرهيب وتنقل بين الاردن وتل ابيب مائة مرة، حتى اعلن فشله وعاد الى مقر عمله كسفير لبلاده في موسكو. !

ولعل المتفائلين الباسمين « الطيبين »، يذكرون اليوم ماذا وعد الرئيس «جونسون» الملك حسين خلال مقابلتهما في اعقاب حرب ١٩٦٧ وكيف «لحس» جونسون وعوده ومزق اوراقه. وقيل للاردنيين يومذاك بالفم المليان ان « يبلطوا البحر»!

انا اتساءل بكل طيبة قلب:

ـ هل ستؤدي التنازلات العربية او القبول بالقرارات الدولية التي كنا الى امس القريب نرفضها، الى ما يقابلها من تنازلات وتفاهم وقبول في الصف الاسرائيلي؟

واجيب بلا تردد: مطلقا!

يعني ماذا؟

● يعني. . نكون كمن حرث البحر، او اطلق صفارة في الظلام، او راهن على الجواد الخاسر. . او تنازل عن ورقة التوت!

● ان ما سبق ورفضته اسرائيل على يد «يارنغ» في عام ١٩٦٩ و ١٩٧٠ لن تقبله في عام ١٩٨٥ على يد رونالد ريغان وفي حكومة يشترك فيها اسحاق شامير وايريل شارون!

كلنا بشر. وكلنا نخطىء او نصيب. وليس بيننا ـ نحن الفلسطينيين ـ من هو مستعد للتفريط في حق وطنه وامته! وهذا الكلام قلته وكتبته الف مرة في صحف مصر ولبنان والاردن وفلسطين! ليس بيننا معتدل ومتطرف! وليس بيننا محافظ وثوري! كلنا من فلسطين وكلنا لها! ولكن من واجب كل مواطن ان لا يبخل على

اهله او على قادته بكلمة حق عندما يتلبد الجو وتنذر السماء بعواصف قريبة قادمة . . وصاخبة!

كان كل فلسطيني يتساءل مع نفسه طيلة العامين الماضيين :

ـ هل تكون نهاية المطاف القبول بالقرار «٢٤٢»؟

● رحم الله صديقنا العلامة الراحل قدري حافظ طوقان ـ ابن نابلس الابي ووزير خارجية الاردن الاسبق ـ عندما سمعناه يقول في معرض الحديث عن اهل الضفة، واهل «المنظمة» :

ـ نحن في داخل الضفة الغربية لا نزعم اننا قادرون على تحرير فلسطين او استعادة يافا وحيفا وعسقلان. ان «المنظمة» اقدر منا على ذلك، ولها منا كل التأييد والمساندة! اما اذا اقتصرت مهمة المنظمة على استعادة ارض الضفة وحدها، فان فضلنا عندئذ يتساوى مع فضل المنظمة! اذ اننا، ولوحدنا اهل الضفة ـ قادرون على استعادة الضفة وتخليصها، ولا يحتاج الامر الى ثورات وجهاد «ومنظمات» !

كان هذا في عام ١٩٦٨!.

ولكن.

انا اعلم بان الملك الحسين بن طلال، ملك الاردن، يشعر بان القدس امانة في عنقه، وان استردادها يبقى مسؤولية اردنية هاشمية امام الله والناس والتاريخ!.

كما اني اعلم بأن الثورة الفلسطينية التي اطلقت رصاصتها الاولى منذ عشرين سنة ودفعت بمواكب الشهداء بالالاف، في اروع صور البطولات والفداء، انما كانت تحارب من اجل فلسطين، كلها ومن اجل التراب الغالي كله. . لا بعضه!

ترى، هل تتفق المقدمات مع النتائج؟.

وهل تساوت الاساليب بالاهداف؟.

والقبول بالقرار الدولي ٢٤٢، الم يكن هو الشيء الذي رفضه ابو عمار عام ١٩٧٧ لدى جيمي كارتر وبواسطة اكثر من شخصية عربية. . معروفة؟

ماذا جرى؟.

من حق كل مواطن فلسطيني ان يسأل اليوم نفسه وان يحاسب قادته وان يكرر السؤال الف الف مرة :

ـ ماذا جرى؟! ماذا جرى؟! ماذا جرى؟!

● هل نسينا ـ مثلا ـ ان مندوب اميركا لدى مجلس الامن في ساعة طبخ القرار، وساعة صدوره، وساعة الموافقة عليه، هو اليهودي الاميركي «ارثر غولدبرغ»، رئيس رؤساء الصهاينة العالميين داخل اميركا، وخارجها!

● هل نسينا ـ مثلا ـ ان هناك اكثر من «قراءة» واحدة لكلمات هذا القرار الدولي، وخاصة فيما يتعلق بالانسحاب الاسرائيلي من «اراض» عربية يجري الاتفاق عليها، أو من «الاراضي» العربية المحتلة بعد حرب ١٩٦٧، بأكملها ؟ ان السوفيات مع فرنسا يسلكان القراءة الثانية، بينما اميركا وبريطانيا تتمسكان بالقراءة الاولى!!

وكذلك..

● هل نسينا ان القرار المذكور، لا يتعرض الى موضوع حل مشكلة... اللاجئين.. الفلسطينيين بالدولة او بالتعويض او بالعودة او بالعدل او بالشمول.. وانما يتعطف علينا بالحس الانساني ويشملنا بالرحمة والحنان من قسوة التشرد وآلام الجوع واللجوء الطويل!

هل هذه هي الثورة التي جعلت شعارها: ـ... حتى النصر؟!

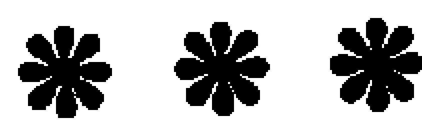
أي نصر؟ ومن الذي انتصر؟ وفيما كان الأنتصار؟ وعلى من؟ ومتى؟!

هل يعجب العرب ـ بعد اليوم ـ لماذا تصر اسرائيل على ان تركب رأسها مستعينة بالحليفة الكبرى اميركا، لكي ترفض ـ تماماً ـ الحديث مع الأردن الفلسطين، او التفاوض مع الفلسطيني الأردني، ما دام «الارهاب» حسب مفهومها ورأيها، يخيم فوق رأس منظمة التحرير الفلسطينية.

اسمعوا:

لو كانت منظمة التحرير الفلسطينية، «ارهابية» حقا كما تزعم اسرائيل، لركعت اسرائيل على قدميها وفتحت ابوابها امام الفلسطينيين وقالت لكل من يريد ان يفاوضها للسلام.

ـ تعال.. إسرع.. نرجوك!



الفصل الثالث والثلاثون

ان التشبه باللئام .. فلاح!

● قال لي الصديق الشاعر «عبد المنعم الرفاعي» رئيس وزراء الاردن سابقاً:

ـ ان سر انحطاطنا وتدهور حالنا، أن قادتنا أصبحوا أقل قدراً من قضايانا . . . »

● «نرجوكم . . من أجل صداقتنا كونوا اعداء لنا . »

«وليم بلاك» ١٩٢٩

● آخر ماسمعته من «عبد الحميد شرف»، رئيس وزراء الأردن، الاسبق .

الفصل الثالث والثلاثون

ان التشبه باللئام.. فلاح!

ان الثورة الناجحة هي الثورة التي لا تكتفي بان تتذكر ضرباتها فحسب، وانما تقدر ان تستخرج الدروس النافعة من وراء تلك الضربات، وان تقرأ صفحات تاريخ العدو جيدا لكي تستخرج من هذا التاريخ اوجه الشبه بين ما كانت عليه حال ذاك العدو في الماضي القريب وبين ما هي عليه حال الثورة وحال الفلسطينيين في الحاضر المؤلم، وكيف انتصر العدو على ضرباته وبقيت الضربات من نصيب العرب وحدهم..

وكلما قرأت أو سمعت او رأيت صور مذابح لبنان، او المخيمات، او دم بيروت المسفوك على صخور التعصب والجهل والانانية، تذكرت على الفور كل ما كنت قد قرأته او وعيته من صفحات وصور تاريخية عن يهود اوروبا، او يهود اميركا، او يهود العالم! وكلما اشتدت مظاهر الخلاف السياسي او الديني او المبدئي بين الشعوب العربية في هذه الايام، رأيت نفسي مشدودا الى استعادة ما كنت قد قرأته او عرفته من قصص الخلافات السياسية او الدينية او المبدئية بين الطوائف اليهودية في مختلف دول اوروبا واميركا!.

وكلما سقط الجديد من اهلي واقاربي وامتي على ارض هذا الوطن العربي، وبأيدي المغامرين من الحكام او الضباط او العملاء او المتاجرين بالوطن وبالدين، سواء في جنوب لبنان اليوم، او في اي بقعة اخرى من بقاع الشرق الاوسط طيلة

الثلاثين سنة الماضية، حملتني الذكريات الى كل ما كنت وما زلت اعرفه عن مذابح اليهود قبيل وخلال الحرب العالمية الاخيرة، وعن اضطهاد اليهود في عشرات من دول آسيا واميركا اللاتينية، وكيف استطاع هذا اليهودي «المستضعف المسكين» ان يمنع عنه الاذى وان يقوى على قاتليه، وان يتحول من ضحية الى. . «صاحب دولة»!

تعالوا نقرأ التاريخ . . القريب . . !

خلال الاحتفالات التي اقامتها اسرائيل، ومعها يهود نيويورك ، بمناسبة ذكرى مولدها الـ «٣٧» انطلقت على مسمعي خلال وجودي في الولايات المتحدة شعارات جديدة لهذه الاحتفالات من بينها شعار يقول ان «العلم . والبناء . والتكنولوجيا» هو احدث واضخم هدف تسعى من اجله اسرائيل!

وقال «حاييم هرتزوغ»، رئيس دولتهم في ذكرى هذه الاحتفالات: «ان علينا ـ أي على اليهود ـ ان لا نكتفي بان نكون على حق، بل ان نكون على . . قوة!».

وقال لهم «شمعون بيريز» رئيس وزرائهم ان عدم وجود الدولة اليهودية في سنوات الحرب العالمية الثانية هو السبب في غياب اية جهة اخرى قادرة على ان تحمي اليهودي من اضطهاد «أدولف هتلر». . وان تنقذه من معسكرات النازية . . فلا الحلفاء . . ولا «البابا» . . ولا الصليب الاحمر . فعلوا من اجلنا شيئا . . وبقي الاضطهاد واستمر القتل . . »!

● تماما، كما يحدث اليوم لاهلنا واخوتنا في صيدا، وطرابلس، ومخيمات عين الحلوة، . . والمية ومية . . وفي شوارع بيروت وسهول البقاع وهضبات الباروك، واحياء بعلبك!

● تماما، كما تستمر عمليات الذبح للفلسطيني اللاجىء المشرد في انحاء هذا الشرق المتفجر، فلا تقدران تنقذه قوات دولية، ولا تحميه مؤسسات الصليب الاحمر، ولا تنفعه نداءات «البابا» او شفاعات «آيات الله» او توسلات النساء والاطفال!

● ترى كيف استطاع هذا العدو الذي سبق ان واجه كل ما يواجهنا اليوم من دم كثير، ان يحول دمه المسفوك الى انتصارات، وان يسقي قضاياه و «دولته» وشجرة

نموه وازدهاره بدم أهله وأبنائه؟

كيف؟ كيف؟

كيف استطاع عدونابعد ان عاش أجيالا طويلة أسير انقساماته الدينية وخلافاته «الشعوبية» وتضارباته الحضارية ان يتغلب على كل انقساماته ويوحد كل شعوبه ويزيل كل خلافاته؟ . .

كيف؟ كيف؟

● قال لي صديقي البرفوسور «ايفن» في قسم الشؤون الدينية داخل جامعة نيويورك الشهيرة، والمحاضر في قضايا الشرق الاوسط:

« . . . ان مجموعات اليهود الذين وفدوا الى الولايات المتحدة الاميركية، والذين كانوا ينتسبون الى عشرات من البلاد المختلفة والحضارات المتفرقة قد استطاعوا توحيد «حركتهم» عن طريق شيء واحد:

«تضامنهم ووحدة مسيرتهم»!

ثم اضاف:

● « . . . وعملية غرس الحركة اليهودية في داخل اميركا لا مثيل لها عند اي شعب آخر! ان الزنوج الملونين وحدهم لاقوا في اميركا من الاضهاد اكثر مما لاقاه اليهود! وبينما كان الزنوج في اميركا يعانون من قيود الرق، كان اليهود ـ رغم اضطهادهم ـ يتمتعون بمزايا الحرية بالرغم من شعورهم بالعزلة والبعد عن غيرهم! وكان التنوع العجيب يميز طبقات هؤلاء المهاجرين الجدد الى العالم الجديد! بعضهم جاء فقيرا من روسيا واوروبا الشرقية، بينما جاء بعضهم الآخر ثريا ومتعلما من عواصم اوروبا الغربية، يحمل معه عصارة الفكر الاوروبي وتراث الحضارة الاوروبية!

«. .ولم يتصارع الفقير الروسي مع الغني الاوروبي! ولم يحاول الثاني ان يحتقر الاول لفقره او لجهله! ولم يتجاهل طرف منهم وجود الطرف الثاني بجانبه! وانما شاهدنا على مر السنين اروع عملية تضامن بين مختلف هؤلاء اليهود المهاجرين، مع اوضح جهد اجتماعي موحد يتم خلاله خدمة الضعيف بيد القوي، ومساعدة الفقير بمال الغني! وقد تجلت صور هذا التضامن عندما بدأت وفود المهاجرين اليهود تفد الى اميركا من المانيا واواسط اوروبا في الثلاثينات، والستينات، فتتآلف في جو واحد،

وتتضامن بسرعة مذهلة وتتوحد بصورة لم تعرفها ولم تمارسها اية اقلية اجنبية اخرى في اميركا. . لا الطليان. . ولا مهاجرو ايرلندا. . ولا اللاجئون من كوبا واميركا الوسطى. . ولا القادمون من لبنان وسوريا مارسوا مثل ذلك النشاط التضامني، او اثبتوا ذلك الولاء الخيالي لابناء دينهم وطائفتهم! ومن بحور الظلم الذي لحق بهؤلاء اليهود الجدد، ومن جبال الاضطهاد التي حاصرتهم في تاريخهم الطويل، استمد يهود اميركا القوة في تأسيس نواديهم، وتربية اولادهم، وبناء مدارسهم، ونشر دينهم، وخدمة اعيادهم، والتسلل الى جميع اوجه ميادين النشاط الفكري والعلمي في اميركا بغية كسب ما يمكنهم الاستيلاء عليه من منابر العلم والادب في البلاد كوسيلة لخدمة انفسهم واهلهم!

«. .هذا ما فعله يهود اميركا الذين شردهم هتلر او ستالين وارسلوهم الى نيويورك او لوس انجلوس فاصبحوا بعد سنوات قليلة هم الحكام الجدد في بلادنا! هل تصدقني؟ ان شعور اليهودي باضطهاد العالم له، هو «السحر» الذي جعل هذا اليهودي يتناسى كل خلافاته الدينية والسياسية مع اخيه اليهودي الآخر، وان يتعاون معه لخدمة كل يهود العلم! فلا اختلاف اللغات ولا اختلاف الاصل ولا اختلاف «المذهب» الديني، استطاعت ان تبعد اليهودي عن اخيه اليهودي! .

«. .كان شبح العذاب القديم يسيطر على تفكير الجميع! كان اضطهاد الايام الماضية ينسف خلافات الايام اللاحقة! ورأينا طائفة يهودية معينة ـ كطائفة «الهاسيد» او «الاورثوذكس» الذين يقطنون حي «ويليمسبرغ» في مدينة نيويورك، والذين لا يربطهم اي رابط مع اليهود القادمين من دول غربي اوروبا، قد اجتمعوا معا، ومشوا معا، وعملوا معا، واصبح اليهودي الذي يعمل كأجير في مصانع قطع الاحجار الكريمة ـ مثلا ـ يزور اليهودي العالم المفكر الذي يدرس الفيزياء في جامعة نيويورك، كما ان اليهودي الثري في قلب لوس انجلوس يزور عائلة اليهودي الروسي الفقير في المدينة ويتبادل التهاني «بعيد الغفران» مع افرادها! عملية صهر وارتباط لا مثيل لها ولا حتى عند اعضاء الكنيسة الكاثوليكية المسيحية! وبذلك، استطاعت الحركة اليهودية ان تكسب احترام الناس لها، والتفاتهم الى وجودها، وتكريمهم لافرادها، ومع الزمن، راح اليهود الجدد يساهمون بابحاثهم ودراساتهم

في خدمة العلم والادب الاميركي مما اكسبهم المال والشهرة معا، ومما ضاعف من تمسكهم بوحدتهم ومن الحرص على مزايا هذه الوحدة !. . »

وسكت صديقي الاستاذ المحاضر في جامعة نيويورك، فسألته ان يكمل كلامه فقال :

ـ وهكذا لم يكن غريبا ولا مستهجنا ان نجد يهود نيويورك يقفون جنبا الى جنب مع كل طلياني اميركي في العمل العمالي وداخل المنظمات العمالية المختلفة، وان يتصاهرون بالزواج مع هؤلاء المهاجرين الطليان، ويتعاونون معهم، ويعطون للشعب الاميركي اروع صورة تضامنية بين احدث واكبر الجاليات الاميركية الاوروبية في مطلع هذا القرن، بالرغم من استسلام هذا الفرد الايطالي للمذهب الكاثوليكي المتعاطف بدوره مع التيار الايرلندي! وكذلك، لم يكن غريبا ان يقف اليهود في نيويورك، وفي لوس انجلوس، موقف المؤيد والمتعاطف والشريك مع الحقوق المدنية للزنوج ومن أجل تحريرهم! ومع الزمن، والجهد، والاصرار، توحدت التيارات الثقافية اليهودية لدى هؤلاء المهاجرين. وكلما زادت تيارات الاضطهاد وسموم اللاسامية في العالم ضدهم، زادوا هم تضامنا وتقاربا واصرارا على التفاهم! وسيقول التاريخ ان اليهودي الاميركي القادم من «الغيتو» الاسباني او المعسكر النازي او السجن الروسي كان ـ مع رفيقه الزنجي الاميركي الملون ـ اقدر انسان لاجىء يفد الى الارض الاميركية وهو يعي دروس العذاب الماضية ويعلم في قرارة نفسه، وبصورة لا يخالطها اي شك ـ ان تضامنه ووحدة صفه مع بقية اهله هي الدرع الاقوى لحمايته من الاخطار الخارجية، وان الاحتفاظ بيهوديته وتقاليده ودينه ومعتقداته هو السبيل الى الابقاء على الاواصر التي تشده الى بقية اليهود في اميركا، وان باستطاعته ـ وبكل قوة ـ ان يفاخر امام العالم بانه ذلك المواطن الاميركي، واليهودي في وقت واحد. . . وان في مقدوره الولاء لاميركا ولدولة اسرائيل في وقت واحد. . وان ليس من حق اي يهودي اميركي ان يشك في ولائه لدولة اسرائيل، وبالرغم من ظهور اخطاء واضحة في سياسة اسرائيل الخارجية، ومهما كانت الظروف الاميركية او الدولية! . . ».

« . . ومع الوقت، سيطر هذا اليهودي اللاجىء على المؤسسات الحضارية

والفكرية في مختلف انحاء الولايات المتحدة . . »

« . . ولم يعد في وسع احد ان يناقش «يهودية» هذا المواطن الاميركي او ان يشك في اخلاصه لاميركا! ذلك ان القوي او المتنفذ او الناجح او المسيطر، يبقى دوما فوق الهجوم، ولا تصيبه سهام النقد».

قلت لصديقي البرفسور الاميركي في جامعة نيويورك:

ـ وكيف تفسر هذه الحملة المسعورة ضد الرئيس ريغان وضد البيت الابيض برمته، لان رئيس اميركا تجرأ ورضي ان يقف لمدة خمس دقائق عند قبر حجري لجندي الماني سقط منذ اكثر من أربعين سنة ؟.

أجاب : - الموقف واضح وصريح : ان اليهودي الاميركي يرفض ان يساوي رئيسه بين اليهودي الضحية وبين الالماني القاتل ! واليهودي الاميركي يرفض ان ينسى العالم -ولو الى حد محدود- تفاصيل الصورة المذهلة لويلات «الهولوكست» خلال الحرب العالمية الثانية ! واليهودي الاميركي يرفض ايضاً ان يكون ثمن التقارب الاميركي الالماني على حساب التاريخ اليهودي في الحرب الاخيرة! ان «الهولوكست» هو الجواب الدائم على السؤال الدائم :«لماذا لايعود يهود المانيا الى المانيا ؟ ولماذا لا يعود يهود النسما الى النمسا ؟ ولماذا لا تقوم «دولة ما» على اسس دينية ؟ ويأتي الجواب فورا : لان تاريخ اليهود مجبول بالعذاب والآلام ! ولان اليهودي لم يعد مقتنعا بان المذابح «الهولوكست» على يد هتلر لن تتكرر في المستقبل على يد اي حاكم الماني او نمساوي او سوفياتي جديد ! ولان كراهية العالم لليهودي تفرض على اليهودي ان يجد لنفسه «ملجأ» أو «دولة» تحميه وتأويه ! واذا زالت اسطورة العذاب والتعذيب ، زالت معها موجبات استمرار وجود دولة تقوم على اساس ديني ولا يماثلها الا دولة الباكستان الاسلامية في الشرق ! واذ نسي اليهودي صور تعذيبه بالامس ، قد ينجح الى التحرر او التحلل من بعض القيود التي تشده الى ابناء دينه ، وتفقد اليهودية العالمية اقوى الأسس التي تستمد منها القوة ! وما دامت «الهولوكست» قد قامت ونفذت على اساس ديني فإن الحل -كما يتمسك به كل يهودي- لن يكون الا على اساس ديني . لقد احترق يهود المانيا بوصفهم يهودا ولا ينقذ اليهودي الا اهله . ولا مكان لليهودي -عند الخطر- الا دولته . ولا حل

للكراهية ضد اليهودية وللتيارات اللاسامية الا ببقاء اسرائيل وقوتها وأمنها!. » .

● قلت لصديقي الاستاذ الاميركي مقاطعا:

ـ ولكن فكرة قيام دولة يهودية في فلسطين لم تكن بالفكرة الرائجة لدى «جميع» يهود العالم في الاربعينات! أعني، كان هناك من هو اليهودي الصهيوني المطالب بالدولة اليهودية في فلسطين، كما كان هناك اليهودي المعتدل «العاقل» الذي يرفض المبدأ الصهيوني ولا يعتقد بمزايا خلق دولة يهودية في الشرق الاوسط. وكان الخلاف بين التارين قويا وواضحا. وكانت الحركة اليهودية في اوخر الثلاثينات وطيلة الاربعينات منقسمة على نفسها؟ فماذا جرى حتى توحدت هذه التيارات مرة واحدة واصبحت عملية خلق الدولة اليهودية هدف كل يهودي في اميركا وفي العالم؟

ما هو السر؟ وماذا جرى؟

واجابني «البرفسور» على الفور، وكانه يقرأ لي درسا في التاريخ:

ـ كانت حالة اليهود في اواخر الثلاثينات والاربعينات بالنسبة لقضية فلسطين والحل المطلوب للمشكلة اليهودية في العالم، تشبه تماما حالتكم انتم «العرب» في هذه الايام. !»

وفتحت عيني جيدا وملت نحوه استرق كل حرف من كلماته عن العرب، فسمعته يقول لي:

ـ في الاربعينات، وبالتحديد في عام ١٩٤١، كانت الباخرة المسماة «ستروما» تتجه من رومانيا الى فلسطين وعلى ظهرها سبعمائة وسبعين يهوديا! وكالعادة، لم يكن واحد من هؤلاء اليهود يحمل الاذن الرسمي المطلوب بالهجرة الى فلسطين فاتجهت بهم الباخرة الى «استانبول» حيث بقوا هناك لفترة قصيرة تعهدوا بعدها للسلطات التركية باستعدادهم لمغادرة المدينة الى شواطىء فلسطين! وبمجرد ان اجتازت الباخرة المياه التركية وعبرت الى البحر المتوسط اصابها لغم بحري فانفجرت وغرق كل ركابها! وقامت قيامت اليهود في بريطانيا والولايات المتحدة الاميركية، وقال العالم اليهودي الشهير «البرت اينشتاين» عن الحادثة انه «خنجر في قلب حضارتنا»! وانضمت الى الجوقة السيدة «ايليانور روزفلت» حرم الرئيس الاميركي متسائلة عن السبب الذي منع اليهود «المساكين» من التوجه رأسا الى شواطىء فلسطين!؟

واتسعت الضجة الى بريطانيا، واضطرت الحكومة البريطانية ان تصدر بيانا رسميا تفسر فيه سبب احجامها عن السماح لهؤلاء المهاجرين اليهود من الوصول الى فلسطين «لكي لا تغضب الشعوب غير اليهودية في الشرق الاوسط». ولكن الضغوط اليهودية، في اميركا وفي بريطانيا، أرغمت الحكومة البريطانية بعد ذلك على ان تعيد النظر في قوانين الهجرة التي تضمنها «الكتاب الابيض» عام ١٩٣٨ بالنسبة لليهود، وان تتساهل في موضوع السماح للبواخر المحملة بالاجئين اليهود بالدخول الى فلسطين . . ؟»

قال لي البرفسور المذكور، مستطرداً:

ـ ولعلك تعلم ان يهود اميركا قد بادروا الى محاربة «الكتاب الابيض» في اليوم الثاني من صدوره! ولعلك لم تنس ان يهود اميركا ـ المعتدل منهم والمتطرف ـ اتفقوا على ضرورة فتح ابواب فلسطين امام الهجرة اليهودية رغم ان بعضهم ـ بعض هؤلاء اليهود ـ كان ينادي بضرورة اقامة دولة يهودية في فلسطين، بينما كان البعض الآخر يعارض هذه الفكرة ويقاومها! ومن هنا بدأ الخلاف بين مختلف الطوائف والفئات اليهودية الاميركية حول الحل المطلوب يقوى ويشتد! وراح فريق من اليهود المتعصبين الاميركيين ينشر ـ وعلى اوسع المستويات ـ اخبار الجرائم النازية ضد اليهود ويطالب الحكومة بالعمل لانقاذهم. . . فورا، ويخطط للسياسة المطلوب تنفيذها بعد انتهاء الحرب، والاصرار على انشاء دولة يهودية هو الحل الوحيد، وان فرصة انتهاء الحرب ستكون الفرصة الذهبية التي يجب على كل يهودي استغلالها. . . بينما اكتفى البعض الآخر باصدار البيانات المتتالية لانقاذ اليهود من «المعسكرات» وتسهيل هجرتهم الى خارج المانيا الهتلرية سواء الى فلسطين، او الى غيرها دون اي ذكر لاسم «الدولة» اليهودية او الاصرار عليها. . »

وقال لي البرفسور مكملا حديث المقارنة والتاريخ:

ـ وامام هذا الانقسام الواضح في الجهد اليهودي الاميركي تجاه المشكلة، تنادى جميع اليهود الى عقد مؤتمر «بلتمور» الشهير في نيويورك في مايو عام ١٩٤٢! واتفق الحاضرون على ما يسمى «ببرنامج بلتمور» والذي كان يتضمن النقاط التالية:

اولا: الغاء الكتاب الابيض الصادر عن الحكومة البريطانية عام ١٩٣٨.

ثانيا: فتح ابواب فلسطين امام الهجرة اليهودية غير المشروطة!
ثالثا: تحول فلسطين الى «كومنولث» يهودي . !
● قال لي «البرفسور» وكأنه قد تذكر سراً جديداً:
ـ في ذلك الوقت كانت الحركة الصهيونية في اميركا لا تعدو كونها حركة «اقليات» داخل المجموعة اليهودية! ولكن مؤتمر «بلتمور» استطاع ان يصهر جميع اليهود في اميركا ويضعهم صفا واحدا وراء البرنامج الصهيوني العام الذي يطلب اقامة مؤتمر سياسي يهودي عام جديد يناقش المشاكل اليهودية المترتبة على انتهاء الحرب العالمية الثانية، ويضع الحلول المطلوبة لها امام مؤتمر الصلح المقبل! وعندما احس «حاييم وايزمان» ـ اياه ـ ان عددا من يهود اميركا «المعتدلين» لن يتجاوب مع المطالب الصهيونية المتطرفة ولن يحضر المؤتمر المذكور، بادر ومعه زعيم يهودي صهيوني آخر اسمه «ستيفان وايز» وطلب من المستر «هنري مونسكي» رئيس جمعية «بناي بريث» اليهودية الاميركية المعروفة الى اصدار الدعوات لعقد هذا المؤتمر اعتمادا على ما يتمتع به «هنري مونسكي» من حياد وشعبية ونفوذ لدى جميع اوساط اليهود في اميركا! ونجحت اللعبة! ولبّت الدعوة للمؤتمر اكثر من «٣٢» جمعية يهودية في اميركا! وعقد المؤتمر في يناير عام ١٩٤٣ في «بيتسبرغ» بينما قاطع المؤتمر جمعيتان هما: الجمعية اليهودية الاميركية، والجمعية العالمية اليهودية! واصدر المؤتمر بيانا في صورة «ميثاق» ينص على نقطتين اثنتين: اولا، حقوق اليهود واوضاعهم بعد نهاية الحرب. وثانيا تنفيذ وتطبيق «حقوق» الشعب اليهودي فيما يختص . . . بفلسطين! ورغم ان معظم فئات الشعب الاميركي ومنهم الجالية اليهودية، انشغلت في صيف ١٩٤٣ بانتخابات الرئاسة الاميركية الدائرة في ذلك الوقت، الا ان مقالا صحفيا واحدا فقط، ظهر في صحيفة شهرية يهودية قد ايقظ «النيام» واعاد الهستيريا الصهيونية الى سابق قوتها بين صفوف اليهود! ففي شهر يونيو عام ١٩٤٣ ظهر مقال يقول: « . . . ان العالم يجيب على صرخاتنا واحتجاجاتنا واستغاثاتنا بلغة اصدار التوصيات، والتعبير عن المشاعر والعواطف! ولكن العالم يرفض ان يتحرك من اجلنا! فماذا يفعل اليهودي في مثل هذه الحالة؟ انا اجيب! ان اليهودي ـ على كل يهودي ـ ان يتحد مع اخيه وينضم الى المؤتمر اليهودي الاميركي العام ويطالب بتنفيذ

الحقوق اليهودية في . . فلسطين» . . !

قال لي البرفسور مستطردا ومكملا قصصه التاريخية الملحة:

-وحضر المؤتمر خمسمائة عضو! واعطيت «١٢٥» مقعدا من المقاعد الى «٦٥» جمعية يهودية من الجمعيات المشتركة في الجلسة. ثم جرت عملية انتخاب لملء المقاعد الباقية. وكانت الغاية من وراء عقد المؤتمر المذكور ان يبرهن يهود اميركا، للحكومة و للعالم ان كل يهودي اميركي يؤيد البرنامج المنبثق عن مؤتمر بلتمور الاخير! وقيل يوم ذاك ان سبعين في المائة من الحضور كانوا من صفوف الصهيونيين المتطرفين، بينما لم تزد نسبة المعتدلين - غير الصهيونيين - عن ثلاثين في المائة وفي مقدمتهم حزب «اغودات اسرائيل» - فرع اميركا - وجمعية « اتحاد الحاخامات الارثوذكس» في اميركا! وقد عقد المؤتمر جلساته في القاعة الكبرى لفندق «والدورف تاورز استوريا» الشهير في نيويورك، ويعرفه كل عربي كبير زار نيويورك في الثلاثين السنة الماضية. ودامت الجلسات من ٢٩ اغسطس الى الثاني من سبتمبر من عام ١٩٤٣! وانضم الى الحضور اكثر من ثلاثة آلاف من زعماء اليهود! وسيطر اسم «فلسطين» على المؤتمر! والقى كل من ناحوم غولدمان، وستيفان وايز، وجيمس هيللر كلماتهم! وعندما حاول بعض زعماء اليهود «المعتدلين» الاعراب عن موقفهم «الوسط» حول الموضوع، انبرى لهم الدكتور «ابا هيلل سلفر» وكان من اذكى واقدر زعماء اليهود في اميركا، والقى خطابا طويلا فجر فيه آلام اليهود وعذابهم في العالم وطالب بالحل. . السريع!»

«ما هو الحل؟ الحل في ضرورة انقاذ يهود اوروبا من التعذيب! وبترحيلهم الى خارج المعتقلات؟ الى اين؟ الى حيث يجدون الامن والسلام! اين؟ في فلسطين. . وعلى ارضها! ولا سلامة لليهود ما داموا بعيدين عن فلسطين! واقامة الدولة اليهودية في فلسطين مرتبطة بانقاذ اليهود في شتى انحاء العالم! وسيبقى اليهودي معذبا ومهددا ما دام اليهودي بلا دولة وبلا وطن!»

● وعندما انتهى الدكتور «سلفر» من القاء خطابه كان الحماس قد استبد بالحضور، وسالت الدموع، ووقف الجميع ينشدون نشيد «هاتيكفا» الصهيوني الناطق بلسان الدولة المقترحة!

باختصار شديد: لقد عثر يهود اميركا يومذاك على الحل المطلوب لانهاء «العذاب» اليهودي في العالم! وذلك باقامة دولة لليهود في فلسطين!

● ترى ما هو الحل للعذاب الفلسطيني العربي في الشرق الاوسط؟

● وما هو الحل للتشرد والذبح والتهديد في داخل مخيمات اللاجئين الموزعين في انحاء هذا الشرق على يد اليهود وغير اليهود؟

سألني صديقي البرفسور الاميركي قائلا لي يومذاك:

ـ الا ترى ان هذه القصص تصلح ان تكون انموذجا سياسيا يقدر العرب الاستفادة منها او اقتباسها او التشبه بها؟؟

ثم انهى كلامه مودعا:

ـ ان الذين يعيبون على الفلسطينيين خلافاتهم الحالية، قد نسوا قصص خلافات اليهود الدامية في الثلاثينات والاربعينات! والـذين استكثروا عـلى العرب الفلسطينيين مطالبتهم بدولة فلسطينية تنقذهم من العذاب والتشرد قد نسوا ان مؤتمر «بلتمور» الشهير قد بنى حججه بضرورة انشاء الدولة اليهودية على اساس انقاذ اليهود من العذاب والتشرد! ما اشبه حالكم اليوم بحال اليهود في عام ١٩٤٢ وعام ١٩٤٣! وكل ما ينقصكم هو قراءة التاريخ جيدا واقامة مؤتمر عربي فلسطيني يشبه مؤتمر بلتمور اليهودي، ومع خطيب فلسطيني في مستوى الدكتور «اباهلل سلفر» مع ايمان يشبه المعجزة بضرورة التآلف والتآخي والاتحاد ونسيان الخلافات ودفن الاحقاد والعمل للوطن لا للاشخاص مع ارادة صادقة تستمد من عذاب الفلسطيني ومن آلامه قوة للعودة واقامة الدولة وغسل الآلام. !»

ثم سألني:

ـ قل لي: هل هذا كثير؟؟

وعندما عدت الى اوروبا من نيويورك، كتبت الى صديقي البرفسور رسالة مختصرة شكرته فيها على لقائه معي ثم انهيتها قائلا له:

ـ يا سيدي الاستاذ! ان قراءة التاريخ والدعوة الى التضامن ومناشدة زعمائنا تناسي الخلافات، قد اصبحت كلها بمثابة الدرس الذي يتلقاه تلامذتنا في المدارس الابتدائية عندنا! ولكن المهم ليس في ان نكتب لهم، وليس المهم في ان يقرأوا ما

نكتب لهم! بل المهم هو التنفيذ والتجاوب والعمل! وهذه كلها ـ يا سيدي الاستاذ ـ من المستحيلات!»

وقديما قيل : ان التشبه «بالكرام» فلاح . .

تعالوا ـ ولو لمرة واحدة ـ نشتبه، «باللئام»!

تعالوا نفهم العالم كما تفهمه اسرائيل، ونفهم اميركا كما يفهمها اليهود ونمارس «اللعبة الدولية» كما يمارسها اعداؤنا . !

بل تعالوا نفهم حقيقة الصراع العربي الاسرائيلي الذي ما زال ـ رغم الدم الكثير والحروب الكثيرة والضربات المتكررة، لغزاً يحير العرب ويجرهم ـ رغم ارادتهم ـ الى المزيد من . . . الهزائم!

يهمنا من هذا الكلام ما يلي :

اولا : ان ندرك ـ بوعي وذكاء شديدين ـ ان قضية الصراع العربي الاسرائيلي، لم تعد قضية محلية واقليمية تتعلق بيهود اسرائيل وعرب فلسطين، وانما هي قضية دولية واسعة الجوانب متشابكة الحدود وبعيدة الآثار . . !

ثانيا: ان ليس في قاموس عام ١٩٨٥ ، سياسيا وعسكريا، اي شيء اسمه معركة عسكرية «محلية» وان المنطق الذي ساد وتحكم في أواخر القرن التاسع عشر وبالتحديد في الحرب التي دارت بين موسكو وتركيا عام ١٨٧٨ ، هو المنطق الذي سيتحكم في نتائج اية معركة عسكرية ستجري بيننا وبين اسرائيل!؟

ماذا جرى في عام ١٨٧٨؟

● في عام ١٨٧٨ ، عندما استطاعت روسيا ان تهزم تركيا ووصل جيشها الى ابواب استانبول، لم تترك اوروبا لروسيا ان تقرر مصير تلك الحرب، بل دعت الى مؤتمر «برلين» الذي شاركت فيه معظم دول اوروبا والتي تولت وحدها ـ اي دول اوروبا ـ فرض شروط السلام على الدولتين بصورة سلبت من روسيا كل ثمرات النصر . !

وما جرى بالامس، سيجري اليوم، وغدا وبعد غد . .

ثالثا: ان اسرائيل التي تعتبر نفسها بمثابة الولاية رقم (٥٢) في الولايات المتحدة الاميركية، تنظر الى صراعها ضد العرب وكانه ـ وبالحرف ـ صورة واحدة من صور الصراع الدولي بين واشنطن وموسكو. . وان حرب ١٩٧٣ لم تشتعل الا بأمر من

موسكو وبسبب اعتماد العرب ـ يومذاك ـ على السوفيات . . . وان السوفيات ـ ومنذ عام ١٩٥٥ ـ هم الذين ملأوا خزائن الجيوش العربية بالسلاح والخبراء وملأوا العواصم العربية بالحماية السوفياتية، وان السوفيات ـ بالذات ـ هم الذين وقفوا ضد اسرائيل في عام ١٩٥٦، وفي عام ١٩٦٧، وعام ١٩٧٣، وان الرئيس السوفياتي «نيقولاي بولجانين» هو الذي انذر اسرائيل عام ١٩٥٦ بان وجودها القومي سيصبح في خطر ان هي مضت في حربها ضد مصر . . وان التأييد السوفياتي الاعمى للعرب هو الذي يمنع العرب من عقد السلام مع اسرائيل ولذا، «فان السوفيات يحملون مسؤولية استمرار الجو العدائي المحموم في الشرق الاوسط . . !»

رابعا: وتعتقد اسرائيل ـ بالتالي ـ ان هذا الموقف السوفياتي الودي تجاه العرب، هو الذي ادى الى تفجير التأييد الاميركي الاعمى لاسرائيل، اذ ادركت اميركا ـ والكلام لاسرائيل ـ ان الاتحاد السوفياتي يسعى لاختراق العالم العربي من اجل السيطرة على العرب . . !!

خامسا: ان التدخل الاميركي في تأييد اسرائيل ضد العرب ـ والكلام لاسرائيل ـ لم يكن ليقع لولا التدخل السوفياتي في تأييد العرب ضد اسرائيل!

سادسا: ما دام النفوذ السوفياتي قائما، فان السلام بين العرب واسرائيل، يبقى . . مستحيلا!!

سابعا: ان اسرائيل ـ والكلام ما زال لاسرائيل ـ على استعداد لان تعطي الضمانات للسوفيات بانهم اذا كفوا عن التدخل في شؤون الشرق الاوسط، فان اسرائيل ستكف عن الحاق اي ضرر بالعرب . . ! والا، فان الاصرار السوفياتي على التدخل في المنطقة لا يعني سوى اصرار اسرائيل على الحاق «المزيد» من الاذى بحلفاء السوفيات من العرب . !

ثامنا: ان احتمال الوصول الى اي حل بين العرب واليهود يعتمد في الدرجة الاولى على الاوضاع «الداخلية» في الاتحاد السوفياتي. وهذه الاوضاع (لحسن الحظ) لم تعد تسمح للسوفيات بالاستمرار في تنفيذ مطامعهم واحلامهم في المنطقة! ان التدخل السوفياتي في قضايا الشرق الاوسط يشكل العقبة الوحيدة بين السوفيات ويهود العالم . . وكل خطوة تقوم بها اسرائيل ضد السوفيات هي خطوة شرعية تدافع

بها اسرائيل عن امنها ووجودها لكي تحد من «الطمع» السوفياتي وتضع نهاية للتأييد الذي يحظى به العرب من موسكو!! والكلام كله منسوب لفلاسفة اسرائيل وحكامها! فقط لا غير. !

● وسواء بارادتنا ام رغم انوفنا، لقد أصبحنا جزءا من هذه اللعبة الدولية المجبولة باللؤم، والخداع، والدم، والصواريخ وحرب النجوم ومفاوضات جنيف، من عام ١٩٨٥. !

وكل ما عدا ذلك، كلام فارغ..

● الجامعة العربية كلام فارغ. والضمان الاجتماعي كلام فارغ! والاتفاقيات العسكرية الثنائية كلام فارغ! ومشاريع الوحدة والاتحاد كلام فارغ! ونداءات الحرب للجهاد المقدس او الجهاد الجماعي الدعائي او الجهاد الاستهلاكي المحلي، كلها كلام فارغ.. فارغ.. فارغ!

ان اللعبة واضحة امامكم، فاختاروا لكم دورا..

لا تتحدثوا عن حقوق البشر. ان في الامم المتحدة ١٦١ دولة ولم توافق على القانون الدولي لحقوق الانسان -وبشهادة الرئيس العام للصليب الاحمر الدولي في جنيف- سوى (٥٠) دولة... فقط!

لا تتحدثوا عن المواثيق والمعاهدات والقرارات الدولية. ان السيدة «كيرك باتريك» مندوبة اكبر دولة في الامم المتحدة قد قالت «كل» رأيها في المعاهدات والقرارات ومجلس الامن والجمعية العامة، عندما كانت على وشك الخروج من منصبها. اقرأوا كلامها وافهموا جيدا قيمة «عصبة الامم» موديل ١٩٨٥ !

لا تعلقوا امالا كبارا على بترولكم او اموالكم او خططكم البعيدة المدى للتنمية والبناء! ان سعر الجنيه الاسترليني أوشك ان يتساوى مع سعر الدولار! ومع ذلك ما زالت بريطانيا تسهم في صناعة القرار المصيري لهاذا العالم! وخزانة اسرائيل الخاوية، وتضخم وضعها الاقتصادي المخيف، وديونها الهائلة، لم ترغم اسرائيل - حتى كتابة هذه السطور - ان تتوقف عن بناء المستوطنات في ارض الضفة، ولم ترغمها - حتى الساعة - على الانسحاب من لبنان بلا شروط!

● ان اللعبة - واقولها للمرة الالف - هي دولية الطابع، وعالمية الاصول، وشاملة

وكبيرة وواسعة كاتساع اميركا والاتحاد السوفياتي!

وقد خطبنا ود العالم الحر، وزعيمته الولايات المتحدة، وطرقنا باب واشنطن، وتحدثنا الى «ترومان» وايزنهاور وجونسون وكنيدي ونيكسون وفورد وكارتر، ورونالد ريغان بكل آيات الولاء والمحبة والتعاون المنشود والثقة المطلقة.. ! فماذا كانت النتيجة؟؟ والى اين وصلنا؟ وماذا حققنا؟ وماذا استعدنا؟ لقد طردنا الفلسطيني من الاردن واخرجناه من لبنان وعزلناه عن سوريا وصالحناه مع مصر وشردناه في اليمن والجزائر فماذا بقي؟!

أقف هنا، كي لا يفاجئني قارىء متحمس، يحفظ شيئا من شعر «المتنبي»، او يقرأ لفيلسوف القومية العربية المرحوم «ساطع الحصري»، ويتهمني باني انادي: «الى الامام يا موسكو»، او «الى موسكو يا عرب!»

يفتح الله..

أنا مجرد كاتب صحفي اجمع الحقائق من اطراف الأرض، ثم اترك مهمة فحصها، وتمحيصها، وتقدير قيمتها، واستخراج النتائج المترتبة عليها، الى السادة النجب من عظماء العرب، وقادتهم، وحكامهم. ومنقذيهم من ورطاتهم.

وكان الله في عون... العرب... على العرب!

انا لا افرح للعرب الذين يحجون الى واشنطن محاولين المشي على خطوات غيرهم في عمليات تقليد أعمى ـ رغم النوايا الحسنة ـ دون ادراك المواقف التي تنتظرهم هناك، والظروف العدائية التي ستحيط بهم منذ اللحظة الأولى التي تهبط معها طائراتهم في العاصمة الاميركية..؟!

● عندما يجيء الحاكم الاسرائيلي الى واشنطن في زيارة رسمية، تفرد له الجرائد صفحات كاملة للترحيب به، والاشادة بالصداقة الاميركية مع اسرائيل، والتغني بالتحالف المشترك ضد النازية بالامس وضد الشيوعية اليوم، ومع ترديد عبارات الارهاب الدولي، و «العناد» العربي، والسلام المنشود، والحرية المشتركة، والديموقراطية التي تربط بين البلدين وبين الشعبين! أجل! عندما يجيء الحاكم الاسرائيلي الى واشنطن في زيارة رسمية، يبدأ الحكام في البيت الابيض او «البيت الاسود» ـ على حد سواء ـ يتحدثون عن مذابح النازية وشهداء اليهود، وضحايا

الحروب، وثمن الانتصارات، ومكافحة الظلام وتطهير العالم من العنف والدماء والتعصب والجهل. . !

اما عندما يجيء اي حاكم غير اسرائيلي الى واشنطن في زيارة رسمية فهو واحد من اثنين: اما ان يكون القادم رئيسا لدولة فقيرة من دول العالم الثالث، او يكون رئيسا لدولة غنية من دول الصناعة او البترول او دول السوق الاوروبية المشتركة؟ وفي الحالة الاولى تبدأ الصحف في نشر مقالات التدريس او التدريب الفكري والعاطفي لهذا الزائر القادم! وعندما تكون الزيارة متعلقة بالحصول على بعض القروض الاميركية، تذهب الصحف في «تلقين» الزائر المسكين دروسا في اللياقات وفي الاخلاق وفي اصول التعاون وفي شروط التحالف وكيف ان اميركا لا تعطي اموالها لمن لا يستحقها من الذين يسرقون اموال الشعوب، او يصادرون حقوق الانسان، او يحكمون بالفردية والتسلط!

● اما في الحالة الثانية، اي عندما يكون الزائر ملكا او اميرا او رئيسا لدولة من دول البترول او من دول السوق الاوروبية المشتركة او الدول التي لا تحتاج الى المال الاميركي، فعندئذ تبدأ الاوساط الرسمية في واشنطن، وتبدأ صحف اميركا، في الحديث عن الترف «والكافيار» وسيارات الرولز وقصور الف ليلة وليلة وحياة البذخ والاسراف في عبارات مليئة بالغمز واللمز واللؤم الاسود!

ترى اليست هناك حالة «وسط» بين هذين النقيضين!؟ اليس هناك حاكم او مسؤول واحد «خارج» اسرائيل ليس فقيرا معدما وليس غنيا مترفا، ولا هو بالدكتاتور المتسلط او الحاكم الفرد، وانما هو انسان مسؤول يحمل هموم امته فوق كتفيه ويذهب الى واشنطن مدفوعا بالصدق والاصالة والقلق لكي يجد من يساهم منه في ايجاد الحلول المتعلقة ببلاده واهله عند الحكام الاميركيين؟

لا. ! ومع الاسف الشديد. . الف لا!

اذ ان مثل هذا الحاكم ليس موجودا في قاموس حكام واشنطن! لان كل حاكم غني هو في نظر واشنطن، حاكم مسرف! وكل حاكم فقير هو في نظر واشنطن حاكم شحات! والحاكم الاول في قاموس واشنطن ليس بالحاكم الجاد، والحاكم الثاني في ذلك القاموس ليس بالحاكم الحر! وفي واشنطن تضيع المقاييس. وفي واشنطن

تختلط الاوراق! ويصبح صعبا عند واشنطن ـ في الكثير من المناسبات ـ ان تجد فرقا بين زيارة رسمية يقوم بها حاكم الباكستان وزيارة يقوم بها سلطان بروناي! كلهم شرقيون! وكلهم مسلمون! وكلهم «لا يؤمنون بالديمقراطية!» وكلهم يتزوجون اكثر من امرأة واحدة! وكلهم يحاولون جر واشنطن الى مستنقع مشاكلهم وقضاياهم! وكلهم غرباء واجانب ولا يحملون لاميركا الا الحقد والكراهية!

● تلك هي الصورة المؤلمة التي يراها اي مسؤول عربي ـ والمسؤول العربي من اي بلد جاء، هو كل ما يهمنا من هذا الحديث ـ عندما يجيء الى الولايات المتحدة الاميركية! الجد المخلوط بالهزؤ مع الحفاوة المجبولة بالشك، مع ترك العنان لاقلام اسرائيل وصحافتها المتنفذة في الشارع الاميركي ان تنشر على طول الصفحات الكاملة وعلى عرضها اعلانات مسمومة ومسعورة تطالب ذلك الضيف العربي الكبير بان يعلن فورا اعتراف بلاده باسرائيل، وان يمنع حكومته ـ فورا ـ من التحامل على اسرائيل، وان ينسى فلسطين واهلها وقضيتها ومأساتها لكي يعيش اليهود ـ كما كانوا في العصور القديمة ـ حسب زعمهم ـ في وئام وسلام مع اخوانهم العرب. !

مأساة وجليطة وقلة زوق وافتقار الى أبسط قواعد الضيافات ومستلزماتها واصولها.

يضاف الى كل ما تقدم، شعور المسؤول الاميركي «بالعجز» عن ان يفعل تجاه مشاكلنا اي شيء. . !

● هناك الشعور «بالقرف» ثم هنا الشعور «بالعجز». . !

وعندما يذهب اي مسؤول عربي الى واشنطن ويطالب رونالد ريغان بضرورة توجيه الضغط الاميركي الى اسرائيل بقصد ارغامها على التراجع والتفاهم، نسمع رونالد ريغان ـ وقد سمعته بنفسي واكثر من مرة واحدة ـ يطالب ذلك المسؤول العربي، او اي مسؤول عربي آخر، بضرورة الاعتراف العربي باسرائيل، واعلان القبول بالقرار «٢٤٢» والجلوس مع اسرائيل على مائدة المفاوضات المباشرة. !

من هنا تبدأ المأساة. !

فالعربي لا يريد ان يفهم بان اميركا لا تريد ولا تقدر ان توجه اي ضغط سياسي

او مالي او عسكري الى اسرائيل! ورونالد ريغان يعلم، ثم يتظاهر بانه لا يعلم بان أي مسؤول عربي يبقى عاجزا عن تلبية الطلب الاميركي والاعتراف باسرائيل وقبول القرار «٢٤٢» ومفاوضة اسرائيل كشعب من اللاجئين الفلسطينيين بدلا من مفاوضتها كأمة واحدة تريد ان يصبح للفلسطيني دولته وكيانه واستقلاله!

حوار كحوار الطرشان.

ونقاش كنقاش الحكماء الثلاثة المشهورين الذين لا يسمعون ولا يتكلمون ولا ينظرون.

● وما دام التفاهم قد اصبح مستحيلا في مثل هذه الظروف، فليس أقل من الاتفاق عن نقاط الاختلاف. . او الاتفاق على الاختلاف، مع عدم السماح للنتائج المترتبة على هذا الخلاف ان تكبر او تتسع او تؤثر على علاقة اميركا بمختلف الدول العربية!.

وبعد هذا، فلا شك مطلقا ان اميركا دولة كبرى تجيد ممارسة أحلى واكبر انواع المظاهر الاحتفالية عندما يجيء اليها كبار الزوار.

ولكن هذا كله شيء. . والتنازلات المطلوبة او المساعدات الرئيسية. . او التفاهم الحقيقي على النقاط المطروحة، شيء آخر!

ان اليهود هم اقل شعوب العالم تفوقا في فنون السياسة او التميز بها، هكذا يقول عالم منهم اسمه ـ مارك توين ـ وشهرته تطبق الافاق! ولكن الديبلوماسية الاميركية قد خلقت لليهود كل المعجزات القادرة على ان تنقلهم من نصر الى نصر، ومن مجد الى مجد! ورغم ان رونالد ريغان لم يفز من الصوت اليهودي في انتخابات ١٩٨٠ أكثر من «٣٥» في المائة، وهو بالظبط ما حصل عليه في الانتخابات لأخيرة، وان اغلبية يهود اميركا ما زالوا ينعمون بالولاء للحزب الديمقراطي المناهض لحزب ريغان، الا ان رونالد ريغان وقد بلغ من العمر ما بلغ، وذاق من خداع اليهود ما ذاق، ما زال احرص رؤساء اميركا ـ سابقا ولاحقا ـ على تأييد اسرائيل والارتماء في احضان الصهيونية والتصدي للحقوق العربية بلا كلل ولا حياء! لماذا؟ لان اميركا ترى في اسرائيل حليفا رئيسيا يشبه كوريا الجنوبية، لا مجرد صديق عابر، بينما لاميركا اصدقاء كثر بين الدول العربية! وهذا هو الفرق!

ـ هنالك شيء «غلط» في الادارة وفي السياسة وفي «الرجل»! هكذا يقول المعلقون! هكذا تقول الصحف! هكذا يهمس الاصدقاء. والى ان يكتشف المسؤول العربي هذا الخطأ، ويعترف بوجوده، ويتحاشاه، ولا يبني الآمال الكبار، ويعالجه، ستبقى القضية العربي تدور في دوامة.. بلا حل ولا قرار ولا نتيجة!.

لقد أدرك أعداؤنا ذلك الشيء «الغلط»، ورتبوا حساباتهم على اساس هذا الادراك، وحشدوا امكانياتهم ووحدوا صفوفهم لمواجهته والتغلب عليه.

فمتى نفعل ما سبقنا اليه اعداؤنا؟

متى نتشبه باللئام ويصح القول:

ـ إن التشبه باللئام .. فلاح؟

وجهت هذا السؤال في ذات يوم الى الشريف عبد الحميد شرف، رئيس وزراء الاردن الاسبق فاجابني بصراحته المعهودة قبل وفاته باسابيع قليلة:

ـ نحن وصلنا الى اسوأ زمن في تاريخ العرب! لقد سبقنا أعداؤنا اليهود في التشرد والضعف والاستسلام في القرون الوسطى! ولكن غيرنا ادرك اسباب مصائبه فعالجها بالصبر والتأني والأستمرارية والعزيمة! اما نحن فما زلنا نحفظ قول الشاعر العربي في الجهل والجاهلية:

الا يجهل أحد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا!

رحم الله عبد الحميد شرف..

خـاتمة

لست رئيساً لجمهورية السودان كي أزعم قدرتي على تطبيق «الشريعة» جرياً وراء الحل المطلوب للجوع والفقر والقحط وأزمات الحكم!

ولست في منصب مفتي الديار المصرية لكي أصدر بياناً بمثابة الفتوى التي تتيحُ لأنور السادات ان يعقد صلحاً منفرداً مع إسرائيل!.

ولست من أقطاب حركة «أمل» في لبنان لكي استبيح دم اللاجئين الفلسطينيين ـ نساء واطفالاً ـ باسم الدين دفاعاً عن الأسلام. . !

ولست «آية» من آيات الله في ايران لكي أخوض حرباً ضد العراق واشغل نفسي وبلدي والمسلمين والعرب بحرب مدمرة لم يستفد منها الا اليهود، ولم تعد على المسلمين، والفلسطينيين، والمسجد الاقصى، والسمعة الاسلامية، الا بالويل والشر والمصائب والخراب!

وكذلك. .

لست من الذين يحبون الوعظ والأرشاد، أو الذين يعجبون بارتداء عمامة التقى والورع، أو الذين يختارون الأبراج العاجية التي يطلّون منها على البشر وكأنهم جزء من السماء او معجزة رابضة فيها وراء الغيب، للتفضّل علينا ـ على القراء العرب ـ بفكرة عجيبة لتوفيق الحكيم أو قصة «طويلة جديدة» يكتبها نجيب محفوظ أو قصيدة عصماء للشاعر الموهوب مانع سعيد العتيبة!

وكذلك: ليس اسمي عبد الكريم قاسم في العراق، او حسني الزعيم في دمشق أو أنور السادات في مصر، أو السلطان باي تونس، أو قابوس، أو الأمام بدر في اليمن، أو فلان في حضرموت، أو عبد الحكيم عامر في القاهرة، لكي أشعر بوخز الضمير تجاه ما ساهمت به في إذلال أمتي، واكتشف لها عن اسباب التدهور ثم أدلها على طريق الخلاص. . !

لا لكل ذلك! ولا عن كل ذلك! ولا بكل ذلك!

أنا مجرد مواطن مقدسي، أضاع له العرب بلده، وأزلّوا له عروبته وسمحوا للعدوّ بتدنيس مقدساته، وأفقدوه ماله وارضه، وشردوا له أهله، واحالوا نهاره ليلاً داكن الظلام، وجعلوا سمعته كعربي وكمسلم، مضغة في فم العالم، فأصبح من حقه - من حقي - ان اعيش والسؤال الكبير مُعلق فوق فمي:

- لماذا وصلنا الى هنا؟!

وانا، وان كنت أملك حق السؤال، وإملك كذلك الجرأة، مع القدرة على شرح الأسباب التي تقف وراء السؤال الا اني سأبقى عاجزاً عن ان اصف الدواء المطلوب للتغلب على كل هذه الاوبئة ومصارعة الحاضر الرديء من أجل خلق مستقبل أقل شراً واكثر خيراً. !

لقد شاءت ظروف عملي الصحفي أن أكتب فصول هذا الكتاب في مواعيد متباينة، وشهور متباعدة ولا يجمع بينها سوى خيط واحد وحيد، ولو انه متعدد الجوانب، كثير الأطراف:

خيط من الغضب على الذين ضاعوا واضاعونا معهم. !

وخيط من المرارة تجاه واقع عربي مهترىء يسير من سيء الى اسوأ، ومن فضيحة الى نكبة، ومن شر جزئي الى شر عام. !

وخيط من الألم بسبب عجزنا عن ان نوقف التدهور لكي نبدأ في الصمود ثم الصعود من جديد.

وخيط من الدهشة تجاه الذين أصبحوا كالجثث العفنة ولكنهم لا يملكون القدرة على الشم، ولا يملكون القدرة على الحس، ولا يملكون القدرة على العمل. !

وخيط من الأرادة على ان أصرخ بقلمي، وأستغيث بلساني، وابكي بدمي،

وان أملك الحق في ان لا أتساوى مع آغوات الاتراك الذين كلما انهالت الضربات فوق رؤوسهم، استقبلوها بالشكر والامتنان وهم يصرخون سعداء:

ـ أمان افندم. . أمان!

هذا الكتاب اهديته لمن «لم» يحضر بعد، لأنه «لم» يولد بعد، و «لم» يساهم في الهزيمة، و «لم» يتحمل وزر النكبات، و «لم» يبصر النور و«لم» يعرفه الناس، و«لم» يتقاعس، و«لم» يخاتل، و«لم» يجامل، و«لم» يقلد القرود الثلاث التي لا ترى، ولا تسمع، ولا تتكلم!

ذلك اني اردت لهذا القادم المجهول من عالم الغيب، وبعد عشرات السنين ان يقرأ هذه السطور ويعرف منها لماذا لم ترجع فلسطين، ولماذا احترق منبر الأقصى، ولماذا احتلت القدس وتفتت العرب وتصارع المسلمون وخرب لبنان وافلس البترول واستحلت اسرائيل الشرق الأوسط بسمائه وبحوره ورماله وانهره وشواطئه وبلدانه من المحيط الذي كان يهدر الى الخليج الذي لم يعد يثور. !

تماماً، كما سبق وكتب غيرنا عن سقوط الاندلس قبل ستمائة عام، وعلمونا ـ من خلال الشعر والأدب والتاريخ والدموع ـ كيف ولماذا ضاعت قرطبة، وسقطت غرناطة، واحتل مسجد الحمراء، واحترق المسلمون، وبكى عبدالله الصغير وصرخ الشاعر الاندلسي من اعماق قلبه وهو يصف تلك الحال الرديئة:

لاجل هذا يذوب القلب من كمدٍ
ان كان في القلب اسلام وايمان!

وسلام على «الاندلس» التي قدرت ان تمدّ في عمر مأساتها عبر مئات السنين، وان تعيش معنا في نكباتها وضرباتها ودموعها ومواعظها، وان تبقى مع العرب والمسلمين حية ومستمرة ومتأججة وباقية، ولو أنها أخذت لنفسها صوراً اخرى، واسماء جديدة، وملوك آخرين، ورؤساء جدد، وممالك قريبة، فاذ بالمسجد الأقصى يحل محل مسجد الحمراء، واذ بالقدس تصبح قرطبة أخرى، واذ بالنار التي حرقت المصلين في الاندلس هي النار التي حرقت المسلمين في ساحة المسجد المقدسي الذي بارك الله حوله واذ بملوك «الطوائف» يصبحون أعضاء عاملين في جامعة الدول العربية، في القاهرة التي عزلها اليهود، ثم في تونس التي ضربتها اسرائيل. ؟!

. . وجاء اسم الكتاب : لماذا وصلنا الى هنا؟!

وعلى ضوء هذا الحاضر الدنس ، والواقع المبكي ، والوضع المهلهل كان اجدر بي ان اسميه : لماذا لم تصل الى اسوأ من هنا؟

فمنذ شهور طويلة ونحن -أصحاب الأرض الضائعة والوطن المسروق- نتباكى على السلام الذليل عند عتبات البيت الأبيض في واشنطن ورئاسة الوزراء في دولة اسرائيل .

ومنذ شهور طويلة ونحن نطرق ألأبواب ، ونستجدي أالأعتراف ، ونعطي التنازلات فلا نسمع من الذين سرقوا منا الوطن وشرّدوا الشعب واذلّوا الحاضر سوى الرفض والتعالي والشروط العنترية مع ألاتهامات والشتائم !

وأغارت اسرائيل على مقر منظمة التحرير في تونس بينما الرئيس الأمريكي ريغان منهمكاً -كما حدثنا صاحب السمو الأمير سلطان بن عبد العزيز- في وداع سفيرته الجديدة لدى ايرلندا ، فلم يشغل نفسه بالحادث كي لايشغل نفسه عن سفيرته ، واستغل المستشارون الظرف وصدر البيان التأييدي للغارة فكان أشبه بباقة ورد حمراء قدمتها امريكا للفلسطينيين والعرب كي تشكرهم على اهتمامهم بمساعي السلام .

وفي أخر لقاء لي ، مع صديقي الشاعر والسياسي والأديب الراحل عبد المنعم الرفاعي في لندن قبل وفاته باسبوع واحد ، دار الحديث بيننا عن هذا الغموض الرهيب الذي يكتنف عملية البحث عن السلام مع اسرائيل ، فأجابني «أبو عمر» بأسلوبه المعروف :

- لعلك أنت الرجل الوحيد الذي لا يشعر بالسعادة تجاه مثل هذا الغموض حول السلام ! فالكلّ سعيد ! وجميع الأطراف في فرح دائم ! هل تريدني أن أفسر ؟ رجال المنظمة سعداء لأن التطويل في عملية السلام يحفظ لهم الغطاء الشرعي الذي يتمسكون به في وجه خصومهم الأخرين في دمشق، وفي وجه دمشق نفسها . ودمشق سعيدة بالموقف الحاضر لأنها تطرب من ترديد كلمة «لا» ومعارضة السلام باسم المصلحة العامة ! وعمان سعيدة لأن الاستمرار في عملية السلام لايقفل أمامها أبواب واشنطن للحصول على السلاح والقروض! ومثلها اسرائيل

التي يهمها ان تستمر عملية البحث عن السلام لكي تستمر اسرائيل في طلب المال وطلب السلاح وتستمر واشنطن في تأييدها للحكومة الائتلافية القائمة ، والقاهرة سعيدة بالاشتراك في هذه التمثيلية السياسية لأن السلام هو الباب الوحيد الذي يبقى أمام مصر للعودة الى العرب ! واميركا سعيدة بالتطويل لأن التطويل يحفظ للمبادرة الاميركية -إياها- عمرها وتبقى حية في أزهان العالم!»

وسألني عبد المنعم :

- فما الذي يزعجك يا صديقي من هذا الغموض الذي تراه حول عملية السلام. . . . او التطويل العجيب في مراحلها ؟

قلت له : يزعجني صور الذلّ العربي التي تتكرر مع صباح كل يوم ، ونراها مرتسمة في التصريحات والمقابلات والرحلات . كما تزعجني صور ألافتراس الصهيوني لكل ما بقي في «الضفة» من أرض ، وشعب ، وماء ، ومال. . . »

فقاطعني أبو عمر ، هامساً :

- هوّن عليك ! ان ما نراه بأعيننا في هذه الأيام الرديئة يكاد يشبه الأساطير ! ويأتي «أبو عمار» لزيارتي في عمان مع ساعات الليل الأخيرة ويحدثني قصصاً أكاد بعد سماعها اشك في نفسي ! ان المطلوب منا يا صديقي أن نعيش -فقط- لكي نرى العجب ، ونسمع العجب ، ونكتب العجب . !»

ولكن اليأس القاتل قد أستبد بقلب «عبد المنعم» وسرق منه نبض الحياة وحرمه ان يرى المزيد ويسمع المزيد ويكتب المزيد .

سألته وأنا أودعه :

- وما هو الحل يا «منعم» ؟

وأجابني رئيس وزراء الأردن الأسبق على باب فندق الدورشستر بلندن :

- سنبقى في تقهقر مادام حكامنا أضعف من قضايانا ، ومادام زعماؤنا أصغر من مشاكلنا . !»

ثم راح يردد بيتاً من الشعر، لم أستطع ، لفرط ماأصاب صاحبي من يأس قاتل ، ان اسمعه ، أو أحفظه ، أو اردده !

واخيراً ..

لقد استطاعت الضربات التي سقطت فوق رؤوسنا على مدى السنوات الاربعين الماضية ، ومنذ قيام اسرائيل حتى يومنا هذا ان تذهب بكل مقاييس المنطق والفهم من عقولنا . ولم نعد ـ وللاسف الشديد ـ نفهم معنى للوقت وقيمة للحادث ووزناً للموقف ! واختلطت علينا الاوراق فلم نعد ندري ـ بعد مقتل اي عربي في الداخل او في الخارج ـ من هو القاتل الحقيقي ، ومن هو المستفيد الحقيقي من عملية القتل ! ؟ وعندما بدأ « الغزل » السياسي بين الاردن والمنظمة ، استنفدنا عاماً كاملاً من عمر نكبتنا واحتلال العدو لارضنا قبل ان يعرف الاردن ان المنظمة لا تريد الموافقة على القرار ٢٤٢ ، وتعرف المنظمة ان الاردن يريد الاعتراف بالقرار ٢٤٢ ! مهزلة مكشوفة إستطاع خلالها العدو ان يزيد عدد المستوطنات الجديدة في الضفة المحتلة عشرات وعشرات ، وان يحطم آخر ذرّة من معنويات الفلسطينيين المقيمين كالاسرى في الضفة الغربية !

لماذا وصلنا الى هنا .. ؟

العجب العجاب ان لا نصل الى هنا ! فباسم فلسطين والاسلام تجري المذابح في اليمن الجنوبي ، وتخطف البواخر في البحر المتوسط ، وتحرق الفنادق في منطقة الهرم ، ويطعن استقرار الكويت ، ويحرق بترول العرب ، ويخطف الصحفيون الاجانب وتنسف المخازن في قلب باريس ونكسب عداء كل البشر في اوروبا وامريكا !

وفي الثلاثينات وضع احد فلاسفة العلم السياسي في بريطانيا كتاباً عن الانجليز بعنوان : الانجليز .. وهل هم بشر ؟

هل عندكم فيلسوف عربي يؤلف كتاباً مماثلا عن العرب ويجعل عنوانه :

ـ العرب .. وهل هم بشر !

رحمتك يارب ...

انتهى

فهرس

الفصل الثالث عشر:

الفصل الرابع عشر:

الفصل الخامس عشر:

الفصل السادس عشر:

الفصل السابع عشر:

الفصل الثامن عشر:

الفصل التاسع عشر:

الفصل العشرون:

من كتب المؤلف

- شباب محموم ـ القدس ١٩٤٩ (نفذ).
- «خطوات في بريطانيا» ـ القدس ١٩٤٩ (نفذ).
- «عندما دخلوا التاريخ» ـ بيروت ١٩٥٦.
- فلسطين والوحدة ـ القاهرة ١٩٥٩.
- ماذا جرى في الشرق الاوسط (٤ طبعات) بيروت ١٩٦٠.
- تذكرة عودة ـ بيروت ١٩٦١.
- قصص وأصحابها ـ بيروت ١٩٦٢.
- حفنة رمال ـ بيروت ١٩٦٤.
- عربي في الصين ـ القاهرة ١٩٦٥.
- سفير متجول ـ بيروت ١٩٧٠.
- لا رمل ولا جمل ـ باريس ١٩٧٦.
- الحبر أسود. . أسود ـ باريس ١٩٧٧.
- من قتل الملك عبدالله ـ الكويت ١٩٨٠.
- صلاة بلا مؤذن ـ بيروت ١٩٨٠.
- هل تعرفون حبيبتي؟ لندن ـ ١٩٨٢.
- قصتي مع الصحافة ـ ١٩٨٣.
- المرأة تحب الكلام! ١٩٨٥
- حديث الكبار. ١٩٨٦.

يصدر قريباً

- من أوراق الشرق الأوسط
- آخر العمالقة جاء من القدس. «قصة موسى العلمي»
- في مملكة النساء.
- نساء من الشرق الأوسط
- الجدران لها آذان.

" Limaza Wasalna Ila Huna? "
Why Have We Reached Here?
by
Nasser El-Din Nashashibi

I.S.B.N.: 84-599-1393-7
Depósito legal: M-11881-1986
Printed in Spain by
NOVOGRAPH, S. A. - MADRID
تمت عملية صف الاحرف
في شركة « لانا Lana » في لندن

المؤلف :

لقد عاش ناصر الدين النشاشيبي النكبة « الكبرى » يافعـ
عايشها يوما بعد يوم من خلال الاحداث المصيرية في قصور الحـ
أروقة القمم السياسية وفي مجلس كبار الزعماء والحكام وساحات ا
والثوار .

وفي هذه الصفحات يروي الكاتب المقدسي الكبير فصولا مثيرة من مأساة السياسة العربية التي عرفها عن كثب بكل خباياها وأسرارها كاشفا بذلك كيف ولماذا وصلنا الى هنا.

« الناشر »